

كارين أرمسترونغ

الله والإنسان

على امتداد ٤٠٠٠ سنة من
ابراهيم الخليل حتى العصر الحاضر



جمعة محمد الجورا



دار الحساب

الله والإنسان

- - الله والإنسان
- - كارين أرمسترونغ
- - دار الحصاد للنشر والتوزيع
- سورية - دمشق - يرامكة
- هـ ، فاكس : 2126326
- ص. ب : 4490
- - الطبعة الأولى : 1996
- - جميع الحقوق محفوظة

كارين آرمسترونغ

الله والإنسان

على امتداد / ٤٠٠٠ / سنة من
ابراهيم الخليل حتى العصر الحاضر

ترجمة محمد الجورا

الفهرس

٩	المقدمة
١٧	الفصل الأول : في البداية
٥٣	الفصل الثاني : إله واحد
٩١	الفصل الثالث : نور إلى غير اليهود
١١٩	الفصل الرابع : الثالث:الإله المسيحي
١٤٣	الفصل الخامس : الوحدة: إله الإسلام
١٧٧	الفصل السادس: إله الفلاسفة
٢١٥	الفصل السابع : إله المتصوفين
٢٦١	الفصل الثامن : إله المصلحين
٢٩٧	الفصل التاسع : عصر التنوير
٣٤٩	الفصل العاشر : الله في القرن التاسع عشر
٣٧٩	الفصل الحادي عشر : الله والمستقبل
٤٠٣	هوامش الكتاب

منذ بدأت خطوات الإنسان الأولى في البحث عن سر الكون وإيجاد تفسير له راح يفكر بخلقه، وشيئاً فشيئاً راح يطور مفهومه عن هذا الخالق المدبر، أي الله. وحين بلغ مفهومه عن الله ذروة الكمال وبالتالي ذروة التعقيد بدأ يغوص في مستنقع الخلافات حول هذا المفهوم الذي كوّنه. وبدأت الأسئلة تتوارد:

ما طبيعة الله؟ وما ماهيته؟ أين يقيم؟ أيقم في السماء؟ أم في الأرض؟ أم أنه يقيم في الأعماق العميقة داخل الإنسان (الدنيا كلها لاتسعني إنما يسعني قلب عبدي المؤمن)؟ ما سلوك الله وما صفاته؟ ورغم وجوده الكلي يتساءل المفكرون عن كيفية التثبت من وجوده. وحين يتساءل المفكرون فهذا يعني ان ثمة تنوع كبير في الإجابات يقدر تنوع الاتجاهات الفكرية واللاهوتية الدينية واللادينية، اليهودية، المسيحية، الإسلام وحتى في البوذية وفلاسفة اليونان والوثنية. ويزداد تنوع الإجابات وتباينها بابتعاد الزمن عن البداية وازدياد حلقات التاريخ ومنعرجاته المثيرة وتطور آلية التفكير وتفاعلها مع المستجدات التاريخية. وحالاً بدأت المسيحية تفرض وجودها على المسرح العالمي وتعني به مسرح الرومان، بدأ التساؤل حول طبيعة الرب يُحدث شرخاً بين أتباعها فمن قائل بأنه ذو طبيعة واحدة إلى آخر يقول بالطبعتين. ويتعاطف جبروت الكنيسة، «الغريبة» منها تحديداً، راح العنف وحده يفرض نوع الإيمان وأريق دماء كثيرة من أجل ذلك وبقصة غاليليه مع الكنيسة يخيم ظل قائم على مشاريع العلم.

وما أن يتجاوز الإسلام شوطه الأول حتى راح مفكروه من لاهوتيين وفلاسفة يجابون في رؤاهم عن الله وترداد رقعة التباين بدخول فريق الصوفية إلى الميدان. وهكذا يتلى المكان بآب سينا والغارابي وابن رشد وأبو بكر الرازي ثم ابن حنبل والأشعري وابن عربي والشهروردي... وبينهم الحلّاج على قمة أشياعه من المتصوفين. وتبدأ اليهودية في الخروج من عزلتها القديمة لتتخرط في المكان وينخرط الكثيرون في الساح وراحوا بعد احتكاكهم بمفكري الإسلام يخفّفوا من شخصانية الله القديمة، الغاضبة، القاسية والتي تأمر أنبيائها بذبح جميع السكان الذين هم من غير أتباعهم.

شيئاً فشيئاً راحت تتداخل بكثافة رؤى المفكرين من شتى مذاهبهم نحو الله. وراح الاحتكاك بين الجميع يُسرّع في خلق رؤى جديدة.

ومع توما الأكويني بدأت المسيحية الغربية العنيفة تظهر ميولاً نحو العقلانية وإعادة التوازن لكن ما أن حلّ القرن التاسع عشر حتى احتل التوازن من جديد في قلب المسيحية الغربية، إنما

في الاتجاه المعاكس هذه المرة. فقد بدأ فلاسفة بالخروج على التاموس داعين إلى إلغاء سيطرة الله المطلقة على البشر وسعى بعضهم إلى نفي «الله» حتى لو كان موجوداً. وفي الشتات راح مفكرو اليهودية يطورون نظرتهم إلى الله وكان تجرى أحداث التاريخ فعله في عقولهم. فمع شيتاي زيفي الذي أعلن نفسه مسيحهم المنتظر تناغمت قلوبهم مع المخلص، مع الإلهم الذي يرعاهم فزاعمت أهباسهم بشكل خطير. وفجأة يتحول كل شيء باستسلام شيتاي هذا أمام السلطان العثماني وإعلان إسلامه. إنها الصدمة العنيفة التي دعت الكثيرين منهم إلى التفكير بحقيقة الله. وإذا كان أبواب الكنس اليهودية وأحبارها قد تبرؤوا من فيلسوفهم سبينوزا ولعنوه إلى يوم الدين فإن الكثيرين منهم أعادوا الحديث بجذبة عن حقيقة الله ووجوده وتساءلوا عنه مع إيليا ويزل الذي كان كل إيمانه وكل معاشه من أجل الله في طفولته قد ولى إلى الأبد مع حرق أمه وأخته في محرقة الغستابو النازية. وحين رأى ويزل ذلك الصبي الصغير ذي الوجه الملائكي الذي أصعد إلى مشقة الغستابو وعينيه مملوكتان بالحزن، حينها تساءل مع ذلك السجن الواقف خلفه: أين الله؟ أين هو؟ ومع مرور نصف ساعة من تعذيب الطفل قبل أن يموت وإجبار السجناء على النظر إليه وجهاً لوجه، سأل الرجل ثانية أين الله؟ حينها تهاذى صوت من داخل ويزل مجيباً: أين هو؟ هاهو هنا.... معلق هنا على هذه المشقة. لقد جاء الرعب من معتقل أوشفيتز لهتلر تمهداً صارخاً للكثير من الأفكار التقليدية عندهم حول الله. تساءلوا: لو أن الله كلي القدرة لمنع الهولوكوست وإذا كان غير قادر على إيقافه فإنه عاجز ولا فائدة منه. وإن كان بإمكانه إيقافه ولم يفعل فإنه

وإذا كان الإسلام والأديان الأخرى المقيمة في الشرق في منأى عن هذه التطورات فإن اليهودية والمسيحية الغربية تعرضتا لاهتزاز لاهوتهم التقليدي بشكل خطير جراء تلك التطورات العنيفة. واستمرار بعض اليهود في معتقل أوشفيتز في دراسة التلمود وممارسة الاحتفالات التراثية لم يكن لأنهم كانوا يأملون أن الله سوف ينقذهم بل لأن ذلك كان ذا معنى بالنسبة لهم.

إنها المأساة التي عاشها الغرب وشدهت عقله فهل يستطيع إعادة التوازن من جديد بين الروحي والديني؟

لا يقف هذا الكتاب عند هذا التنوع الذي ألقينا إلى جوانب محدودة منه في هذه المقدمة، بل يأتي على التساؤل حول المستقبل مستقبل البشرية ودينها والله ومدى الحاجة إليهما رغم كل الافتراضات. بهذا يقدم للقارئ نظرة شمولية يسعى لاستخدامها إضافة إلى ما يمتلك من ذخيرة إلى تكوين نظرة معرفية تملو بقدر ما يشحذ همته على الأخذ من جماليات كل الطرق لبيتين طريقه الموصلى إلى بر الأمان.

ويبقى أن ننبه إلى ضرورة أن يعالج القارئ كل ما يقرأه هنا بترؤ بعيد النظر فيه المرة تلو المرة وأن يشحذ همته في البحث والتقصي ليعني لنفسه عقيدة صلبة تقوم على متانة الوعي والإدراك.

ولا يفوتنا في النهاية من الإلماح إلى أن غايتنا في تقديم هذا الكتاب للقراء تتمثل في تعرفنا على كيفية التفكير الغربي وأسلوبه وبأي اتجاه يتطور عسى وصل ذلك يجنبنا الشطط وانعدام التوازن.

الناشر

مقدمة

عندما كنت طفلة كانت لدي معتقدات دينية راسخة، لكن إيماني بالله كان محدوداً. هناك فارق بين الاعتقاد بمجموعة من القضايا وبين الإيمان الذي يمكننا من أن نضع ثقتنا بها. أمنت ضمناً بوجود الله، وأمنت أيضاً بالوجود الحقيقي للمسيح في القربان المقدس Eucharist وبفعالية الأسرار المقدسة وباحتمالية اللعنة الأبدية وبحقيقة المطهر الموضوعية. على أية حال، لا يمكنني القول أن اعتقادي بهذه الآراء الدينية حول طبيعة الحقيقة النهائية أعطاني ثقة كبيرة بأن الحياة هنا على الأرض كانت خيرة أو مفيدة. فطفولتي الكاثوليكية الرومانية كانت بالأحرى عقيدة مخيفة. وقد صورها جيمس جويس تماماً في كتابه (لوحة الفنان شاباً): استمعت إلى نصيبي من مواظب نار جهنم. في الواقع بدت جهنم حقيقة أكثر قوة من الله لأنها كانت شيئاً باستطاعتي تخيله. بالمقابل كان الله شكلاً ظلياً محدداً بتجريدات فكرية أكثر مما عرفت في صور. عندما قاربت الثامنة من عمري كان لزاماً عليّ أن استظهر الإجابة الفورية على السؤال التالي: «ماهو الله؟» فأجيب: الله هو الروح العليا، الذي يوجد لوحده من ذاته، وهو لا نهائي في الكمال. ليس في الأمر غرابة إذا قلت أن ذلك كان يعني لي القليل، وأنا مضطرة أن أقول أنه ما يزال يتركني باردة. لقد بدا على الدوام تعريفاً جافاً أحادياً مبطلاً وضبابياً. ومنذ بدأت هذا الكتاب غلوت أعتقد أن هذا التعريف غير صحيح أيضاً.

بينما كنت أكبر أدركت أن في الدين أكثر من مجرد الخوف. قرأت حياة القديسين والشعراء الميتافيزيقيين ت.س.إليوت T.S.Eliot وبعضاً من كتابات المتصوفين الأكثر بساطة. فبدأت أتأثر بجمال الطقس الديني. مع أن الله بقي بعيداً - شعرت أنه كان بالإمكان أن أنفذ إليه، وأن الرؤيا ستغير الحقيقة المخلوقة بأكملها. كي أقوم بهذا دخلت سلك الكهنوت كمتربة وراعية شابة فتعلّمت الكثير حول الدين، ونذرت نفسي للدفاع

عن العقائد المسيحية، والكتاب المقدس، واللاهوت وتاريخ الكنيسة. نَقَبْتُ في تاريخ حياة الرهبنة وبارشت في نقاش دقيق للنظام المتبع في سلكي الذي كان يملئ علينا الحفظ غيباً. وما يدعو للفرابة أن الله نادراً ما صُوِّرَ في أي من هذه الميادين، إذ بدا الاهتمام مركزاً على تفاصيل ثانوية وعلى الجوانب الخارجية من الدين. صارعت نفسي في الصلاة محاولة أن أجبر عقلي على ملاقة الله لكنه بقي مراقباً عنيداً يرى كل انتهاك أقوم به للنظام، أو غالباً بشكل معذب، وكلما قرأت المزيد عن نشوة القديسين كلما ازداد إحساسي بالإخفاق. كنت مدركة تعة أن التجربة الدينية اليسيرة التي تلقيتها قد صنعتها بنفسني حينما كنت أعمل على مشاعري ومخيلتي. أحياناً كان الإحساس بالولاء استجابة جمالية لجمالية الإنشاء الغريغوري وللطقس الديني. لكن لا شيء حدث لي فعلاً من مصدر خارج نفسي ولم أُلح أبداً الله الذي وصفه الأنبياء والمتصوفون. يسوع المسيح الذي كنا نتحدث عنه أكثر مما كنا نتحدث عن الله بكثير بدا لي في فترات لاحقة شخصية تاريخية محضبة يحيطها التعميد، وبدأت تساورني شكوك كبيرة حول بعض معتقدات الكنيسة. كيف يتسنى لأي امرئ أن يتيقن من أن يسوع كان هو الله مجسداً، وما يعنيه هذا الاعتقاد؟ هل العهد الجديد يعلم حقاً الاعتقاد المحكم - والمتناقض جداً - بالثالوث أم أن هذا الاعتقاد - مثله في ذلك مثل بنود عديدة أخرى للدين - مجرد فبركة قام بها اللاهوتيون بعد قرون من وفاة المسيح في القدس؟

في نهاية المطاف - والندم يملؤني - تركت الحياة الدينية، وما أن تحررت من عبء الشعور بالفشل وعدم الكفاءة حتى شعرت أن إيماني بالله راح يضعف شيئاً فشيئاً. في الحقيقة إنه لم يعتد أبدأ على حياتي علماً أنني حاولت جاهدة أن يفعل ذلك. بيد أن اهتمامي بالدين امتعر، فأعددت عدة برامج تلفزيونية حول التاريخ المبكر للمسيحية وعن طبيعة التجربة الدينية. كنت كلما تعلمت المزيد حول تاريخ الدين كلما أصبحت شكوكي المبكرة مبررة أكثر. فالمعتقدات التي قبلتها دون تساؤل في طفولتي كانت حقاً من صنع الإنسان، شيدت على امتداد فترات زمنية طويلة. بدا العلم أنه قد تخلص من الله الخالق، وقد أثبت العلماء الدارسون للكتاب المقدس أن يسوع لم يدَّع أنه إلهي. اعترفتي ومضات رؤيا عرفت أنها مجرد خلل عصابي مثلما يرى من يعاني الصرع. ألم تكن رؤى ونشوات القديسين مجرد انعطاف عقلي أيضاً؟ بدا الله - بشكل متزايد - ضللاً (اضطراباً) عقلياً، شيئاً قد نمأه الجنس البشري.

على الرغم من سنواتي التي قضيتها راهبة فإنني لا أعتقد أن خبرتي عن الله غير

عادية. أنكارني عن الله تشكلت في الطفولة ولم تكن متماشية مع معرفتي المتنامية في فروع المعرفة الأخرى. لقد اطلعت على آراء الطفولة التبسيطية فيما يخص (Father christmas)، فتوصلت إلى فهم أكثر نضجاً لتعقيدات المحنة البشرية أكثر مما كان متاحاً في روضة الأطفال. مع ذلك فإن أفكارني المشوشة المبكرة حول الله لم تعدل أو تطور. فالتناس دون خلفيتي الدينية المميزة قد يجدون أيضاً أن فكرتهم عن الله قد تشكلت في الطفولة. منذ تلك الأيام وضعنا جانباً الأشياء الطفولية، أي تلك التي تشكلت في السنوات الأولى من حياتنا.

مع ذلك فقد كشفت دراستي لتاريخ الدين أن الكائنات البشرية هي حيوانات روحانية. في الحقيقة هناك قضية للجدال أن الإنسان العاقل Homo Sapiens هو أيضاً Homo religious الإنسان المتدين. بدأ الرجال والنساء عبادة الآلهة حالما أصبحوا بشراً. لقد ابتكروا الأديان في الوقت نفسه الذي ابتكروا فيه لوحات فنية. وهذا لم يكن مرده لأنهم أرادوا استرضاء القوى القوية بل لأن هذه الأديان المبكرة كانت تعبر عن الرائع والمجهول الخفي والذي يبدو أنه كان دائماً مكوناً أساسياً للتجربة الإنسانية تجاه هذا العالم الجميل والمخيف. فالدين - مثل الفن - كان وما يزال محاولة لإيجاد معنى وقيمة في الحياة، على الرغم من العذاب الذي يرهه الجسد. وهو مثل أي نشاط بشري آخر قد يُساء استخدامه، ويبدو أننا نحن من نقوم بذلك. لم يكن الدين مرتبطاً بطبيعة دينوية بدائية على يد ملوك وكهنة متلاعبين بل كان أمراً طبيعياً للبشرية. في الحقيقة إن نزعتنا الدنيوية الراهنة هي تجربة جديدة كلياً، ولا سابق لها في التاريخ البشري، علينا أن نرى عما ستمتمخض. إنه لمن الصحيح أيضاً أن نقول أن نزعتنا الإنسانية التحررية الغربية ليست شيئاً يأتي إلينا بشكل طبيعي، مثل تذوق الفن أو الشعر، بل ينبغي تعهدها بالرعاية. النزعة الإنسانية هي بحد ذاتها دين دون إله، وبالطبع ليست جميع الأديان مؤمنة بوحداية الله. فمَثَلُنَا الأعلى الدنيوي الأخلاقي له ضوابطه في العقل والقلب، ويعطى الناس الوسائل لاكتشاف الإيمان في المعنى النهائي من الحياة الإنسانية. هذه الوسائل كانت تقدمها الأديان الأكثر تقليدية في الماضي.

عندما بدأت أنقب عن تاريخ فكرة وتجربة الله في الأديان التوحيدية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام توقعت أن أجد أن الله كان بكل بساطة إسقاطاً للاحتياجات والرغبات البشرية. اعتقدت أنه سيعكس مخاوف وطموحات المجتمع في كل مرحلة من تطوره. لم تكن توقعاتي لا مبرر لها بتاتاً، لكنني دهشت كثيراً ببعض ما وجدته وأتمنى لو

أنني عرفت هذا كله قبل ثلاثين سنة خلت عندما كنت في بداية حياتي الدينية. لو حدثت وسمعت - من موحدين مرموقين في الأديان الثلاثة - أنه بدلاً من أن أنتظر نزول الله من عليائه، كان علي أن أخلق عن عملي إحساساً به لذاتي، لكان ذلك قد وُقر عليّ قلقاً كبيراً، ولكان اعتبرني أخباراً وقساوسة ومتصوفون آخرون أنني أفترض أن الله كان - بمعنى ما - حقيقة خارجية، ولكانوا حذروني من ألا أتوقع اكتشافه كحقيقة موضوعية بالإمكان اكتشافها بعملية عقلانية عادية. ولكانوا أخبروني بمعنى ما أن الله كان نتاجاً للمخيلة المبدعة مثل الشعر والموسيقى اللذين وجدتهما ملهتين جداً. قلة من الموحدين الذي يلقون احتراماً كبيراً، أخبروني، بهدوء وحزم، أن الله لم يوجد فعلياً، ومع ذلك كان الحقيقة الأكثر أهمية في العالم.

لن يكون هذا الكتاب تاريخاً لحقيقة الله نفسه الذي لا يوصف، والذي خارج الزمان والتغير، بل تاريخاً للطريقة التي فهمه الناس بها رجالاً ونساءً بدءاً من إبراهيم وحتى يومنا الحاضر. فكرة الناس عن الله لها تاريخ، لأنها كانت تعني دائماً شيئاً مختلفاً قليلاً لكل جماعة من الناس الذين استخدموا هذه الفكرة في مراحل زمنية مختلفة. فالفكرة عن الله التي تشكلت في جيل ما، لدى طائفة من البشر، قد تكون لا معنى لها في جيل آخر. في الحقيقة إن القول: «أنا أؤمن بالله» ليس له معنى موضوعي لكن مثله مثل أي قول آخر - يعني فقط شيئاً في سياق الكلام عندما يعلنها مجتمع محدد؛ بالتالي ليست هناك فكرة واحدة لا تتغير متضمنة في الكلمة «الله»، لكن هذه الكلمة تحتوي على طيف كامل من المعاني بعضها متناقض، أو حتى مانع تبادلياً *mutually exclusive*. لو لم يكن لمفهوم الله هذه المرونة لما بقيت لتغزو واحدة من الأفكار البشرية العظيمة. فعندما كان يتوقف مفهوم واحد لله عن أن يكون ذا معنى أو صلة، كان يتم تجاهله ويحل محله ثيولوجيا جديدة. الأصولي ينكر هذا لأن الأصولية ضد التاريخية: التاريخية تؤمن أن إبراهيم وموسى وجميع الأنبياء اللاحقين تعرفوا إلى إلههم تماماً مثلما يتعرف عليه الناس اليوم. إن نلقي نظرة إلى أدياننا الثلاثة يصبح واضحاً لنا أن ليس هناك نظرة موضوعية لله. ينبغي على كل جيل أن يخلق صورة الله المناسبة له. وينطبق الشيء ذاته على الإلحاد. «فالقول أنا لا أؤمن بالله» ما يزال دائماً يعني شيئاً مختلفاً قليلاً في كل فترة من التاريخ. فالناس الذين صُنعوا «ملحدين» عبر السنين قد أنكر الناس عليهم أي تصور محدد لله. فهل الله الذي ينكره الملحدون اليوم هو إله البطارقة أم إله الأنبياء، إله الفلاسفة أم إله المتصوفين، أم أنه ما رآه المثاليون في القرن الثامن عشر. لقد تم تبجيل هذه الآلهة جميعاً على أنها إله الكتاب المقدس والقرآن يهوداً ومسيحيين ومسلمين في فترات مختلفة من تاريخهم، لكننا سنرى أنها آلهة مختلفة كل

منها عن الآخر. كان الإلحاد في أغلب الأحيان حالة انتقالية. وهكذا فقد أطلق على اليهود والمسيحيين والمسلمين جميعاً كلمة ملحدين من قِبَل معاصريهم الوثنيين لأنهم اعتنقوا مفهوماً ثورياً للألوهة والتسامي. فهل الإلحاد الحديث نكران مماثل لإله لم يعد كافياً لحل مشكلات عصرنا؟

على الرغم من أخرويته فالدين براغماتي جداً. وسوف نرى أنه أكثر أهمية لفكرة محددة عن الله أن تفعل فعلها أكثر من أهمية كونها صحيحة منطقياً وعلمياً. وعندما تنتهي فعاليتها فإنه سيتم تغييرها، ويتم ذلك أحياناً من أجل شيء مختلف جذرياً. لم يزعج هذا معظم الموحدين قبل عصرنا لأنهم كانوا على دراية تامة أن أفكارهم عن الله لم تكن مقدسة إلى حد بعيد فضلاً عن كونها شرطية مؤقتة. كانت أفكارهم بأكملها من صنع الإنسان - ولا يمكن أن تكون شيئاً آخر - ومنفصلة عن الحقيقة التي رُتِزوها وغير قابلة للوصف. طوّر البعض طرقاً جريئة جداً للتأكيد على هذا الفارق الأساسي، ومضى أحد المتصوفين في المصور الوسطى بعيداً جداً حين قال إن هذه الحقيقة النهائية التي سميت خطأ (الله) لم تكن مذكورة حتى في الكتاب المقدس. فبعد التاريخ عرف الناس - رجالاً ونساءً - يُقدّم للروح يبدو أنه يتجاوز العالم الدنيوي. في الحقيقة إنها لميزة أسرة في العقل البشري أن يكون قادراً على نسج مفاهيم تقع خارجه بهذه الطريقة؛ ومهما اخترنا لتفسيره فإن هذا الشعور الإنساني بالتسامي ما يزال إحدى حقائق الحياة. ولا يعتبره كل امرئ مقدساً؛ فالبوذيون كما سنرى ينكرون أن رؤاهم وبصائرهم مستمدة من مصدر ما فوق طبيعي، إنهم يرونها طبيعية للبشرية. والأديان الرئيسية الثلاثة متوافق على أنه من المستحيل أن نصف هذا التسامي بلغة مفهومية عادية؛ فالموحدون سموا هذا التسامي «الله» لكنهم سيجوا هذا «الله» بشروط. فاليهود مثلاً يحظر عليهم لفظ كلمة «الله» المقدسة، وينبغي على المسلمين ألا يصوروا الله بصورة مرئية، فالمتنطق هو التذكر بأن الحقيقة التي نسميها الله تتجاوز كل تعبير بشري.

هذا الكتاب لن يكون تاريخاً بالمعنى المعتاد، ذلك لأن فكرة الله لم تنشأ من نقطة واحدة ولم تتطور في مسار خطي لتصل مفهوماً نهائياً. المفاهيم العلمية تعمل على هذا النحو، لكن أفكار الفن والدين ليست كذلك. فتماماً مثلما هناك عدد محدود من الموضوعات في شعر الحب كذلك استمر الناس في قول الأشياء ذاتها عن الله مرة تلو مرة. في الحقيقة سنجد تشابهاً مذهلاً بين الأفكار اليهودية والمسيحية والإسلامية التي تتعلق بالمقدس. فعلى الرغم من أن اليهود والمسلمين يجدون في المعتقدات المسيحية بالتثليث

والتجسيد تجديفاً تقريباً، فقد أنتجوا نسخهم لهذه النقاط الثيولوجية القابلة للجدل.. كل تعبير من هذه الموضوعات الكونية مختلف قليلاً ويدين براءة وقدرة الخيلة البشرية على الإبداع فيما تناضل كي تعبر عن إحساسها بالله.

ولأن هذا الموضوع واسع جداً فقد قصرت نفسي عمداً على موضوع الله الواحد الذي يعبد اليهود والمسيحيون والمسلمون علماً أنني تناولت أحياناً مفاهيم وثنية عند الهندوس والبوذيين فيما يتعلق بالحقيقة المطلقة كي أجعل النقطة التوحيدية أكثر وضوحاً. ويدعو أن فكرة الله قريبة جداً من أفكار في الأديان التي تطورت بشكل مستقل تماماً. فمهما كانت النتائج التي نتوصل إليها حول حقيقة الله فإن تاريخ هذه الفكرة يجب أن يخبرنا شيئاً عن العقل البشري وعن طبيعة طموحنا. على الرغم من النزعة الدنيوية في معظم المجتمع الغربي فإن فكرة الله مازال تؤثر في حياة ملايين الناس. وقد دلت البحوث الأخيرة أن ٩٩٪ من الأمريكيين يقولون أنهم يؤمنون بالله: والسؤال هو بأي إله من بين الآلهة الكثيرة المعروضة يقررون؟

غالباً ما نجد الثيولوجيا (أصل الآلهة) مملاً ومجرداً لكن تاريخ الله طلياً ومركزاً. وهو، على نقيض بعض مفاهيم المطلق، عالى أصلاً وتوتراً وصراعاً معذبين. عرف أنبياء إسرائيل إلههم كآلم جسدي يلوي كل طرف فيهم وملأهم غيظاً وتيهماً. الحقيقة التي سموها الله كان يعرفها الموحدون في حالة من التطرف: سنقرأ عن قمم الجبال والظلام، والدمار، والصلب، والرعب. أما التجربة الغربية عن الله فقد بدت رَضِيَّةً بشكل خاص. فما السبب الذي كان وراء هذا الإجهاد المتأصل؟ تحدث موحدون آخرون عن النور والتجلي transfiguration فاستخدموا صوراً جريئة ليعبروا عن تعقيد الحقيقة التي خبروها، والتي ذهبت بعيداً جداً عن الثيولوجيا المعتقدية. مؤخراً هناك اهتمام جديد بالثيولوجيا (علم الأساطير)، وقد يدل هذا على رغبة واسعة من أجل تعبير لإبداعي عن الحقيقة الدينية، فالحمل الذي قام به العلامة الأمريكي جوزيف كامبل Joseph Campbell قد أصبح مشهوراً جداً. لقد استكشف الميثولوجيا المتكررة للبشر، رابطاً الأساطير القديمة بالأساطير التي ما تزال سارية في مجتمعات تقليدية. يفترض غالباً أن الأديان الإلهية الثلاثة خالية من الميثولوجيا والرمزية الشعرية. فمع أن الموحدون رفضوا أصلاً أساطير جيرانهم الوثنيين، إلا أن هذه الأساطير تسملت إلى الدين في فترة لاحقة. رأى المتصوفون الله مجسداً في امرأة، على سبيل المثال. بينما يتحدث آخرون عن جنس الله وأدخلوا عنصرأ أنثوياً في المقدس.

يوصلني هذا إلى نقطة صعبة، لأن هذا الله بدا تحديداً إلهاً ذكراً، وعادة ما يشير إليه الموحدون بالضمير هو. أما في السنوات الأخيرة فقد اعترضت الحركات النسائية على هذا الفهم. وبما أنني سأسجل أفكار ورؤى الناس الذين سمو الله (هو) فقد استخدمت مفردات مذكورة تقليدية إلا حين يكون الضمير it أكثر ملاءمة. وتجدر الإشارة إلى أن الميل الذكري عند الحديث عن الله هو مسألة إشكالية في الإنجليزية. ففي العبرية والعربية والفرنسية في حالة الجنس في قواعد اللغة يعطي الحديث الثيولوجي نوعاً من طباق جنسي وجدلي يؤمن التوازن الذي نفتقد إليه في الإنكليزية. ففي العربية مثلاً كلمة الله مذكر قواعدياً، لكن كلمة «الذات» مؤنث.

كل حديث عن الله يترنح تحت وطأة صعوبات مستحيلة، مع ذلك كان الموحدون إيجابيين جداً حول اللغة في الوقت ذاته، بينما أنكروا قدرتها على التعبير عن الحقيقة المتعالية. فالله عند اليهود والمسيحيين والمسلمين هو إله يتكلم بمعنى من المعاني، وكلمته حاسمة في الأدیان الثلاثة. وكلمة الله قد شكلت تاريخ ثقافتنا، لذلك علينا أن نقرر فيما إذا كان لكلمة الله أي معنى بالنسبة لنا في يومنا هذا.

الفصل الأول

في البداية

في البداية خلق البشر إلهاً كان العلة الأولى لجميع الأشياء وحاكماً للسماء والأرض، لم يُمثَّل في صور، ولم يكن له معبد أو كهنة في خدمته. تم تبجيله بدرجة بدت غير مناسبة لعبادة بشرية، فخبا تدريجياً من وعي شعبه عندما أصبح بعيداً جداً، فقرروا الاستغناء عنه، ويقال أنه اختفى في نهاية المطاف.

تلك كانت - على الأقل - إحدى النظريات التي وضعها الأب فيلهلم شميدت في كتابه (أصل فكرة الله) الذي نشر عام ١٩١٢. اقترح شميدت وجود وحدانية بدائية قبل أن يبدأ الناس - رجالاً ونساءً - بعبادة الآلهة. لقد عرفوا - أصلاً - إلهاً قادراً فقط، خلق العالم، وسير شؤون البشر من بعيد. وما يزال الاعتقاد بإله متعال كهذا (يسمى أحياناً إله السماء، لأنه مقيم في السماوات) سمة للحياة الدينية في كثير من القبائل الإفريقية البدائية. انهم يتضرعون إلى الله في صلواتهم، ويعتقدون أنه يراقبهم، وسيعاقب الخاطئين. وبما يدعو للفرابة غيابه عن حياتهم اليومية، إذ لا دين خاص به ولم يُصوَّر في تمثال أبداً. يقول رجال القبيلة إنه لا يمكنهم التعبير عنه، ولا يفسده عالم البشر؛ ويقول بعضهم إنه قد مضى بعيداً. يقترح الأنثروبولوجيون أن هذا الله قد أصبح بعيداً جداً، وشُجِّد كثيراً لدرجة أن أرواحاً أدنى مرتبة منه، وآلهة أسهل منالاً قد حلت محله. فوفقاً لنظرية شميدت، تمت الاستعاضة عن الله المتعالي عبر العصور الغابرة بآلهة أكثر جاذبية من مجمع الآلهة الوثني. ففي البداية كان هناك إله واحد. فإذا كان الأمر كذلك فإن الوحدانية إذاً كانت إحدى الأفكار الأكثر تقدماً التي أوجدها البشر كي يفسروا سر مأساة الحياة. وتشير كذلك إلى بعض المشكلات التي كان على هذا الإله أن يتصدى لها.

إن من المحال إثبات هذا الأمر أو ذاك. ورغم أن هناك الكثير من النظريات حول أصل الدين، مع ذلك يبدو أن خلق الآلهة أمر فعله البشر على الدوام. فعندما كان ينتهي مفعول فكرة دينية عندهم كان يتم استبدالها بكل بساطة، فتتوارى هذه الأفكار بكل هدوء، كما يتوارى إله السماء دون جلبة. في يومنا هذا يقول أناس كثيرون إن الله الذي عبده اليهود والمسيحيون والمسلمون قد مات، ويبدو أنه يتلاشى من حياة عدد متزايد من الناس، خاصة في أوروبا الغربية. فهم يتحدثون عن فجوة شكلها الله في ضميرهم حيث كان، لأنه لعب دوراً حاسماً في تاريخنا، وكان إحدى الأفكار البشرية العظيمة على مر العصور. فلكني نفهم ما نفتقده - هذا إذا كان يتلاشى حقاً - فإننا بحاجة إلى رؤية ما كان الناس يفعلونه عندما بدلوا عبادة هذا الله، وماذا كان يعنيه لهم، وكيف تصوروه. للقيام بذلك علينا أن نعود إلى العالم القديم في الشرق الأوسط حيث ظهرت فكرة إلهنا تدريجياً قبل نحو /١٤٠٠/ سنة خلت.

أحد الأسباب التي يبدو فيها الدين غائباً هو أنه لم يعد لدى معظمنا إحساس بأننا محاطون باللامرئي. فثقافتنا العلمية تربينا على تركيز اهتمامنا على العالم المادي والفيزيائي الموجود أماننا. وقد حققت هذه الطريقة في النظر إلى العالم نتائج كبيرة. إحداها هي أننا قد استأصلنا الإحساس الروحي أو المقدس الذي يتخلل حياة الناس في مجتمعات أكثر تقليدية في كل مستوى، علماً أن هذا الإحساس كان ذات يوم مكوناً أساسياً لمعرفة الإنسان بالعالم. فالسكان في ساوث سي آيلند South Sea Island يسمون هذه القوة الغامضة «مانا» mana، ويمارسها آخرون على أنها حضور أو روح، ويشعر بها المرء أحياناً كقوة لا شخصية، كشكل من الإشعاع أو الكهرباء. وقد اعتقد الناس أنها كانت تستقر في زعيم القبيلة، في النباتات أو الصخور أو الحيوانات. وخبر اللاتين الأرواح numina في الأيكات المقدسة، وشعر العرب كذلك أن الطبيعة مسكونة بالجن. فكان من الطبيعي أن الناس أرادوا أن يلامسوا هذه الحقيقة، وأن يجعلوها تعمل لصالحهم. لكنهم أرادوا كذلك إبداء إعجابهم بها، فهم عندما شخصوا القوى الخفية، جعلوها آلهة مرتبطة بالرياح والشمس والبحر والنجوم؛ أسبغوا عليها صفات بشرية، إنما كانوا يعبرون عن إحساسهم بصالتهم باللامرئي والعالم من حولهم.

لقد اعتقد رودولف أوتو Rodolf Otto المؤرخ الألماني للدين - في كتابه الهام /فكرة المقدس/ الذي نشره عام ١٩١٧ أن هذا الإحساس بالمقدس كان أمراً أساسياً للدين، وكان سابقاً لأية رغبة لشرح أصل العالم أو لإيجاد أساس للسلوك الأخلاقي. فقد أحس

البشر بهذه القدرة الخارقة للطبيعة بطرق شتى، فكانت تلهبهم أحياناً باستشارة باخوسية عنيفة، وهذوء عميق أحياناً أخرى، وفي بعض الأحيان كانوا يشعرون بالخوف والرهبة والتواضع في حضور القدرة الخفية الموجودة في كل مظهر من مظاهر الحياة. فعندما بدأ الناس بابتكار أساطيرهم وعبادة آلهتهم فإنهم لم يكونوا يسعون إلى إيجاد تفسير حقيقي للظواهر الطبيعية. فكانت القصص الرمزية ولوحات الكهوف والنقوش محاولة للتعبير عن إعجابهم، ولربط هذا السر المنتشر في حياتهم. وحتى في يومنا هذا نجد أن الشعراء والفنانين والموسيقين تسيرهم رغبة مماثلة. ففي العصر الباليوثيكي Palaeolithic مثلاً، عندما كانت تتطور الزراعة كانت عبادة الإلهة الأم تعبر عن إحساس بأن الخصوبة التي كانت تحدث تحولاً في الحياة البشرية - كانت مقدسة فعلاً. فقد حفر الفنانون تلك التماثيل التي تصورها امرأة حامل عارية وجدها علماء الآثار في أنحاء أوروبا والشرق الأوسط والهند. وبقيت الأم الكبرى هامة إبداعياً طيلة قرون، مثلها مثل إله السماء القديم - أُخيلث إلى مجمع الآلهة في مرحلة لاحقة لتحتل مكانة إلى جانب الآلهة الأقدم منها. لقد كانت - عادة - واحدة من أكثر الآلهة قدرة، وبالتأكيد أكثر قدرة من إله السماء الذي بقي شخصية ظلية. فأسموها أنانا Anana في سومر القديمة، وعشتار في بابل، وعناة عند الكنعانيين، وإيزيس في مصر، وأفروديت في اليونان، وتمت صياغة قصص متشابهة في جميع هذه الحضارات لتعبر عن دورها في حياة الناس الروحية. لم يكن المراد من هذه الأساطير أن تؤخذ حرفياً بل كانت محاولات مجازية لوصف حقيقة بالغة التعقيد، وهمة بحيث كان يتعلم التعبير عنها بأية وسيلة أخرى. فهذه القصص الدرامية المثيرة حول آلهة وإلهات ساعدت الناس في التعبير عن إحساسهم بالقوى القادرة غير المرئية التي كانت تحيط بهم.

يبدو أن سكان العالم القديم كانوا يعتقدون أنهم سيصبحون إنسانين حقاً إذا ما شاركوا بهذه الحياة المقدسة. فالحياة الدنيوية كانت هشة فيما يبدو، وكان الموت يلقي بظله عليها، ومن خلال محاكاة الرجال والنساء أفعال الآلهة كانوا يشاركونها قدرتها وفعاليتها. وهكذا قيل أن الآلهة علمت الناس كيف ينون مدنهم ومعابدهم التي كانت مجرد نسخ عن منازلها في مملكة المقدس. فعالم الآلهة المقدس - كما تذكر الأساطير - لم يكن فقط عالماً مثالياً يصبو إليه الناس، بل كان نسخة مطابقة عن وجود البشر، فكان بذلك النمط البدئي الذي تمت قولبة حياتنا هنا على الأرض وفقاً له. فقد اعتقد الناس أن كل شيء على الأرض كان نسخة مطابقة عن شيء في العالم المقدس، وقد قَدِّم هذا التصور الميثولوجيا والنظام الاجتماعي والعائلي في معظم الحضارات القديمة، وما يزال

مؤثراً في المجتمعات الأكثر تقليدية في عصرنا^(١). ففي إيران القديمة - مثلاً - كان الناس يعتقدون أن كل شخص أو شيء في العالم الأرضي له نظيره في عالم الحقيقة المقدس النمطي البدني. أما في العالم المعاصر فيصعب علينا قبول هذا المنظور، لأننا نرى في الحكم الذاتي والاستقلالية قيماً إنسانية عليا. مع ذلك، مازال العبارة الشهيرة *coitum omne animal tristis est* تعبر عن تجربة مشتركة: بعد لحظة نتوقعها بلهفة وتوتر، نشعر أننا قد فقدنا شيئاً أعظم مازال خارج حدود فهمنا. ما تزال محاكاة الإله مفهوماً دينياً هاماً: الاستراحة يوم السبت أو غسيل القدمين في خميس العهد - إعلان لا معنى لهما بحد ذاتهما - هما الآن هامان ومقدسان لأن الناس يعتقدون أن الله قد قام بهما ذات يوم.

لقد تميز عالم بلاد الرافدين القديم بنزعة روحانية مماثلة. وسكن الإنسان وادي دجلة / الفرات أي ما يعرف الآن باسم العراق. منذ نحو / ٤٠٠٠ سنة ق.م. شيد السومريون واحدة من أقدم الحضارات العظيمة في العالم المتمدن. ففي مدينهم أور Ur وإررش Erech وكيش Kish ابتكروا خطهم المسماري، وبنوا أبراج المعابد التي كانت تسمى زاقورات، ووضعوا قانوناً يدعو للإعجاب، وأبدعوا أدباً وأساطير. لكن ذلك لم يدم طويلاً إذ سرعان ما غزا الأكاديون الساميون تلك المنطقة، وبنى هؤلاء اللغة والثقافة السومرية. وفي فترة تالية - أي في نحو / ٢٠٠٠ ق.م. هزم العموريون هذه الحضارة السومرية الأكادية، واتخذوا بابل عاصمة لهم. وبعد مضي نحو / ٥٠٠ سنة استقر الآشوريون في آشور المجاورة وفتحوا بابل نفسها خلال القرن الثامن ق.م. فآثر هذا التراث البابلي على الأساطير والدين الكنعاني أيضاً، وعلى بلاد كنعان التي غدت لاحقاً أرض الميعاد لبني إسرائيل القدماء. وعزا البابليون - مثلما فعل أي شعب آخر في العالم القديم - إنجازاتهم إلى الآلهة التي كشفت أسلوبها في الحياة إلى أسلافهم الأسطوريين. ومن هنا جاء اعتقادهم أن بابل كانت صورة عن السماء، وكان كل معبد من معابدها صورة عن قصر سماوي. وكانوا يحتفلون بهذه الرابطة مع العالم المقدس سنوياً، وخلدوها في مهرجان السنة الجديدة العظيم الذي تم إقراره بقوة في القرن السابع عشر ق.م. حيث كان الاحتفال به يجري في مدينة بابل المقدسة خلال شهر نيسان، وكان يتضمن تنصيب الملك كي يرسي دعائم حكمه لسنة أخرى. فهذا الاستقرار السياسي كان أمراً ممكناً طالما أنه كان يشارك في حكم الآلهة الأكثر فعالية ودمومة، هذه الآلهة التي خلقت الاستقرار من عماء بدني عندما خلقت العالم. كانت أيام المهرجان الأحد عشر المقدسة ترمي المشاركين خارج الزمن الديني إلى

عالم الآلهة الأبدي المقدس من خلال صلوات طفوسية. فتقديم كبش فداء إلفاء للسنة المختصرة، والإذلال العلني للملك بتنصيب ملك كرنفالي مكانه كان إعادة لحالة العماء الأولى، وكان الصراع الشكلي استحضاراً لصراع الآلهة ضد قوى الدمار.

هذه الأفعال الرمزية كانت ذات قيمة وقدمية، لأنها مكنت البابليين من المشاركة في القدرة المقدسة أو المانا التي كانت تعتمد عليها حضارتهم العظيمة، فمن منظورهم كانت الثقافة إنجازاً سريع العطب قد يقع فريسة لقوى الفوضى والفساد. فبعد ظهر اليوم الرابع من المهرجان كان الكهنة والمنشدون يسرون في موكب قدس الأقداس منشدين الإينوما إليتش للمحمة التي كانت تحتفل بانتصار الآلهة على العماء. إنها ليست عرضاً فعلياً لأصول الحياة المادية على الأرض، بل محاولة رمزية متعمدة لبعث سر عظيم، ولإطلاق قدراته المقدسة. فعرض حرفي للخلق كان أمراً محالاً لأن ما من امرئ شهد هذه الأحداث التي لا يمكن تخيلها. وهكذا كانت الأسطورة والرمز هما السبيل المناسب الوحيد لوصف هذه الأحداث. ويمكننا أن نحصل على رؤية للروحانية التي أدت إلى ولادة خالقنا بعد قرون تالية بإلقاء نظرة سريعة على الإينوما إليتش. وسيتخذ العرض التوراتي والقرآني للخلق شكلاً مختلفاً جداً، بيد أن هذه الأساطير لم تختف تماماً بل دخلت ثانية في تاريخ الله في فترة تاريخية لاحقة بعد أن غلفها مصطلح وحداني.

تبدأ القصة بخلق الآلهة أنفسهم - وهذا موضوع سيكون ذا أهمية كبيرة في الصوفية اليهودية والإسلامية. ففي البداية - كما تقول الإينوما إليتش - ظهرت الآلهة مثنى مثنى من ماء لا شكل له، فكانت هذه المادة مقدسة بحد ذاتها. في الأسطورة البابلية - كما هي في التوراة لاحقاً - لم يكن هناك خلق من العدم، فكانت هذه فكرة غريبة عن العالم القديم. قبل وجود الآلهة أو البشر كانت هذه المادة الخام المقدسة موجودة منذ الأزل، وعندما حاول البابليون تخيل هذه المادة المقدسة البدئية اعتقدوا أنها لا بد أن تكون مماثلة للأراضي الشاسعة السبخة في بلاد الرافدين حيث كانت الفيضانات تهدد باستمرار بمسح كل ما قام الناس به من أعمال. فالعماء في الإينوما إليتش ليس كتلة نارية تغلي بل خليطاً مائماً يفتر كل شيء فيه إلى حلود، وتعريف، وما هية.

عندما امتزج الحلو بالمر، لم يمت القصب

ولا السير كان يمكر الماء بالوجل.

كانت الآلهة بلا اسم، ولا طبيعة، ودون مستقبل.^(٣)

ثم انبثقت ثلاثة آلهة من الأرض البدئية الشاسعة: أبسو Apsu (مياه الأنهار العذبة)، وزوجته تيامات Tiamat (البحر المالح)، ومومو mummu (رحم العماء). مع ذلك كانت هذه الآلهة الثلاث نموذجاً أولياً غير مكتمل بحاجة إلى تحسين. بالإمكان ترجمة أسمائها كما يلي: أبسو وتيامات (اللجة أو الهوة التي لا قعر لها، أو الفراغ) إنها العطالة التي لا شكل لها، اللاشكلائية الأصلية دون أن تحقق هوية واضحة.

ثم انبثقت آلهة أخرى من هذه الآلهة الثلاثة في العملية التي تعرف بالفيض أو الانبثاق emanation والتي ستكون ذات أهمية كبيرة في تاريخ إلهانا نحن. انبثقت الآلهة الجديدة كل منها من الآخر مثني مثني، وحاز كل منها تحديداً ماهياً أكثر من الأخير أثناء حدوث النشوء الإلهي. ففي البداية ظهر لاهمو Lahmu ولاهمن Lahamn (أي الغرين: الماء والتراب بمترجين). ثم ظهر أنشر Ansher وكيشار Kishar (أفقا السماء والبحر). ثم انبثقت أنو Anu (أي السماوات)، وإيا Ea (الأرض)، فاكتملت عملية الخلق. كان يوجد في العالم المقدس سماء وأنهار وأرض مميزة منفصل كل منها عن الآخر. لكن عملية الخلق كانت في بدايتها ولم يكن بالإمكان بقاء قوى العماء والفساد إلا في حالة صراع دائم ومؤلم. بعدئذ ثارت الآلهة الديناميكية الشابة على آبائهما، وقد استطاع إيا السيطرة على أبسو ومومو إلا أنه أخفق في صراعه مع تيامات التي خلقت سلسلة كاملة من وحوش مشوهة الشكل لتجاربه. ولحسن الحظ كان لدى إيا طفل رافع من صلبه يدعى مردوخ Marduk (أي إله الشمس)، كان النموذج الأكثر كمالاً في سلسلة الآلهة. وفي إحدى مجالس الآلهة وعد مردوخ بمحاربة تيامات شرط أن تنصبه الآلهة حاكماً عليها، وبعد صعوبات تمكن من ذبح تيامات.. بعد أن خاض معركة محفوفة بالمخاطر.. في هذه الأسطورة نجد أن الخلق هو صراع، وقد تحقق ذلك بعد التغلب على نزاعات كثيرة.

بعد انتصار مردوخ وقف على جثة تيامات الضخمة وقرر خلق عالم جديد: شق جسمها نصفين كي يشكل قبة السماء وعالم البشر. ثم وضع القوانين التي تبقي كل شيء في مكانه المحدد. كان لا بد من إنجاز الاستقرار لأن النصر لم يكن تاماً. وكان ينبغي تحقيق الاستقرار عن طريق طقس خاص سنة تلو سنة. بعدئذ أخذت الآلهة تلتقي في بابل مركز الأرض الجديدة، وشهدت معبداً تُؤدى فيه الشعائر المقدسة، فكانت الزاخرة الكبيرة تكريماً لمردوخ وقامعبد الأرضي هو رمز سماء لا متناهية. وما أن انتهى بناؤه حتى تبوأ مردوخ مكانه على قمته فصاحت الآلهة: «هذه بابل مدينة الله العزيزة، هي بيتك الذي تبنيه»! ثم قدمت الآلهة طقس القران المقدس «الذي يستمد الكون منه بنيه، فقد تم تحديد العالم

الخفي، وحددت الآلهة أماكنها في الكون^(٣). تسري هذه القوانين على كل شخص، حتى الآلهة يجب أن تنقيد بها كي تُؤمن بقاء الخلق. هذه الأسطورة تعبر عن المعنى الداخلي للحضارة كما رآه البابليون. كانوا يعرفون أن أسلافهم قد بنوا الزاقترات، بينما أوضحت الإينوما إليتش إيمانهم بأن مشروعاتهم الإبداعي يستمر إذا ما اشتركوا في قدرة المقدس. فالقربان المقدس الذي كانوا يحتفلون به في بداية كل سنة جديدة قد وُجد قبل مجيء البشر إلى الوجود: لقد كُيِّب في طبيعة الأشياء التي على الآلهة هي الأخرى الخاضوع لها. كما عبرت هذه الملحمة عن قناعتهم بأن بابل مكان مقدس ومركز العالم، ومسكن الآلهة، فكان فهماً حاسماً في جميع النظم الدينية التي سادت في العصور القديمة. ففكرة مدينة مقدسة جعلت الرجال والنساء يشعرون أنهم على صلة وثيقة بالقدرة المقدسة أثناء وجودهم فيها، هي مصدر الوجود والفعالية وستكون بالغة الأهمية في أديان إلها التوحيدية الثلاثة.

بعد فترة لاحقة خلق مردوخ البشر وألقى القبض على كنجو Kingu (زوج تيامات الأبله الذي خلقته هي بعد هزيمة أبسو) ثم ذبحه. وشكل أول إنسان بجزء الدم المقدس بالغبار، بينما كانت الآلهة مشدوهة متعجبة. في هذا العرض الأسطوري لأصل البشرية بعض من الدعاية، هذا العرض الذي لا يشكل ذروة الخلق لكنه مستمد من واحد من أكثر الآلهة حماقة ولا فعالية. لقد قدمت هذه القصة نقطة هامة أخرى: خلق أول إنسان من مادة إله ولذلك يشاركه في طبيعته المقدسة إنما بدرجة محددة. لم تكن هناك هوة بين البشر والآلهة. فالعالم الطبيعي، والبشر، والآلهة تشترك في الطبيعة نفسها، وهي مستمدة من المادة المقدسة ذاتها. ولهذا السبب كانت هذه الرؤية الوثنية مقدسة، فالآلهة لم تكن في جو أنطولوجي منفصل، والألوهة لم تكن أساساً مختلفة عن البشرية. لم تكن هناك حاجة إلى إحياء خاص من الآلهة، أو لشريعة مقدسة تنزل من السماء إلى الأرض. فالآلهة والبشر كانوا يشتركون في المحنة ذاتها، والفارق الوحيد بينهما هو أن الآلهة كانت أكبر قدرة، وكانت خالدة. لم تقتصر هذه النظرة المقدسة على الشرق الأوسط فقط بل كانت شائعة في العالم القديم. وقد عبر بنلار Pindar عن الرواية الإغريقية لهذا الاعتقاد في قصيدة بمناسبة الألعاب الأولمبية في القرن السادس ق.م.

واحد هو الأصل، واحد

أصل البشر والآلهة

من أم واحدة لتتفس.

لكن يفصل بيننا اختلاف في القدرة في كل شيء.

لأن الإنسان كلاشي، بينما السماء النحاسية
بقي مكنتى ثابتة إلى الأبد.
مع ذلك يمكننا أن نكون مثل الآلهة الخالدة
عبر عظمة العقل والجسد^(٤).

بدلاً من أن يرى بندار الرياضيين وهم يحاولون بذل أفضل ما لديهم نجدهم يضعهم
مقابل إنجازات الآلهة التي كانت النموذج الأمثل لجميع الإنجازات البشرية. لم يكن الناس
يقلدون الآلهة كعبيد، ككائنات بعيدة لا أمل منها، بل بوصفهم كائنات تعيش كمون
طبيعتها المقدسة أساساً.

أثرت أسطورة مردوخ وتيامات - كما يبدو - في الكنعانيين أيضاً، فرووا قصة مماثلة
تماماً عن (بعل - وَخَدَّ إله العاصفة والحصب) اللذين يرد ذكرهما في التوراة دون مواربة.
قصة بعل مع يَم نهر Yam Nahar (إله البحار والأنهار) مدونة على ألواح تعود إلى القرن
الرابع عشر ق.م. كان بعل وبم يعيشان مع إيل الإله الكنعاني القدير. ففي مجلس إيل
يطلب تسليم بعل إليه. بيد أن بعل يتمكن من هزيمة يَم بسلاحين سحريين، وكان على
وشك أن يقتله عندما توسلت إليه عشيرة (زوجة إيل وأم الآلهة) قائلة إن من العار أن يذبح
امرؤ مسجناً. عندها يخجل بعل ويبقي على حياة يَم الذي يمثل الجانب المعادي للبحار
والأنهار، والذي كان يهدد باستمرار بإغراق الأرض بالطوفان. بينما يجعل بعل (إله
العاصفة) الأرض خصبة. وفي رواية أخرى للأسطورة يذبح بعل التين لوتان Lotan ذا
الرؤوس السبعة، ويسمى في العبرية لويathan Leviathan. فالتين في جميع الحضارات يرمز
إلى المستتر غير المتشكل، وغير القابل للتمييز. بذلك عاد بعل إلى اللاشكالية البدئية في
عمل إبداعه حقاً، فبال مكافأة على ذلك، قصراً جميلاً بنته الآلهة تكريماً له. ولهذا
السبب اعتبر الإبداع في كل دين أمراً مقدساً. ومانزال نستخدم لغة دينية عند الحديث عن
الإبداع الذي يشكل الوجود من جديد، فيعطي بذلك معنى جديداً للعالم.

لكن بدلاً من عملية عكسية: مات، ووجب عليه النزول إلى عالم موت Mot إله
الموت والعدم. عندما يسمع بمصير ابنه ينزل الإله المتعالي إيل من عرشه، ويضع عليه
وشاحاً، ويخرج خديه، لكنه لا يستطيع إحياء ابنه. إنها عناة عاشقة بعل وأخته تغادر بملكة
المقدس بحثاً عن شقيق روحها التوأم «متلفة عليه كلهفة بقرة على عجلها، أو نمجة على
حملها»^(٥). وعندما تجده تقيم مأدبة جنازية تكريماً له، فتلقي القبض على «موت»،
وتشطره بسيفها، ثم تغربه وتطحنه كما يطحن القمح، ثم تلتوه في الأرض. وهناك
قصص أخرى تدور حول إلهات عظيمات: أنانا، عشتار، وإيزيس يسحن عن الإله الميت،

ويجلبن حياة جديدة إلى الأرض. كان ينبغي تخليد انتصار عناة سنة بعد سنة في احتفال طقسي. وفي مرحلة لاحقة يعود بعل إلى الحياة - لسنا متأكدين كيف تم ذلك بسبب نقص في مصادرنا - ومنها إلى عناة. هذا التأليه للكمال والإنسجام يجسده اتحاد الجنسين الذي كان يُحتفل به في طقس جنسي في بلاد كنعان القديمة. فمن خلال محاكاة الآلهة كان الرجال والنساء يشتركون مع الآلهة في صراعهم ضد العقم، فيحصلوا بذلك على المقدرة على الخصب والخلق في العالم. لقد كان موت الإله، وبحث الإلهة عنه، والعودة المظفرة إلى القبة السماوية المقدسة كانت باستمرار موضوعات دينية في حضارات عديدة، وستكرر في دين شديد الاختلاف أي في دين الله الواحد الذي يعبد اليهود والمسيحيون والمسلمون.

كما جاء في التوراة، ينسب هذا الدين إلى ابراهيم الذي غادر أور واستقر أخيراً في كنعان لفترة من الزمن في الفترة الواقعة بين القرن العشرين والقرن التاسع عشر ق.م. ليس بين أيدينا سجل لابراهيم، لكن العلماء يعتقدون أنه ربما كان أحد زعماء القبائل الجواله، الذي قاد شعبه من بلاد الرافدين باتجاه البحر المتوسط في نهاية الألف الثالثة ق.م. كان يدعى بعض هؤلاء المتنقلين عابرو Abiru أو خابيرو Habiru في مصادر من بلاد الرافدين ومصر، وكانوا يتكلمون لغات سامية، إحداها العبرية. لم يكونوا بدأ يعيشون بانتظام في الصحراء - كالبدا الرحالة مع مواشيهم وفقاً لدورة الفصول، بل تصنيفهم أكثر صعوبة من هؤلاء. كان العبريون في نزاع متكرر مع السلطات المحافظة، وكان مستواهم الثقافي أعلى من مستوى ثقافة سكان الصحراء. كان بعضهم مرتزقة، وأصبح آخرون موظفين حكوميين، وآخرون تجاراً أو خدماً أو مفكرين، كما أصبح بعضهم أغنياء حاولوا تملك أراضٍ ليستقروا عليها. تصور القصص الواردة في سفر التكوين ابراهيم في خدمة ملك سدوم كمرتزق، وتحدثت عن نزاعاته المتكررة مع السلطات الكنعانية والمناطق المحيطة بها. وعندما توفيت زوجته سارة اشترى ابراهيم أرضاً في حبرون - التي تقع الآن في الضفة الغربية.

يدل عرض سفر التكوين لقصة ابراهيم وأحفاده المباشرين على أن هناك ثلاث موجات رئيسية من الاستيطان العبري المبكر في كنعان، اسرائيل المعاصرة. ارتبطت إحدى هذه الموجات بابراهيم وحبرون في حوالي / ١٨٥٠ ق.م/ وموجة التهجير الثانية ارتبطت بيهوذا الابن الأكبر لابراهيم، والذي أعيدت تسميته بإسرائيل (ليظهر الله قوته) الذي استقر في نابلس الآن Shechem في الضفة الغربية. وتخبرنا التوراة أن أبناء يعقوب الذين

أصبحوا أسلاف القبائل الإسرائيلية الاثنتي عشرة هاجروا إلى مصر أثناء مجاعة قاسية في أرض كنعان. بينما حدثت موجة الاستيطان الثالثة في حوالي ١٢٠٠ ق.م، بوصول القبائل التي زعمت أنها من أحفاد إبراهيم قادمة من مصر. قالت هذه القبائل أن المصريين اتخذوهم عبيداً لهم، وأن إلهاً يدعى يهوى قد حررهم، فكان هذا الإله هو إله قائدهم موسى. وبعد أن شقوا طريقهم عائدين إلى كنعان تحالفوا مع العبرانيين هناك، فأصبحوا يعرفون باسم شعب إسرائيل وتوضح التوراة أن الشعب الذي نعرفه باسم الإسرائيليين القدماء كان كونفدرالية من جماعات اثنية مختلفة يجمعها رابطة رئيسة هي ولاؤهم ليهوى إله موسى. لقد تم تدوين الرواية التوراتية بعد قرون لاحقة أي في حوالي القرن الثامن ق.م، علماً أنها استمدت من مصادر قصصية أقدم منها. فقد طور بعض علماء التوراة الألمان خلال القرن الثامن عشر طريقة نقدية ميزت أربعة مصادر مختلفة في الكتب الخمسة الأولى من التوراة: سفر التكوين، سفر الخروج، اللاويين، العدد، وسفر التثنية. وفي مرحلة لاحقة ألحقت بالنص النهائي ما نعرفه اليوم باسم أسفار موسى الخمسة Pentateuch خلال القرن الخامس ق.م. لقد بلغ هذا الشكل النقدي درجة كبيرة من المعالجة القاسية، ولم يقدم أحد - حتى الآن - نظرية أكثر إقناعاً. فهذه النظرية تفسر وجود روايتين مختلفتين تماماً لأحداث توراتية أساسية مثل قصة الخلق أو الطوفان، وتفسر كذلك لماذا تناقض التوراة نفسها أحياناً. فمؤلفا التوراة الأولان - اللذان نجد عملهما في سفر التكوين والخروج - ربما فعلاً ذلك خلال القرن الثامن ق.م، علماً أن البعض يعطيها تاريخاً أقدم من ذلك. يُعرف الأول بـ (ج د) لأنه يسمي ربه يهوى، ويعرف الآخر بـ (ي ب) لأنه يفضل استخدام اللقب المقدس الأكثر رسمية «إيلوهيم» Elohim. وبحلول القرن الثامن كان الإسرائيليون قد قسموا أرض كنعان إلى مملكتين منفصلتين. كان ي يكتب في مملكة يهوذا الجنوبية بينما كان ي يكتب في مملكة إسرائيل الشمالية. وسوف نناقش المصدرين الآخرين للأسفار الخمسة، سفر تثنية الاشتراع (D) وكهنوتي (P)، بالإضافة إلى روايات لتاريخ إسرائيل القديمة في الفصل الثاني.

من نواح عدة - كما سنرى - فإن J و E كانا يشتركان في منظورهما الديني مع جيرانهما في الشرق الأوسط لكن عرضهما يبين فعلاً أن الإسرائيليين قد بدؤوا بطورون نظرة خاصة بهم بحلول القرن الثامن ق.م. ف «J» مثلاً بدأ تاريخه عن الله بوصف خلق العالم الذي جاء ممثلاً بشكل مذهل لانيوماليتش:

يومَ قَبْلِ الرَّبِّ الإلهِ الأرضَ والسموات، كُلُّ شَجَرِ البَرِّيَّةِ لم يكن بعدُ في الأرض وكلُّ غُشْبِ البرية لم يبت بعد، لأنَّ الرَّبَّ الإلهَ لم يكن قد أمطَرَ

على الأرض. ولا كان إنسانٌ يُغفلُ الأرض. ثم كان ضيَابُ يَطلُعُ من الأرض ويسقي كُلَّ وجهِ الأرض. وَجَبَلُ الرَّبِّ الإلهَ آدمَ تِراباً من الأرض، ونفخَ في أنفه نسمةَ حياة. فصار آدم نفساً حياً^(١).

كان هذا ابتداءً جديداً بالكامل. فبدلاً من التركيز على خلق العالم، وعلى الفترة ما قبل التاريخية - كما فعل معاصروه الوثنيون في بلاد الرافدين وكنعان - نجد أن أكثر اهتماماً بزمان تاريخي عادي. فلم يكن هناك اهتمام حقيقي بالخلق في إسرائيل حتى القرن السادس ق.م. أي عندما دَوَّنَ المؤلف الذي نسميه (P) عرضه للجيل الذي يشكل الآن الفصل الأول من سفر التكوين. ونجد أن J ليس واضحاً إطلاقاً فيما إذا كان يهوى هو الخالق الوحيد للسماء والأرض أم لا. وتجدر الإشارة إلى فهم J بوجود فارق محدد بين الإنسان والإله. فبدلاً من أن يكون الإنسان متشكلاً من نفس المادة التي تشكل منها إلهه نجد أن آدم قد تشكل من الأرض.

J لم يستبعد التاريخ الديني - كما فعل جيرانه الوثنيون - بدعوى أنه دنس، وإو وخيالي إذا ما قورن بزمان الآلهة المقدس البدئي. إن J يسرع عبر الأحداث ما قبل التاريخية كي يصل إلى نهاية الفترة الأسطورية التي تتضمن قصصاً مثل قصة الطوفان، وبرج بابل حتى يصل إلى بداية تاريخ شعب إسرائيل. يبدأ هذا التاريخ بشكل مفاجيء في الفصل الثاني عشر عندما يأمر يهوى أبرام Abram الذي تعاد تسميته بأبراهام Abraham (والد الكثيرين) - بترك أسرته في حران، وأن يهاجر إلى بلاد كنعان. قد وصلنا أن والده كان وثنياً يدعى تيرا Terah كان قد هاجر قبلاً نحو الغرب مع أسرته من أور - ويخير يهوى أبراهام أن قدراً مميّزاً ينتظره: سوف يصبح أباً لأمة مقتدرة سيبلغ تعدادها ذات يوم أكثر من عدد نجوم السماء، وأن أحفاده سيملكون أرض كنعان. وستحدد رواية J للنداء الموجه لإبراهام طابع التاريخ المستقبلي لهذا الإله. في الشرق الأوسط القديم كانت تُمَارَسُ المانا المقدسة في الطقس والأسطورة. وكان من غير المتوقع أن يورط مردوخ وبعل وعناة أنفسهم في شؤون الحياة الدنيوية العادية لعابديهم. فأفعالهم قد تمت في زمن مقدس، بينما نجد إله إسرائيل يمارس قدرته الفعالة في أحداث راهنة في عالم الواقع. وقد عرفه أمراً في المكان والزمان، وكان أول كشف له عن نفسه في صيغة أمر عندما أمر إبراهيم ترك أسرته ورجله إلى أرض كنعان.

لكن من هو يهوى؟ وهل عبد إبراهيم الإله نفسه الذي عبده موسى أم أنه عرفه باسم آخر؟ هذه مسألة ذات أهمية كبيرة لنا اليوم. التوراة غامضة جداً حيال هذا الموضوع، بل تقدم إجابات متناقضة على هذه المسألة. يقول J إن الناس عبدوا يهوى منذ عهد ابن آدم

الأكبر، بينما يقترح (P) في القرن السادس ق.م أن الإسرائيليين لم يكونوا قد سمعوا بيهوى حتى تبدى إلى موسى في الشجيرة المشتعلة. ويجعل (P) يهوى يوضح أنه كان نفس إله إبراهيم، وكأنما هذه فكرة تثير الجدل. يقول موسى إن إبراهيم قد أسماه إيل شداي El Shaddai وأنه لم يكن يعرف الاسم المقدس يهوى^(٧). فكما يبدو لا يخلق هذا التناقض الكتاب التوراتيين أو محرريهم على نحو ملائم. فـ J يسمي إله «يهوى» في كل تاريخه: في الوقت الذي كان يكتب فيه كان يهوى إله إسرائيل، وهذا هو الأمر الهام بالنسبة لـ J. كان الدين الإسرائيلي براغماتياً، واهتمامه قليلاً بالتفاصيل الفكرية التي تقلقنا. مع ذلك علينا ألا نفترض أن إبراهيم وموسى قد آمنّا بإلههما كما نؤمن نحن اليوم.

نحن على دراية تامة بقصة التوراة وتاريخ إسرائيل اللاحق للدرجة أننا ميالون إلى إسقاط معرفتنا بالدين اليهودي اللاحق على هذه الشخصيات التاريخية القديمة. وبالتالي فإننا نفترض أن آباء إسرائيل الثلاثة: إبراهيم وابنه اسحق، وابنه الأكبر يعقوب كانوا موحدين يؤمنون بإله واحد فقط. هذه ليست هي القضية كما يبدو. في الحقيقة، بل من الدقة أكثر أن نسمي هؤلاء بالوثنيين العبرانيين الذين كانوا يشتركون بمعتقدات دينية كثيرة كانت موجودة عند جيرانهم في بلاد كنعان. من المؤكد أنهم كانوا يؤمنون بوجود آلهة مثل مردوخ وبعل وعناة. وربما أنهم لم يعبدوا جميعاً الإله ذاته: من الممكن أن رب إبراهيم «الخوف»، أو «قريب اسحق»، و«الواحد القديم» عند يعقوب كانت ثلاث آلهة منفصلة^(٨).

يمكننا المضي إلى أبعد من ذلك: فمن المحتمل جداً أن إيل El الإله الكنعاني هو إله إبراهيم، لأن هذا الإله يقدم نفسه باسم إيل شاداي (أي إيل الجبل)، وهذا أحد ألقاب إيل التقليدية^(٩). ويدعى - في مكان آخر إيلون El Elyon أي (الإله الأكثر رفعة)، أو إيل بيتل El Bethel فاسم الإله الكنعاني العظيم محفوظ في أسماء عبرية مثل اسرا - ثيل أو اشما - ثيل. لقد عرفوه بوسائل لم تكن مألوفة لدى وثنيي الشرق الأوسط فكما نرى بعد قرون لاحقة اكتشف الإسرائيليون أن المانا أو قداسة يهوى كانت تجربة مرعبة. فعلى جبل سيناء مثلاً ظهر لموسى وسط ثوران بركاني يوحى بالرهبة، فكان على الإسرائيلييين البقاء بعيداً. فإيل إله إبراهيم إله وادع، ويتبدى له كصديق أحياناً، ويتخذ شكلاً بشرياً أحياناً أخرى. كان هذا النوع من الظهور الإلهي معروفاً بالتجلي عرفه تماماً سكان العالم الوثني القديم. فالآلهة عموماً لم يكن يتوقع أحد منها أن تتدخل في حياة الناس بشكل مباشر إلا أن أفراداً محددين ومتعززين قابلوا إلههم وجهاً لوجه في عصور أسطورية. فالإلياذة مليئة بالتجليات: تظهر الآلهة للإغريق والطرواديين في الأحلام عند الاعتقاد بأن الحد الفاصل

بين عالمي البشر والمقدس قد جرى تضيقه. وهكذا يرشد شاب فائن بريام إلى سفن الإغريق في نهاية الإلياذة، وفي النهاية يخطط هذا الشاب اللثام عن نفسه ليتضح أنه الإله هرمز^(١٠). عندما كان الإغريق ينظرون إلى الورا، إلى عصر أباطالهم الذهبي كانوا يشعرون بصلبة وثيقة بالآلهة التي كانت من طبيعة البشر ذاتها. وهكذا فقد عبرت قصص التجلي هذه عن حلم القداسة الوثني. حينها لم يكن الإله متميزاً أساساً عن الطبيعة أو البشر، وكان بالإمكان الإحساس بالآلهة دون عناء كبير. كان العالم مليئاً بالآلهة يمكن تصورها بشكل غير متوقع حول أية زاوية أو في شخص امرئ عابر. كان الناس يعتقدون - كما يبدو - أن مقابلات مع الآلهة كانت ممكنة في حياتهم ويفسر هذا الاعتقاد القصة الغريبة في أفعال الرسل، حينما أخطأ الناس - في القرن الأول الميلادي بين الرسول بولص وتلميذه برنابى فحسبوهما زيوس وهرم^{١١} عند مرورهما في ليسترا Lystra أي تركيا الآن.

وبالطريقة ذاتها عندما كان الإسرائيليون ينظرون إلى الورا إلى عصرهم الذهبي كانوا يرون ابراهيم واسحق ويعقوب يعيشون مع إلههم بمودة. فالإله إله يقدم لهم نصيحة الصديق كما يفعل أي شيخ أو زعيم قبيلة: يوجه تجوالهم، يخرهم ممن يتزوجون، ويحدث إليهم في أحلامهم. فكما يبدو كانوا يرونه في شكل بشري: وهذه فكرة ستصبح حراماً للإسرائيليين. ففي الفصل الثامن عشر من سفر التكوين يخبرنا J أن الله تبنى لإبراهيم قرب شجرة سنديان في قرية مورة Momre بالقرب من حبرون. نظر ابراهيم إلى أعلى فرأى ثلاثة غرباء يقتربون من خيمته في الهاجرة. ويكل كياسة نموذجية شرق أوسطية يلح عليهم أن يجلسوا ويستريحوا بينما أسرع كي يعد لهم الطعام. ويتضح من الحديث أن أحد هؤلاء هو إله الذي يسميه J دائماً يهوى. بينما كان الآخرون ملاكين: كما يبدو لا يستغرب أحد هذا التجلي. ففي الوقت الذي كان فيه J يدون ذلك في القرن الثامن ق.م لم يكن إسرائيلي يتوقع رؤية الله بهذه الطريقة، ولا بد أن معظمهم وجدوها فكرة مذهلة.. بينما يجد B معاصر J القصص القديمة التي تدور حول علاقة الآباء الودية مع الله أمراً غير لائق. فعندما يروي B قصصاً عن إبراهيم أو يعقوب مع الله فإنه يفضل أن يستبعد الحدث، وأن يجعل الأساطير القديمة أقل تجسيدا للآلهة. وهكذا نقول إن الله تحدث إلى إبراهيم عبر ملاك. على أية حال لا يشاركنا J هذا الغثيان، ويحتفظ بالنكهة القديمة لهذه الظهورات البدائية في روايته.

لقد رأى يعقوب أيضاً علداً من التجليات. ففي إحدى المناسبات كان قد عزم على العودة إلى حران، فيجد زوجته بين أقاربه هناك. ففي اليوم الأول نام في لوز Luz قرب

وادي الأردن واضعاً حجراً تحت رأسه كوسادة له. رأى في نومه سلماً ممتداً بين السماء والأرض، وكانت الملائكة تصعد وتهبط عليه بين ملكتي الله والإنسان. فليس في وسعنا هنا إلا أن نذكر زاقورة مردوخ التربع على قمته وكأنها معلقة بين السماء والأرض، حيث كان باستطاعة الإنسان أن يقابل آلهته. وكذلك حلم يعقوب على قمة سُلَّمه أنه رأى إيل الذي باركه وكرر الوعود التي وعدها لإبراهيم: إن ذرية يعقوب ستصبح أمة قوية، وأنها ستملك أرض كنعان. لقد كان الدين أرضياً أغلب الأحيان: فالله له سلطة التشريع في منطقة محددة، وكان من الحكمة التبعيد للآلهة المحلية عند الذهاب إلى خارج المنطقة. لقد وعد إيل يعقوب بالحماية عندما يغادر أرض كنعان إلى بلاد غريبة عنه: «أنا معك، سأحفظك سالماً حيث تذهب»^(١٢). تبين قصة هذا الظهور المبكر أن الإله الكنعاني قد بدأ يتخذ معنى كونياً أكبر.

عندما استيقظ يعقوب أدرك أنه قد أمضى الليلة في مكان مقدس يستطيع أن يتحدث الناس فيه إلى آلهتهم: «حقاً إن يهوى في هذا المكان، ولم أعرف ذلك أبداً»، لقد سيطرت عليه الدهشة التي كانت تلهم الوثنيين عندما كانوا يقابلون قدرة الإله المقدسة: «كم يوحي هذا المكان بالرهبة! هذا ليس إلا بيت إيل، هذه هي بوابة السماء»^(١٣). لقد عبر عن نفسه غريزياً باللغة الدينية التي كانت في عصره وثقافته: فيابل كانت مسكن الآلهة وكانت تدعى «بوابة الآلهة Babili». قرر يعقوب أن يقدس هذه الأرض بالطريقة الوثنية التقليدية في بلاده. فأخذ الحجر الذي استخدمه وسادة، ونصبها، وقدسها بمسحها بالزيت. ومنذ ذلك الحين لن يسمى ذلك المكان لوز Luz بل بيت إيل أي منزل إيل. لقد كان نصب الحجارة سمة شائعة في عبادات الخصوبة الكنعانية التي ازدهرت في بيت إيل حتى القرن الثامن الميلادي ق.م. فعلى الرغم من أن الاسرائيليين قد أدانوا لاحقاً هذا النوع من العبادة إلا أن الهيكل الوثني لبيت إيل كان مرتبطاً بأسطورة قديمة ويعقوب واله.

لقد قرر يعقوب أن يجعل الله الذي قابله قبيل مغادرة بيت إيل إلهاً له elohim: كانت هذه كلمة تقنية تحمل في طياتها كل ما تعنيه الآلهة للبشر. وقد أدرك يعقوب أنه إذا كان باستطاعة إيل (أو يهوى كما يسميه ت) أن يقدم له الحماية حقاً في حران فلا بد أن يكون فعالاً. وهكذا عقد صفقة معه يتولى إيل حمايته ويتخذ يعقوب إلهاً له، الإله الوحيد الذي يعتمد عليه. وهذا ليس غريباً عن الاعتقاد الإسرائيلي بالله، كان اعتقادهم براغماتياً جداً. لقد وضع إبراهيم ويعقوب إيمانهما في إيل لأنه عمل لصالحهما. إنهما لم يحاولا إثبات وجوده وبذلك فإن إيل لم يكن تجريباً فلسفياً. ففي العالم القديم كانت المانا حقيقة

حياتية تفصح عن نفسها، وإلها أثبت جدارته إذا استطاع أن يكون فعلاً. وستكون هذه البراغمية عاملاً هاماً في تاريخ الله على الدوام. فقد استمر الناس في تبني تصور محدد للمقدس لأنه كان يعمل لصالحهم، وليس لأنه كان صحيحاً علمياً أو فلسفياً.

عاد يعقوب من حران مع زوجته وأسرته بعد مضي سنوات. وما أن وطئت قدماه أرض كنعان ثانية حتى رأى ظهوراً آخر: عندما صارح طوال الليل غريباً عند مخاضة ييوف Jabbok في الضفة الغربية. وعند الفجر قال خصمه له - مثل معظم الكائنات الروحية - أن عليه أن يرحل، لكن يعقوب تمسك به، لأنه لم يكن يريد تركه يذهب حتى يخبره عن اسمه. كانت معرفة اسم شخص - في العالم القديم - تعني إعطائك قدرة محددة عليه، ولهذا السبب تردد الغريب في ذكر هذه المعلومة. وبعد أن تطورت مقابلة الغريب أدرك يعقوب أن خصمه ليس إلا إله ذاته:

وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك. فقال لماذا تسأل عن اسمي. وبازكّة هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فيثيل. قائلاً لأنني نظرت الله وجهاً لوجه، ونجّيت نفسي^(٤).

معنى هذا الظهور أقرب إلى معنى الإلياذة، أكثر من قربه من التوحيد اليهودي لأن هذا الاحتكاك بالله يُعدّ فكرة تجديفية.

على الرغم من أن هذه الحكايات القديمة تبين أن الآباء كانوا يقابلون آلهتهم مثلما كان يقابل معاصروهم الوثنيون آلهتهم، إلا أنها تقدم مجالاً جديداً في التجربة الدينية. ففي التوراة يسمى ابراهيم «الإنسان المؤمن». ففي يومنا هذا نميل إلى تعريف الإيمان على أنه قبول فكري بعقيدة ما. بيد أن الكتاب التوراتيين لم ينظروا إلى الإيمان بالله كاعتقاد تجريدي أو ميتافيزيقي. فهم عندما يشيدون بإيمان ابراهيم فإنهم لا يمتدحون عقيدته (أي تبني رأي ثيولوجي صحيح بالله) بل يمتدحون ثقته مثلما نقول نحن إننا نثق بشخص ما أو بمثل أعلى. في التوراة ابراهيم رجل مؤمن لأنه وثق أن الله سيفي بوعوده حتى وإن بدت خيالية لإبراهيم. إذ كيف كان ممكناً أن يصبح ابراهيم أباً لأمة عظيمة وزوجته سارة عاقراً؟ كانت سارة قد تجاوزت سن اليأس، وكانت فكرة الإنجاب سخيفة، للدرجة أن ابراهيم وسارة انفجرا ضاحكين عندما سمعا هذا الوعد. فلدى ولادة ابنهما.. خلافاً لكل التوقعات أسمياه اسحق (اسم قد يعني الضحك)، إلا أن الدعابة بدت حامضة عندما طلب الله طلباً مرعباً: ينبغي على ابراهيم أن يقدم ابنه الوحيد قرباناً له.

كانت عادة تقديم قربان بشري أمراً شائعاً في العالم الوثني. كان أمراً قاسياً، لكن

كان فيه منطق وعقلانية. كان الناس يعتقدون أن الطفل البكر هو من إنجاب إله حملت منه الأم في *derve de seigneur*. ففي أثناء ولادة الطفل كانت قدرة الإله تقصد بحيث يُرَوِّد الطفل بها ولتؤمن دورة لكل المانا المتوفرة، ولهذا السبب كان يُعاد إلى والده الإلهي. بيد أن حالة اسحق كانت مختلفة تماماً لأنه كان هبة من الله ولم يكن ابناً طبيعياً له وبالتالي لم يكن هناك سبب يدعو للتضحية به، ولا حاجة لسد نقص القدرة الإلهية. وهكذا كان القربان لا معنى له في حياة إبراهيم كلها التي كانت قائمة على الوعد بأنه سيصبح أباً لأمة عظيمة. ويبدو أن هذا الإله قد بدأ يتم تصوُّره بشكل مختلف عن معظم الآلهة الأخرى في العالم القديم. إنه لم يشارك البشر محتهم البشرية، ولم يطلب إدخال قدرة من البشر. لقد كان نموذجاً مختلفاً باستطاعته أن يطلب ما يشاء. لقد قرر إبراهيم أن يتقرب به، فبدأ رحلة مع ابنه اسحق طوال ثلاثة أيام إلى جبل مورية Moriah الذي أصبح لاحقاً موقع الهيكل في أورشليم. لم يكن اسحق يعرف شيئاً عن الأمر الإلهي، فكان عليه أن يحمل الحطب من أجل محرقته هو. ففي اللحظة الأخيرة التي كان إبراهيم يمسك السكين بيده رقى الله له فأخبره أن ذلك كان امتحاناً له. وهكذا أثبت إبراهيم أنه جدير أن يصبح أباً لأمة عظيمة سيبلغ تعدادها عدد نجوم السماء أو كتعداد ذرات الرمل على شاطئ البحر.

تبدو هذه القصة مرعبة لإنسان عصري لأنها تصور الله طاغية وسادياً نزوياً، وبالتالي ليس مستغرباً أن يرفض الناس إلهاً من هذا النوع بعد سماعهم لهذه القصة عندما كانوا أطفالاً. إن أسطورة الخروج من مصر عندما قاد الله موسى وأطفال إسرائيل إلى الحرية مهينة للعقول المعاصرة. كان فرعون متردداً بالسماح لشعب إسرائيل بالخروج. لكن كي يلوي الله ذراعه أرسل عشرة أوبئة إلى شعب مصر: تحول النيل إلى دم، وأجذبت الأرض لأنها امتلأت جراداً وضفادع، وغرقت البلاد كلها في ظلام دامس، وأرسل ملاك الموت كي يقتل الأبناء البكور للمصريين جميعاً، وأن يبقى على أبناء العبيد المصريين. فليس مستغرباً إذا سمح فرعون للإسرائيليين بالرحيل، غير أنه غير رأيه وطاردهم جيشه. لحق الجيش بهم عند البحر الأحمر، وأتخذ الله الإسرائيليين عندما شق البحر أمامهم فعبروا دون أن تبطل ثيابهم بماله. وعندما كان المصريون في أثرهم أطبق البحر عليهم ففرق فرعون وجيشه.

هذا إله متوحش، متحيز، وسفاح: إله محارب يعرف باسم يهوى Sabaoth أي إله الجيوش: إله محارب مندفع، لا مكان للشفقة في قلبه إلا لأحبائه، إنه بكل بساطة إلهي قبلي. فلو بقي يهوى إلهاً همجياً لكان اختفاؤه أفضل لأي شخص كان. فليس المقصود من القصة الأخيرة من سفر الخروج كما وصلتنا من التوراة -

أن تكون رواية حرفية للأحداث، بل أن تنقل رسالة واضحة إلى سكان الشرق الأوسط القديم الذين كانوا معتادين على آلهة تشق البحر نصفين. قيل أن مردوخ قد قَسَمَ بحراً مادياً في العالم الدنيوي في زمن تاريخي، وبالتالي لم يكن يهوى مثله أو مثل بلع. هناك محاولة يسيرة نحو الواقعية. فعندما أعاد الإسرائيليون سرد قصة الخروج لم يكونوا مهتمين بالذقة التاريخية كاهتمامنا اليوم. لقد أرادوا إبراز أهمية الحدث الأصلي مهما يكن ذلك الحدث. يقترح بعض العلماء المعاصرين أن قصة الخروج هي عرض أسطوري للثورة فلاحية مظفرة ضد سلطات مصر وحلفائها في بلاد كنعان^(١٥). وأن هذه الثورة كانت حدثاً نادراً في ذلك العصر، ولا بد أنها أحدثت تأثيراً لا يمحي في كل شخص معني بها. فكانت بذلك تجربة فريدة لانتصار المضطهدين على الأقوياء.

لم يبق يهوى إله الخروج العنيف القاسي، كما سنرى. علماً أن هذه الأسطورة ذات أهمية في الأديان التوحيدية الثلاثة. وما يدعو إلى الغرابة أن الإسرائيليون قد حولوه إلى خارج نطاق الإدراك، إلى أحد رموز التسامي والرحمة. مع ذلك تبقى قصة الخروج الدموية تلهم بتصورات خطيرة عن الله، وبيولوجيا انتقامية. فخلال القرن السابع ق.م. يستخدم مؤلف سفر التثنية الأسطورة القديمة كي يؤكد على ميثولوجيا «الاختيار» الخفيفة التي لعبت - في أوقات مختلفة - دوراً فاجعاً في تاريخ الأديان الثلاثة. ففكرة الله شأنها شأن أية فكرة بشرية - قد تُسْتَعْمَل ويُساء استخدامها. فقد ألهمت أسطورة شعب مختار ديناً ضيقاً منذ زمن التثنية حتى ظهور النزعة الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام والتي تلقى انتشاراً واسعاً في أيامنا هذه. إلى جانب ذلك لقد حفظ سفر التثنية أيضاً شرحاً لأسطورة الخروج كان له دور فعال إيجابي في تاريخ الوحشية عندما يتحدث عن إله إلى جانب الضعفاء والمضطهدين. ففي الفصل ٢٦/ من سفر التثنية لدينا ما يمكن اعتباره تفسيراً مبكراً لقصة الخروج قبل أن يدونها J و E في قالب قصصي. فالإسرائيليون مأمورون بتقديم بواكير الثمار والمحاصيل إلى كهنة يهوى، ويدلون بهذه الشهادة:

ثم تُصْرَحُ وتقول أمام الربِّ إلهك: أرامياً تأتينا كان أبني فأنحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة. فأساء إلينا المصريون وقللوا علينا وجعلوا علينا عُثْرَ دِيَّةٍ قاسية. فلما صرخنا إلى الربِّ إله آبائنا سمع الربُّ صوتنا ورأى مشقتنا وتعبنا وضيقنا. فأخرجنا الربُّ من مصر بيدٍ شديدة وذراعٍ رُبْعَةٍ ومخاوفٍ عظيمة وآياتٍ وعجائب وأَدْخَلَنَا هذا المكان وأَعْطَانَا هذه الأَرْضَ أَرْضاً تَفِيضُ لَبْناً وَعَسلاً. فَالآن هَا أَنَا ذَا لَدِ أَتَيْتُ بِأَوَّلِ ثَمَرِ الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتَنِي يَا رَبِّ^(١٦).

إن الإله الذي ربما ألهم أول انتفاضة فلاحية ناجحة في التاريخ هو إله ثورة، وقد ألهم - في الأديان الثلاثة المثل الأعلى في العدالة الاجتماعية، علماً أن اليهود والمسيحيين والمسلمين قد فشلوا في أغلب الأحيان في تحقيق هذا المثل الأعلى، بل حولوا هذا الإله إلى إله الوضع الراهن.

لقد سُمي الإسرائيليون يهوى «إله آبائنا»، ويبدو أن من المحتمل أنه كان إلهاً مختلفاً تماماً عن إيل الكنعاني الله المتعالي الذي عبده الآباء. وربما كان يهوى إله شعب آخر قبل أن يصبح إله إسرائيل. يصير يهوى في جميع تجلياته لموسى - تكراراً أنه هو حقاً إله إبراهيم على الرغم من أنهم أطلقوا عليه إيل شادي في البداية. فقد يحفظ هذا الإصرار الأصداء البعيدة لمناظرة قديمة جداً حول هوية إله موسى. لقد قَدِّم اقتراح أن يهوى كان أصلاً إلهاً محارباً، إله البراكين، إله كان الناس يعبّدونه في مدين (أي الأردن الآن). لن نعرف أبداً أين اكتشف الإسرائيليون يهوى، هذا إذا كان فعلاً إلهاً جديداً تماماً. وهذه مسألة بالغة الأهمية لنا اليوم، لكنها لم تكن مسألة حاسمة بالنسبة للكتاب التوراتيين. فالآلهة في الفترة الوثنية القديمة كانت تُلمَع وتُغْلَم في أغلب الأحيان، أو أن الناس كانوا يقبلون الآلهة المحلية في منطقة محلية على أنها نظائر لإله شعب آخر. فمهما كان أصل هذا الإله فإن أحداث الخروج جعلت يهوى إله إسرائيل النهائي المميز. لقد كان موسى قادراً على إقناع الإسرائيليين أن يهوى واحد، مثله مثل إيل تماماً، الإله الذي أحبه إبراهيم واسحق ويعقوب.

لقد تم التحفظ اليوم على النظرية التي تدعى النظرية المدنية (من كلمة يَدُنْ) التي تقول أن يهوى كان أصلاً إله شعب مدين. لكن موسى رأى يهوى في مدين للمرة الأولى. ويجب أن نتذكر أن موسى كان مجبراً على الهروب من مصر لأنه قتل مصرياً كان يسيء معاملة عبد إسرائيلي. فالتجأ إلى مدين وتزوج هناك. وبينما كان يرعى أغنام والد زوجته رأى منظرأ غريباً: شجيرة كانت تحترق دون أن تنطفئ. وعندما اقترب منها كي يستطلع الأمر ناداه يهوى باسمه فصاح موسى «ها أنا ذا» إجابة كل نبي من أنبياء بني إسرائيل عندما كان يقابل الله الذي كان يطلب انتباهاً كلياً وخضوعاً تاماً:

قال الرب: لا تقرب إلى هنا. اخلع حذاءك من رجليك. لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قال أنا إله أبوك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله^(١٨).

فصيح التوكيد هذه بأن يهوى هو فعلاً إله إبراهيم يعني بكل وضوح أنه إله من نوع مختلف جداً عن الإله الذي جلس وشارك إبراهيم وجبته كصديق له، إنه يوحى بالرب،

ويصر على إبقاء مسافة فاصلة. فعندما يسأل موسى الإله عن اسمه يجيب يهوى بتورية حيرت الموحدين طوال قرون. فبدلاً من أن يفصح عن اسمه مباشرة يجيب «أهيه الذي أهيه». ماذا كان يعني بذلك؟ إنه بالتأكيد لم يكن ما أكدته فلاسفة لاحقون أنه موجد نفسه بنفسه لأنه لم يكن قد بلغ العبرانيون هذا البعد الميتافيزيقي في تلك المرحلة، «أهيه الذي أهيه» مصطلح عبري للتعبير عن غموض متعمد. فعندما ترد عبارة في التوراة مثل «ذهبوا حيث ذهبوا» فإنها تعني ليس لدي أدنى فكرة عن المكان الذي ذهبوا إليه. وهكذا عندما يسأل موسى عن هوية الله يجيب الله «لا تفكر أبداً من أكون، اهتم بعملك فقط». فالنقاش في طبيعة الله لم يكن مسموحاً به، ولم نجر محاولة لتناولها مثلما كان الوثنيون يفعلون أحياناً عندما كانوا يرددون أسماء آلهتهم. فيهوى هو الأحد غير المشروط: سأكون ما سأكون، سيكون ما يختاره تماماً، ولن يقدم ضمانات. بكل بساطة لقد وعد أنه سوف يشارك في تاريخ شعبه، وسيوضح أن أسطورة الخروج كانت حاسمة، لم تكن قادرة على تعريض أمل المستقبل للخطر حتى في ظروف مستحيلة.

كان لا بد من دفع ثمن مقابل هذا الإحساس الجديد بالسيادة. كان الناس يعتقدون أن آلهة السماء بعيدة جداً عن الإهتمامات البشرية، والآلهة الأصغر منها مثل بعل ومردوخ والإلهات الأم أصهبت قرية جداً من البشر، لكن يهوى قد فتح البرزخ الفاصل بين الإنسان وعالم الآلهة من جديد. وهذا أمر واضح تماماً في قصة جبل سيناء. فعند وصولهم إلى الجبل طلب من الناس تطهير ملابسهم وأن يبقوا على مسافة. كان على موسى أن يحلر الإسرائيليّين: «احلروا الصعود إلى الجبل أو بلوغ أسفله، ومن يلامس سفحه سوف يقتل. لذلك وقف الناس بعيداً عن الجبل، وهبط يهوى في نار وسحابة.

عند فجر اليوم الثالث سمعت جليجلة رعد على الجبل، ووميض برق. سحابة كثيفة وصوت صبور، فارتجفت الناس داخل المعسكر. ثم أخرج موسى الناس خارج المعسكر للملاقاة الله، ووقفوا عند أسفل الجبل. لف الدخان جبل سيناء كله لأن يهوى قد هبط عليه في نار. مثل دخان من فرن، صعد الدخان فاهتز الجبل كله بهتف^(٢٠).

صعد موسى وحده إلى قمة الجبل، واستلم ألواح الشريعة. فبدلاً من أن يتعرف على مبادئ النظام والانسجام والعدالة في طبيعة الأشياء ذاتها كما هي الحال في الرؤية الوثنية نرى الشريعة قد سلّمت إليه من عل. فإله التاريخ يوحى باهتمام أكبر بالعالم الدنيوي الذي هو مسرح عملياته، لكن هناك أيضاً احتمال تغريب عميق عنه.

في النص الأخير من سفر الخروج - الذي دَوّن في القرن الخامس ق.م. يقال إن يهوى قد أبرم ميثاقاً مع موسى على جبل سيناء (يفترض أن هذا الحدث وقع نحو عام ١٢٠٠ ق.م). فهناك جدل كبير بين العلماء حول هذا الموضوع. يعتقد بعضهم أن هذا الاتفاق لم يصبح ذا أهمية في إسرائيل حتى القرن السابع ق.م. لكن مهما كان تاريخ إبرامه فإن فكرة الميثاق تخبرنا أن الإسرائيليين لم يكونوا قد أصبحوا موحدين بعد، فالميثاق ليس له أي معنى إلا في جو يؤمن يوحانية الله.. فالإسرائيليون لم يكونوا حتى تلك اللحظة يؤمنون أن يهوى إله سيناء هو الإله الواحد، ولهذا نجدهم في الميثاق يعدون بتجاهل كل الآلهة الأخرى، وأن يعبدوه وحده. فالثور على جملة توحيدية واحدة في أسفار موسى الخمسة كلها أمر صعب جداً. حتى الوصايا العشر التي سلمت على جبل سيناء تعتبر وجود آلهة أخرى أمراً بديهياً ولن يكون هناك آلهة غريبة لك أمام وجهي^(٢١) لقد كانت عبادة إله واحد خطوة لا سابقة لها تقريباً. لقد سعى الفرعون المصري أختاتون إلى عبادة إله الشمس وإلى إهمال الآلهة التقليدية الأخرى في مصر، لكن سياساته هذه سرعان ما انقلبت في عهد من خلفه. لقد كان تجاهل مصدر كامن للماثا حماقة صريحة، ويوضح التاريخ اللاحق للإسرائيليين أنهم كانوا مترددين جداً في إهمال عبادة الآلهة الأخرى. لقد أثبت يهوى خبرته في الحرب، لكنه لم يكن إله خصب. فعندما استقروا في أرض كنعان تحول الإسرائيليون غريزياً إلى عبادة بعل صاحب أرض كنعان الذي كان يجعل المحاصيل تنمو منذ زمن مفرق في القدم. أمّا الأنبياء فقد حثوا الإسرائيليين على البقاء مخلصين لميثاقهم مع يهوى بيد أن الأغلبية استمرت في عبادة بعل وعشيرة وعناة بالطريقة المعتادة. فالتوراة تخبرنا أنه بينما كان موسى على قمة جبل سيناء ارتدت بقية الناس إلى الدين الكنعاني الوثني الأقدم عندما صنعوا عجلاً ذهبياً - التمثال التقليدي للإله إيل - وأدوا الشعائر القديمة أمامه. قد يكون وضع هذه الحادثة يتجاوز صاخر مع الظهور الذي يوقع الرهبة على جبل سيناء محاولة قام بها المؤلفون الأخيرون لأسفار موسى الخمسة كي يدللوا على مراة التقسيم في إسرائيل. فقد بشر الأنبياء - مثلما فعل موسى - بدين يهوى النبيل، بينما كان معظم الناس يريدون الشعائر القديمة. برؤيتها المقدسة للوحدة بين الآلهة والطبيعة والبشر.

وعد الإسرائيليون أن يتخذوا يهوى إلهاً وحيداً لهم يُعبد خروجهم، وذكرهم الأنبياء بميثاقهم في السنوات اللاحقة. لقد وعدهم يهوى أن يكونوا شعبه المختار، وأن يحيطهم بحمايته الفريدة إذا ما عبدوه وحده. وقد حذرهم من أنه سوف يلزمهم دون رحمة إذا ما

نقضوا عهدهم، مع ذلك وافقوا على العهد، ونجد في سفر يشوع نصاً قديماً للاحتفال بهذا العهد بين إسرائيل وربه. كان العهد معاهدة رسمية استخدمت كثيراً في السياسات الشرق أوسطية للتوثيق بين فريقين. وكانت تتخذ شكلاً موضوعاً سلفاً. كان يجب أن يبدأ الاتفاق بتقديم الملك الأقوى، ثم ينوه الاتفاق بتاريخ العلاقات بين الفريقين حتى وقت الاتفاقية. وفي نهايتها تذكر بنود الاتفاق والشروط والعقوبات التي تفرض إذا خالف أي من الفريقين ما نص عليه الاتفاق. فالفكرة الأساسية في العهد هي الولاء المطلق. فقد أبرم الملك الحثي مورسيليـس Mursilis الثاني عهداً مع تابعه دوبي تاشيد Duppitashed في القرن الرابع عشر ق.م. اشترط فيها الملك الشرط التالي: «لا تتحول عني إلى أي شخص آخر. أجدادك قدموا الجزية في مصر، وأنت لن تفعل ذلك.. وسوف تكون صديقاً لصديقي، وعدواً لعدوي». وتخبرنا التوراة أنه عندما وصل الإسرائيليون إلى أرض كنعان، وانضموا إلى ذويهم هناك أبرم جميع أحفاد إبراهيم عهداً مع يهوى. وترأس يشوع - الذي تخلف موسى - مراسم التوقيع بصفته ممثلاً ليهوى. تسير الاتفاقية وفق النموذج المعهود، ثم تعرف بيهوى، وعلاقاته مع إبراهيم، واسحاق ويعقوب ورد ذكرهم أيضاً ثم رويت أحداث الخروج. وفي النهاية وضع يوشع بنود الاتفاق، وطلب الموافقة الرسمية من شعب إسرائيل المجتمعين.

فالآن انضموا يهوى، واعلموه بإخلاص تام.

نشأ جانباً الآلهة التي خدمتموها في الماضي وراء النهر (الأردن)

ولي مصر، واعلموا يهوى. لكن إذا قررتم ألا تخدموا يهوى فاختاروا

اليوم من تودون خدمته. إما الآلهة التي خدمها أجدادكم وراء النهر

أو آلهة العموريين الذين تعيشون في أرضهم الآن^(٢٧).

كان للناس حق الاختيار بين يهوى والآلهة الكنعانية التقليدية، لكنهم لم يترددوا لعدم وجود إله مثل يهوى، ولم يكن لإله آخر تأثير كبير على عابديه مثله. فحضوره القوي في شئونهم كان واضحاً دون أدنى شك، وبذلك كان يهوى في مستوى المهمة كي يصبح إلههم. كانوا يبدونه وحده رامين بالآلهة الأخرى جانباً. حذرهم يشوع من أن يهوى غيورٌ جداً، وأنه سوف يدمرهم إذا أهملوا بنود العهد. وقف الناس وقفة صلبة فاختاروا يهوى إلهاً وحيداً لهم. فصاح يشوع «إن ارموا الآلهة الغريبة بعيداً عنكم، وقدموا قلوبكم إلى يهوى، إله إسرائيل»^(٢٨).

يتضح من التوراة أنهم لم يقوا بعهدهم، إذ كانوا يتذكرونه في أوقات الحرب، أي عندما كانوا يحتاجون إلى حماية يهوى العسكرية البارعة. بينما عبدوا في أوقات اليسر بعل وعناة وعشيرة بالطريقة التقليدية. على الرغم من أن عبادة يهوى كانت مختلفة اختلافاً عميقاً في نزعتها التاريخية، إلا أنها عبرت عن نفسها غالباً في أشكال الوثنية القديمة. فعندما بنى الملك سليمان هيكلًا ليهوى في أورشليم - المدينة التي استولى عليها والده داوود من جيبوسيتس Jebusites - بناه بشكل مماثل لمعابد الآلهة الكنعانية. كان الهيكل مؤلفاً من ثلاث فصح مربعة تقضي إلى غرفة صغيرة مكمية الشكل تعرف باسم قدس الأقداس، وفيها وضع تابوت العهد والمذبح النقال الذي كانوا ينقلونه معهم في سنوات التيه. وداخل الهيكل حوض برونزي ضخم مثلاً للإله Yam البحر البدئي في الأسطورة الكنعانية، وعمودان يبلغ ارتفاعهما ٤٠ / قدماً يدلان على عبادة الخصب عند عشيرة.

استمر الاسرائيليون في عبادة يهوى في المصوامع القديمة التي ورثوها من الكنعانيين في بيت إيل وشيلوه وحبرون وبيت لحم ودان Dan حيث كانت تمارس الطقوس الوثنية. وسرعان ما اكتسب الهيكل خصوصية، مع ذلك كانت تمارس فيه نشاطات لاعتلاقة لها بالعقيدة. بدأ الإسرائيليون يرون في الهيكل رمزاً لعرش يهوى في السماء. وكان لديهم احتفال خاص بهم في بداية السنة الجديدة في الحزيف. يبدأ الاحتفال بطقس القرбан في يوم الغفران. ويحين احتفال الحصاد الذي يسمى وعام القرбан احتفاءً ببداية السنة الزراعية. وقد اقترح البعض أن أناشيد المزامير كانت تحضي بتنصيب يهوى في هيكله في عيد الغفران، مثل الاحتفال بتنصيب مردوخ الذي كان إعادة تمثيل لقهر العماء البدئي^(٢٤). الملك سليمان شخصياً كان توفيقاً كبيراً: فزوجاته الوثنيات الكثيرات كن يعبدن آلهتهن الخاصة بهن، بالإضافة إلى علاقته الودية مع جيرانه الوثنيين.

في النهاية كانت عبادة يهوى مهلدة على الدوام بخطر الاندثار على يد الوثنية الشعبية. وقد أصبح هذا الخطر جلياً خلال النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. ففي عام ٨٦٩ ق.م تبوأ الملك أحاب Ahab العرش في مملكة إسرائيل الشمالية. وزوجته جزييل Jezebel ابنة ملك تائر Tyre وصيدون - أي ما يعرف الآن باسم لبنان - كانت متحمسة، ومصممة على تغيير دين البلاد إلى دين بعل وعشيرة. فقد استوردت كهنة بعل، وسرعان ما وجدوا أتباعاً لهم بين الشماليين الذين هزمهم الملك داوود. وكانت حماسهم

فأثره تجاه يهوى. لقد بقي أحباب مخلصاً ليهوى لكنه لم يحاول وضع حد لدعوة جيزييل الدينية. ففي أواخر عهده ضرب القحط الأرض، وبدأ نبي يدعى إيليا Eli-jah (أي يهوى هو إلهي) ينتقل في البلاد، مرتدياً عباءة من الشعر، ومثثراً جلدياً، شاجباً عدم الولاء ليهوى.

دعا إيليا الملك أحباب والناس إلى منافسة بين يهوى وبعل على جبل الكرمل. وخطب في الناس بحضور ٤٥٠ / كاهناً من كهنة بعل:

إلى متى ستبقون مضطربين بين هذين الإلهين؟ ثم طلب ثورين، نور له وآخر لأنبياء بعل ثم وضعهما على مذبحين. بعدئذ دعا الناس الإلهيما كي يرسل نارا من السماء تشعل المحرقة. نادى أنبياء بعل إلههم طوال الصباح، وهم يرقصون حول مذبحهم، وكانوا يصيحون ويضربون أنفسهم بالسيف والرمح، لكن «دون فائدة». سخر منهم إيليا قائلاً «صيحوا بصوت أعلى»، «لأن بعل إله: هل هو منشغل البال، أم مشغول عنكم، أم أنه مضى في رحلة، قد يكون نائماً وسوف يستيقظ» لكن عبثاً لم يحدث شيء.

بعد ذلك جاء دور إيليا. فتجمع الناس حول مذبح يهوى. ثم حفر خندقاً حول المذبح وملاه ماءً كي يجعل إشعال النار أمراً صعباً. ثم نادى يهوى، فسقطت نار من السماء والتهمت المذبح والثور، وجف كل الماء في الخندق. فخر الناس على وجوههم قائلين: «يهوى إله، يهوى إله». لم يكن إيليا منتصباً متسامحاً، أمر الناس أن يلقوا القبيض على كهنة بعل فلم ينجو منهم أحد، ثم أخذهم إلى واد قريب وذبحهم جميعاً^{٢٥}. ثم تكن الوثنية تسعى عادة إلى فرض نفسها على شعب آخر. جيزييل استثناء هام - لأنه كان دائماً هناك متسع لإله آخر في هيكل الآلهة إلى جانب الآلهة الأخرى. تبين هذه الأحداث الأسطورية المبكرة أنه منذ الدعوة الأولى لعبادة يهوى كانت تتطلب قمعاً عنيفاً ورفضاً لأديان أخرى، وهذا ما سنبينه في الفصل التالي بشكل مفصل. صعد إيليا إلى قمة جبل الكرمل بعد المذبحة، وجلس مصلياً واضعاً رأسه بين ركبتيه، وأرسل خادمه كي يتفحص الأفق من حين لآخر. وأخيراً حمل الخادم نبأ سحابة صغيرة يقارب حجمها حجم رأس إنسان، كانت ترتفع من البحر. طلب منه إيليا أن يمضي إلى الملك أحباب وأن يطلب منه العودة إلى منزله قبل أن يمنعه المطر من ذلك. ثم أظلمت السماء بغيوم تنذر بعاصفة، ثم هطل مطر غزير. طوى إيليا عباءته وهو منتش وركض إلى جانب عربة أحباب. وهكذا اغتصب يهوى وظيفة بعل كإله للعواصف، مثبتاً بذلك أن فعاليته في الخصب لا تقل عن فعاليته في الحرب. خاف إيليا من رد فعل على المذبحة التي ارتكبها فهرب إلى شبه جزيرة

سيناء، ولجأ إلى الجبل حيث أظهر الله نفسه لموسى. وهناك عرف التجلي الذي طبع الروحانية اليهودية (من يهوى) بطابعه. ثم تلقى أمراً أن يقف في صدى صخرة كي يحمي نفسه من التأثير الإلهي:

وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شملت الجبال وكشرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار وبعد النار صوت منخفض خفيف. فلما سمع إيليا لفّ وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة^(٢٦).

كان يهوى مختلفاً عن الآلهة الوثنية لأنه لم يكن في أي من قوى الطبيعة بل في ملكة بعيدة.

لقد تخفى في الريح، فليس بالإمكان تصوره في وهم صمت ناطق.

تحتوي قصة إيليا الرواية الأسطورية الأخيرة للماضي في التوراة اليهودية. فالتغير كان في الهواء في أرجاء العالم المتمدن. تعرف الفترة الواقعة بين عام ٨٠٠ ق. م حتى ٢٠٠ ق. م باسم العصر المحوري Axial Age. فقد خلق الناس في جميع المناطق الرئيسية من العالم المتحضر - أيديولوجيات جديدة استمرت في دورها الحاسم والتوليدي. فالنظم الدينية كانت تعكس الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة. ولأسباب لا نفهمها كلها نجد أن الحضارات الرئيسية قد تطورت في مسارات متوازية، حتى عندما كان هناك احتكاك تجاري (كما كان بين الصين وأوروبا). لقد أدى إزدهار جديد إلى نشوء طبقة تجارية، فكانت السلطة تنتقل من الملوك والكهنة من المعبد والقصر إلى السوق. لقد أدت الثروة الجديدة إلى ازدهار ثقافي وفكري، وإلى تطور الوجدان الفردي كذلك. لقد أصبح الاستقلال وعدم المساواة أكثر وضوحاً كلما تسارعت خطوات التغير في المدن. عندها بدأ الناس يدركون أن سلوكهم يلعب دوراً مؤثراً على مصير أجيال في المستقبل. لقد طورت كل منطقة إيديولوجيا مميزة كي تخاطب هذه المشكلات والاهتمامات: فكانت التابوة والكونفوشيوسية في الصين، والهندوسية والبوذية في الهند، والعقلانية الفلسفية في أوروبا. لكن الشرق الأوسط لم ينتج حلاً منسجماً - ماعداً إيران وإسرائيل. لقد طور زرادشت والأنبياء العبرانيون على التوالي نسخاً مختلفة للتوحيدية. ففكرة الله التي قد تبدو غريبة مثلها مثل الرؤى الدينية العظيمة الأخرى في تلك الفترة قد تطورت في اقتصاد السوق، في روح وأسمالية عدوانية.

أُتِرح إلقاء نظرة سريعة على اثنين من هذين التطورين قبل أن نبدأ البحث في دين يهوى الذي دخله الإصلاح - في الفصل التالي. لقد تطورت التجربة الدينية في الهند في مسارات مماثلة، بيد أن المسائل التي تؤكد عليها سوف تؤدي إلى تسليط الضوء على السمات والمشكلات الخاصة للمفهوم الإسرائيلي لله. النزعة العقلانية عند أرسطو وأفلاطون هامة أيضاً، لأن اليهود والمسيحيين والمسلمين استمدوا أفكارهم منها وحاولوا أن يعدلوا بما يتناسب مع تجربتهم الدينية، لأن مفهوم الله الإغريقي كان مختلفاً جداً عن مفهوم الله في الأديان الثلاثة.

في القرن السابع عشر غزا الآريون وادي الأندوس Indus - أي ما يعرف الآن باسم إيران - وهزموا السكان الفطريين، وفرضوا أفكارهم الدينية التي نجد تعبيراً لها في مجموعة قصائد تعرف باسم ريج فيدا Rig - Veda حيث نجد حشداً كبيراً من الآلهة، تعبر عن كثير من القيم ذاتها، مثلها في ذلك مثل آلهة الشرق الأوسط التي كانت تمثل قوى الطبيعة كالغريزة مع القوة، الحياة والأهواء الشخصية. مع ذلك كانت هناك بوادر تشير إلى أن الناس بدأوا يدركون أن الآلهة المتنوعة هي بكل بساطة تَمَظْهَرَات لمطلق واحد مقدس، ذلك الذي تعالى عليهم جميعاً. لقد كان الآريون - كما كان البابليون - ملكرين تماماً أن أساطيرهم لم تكن روايات حقيقية للواقع بل كانت تعبر عن سر لم يكن باستطاعة حتى الآلهة أن تجمل له تفسيراً وافياً. فعندما حاولوا تخيل أن الآلهة والعالم قد نشأت من عماء بدئي، استنتجوا أن مامن امرئ بإمكانه أن يفهم سر الوجود:

من يعرف من أين نشأ
مضى نشأ هذا الليض
وهل البقي عن الله أم لم يصدره الله.
فالذي في السماء العليا فقط هو الذي يعرف
أو ربما لا يعرف؟^(٢٧)

لا يحاول دين الفيدا أن يفسر أصول الحياة، ولا أن يقدم إجابات متميزة لأسئلة فلسفية. لقد صُغِّمَ هذا الدين كي يساعد الناس كي يتألفوا مع أعاجيب ورعب الوجود. لقد طرح أسئلة أكثر مما قدم إجابات لأن المراد منه أن يبقى الناس في موقف تعجبي تبجيلي.

كانت التغيرات في الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها شبه القارة الهندية - بحلول القرن الثامن ق.م، أي عندما كان J و B يكتبان تاريخيهما - تعني أن الدين الفيدي القديم لم يعد صالحاً. فأذكّر الناس الفطريين التي اضطهدت في القرون التي

تلت موجات الغزو الآري قد ظهرت إلى السطح مجدداً، وأدت إلى جوع ديني جديد. فالاهتمام بالعاقبة الأخلاقية الذي بُعث من جديد، وكذلك مفهوم أن قدر الإنسان تحدده أفعاله جعلت الناس غير راغبين بإلقاء اللوم على الآلهة بل على سلوك لا مسؤول من جانب البشر. لقد رأوا أن الآلهة كانت رموزاً لحقيقة سامية واحدة. وهكذا أصبح الدين الفينيدي منشغلاً بطقوس التضحية. لكن الاهتمام الجديد بممارسة اليوغا الهندية القديمة كان يعني أن الناس لم يكونوا راضين عن دين كان يركز على الأشياء الخارجية. لم تكن التضحية والقربان المقدس كافيين: أرادوا اكتشاف المعنى الداخلي في هذين الطقسين. فكما سنرى لاحقاً شعر أنبياء إسرائيل بعدم الرضى ذاته. في الهند لم تعد تعتبر الآلهة كائنات أخرى خارجية بالنسبة لعابديها، وسعوا إلى تحقيق وجود داخلي للحقيقة.

لم تعد الآلهة ذات أهمية كبيرة في الهند، ومن تلك الفترة فصاعداً سيحل معلم ديني محلها، بمرتبة أعلى من مرتبة الآلهة. لقد كان التأكيد على القيمة الإنسانية، وعلى الرغبة بالسيطرة على القدر أمراً ممتازاً: تلك كانت البصيرة الدينية العظيمة في شبه القارة الهندية. فالهندوسية والبوذية لم تنكرا وجود الآلهة، لم تمنع الناس من عبادتها، لأن كثيراً ونكراناً كهذا سيلحق الأذى بالناس. لقد بحث الهندوس والبوذيون عن أساليب جديدة لتجاوز الآلهة، أي للذهاب إلى ما وراءها. وهكذا بدأ الحكماء - خلال القرن الثامن - بمعالجة هذه القضايا في كتيبات سميت أرانيكا Aranyakas وأبانيشادز وكلاهما يعرفان باسم فيدانتا Vedanta (أي نهاية الفيدا). ففي نهاية القرن الخامس ق.م بلغ عدد هذه الكتيبات نحو مئتي كتيب. فلا نرى فيها تعميمات حول الدين الذي نطلق عليه اسم الهندوسية، لأن هذا الدين يتحاشى التَّظَنُّمَ وينكر وجود تفسير واحد كافٍ للكون. لقد طورت الأبانيشادز مفهوماً متميزاً للرؤية التي تتجاوز الآلهة، لكنها موجودة بشكل وثيق في جميع الأشياء.

خبر الناس - في الدين الفينيدي - قدرة مقدسة في طقس التضحية، فاسموا براهمين، وتعرف طبقة الكهنة بهذا الاسم، وكان الناس يعتقدون أن هذه القدرة موجودة فيهم. وبما أن طقس التضحية كان يُعتبر عالماً مصغراً للكون كله فقد أصبحت كلمة براهمين تعني قدرة تغذي كل شيء بالحياة. فالعالم كله هو نشاط إلهي يفيض من الوجود البراهمي الغامض الذي كان المعنى الداخلي للوجود كله. فالأبانيشادز شجعت الناس على تبني إحساس براهمي في جميع الأشياء، فكانت عملية كشف بالمعنى الحرفي للكلمة: أي كشف الغطاء عن السبب الدفين للوجود كله. كل شيء يحدث يصبح أحد مظاهر

براهمن. بصيرة مصيبة تكمن في مفهوم الوحدة خلف الظواهر المختلفة. تعتبر بعض كتيبات أبانيشادز براهمن قدرة ذاتية، بينما تراها كتيبات أخرى لاذاتية تماماً. لا يمكن مخاطبة براهمن بكلمة «أنت THOU» لأنها كلمة حيادية، وكذلك الحال مع كلمة هو أو هي، ولا يمكن تعريفها على أنها إرادة إله مهيمن. لا يتحدث براهمن إلى البشر، ولا يقابل الرجال والنساء؛ إنه يتسامى عن جميع هذه النشاطات البشرية. ولا يرد علينا بطريقة ذاتية: الخطيئة لا تضايقه، ولا يمكننا القول أنه يحبنا أو يفضب منا، وليس من اللائق شكره أو مدحه لأنه خلق العالم.

هذه القدرة الإلهية لو لم تكن من أجل الحقيقة لكانت غريبة تماماً، إنها منتشرة في الكون، وتمتدنا بالحياة، وتلهمنا. لقد جعلت أساليب اليوغا الناس مدركين لعالم داخلي. فخطوات اتخاذ الوضع المناسب، والتنفس، والحمية، والتركيز العقلي قد تم تطويرها أيضاً بشكل مستقل في حضارات أخرى، وطورت كما يبدو - تجربة تنويرية وإشراقية تم تفسيرهما بشكل مختلف، لكنهما تبدوان أمراً طبيعياً للبشرية. قالت الأبانشادز أن هذه التجربة تمتلك بعداً ذاتياً جديداً هو القدرة المقدسة نفسها التي كانت تمد بقية مافي العالم بالحياة. لقد سُمي المبدأ الأبدي في كل فرد أتمان Atman : عرضاً جديداً لنظرة القداسة القديمة في الوثنية؛ إعادة اكتشاف - في شروط جديدة - للحياة الواحدة داخلنا وللخارج، التي كانت مقدسة أساساً. يشرح كتيب شاندرغا أبانشادز ذلك في حكاية الملح. درس شاب يدعى سرتاكتو Sretaketu الفيدا طيلة ١٢/ سنة، وكان مغروراً بنفسه. لكن الشاب لم يتمكن من الإجابة على السؤال الذي طرحه عليه والده أودالوكا Uddaloka . بعد ذلك يبدأ الوالد بتلقيه درساً حول الحقيقة الأصلية التي كان الشاب يجهلها جهلاً تاماً. طلب من ابنه أن يضع قطعة ملح في الماء، وأن يذكر له ما يراه في صباح اليوم التالي. طلب الوالد من ابنه أن يفصل الملح عن الماء فأجابه الشاب أن ذلك غير ممكن لأنه ذاب في الماء. فشرع الوالد يسأله:

اشرب منه من فضلك. وقل ماذا يشبه؟

إنه ملح

ارشفه من وسطه، وقل ماذا يشبه؟

إنه ملح

ارشفه من نهايته، وقل ماذا يشبه؟

إنه ملح.

ارمه بعيداً، وادن مني.

فعل الشاب ما طلبه منه والده، لكنه لم يستطع منع الملح من أن يظل ملحاً.
قال له والده: طفلي العزيز! صحيح أنك لا تستطيع أن تترك وجود الملح
هنا لكنه موجود فعلاً هنا.
هذا هو الجوهر الأول موجود في ذات الكون كله: ذلك هو الحقيقي: تلك
هي الذات: فأنت موجود هنا يا ولدي.

وهكذا فعلى الرغم من أننا لا نستطيع رؤيته فإن براهمن منتشر في العالم، وهو
موجود في داخل كل منا وإلى الأبد مثل وجود أتمان^(٢٨).

لقد منعت أتمان الله من أن يصبح صنماً، أي حقيقة خارجية، موجودة في الخارج
أسقاطاً لخاوفنا ورغباتنا. ففي الهندوسية لا يرى الله كوجود مضاف إلى العالم كما نعرفه،
وهو ليس مماثلاً للعالم. ليس هناك سبيل يمكننا من أن نسبر غوره هذا عن طريق العقل. بل
يتكشف لنا ثانية عن طريقة تجربة أنوبهارا Anubhara التي لا يمكن التعبير عنها في
كلمات أو تصورات. فبراهمن هو «مالا يمكن وصفه في كلمات. لكنه مصدر نطق
الكلمات.. إنه مالا يمكن للعقل أن يفكر به، بل حيث يستطيع العقل أن يفكر»^(٢٩). من
الخال أن نتكلم إلى الله لكونه جوهراً، أو أن نفكر به لأننا بذلك نجعل منه موضوعاً
للتفكير. إنه حقيقة ندرکہا في النشوة فقط، في الإحساس الأساسي بالذهاب إلى ما وراء
الذات:

فالله يأتي إلى فكر أولئك الذي يعرفونه وراء الفكر،
ولا يأتي إلى الذين يتخيلون أن بالإمكان إدراكه عن طريق الفكر.
إنه غير معروف للعالمين، ومعروف لدى البسطاء
إنه معروف في نشوة يقظة تفتح باب الحياة الأبدية^(٣٠).

مثل الآلهة، لا يمكن إنكار العقل بل يتم تجاوزه. لا يمكن شرح التجربة البراهمية أو
الأتمانية عقلاً أكثر من كونها مقطوعة موسيقية أو مقطعاً من قصيدة العقل، أمر ضروري،
وكذلك المقدرة على خلق وتذوق عمل فني، لكنه يقدم تجربة تقضي إلى ما وراء الحقيقة
المنطقية المحضنة، أو الحقيقة العقلية. وهذه ستكون أيضاً موضوعاً ثابتاً في تاريخ الله.

لقد تم تجسيد الصورة المثلى لتجاوز الذات في اليوغي الذي يترك أسرته ويحمل كل
علاقاته الاجتماعية ومسؤولياته بحثاً عن الاستنارة، وبالتالي واضعاً نفسه في ملكة وجود
آخر. ففي حوالي سنة ٥٣٨ ق.م غادر شاب يدعى سيد هارتا غوتاما زوجته الجميلة وبيته
الحرف في كابيل أفشتو التي تبعد نحو مئة ميل إلى الغرب من بينيريس ليصبح ناسكاً

متسولاً. لقد روعته المعاناة، فأراد أن يكشف السر حتى نهاية ألم الوجود الذي كان باستطاعته رؤيته في كل شيء حوله. جلس ست سنوات عند أقدام المعلمين الروحانيين الهندوس، واحتمل آلاماً مخيفة دون أن يحرز تقدماً. لم ترق له معتقدات الحكماء، وجعلته إماتة جسده يائساً. وذات ليلة وضع نفسه في حالة نشوة حصل فيها على الاستنارة. قذبت البهجة في عالمه المصغر كله، واهترت صخور الأرض، وسقطت الأزهار من السماء، وهب النسيم العطر، وسعدت الآلهة في السماوات. فالآلهة والطبيعة والبشر كانوا مرتبطين سوياً في حالة حب، تماماً كما هي الحال في النظرة الوثنية. كان هناك أمل جديد بالتححرر من المعاناة وبلوغ الاستنارة في نهاية الألم. وهكذا أصبح غوتاما بوذا المستنير. ففي البداية أغوى الشيطان مارا Mara بوذا بالبقاء حيث كان، وأن يستمتع بالنعمة التي وجدها حديثاً. لم يكن مجدداً محاولة نشر الكلمة لأنه لن يصدقه أحد. لكن اثنان من آلهة الباشيون التقليدي هما ماها براهما وساكرا رب الدمار جئا إلى بوذا متوسلين كي يشرح طريقته للعالم. وافق بوذا على ذلك، وارتحل سائراً على قدميه طوال السنوات الستة والأربعين الباقية في أرجاء الهند مبشراً برسائته: في هذا العالم من المعاناة شيء واحد كان راسخاً هو دهاراما Dharama أي حقيقة العيش المستقيم وهي التي بإمكانها وحدها أن تحررنا من الألم.

لم تكن لهذه الفكرة علاقة بالآلهة. لقد آمن بوذا ضمناً بوجود الآلهة، لأنها كانت جزءاً من متاعه الثقافي، لكنه لم يكن يعتقد أنها ذات فائدة للبشر. فالآلهة أيضاً كانت رهينة في مملكة الألم والتغير، إنها لم تساعد في بلوغ الاستنارة، كانت منشغلة في دورة إعادة الولادة مثل الكائنات الأخرى، وفي نهاية المطاف تتلاشى. في لحظات حاسمة من حياته - عندما اتخذ قرار التبشير برسائته - تخيل أن الآلهة تمارس تأثيراً عليه، وأنها تلعب دوراً فعلياً - لم ينكر بوذا وجود الآلهة لكنه كان يعتقد أن الحقيقة المطلقة للاستنارة أعلى مرتبة من الآلهة. وعندما ير البوذيون بتجربة النعمة الإلهية أو بإحساس بالتسامي في التأمل فإنهم لا يعتقدون أن هذا ناجم عن احتكاك بكائن فوق طبيعي. فحالات كهذه أمر طبيعي للبشرية، ولا يمكن لأي شخص أن يبلغها إلا إذا عاش بطريقة صحيحة، وتعلم فنون اليوغا. لقد حث بوذا تلاميذه على إنقاذ أنفسهم بدلاً من الاعتماد على إله.

فعندما التقى تلاميذه الأول في بيناراس بعد بلوغه الاستنارة لحص بوذا منهجه المبني على حقيقة أساسية واحدة: كل الوجود كان دوکھا Dukkha، كان يتألف من الألم، فالحياة كانت منحرفة كلياً، والأشياء تذهب وتأتي في تواتر لا معنى له. ما من شيء ذي

معنى أبدي. يلدأ الدين بإدراك أن شيئاً ما خطأ. لقد أدى ذلك في الوثنية القديمة إلى أسطورة المقدس: عالم نمطي بدئي مقابل لعالمنا باستطاعته نقل قوته إلى البشر. لقد قال بوذا إن بالإمكان التحرر من الدوكها من خلال العيش. لا نستطيع تعريف الاستنارة لأن كلمائنا ومفاهيمنا مقيدة بعالم الحواس والتحول، فالتجربة هي البرهان الوحيد للموتوق. وكان تلاميذه يعرفون أن الاستنارة كانت موجودة لأن ممارستهم للحياة الخيرة تمكنهم من لحها.

هناك رهبان غير مولودين، غير مخلوقين، غير مركبين.
ولولا هؤلاء لما كان هناك مفر من الرهبان للمولودين
المخلوقين، المركبين، لكن بما أنه هناك غير مولودين، غير مخلوقين
غير مركبين لذلك هناك مفر من المولودين، المخلوقين، المركبين.^(٣٣)

ينبغي على رهبانه ألا يتأملوا في طبيعة الاستنارة، وكل ما كان بوسع بوذا فعله هو أن يزودهم بطوف ليأخذهم إلى الشاطئ البعيد، وعندما سئل عما إذا كان البوذي الذي بلغ الاستنارة يعيش بعد موته، تجاهل السؤال لكونه غير لائق، فهذا السؤال مماثل للسؤال عن اتجاه اللهب عندما انطفأ. من الخطأ القول إن بوذا عاش في استنارة إذا كان لم يبلغها. وكلمة يوجد Exist لا تحمل أي علاقة بأية حالة يمكننا فهمها. وبعد قرون تالية نجد أن اليهود والمسيحيين والمسلمين قدموا الإجابة نفسها على السؤال المتعلق بوجود الله. كان بوذا يحاول أن يبين أن اللغة ليست مجهزة كي تتعامل مع حقيقة تقع وراء التصورات والعقل. لم ينكر العقل بل كان يشدد على أهمية التفكير الواضح والدقيق، وعلى استخدام اللغة. لقد اعتقد أن الثيولوجيا أو المعتقدات التي يتبناها شخص - مثل الطقس الذي شارك به - ليست ذات أهمية، وقد تكون هامة لكنها ليست ذات معنى نهائي. فالشيء الوحيد الهام هو الحياة الخيرة، فإذا ما عشت كذلك فإن البوذيين يشعرون أن دهاراما كانت صحيحة حتى إن لم يكن في وصعهم التعبير عن هذه الحقيقة بكلمات منطقية.

بالمقابل كان الإغريق مهتمين جداً بالمنطق والعقل. فأفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٦ ق.م) كان منشغلاً باستمرار بمشكلات الاستمولوجيا وطبيعة الحكمة. كانت معظم أعماله الأولى مكرسة للدفاع عن سقراط الذي أجبر الناس على إيضاح أفكارهم من خلال طرح أسئلة التي تخبر على التفكير، وحكم عليه بالموت في عام ٣٩٩ ق.م. بتهمة عدم التقوى وإفساد الناشئة. لقد كان ذلك مشابهاً بشكل ما لما كان بين سكان الهند. لم يكن أفلاطون راضياً عن الاحتفالات القديمة، وعن أساطير الدين التي وجد أنها تحط من قدر

الدين. لقد كان أفلاطون متأثراً بفيتاغورث الذي عاش في القرن السادس، وربما كان فيتاغورث متأثراً بأفكار من الهند انتقلت إلى اليونان عبر بلاد فارس ومصر. لقد اعتقد أن الروح كانت إلهاً هابطاً ملوثاً حلت في الجسد كضريح لها، ومقتل عليها المرور بحلقة ولادات جديدة إلى الأبد.

لقد أوضح التجربة البشرية المشتركة للإحساس بالغربة في عالم لا يبدو أنه عنصرنا بحق. علم فيتاغورث أن بالإمكان تحرير الروح عن طريق طقوس تطهيرية تمكنها من تحقيق الانسجام مع الكون المستقر. وقد آمن أفلاطون أيضاً بوجود حقيقة مقدسة لا تتغير وراء عالم الحواس، وأن الروح كانت إلهاً هابطاً، خارج عنصرها مسجونة في الجسد، لكنها قادرة على استعادة مكانتها المقدسة عن طريق تطهير الإمكانيات العقلية في العقل. لقد وصف أفلاطون في أسطورة الكهف الشهيرة ظلام وغموض حياة الإنسان مقابل حياة تراحم تجاه جميع الكائنات الحية، التحدث والتصرف برفق وطيبة ورقة، وبالاحتناع عن أي شيء مشابه للمخدرات أو العقاقير التي تحدث ضباباً في العقل. لم يزعم بوذا أنه ابتكر هذا النظام بل أصر على أنه اكتشفه ولقد رأيت درباً قديماً سار عليه بوذيون في عصر مضى⁽³¹⁾. هذه الطريقة مثل شرائع البوذية كانت مرتبطة ببنية الوجود الأساسية، فطرية في شرط الحياة ذاته. فيها حقيقة موضوعية ليس لأن بالإمكان إضاحتها ببرهان منطقي بل لأنها ذات فعالية لمن يسعى جاهداً أن يعيشها. فالفعالية هي دائماً السمة التي تميز ديناً ناجحاً أكثر من السمة الفلسفية أو التاريخية. فقد وجد البوذيون في عدة أرجاء من العالم وطوال عصور أن أسلوب الحياة هذا يمنح إحساساً ذا معنى سام.

لقد قيدت العاقبة الأخلاقية لكهاراما الرجال والنساء بحلقات لانهاية لها من الولادات الجديدة، في سلسلة من حيوات (جمع حياة) مؤلمة. باستطاعتهم تغيير قدرهم إذا استطاعوا إصلاح مواقفهم الأنانية. شبه بوذا عملية الولادة الجديدة بلهب يشعل مصباحاً، وهذا يشعل مصباحاً واهلتم جرا حتى يطفىء اللهب. فإذا كان امرؤ ملتهياً بموقف خاطيء عند موته فإنه سيضيء مصباحاً آخر. فإذا أطفئت النار فإن حلقة المعاناة تتوقف، ويتم بلوغ الاستنارة. فكلمة نيرفانا تعني حرفياً «الانطفاء» أو «التبريد». إنها ليست مجرد حالة سلبية بل تلعب دوراً في الحياة البوذية المماثلة لحياة الله. فكما يشرح إدوارد كونز Edward Conze في كتابه عن البوذية /جوهرها وتطورها/ غالباً ما يستخدم البوذيون الاستعارة نفسها التي يستخدمها الموحدون في وصفهم الاستنارة التي هي الحقيقة النهائية.

بلغنا أن الاستنارة أبدية، ثابتة وغير قابلة للقضاء، غير متحركة،
لا تُحدّ في عصر محدد، ولا يعترها الموت، وليست ولادية،
ولا تولّد، إنها قدرة، نعمة وسعادة، الملاذ الأيمن،
المأوى، ومكان أمان لا انقطاع فيه، إنها الحقيقة الحقة،
الحقيقة العليا، إنها الخير، الهدف الأسمى، وهدف حياتنا الوحيد،
إنها السكينة الأبدية الكامنة العنيفة على الفهم^(٣٧).

قد يعترض بعض البوذيين على هذه المقارنة لأنهم يجدون مفهوم الله محدداً جداً
بحيث لا يسمح لهم بالتعبير عن تصورهم للحقيقة المطلقة. يعود السبب في ذلك إلى أن
الموحدين يستخدمون كلمة الله بطريقة محددة للإشارة إلى كائن ليس مختلفاً جداً عنا.
يشدد بوذا - كما فعل حكماء الأباتشادز - على أنه ليس بالإمكان تحديد الإستنارة أو
مناقشتها وكأنها حقيقة بشرية أخرى.

بلوغ الاستنارة لا يشبه «الذهاب إلى السماء» كما يفهمها المسيحيون. فقد رفض
بوذا الإجابة على أسئلة تتعلق بالاستنارة، أو بالمسائل المطلقة لأنها كانت أسئلة غير مناسبة
أو غير لاقئة. إنه يدرك فقط ظلالاً للحقائق الأبدية متراقصة على جدار الكهف. بالإمكان
أن يخرج من الكهف تدريجياً، وأن يبلغ الاستنارة والتحرر عن طريق تعويد عقله على النور
الإلهي.

ربما تراجع أفلاطون في مرحلة لاحقة من حياته - عن إيمانه بالأشكال أو المثل
الأبدية، لكنها أصبحت حاسمة لدى كثير من الموحدين عندما حاولوا التعبير عن مفهومهم
«لله». كانت هذه المثل حقائق راسخة يمكن فهمها بقدرات المحاكمة التي يمتلكها العقل.
إنها حقائق أكثر فعالية وأبدية واكتمالاً من الظواهر المادية المتغيرة التي تشكو من نقص فيها
والتي ندركها بحواسنا. فأشياء هذا العالم هي مجرد صدى «بشارك في» أو «يحاكي»
الأشكال الأبدية في المملكة الإلهية. فكل مثل أعلى يقابله تصور عام لدينا مثل الحب
والعدل والجمال. أسمى هذه المثل هو المثل الأعلى للخير. لقد وضع أفلاطون أسطورة
الأنماط البدئية القديمة في قالب فلسفي. تعتبر مثله الخالدة نسخة عقلية للعالم المقدس
الأسطوري الذي يوجد في الأشياء الدنيوية في حالة ظلية. فأفلاطون لا يناقش طبيعة الله
بل يقتصر على عالم المثل المقدسة، فالجمال المثالي أو الخير المثالي يمثلان فعلاً حقيقة عليا.
كان أفلاطون مقتنعاً أن العالم المقدس ساكناً ولا يعتره التغيير. فقد رأى الإغريق أن الحركة
والتغير دلائل على حقيقة أدنى: الشيء الذي له هوية حقيقة يبقى دائماً نفسه، ويتميز
بالأبدية وعدم التغير. ومن هنا كانت الدائرة هي الحركة الأكثر كمالاً لأنها كانت تدور

إلى الأبد وتعود إلى نقطة البداية. دوران العوالم الأرضية هو تقليد للعالم المقدس في أفضل صيغة مستطاعة. وستؤثر هذه الصورة المتوازنة تماماً للألوهة تأثيراً كبيراً على اليهود والمسيحيين والمسلمين مع أنها لا تشترك إلا بالنلر اليسير مع إله التجلي الدائم الفعالية، والمبادرة. ففي التوراة يغير رأيه حتى عندما يندم على خلق الإنسان فيتخذ قراراً بتدمير الذرية البشرية في الطوفان.

هناك جانب صوفي في فكر أفلاطون ويجده الموحدون الأكثر انسجاماً. فالصور المقدسة عند أفلاطون لم تكن حقائق خارجية بل بالإمكان اكتشافها داخل الذات. ففي حوار الدرامي (المأدبة) بين أفلاطون كيف أن بالإمكان تطهير حب جسد جميل وتحويله إلى نشوة تأمل للجمال المثالي. ديوتيمات Diotima معلم سقراط يوضح أن هذا الجمال فريد، أبدي ومطلق لا يشبه أبداً أي شيء نعرفه في هذا العالم.

قبل كل شيء هذا الجمال أبدي. إنه لا يأتي إلى الوجود ولا يهبر، لا ينقص ولا يزيد إنه ليس جميلاً من ناحية وقبيحاً من ناحية، وليس جميلاً حيناً وقبيحاً حيناً آخر. ليس جميلاً في هذه العلاقة وقبيحاً في تلك. ولا جميلاً هنا وقبيحاً هناك. فهو لا يتفاوت وفقاً لمن يراه، وهذا الجمال لن يظهر للمخيلة كجمال وجه أو يدين أو أي شيء مادي آخر أو مثل جمال فكرة أو علم، أو مثل الجمال الذي له مكانه في شيء آخر أكثر من نفسه، ليكن في شيء حي أو في الأرض أو السماء أو أي شيء آخر مهما كان. فمن يراه يراه في شكل مطلق، موجود وحده، داخل ذاته فريد وأبدي^(٣٤).

باختصار في مثل أعلى كالجمال قواسم كثيرة مع ما يسميه الموحدون «الله». فالتأمل - على الرغم من تساميتها فإنها توجد داخل عقل الإنسان. نحن الحدائيون نمارس التفكير كمنشأ، كشيء نفعله، بينما تصوره أفلاطون كشيء يحدث للعقل: كانت موضوعات التفكير حقائق فعالة في ذهن الإنسان الذي يتأملها. لقد رأى التفكير عملية تذكر، كما رآه سقراط: أي فهم شيء كنا نعرفه من قبل لكننا نسيناه. فبما أن البشر آلهة هابطة لذلك فإن مثل العالم المقدس كانت داخلهم، وبالإمكان ملاستها بالعقل الذي هو ليس مجرد نشاط عقلائي أو دماغي بل إدراك حدسي للحقيقة الأبدية داخلنا. وسوف يؤثر هذا التصور كثيراً على المتصوفين في الأديان الثلاثة التي تنادي بوحداية تاريخية.

لقد اعتقد أفلاطون أن الكون بالأساس كان عقلياً، فجاء اعتقاده هذا أسطورة

أخرى وتصوراً خيالياً للحقيقة. لقد دفع أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) الأمر خطوة أبعد من ذلك. فهو أول من قدر أهمية المحاكاة المنطقية التي هي أساس العلم كله، وكان مقتنعاً أن الوصول إلى فهم الكون باستخدام المحاكاة المنطقية أمر ممكن، إضافة إلى محاولة فهم نظري للحقيقة في الكتيبات المعروفة باسم الماورائيات فقد صاغ كلمة الميتافيزيقا، كما درس الفيزياء النظرية وعلم الأحياء التجريبي. كان يتمتع بتواضع فكري جرم، وقال إنه مامن أحد يستطيع الوصول إلى فهم كاف للحقيقة، كل ما يمكننا فعله هو تقديم مساهمة يسيرة في فهمنا الجماعي لها، كان تقسيم أعمال أفلاطون مثار جدل كبير، فيبدو مناقضاً لوجهة نظره في التسامي بما يتعلق في الصور، رافضاً وجوداً مستقلاً سابقاً لها. بينما قال أرسطو إن الأشكال لها حقيقة مادامت موجودة في شكل ملموس، أي أشياء مادية في عالمنا نحن.

على الرغم من توجهه المرتبط بالأرض، وانشغاله بالحقيقة العلمية كان لدى أرسطو فهماً دقيقاً لطبيعة وأهمية الدين والمثولوجيا. فقد نوه إلى أن المدخلين في أدیان الخفایا المتنوعة لا يطلب منهم تعلم أية حقائق «بل أن يعيشوا انفعالات محددة وأن يوضحوا في تصرف سلطة محددة»^(٣٥). ومن هنا كانت نظريته الأدبية الشهيرة القائلة إن المناسبة كانت تؤدي إلى تطهير العواطف كالرعب والشفقة، هذا التطهير الذي كان يعادل تجربة الولادة من جديد. لم تكن المأسا الإغريقية التي كانت تشكل جزءاً من الاحتفالات الدينية تقدم بالضرورة عرضاً حقيقياً لأحداث تاريخية، بل كانت محاولة للكشف عن حقيقة أكثر أهمية. كان التاريخ - في حقيقة الأمر، أقل شأنًا من الشعر والأسطورة: «فالأسطورة تصف ما حدث، بينما يصف الشعر ما قد يحدث». ومن هنا فإن الشعر نتاج أكثر جدية وفلسفية من التاريخ، فالشعر يتحدث عما هو كوني، بينما يتحدث التاريخ عما هو خاص»^(٣٦). وسواء وجد أنخيل أو أوديب تاريخيين فإن حقائق حياتهما لم تكن مرتبطة بالشخصيتين اللتين نعرفهما في هوميروس وسوفوكليس، وتعبر شخصيتيهما عن حقيقة أكثر عمقاً حول الشرط الإنساني، لكنها مختلفة. كان عرض أرسطو لمفهوم التطهير في المأساة تمثيلاً فلسفياً لحقيقة الإنسان المتدين الذي فهم حديقاً على الدوام. فتقديم طقسى أو أسطوري أو رمزي لأحداث لا يمكن احتمالها في الحياة اليومية باستطاعته أن يسترجع أو يحرر ويحول هذه الأحداث إلى شيء نقي وممتع.

كان لتصور أرسطو لله أثراً كبيراً على الموحدين اللاحقين، خاصة على مسيحيي العالم الغربي. لقد تجرّى طبيعة الواقع وبنية ومادة الكون في كتابه /الفيزياء/. لقد أصبح ما

طوره عرضاً فلسفياً لمقطوعات الفيض القديمة لعملية الخلق: كان هناك سلسلة وجودات، يضيئ كل منها شكلاً، ويتغير إلى الشكل الأدنى منه. الفيض في نظرية أرسطو مختلف عن الأساطير القديمة، لأن الفيض يصبح أضعف كلما بُغِدَ عن مصدره. فعلى قمة هذه السلسلة كان المحرك الذي لا يُحرك وهو ما أسماه أرسطو «الله». كان الله وجوداً نقياً وأبدياً، ثاباً وروحياً. كان الله فكراً نقياً وفي الوقت ذاته كان الفكر والفكر، اندمجا في لحظة أبدية من التأمل في ذاته، وهنا هو الهدف الأسمى للمعرفة. فيما أن المادة فيها عيب وفانية لذلك فإن الله خالي من عنصر مادي، وكذلك هي الحالة بالنسبة للوجود الأعلى مرتبة. فالحرك الذي لا يحرك هو الذي يسبب كل حركة ونشاط في الكون، لأنه لا بد أن يكون لكل حركة سبب نرجعه إلى مصدر واحد. إنه ينشط العالم بعملية تجاذب لأن الكائنات جميعاً مشدودة نحو الوجود Being نفسه.

يحتل الإنسان موقعاً متميزاً: فروحه الإنسانية فيها نعمة إلهية هي العقل الذي يجعل الإنسان شبيهاً بالله، ومشاركاً معه في الطبيعة الإلهية. فهذه المقدرة الإلهية هي التي تضع الإنسان في مرتبة فوق مرتبة الحيوان والنبات. فالإنسان - روحاً وجسداً - كون مصغر عن الكون بأكمله، محتر داخل ذاته أحط مواده إضافة إلى صفة العقل الإلهية. ولهذا السبب يجب على الإنسان أن يصبح خالداً والياً عن طريق تطهير عقله. فالحكمة هي أعلى الفضائل الإنسانية، والتعبير عنها يكمن في تأمل الحقيقة الفلسفية التي تجعلنا إلهيين عن طريق محاكاة نشاط الله نفسه. لا يمكن بلوغ التأمل عبر المنطق فقط بل هو حدس منظم ناجم عن نشوة تسام ذاتي. قلة هم القادرون على بلوغ هذه الحكمة، بينما يستطيع معظم الناس بلوغ Phronesis أي ممارسة التبصر والذكاء في الحياة اليومية.

على الرغم من الموقع العام الذي يحتله المحرك الذي لا يحرك في نظام أرسطو فإن صلته الدينية سيرة. فالله لم يخلق العالم لأن هذا يشمل تغييراً غير ملائم، ونشاطاً آتياً. مع ذلك فكل شيء يصبو إليه، فهذا الله يبقى لا مبالياً تماماً لوجود الكون لأنه لا يستطيع أن يتأمل أي شيء أدنى من ذاته. فهو بكل تأكيد لا يوجه العالم، ولا يعير حياتنا اهتماماً بشكل أو بآخر. ويبقى السؤال التالي: هل يعرف الله بوجود العالم المصغر حتى الذي فاض منه كنتيجة لوجوده. مسألة وجود إله كهذا لا بد أن تكون مسألة خارجية بالكامل. ربما تخلى أرسطو عن لاهوته في مرحلة لاحقة من حياته. فكريجين من العصر المحوري كان أرسطو وأفلاطون مهتمين بالوجدان الفردي، والحياة الفاضلة، وبمسألة العدالة

في المجتمع. مع ذلك كان فكرهما تخريبياً، إذ لم يُخَيِّدْ عالم الصور النقي، والإله البعيد الذي نادى به أرسطو سوى تأثير قليل في حياة الناس العاديين. وقد اضطر المعجبون بهما من اليهود والمسلمين إلى الاعتراف بهذه الحقيقة.

في الأيديولوجيات الجديدة في العصر المحوري كان هناك اتفاق تام على أن عنصر تناسم موجود في الحياة البشرية، وكان أمراً أساسياً. لقد فسر الحكماء الذين تعرضنا لهم هذا التناسم تفسيرات متباينة، لكن رؤيتهم للتناسم كعنصر حاسم في تطور البشر كانت موحدة. إنهم لم يبنذوا للتيولوجيات الأقدم نبذاً مطلقاً بل أعادوا تفسيرها فساعدوا الناس على الارتقاء فوقها. فبينما كانت هذه الأيديولوجيات الآنية تتشكل طَوَّرَ أنبياء إسرائيل تراثهم كي يساير الظروف المتغيرة، فكانت النتيجة أن يهوى أصبح في نهاية الأمر الله الواحد. لكن كيف سيتناسب يهوى الغضوب مع هذه الرؤى المتغطسة الأخرى؟

الفصل الثاني

إله واحد

رأى أحد أفراد الأسر الملكية اليهودية - في عام ٧٤٢ ق.م - يهوئ في الهيكل الذي بناه الملك سليمان في أورشليم. كانت هذه الفترة فترة قلق بالنسبة لشعب إسرائيل. فقد توفي ملك يهودا عوزيا Uzziah في هذه السنة، وخلفه ابنه أحاز Ahaz الذي شجع رعاياه على عبادة آلهة وثنية إلى جانب عبادة يهوئ. وكانت مملكة إسرائيل الشمالية في حالة تنذر بغوصى وشيكة. فبعد وفاة الملك جيروبووم Jeroboam الثاني خلفه على العرش خمسة ملوك في الفترة الواقعة بين عام ٧٤٦ - ٧٣٦ ق.م. بينما كان يتطلع الملك الآشوري تغليث بليسر الثالث Tigleth Pileser متلهفاً لاحتلال أراضيهم وضمها إلى إمبراطوريته المترامية الأطراف. وفي عام ٧٢٢ ق.م استطاع خليفته صرغون الثاني هزيمة مملكة الشمال، وأجلى سكانها عنها. لقد أجبرت القبائل الإسرائيلية الشمالية العشر على استيعاب الأمر واختفى ذكرها من التاريخ، بينما كانت مملكة يهودا الصغيرة خائفة على وجودها. فبعد فترة على وفاة الملك عوزيا كان الملك أشعيا يصلي في الهيكل والهواجس تملأ صدره، فلربما كان مدركاً ومتضيقاً لأن الاحتفال بالهيكل بشكل باذخ كان توقفاً غير ملائم. ربما كان أشعيا فرداً من الطبقة الحاكمة لكنه كان ذا آراء ديمقراطية وشعبية، وشديد الحساسية حيال محنة الفقراء، فبينما كانت رائحة البخور عابقة في الهيكل أمام قدس الأقداس، كان المكان عابقاً برائحة دم القرابين؛ ربما خشى أشعيا من أن دين إسرائيل قد فقد كماله ومعناه الداخلي.

لقد خيل إليه أنه يرى يهوئ نفسه جالساً على عرشه في السماء فوق الهيكل مباشرة، هذا الهيكل الذي كان رمزاً لبلاطه السماوي على الأرض. ملأ موكبه الحرم

المقدس، وكان يرفقته اثنان من الأحبار اليهود، قد غطيا وجهيهما بجناحيهما خشية أن ينظرا إلى وجهه. فصاح كل منهما على التوالي: قدّوس، قدّوس، قدّوس صبوات Sabaoth ، مجده يملأ الأرض كلها^(١). بدا وكأن الهيكل كان يهتز من أساساته مع صوتيهما. وامتأ الهيكل بدخان غلف يهوى بحيث لا يمكن لأحد أن يراه، سحابة دخان ماثلة للسحابة والدخان اللذين حجباه عن موسى على قمة جبل سيناء. عندما نستخدم كلمة قدوس اليوم فإننا نشير عادة إلى حالة جودة أخلاقية، بينما كلمة قادوش Kaddosh العبرية لا تمت إلى الأخلاقية بصلة، لكنها تعني الآخرة otherness أي انفصال جذري. لقد أكد ظهور يهوى على جبل سيناء على البرزخ الهائل الذي اتسع فجأة بين الإنسان والعالم المقدس. بعدئذ أخذ الأحبار يصيحون «يهوى هو آخر، آخر، آخر». لقد غير أشياء ذلك الإحساس بالمقدس الذي كان ينزل على فترات فيملأ الناس فتنة وربة. لقد وصف رودولف أوتو في كتابه الكلاسيكي (فكرة المقدس) هذه التجربة الخفية لحقيقة متعالية: إنها مخيفة لأنها تأتي كصدمة عميقة تنقلنا من عراءات الأشياء العادية، وهي فاتنة لأنها تمارس - بشكل متناقض - جاذبية لا تقاوم. هذه التجربة الزاخرة بالقدرة ليس فيها شيء عقلائي، ويقارنها أوتو بقدرة الموسيقى أو الجنس. إذ لا يمكن التعبير عن الانفعالات التي تستثيرها في كلمات أو مفاهيم تفهمها حقها. في الحقيقة لا يمكننا القول إن هذا الإحساس بالآخر المقدس موجود بالفعل لأنه لا مكان له في مخططنا العادي للواقع^(٢). فييهوى الجديد في العصر المحوري كان ما يزال إله الجيوش، لكنه لم يعد مجرد إله محارب، ولم يكن كذلك مجرد إله قبلي منحاز عاطفياً لصالح إسرائيل: فغظمت له تعدد مقتصرة على أرض الميعاد بل ملأت الأرض كلها.

لم يكن أشياء مثل بوذا يمر بتجربة استنارة تجلب السكينة والسعادة، لأنه لم يكن قد أصبح بعد المعلم الكامل للناس. فامتأ قلبه برعب قاتل فصاح بصوت عالٍ.

قلقت ويل لي إني هلكت لأنني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيني قد رأأت الملك رب الجنود^(٣).

وهكذا كان مأخوذاً بقدسية يهوى المتعالية لذلك لم يكن مدركاً لشيء سوى عدم كفايته وعدم طهارته، إنه لم يُعَد نفسه .. كما فعل بوذا أو يوغى - لهذه التجربة بسلسلة من التدريبات الروحية. هيطلت عليه من السماء فهز تأثيرها المدمر كيانه كله. هرع إليه أحد الأحبار حاملاً بيده جمره وطهر شفتيه كي يتمكن من نطق كلمة الله. لقد شعر أنبياء كثيرون إما بعدم الرغبة بالكلام تمجيداً له أو أنهم كانوا غير قادرين على فعل ذلك.

فموسى نسخة طبق الأصل عن جميع الأنبياء كان غير قادر على الكلام عندما ناداه الله من العليقة أمراً إياه أن يكون رسوله إلى فرعون وأطفال إسرائيل^(٤). قدم الله تسهيلات لحل هذا المأزق فسمح لأخيه هارون أن يتكلم نيابة عن موسى. يتجسد هذا الدافع المنتظم في قصص نداعات النبوة صعوبة في نطق كلمة الله. فالأنبياء لم يكونوا متلهفين لإعلان الرسالة الإلهية، وأبدوا تردداً في حمل عبء مهمة تنطوي على الكثير من التعب والألم. وهكذا فقد تحول إله إسرائيل إلى رمز له قدرة على التعالي، وهذا التحول لن يكون عملية هادئة ساكنة بل مليئة بالألم والصراع.

لم يصف الهندوس براهمن كملك عظيم أبداً، لأن وصف إلههم بكلمات بشرية كهذه كان محالاً. ينبغي أن نتوخى الحذر من تفسير قصة أشعيا حرفياً: لأنها محاولة لوصف ما لا يوصف، وهكذا نجد أشعيا يرتد إلى تراثات شعبه الأسطورية كي يقدم إلى سامعيه فكرة عما حدث له. فغالباً ما تصف الزامير يهوى متوجاً كملك على عرشه في هيكله، مثل بل ومردوخ وداغون Dagon^(٥) تماماً. فآلهة جيرانهم كانت تنصب ملوكاً في هياكل مماثلة. فحت الجاز الأسطوري هناك تصور متميز تماماً للحقيقة النهائية التي بدأت تظهر في إسرائيل: فال تجربة مع هذا الإله هي لقاء مع شخص. ويستطيع يهوى أن يكلم أشعيا وأن يحميه على الرغم من هذه الآخرة المرعبة. لن يكون هذا أمراً مقنعاً لحكامه الأباينشادر لأن فكرة محاورة أو لقاء بين براهمن - أئمان تعني تحولاً إلى شكل بشري وهذا أمر غير لائق أبداً.

سأل يهوى: «من سأرسل؟ من سيكون رسولنا؟» فأجاب أشعيا كما أجاب موسى قبله: «ها أنا ذا هنا، أرسلني». الغاية من هذه الرؤيا ليست تنوير النبي بل تكليفه بمهمة عملية كي ينجزها، فالنبي أساماً شخص يقف في حضرة الله، لكن تجربة التسمي هذه لا ينجم عنها نقل للمعرفة - كما هي الحال في البوذية بل تنتهي في العمل. ولن تكون الاستنارة الصوفية هي السمة المميزة للنبي بل طاعته، وهذه ليست مهمة سهلة جداً. وأخيراً يوحى يهوى لأشعيا - بأسلوب متعالي ينطوي على التناقض - أن الناس لن يتقبلوا الرسالة، عليه ألا ييأس، عندما يرفضون كلمات الله: «فقال اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعوا ولا تفهموا، وأبصروا أبصراً ولا تعرفوا»^(٦). وبعد سبع مئة سنة تالية استشهد يسوع بهذه الكلمات عندما رفض الناس سماع رسالته القاسية^(٧). فبنوا البشر لا يستطيعون احتمال حقائق كثيرة. كان الإسرائيليون في عصر أشعيا على شفير الحرب والانقراض، ولم يرسل يهوى رسالة سارة لهم: كانت مدنهم متدمر، وسيحل الخراب

بالريف، وتشغل المنازل من سكانها، وأن أشعيا سيحش حتى يرى دمار المملكة الشمالية في عام ٧٢٢ ق.م وترحيل القبائل العشرة. لقد غزا سنحاريب يهوذا في عام ٧١٠ بجيش آشوري عرمرم، فضرب الحصار على ٤٦/ ست وأربعين مدينة وقلعة فيها، وخوزق القادة المدافعين عنها، وأجلى نحو ٢٠٠٠/ نسمة من السكان، وسجن الملك اليهودي في أورشليم «كما يسجن طائر في قفص»^(٨). وهكذا كان على أشعيا القيام بمهمة لا يشكر عليها، وأن يحلر شعبه من الكوارث التي تهددهم:

سيحدث فراغ كبير في البلاد

فيبقى عشر السكان فقط

وستتم تعريتها كشجرة البطم

التي لا يبقى منها سوى جذعها بعد قطعها^(٩).

فالتنبؤ بهذه الكوارث كان أمراً صعباً حتى على مراقب سياسي ماهر، فأى فتور متأصل متقابل به رسالة أشعيا التي كانت تقدم تحليلاً للوضع. لقد رمى إله موسى المحارب القدم بأشور كي تلعب دور العدو، أي إله أشعيا رأى في آشور أداة له. فصرغون الثاني وسنحاريب هما اللذان قادا الإسرائيليين إلى المنفى وتدمير البلاد. «فيهوى هو الذي يطرد السكان من ديارهم»^(١٠).

كان هذا الموضوع موضوعاً دائماً في رسالة أنبياء العصر المحوري. لقد ميز إله إسرائيل نفسه عن الآلهة الوثنية بالانفصاح عن نفسه في أحداث راهنة ملموسة، وفي الميثولوجيا وطقس القربان. لقد أصر الأنبياء الجدد على أن كارثة سياسة ونصرة لاحقاً قد كشفها الله الذي أصبح حاكماً وسيداً للتاريخ: كانت جميع الأمم في جيبه. فالآشوريون بدورهم سوف يندمون لأن ملوك آشور لم يدركوا أنهم مجرد أدوات في يد كائن أعظم منهم^(١١). لقد تنبأ يهوى بالدمار النهائي للآشوريين إلا أنه أفسح المجال لأمل بعيد في المستقبل. لكن مامن إسرائيلي كان يود سماع أن شعبه قد جلب الدمار السياسي على رأسه بسبب سياساته القصيرة النظر وسلوك الناس الاستغلالي. ولن يشعر إسرائيلي بالسعادة لدى سماعه أن يهوى كان العقل المدبر للحملات الآشورية المظفرة في عام ٧٢٢ و ٧٠١. وقد لعب يهوى الدور ذاته عندما ترأس جيوش يشوع وجدهون والملوك داوود. فماذا كان يعتقد أنه يفعل بالآمة التي يفترض أنها كانت شعبه المختار؟ كانت رسالة أشعيا خالية من أي وعد بتحقيق الأمان. فبدلاً من أن يقدم يهوى الدواء للناس جرى استخدامه لجعل الناس يواجون واقعاً مزرئاً. بدلاً من اللجوء إلى طقوس العقيدة التي كانت تسقط الناس في زمن أسطوري كان أنبياء مثل أشعيا يحاولون جعل مواطنيهم

ينظرون إلى أحداث التاريخ وجهاً لوجه، وأن يتقبلوها كحوار مربع مع إلههم.

فيما نجد إله موسى مزهواً بالنصر كان إله أشعيا ممتلئاً حزنًا. فالنبوة - كما وصلتنا - تبدأ بمندبة دون أي تملق لشعب المهدي: الثور والخمار يعرفان صاحبيهما، لكن إسرائيل لا تعرف شيئاً، شعبي لا يفهم شيئاً^(١٢). لقد تفرز يهوى من القرايين الحيوانية في الهيكل، وكان يشعر بالغثيان من دهن العجول، ومن دم الثيران والماعز، ومن رائحة الدم التي كانت تتصاعد من المحارق، لم يكن باستطاعته احتمال احتفالاتهم، احتفالات السنة الجديدة وطقوس الحج^(١٣). فمن يسمع كلام أشعيا كان يتعرض إلى صدمة. ففي الشرق الأوسط كانت هذه الاحتفالات من صلب الدين: فالآلهة الوثنية كانت تعتمد على الطقوس كي تجدد طاقاتها المستنزفة، وكان امتيازها يتوقف جزئياً على فخامة معابدها، بينما كان يهوى يقول - الآن - أن هذه الأشياء لا معنى لها البتة. لقد شعر أشعيا مثلما شعر حكماء وفلاسفة آخرون من العالم المتحضر أن الطقوس الخارجية لم تكن كافية: ينبغي على الإسرائيليين أن يكتشفوا المعنى الداخلي لدينهم. فيهوى كان يريد الرحمة أكثر مما كان يرغب في القرايين:

وإن كثُرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا، تنقّوا، اغزّلوا شر
أفلاككم من أمام عيني، كفّوا عن فعل الشر، تعلموا فعل الخير. اطلبوا
الحق، أنصتوا للظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة^(١٤).

لقد اكتشف الأنبياء بأنفسهم واجب الرحمة المهيمن الذي سيصبح السمة التي تسم جميع الأديان المتشكلة في العصر المحوري. لقد نادى الأيديولوجيات الجديدة التي كانت تتطور في العالم المتحضر خلال هذه الفترة أن محك المصادقية هو تكامل التجربة الدينية بنجاح عبر الحياة اليومية. فربط تطبيق الشعائر بالهيكل وعالم الأسطورة البعيد جداً عن الراهن لم يعد كافياً. فبعد الاستنارة يجب على الرجال والنساء العودة إلى السوق وتطبيق الرحمة على جميع الكائنات الحية.

هذا المثل الاجتماعي الأعلى الذي أدركه الأنبياء كان ضمناً في عبادة يهوى منذ سينا. فقد شددت قصة الخروج على أن الله كان في صف الضعفاء والمضطهدين. ثم وقع العقاب على الإسرائيليين لأنهم كانوا مضطهدين. في الفترة التي كان فيها أشعيا يشر برسائه كان هناك نبيان آخران يشران قبله برسالة مماثلة في المملكة الشمالية التي كانت تعمرها القوضى. الأول هو عاموس الذي لم يكن أرسقراطياً مثل أشعيا بل مجرد راع بسيط

عاش في البداية في تيكوا Tekoa في المملكة الجنوبية. في حوالي عام ٧٥٢ ق.م تلقى عاموس أمراً مفاجئاً نقله إلى مملكة إسرائيل في الشمال. وهناك انفجر ثائراً: في المعبد القديم بيت إيل، وقرق الاحتفال هناك بنبوءة قذر مشؤوم. وحاول أمازيا Amaziah كاهن بيت إيل إبعاده. ونستطيع سماع صوته الجمهوري الممثل للمؤسسة في سفرته اللاذعة من الراعي الأخرق. كان طبيعياً أن يتخيل أن عاموس كان ينتمي إلى صف من العرافين الذين كانوا يتجولون جماعات يخبرون الناس بأقذارهم. فقال له محقراً «امض بعيداً أيها العراف، ارجع إلى أرض يهوذا واكسب عيشك هناك: مارس تنبؤاتك هناك. فنحن لا نريد المزيد من التنبؤ في بيت إيل. هذا هو الحرم الملكي، المعبد القومي». وقف عاموس دون ارتباك منتصب القامة، وأجابه أنه لم يكن متنبئاً عرافاً بل مبعوثاً مباشراً من يهوى: «لم أك نبياً، ولا أنتمي إلى أي من أخوة الأنبياء، كنت راعياً أجنبي الجميز: فيهوى هو من أخذني من رعي الماشية، ويهوى هو من قال: امض وانتقل رسالتي إلى شعبي»^(١٥). لم يكن بود سكان بيت إيل الاستماع إلى رسالة يهوى. حسناً كان لديه نبوءة أخرى لهم: ستختصب نساؤهم في المدينة ويذبح أطفالهم، وسوف يموتون في المنفى بعيداً عن أرض إسرائيل.

كانت العزلة تعتبر جوهر حياة النبي، كان يسير في دربه الخاص به، مثله في ذلك مثل عاموس - متخلياً عن إيقاعات وواجبات ماضيه. فكان هذا شيئاً لم يختره هو بعد، شيء حدث له. بدا وكأنه قد قُذِف خارج نطاق نماذج الوعي السوي، ولم يكن باستطاعته تشغيل الضوابط المعتادة. كان مجبراً على التنبؤ سواء أراد أم لم يرد ذلك، لقد صاغ عاموس هذا الأمر كما يلي:

«الأسد قد زمجر فمن لا يخاف.

السيد الرب قد تكلم فمن لا يتنبأ»^(١٦).

لم يكن عاموس مستغرقاً في إلغاء ذاتي إستراتيجي كما كان بوذا، لكن يهوى قد احتل مكانة أنه وخطفه إلى داخل عالم آخر. كان عاموس أول نبي يؤكد على أهمية العدالة الاجتماعية، الرحمة، وكان مدركاً ألم البشرية المعبدة بكل دقة كما كان بوذا. في نبوءات عاموس نجد يهوى يتكلم نيابة عن المضطهدين، معطياً صوته لمن لاصوت لهم، وعن عقم معاناة الفقراء. في السطر الأول من نبوءاته - كما وصلتنا - نرى يهوى يزار رعباً من هيكله في أورشليم بعد أن رأى البؤس في كل بلدان الشرق الأدنى، ومن بينها يهوذا وإسرائيل. فشعب إسرائيل سيء مثل سوء الغويم *goyim* (أي غير اليهود) لتجاهلهم

الوحشية والاضطهاد الذي كان يلاقيه الفقراء، فهو لا يمكنه أن يتجاهل ذلك. لقد رأى كل مثال للخداع، والاستغلال، وغياب الرحمة التي تقطع الأنفاس: فيقسم يهوى بعة يعقوب:

«إني لن أنسى إلى الأبد جميع أعمالهم»^(١٧).

فهل كانوا حقاً متهورين فينتظرون قدوم يوم الرب ليعز فيه يهوى إسرائيل ويذل الغوييم؟ كانوا يرون أن صدمة ما قادمة لا محالة: «ويل للذين يشتهون يوم الرب. لماذا لكم يوم الرب هو ظلام لا نور»^(١٨). فهل كانوا يعتقدون حقاً أنهم شعب الله المختار؟ لقد أسأؤوا فهم طبيعة العهد كلياً، التي كانت تعني المسؤولية لا الامتيازات. فصاح عاموس:

اسمعوا هذا القول الذي تكلم به الرب عليكم يا بني إسرائيل على كل القبيلة التي أصعدتها من أرض مصر قائلاً إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم»^(١٩).

فالعهد كان يعني أن جميع شعب إسرائيل هو الذي وقع عليه اختيار الله. ولذلك كان يجب معاملتهم باحترام، فإله لم يتدخل في التاريخ فقط كي يجد إسرائيل بل كي يؤمن العدالة الاجتماعية. فهذا كان رهانه في التاريخ، وإذا دعت الضرورة فإنه يستخدم الجيش الآشوري لفرض العدل في بلاده.

ليس مستغرباً أن يرفض معظم الإسرائيليين دعوة النبي إلى الدخول في حوار مع يهوى. لقد فضّلوا ديناً يفرض القليل من الالتزام بالعقيدة سواء في هيكل أورشليم أم في عبادة الحصوبة القديمة عند الكنعانيين. لقد استمرت الحالة كذلك: فدين الرحمة تتبعه أقلية بينما يرضى معظم المتدينين بعبادة شكلية في الكنيس اليهودي، أو الكنيسة أو المسجد. كانت الأديان الكنعانية القديمة ماتزال مزدهرة في إسرائيل. ففي القرن العاشر ق.م أقام الملك جيروهم الأول نصباً لثورين معتقدين في دان وبيت إيل. وبعد مضي مئتي سنة كان الإسرائيليون مايزالون يشاركون في طقوس الحصوبة والجنس المقدس هناك، وهذا ما نراه في نبوءات النبي يشوع الذي كان معاصراً لعاموس^(٢٠). كما يبدو اعتقد بعض الإسرائيليون أن يهوى له زوجة مثله في ذلك مثل الآلهة الأخرى. فقد اكتشف علماء الآثار نقوشاً مكرسة إلى «يهوى وزوجته عشيرة». لقد كان يشوع منزعاً من نقض إسرائيل للعهد وعبادة آلهة أخرى مثل بعل. لقد كان مهتماً بالمعنى الداخلي للدين كسائر الأنبياء الجدد. فعندما يقول على لسان يهوى: «إني أريد رحمة لا ذبيحة، ومعرفة الله أكثر من محرقات»^(٢١)، فإنه لم يكن يعني معرفة مثيولوجية، فالكلمة daath مشتقة من الفعل

العبري yada أي يعرف، ويحمل في طياته مضامين جنسية، وهكذا يقول J إن «آدم عرف» زوجته حواء^(٢٢). ففي الديانة الكنعانية القديمة تزوج بعل الأرض، وكان الناس يحتفلون بزواجهما بطقوس القصف والعربده. لكننا نجد أن يشوع قد أصر على أن يهوى قد احتل مكانة بعل منذ العهد، وتزوج شعب إسرائيل، وبالتالي كان لزاماً عليهم أن يفهموا أن يهوى سيجلب لهم الخصوبة وليس بعل^(٢٣). ولذلك نراه يندب إسرائيل كعاشق صب مصمم على إغراء الأرض بالعودة من بعل الذي أغواها:

«ويكون ذلك في اليوم يقول الرب إنك تدعيتني رجلي ولا تدعيتني بعد بعلي. وأترع أسماء البعليم من فمها فلا تذكر أيضاً بأسمائها»^(٢٤).

فيما هاجم عاموس الشر الاجتماعي ركز يشوع على غياب المعنى الداخلي في الدين الإسرائيلي. فقد نسبت معرفة الله إلى هيسيد Hased التي تعني توافقاً داخلياً وتعلقاً بيهوى، وهذا ينبغي أن يسبق الالتزام الخارجي.

بعطينا يشوع رؤية مذهلة عن الأسلوبية التي كان يطور فيها الأنبياء فكرتهم عن الله. ففي بداية دعوته بدأ لنا أن يهوى قد أصدر أمراً يحدث صدمة. فقد أمر يشوع أن يخرج ويتزوج من عاهرة لأن البلاد كلها قد أصبحت في حالة ليست أفضل من حالة عاهرة:

قال الرب ليشوع اذهب غداً لنفسك امرأة زنى، وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت تاركة الرب^(٢٥).

على أية حالة لم يأمر الله يشوع أن يجوب الشوارع بحثاً عن بني فكلمة esheth Zuvinm تعني حرفياً (زوجة عهر) إلا أن معناها امرأة سيئة الطبع أو بني في دين الخصوبة. فأنشغال يشوع بطقوس الخصوبة يفيد أن من المحتمل أن زوجته جومر Gomer قد غدت واحدة من الكادر المقدس في عبادة بعل. وهكذا كان زواجه رمزاً لعلاقة يهوى بإسرائيل الجاحدة. أنجبت جومر له ثلاثة أطفال سماهم أسماء رمزية مشؤومة. فابنه البكر يدعى جزريل Gezreel باسم مكان معركة شهيرة، وابنتهما رهامة Ruhamah (أي المكروهة) وابنتهما الأصغر لو آمي Lo Ammi (أي ليس شعبي). فعند ميلاده ألقى يهوى العهد مع إسرائيل «لستم شعبي، وأنا لست إلهكم»^(٢٦). فكما سنرى كان الأنبياء يتلقون إحياء بأن يقوموا بإيماءات تفصيلية كي يوضحوا محنة شعبهم. لكن يبدو أن زواج يشوع لم يكن مخططاً له بأعصاب باردة منذ البداية. فالنص يوضح أن جومر لم تصبح بنياً مقدسة إلا بعد ولادة أبنائها الثالث، ويبدو أن الله قد أوحى

له بزواجه. ففقدان زوجته كان تجربة محطمة له، وألهمه بالشعور الذي كان يحسه يهوى عندما تخلى شعبه عنه فمضوا يمهرون وراء آلهة بعل. ففي البداية كان يشوع ميالاً إلى هجر جومر وإنهاء علاقته بها؛ لكن الشرية كانت تلزم الرجل أن يطلق زوجته الحاتنة. لكن حبه لجومر استمر فذهب إليها في النهاية وعاد بها إلى بيته من بيت سيدها الجديد. لقد رأى أن رغبته في إعادة جومر دلالة على رغبة يهوى بإعطاء إسرائيل فرصة أخرى.

عندما كان الأنبياء ينسبون مشاعرهم الإنسانية وتجاربهم إلى يهوى فإنهم بمعنى ما كانوا يخلقون إلهاً على صورتهم هم. فأشعيا الذي هو فرد من الأسرة الملكية قد رأى الله ملكاً. بينما نسب عاموس تعاطفه مع الفقراء الملعدين إلى يهوى، ورأى يشوع يهوى زوجاً منبذاً يحن إلى زوجته، فالدين كله يجب أن يبدأ بخلق صفات بشرية على الله، فليس في وسع إله بعيد جداً عن البشر - مثل فكرة أرسطو والحرك الذي لا يحركه أن يلهم بتوجهه روحاني. فهذا الإسقاط لا يصبح غاية بحد ذاته إلا أنه قد يكون مفيداً وناقماً. يجب القول أن هذا التصور التخيلي لله في كلمات بشرية قد أوحى باهتمام اجتماعي غير موجود في الهندوسية. لقد اشتركت الأديان الإلهية الثلاثة في المساواة والأخلاق الاجتماعية التي كانت عند عاموس وأشعيا. وهكذا كان اليهود أول شعب في العالم القديم يؤسس نظام الصالح العام الذي كان مدعاة إعجاب جيرانهم الوثنيين.

كان يشوع مسكوناً برعب من الوثنية شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء، لقد تنبأ بالانتقام الإلهي الذي تجلبه القبائل الشمالية على أنفسهم لعبادتها آلهة صنعتها بأيديها:

«والآن يزدادون خطية، ويصنعون لأنفسهم تماثيل مسبوكة من فضتهم
أصناماً بحذاقتهم كلها عمل الصنّاع. عنها هم يقولون ذابحو الناس
يقبلون العجول»^(٢٧).

بالطبع كان هذا الوصف غير منصف ودوني للدين الكنعاني. لم يكن الكنعانيون والبابليون يؤمنون أبداً أن التماثيل التي كانوا يصنعونها للآلهة كانت مقدسة، وكذلك لم يكونوا ينحنون أبداً كي يعبدوا تماثلاً. لقد كان التمثال أحد رموز الإله. فكما كانت أساطيرهم حول أحداث بدئية لا يمكن تخيلها كذلك صمم التمثال كي يوجه اهتمام العابد خارج ذاته. وهكذا فتمثال مردوخ في معبد Esgila إيساجيلا، والحجارة المنصوبة لعشيرة في كنعان لم يكن الناس يعتقدون أنها مماثلة للآلهة بل كانت بؤرة تركيز تساعد الناس على التركيز في عنصر التسامي في الحياة الإنسانية. فسخرية الأنبياء من آلهة جيرانهم بشكل ينم عن حقد أمر معروف. فهذه الآلهة المحلية الصنع كانت - في نظرهم -

لأشياء أكثر من ذهب وفضة طرقها الحرفي طوال عدة ساعات، فعيونها لا ترى، وآذانها لا تسمع، ولا تستطيع السير، وكان يحملها عابدها في عربات. إنها كائنات وحشية وغبية دون مرتبة الإنسان، فهي ليست أكثر من فزاعات في أرض مزروعة بالبطيخ. فإذا ما قورنت آلهة إسرائيل يهوى فإنها ستبدو لا شيء، والغوييم الذين يعبدها حمقى ومحط كراهية يهوى^(٢٨).

لقد أصبحنا مدركين - في أيامنا هذه لانعدام التسامح الذي كان - لسوء الحظ - سمة مميزة للوحداية، حتى أننا لا نستحسن هذه العداوة تجاه آلهة أخرى، إنما كان هذا موقفاً دينياً جديداً. فبالأساس كانت الوثنية ديناً متسامحاً شريطة ألا تهدد العبادات القديمة بوصول إله جديد، وبالتالي كان هناك متسع دائم لإله آخر يضاف إلى الآلهة التراثية في مجمع الآلهة. لقد كانت الأيديولوجيات الجديدة في العصر المحوري تحمل محل التبجيل القديم للآلهة، لم يكن هناك نبذ جارح للآلهة القديمة. فقد بقي الناس كل تشجيع - في البوذية والهندوسية - على الذهاب إلى ما وراء الآلهة بدلاً من النظر باشمئزاز إليها. مع ذلك لم يكن أنبياء إسرائيل قادرين على تبني هذه النظرة الأكثر هدوءاً حيال الآلهة التي اعتبروها منافسة ليهوى. فذنب الوثنية الجديدة وعبادة آلهة زائفة في النصوص اليهودية المقدسة توحى بما يشبه بالثنائي. إنه رد فعل مماثل لإشمئزاز بعض الآباء الكنعانيين من الدافع الجنسي. فكونه كذلك فإنه ليس عقلانياً، ولأنه رد فعل فإنه يعبر عن قلق وكبت عميقين. فهل كان يخفي الأنبياء قلقاً دفيناً حول سلوكهم الديني الخاص بهم؟ ترى ألم يدركو بيسر أن تصورهم ليهوى كان مائلاً لوثنية الوثنيين طالما أن كليهما كانا يخلقان إلههم على صورتهم هم؟

تسلط المقارنة مع الموقف المسيحي حيال النزوع الجنسي ضوءاً أكبر وبطريقة مختلفة. ففي هذه الفترة كان معظم الإسرائيليين يؤمنون ضمناً بوجود الآلهة الوثنية. صحيح أن يهوى كان يستولي تدريجياً على بعض وظائف الإله الكنعاني في حلقات محددة: كان يشوع مثلاً يحاول الدفاع عن يهوى. إنه كإله خصوبة كان أفضل من بعل. لكن - كما يتضح - الإله المذكور يهوى كان يجتد صعوبة في الاستيلاء على وظيفة إلهة مثل عشيورة، أو عشتار، أو عناة اللواتي كان لهن أتباع كثر بين الإسرائيليين، خاصة بين النساء. فعلى الرغم من أن الموحدتين يصرون على أن ربهن لا جنس له فإنه سيقى ذكراً أساساً علماً أن البعض قد حاول إصلاح عدم التوازن هذا. ويعود ذلك - جزئياً إلى أصوله كإله حرب قبلي. فمعرسته مع إلهات تعكس سمة أقل إيجابية لعصر المحور نرى فيها تراجعاً في مركز

النساء والإناث. ويبدو أن النساء في مجتمعات بدائية يلقين تقديراً أكبر مما يلقاه الرجال. فالملكة المرموقة التي احتلتها إلهات كبيرات في دين قديم تعكس تجيل الأنثى. فنشوء المدن كان يعني تمجيد الصفات الذكورية والقوة الجسدية أكثر مما كان يعني تمجيد الصفات الأنثوية. ومن هنا جاء تهميش النساء ليصبحن مواطنات من الدرجة الثانية في حضارات العالم المتحضر. كان مركز النساء سيئاً في اليونان تحديداً، وهذه حقيقة ينبغي أن يتذكرها الغربيون عندما ينتقدون المواقف البطريركية في الشرق. لم يمتد المثل الأعلى الديمقراطي ليصل إلى نساء أثينا اللواتي عشن في عزلة، وكن محتقرات ككائنات أدنى مرتبة، كان المجتمع الإسرائيلي قد بدأ يصبح أيضاً أكثر ذكورية في لهجته. في الأيام الأولى كانت النساء قويات يرين أنفسهن أنثى لأزواجهن فليدوراً مثلاً قادت الجيوش في إحدى المعارك. وقابع الإسرائيليون احتفالهم ببعض النسوة الأبطال مثل جوديث وإستير. لكن بعد أن هزم يهوى الآلهة والإلهات الكنعانية الأخرى في الشرق الأوسط ليصبح الإله الواحد، أصبح الرجال يديرون كل شؤون دينه. لقد توقفت عبادة الإلهات فشكلت مظهراً لتحول ثقافي كان سمة مميزة للعالم المتحضر حديثاً.

انتصار يهوى لم يكن أمراً سهلاً بل صعباً للغاية. لقد تخلله التوتر والعنف والمواجهة مما يوحي أن دين «الإله الواحد» الجديد لم يكن يشق طريقه بسهولة إلى الإسرائيليين كما شقت البوذية والهندوسية طريقهما إلى سكان شبه القارة الهندية. فكما يبدو لم يكن يهوى قادراً على تجاوز الآلهة الأقدم منه بطريقة طبيعية سلمية، لذلك كان عليه أن يخوض هذه المعركة. وهكذا نراه في المزمور ٨٢/ يرسم خطة كي يحتل القيادة في مجمع الآلهة الذي لعب دوراً هاماً في الأسطورة البابلية والكنعانية:

الله قائم في مجمع الله في وسط الآلهة يقطي حتى متى تغضبون جوراً
وترفعون وجوه الأشرار. انفضوا للذليل واليتيم. أنصفوا المسكين واليائس.
نحو المسكين والفقير. من يد الأشرار انفضوا. لا يعلمون ولا يفهمون. في
الظلمة يمشون. تزعزع كل أسس الأرض. أنا قلت إنكم آلهة وبني العلي
كلهم. لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون^(٢٩).

ف عندما يقف يهوى كي يواجه المجلس الذي ترأسه إيل منذ زمن سحيق عندها يتهم يهوى الآلهة الأخرى بفشلها في معالجة التحدي الاجتماعي في ذلك العصر. إنه يمثل الروح الرحيمة للأنبياء، لكن زملاءه الآلهة لم يفعلوا شيئاً كي يرتقوا بالعدالة والمساواة عبر السنين. في الأيام الغابرة كان مستعداً لقبولهم كإلههم أي أبناء إيل إيلون El - Elyon (الله المتعالي)^(٣٠) لكن الآن أثبتت الآلهة أنها قد غدت قديمة الطراز، إنها ستفرض وتندثر مثل

البشر الفانين، فالزمامير لا تصور يهوى وهو يدين زملاءه الآلهة فقط حاكماً عليها بالموت بل فأنه من خلال عمله هذا قد اغتصب الامتياز التراثي الذي كان ملكاً للإله إيل الذي كان مايزال يحتفظ بأبطاله في إسرائيل.

فعلى الرغم من الضغط السيء الذي يمارسه في التوراة إلا أننا لا نجد شيئاً خطأ في الوثنية بحد ذاتها: سيغدو أمراً يثير الاعتراض والسذاجة عندما نرى أن صورة الله التي تم بناؤها بعناية محببة غدت مربكة بالحقيقة المصومة التي يشير إليها. فكما سنرى في فترة لاحقة من تاريخ الله أن اليهود والمسيحيين والمسلمين قد استندوا على هذه الصورة الأولى للحقيقة المطلقة، وتوصلوا إلى مفهوم كان أقرب إلى الرؤى البوذية أو الهندوسية، بينما لم يتمكن آخرون من القيام بهذه الخطوة عندما افترضوا أن مفهومهم لله كان مقابلاً للسر النهائي. لقد أصبحت المخاطر الناجمة عن التدين الوثني واضحة في حوالي عام ٦٢٢ ق.م/ أي خلال حكم الملك يشوع ليهودا Josiah . لقد كان متلهفاً إلى عكس السياسات التوفيقية التي قام بها سابقيه مثل الملك منسي Manassch (٦٨٧ - ٦٤٢) والملك أمون Amon (٦٤٢ - ٦٤٠) اللذان شجعا الناس على عبادة آلهة كنعان إلى جانب عبادة يهوى. فالأول قد وضع تمثالاً لعشيرة في الهيكل حيث كانت تزدهر عبادة الخصوبة. فبينما كان معظم الإسرائيليين أتباعاً لعشيرة، واعتقد بعضهم أنها زوجة يهوى، كان أتباع يهوى الأكثر تشدداً يعتبرون مجدفين. يشوع الذي كان مصمماً على تطوير عبادة يهوى قرر أن يقوم بأعمال الترميم في الهيكل. وبينما كان العمال يقلبون كل شيء في الهيكل قيل إن كبير الأحياء حلقيا Hilkiiah اكتشف مخطوطاً قديماً اعتبر أنه عرض لموعظة موسى الأخيرة إلى أبناء إسرائيل. أعطاهما الخبر إلى أمين سر الملك، شابان Shaban فقرأها هذا بدوره بصوت عالٍ في حضرة الملك، فمزق الملك ثيابه رعباً: لا عجب أن يكون يهوى غاضباً من أحفاده: لقد فشلوا تماماً في الامتثال لتعليماته الدقيقة التي أعطاهما إلى موسى^(٣١).

من المؤكد تقريباً أن «كتاب الشريعة Book of the Law» الذي اكتشفه حلقيار شكل نواة النص الذي نعرفه باسم سفر تثنية الاشتراع. هناك نظريات كثيرة حول اكتشافه الذي تم توقيته، فقد اقترح البعض أن حلقيا و شابان قد كتبا خفية بمساعدة النبية هولده Huldah التي استشارها يشوع فوراً، ولن يكون بوسعنا أن نعرف ذلك بشكل أكيد فالكتاب يعكس تصلباً جديداً تماماً في إسرائيل، يعكس منظوراً من القرن السابع ق.م. فقد بن موسى في خطيته الأخيرة أنه يعطي المعهد مركزية جديدة، وفكرة الاختيار الخاص

لاسرائيل، فقد اختار يهوى شعبه من بين شعوب الأرض لا لميزة فيهم بل بسبب حبه الكبير لهم. وبالمقابل طالبهم بالولاء التام له، ورفض عنيد لجميع الآلهة الأخرى. فتواة سفر تثنية الاشرع تتضمن الإعلان الذي سيصبح لاحقاً القسم اليهودي على الإيمان:

اسمع يا اسرائيل، الرب إلهنا رب واحد. فحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك^(٣٢).

لقد عزل اختيار الله اسرائيل عن الغويم ولذلك يجعل المؤلف موسى يقول - عند وصولهم أرض الميعاد - أنهم ينبغي ألا يقيموا أية صلوات مهما كان نوعها مع السكان الأصليين «لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم»^(٣٣). ويجب ألا يحدث زواج متبادل ولا اختلاط اجتماعي معهم. وقبل كل شيء يجب أن يحووا الدين الكنعاني: «ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواربهم وتحرقون تماثيلهم بالنار» ثم يأمر موسى الإسرائيليين «لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»^(٣٤).

عندما يتلو اليهود هذا القسم اليوم فإنهم يعطونه تفسيراً توحيدياً: يهوى إلهنا واحد أهد. بيد أن معتنق سفر الاشرع لم يكن قد وصل بعد إلى هذا المنظور. فكلمة يهوى إهاد Ehad لم تكن تعني الله أحد بل كانت تعني أن يهوى كان الإله الوحيد التي يُشتمح لهم بعبادته. لقد كانت الآلهة الأخرى مازال تشكل تهديداً: كانت عبادتها جذابة تغري الإسرائيليين بالابتعاد عن يهوى الذي كان إلهاً غيوراً، فإذا ما أطاعوا شريعة يهوى فإنه سيباركهم وسيجلب لهم الرخاء، لكن إذا هجروه فإن النتائج ستكون مدمرة:

ويهددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها وتعيد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا أبائك من خشب وحجر... وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك. في الصباح تقول يا ليت المساء وفي المساء تقول يا ليت الصباح من ارتعاب قلبك الذي ترتعب ومن منظر عينك الذي تظفر^(٣٥).

عندما سمع الملك يشوع ورعاياه هذه الكلمات في نهاية القرن السابع كانوا على وشك مواجهة تهديد سياسي جديد. لقد استطاعوا إبقاء الآشوريين على بعد مسافة عنهم وبذلك تجنبوا المصير الذي لاقته القبائل الشمالية العشر التي تعرضت للعقوبات التي وصفها موسى. وفي عام ٦٠٦ ق.م تمكن الملك البابلي نبوخذ نصر من سحق الآشوريين، وبدأ

بناء امبراطوريته.

كان للسياسات التي رسمها أنصار سفر الاشرع تأثيراً كبيراً في هذا المناخ المعقد جداً. فقد جلب ملكا اسرائيل الآخرين كارثة عن عمد لأنهما لم يطعيا يهوى، مما دفع يشوع إلى البدء بحملة إصلاح فورية.

كان يتصرف بحماسة نموذجية، فقد أمر بنقل جميع أشكال وأصنام رموز الخصوبة إلى خارج الهيكل وحرقها. حطم يشوع تمثال عشيرة الكبير، ودمر الغرف المخصصة لبغايا الهيكل اللواتي كن يحكن الملابس لعشيرة هناك. كما تم تدمير المعابد القديمة التي كانت موثلاً للوثنية في البلاد. ومن تلك الفترة فصاعداً أصبح الكهنة هم المصريح لهم بتقديم القرابين إلى يهوى في هيكل اورشليم المظهر. ويقدم المؤرخ الذي دؤن إصلاحات يشوع بعد مضي ٣٠٠ سنة عرضاً بليغاً لهذه التقوى التي كانت تشمل الإنكار والقمع:

وهدموا أمامه مذابح البعليم وتمثال الشمس التي عليها من فوق قطعها، وكسر السواري والتماثيل والمسيوكات، ودقها ورشها على قبور الذين ذبحوا لها، وأحرق عظام الكهنة على مذابحهم، وطهر يهوذا وأورشليم. وفي مدن منسى وأفرايم وشمعون حتى ونفثالي مع خرابتها حولها. هدم المذابح والسواري ودق التماثيل ناعماً، وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض إسرائيل ثم رجع إلى اورشليم^(٣٦).

فمن هنا يميلون جداً عن القبول البوذي الرصين بالآلهة التي اعتقد أنه شيدها. ينبع هذا التدمير الكلي من حقد ناجم عن قلق وخوف دينيين.

أعاد المصلحون كتابة التاريخ الإسرائيلي من جديد، فقد جرى تنقيح للكذب التاريخية التالية: يشوع، والقضاة، وصموئيل، والملوك بما يتناسب مع الإيديولوجيا الجديدة. وفي فترة لاحقة أضاف المحررون لأسفار موسى الخمسة مقطوعات أعطت سفر تنبية الاشرع شرحاً لأسطورة الخروج وللعرض السردى الذي قدمه J و E، وبذلك أصبح يهوى مُسقراً لحرب إبادة مقدسة في أرض كنعان. فقد أمر يهوى الاسرائيليين بعدم السماح للكنعانيين الأصليين أن يمشوا في بلادهم^(٣٧). لقد دشّن يشوع هذه السياسة بشمولية لا قديمة لها:

بعدئذ جاء يشوع في ذلك الوقت وقزّص العناقيين من الجبل من حبرون ومن دبّير ومن عتاب ومن جميع جبل يهوذا ومن كل جبل اسرائيل. حوّمهم يشوع مع مدنهم فلم يبقَ عناقيون في أرض بني اسرائيل لكن بقوا

في غرة وجث وأشدود^(٣٨).

إننا لا نعلم شيئاً عن هزيمة الكنعانيين على يد يشوع والقضاة، فقد سفكت دماء كثيرة دون شك، وقد أعطي سفك الدم مبرراً دينياً. إن مخاطر أيديولوجيات الاختيار هذه التي لا يقبلها منظور التسامي عند أشعيا نراها بكل وضوح في الحروب المقدسة التي شوهت تاريخ الوندانية. فبدلاً من جعل الله رمزاً يتحدى أهواننا، ويجبرنا على تأمل عيوبنا نجده قد استخدم للمصادقة على حقننا الأناني ولجعل هذا الحقن مطلقاً. فهذه النظرة تجعل الله يتصرف كما نتصرف نحن، وكأنه مجرد كائن بشري آخر. من المحتمل أن إلهاً كهذا أكثر جاذبية وشعبية من إله عاموس وأشعيا الذي يأمر بتقذ الذات دونما رحمة.

لقد وجه نقد شديد إلى اليهود لاعتقادهم أنهم الشعب المختار. لكن منتقديهم مذنبون بالإنكار نفسه والذي كان وقود النقد الساهر الموجه ضد الوثنية في العصور التوراتية. لقد طورت الأديان التوحيدية الثلاثة فكراً دينياً حول الاختيار في فترات مختلفة من تاريخها، فكانت النتائج أكثر تدميرية مما يتخيلها المرء في كتاب يشوع. لقد كان المسيحيون الغربيون مائلين إلى الاعتقاد المداهن أنهم هم نخبه الله. فالصليبيون قد برروا حروبهم المقدسة ضد اليهود والمسلمين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي بتسمية أنفسهم الشعب المختار الجديد. لقد أخذ هؤلاء المهمة على عاتقهم بدعوى أن اليهود قد ضلوا السبيل. كما كانت التولوجيا الكلفانية التي تقول بالاختيار أداة شجعت الأمريكيين على الاعتقاد أنهم أمة الله. ومن المحتمل أن يزدهر هذا الاعتقاد في وقت يغيب فيه الأمن السياسي، أي عندما يسكن الناس هاجس خوف من الدمار، تماماً كما كانت الحالة في مملكة يشوع في يهودا. وللسبب ذاته فقد اكتسب هذا الهاجس فرصة عيش جديدة في أشكال مختلفة في نزعات أصولية منتشرة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين أثناء كتابة هذا الكتاب. بالإمكان التلاعب بإله شخصي مثل يهوى من أجل تأمين سلامة الذات المحاصرة بهذه الطريقة، بينما إله شخصي مثل يراهم منيع من ذلك.

يجب أن ننوه إلى أنه لم يكن جميع الإسرائيليين يقرون بالنزعة الموجودة في سفر التثنية في السنوات التي دمر فيها نبوخذ نصر أورشليم في عام ٥٨٧ ق.م. وترحيل اليهود إلى بابل. ففي عام ٦٠٤ - عام تنصيب نبوخذ نصر ملكاً - أحيا النبي أرميا النظرة المحطمة للتمائيل التي نادى بها أشعيا الذي قلَّب هذا المعتقد المتفطرس لشعب الله المختار على رأس هذا الشعب: لقد استخدم الله بابل أداة له كي يعاقب إسرائيل، واسرائيل فقط هي التي كان يجب وضعها وتحت العقاب^(٣٩)، عقاب المنفي لمدة ٧٠ سنة. فعندما سمع الملك

يواكيم Jehoiakim هذه النبوة خطف اللغافة من يد الناسخ، مزقها قطعاً ثم رماها في النار. واضطر لإرميا الذي خاف على حياته إلى التواري عن الأنظار.

تبين حياة إرميا الأليم والتعب الهائلين اللذين تعرض لهما في صياغة هذه الرؤية الأكثر تحدياً لله. كان يكره أن يكون نبياً، وكان يشعر بانزعاج عميق عندما تعين عليه إدانة الشعب الذي كان يحب^(٤٠). إنه لم يكن جمره طبيعية بل رجلاً رقيق القلب. فعندما جاءه الهاتف صاح محتجاً:

«آه يا سيد الرب إني لا أعرف أن أتكلم لأنني ولد». فكان على يهوئ أن «يمد يده» فلامس فمه واضمأ كلماته في فمه. كانت الرسالة التي عليه إبلاغها ملتبسة ومتناقضة: «قد وكلت هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع ونهدم ونهلك وتنفذ وتبني وتغرس»^(٤١).

كانت تتطلب شداً مؤلماً بين طرفين فالتوصل إلى تسوية بينهما أمر محال. أحس إرميا بالله كآلم كان يشنح أطرافه «صبرت كإنسان سكران، ومثل رجل غلبته الخمر من أجل الرب»^(٤٢). لقد كانت هذه التجربة النبوية المرعبة اغتصاباً وغواية في الوقت ذاته:

قد ألتفتي يا رب فالتفت وألححت علي فغلبت.

ناديت ظلم واغتصاب. فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه.

فكان في قلبي كتار محرقة محصورة في عظامي فمللت من الإمساك ولم أستطع^(٤٣).

كان الله يشد إرميا باتجاهين مختلفين: فمن ناحية كان يشعر بانجذاب عميق تجاه يهوئ الذي حقق كل الاستسلام الجميل للغواية، ومن ناحية أخرى كان يشعر باستلاب قدرة جرفته ضد إرادته.

كان النبي عاموس رجلاً مستقلاً في تلك الفترة. وكان الشرق الأوسط مختلفاً عن مناطق العالم المتمدن الأخرى، ولم يكن لديه أيديولوجية دينية موحدة عريضة^(٤٤)، فإله الأنبياء كان يجبر الإسرائيليين على أن يخلصوا أنفسهم من الوعي الأسطوري الذي كان سائداً في الشرق الأوسط، وبالتالي المضي في اتجاه مختلف تماماً عن التيار الرئيسي. يمكننا أن نرى في عذاب إرميا مقدار الانحراف الهائل والافتلاع الذي كان يتطلبه ذلك التوجه. كانت إسرائيل بلاد النزعة اليهودية محاطة بعالم وثني، وكان معظم الإسرائيليين يرفضون يهوئ. فحتى أنصار سفر التثنية الذين كانت صورة الله لديهم أقل تهديداً كانوا يرون أن

اللقاء بيهوى مواجهة كاشطة: فيهوى يجعل موسى يشرح للإسرائيليين الذين أرعبتهم فكرة احتكاك مفاجيء مع يهوى أنه سيرسل لهم نبياً في كل جيل كي يحتمل وطأة التأثير الإلهي.

حتى هذه الفترة لم يكن في اليهودية شيء يمكن مقارنته مع أتمان Atman المبدأ الإلهي الجوهري في عبادة يهوى. فالتناس قد فهموا يهوى كحقيقة متعالية خارجية، وكان بحاجة إلى الأنسنة بطريقة ما كي تقل غرابته. كان الطرف السياسي فاسداً: فالبابليون قد غزوا يهودا، وحملوا الملك والدفعة الأولى من الإسرائيليين إلى المنفى، وأخيراً حوصرت أورشليم. وبينما كانت الظروف تزداد سوءاً، استمر إرميا في عزو الانفعالات البشرية إلى يهوى كما جرت العادة: فهو يجعل الله يندب على تشرده وحزنه وهجرانه، ويحس يهوى بالذهول، ومهجور أتم مثل شعبه، فهو يبدو مثلهم مرتبكاً، مغرباً ومشلولاً. فالغضب الذي يحس إرميا أنه يتعاطف في قلبه ليس غضبه هو بل غضب يهوى^(٤٥). فعندما كان الأنبياء يفكرون بالله فإنهم كانوا يفكرون ألياً بالإنسان، لأن حضور الله في العالم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بشعبه، فالله - في الحقيقة - متكل على الإنسان عندما يريد أن يفعل في العالم، وتستصبح هذه الفكرة هامة جداً في المفهوم اليهودي لله. فهناك دلائل تشير إلى أن الكائنات البشرية تستطيع أن تشعر بقدرات الله في عواطفهم وتجاربهم، أي يهوى هو جزء من الشرط البشري.

كان إرميا يفضب على شعبه طالما أن العدو على الأبواب، علماً أنه كان يتوسل بين يدي الله لصالحهم. أصبحت النبوءات من يهوى أكثر عزاء بعد هزيمة أورشليم عام ٥٨٧: لقد وعد أن ينقل شعبه بعد أن لقنهم درساً ويعيدهم إلى بلادهم. لقد سمح البابليون لإرميا بالبقاء في يهودا، وأن يعبر عن ثقته بالمستقبل. ولذلك اشترى أرضاً لأن يهوى يقول ذلك «قال رب الجنود إله إسرائيل سيشترون بعد بيوتاً وحقولاً وكروماً في هذه الأرض»^(٤٦). فليس مستغرباً إذا لام بعض الناس يهوى على هذه الكارثة. قابل إرميا - أثناء زيارته مصر - مجموعة من اليهود الهاربين إلى الدلتا، ولم يكن لديه وقت مخصص ليهوى. ادعت نساؤهم أن كل شيء كان على مايرام لأنهم يؤدون الشعائر التقليدية تمجيداً لعشتار/ملكة السماء/. فأمرهم إرميا بإيقاف هذه الشعائر. وما أن امتثلوا لأمر إرميا حتى حلت بهم كارثة، وهزيمة وقرر. ويبدو أن هذه المأساة عمقت فهم إرميا لها^(٤٧). فبعد سقوط أورشليم وتدمير الهيكل بدأ يدرك أن زخارف الدين الخارجية إما كانت وبكل بساطة وموزاً لحالة ذاتية داخلية. ولذلك سيكون العهد مع إسرائيل مختلفاً تماماً في المستقبل: «أجعل شريعتي

في داخلهم وأكبتها على قلوبهم»^(٤٨).

أما الذين ذهبوا إلى المنفى لم يكونوا مجبرين على استيعاب ذلك مثلما استوعبته القبائل الشمالية في عام ٧٢٢، لقد عاشوا في مجتمعين: أحدهما في بابل نفسها والآخر على ضفة ترعة من الفرات تدعى شيبار Chebar التي كانت غير بعيدة عن نيبور Nipur وعن أور في منطقة أسموها تل أبيب. كان حزقيال ضمن دفعة المنفيين الأولى الذين رحلوا عام ٥٩٧ ق.م. بقي وحيداً في بيته دون أن يكلم إنساناً طوال خمس سنوات. بعدئذ رأى رؤى متفرقة ليهوى أدت إلى طرحه أرضاً. فكان لوصف رؤياه أثراً هاماً. وستغدو باللغة الأهمية لدى المتصوفين اليهود بعد قرون لاحقة، وسنناقش هذا الأمر في الفصل السابع. رأى حزقيال محابة من النور ضربها البرق، ثم هبت ريح قوية من الشمال. ووسط هذا الغموض العاصف - لانه حريص على تأكيد الطبيعة الظرفية للصورة - رأى مركبة كبيرة تجرها أربعة حيوانات قوية. لقد كانت مماثلة لكاريبو Karibu المنقوشة على بوابات القصر في بابل. مع ذلك يجعل حزقيال رؤيتها أمراً مستحيلاً: لكل وحش أربعة رؤوس، رأس وجهه وجه إنسان، وآخر وجهه ثور، ونسر. ويسير كل دولا ب في اتجاه مختلف عن العجلات الأخرى. لقد استخدمت الصورة كي تؤكد على التأثير الغريب الذي كان حزقيال يسعى كي يظهره. فخلق أجنحة المخلوقات كان ذات صوت عالي كصوت ماء سريع التدفق، وصوت شدي Shaddai كصوت عاصفة، أو كصوت معسكر وعلى المركبة شيء يشبه عرشاً يجلس فيه كائن يشبه شكل الإنسان: كان لماعاً كالنحاس والنار تنطلق من أطرافه. «كان شيئاً ما يشبه عظمة يهوى»^(٤٩). سجد حزقيال، وسمع هائلاً يناديه.

نادى الصوت حزقيال «بابن الإنسان» كي يؤكد على المسافة القائمة بين البشر ومملكة المقدس. بعد ذلك أتبع الرؤيا يهوى بخطة عمل عملية. كان على حزقيال أن يبلغ كلمة الله إلى أبناء إسرائيل المتمردين. فالصفة غير البشرية للرسالة الإلهية يتم نقلها عبر صورة عنيفة: تمتد يد نحو النبي حاملة لفافة مغلفة ببولولة وندب. أمر حزقيال أن يأكل اللفافة، أي ان يستوعب كلمة الله ويجعلها جزءاً منه. وبدأ طعمها كالعسل على الرغم من هذه التجربة الساحرة المرعبة في آن معاً. وفي النهاية يقول حزقيال «فحملني الروح وأخذني فذهبت مرأ في حرارة روحي ويد الرب كانت شديدة علي»^(٥٠). وصل إلى تل أبيب وبقي أسبوعاً كامراً محبباً.

فحياة حزقيال الغريبة تؤكد على مقدار غرابة العالم المقدس عن البشر، وحزقيال قد

أُجبر على أن يصبح رمزاً لهذه الغربة. فقد طلب يهوى إليه مراراً أن يقوم بحركات إيمائية كانت تضعه في منأى عن البشر الأسوياء. لقد صممت هذه الحركات كي توضح محنة إسرائيل في هذه الكارثة، ودلت في مستوى أكثر عمقاً على أن إسرائيل قد غدت دخيلة على العالم الوثني. وهكذا فقد مُنِع حزقيال من الحداد على زوجته عند وفاتها، كان عليه أن يستلقي طوال / ٣٩٠ / يوماً على جنبه و/ ٤٠ / يوماً على جنبه الآخر. كان عليه أن يحزم أمتعته ويطوف حول تل أبيب مثل لاجئ لاثويه مدينة، لقد أوقع يهوى به قلقاً كبيراً للدرجة أنه لم يستطع التوقف عن الارتعاش والتجوال دون أن يستريح. وأُجبر على أكل الغائط في مناسبة أخرى كرمز للمجاعة التي كان على أفراد شعبه احتمالها أثناء حصار أورشلیم. وهكذا أصبح حزقيال أيقونة للاستمرارية الجذرية التي تضمنتها عبادة يهوى: مامن شيء بالإمكان تبنيه بديهياً، وكانت الاستجابات السوية مرفوضة.

فالرؤيا الوثنية قد احتفت بالاستمرارية التي كان الناس يحسون بوجودها بين الآلهة والعالم الطبيعي. لم يجد حزقيال شيئاً معزياً في الدين القديم الذي كان يسميه «قلادة». ففي إحدى رؤاه تم اقتياده في رحلة موجهة إلى الهيكل في أورشلیم. وبالربع فقد رأى الناس وهم على شفير الدمار: ففي يهودا كانوا مازالون يعبدون آلهة وثنية في معبد يهوى. وتحول الهيكل نفسه إلى مكان يوحى بالكوابيس فجدران غرفه كانت مزينة برسوم الأفاعي التي تلتف على بعضها، وصور حيوانات كرهية، والكهنة يؤدون الشعائر «القلادة» في ضوء معتم، وكأنهم كانوا غارقين في ممارسة جنسية في غرفة خلفية. «أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام كل واحد في مخادع تصاويره»^(٥١). وفي غرفة أخرى جلست النساء باكيات على الإله المملّب تموز. وآخرون كانوا يعبدون الشمس وظهرهم باتجاه الحرم. وفي النهاية رأى النبي المركبة الغريبة التي شاهدها في رؤياه الأولى وهي تطير بعيداً آخذة معها «عظمة» يهوى. مع ذلك فيهوى ليس إلهاً بعيداً تماماً. ففي الأيام التي سبقت دمار أورشلیم يصوره حزقيال غاضباً على شعب إسرائيل، في محاولة يائسة للفت انتباههم ولإجبارهم على الاعتراف به. ينبغي أن تلوم إسرائيل نفسها فقط على وقوع الكارثة. لقد بدا يهوى غريباً عدة مرات. فقد شجع الإسرائيليین - كما شجع حزقيال - على رؤية أن ضربات التاريخ لم تكن اعتباطية عشوائية بل فيها عدالة ومنطق أكثر عمقاً. كان يحاول العثور على معنى في عالم السيادة الدولية الذي لا يرحم.

شعر بعض المنفيين في أثناء جلوسهم قرب أنهار بابل أنهم غير قادرين على ممارسة دينهم خارج أرض الميعاد. فالآلهة الوثنية كانت محلية على الدوام، وبدا لهم أن ترسيم

الترانيم إلى يهوى في بلد أجنبي أمر محال: تلذذوا بفكرة رمي أطفال بابل بصخرة تخرج أدمتتهم من رؤوسهم «طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة»^(٥٢). بينما لا نعرف شيئاً عن نبي آخر كان يدعو إلى الهدوء، وقد يكون هذا النبي على أهمية كبيرة لأن نبوءاته ومزاميره خالية من أي صراع شخصي مماثل للصراع الذي تحمله سابقوه. لقد سُمي هذا النبي أشعيا الثاني لأن عمله اللاحق قد أضيف إلى نبوءات أشعيا. لا بد أن بعض يهود المنفى كانوا يذهبون كي يعبدوا آلهة بابل القديمة، بينما كان البعض مدفوعاً إلى وعي ديني جديد. كان هيكل يهوى قد غدا أنقاضاً، وتم تدمير معابد الأديان القديمة في بيت لئيل وحبرون. وفي بابل لم يكن باستطاعتهم المشاركة في الطقوس الدينية التي كانت مركزية في حياتهم الدينية في بلادهم. كان يهوى كل مالديهم. فقام أشعيا الثاني بدفع هذه الفكرة خطوة عندما أعلن أن يهوى هو الله الوحيد. ففي كتابة أشعيا الثاني للتاريخ الإسرائيلي نجد أسطورة الخروج مزينة بالصور التي تذكرنا بانتصار مردوخ على تيامات، البحر البدئي:

وييد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه إلى سبع سواقي ويجيز فيها بالأحذية. وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من آشور كما كان لإسرائيل يوم صموده من أرض مصر^(٥٣).

لقد جعل أشعيا الأول التاريخ إنذاراً إلهياً، وفي كتابه/ المراء/ Consolation/ بعد الكارثة جعل أشعيا الثاني التاريخ يوئد أملاً جديداً في المستقبل. فإذا كان يهوى قد أنقذ إسرائيل في الماضي فباستطاعته أن يفعل ذلك ثانية. كان يوجه مسائل التاريخ ونصب عينه أن جميع الغويم ليسوا أكثر من فطرة ماء في دلو. فكان يهوى الإله الوحيد الذي يمكنه عليه. تخيل أشعيا الثاني آلهة بابل القديمة ملفوفة على عربات وتدحرج بعيداً في مغيب الشمس^(٥٤). فعهداها قد ولي: «ألسنت أنا يهوى؟» «ليس هناك إله بجاني»^(٥٥).

«أليس أنا الرب ولا إله آخر غيري. إله باؤ ومخلص. ليس سواي الفتوا إليّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأنني أنا الله وليس آخر»^(٥٦).

لا يضع أشعيا الثاني وقتاً في شجب آلهة الغويم المنتصرين منذ الكارثة. لقد آمن أن يهوى هو الذي قام بالأفعال الأسطورية العظيمة التي أوجدت العالم وليس مردوخ ولا بعل. فهذه هي المرة الأولى التي يصبح فيها الإسرائيليون مهتمين بدور يهوى في عملية الخلق، وربما يمزى ذلك إلى احتكاكهم المتجدد بأساطير بابل الكونية. من الطبيعي ألا يحاولوا البحث عن عزاء في عالم الحاضر القاسي. فإذا كان يهوى قد هزم غيلان العماء

في الزمن البدئي بالتالي سيكون خلاصهم أمراً أكثر سهولة. فالتشابه بين أسطورة الخروج وحكايات الانتصارات الوثنية على العماء المائي في بداية الزمن كان يحرض المتفنيين على التطلع بثقة إلى المستقبل في عرض جديد للقوة الإلهية. فيشير هنا مثلاً إلى انتصار بعل على لوثان - غول البحر في أسطورة الخلق الكنعانية - الذي كان يسمى أيضاً رهاب Rahab والتمساح واللجة:

استيقظي، استيقظي، إلسي قوة يا زراع الرب. استيقظي كما في أيام
القديم كما في الأدوار القديمة. ألسيت أنت القاطعة وعب الطاعة التتبن.
ألسيت أنت هي المتشفة البحر مياه النمر العظيم الجاعلة أعماقي البحر
طريقاً لعبور المؤمنين^(٥٧).

لقد امتص يهوى منافسيه في مخيلة إسرائيل الدينية في نهاية المطاف. لقد فقد إغراء الوثنية بريقه في المنفى، فولد دين اليهودية. كان المتوقع أن تنتهي عبادة يهوى بينما نجدها قد أصبحت السبيل الوحيدة التي مكنت الناس من العثور على أمل في ظروف تبدو مستحيلة.

وهكذا أصبح يهوى الإله الأحد الوحيد. ولم تعد هناك محاولة لتبرير إدعائه فلسفياً. كان الدين الجديد ينجح دائماً لا لأنه كان بالإمكان شرحه عقلياً بل لأنه كان فعالاً في منع اليأس وبث الأمل. لم يعد اليهود المقتلون من بلادهم يجدون اللا استمرارية في عبادة يهوى غريبة ومزعجة. إنها كانت تعبيراً عميقاً عن ظرفهم.

مع ذلك لم يكن في صورة الله التي قدمها أشعيا الثاني شيء مريح، لأن يهوى بقي خارج فهم العقل البشري:

لأن أفكاركم ليست أفكاركم ولا طرقكم طريقي يقول الرب. لأنه كما
علت السماوات عن الأرض هكذا علت طريقي عن طرقكم وأفكاركم عن
أفكاركم^(٥٨).

كانت حقيقة الله تقع خارج قدرة الكلمات والمفاهيم، ويهوى أيضاً لم يكن يفعل دائماً ما كان يتوقعه شعبه منه. ففي فترة جريئة فيها حدة - خاصة في يومنا هذا - يتطلع النبي إلى زمن تصبح فيه مصر وأشور شعب يهوى أيضاً: «مبارك شعبي مصر، وعمل يدي آشور وميراثي إسرائيل»^(٥٩). وبذلك أصبح رمزاً للوجود المتعالي الذي جعل تفسيرات الاختيار تافهة وغير كافية.

عندما هزم الملك الفارسي قورش Cyrus الامبراطورية البابلية في عام ٥٣٩ ق.م بدأ وكان الأنبياء مبروثن. لم يفرض قورش آلهة فارس على رعاياه الجدد، فتعبد في معبد مردوخ عندما دخل بابل منتصراً، وأعاد تماثيل آلهة الشعوب التي هزمها البابليون إلى مواطنها الأصلية. وبما أن العالم كان معتاداً على العيش في امبراطوريات دولية شاسعة لذا كان من المحتمل أنه لم تكن لدى قورش حاجة تدعوه إلى فرض أساليب لإجلاء السكان القديمة. فوطأة الحكم تصبح أخف إذا ما سمح للرعايا بعبادة آلهتهم في مناطقهم الخاصة بهم. فقد شجع على إعادة بناء المعابد القديمة في امبراطوريته، مكرراً زعمه بأن آلهتهم هي التي كلفته بالإطلاع بهذه المهمة. كان مثلاً للتسامح وسعة الرؤية حيال بعض أشكال الدين الوثني. لقد أصدر قورش - في عام ٥٣٨ ق.م - أمراً يسمح لليهود بالعودة إلى يهودا، وبناء الهيكل. إلا أن معظمهم أقرعوا على البقاء. ومنذ تلك الفترة فصاعداً لم تعيش في أرض الميعاد سوى أقلية من اليهود. تخبرنا التوراة أن نحو ٤٢٣٠٠ / يهودي غادروا بابل وتل أبيب إلى بلادهم. وهناك فرضوا يهوديتهم الجديدة على أخوتهم المرتبكين الذين بقوا.

نستطيع أن نرى السبب الذي استدعى هذا في مؤلفات التراث الكهنوتي (P) التي كتبت بعد المنفى وأدخلت إلى متن أسفار موسى الخمسة. لقد قدم هذا التراث تفسيره الخاص للأحداث التي عرضها J و E، كما أضاف (P) كتابين جديدين هما الأعداد واللاويين. فكما نتوقع فإن لدى (P) ميلاً لتعقيد يهوى، ونظرة تمجيدية له. لم يكن يعتقد أن باستطاعة أي امرئ أن يرى الله فعلاً بالطريقة التي اقترحها J. كان يشارك حزقيال في كثير من آرائه، ولذلك كان يرى أن هناك فارقاً بين الفهم البشري لله والحقيقة ذاتها. ففي عرض (P) لقصة موسى على جبل سيناء نرى موسى يتوصل كي يرى يهوى فيجيبه ولا تقدر أن ترى وجهه. لأن الإنسان الذي يراني ويعيش^(١٠). وكان على موسى أن يغطي نفسه بعيداً عن التأثير الإلهي في شق صخرة حيث يلحم يهوى مغادراً في مشهد معتم. لقد أدخل (P) فكرة ستصبح ذات أهمية كبيرة في تاريخ الله. يستطيع الرجال والنساء رؤية ما تبقى من نور خلقه الحضور الإلهي، ويسمي هذا «سنا يهوى» مظهر من مظاهر حضوره، ويتبقى عدم الخلط بين بقية النور هذه وبين الله ذاته^(١١). فعندما هبط موسى من الجبل كان وجهه يعكس هذا السنا، فكان يستطيع ينور لا يحتمل لدرجة أن الإسرائيليين لم يستطيعوا النظر إليه^(١٢).

لقد كان نور يهوى أحد مظاهر حضوره على الأرض، فهو بذلك (أي P) كان

يؤكد على الفارق بين صورة الله المخلدة التي رسمها الناس وما بين قدسية الله ذاته. وبالتالي كان هذا توازناً مقابلاً للطبيعة الوثنية في الدين الإسرائيلي. فعندما نظر (P) خلفه إلى قصة الخروج القديمة فإنه لم يتخيل أن يهوى ذاته رافق الإسرائيليين في أثناء التيه: لأن ذلك تجسيد غير لائق. بدلاً من ذلك فإنه يصور نور يهوى مائلاً الخيمة التي اجتمع فيها مع موسى. وبالتالي نور يهوى فقط هو الذي حل في الهيكل^(١٣).

كانت المساهمة الشهيرة التي قدمها (P) إلى أسفار موسى الخمسة هي عرضه لقصة الخلق في الفصل الأول من سفر التكوين والمستمدة من الإينوما إليتش. بدأ (P) بمياه الدجة البدئية (فكلمة Tehom تعني فساد تهامة) التي يخلق منها يهوى السماء والأرض. لم تكن هناك معركة بين الآلهة، أو صراع بين اليم، ولوتان، أو رهاب. فيهوى وحده كان المسؤول عن خلق جميع الأشياء في الوجود. لم يكن هناك فيض أو صدور تدريجي للوجود بل حقق يهوى الاستقرار بفعل لم يتطلب جهداً من إرادته. بالطبع لم يكن (P) يتصور العالم مقدساً لأنه مكون من نفس ماهية يهوى ذاتها. مفهوم «الانفصال» موضوع حاسم في لاهوت (P). لقد صنع يهوى الكون مكاناً مرتباً بفصل الليل عن النهار، والماء عن اليابسة، والنور عن الظلمة. ففي كل مرحلة من الخلق كان يهوى يبارك الخلق ويقدهس ويعلمه «خيراً». قصبة الخلق هنا ليست مطابقة لقصة الخلق البابلية، وهي ليست فكرة كوميدية لاحقة. والبشر قد لا يشتركون في الطبيعة الإلهية لكنهم قد خلقوا على صورة الله: بالتالي عليهم الاستمرار في مهماته الإبداعية. استغرق الخلق ستة أيام. كما في الإينوما إليتش - تلا ذلك استراحة سبتية في اليوم السابع: ففي الرواية البابلية كان هذا اليوم موعداً للاجتماع العظيم «لتحديد الأقدار»، ولنح الألقاب على مردوخ. أما في رواية (P) تمثل وقفة يوم السبت مقابلة رمزية مع العماء البدئي الذي كان مائلاً في اليوم الأول. يوحي التكرار والهجعة التعليمية أن قصة الخلق - كما صاغها (P) كانت موضوعة كي تنشذ في القربان المقدس مثل الإينوما إليتش كي تجدد عمل يهوى، وتنصبه خالفاً وحاكماً لإسرائيل^(١٤).

من الطبيعي أن يحتل الهيكل الجديد أهمية مركزية في يهودية (P) لأن الناس في الشرق الأدنى كانوا يعتبرون المعبد رمزاً مصغراً عن الكون. وكان بناء الهيكل عمل محاكاة إلهية يمكن البشرية المشاركة في مقدرة الآلهة على الإبداع. فخلال فترة النفي كان معظم اليهود يجدون عزاءهم في قصص تابوت العهد القديمة: المعبد النقال الذي نصب الله خيمته فيه، وشارك شعبه تشرده. فعندما وصف (P) بناء الحرم - أي خيمة اللقاء في البرية، فقد استمد وصفه من الميثولوجيا القديمة. لم يكن تصميمها المعماري أصيلاً بل

نسخة عن النموذج المقدس: يعطي يهوى موسى تعليمات مطولة جداً ومفصلة على جبل سيناء: «فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم. بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آتيته هكذا تصنعون»^(٦٥). ليس المقصود أخذ الوصف المطول لهذا المحرم حرفياً. فما من إسرائيلي تخيل أن أسلافه قد بنوا «تابوتاً من خشب النسط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف. وتغشيه بذهب نقي. من داخل ومن خارج تغشيه. وتصنع عليه إكليلاً من ذهب حواليه. وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائم الأربعة الخ...»^(٦٦)، فهذا العرض المطول يذكرنا كثيراً بقصة الخلق التي كتبها (P). فعند انتهاء كل مرحلة من البناء كان موسى يرى العمل بأكمله ويبارك الناس كما فعل يهوى في أيام الخلق الستة. بني المحرم في اليوم الأول من الشهر الأول في السنة، فالمهندس المعماري للهيكل بهزائيل Bezalel تلهمه روح الله التي أشرفت على خلق العالم أيضاً. وكلتا الروايتين تؤكدان على أهمية الراحة في يوم السبت^(٦٧). كان بناء الهيكل أيضاً رمزاً للانسجام الأصلي الذي كان سائداً قبل أن يدمر الجنس البشري العالم. لقد حدد يوم السبت في سفر التثنية كي يعطي كل امرئ يوم راحة - والعبيد ضمناً - ولكي يستذكر الإسرائيلي الخروج^(٦٨). لقد أعطى (P) السبت معنى جديداً: يصبح عمل محاكاة لله وللإحياء ذكرى خلقه العالم. فعندما كان اليهود يلتزمون براحة السبت إنما كانوا يشاركون في طقس أداه الله وحده فقط: أي كانت رمزية لعيش حياة الله. ففي الوثنية القديمة كان كل عمل بشري محاكاة لأفعال الآلهة. لكن عبادة يهوى قد كشفت عن هوة كبيرة بين العالمين: العالم المقدس والعالم البشري. وهكذا قد لاقى اليهود تشجيعاً على الاقتراب أكثر من يهوى عن طريق الالتزام بتوراة موسى. فقد أورد سفر التثنية قائمة بالشرائع المفروضة التي تشمل الوصايا العشر. فخلال المنفى وبعدته تمت صياغة هذه الوصايا في تشريع معقد مكون من ٦١٣/ وصية في سفر تثنية الاشتراع. وتبدو هذه الإرشادات الدقيقة لشخص غير منتم غير هامة، وقد تم تقديمها في لاهوت العهد الجديد في رؤية سلبية جداً. لم يجدها اليهود عبداً ثقيلاً عليهم، كما يظن المسيحيون، بل وجدوا فيها سبباً رمزياً للعيش في حضور الله. كانت الشرائع الحميمية في سفر التثنية مؤشراً على خصوصية مركز إسرائيل^(٦٩). ورأها (P) محاولة في قالب طقسي للإشتراك في قداسة فصل الله، وشافياً من الفصل المولم بين الإنسان والله. بالإمكان إضفاء القداسة على الطبيعة إذا ما قلد الإسرائيليون أفعال الله: بفصل الحليب عن اللحم، والتظيف عن الدنس، والسبت عن بقية أيام الأسبوع.

لقد تم إدخال أعمال التراث الكهنوتي في سفر التثنية إلى جانب قصص J و E وأسفار موسى الخمسة. ويذكرنا هذا أن أي دين بارز إنما يتألف من عدد مستقل من الروحانيات والرؤى. فبعض اليهود يشعرون أنهم مشدودون إلى إله الأسفار الخمسة الذي اختار إسرائيل كي تكون منفصلة بشكل عدواني عن الفريسيين. وقد وضع البعض هذه الأسفار لتشمل الأساطير المسيانية (المخلص) Messianic التي كانت تتطلع إلى يوم يهوي في نهاية الزمن، عندما يمز إسرائيل وبذل الأمم الأخرى. تشير هذه الروايات إلى رؤية الله ككائن بعيد جداً. وقد حصل اتفاق ضمني على توقف عصر النبوة بعد المنفى. كان هناك احتكاك باله أكثر مباشرة: تحقق هذا في الرؤى الرمزية فقط التي تنسب إلى الأشخاص العظام في الماضي الغابر مثل إنوخ Enoch ودانيال.

لقي أحد هؤلاء الأبطال القدامى احتراماً كبيراً في بابل كمثال على الصبر في المعاناة لأنه أيوب. فبعد المنفى استخدم أحد الناجين هذه القصة الأسطورية كي يطرح أسئلة أساسية حول طبيعة الله ومسؤوليته عن عذاب البشرية. ففي القصة القديمة كان الله قد امتحن أيوب لأنه احتمل عذابه فكانه الله بإعادة ثروته السابقة إليه. في الرواية الجديدة لقصة أيوب قسم المؤلف الأسطورة القديمة نصفين، وجعل أيوب يثور على تصرف الله حياله. يتجرأ أيوب على مساواة الأوامر الإلهية، ويتورط في جدال فكري عويص. فللمرة الأولى في تاريخ اليهودية الديني التفتت الخيلة الدينية إلى تأمل ذي طبيعة أكثر تجريباً. فقد زعم الأنبياء أن الله سمح بعذاب إسرائيل بسبب ذنوبها، ويوضح مؤلف قصة أيوب أن بعض الإسرائيليين لم يهودوا راضين عن هذه الإجابة التراتية. فقصة أيوب تهاجم هذه النظرة وتكشف عدم كفاءتها الفكرية، وفجأة يتدخل الله كي يقطع عليه تأمله العنيد. يظهر الله لأيوب في رؤيا مشيراً إلى عجائب العالم الذي خلقه: كيف تجرأ مخلوق تافه مثل أيوب على مجادلة الله المتعالي؟ يدعن أيوب. فهذا الحل لن يرضي قارئاً معاصراً يبحث عن إجابة فلسفية أكثر تماسكاً عن مسألة المعاناة. فمؤلف القصة لا ينكر على الإنسان حقه في السؤال، وفي الوقت ذاته يقدم اقتراحاً بأن العقل وحده ليس كفؤاً كي يتناول مسائل معقدة كهذه. يجب أن يفسح التأمل الفكري الطريق إلى كشف مباشر من الله، مثل الكشف الذي تلقاه الأنبياء.

حتى هذه الفترة لم يكن اليهود قد بدأوا بالتفلسف بعد لكنهم وقعوا تحت تأثير العقلانية الإغريقية خلال القرن الرابع ق.م. ففي عام ٣٣٢/ ق.م. هزم الاسكندر المقدوني داريوس الثالث كسرى فارس وبدأ الإغريق باستعمار آسيا وأفريقيا. لقد أسسوا دول المدينة

في صور Tyre وصيدا، وغزه، وعمان، وطرابلس. وهكذا أصبح يهود فلسطين والشتات محاطين بثقافة هيلينستية، وجدها البعض مزعجة بينما تحمس آخرون حيال المسرح والفلسفة والرياضة والشعر الإغريقي، لذلك تعلموا الإغريقية وتدرّبوا على الرياضة واتخذوا لأنفسهم أسماء إغريقية، كما حارب بعض اليهود في الجيوش اليونانية كمرتزقة. وترجموا نصوصهم المقدسة إلى اليونانية مقدمين بذلك النسخة المعروفة باسم النسخة السبعونية. وبذلك تمكن بعض الإغريق من معرفة إله إسرائيل فقرروا أن يعبدوا يهو او (إياو Iao كما أسموه) إلى جانب عبادتهم لزئوس وديونيسوس. وتم اجتذاب بعضهم إلى الكنس اليهودية، أو إلى منازل الاجتماعات التي خصصها يهود الشتات مكان العبادة في الهيكل. وهناك كانوا يقرؤون الكتب المقدسة ويصلون ويستمعون إلى المواعظ. فالكثيرون لم يكن مشابهاً لأي شيء آخر في بقية العالم الديني القديم. فعلم وجود طقس أو قربان جعله أكثر شبهاً بمدرسة للفلسفة، كان يتوافد إليه كثيرون عند حضور واعظ ديني معروف إلى المدينة، تماماً مثلما كانوا يصطفون كي يصطفوا إلى فلاسفتهم. لقد بنى بعض الإغريق أجزاء مختارة من التوراة، وكانوا ينضمون إلى اليهود في مذاهب توفيقية. فخلال القرن الرابع ق.م. كانت فئة من اليهود والإغريق تماثل يهوى بأحد الآلهة الإغريقية.

بقي معظم اليهود متحفظين، ونشأ توتر بين اليهود والإغريق في المدن الهيلينستية الواقعة في الشرق الأوسط. لم يكن الدين شأناً خاصاً في العالم القديم، لأن الآلهة كان لها أهمية كبيرة للمدينة، فإذا ما أهملت عبادتها فإنها سوف تسحب رعايتها للمدينة. فاليهود الذين قالوا إن هذه الآلهة غير موجودة كانوا يسمون ملحدّين وأعداء المجتمع. كانت هذه العداوة قد ترسخت بحلول القرن الثاني ق.م. فقد حدثت ثورة في فلسطين عندما حاول الحاكم السلوقي أنطيوخوس Antiochus Epiphanes جعل أورشليم تتخذ طابعاً هيلينياً، وإدخال عبادة زئوس إلى الهيكل. بدأ اليهود بانتاج أدبهم الخاص بهم، وكان يدافع هذا الأدب عن الحكمة والخوف من يهوى. كان أدب الحكمة لوناً أدبياً متين الأساس في الشرق الأوسط، وقد حاول الخوض في معنى الحياة عن طريق البحث عن أفضل سبيل للعيش وليس عن طريق التفكير الفلسفي: ففي أغلب الأحيان كان براغماتياً جداً. فعُرف كتاب الأمثال الذي كان يدونه في القرن الثالث ق.م. ذهب إلى أبعد من ذلك بقليل، واقترح أن الحكمة كانت الخطوة الكاملة التي وضعها الله عندما خلق العالم، فكانت أولى مخلوقاته. وسيكون لهذه الفكرة أهمية كبيرة لدى المسيحيين الأوائل - كما سنرى في الفصل الرابع. يصور المؤلف الحكمة بحيث تبدو شخصاً منفصلاً:

«الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل مسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض. لما رسم أسس الأرض كنت عنده صانئاً وكنت كل يوم لذاته فرحة دائماً قدامه. فرحة في مسكونة أرضه ولذاتي مع بني آدم»^(٧٠).

فالحكمة لم تكن كائناً مقدساً بل يقال أن الله تحديداً قد خلقها. إنها مماثلة لنور الله الذي وصفه المؤلفون الكهنة، ممثلة بذلك خطة الله التي يستطيع البشر لمحها في الخلق وفي الشؤون البشرية: يصور المؤلف الحكمة جولة في الشوارع، منادية الناس كي يخشوا يهوى. في القرن الثاني ق.م رسم يسوع بن سيرا Jesus Ben Sira - يهودي ورع من أورشليم - لوحة مماثلة للحكمة: يجعلها تقف في المجلس الإلهي وتشد مدائحها: لقد تدفقت من فم المتعالي مثل الكلمة المقدسة التي خلق الله بها العالم: إنها موجودة في كل مكان من الخلق، لكنها اتخذت سكناً أبدياً بين شعب إسرائيل^(٧١).

كانت شخصية الحكمة رمزاً لقدرة الله في العالم، مثلها مثل نور يهوى. كان اليهود يطورون مفهوماً يمجّد يهوى بحيث كان من الصعب تخيله متدخلاً مباشرة في شؤون البشر. كانوا يفضلون، مثل (P) أن يميزوا بين الله الذي يوسعنا معرفته ونخبره عن الحقيقة الإلهية ذاتها. فعندما نقرأ عن الحكمة الإلهية مغادرة الله لتتجول في العالم بحثاً عن الإنسانية يصعب علينا ألا نتذكر الإلهات الوثنيات مثل عشتار وعناة وإيزيس اللواتي هبطن من العالم المقدس في مهمة إنقاذية. لقد بلغ أدب الحكمة بعداً لاهوتياً في الاسكندرية في نحو عام ٥٠ ق.م. ففي كتاب /حكمة سليمان/ الذي ألفه أحد يهود الاسكندرية - التي كان فيها تجمع يهودي كبير - نبه اليهود إلى ضرورة مقاومة الثقافة الهيلينية المغوية، وإلى البقاء مخلصين لتراثهم. فالخوف من يهوى هو مُكوّن الحكمة الحقيقية وليست الفلسفة اليونانية. ألف كتابه باللغة اليونانية، وشخص الحكمة أيضاً (صوفياً)، وزعم أن ليس بالإمكان فصلها عن الله اليهودي:

صوفيا هي نَفْسُ قدرة الله. فيض نقي من نور الله التقدير. وبالتالي لا يستطيع شيء غير نقي أن يجد طريقه إليها. إنها انعكاس للنور الأبدي. مرآة صافية لقدرة الله الفعالة، صورة غير عجيبة^(٧٢).

ستغدو هذه الفقرة هامة جداً عند المسيحيين عندما وصلوا إلى مناقشة مرتبة يسوع. وهكذا فقد رأى المؤلف اليهودي أن الحكمة هي أحد جوانب الله الذي لا سبيل إلى معرفته، والذي كيف نفسه بما يتوافق مع الفهم البشري. فالحكمة هي الله كما أظهر ذاته للإنسان. فالفهم البشري لله يتسم بالغموض، وهو مختلف عن حقيقة الله الكاملة.

كان مؤلف /حكمة سليمان/ محققاً في إحساسه بالتوتر القائم بين الفكر اليوناني والدين اليهودي. وقد رأينا أن هناك اختلافاً كبيراً - وربما لا يمكن تسويته - بين مفهوم أرسطو لله الذي لا يكاد يعرف العالم الذي خلقه، والله في التوراة المنشغل في شؤون البشر بكل حرارة. فالله اليوناني بالإمكان اكتشافه بواسطة العقل البشري بينما جعل الله التوراتي نفسه معروفاً عن طريق الظهور. فهناك هوة تفصل يهوى عن العالم، بينما اعتقد الإغريق أن نعمة العقل جعلت البشر مماثلين لله، وبالتالي باستطاعتهم الوصول إليه بواسطة إمكاناتهم. فكلما كان يقع موحد في غرام الفلسفة اليونانية فإنه كان يحاول تعديل إلهها بما يتناسب مع إلهه. وستكون هذه الفكرة إحدى الموضوعات الرئيسية في قصتنا. أحد الذين قاموا بهذه المحاولة هو الفيلسوف اليهودي الشهير /فيلون الاسكندري/ ٣٠ ق.م - ٥٤ ق.م. كان فيلون أفلاطونياً، وذا شهرة فريدة كفيلسوف عقلاني. كتب مؤلفاته بلغة يونانية جميلة ويبدو أنه لم يتكلم بالعبرية، مع ذلك كان يهودياً ورعاً وملتزماً بالوصايا، لم ير تناقضاً بين إلهه وإله الإغريق. وتجدد الإشارة إلى أن إله فيلون يبدو مختلفاً جداً عن يهوى. ويبدو أن فيلون قد أربكته كتب التوراة التاريخية فحاول أن يحولها إلى رموز محكمة. وينبغي أن نشير إلى أن أرسطو قد اعتبر التاريخ غير فلسفي. فإلهه دون صفات بشرية: فالقول إن الله غاضب خطأ تماماً. كل ما في وسعنا معرفته عن الله هو وجوده كحقيقة وحيدة. فيلون كيهودي ملتزم عملياً، لم يكن يؤمن أن الله أظهر ذاته لأنبيائه. فكيف كان هذا ممكناً؟

شرح فيلون المسألة بإقامة فارق بين جوهر الله الذي لا سبيل إلى فهمه وبين أفعاله في العالم أي قدراته أو طاقاته. فكان هذا الحل مماثلاً للحل الذي قدمه (P) وكتاب الحكمة الآخرين. إذ لا سبيل إلى معرفة الله كما هو بذاته. يجعل فيلون الله يخبر موسى وإن فهمي شيء أكبر من الطبيعة البشرية، وأكثر مما تحويه السماء والكون^(٧٣). فلكي يكيف الله ذاته بما ينسجم مع عقولنا المحدودة فإن الله يتواصل عبر قدراته التي تبدو مساوية للمثل الأفلاطونية المقدسة (مع أن فيلون ليس متسقاً دائماً في رأيه هذا). إنها أسمى الحقائق التي يستطيع العقل البشري استيعابها، فيراها فيلون فيضاً من الله مثلاً رأى أفلاطون وأرسطو الكون في حالة فيض أبدي من العلة الأولى. فقدرتان من هذه القدرات لهما أهمية كبيرة، أسماهما فيلون: قدرة ملكية Kingly تكشف الله في ترتيب الكون، وأخرى هي قدرة على الخلق يكشف الله عن ذاته في النعم التي يسفها على البشرية. ينبغي ألا نخلط بين هاتين القدرتين من جهة والجوهر الإلهي الذي يبقى مغلفاً بغموض لا سبيل إلى اختراقه من جهة أخرى. تمكننا هاتان القدرتان من لمح حقيقة تقع خارج أي شيء يمكننا تصوره،

يتحدث فيلون أحياناً عن ذات الله محاطة بالقدرة الملكية وقدرة الخلق بحيث تشكل ثالوثاً. فعندما يشرح قصة زيارة يهوذا لابراهيم ومع الملائكة في مامر Mamre يقول إن هذه القصة هي تمثيل رمزي لذات الله - هو من يكون - مع القدرتين الأسمى.

لو علم J بهذا الفهم لتملكته الدهشة، لأن اليهود وجدوا في فهم فيلون لله فهماً غير صحيح بينما وجد المسيحيون فيه عوناً لهم، وسنرى أن الإغريق قد بنوا على هذا الفارق بين جوهر الله الذي لا سبيل إلى معرفته والقدرات التي تجعله معروفاً لنا. لقد تخيل فيلون - مثلما تخيل كتاب الحكمة - أن الله قد أعد خطة محكمة (اللوغوس) للخلق تقابل مملكة المثل عند أفلاطون، وتجسدت بعدئذ هذه المثل في الكون المادي. نجد فيلون غير متسق - يقترح أحياناً أن اللوغوس هو إحدى القدرات، وأحياناً أخرى يبدو وكأنه يعتبره أعلى من القدرات، المثل الأعلى الذي يستطيع البشر بلوغه. فعندما نفكر باللوغوس فإننا لا نشكل معرفة إيجابية عن الله: لأننا ننتقل خارج مجال العقل المميز إلى فهم حدسي هو أعلى من مجرد طريقة في التفكير وأثمن من أي شيء مكون من فكر صرف^(٧٥). لقد كان نشاطاً مماثلاً لتأمل أفلاطون. شدد فيلون على أننا لن نبلغ الله أبداً كما هو في ذاته: الحقيقة الأسمى التي نستطيع فهمها هي المعرفة النشوية (من نشوة) بأن الله يتعالى تماماً عن إمكانية العقل البشري.

لا يبدو عرضه هذا مدعاة للكتابة لأنه يتحدث عن راحة عاطفية بهيجة بالمجهول جلبت له قدرة الإبداع والتحرر. كان يرى الروح - كما رآها أفلاطون - وكأنها حبيسة عالم المادة الفيزيائي. يجب أن تصعد الروح إلى الله متواها الحق تاركة خلفها العاطفة والأحاسيس وحتى اللغة، لأن هذه جميعاً تقيّدنا بالعالم غير الكامل. وفي النهاية ستبلغ نشوة رفعها فوق أكفان الأنا المملة إلى حقيقة أكبر وأكثر كمالاً. سبق ورأينا أن الله غالباً هو تصور أو ممارسة خيالية مبدعة. لقد فكر الأنبياء في تجربتهم، وشعروا أن بالإمكان عزوها إلى الوجود الذي أسموه الله. ويوضح فيلون أن في التأمل الديني قواسم مشتركة كثيرة مع أشكال الإبداع الأخرى. فقد تحدث عن أوقات تصارع فيها بقوة مع كتبه دون أن يحرز تقدماً، لكنه كان يشعر أحياناً وكأنه قد سيطر الله عليه:

لقد أصبحت مبتلاً فجأة، والأفكار تتساقط كالطنج.

فتحت تأثير السيطرة الإلهية تملؤني بسعار كهنة سيبيل، فأغدو جاهلاً لكل شيء: للمكان، للناس، للحاضر، لنفسي، لما قيل ولما كتب، لأنني أكون قد بلغت تعبيراً أفكاراً، متعة سيائية، رؤية حادة البصيرة، وضوحاً مميّزاً جداً للأشياء، قد تقع تحت البصر كنتيجة لأوضح عرض^(٧٦).

بالنسبة لليهود من المحال قبول فرضية كهذه التي يقدمها العالم الإغريقي. ففي السنة التي توفي فيها فيلون حدثت مذابح منظمة ضد التجمع اليهودي في الإسكندرية، وانتشرت مخاوف من عصيان يهودي مسلح. وعندما شيد الرومان إمبراطوريتهم في شمال أفريقيا والشرق الأوسط في القرن الأول الميلادي أسلموا أنفسهم إلى الثقافة اليونانية، ولم يرثوا العداوة اليونانية لليهود. في أغلب الأحيان كانوا يفضلون اليهود على اليونانيين معتبرين إياهم حلفاء مفيدون في المدن اليونانية التي كانت عامرة بعداء مقيم تجاه روما. لقد أُعطي اليهود حرية دينية تامة، وكان دينهم معروفاً بترائه الكبير وكان يلقي الاحترام. كانت العلاقات بين اليهود والرومان جيدة عادة، حتى في فلسطين حيث كان السكان لا يتقبلون الحكم الأجنبي بسهولة أقل. كانت اليهودية في مركز قوي جداً في الامبراطورية الرومانية بحلول القرن الأول ق.م. فعشر مواطني الامبراطورية كانوا يهوداً، وبلغت نسبة اليهود في الاسكندرية في زمن فيلون ٤٠٪ من السكان. كان الناس في الامبراطورية الرومانية يبحثون عن حلول دينية جديدة، وكانت أفكار الوحدانية في الجوهر العام وكان الناس يرون الآلهة المحلية مجرد أشكال لألوهة توجهها. وكان الطابع الأخلاقي العالمي في اليهود يشد الرومان. والذين كانوا مترددين حيال الختان والالتزام بالتوراة كاملاً أصبحوا أعضاء مُكرَّم في الكنائس، وكانوا يعرفون باسم «الخائفين من الله». كانت أعداد هؤلاء في ازدياد، ويقال إن أحد الأباطرة ويدعى فلافيان Flavian قد اعتنق اليهودية مثلما اعتنق قسطنطين المسيحية لاحقاً. وقد قاومت جماعة سياسية من اليهود المتعصبين الحكم الروماني في فلسطين. ففي عام ٦٦ ميلادية نظمت عصياناً ضد روما، وتمكنت من إبقاء الجيوش الرومانية في مواقعها طوال أربع سنوات. خشيت السلطات من امتداد العصيان إلى يهود الشتات فاضطرت إلى سحقه دون رحمة. ففي عام ٧٠ م هزمت جيوش الامبراطور الجديد فيسباسيان Vespasian أورشليم، وحرقت الهيكل حتى أساساته، وجعلتها مدينة رومانية أسمتها إيليا كابيتولانا Aelia Capitolana ، وسبق اليهود إلى المنفى من جديد.

فقدان الهيكل الذي كان مصدراً لإلهام لليهودية الجديدة أصبح مبعث حزن كبير. ويبدو أن يهود فلسطين - الذين كانوا محافظين في أغلب الأحيان أكثر من يهود الهيلينستية في الشتات - قد أعدوا أنفسهم لاحتمال الكارثة. فنشأت مذاهب عديدة في الأرض المقدسة، وحلّت نفسها من ارتباطها بهيكل أورشليم. كانت طائفتا إيسنس Essens وكورمان Qorman تعتقدان أن الهيكل قد أصبح فاسداً ومرتبشاً، فانسحب أفرادها كي يعيشوا في تجمعات منفصلة مثل تجمع الطريقة الرهبانية قرب البحر الميت. وكانوا يعتقدون

أنهم كانوا ينون هيكلًا جديدًا لم تصنعه الأيدي، وسيصبح اسم هيكلهم هيكل الروح Spirit، وبدلاً عن القرايين الحيوانية كانوا يطهرون أنفسهم، ويسعون إلى مغفرة الذنوب من خلال طقوس التعميد والوجبات الجماعية: فالله يعيش في أخوة متحابية لا في هيكل حجري.

كان الفريسيون Pharisees هم اليهود الأكثر تقدماً على جميع اليهود في فلسطين، فقد وجدوا أن الحل الذي قدمته Essenes نخبوياً جداً. صور العهد الجديد الفريسيين كقبور مبيضة، ومناققين سمجين، فأثى هذا الوصف نتيجة للتشوهات التي لحقت بلاهوت القرن الأول الميلادي. كان الفريسيون يهوداً روحانيين متحمسين، وكانوا يعتقدون أن المطلوب من إسرائيل كلها هو أن تكون أمة واحدة مقدسة من الكهنة. فقد يكون الله حاضراً في أحط بيت بالإضافة إلى حضوره في الهيكل. وهكذا فقد عاشوا كطبعة كهنوتية رسمية ملتزمة بقوانين خاصة بالطهارة التي كانت تنطبق على الهيكل فقط في بيوتهم. فكانوا يصرون على تناول وجباتهم في حالة من الطهارة الطقسية لاعتقادهم أن طاولة طعام كل يهودي هي مثل مذبح الله في الهيكل. كما طوروا إحساساً بوجود الله في أدق تفاصيل الحياة اليومية، وبالتالي أصبح باستطاعة اليهود التوجه إلى الله مباشرة دون وساطة طبقة كهنوتية ودون طقس متقن. وكان بإمكانهم التكفير عن ذنوبهم بالمحبة تجاه جارهم، فالحبة كانت الأكثر أهمية في التوراة، وعندما يتدارس يهوديان التوراة سوياً فإن الله موجود بينهما. فخلال السنوات الأولى من القرن الأول الميلادي نشأت مدرستان منافستان: ترأس الأولى شماي الأكبر Shammai the Elder والتي كانت الأقوى والثانية ترأسها الحبر حليل Hillel التي غدت الأكثر شهرة من بين الفرق الفريسية. وتروى قصة تسير على النحو التالي: اقترب وثني من حليل ذات يوم وأخبره عن رغبته بدخول اليهودية إذا تمكن المعلم من تلاوة التوراة بأكمله وهو واقف على ساق واحدة. فأجاب حليل «لا تعامل الآخرين إلا كما تحب أن يعاملوك». «هذه هي التوراة كلها اذهب وتعلمها»^(٧٧).

بحلول سنة ٧٠ / الكارثية كان الفريسيون قد أصبحوا الطائفة التي تلقى أكبر تقدير وأهمية من بين اليهودية الفلسطينية. فقد أوضحوا لشعبهم أنهم ليسوا بحاجة إلى هيكل لعبادة الله، وهذا ما توضحه القصة الشهيرة التالية:

بينما كان الحبر يونان بن زكي يسير خارجاً من أورشليم ذات يوم سار الحبر هوشع خلفه وشاهد الهيكل أنقاضاً. قال هوشع: الرب لنا، فذاك هو المكان الذي تنفر فيه خطايا إسرائيل، لقد أصبح أنقاضاً. فقال له الحبر

يونان: «يا بني لا تحزن. لدينا غفران فعال كهذا. وما هو؟ إنه أفعال الطيبة الحجة، وكما يقال «لأنني أريد الحجة لا القربان»^(٧٨).

ويقال أن بعد فتح أورشليم تم تهريب الحبر يونان إلى خارج المدينة المحترقة داخل تابوت. لقد كان يونان هذا معارضاً للتمرد اليهودي، وأنه كان يعتقد أن اليهود سيحيشون في حالة أفضل دون إقامة دولة خاصة بهم. لم يلبث الرومان أن سمحوا له بتأسيس تجمع فريسي يتمتع بحكم ذاتي في جابرنه Faberneh غربي أورشليم. كما أنشئت تجمعات مماثلة في فلسطين وبابل اللتين بقيت الروابط بينهما قوية. وقد قدمت هذه التجمعات علماء مثل تانايم Tannaim وأبطال كنسيون مثل الحبر يونان، والحبر أكيفا Akiva للتصوف، والحبر اسماعيل Ishmael: لقد جمع هؤلاء المشنة Mishnah تنسيق شريعة شفوية جعل الشريعة الموسوية معاصرة. بعد ذلك بدأت مجموعة علماء تعرف باسم عمورايم Amoraim بكتابة شرح للمشنة، وأنتجت ثلاثة كتيبات تعرف مجتمعة باسم التلمود. في الحقيقة لقد تم جمع تلمودين: تلمود أورشليم الذي اكتمل جمعه في نحو نهاية القرن الرابع، والتلمود البابلي الذي يعتبر مرجعاً أكثر وثوقية لم يكتمل جمعه حتى نهاية القرن الخامس. واستمرت هذه العملية فكان كل جيل من العلماء يشرح التلمود ويضيف إلى شرحه شرح من سبقه. يميل غير اليهود إلى الاعتقاد بأن الفكر الفقهي غير مترابط. بل كان تآملاً لا نهاية له في عالم الله، وبقدس الأقداس الجديد، وكان كل مستوى من التأويلات يمثل جدران وباحات هيكل جديد مقدس، ويمثل حضور الله بين شعبه.

كان يهوى دائماً إلهاً متعالياً يوجه البشر من علي ومن الخارج. فجعله الأحبار حاضراً بين البشر، وفي أدق تفاصيل الحياة. ففقدان الهيكل وتجربة المنفى الجديد جعلوا اليهود يشعرون أنهم بحاجة إلى إله بينهم. لم يقدم الأحبار أية معتقدات رسمية عن الله، خبروه حضوراً ملموساً تقريباً بينهم. فقد وصفت روحانيتهم بأنها «صوفية سوية»^(٧٩). ففي الفترات الأولى من التلمود بالإمكان أن يُذكر الله في الظواهر الفيزيائية الغامضة. فقد تحدث الأحبار عن الروح القدس التي استقرت فوق الخليقة وفوق بناء الحرم جاعلة حضورها محسوساً في رياح تهب أو في نار متأججة. وسمعاها آخرون في رنين جرس، أو في صوت رعد. فعلى سبيل المثال كان الحبر يونان جالساً ذات يوم يناقش رؤيا حزقيال للمركبة الإلهية عندما نزلت نار من السماء، ووقفت الملائكة قربها: أكد هاتف من السماء أن الحبر كان مكلفاً بمهمة خاصة من الله^(٨٠).

كان إحساسهم بحضور الله قوياً جداً لدرجة أنه كان لابد لأية معتقدات موضوعية رسمية من أن تفقد مكانها. لقد قال الأحبار مراراً أن كل إسرائيلي كان واقفاً عند أسفل جبل سيناء قد عرف الله بطريقة مختلفة، وكأنما قد كُتِبَ الله نفسه بما يتوافق مع كل شخص «أي وفقاً لفهمه»^(٨١). فقد صاغ أحد الأحبار هذا الأمر كما يلي: «لا يأتي الله إلى الإنسان ثقيل الوطء بل يأتي بشكل متناسب مع قدرة الإنسان على استقبله له»^(٨٢). كانت هذه الرؤية تعني أن الإنسان لا يمكنه أن يصف الله وكأنه يتبدى لكل شخص بذات الشكل: لقد كانت معرفة ذاتية بشكل أساسي. كل فرد كان يعرف الله بطريقة مختلفة، بشكل يتناسب مع متطلبات طبيعه الخاص. لقد عرف كل نبي الله بشكل مختلف لأن شخصية النبي كانت تؤثر على معرفته الله. فكما سنرى لاحقاً طور موحدون آخرون مفهوماً مماثلاً جداً لهذا المفهوم. فحتى يومنا هذا الأفكار الثيولوجية عن الله هي مسائل خاصة في اليهودية ولا تعززها السلطة الدينية.

إن أي معتقد رسمي سوف يحد الغموض الأساسي حول الله. لقد استنتج الأحبار أنه عصي على الفهم. ولم يكن نبي حتى مثل موسى قادراً على النفاذ إلى غموض الله. فبعد بحث مطول اعترف الملك داوود أن محاولة فهم الله أمر ليس بذي جدوى لأنه بعيد جداً عن قدرة عقل الإنسان على الفهم. لقد حُرم على اليهود لفظ اسم «الله»، لأن أية محاولة للتعبير عنه ستكون غير كافية: كان اليهود يكتبون اسم الله «يهوى» دون أن يلفظوه أثناء القراءة في التوراة. نستطيع أن نعجب بأفعال الله في الطبيعة - فكما قال الحبر حونا Huna - يعطينا إعجابنا هذا فكرة بسيطة عن الحقيقة الكاملة: «لا يستطيع الإنسان أن يفهم معنى الرعد أو الإعصار، أو العاصفة، أو تراتب الكون، أو طبيعته، فكيف يتباهى إذاً بكونه قادراً على فهم أساليب ملك كل الملوك؟»^(٨٤). فالغاية الكلية من فكرة الله هي أن تشجع إحساساً لدينا بغموض وأعاجيب الحياة، وليس أن نجد حلولاً بارعة لها. وقد حذر الأحبار الإسرائيليين من «تجديد الله كثيراً في صلواتهم لأنه لابد أن يكون في كلماتهم نقص ما»^(٨٥).

كيف كانت العلاقة بين الوجود المتعالي العصي على الفهم مع العالم؟ لقد عبر الأحبار عن إحساسهم هذا في المفارقة التالية: «الله هو مكان العالم، لكن العالم ليس مكانه»^(٨٦). قاله قد أحاط العالم وغلفه، وكأنما لم يكن يعيش فيه كما تعيش المخلوقات. وفي واحدة من أفضل الصور التي كانوا يفضلونها قالوا أن الله ملأ العالم كما تملأ الروح

الجسد: إنها تخيره لكنها تتجاوزه. قالوا إن الله كراكب حصان. فبينما يكون الراكب على الحصان معتمداً على الحيوان، لكن الراكب أسمى منه وهو ممسك بعنانه. فهذه مجرد صورة غير كافية حقاً. وكانت هناك صور تخيلته «شيء ما» لا يمكن تعريفه وضخم نبيش وتتحرك فيه، وبيده وجودنا. فعندما تحدثوا عن حضور الله على الأرض كانوا حذرين جداً كحذر الكتاب التوراتيين في تمييزهم آثار الله التي يسمح لنا برؤيتها من السر الإلهي الأعظم الذي لا مبدل إلى الوصول إليه. لقد أحبوا الصور السنية ليهوى وللروح القدس التي كانت تذكر دائماً بالله الذي نخبره، وهي ليست مماثلة للذات الإلهية.

إحدى المترادفات المفضلة لكلمة الله كانت كلمة الشيكنة Shekinah (أي حضور الله على الأرض) والمشتقة من الكلمة العبرية Shakan «أي يعيش مع أو يعيش في خيمة أحد ما». صورة الله بعد هدم الهيكل - الذي رافق الإسرائيليين في التيه كانت توشي بأن من الممكن الوصول إليه: فقال بعضهم إن الله الذي عاش مع شعبه على الأرض كان ما يزال يعيش على قمة الهيكل على الرغم من أنه أصبح أنقاضاً. وجادل أحبار آخرون في أن دمار الهيكل قد حرر الله من أورشليم، لكنه من ساكني بقية العالم^(٨٧). الشيكنة «مثل النور الإلهي أو الروح القدس»، لم يتصوروه وجوداً إلهياً منفصلاً بل حضوراً لله على الأرض. لقد نظر الأحبار إلى الخلف، إلى تاريخ شعبهم فأروا أنه قد رافقهم دائماً:

تعال وشاهد كم أن الإسرائيليين محبوبون أمام الله
فحينما ذهبوا كان يتبعهم الله.

لكما يقال «هل كشفت عن نفسي إلى بيت أبيكم عندما كانوا في مصر؟
كان الشيكنة معهم في بابل. «إكراماً لكم أزيست إلى بابل».
وعندما يتم خلاص إسرائيل في المستقبل سيكون الشيكنة معهم.
«الرب إلهكم سوف يذكركم أي أن الله سوف يعود مع أشركم»^(٨٨).

كانت الرابطة بين إسرائيل وربها قوية جداً، فعندما خلصهم في الماضي كان الإسرائيليون يقولون لله «إنك قد خلصت نفسك»^(٨٩). كان الأحبار بطريقتهم المميزة يطورون ذلك الإحساس بالله حسبما تعرفه الذات، وقد سمي الهندوس هذا الإحساس آتمان Atman .

ساعدت «الشيكنة» المنفيين على تنمية إحساس بحضور الله حيثما كانوا. فتحدثت الأحبار عن الشيكنة منتقلين من كيس إلى آخر في الشتات. وقال آخرون إنه كان يقف

عند باب الكنيس مباركاً كل خطوة بخطوها يهودي وهو في طريقه إلى المكان الذي يتدارسون فيه دينهم، وكان الشيكنة يقف أيضاً عند باب الكنيس عندما كانوا يرتلون الشيما Shema سوية^(٩٠). لقد شجع الأخبار الإسرائيليين على أن يروا أنفسهم «جماعة موحدة، وجسداً واحداً وروحاً واحدة»^(٩١). وهكذا أصبحت الجماعة هي الهيكل الجديد مدخرة الله الجوهر. فعندما يدخلون الكنس ويرتلون «الشيما» بانسجام تام «بورع وصوت واحد وعقل واحد وإيقاع واحد» فإن الله يكون حاضراً بينهم. لكن الله يكره غياب الانسجام في الجماعة، فيعود إلى السماء حيث تنشد الملائكة ممجدة الله «بصوت واحد، ولحن واحد»^(٩٢). فالاتحاد الأعلى بين الله وإسرائيل يتحقق فقط عندما يكتمل الاتحاد السفلي بين إسرائيلي وإسرائيلي: لقد أخبرهم الأخبار دائماً أنه عندما تتدارس جماعة من اليهود التوراة فإن «الشيكنة» يكون بينهم^(٩٣).

شعر اليهود بقسوة العالم المحيط بهم في المنفى، فساعدتهم هذا الإحساس بالحضور على الشعور بأنهم محاطون بالله خبير. فهم يرتلون تزامناً على أيديهم وجباههم، ويرتدون الملابس الطقسية «ZitZit»، ويلقون الوصايا العشر التي تحتوي على كلمات إعلان الإيمان اليهودي فوق أبواب منازلهم. يوصي سفر تثنية الاشتراع اليهود بعدم محاولة شرح هذه الممارسات الغريبة والغامضة. فإذا فعلوا ذلك فإنهم يحدون من جدواها، ويجب أن يسمحوا بأداء الوصايا هذه كي تدفعهم إلى الشعور بالحب الذي يحيطهم الله به، لأن إسرائيل محبوب! فالتوراة تحيط بها الوصايا: «اللب السوداء التي فيها الوصايا توضع على اليد والذراع، والوصايا على الباب و Zit Zit على ملابسهم»^(٩٤). كانت هذه الأشياء هدايا مثل المجوهرات التي يقدمها ملك إلى زوجته كي تجعلها تبدو أكثر جمالاً أمام ناظره. يوضح التلمود أن بعض الناس كانوا يتساءلون فيما إذا كان الله يكثر كثيراً في عالم مظلم كهذا^(٩٥): لقد أصبحت روحانية الأخبار حالة معيارية في اليهودية ليس فقط بين الذين هربوا من أورشليم بل بين يهود الشتات، ليس لأنها كانت مبنية على أساس نظري متين، فالكثير من ممارسات الشريعة لم يكن لها معنى منطقي. تم قبول دين الأخبار لأنه كان مفيداً، ولأن رؤيتهم منعت شعبيهم من السقوط في لجة اليأس.

اقتصرت هذا النوع من الروحانية على الرجال، فالتساء لم يكن مطلوبات بذلك، وبالتالي غير مسموح لهن أن يصبحن أبحاراً، أو يدرسن التوراة، أو يصليان في الكنيس. أصبح دين الله بطريقتين مثل معظم الأيديولوجيات الأخرى في تلك الفترة. فاقصر دور المرأة على الحفاظ على الطهارة الطقسية في المنزل. منذ زمن بعيد قدس اليهود الخلق عن

طريق فصل بنوده المتنوعة، وبهذه الروح تمت إحالة النساء إلى عالم منفصل عن عالم الرجال: عليهن مثلاً إبقاء الحليب مقصوفاً عن اللحم في مطابخهن. عملياً كان ذلك يعني أنهن كن في مرتبة أدنى من مرتبة الرجال. وعلى الرغم من أن الأخبار قد بشروا بأن النساء مباركات من الله، نجد أن الرجال قد أمروا بشكر الله أثناء صلاة الصبح لأنهم خلقوا يهوداً، ولأنه لم يخلقهم عبداً أو إنثاً. الزواج واجب مقدس، والحياة الأسرية مقدسة، وقد شدد الأخبار على قداستها في التشريع لدرجة أن البعض قد أساء فهمها في أغلب الأحيان. فعندما حُرِّم الاتصال الجنسي أثناء الحيض ليس لأنهن غير نظيفات أو مقرفات، فمدة الامتناع كانت موضوعة بهدف لمنع الرجل من مبادرة زوجته: بل لأن الرجل قد يصبح متآلفاً مع زوجته، فتصلده بالتالي، تقول التوراة أن «عليها أن تقول أنها غير جاهزة جنسياً لمدة سبعة أيام تتلو الحيض. وبذلك ستكون محبوبة لديه كما كانت في يوم زواجها»^(٩٦). قبل الذهاب إلى الكنيس في يوم عيد، أُمِرَ الرجل باستحمام طقسي ليس لأنه غير نظيف بل ليجعل نفسه أكثر قداسة من أجل الشعيرة الإلهية المقدسة. ومن نفس المنظور أُمِرَت المرأة باستحمام طقسي بعد الحيض كي تعد نفسها لقداسة ما يتلو ذلك؛ أي العلاقة الجنسية مع زوجها. ستكون فكرة قداسة الجنس هذه غريبة على المسيحية التي ترى أحياناً الجنس والله متناقضين تبادلياً. في مرحلة لاحقة غالباً ما أعطى اليهود تفسيراً سلبياً لهذه الإرشادات الجبرية، بيد أن الأخبار أنفسهم لم يمشروا بروحانية تنكر الحياة، أو بروحانية زهيدة كتيبة.

على العكس من ذلك فقد شددوا على أن على اليهود فرض في الحفاظ على صحتهم وسعادتهم، وصوروا الروح القدس - مراراً - هاجراً شخصيات توراتية مثل يعقوب أو داوود أو ايستر عندما كانوا مرضى أو غير سعداء^(٩٧). وكانوا يستشهدون أحياناً بالزمور ٢٢/ عندما يشعرون أن الروح القدس يغادرهم «إلهي، إلهي، لماذا تخليت عني؟». ويشير هذا سؤالاً هاماً حول صيحة يسوع الغامضة من على الصليب. علّم الأخبار أن الله لم يكن يريد العذاب للرجال والنساء، بل يجب احترام الجسد والعناية به لأنه كان على صورة الله. فتجسّب مسرات كالحمر والجنس قد يكون مجلبة الذنب لأن الله خلقها من أجل متعة الرجال، وبالتالي فالله غير موجود في المعاناة والزهد. فعندما كانوا يحرضون شعبهم على طرق عملية «لحياسة» الروح القدس إما كانوا يطلبون منهم - بمعنى ما - خلق صورتهم بأنفسهم كما خلقها الله. ليس سهلاً القول أين بدأ عمل الله، وأين ينتهي عمل الإنسان. فقد جعل الأنبياء الله مسموعاً على الأرض بما يتناسب مع رؤاهم له. وهكذا أصبح الأخبار منشغلين بمهمة كانت بشرية وإلهية في آن معاً. فعندما صاغوا تشريعاً جديداً اعتبر

تشريعاً إلهياً بمقدار ما هو تشريعهم هم. فعن طريق الكمية المتزايدة من تعاليم التوراة في العالم إنما كانوا يوسعون من حضور الله في العالم، وجعل حضوره أكثر فاعلية. وغدا الأبحار مُتَجَلِّين على أنهم تجسيدات للتوراة، وأكثر شبيهاً لله من أي شخص آخر بسبب معرفتهم للشرية.

لقد ساعد هذا الإحساس بإله ملازم لهم على رؤية أن البشر مقدسين. فقد علم الخير أكيفا أن الرصية «عليك أن تحب جارك محبتك لنفسك هي المبدأ العظيم في التوراة»^(٩٩). وكان العدوان على كائن بشري يلقى استنكاراً من الله ذاته، لأنه خلقه على صورته. وتجاهل الله كان يعتبر محاولة تجديدية معادلة للإلحاد. فالقتل أكبر الجرائم جميعاً لأنه انتهاك لحزمة: «يعلمنا التوراة أن أي شخص يريق دماً بشرياً كأنه قد نسف الصورة الإلهية»^(١٠٠). وتقديم خدمة لكائن بشري هو محاكاة لعمل الله: إعادة انتاج لرحمة الله وخيريته، لأن جميع البشر قد خلقوا على صورة الله، بالتالي فالجميع متساوون. حتى كبير الأبحار يجب أن يُجَلَّدَ إذا أذى أخاه الإنسان، وعمله هذا مساوٍ للإنكار وجود الله^(١٠١). فإله قد خلق آدم إنساناً واحداً كي يعلمنا أن من يدمر حياة إنسان سينال عقوبة وكأنه دمر العالم كله، وبالمثل فإنقاذ حياة إنسان مثل إنقاذ العالم كله^(١٠٢). لم يكن هذا رأياً بارعاً فقط بل مبدأ قانونياً أساسياً: وهو يعني أنه غير مسموح بالتضحية بفرد من أجل الجماعة خلال مذبة منظمة مثلاً. فإذا لال أي إنسان حتى وإن يكن غوييم أو عبداً كان إحدى المحرمات الخطيرة، مساوياً للقتل، وإنكاراً لصورة الله^(١٠٣). كان حق الحرية حاسماً: فمن الصعب أن تجد إشارة واحدة إلى السجن في أدب الأبحار كله لأن الله وحده صاحب الحق في تقييد حرية الإنسان. ونشر فضيحة حول شخص مساوٍ للإنكار وجود الله^(١٠٤). ينبغي على اليهود ألا يعتبروا الله أخاً كبيراً يراقب كل حركة من عل بل يجب عليهم أن ينموا شعوراً بالله داخل كل كائن بشري، بحيث تصبح معاملتنا مع الآخرين مظاهر مقدسة.

لا تجد الحيوانات صعوبة في العيش وفق طبيعتها، لكن يبدو أن البشر يجدون صعوبة في أن يصبحوا بشراً كاملين. يبدو أن إله إسرائيل يشجع على وحشية لا إنسانية. لكن يهوى أصبح مع الزمن فكرة تساعد الناس على زرع الرحمة والاحترام تجاه أخوتهم البشر، فكان بذلك سمة مميزة لأديان العصر المحوري، كانت مثل الأبحار قرية جداً من الدين الثاني الإلهي الذي كانت جنوره في التراث ذاته.

الفصل الثالث

نور إلى غير اليهود

بدأ دين شافيت طريقه في شمالي فلسطين في الوقت الذي كان فيه فيلون يشرح أفلاطونيته الجديدة في الاسكندرية، وحليل Hillel وشاماي Shammai كانا يجادلان في أورشليم. لا نعرف عن يسوع سوى النذر اليسر. فالعرض الذي قدمه لنا القديس مرقس الذي لم يُدَوَّنْ إلا نحو سنة ٧٠م/ أي بعد انقضاء نحو أربعين سنة على وفاته، كان أول عرض عن حياته. وبانقضاء هذه الفترة جرى تحميل الحقائق التاريخية بعناصر أسطورية كانت تعبر عن المعنى الذي حمله يسوع إلى أتباعه، أي أكثر مما كان في وسع كاتب سيرة أن يدونه. رأى المسيحيون الأوائل فيه موسى جديد، يشوع جديد، أو المؤسس لإسرائيل الجديدة. ومثلما كان بوذا، بدا يسوع أنه كان يحمل بعضاً من أعمق طموحات الكثيرين من معاصريه، وأنه كان يقدم مادة للأحلام التي كانت ملازمة للشعب اليهودي طوال قرون. فأتساءل حياته اعتقد يهود كثر في فلسطين أنه كان المسيح المنتظر Messiah: لقد دخل أورشليم، واستقبله اليهود على أنه ابن داوود، وبعد سنوات قليلة قتله الرومان بالصلب المؤلم. فعلى الرغم من فضيحة المسيح المنتظر الذي مات كما يموت مجرم عادي إلا أن تلامذته لم يكن يوسعهم أن يصدقوا أن إيمانهم به كان في المكان غير الصحيح. فسرت شائعات تقول أنه نهض من عالم الموتى. وقال بعضهم إن قبره قد وجد خالياً بعد ثلاثة أيام من صلبه. ورآه آخرون في الأحلام، وفي مناسبة واحدة رآه نحو ٥٠٠/ شخص في ليلة واحدة. لقد اعتقد تلامذته أنه سيعود قريباً كي يبدن مملكة الله المنتظرة، وبما أنه لم يكن في هذا الاعتقاد شيء من الهرطقة فقد قبلت هذه الطائفة كطائفة يهودية حقه على يد الحبر جماليل Gamaliel الحفيد الأكبر لحليل Hillel أحد أبرز طائفة

التانام Tannaim. وكان أتباعه يتعبدون في الهيكل كل يوم مثلما كان يفعل اليهود الملتزمون تماماً. وبعد أن استمدت هذه الطائفة إلهاماً من حياة وموت وبعث يسوع استفدوا ديناً غير يهودي، وسوف يطور تصوره المميز لله.

في فترة موت يسوع حوالي /٣٠٠م/ كان اليهود موحدين متحمسين، لذلك لم يكن يتوقع أحد أن يكون المسيح المنتظر شخصاً إلهياً: بل بكل بساطة بشراً عادياً متميزاً. وقد اقترح بعض الأخبار أن اسمه وهويته كانتا معروفين لله منذ الأزل. وبذلك المعنى بالإمكان القول إن المسيح المنتظر كان مع الله قبل بداية الزمان مثل شخصية الحكمة الإلهية في الأمثال والجمع الكنسي. توقع اليهود أن يكون المسيح المنتظر - المُرْتَهَبُ - أحد أحفاد الملك داوود - الملك والقائد الروحي الذي أسس أول مملكة يهودية مستقلة في أورشليم. فالزماير تسميه أحياناً داوود أو ميسيا وابن الله لكن هذه التسمية كانت مجرد طريقة للتعبير عن قربته من يهوى. فمنذ العودة من بابل لم يكن يتخيل أحد أن يهوى كان له فعلاً ولد على غرار آلهة الغويم الوثنيين.

يقدم إنجيل مرقس - الأكثر وثوقية - يسوع رجلاً سوياً تماماً في أسرة فيها أخوة وأخوات. لم تعلن ملائكة عن ولادته، ولم تنتشر على مزوده. ولم يكن متميزاً خلال طفولته أو مراهقته. وعندما بدأ يشير دهش أبناء بلدته في الناصرة من أن ابن النجار المحلي سيصبح معجزة. يبدأ مرقس قصته بحياة يسوع، ويبدو أنه كان أحد تلامذة يوحنا المعمدان الزاهد الجوال: من المحتمل أنه كان أحد أتباع الأديرة الأيسنية Essene. كان يوحنا يعتبر أن مؤسسة أورشليم فاسدة لا سبيل إلى إصلاحها، وكان يشجبه في مواضعه. حث الناس على التوبة، وعلى قبول طقس Essene بالتطهير عن طريق التعميد في نهر الأردن. ويقترح لوقا أن يسوع وحنا كانا على علاقة ببعضهما فعلاً. قام يسوع برحلة طويلة من الناصرة إلى يهوذا كي يعمده يوحنا. ويخبرنا مرقس «وللوقت هو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه، وكان صوت من السموات. أنت ابني الحبيب الذي به سررت»^(١). وفي الحال تعرف يوحنا المعمدان على يسوع بأنه المسيح المنتظر. الشيء التالي الذي نسمعه عن يسوع هو أنه بدأ يشير في مدن وقرى الجليل معلناً: «اقرب ملكوت الله»^(٢).

هناك تضارب كبير حول الطبيعة الدقيقة لمهمة يسوع. فلم تلتون الأنجيل سوى كلمات قليلة من كلماته، فمادة الأنجيل قد تأثرت بالتطورات اللاحقة التي حدثت في الكنائس التي أسست بعد وفاة القديس بطرس، مع ذلك هناك دلائل تشير إلى الطبيعة

اليهودية لدعوته أساساً. لقد اتضح أن مجددي الدين كانوا شخصيات دينية مألوفة في الجليل: كانوا متسولين مثل يسوع، ويعطون، ويدلون المرضى، ويطردون الشياطين. فكان لدى هؤلاء الرجال المقدسين من الجليل عدداً كبيراً من التلاميذ كانوا من النساء، مثلهم في ذلك مثل يسوع. بينما يجادل آخرون في احتمالية أن يسوع كان فريسياً من نفس مدرسة حليل Hillel، وكذلك بولص الذي قال إنه فريسي قبل أن يتحول عن دينه إلى المسيحية، وقيل إنه كان يجلس عند قدمي الحبر جماليل Gamaliel^(٣). بكل تأكيد كانت تعاليم يسوع منسجمة مع معتقدات الفريسيين لكنه كان يعتقد أيضاً أن المحبة والطيبة هما الأكثر أهمية في الوصايا. كان مخلصاً للتوراة - مثل الفريسيين - وقيل أنه كان يعظ بالتقيد الشديد بها أكثر مما وعظ به العديد من معاصريه^(٤). وعلم كذلك رواية حليل/ القاعدة الذهبية The Golden Rule/ عندما كان يدافع عن إمكانية اختصار الشريعة كلها في البديهية القائلة: «عامل الناس كما تحب أن يعاملوك»^(٥). وقد صُوِّرَ عيسى في الإنجيل متى وهو يلقي خطباً عنيفة، بالأحرى غير مهذبة «ضد الناسخين Scribes و الفريسيين»، معتبراً إياهم منافقين تافهين^(٦). بصرف النظر عن كون هذا تشويهاً للحقائق ونقيضاً صارخاً للمحبة التي يفترض أنها السمة المميزة لرسائله، كذلك فإن الشجب المثل للفريسيين غير صحيح بكل تأكيد. فلوفا - مثلاً - يعطي الفريسيين دوراً جيداً سواء في إنجيله أو في أعمال الرسل. ولو صنع أن الفريسيين كانوا أعداء ألداء ليسوع وطاردوه حتى الموت، لو صح ذلك لكان بولص أنكر خلفيته الفريسية ففي إنجيل متى تعكس النزعة المعادية للسامية التوتر الذي كان موجوداً بين اليهودية والمسيحية خلال الثمانينات. فالإنجيل تصور يسوع مجادلاً الفريسيين لكن نقاشهم كان إما ودياً أو قد يعكس عدم اتفاق مع أعتى مدرسة للسامية Sammai.

بعد وفاة يسوع قرر أتباعه أنه كان إلهاً، ولم يحدث هذا حالاً، كما سنرى لاحقاً، لأن الاعتقاد بأن يسوع هو الله في شكل بشري لم يتخذ صيغته النهائية هذه حتى القرن الرابع الميلادي. كان تطور الاعتقاد المسيحي بالتقصص عملية معقدة تدريجية. يسوع شخصياً لم يزعم أنه كان إلهاً. وقد سُئِيَ عند تعميده «ابن الله» بصوت هائل من السماء - ومن المحتمل أن هذه التسمية كانت مجرد تأكيد على أنه هو المسيح المنتظر الحبيب. لم يكن هناك شيء غير عادي في إعلان كهذا من الأعلى. لقد عرف الأخبار في أغلب الأحيان ما أسموه Abtaol والتي تعني حرفياً «ابنة الصوت»، أي شكل إلهاً قد حل محل التجليات النبوية المباشرة^(٧). فقد سمع الحبر يوان بن زكي هذا الصوت مؤكداً مهمته عندما نزل عليه الروح القدس وعلى تلامذته في شكل نار. بينما اعتاد يسوع على تسمية

نفسه «ابن الإنسان». فقد حدث جدل كبير حول هذا اللقب، لكن يبدو أن العبارة الآرامية الأساسية Bar nasha قد شددت على ضعف وفناء الحالة البشرية. ويبدو أن يسوع قد خرج عن أسلوبه ليؤكد أنه كائن بشري ضعيف، وأنه سوف يُعَذَّب ويموت ذات يوم.

تخبرنا الأناجيل أن الله أعطى يسوع قدرات إلهية مكنته - مع أنه كان مجرد بشر - من القيام بمهمات تشبه أفعال الله: شفاء المرضى، ومغفرة الذنوب. فعندما رأى الناس يسوع مؤدياً عمله رأوا فيه صورة حية تتنفس لشبيه الله. ففي إحدى المناسبات أعلن ثلاثة من تلاميذه أنهم رأوا هذا الشبه أكثر مما رآه الآخرون. لقد حفظت هذه القصة في ثلاثة أناجيل سيعونية، وسيكون لها أهمية كبيرة لأجيال لاحقة من المسيحيين. تخبرنا القصة أن يسوع اصطحب بولص وجميس، وحنا إلى قمة جبل عالي يعرف باسم جبل توبار Tobar في الجليل. وهناك تغير شكله وتغيرت هيئته قدامهم، وأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور^(٨). ثم ظهر موسى وإيليا فجأة - اللذان يمثلان الشريعة والأنبياء - ، وقفا بجانبه، وتحادث الثلاثة سوياً. أغمى على بطرس، فصاح بصوت عالي غير مدرك لما قال: أن عليهم أن ينوا ثلاثة معابد لإحياء لذكرى هذه الرؤيا. ثم غطت غيمة بيضاء - كالغيمة التي نزلت على جبل سيناء - قمة الجبل وأعلنت ابنة الهاتف: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا»^(٩). عندما فسر المسيحيون هذه الرؤيا بعد قرون قرروا أن قدرات الله أشرقت من خلال بشرية يسوع المتحولة الشكل. كما أشاروا إلى أن يسوع لم يدع أبداً أن هذه القدرات الإلهية كانت مقتصرة عليه وحده، وقد أسمى هؤلاء هذه القدرات ديناميات Dynamics مثلما أسماها فيلون. وقد وعد يسوع مراراً أن تلاميذه سوف يتمتعون بهذه القدرات إذا ما آمنوا به. فلم يكن يعني أن كلمة الإيمان هي تبني للدين الصحيح بل غرس موقف خضوع داخلي وانفتاح إلى الله. فإذا كان تلاميذه منفتحين إلى الله دون تحفظ فإنهم سيكونون قادرين على فعل كل شيء كان بإمكان يسوع أن يفعله. لم يكن يعتقد يسوع - ما اعتقده الأحبار - أن الروح كان حكراً على نخبة ذات امتياز بل ملكاً لكل البشر من ذوي الإرادة الحرة. وتوحي بعض الفقرات أن يسوع اعتقد - مثلما اعتقد الأحبار - أن الغويم حتى قد يتلقون الروح أيضاً. فإذا آمن تلاميذه فإنهم سيتمكنون من القيام بأشياء أكبر حتى. وبالتالي لن يكون في وسعهم غفران الذنوب، وطرد الشياطين فقط بل رمي جبل في البحر^(١٠). إنهم سيكتشفون أن حيواتهم الفانية الضعيفة قد تحولت بقدرات الله التي كانت موجودة وفعالة في عالم المسيحية المنتظرة.

بعد وفاة يسوع لم يستطع تلاميذه التخلي عن إيمانهم بأنه قد قدم بشكل ما - صورة

عن الله. فقد بدأوا يصلون له في فترة مبكرة. اعتقد القديس بولص أن قدرات الله يجب أن تكون في متناول الغوييم، وبدأ يبشر بالإنجيل فيما يعرف الآن باسم تركيا، ومقدونية واليونان. اعتقد أنَّ باستطاعة غير اليهود أن يصبحوا أفراداً في إسرائيل الجديدة حتى وإن لم يتقيدوا بشرعية موسى كلها. كان اعتقاده هذا تخطئاً لجماعة من التلاميذ الذين أرادوا أن يبقوا طائفة يهودية استثنائية، فاختلفوا مع بولص بعد جدالٍ حار. فمعظم الذين تبعوا بولص كانوا إما يهود شتات أو من الخائفين من الله، وهكذا بقيت إسرائيل الجديدة يهودية بعمق.. لم يدعُ بولص يسوع «الله» بل أسماه «ابن الله» بالمعنى اليهودي للعبارة. بالتأكيد لم يكن يعتقد أن يسوع كان تجسيدا لله ذاته، بل امتلك - بكل بساطة - قدرات الله وروحه اللتين أظهرتا قدرة الله على الأرض، وينبغي ألا نعتبرهما الجوهر الإلهي الذي لا سبيل إلى معرفته. فليس مستغرباً أن نجد دائماً عند المسيحيين الجدد معنى هذين الفارقين بحيث أصبح في النهاية إنساناً أكد على ضعفه وعلى بشريته الفانية وسيفقد إلهاً. الاعتقاد بتجسد (حلولية) الله في يسوع كان دائماً فضحاً لليهود، واعتبره المسلمون لاحقاً تجديفاً. إنه اعتقاد صعب ينطوي على بعض المخاطر، وقد فسره المسيحيون بشكل فج تماماً. مع ذلك كان هذا النوع من الإيمان بالتجسيد موضوعاً مستمراً في تاريخ الدين. فكما سنرى لاحقاً فقد طور اليهود والمسيحيون ثيولوجيات مماثلة خاصة بهم تدعو للدهول.

يمكننا أن نرى الحافز الديني الكامن وراء هذا التقديس المذهل ليسوع بإلقاء نظرة سريعة على بعض التطورات في الهند في الفترة الزمنية ذاتها تقريباً. كان في البوذية والهندوسية ميل كاسح للولاء إلى كائنات ممجدة مثل بوذا أو الآلهة الهندوسية التي كانت تظهر في شكل بشري - فهذا النوع من الولاء الشخصي الذي يعرف باسم بهاكتي (Bhakti) - كان يعبر عن تعلق بشري متكرر بدين مؤنس. فكان هذا الميل توجهاً جديداً تماماً، مع ذلك كان متكاملًا - في كلا الدينين - في الدين دون مساومة على الأولويات الأساسية.

بعد موت بوذا في القرن السادس ق.م كان طبيعياً أن يرغب الناس بذكرى منه، مع ذلك شعروا أن تمثالاً لم يكن يليق به، لأنه لم يعد موجوداً في الاستنارة أي معنى عادي. ومع ذلك تطور الحب الشخصي لبوذا، وأصبحت الحاجة إلى تأمل إنسانيته المستنيرة قوية جداً لدرجة أن ظهرت التماثيل الأولى لبوذا في القرن الأول ق.م في قاندهار وفي شمالي غرب الهند، ومانورا على نهر جوما. فالطاقة والإلهام المستمد من تماثيل كهذه كانتا تمدانهم بأهمية مركزية في الروحانية البوذية، حتى وإن يكن هذا الولاء إلى كائن خارج

الذات، فكان هذا الولاء مختلفاً جداً عن الالتزام الداخلي الذي نادى به غاوتاما Gautama. فجميع الأديان تتغير وتتطور، وإذا لم تفعل ذلك فإن الناس سوف يهملونها. لقد وجدت أغلبية البوذيين الولاء الشخصي ذا قيمة ثمينة جداً، وشعرت أنه كان يذكرها بحقائق أساسية كانت مهددة بخطر الضياع. فعندما بلغ بوذا الامتدانة لأول مرة، يذكّر البوذي أن بوذا قد أغري بأن يحتفظ بها لنفسه، لكن رحمته على البشرية المهددة أجبرته على قضاء السنوات الأربعين التالية مبشراً بطريقته. فحتى الرهبان البوذيون - في القرن الأول الميلادي - الذين حبسوا أنفسهم محاولين بلوغ الامتدانة بدوا أنهم قد فقدوا رؤية بوذا هذه. شعر كثيرون أن حياة الرهبة أكثر من طاقتهم. في نهاية القرن الأول الميلادي ظهر نوع جديد للبطل البوذي هو بود هيساتافا Bod Hisattava الذي كان يقتدي ببوذا مؤجلاً امتدانه الخاصة به ومضحياً بنفسه من أجل الناس، وكان مستعداً لاحتمال الولادة الجديدة كي ينقذ أناساً يتألمون. ونرى مثلاً هذا البطل في /مواعظ في كمال الحكمة/ الذي يجمع في نهاية القرن الأول الميلادي:

لا نتمن بلوغ امتدانتهم، بل على العكس من ذلك.
لقد مسحوا عالم الوجود المألوم جداً، ومع ذلك فهم راغبون
بالحصول على الامتدانة المظلي. إنهم لا يترددون عند الولادة والموت
لقد انطلقوا من أجل صالح العالم. من أجل سكينه العالم،
من الشفقة على العالم. لقد اتخذوا قرارهم: «سوف نصبح ملجأ للعالم،
مكان الراحة للعالم، الراحة النهائية للعالم، مجزء العالم، أنوار العالم
أدلاء سبل العالم إلى الخلاص»^(١١).

كان في هذا النموذج مصدراً لامتدانه من الجودة، وبإمكانه مساعدة ذوي الروحانية الأقل منهم. فالشخص الذي كان يصلي إلى بود هيساتافا كان يولد من جديد في واحدة من جنات الكون البوذي حيث الشروط المفروضة بلوغ الامتدانة أكثر يسراً.

يشدد النص على عدم تفسير هذه الأفكار حرفياً، إذ لا علاقة لها بالمنطق العادي، ولا بأحداث هذا العالم، بل كانت مجرد رموز لحقيقة محيرة أكثر. وفي القرن الثاني الميلادي استخدم ناغارجونا Nagarjuna الفيلسوف الذي أسس مدرسة الخلاء void school الطريقة القائمة على الجدول والتناقض لإثبات عدم كفاءة اللغة المفهومية العادية. لقد أكد على أن الحقائق المطلقة لا يمكن فهمها إلا حدسياً فقط، عبر خطوات التأمل العقلي. فحتى تعاليم بوذا كانت تقليدية: مثلاً صنعها الإنسان وبالتالي لم

تكن منصفة للحقيقة التي حاول أن يعبر عنها. طور البوذيون الذين تبنا هذه الفلسفة اعتقاداً فحواه، كل شيء نعرفه هو مجرد وهم: في الغرب نسمي هؤلاء مثاليين. فالمطلق الذي هو الجوهر الداخلي لجميع الأشياء هو خالي (فراغ)، لاشيء، لا وجود له بالمعنى العادي. فكان من الطبيعي ماثلة الفراغ هذا بالاستتارة. فبوضاً مثل غاوتاما بلغ الاستتارة أصبح منطقياً - استتارة وكان ماثلاً للمطلق. وكل من كان يسعى إلى الاستتارة كما يسعى أيضاً إلى المساواة مع بوذا.

ليس عسيراً أن نرى أن هذا الولاء البهاكتي لبوذا والبوهستافا كان ماثلاً للولاء المسيحي ليسوع. فقد جعل هذا الولاء الإيمان في متناول أناس أكثر، بالأحرى أكثر مما تمنى بولس أن يجعل اليهودية في متناول الفوييم. كان هناك تدفق مائل للبهاكتي في الهندوسية في الوقت ذاته، كان يركز على شخصيتي فيشنو وشيفا وهما الأكثر أهمية من بين الآلهة القديسة. وهكذا فقد أثبت الولاء الشعبي من جديد، أنه أقوى من الراحة الفلسفية في الأباتيشاندز. فكانت النتيجة أن طور الهندوس ثالثاً: براهمن، شيفا، فيشنو. هؤلاء ثلاثة رموز أو وجوه لحقيقة واحدة لا سبيل إلى فهمها.

سيكون أكثر نفعاً - أحياناً - تأمل سر الله تحت وجه شيفا الإله المتناقض: إله الخير والشر، الخصب والزهد، الخالق والمدمر. ففي الأسطورة المعروفة باسم يوجي Yogi كان شيفا عظيماً كذلك، ولذلك كان يلهم عابديه، تجاوز المفاهيم الشخصية للألوهة عن طريق التأمل. بينما كان فيشنو - عادة - أكثر لطفاً ومرحاً، يحب أن يظهر نفسه إلى البشر في تجسيدات متنوعة. إحدى تجسيدات الأكثر شهرة هي شخصية كريشنا الذي ولد في أسرة نبيلة، لكنه ترعرع كراعي بقر. لقد أحببت النزعة الأسطورية الشعبية قصص مداعباته للراعات، صورت هذه القصص الله كماشق للروح، مع ذلك فظهور فيشنو للأمير أرجونا Arjuna في باهاغاد جيتا Bhavad - Gita كان تجربة مرعبة:

أنا أرى الآلهة في جسدك أيها الإله، وحشوداً من مخلوقات متنوعة:
براهمن الخالق الكوني على عرش من النيلوفر
وجميع الراتين والأفاعي السماوية^(١٦).

كل شيء موجود بشكل ما في جسد كريشنا: «ليس له بداية أو نهاية، يملأ الفضاء، ويشمل كل إله ممكن: آلهة العاصفة المولولة، آلهة الشمس، آلهة النور، وآلهة الطقس الديني»^(١٧). إنه أيضاً «روح إنسان لا تتعب»، وجوهر الإنسانية^(١٨). تندفع جميع الأشياء إلى كريشنا مثلما تجري الأنهار إلى البحر، أو كما تطير القراشات حول لهب متأجج. كل

ما كان باستطاعة أرجونا فعله وهو يتأمل المنظر المليء بالرهبة هو أن يهتز ويرتعش بعد أن فقد كل قدرته على الاحتمال.

لقد لبى تطور البهاكتي حاجة شعبية ذات جذور عميقة: إيجاد نوع من علاقة شخصية مع المطلق بعيد إرساء براهمن كمتعالٍ تماماً أصبح هناك خطر أنه قد يصبح أكثر ندرة، وبالتالي يتلاشى من الوعي البشري مثله مثل إله السماء القديم. ويدور أن نشوء المثل الأعلى في بودهيستافا في البوذية وأفانار Avatars فيشنو يمثل مرحلة أخرى في التطور الديني عندما يصير الناس أن المطلق لا يمكن أن يكون أقل من بشر. تنكر هذه المعتقدات والأساطير الرمزية أن بالإمكان التعبير عن المطلق من خلال ظهور واحد فقط. وبالتالي كان هناك عدة بوذات، وبوهيستافات، وفيشنوات، أي شخصية واحدة ذات تظاهرات متنوعة. كما تعبر هذه الأساطير أيضاً عن مثل أعلى للبشرية: إنها تبين البشر مستديرين أو متحدنين (من الفعل تحدى) كما أريد لهم أن يكونوا.

كان هناك ظمًا مماثل للحلول الإلهي في اليهودية بحلول القرن الأول الميلادي. فكان شخص يسوع تلبية لتلك الحاجة. فالتقديس بولص - الكاتب المسيحي الأكثر قدماً، والذي أوجد الدين الذي نعرفه الآن باسم المسيحية - كان يعتقد أن يسوع قد حل محل التوراة ككشف أساسي لله ذاته إلى العالم^(١٥). فليس سهلاً أن نعرف بالضبط مالذي عناه بقوله هذا. كانت رسائل بولص ردوداً مناسبة على أسئلة محددة، أكثر مما هي عرض مترابط لدين صيغ بوضوح. فيكل تأكيد كان بولص يعتقد أن يسوع هو المسيح المنتظر. فكلمة Christ أي المسيح كانت الترجمة للكلمة اليهودية ميسيا أي الشخص المسحوح بالزيت. تحدث بولص عن يسوع الإنسان وكأنه كان أكثر من مجرد كائن بشري عادي، وحى كيهودي لم يعتقد بولص أن يسوع كان الله مجسداً. لقد كان يستخدم العبارة التالية باستمرار: «في المسيح» ليتحدث عن تجربته مع يسوع، المسيحيون يحيون في المسيح، وأنهم قد عُتدوا في موته، والكنيسة تكوّن جسده بشكل ما^(١٦). فهذه لم تكن الحقيقة التي كان يستخدمها بولص بشكل منطقي. فمثله مثل الكثيرين من اليهود في تبنيه لنظرة معتمة للعقلانية اليونانية التي وصفها أنها «سخافة»^(١٧). لقد كانت تجربة ذاتية وصوفية جعلته يتحدث عن يسوع كنوع من جو عام «نعيش، ونتحرك، ونحقق وجودنا فيه»^(١٨). لقد أصبح يسوع مصدر تجربة بولص الدينية: ولذلك كان يتحدث عنه بأساليب ربما استخدمها معاصروه للحديث عن الله.

عندما تحدث بولص عن الدين الذي سلّم إليه قال: إن يسوع قد تعذب ومات من

أجل ذنوبنا»^(٩٩). كما بين أن تلاميذ يسوع صُدموا في مرحلة مبكرة جداً بفضيحة موته، وقد فسر بولس ذلك بأنه كان من أجل خيرنا نحن. وسوف نرى في الفصل التاسع أن اليهود سوف يجدون تفسيراً مماثلاً للنهاية القضاة لمسيح منتظر آخر في القرن السابع عشر. لقد شعر المسيحيون الأوائل أن يسوع كان ما يزال حياً - بطريقة غامضة - وأن القدرات التي حازها أصبحت مجسدة فيهم كما وعدهم. ونعرف من رسائل بولس أن المسيحيين الأوائل عرفوا جميع التجارب غير العادية التي كانت تدل على ظهور نوع جديد من البشر: أصبح بعضهم شافين دينيين، وتحدث بعضهم بلغات سماوية، ونقل آخرون ما اعتقدوا أنها نبوءات أوحاها الله لهم. لقد كانت المراسم الكنسية صاخبة، شؤناً فائتة مختلفة تماماً عن صلاة المساء في كنيسة أبرشية. فقد بدا أن موت المسيح كان مفيداً حقاً بشكل ما، لقد أطلق «نوعاً جديداً من الحياة» و«خلقاً جديداً» وهاتان الفكرتان هما موضوعان ثابتان في رسائل بولس^(١٠٠).

على أية حال لم يكن هناك نظريات تفصيلية حول الصلب ككفارة لذنوب من الكهنة. وسنرى أن هذه الثيولوجيا لم تنشأ حتى القرن الرابع، وكانت هامة في الغرب فقط. لم يحاول بولس وكذلك كتاب العهد الجديد القيام بشرح الخلاص الذي عرفوه بشكل محدّد ودقيق. مع ذلك كانت فكرة الموت التبراني للمسيح ماثلة للمثل الأعلى في بوديهستافا الذي كان يتطور في الهند في هذا الوقت تماماً. وهكذا أصبح المسيح وسيطاً بين البشر والمطلق، مثله في ذلك مثل بود هستافا. والفارق بينهما هو أن المسيح كان الوسيط الوحيد، وأن الخلاص الذي أرساه لم يكن إلهاماً ما غير متحقق في المستقبل مثل إلهام بوديهستافا بل *Fai accompli*. أكد بولس على أن تضحية يسوع كانت فريدة. وعلى الرغم من أنه اعتقد أن عذاباته نيابة عن الآخرين كانت مفيدة فإن بولس كان واضحاً: عذاب يسوع وموته كانا في صورة مختلفة تماماً^(١٠١). فهنا خطر كامن. فالبوديه و/أو أفاتار/ Avatars المتناقضة الخيالية تُذكرنا المؤمنين أنه لا يمكن التعبير عن الحقيقة النهائية بشكل كافٍ. فالتجسيد الوحيد في المسيحية يعني أن حقيقة الله التي لا تنضب قد ظهرت في كائن بشري واحد، وقد يؤدي إلى غمط وثني غير ناضج.

لقد أكد يسوع أن قدرات الله لم تكن له وحده، وقد طور بولس هذه الرؤية بالقول: إن يسوع كان المثل الأول لسمط جديد من البشر. فهو لم يفعل كل شيء عجزت عن تحقيقه إسرائيل القديمة فقط، بل لقد أصبح آدم الجديد، البشرية الجديدة التي كانت تشمل جميع البشر حتى الغوييم، وعليهم المشاركة في ذلك بطريقة ما^(١٠٢). لم يكن هذا

الاعتقاد مماثلاً للاعتقاد البوذي - لأن جميع البوذيين قد أصبحوا واحداً مع المطلق - إذ أن المثل الأعلى للبشرية كان قائماً على المشاركة.

في رسالته إلى الكنيسة في فيليبي Philippi يستشهد بولص بما يمكن اعتباره عموماً ترنيمة مسيحية قديمة جداً تثير بعض القضايا الهامة. يخبر مؤمنيه أن عليهم أن يمثلوا موقف التضحية بالنفس كما تمثله يسوع:

«فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح الذي إذا كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس. وإذا وُجِدَ في الهيئة كالإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب. لذلك رفعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم. لكي تحفز باسم يسوع كلُّ زَكِيَةٍ مَن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض. ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب مجد الله الأب»^(٢٣).

فكما يبدو تعكس هذه الترنيمة إيماناً بين المسيحيين الأوائل بأنه كان ليسوع نوعاً من وجود قبلي مع الله قبل أن يصبح إنساناً في عملية «إفراغ للذات»، فقرر المشاركة في معاناة الشرط الإنساني كما فعل بودهيستافا تماماً. كان بولص يهودياً أيضاً لدرجة جعلته يقبل فكرة وجود المسيح كإله ثان بجانب يهوى منذ الأزل. وتوضح الترنيمة كذلك أنه بعد تمجيده مايزال متميزاً عن الله وأقل مرتبة منه، الله الذي يرفعه ويسبغ عليه لقب كيربوس Kyrios فلا يستطيع احتماله بذاته، فأعطي هذا اللقب فقط «إلى مجد الله الأب».

بعد مضي نحو ٤٠٠ سنة/ قدم كاتب انجيل يوحنا (الذي دونه في عام ١٠٠/م. اقتراحاً مماثلاً. فقد وصف في مقدمته الكلمة «اللوغوس» التي كانت «مع الله من البداية» وكانت وسيلة الخلق:

«وفي البدء كان الكلمة، والكلمة كانت عند الله، وكانت الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان»^(٢٤).

لم يستخدم الكاتب كلمة «اللوغوس» اليونانية بالمعنى نفسه الذي استخدمه فيلون: يبدو أنه كان أكثر انسجاماً مع اليهودية الفلسطينية أكثر مما كان مع اليهودية المهلنتية. في الترجمات الآرامية للتوراة المعروفة باسم Targums التي كانت قد جمعت في هذا الوقت

فإن كلمة ميرما Merma (أي كلمة) كانت تستخدم لوصف فعل الله في العالم. إنها تؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها كلمات تقنية أخرى مثل glory عظمة، «الروح القدس، أو الشيكنة التي كانت تؤكد على الفارق بين حضور الله في العالم وبين حقيقة ذات الله التي لا يمكن فهمها. كانت الكلمة ترمز إلى خطة الله في الخلق الأساسية، مثلها مثل الحكمة الإلهية. فعندما يتحدث بولس ويوحنا عن المسيح فإنهما يفعلان ذلك وكأنهما كانا وجود سابق، ولم يكونا يقترحان أنه كان ذاتاً إلهية ثانية بالمعنى الثلاثي اللاحق. قالاً إن يسوع قد تعالى على الآتي وعن حالات الوجود الفردي. ولأن القدرة والحكمة اللتين كان يقدمهما كانتا فعاليتين مستمدتين من الله، لقد عثر بشكل ما «عما كان موجوداً هناك منذ البداية»^(٢٥).

كانت هذه الأفكار مفهومة في نص يهودي تماماً، على الرغم من أن المسيحيين اللاحقين سوف يفسرونها بشكل مختلف بسبب خلفيتهم اليونانية. ففي أعمال الرسل التي دونت في عام ١٠٠م/ نستطيع أن نرى أن المسيحيين الأول كان مفهومهم عن الله مفهوماً يهودياً تماماً. ففي عيد الحصاد اليهودي عندما كان يجتمع مئات اليهود في، أورشليم من أرجاء الشتات للاحتفال بهبة التوراة على جبل سيناء فإن الروح القدس كان ينزل على رفاق يسوع. لقد سمعوا «كما من هبوب ريح عاصفة». وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار»^(٢٦). لقد أظهر الروح القدس نفسه لهؤلاء المسيحيين اليهود الأول مثلما ظهر لمعاصريهم التانيين Tannaim. وفي الحال اندفع التلاميذ خارجاً وبدأوا يوعظ حشود من اليهود الذين يخشون الله من «فرتين، ويهود، وعيلاميين والساكين ما بين النهرين، واليهودية، وكبدوكية وبنفس، وآسيا، وفريجية، وبفيلية ومصر، ونواحي ليبية»^(٢٧).

ولدهشتهم فقد سمع كل منهم الرسل وهم يعظون بلغة الروح القدس. وعندما نهض بولس كي يخاطبهم قدم هذه الظاهرة على أنها ذروة اليهودية. فالأنبياء قد تنبؤوا باليوم الذي يسكب الله فيه روحه على البشر، حتى النساء والعبيد سيرون رؤى ويحملون أحلاماً^(٢٨). سيدشن هذا اليوم مملكة المسيح المنتظر عندما سيعيش الله مع شعبه على الأرض. لم يقل بطرس إن يسوع الناصري كان إلهاً، بل كان «إنساناً أرسله الله لكم بمميزات وأعاجيب ودلائل قام بها الله من خلاله عندما كان بينكم» وبعد موته الوحشي رقه الله إلى الحياة وكرمه بمرتبة رفيعة خاصة «ببهد الله اليمنى». فقد تنبأ الأنبياء ومنشدو المزامير بهذه الأحداث. وهكذا فإن «بيت إسرائيل كله» كان يوسعه التأكد من «أن يسوع

كان المسيح المنتظر منذ أمد بعيد^(٢٩). فكما يبدو كانت هذه الكلمة رسالة للمسيحيين الأوائل.

في نهاية القرن الرابع كانت المسيحية قد أصبحت قوة خاصة في الأماكن التي أورد مؤلف أعمال الرسل ذكرها أعلاه. فضربت جذرها في الكنس اليهودية في الشتات، وجذبت عدداً كبيراً من الذين يخشون الله أو المهتدين حديثاً. بدت يهودية بولص التي طالها الإصلاح أنها تخاطب الكثير من مآزقهم. لقد تكلموا أيضاً بالسنة كثيرة مفتقرين إلى صوت موحد وموقف مترابط منسجم. وأصبح الكثيرون من يهود الشتات يعتبرون الهيكل في أورشليم الذي كان مبللاً بدماء الحيوانات مؤسسة بربرية بدائية. تحفظ أعمال الرسل هذه النظرة في قصة ستيفان Stephen - يهودي هيلينستي تحول إلى طائفة يسوع، ورجمه المجلس الحاكم اليهودي حتى الموت بتهمة الزندقة. ففي كلمته المؤثرة الأخيرة قال ستيفان أن الهيكل كان إهانة لطبيعة الله: المتعالي لا يعيش في بيت بنته أيدي البشر^(٣٠). اعتنق بعض يهود الشتات اليهودية التلمودية التي طورها الأبحار بعد تدمير الهيكل، بينما وجد آخرون أن المسيحية كانت تقدم إجابات على بعض تساؤلاتهم حول مكانة التوراة وعالمية اليهودية. كانت المسيحية جذابة للذين يخشون الله بشكل خاص، هؤلاء الذين استطاعوا أن يصبحوا أعضاء كاملي العضوية في إسرائيل الجديدة دون عبء القوانين التي بلغ عددها ٦١٣/ قانوناً.

استمر المسيحيون - خلال القرن الأول - في تفكيرهم حول الله والصلاة له بصفتهم يهوداً، وكانوا يجادلون كالأبحار، وكنائسهم ماثلة لكنس اليهودية. وحدثت مشادات عنيفة في الثمانينات مع اليهود عندما كانوا يطردون المسيحيين من الكنس بسبب رفضهم التقيد بالتوراة. فقد رأينا أن اليهودية قد جذبت العديد إلى اعتناقها في العقود الأولى من القرن الأول، لكن مركز اليهود تراجع بعد عام ٧٠/ بعد الإشكالات التي حدثت لهم مع الامبراطورية الرومانية مما أدى إلى تحول الذين يخشون الله إلى المسيحية. وقد أدى ذلك إلى جمل اليهود يشكون بمعتقي اليهودية الجدد. لقد تحول الذين شدتهم اليهودية إلى المسيحية، ومعظمهم من العبيد والطبقات الدنيا. ولم تكن نهاية القرن الثاني حتى أصبح الوثنيون ذوو الثقافة العالية المستوى مسيحيين، وكانوا قادرين على شرح الدين الجديد إلى عالم وثني يشكل الشك سمة له.

اعتبرت المسيحية في الامبراطورية الرومانية فرعاً من اليهودية وعندما أوضح المسيحيون أنهم ما عادوا أعضاء في الكنس فقد عوملوا باحتقار على أنهم جماعة من

المعصمين الذين ارتكبونا ذنباً كبيراً لعدم التقوى ولا انفصالهم عن الدين الأم. كانت روح الجماعة الرومانية محافظة جداً: كانت تقدر سلطة رب الأسرة والعادات السلفية. وكان التقدم عبارة عن عودة إلى عصر ذهبي وليس كمسيرة لا خوف منها إلى الأمام في المستقبل. ولم تكن القطيعة مع الماضي خطوة إبداعية، كما هي الحال في مجتمعاتنا الذي أرسى التغيير دستوراً. فالتجديد كان يعتبر خطراً و مدمراً. كان الرومان تساورهم شكوك كثيرة من الحركات الجماهيرية التي رمت قيود التراث، وكانوا متأهبين لحماية مواطنيهم من حدوث هزة دينية. فروح قلق واضطراب كانت تعم الامبراطورية كلها. لقد جعلت تجربة العيش في امبراطورية دولية ضخمة الآلهة القديمة تبدو صغيرة وغير كافية، بعد أن أصبح الناس عارفين لحضارات كانت غريبة عنهم ومزعجة لهم. أدى ذلك إلى سعي الرومان إلى إحلال روح جديدة. لقد تم استيراد الأديان الشرقية إلى أوروبا، فكان الناس يعبدون آلهة مثل إيزيس وميميل Semele إلى جانب الآلهة القديمة في روما على أنها حارسة للدولة. فخلال القرن الأول قدمت الأديان السرية الخلاص إلى مدخلها، وما كان يبدو معرفة داخلية للعالم الآخر. بيد أن الحماس الجديد لم يشكل تهديداً للاستقرار القديم. فالآلهة الشرقية لم تطلب تحولاً جذرياً، أو إهمالاً للشعائر المألوفة بل كانت، مثل قديسين جدد، تؤمن نظرة جديدة وإحساساً بالعالم أكثر إتساعاً. كان باستطاعة الفرد أن ينضم إلى ما شاء من العبادات السرية المتنوعة: شريطة عدم محاولته تعريض الآلهة القديمة إلى الخطر، والحفاظ على مظهر مقبول، وهكذا ساد التسامح تجاه الأديان السرية، وتم امتصاصها إلى داخل النظام القائم.

لم يكن يتوقع أحد أن يكون ذلك تمهيداً، أو أن يقدم إجابة على معنى الحياة. فكان الناس يلجؤون إلى الفلسفة بغية الحصول على ذلك النوع من الاستنارة. في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية كان الناس يعبدون الآلهة طلباً لمونها إذا ما ألت بهم كارثة، ولتأمين مباركة إلهية للدولة، ولكي يكون لديهم إحساس شافي باستمرار الماضي. وهكذا كان الدين مسألة عبادة وطقس أكثر مما كان مسألة أفكار، وقائماً على العاطفة أكثر مما كان مبنياً على إيديولوجيا أو نظرية تبناها الناس عن وعي. فهذا الموقف لا يبدو غير مألوف في يومنا هذا فكثيرون من الذين يحضرون مراسم دينية في مجتمعاتنا ليسوا مهتمين باللاهوت، فهم لا يرون شيئاً غريباً، ويكرهون فكرة التغيير، فهم يجدون أن الطقوس القديمة تزودهم برباطة مع التراث، وتعطيهم إحساساً بالأمان. إنهم لا يتوقعون أفكاراً زاهية من الموعظة، وتزعجهم التغيرات في الطقوس. فبالطريقة ذاتها فإن وثنيون كثر - في أواخر العصر الروماني - كرسوا عبادة آلهة الأسلاف مثلما فعلت الأجيال التي كانت قبلهم. فالطقوس

القديمة كانت تعطوهم إحساساً بالهوية، وكانوا يحتفلون بالتقاليد المحلية التي بدت أنها تأكيد بأن الأشياء ستستمر على ما كانت عليه، بدت الحضارة إنجازاً هشاً، وينبغي ألا تهدد الآلهة الحارسة الساخطة بل أن تؤمن بقاء إنجازات الحضارة. فلو بدأت عبادة جديدة بإلغاء دين الآباء لشعروا أن تهديداً ما غامضاً يحيط بهم. وهكذا كان للمسيحية الأسوأ من بين عالمين. فمن ناحية كانت تفتقر إلى التقدير القديم الذي حظيت به اليهودية، ومن ناحية ثانية خلوها من الطقوس الوثنية الجذابة التي كان باستطاعة كل فرد رؤيتها وتذوقها. فالمسيحية كانت تهديداً كامناً لأنها كانت تشدد على وجود إله واحد، ورفضها لجميع الآلهة الأخرى على أنها أوهام. فقد بدت المسيحية لكاتب السيرة الروماني جايوس سولونيوس Gaius Suetonius (٧٠- ١٦٠) حركة شاذة ولا عقلانية Superstitio nova Proua. ومنعت لأنها كانت جديدة^(٣١).

وهكذا تطلع الوثنيون المثقفون إلى الفلسفة لا إلى الدين من أجل الاستنارة. وبالتالي اعتبروا فلاسفة القديم مثل أفلاطون وفيثاغورث وإبيكتيت قديسين وأنجماً لهم، بل واعتبروهم «أبناء الله» حتى اعتبروا أفلاطون مثلاً «ابن أبولو». لقد أبدى الفلاسفة تقديراً بارداً للدين، لكنهم رأوه مختلفاً أساساً عما كانوا يفعلونه. إنهم لم يكونوا أكاديميين مجففين في بروج عاجية بل رجالاً تقع على عاتقهم مهمة، قلقين على إنقاذ أرواح معاصريهم عن طريق جذبهم إلى مبادئ مدارسهم. فسقراط وأفلاطون كانا متدينين في فلسفتيهما، فوجدنا أن دراستهما العلمية والميتافيزيقية قد ألهمتاهما برؤية عظيمة الكون. فقد اتجه الناس الأذكى إلهياً - بحلول القرن الأول، من أجل الحصول على تفسير لمعنى الحياة، وسعياً وراء إيديولوجيا ملهمة، ودافع أخلاقي. لقد بدت المسيحية لهم عقيدة بربرية، وبدا الله المسيحي إلهاً ضاراً أو بدايئاً يتدخل بأسلوب لا عقلاني في شؤون البشر. ليس فيه شيء مشترك مع إله الفلاسفة الذي لا يحتره التغير، والثاني، مثل إله أرسطو. فهناك شيء واحد يوحي أن رجالاً من منزلة أفلاطون أو الاسكندر الكبير كانا ابنين لأحد الآلهة، لكن موت يهودي ميتة مذلة في زاوية مجهولة من الامبراطورية الرومانية كان مسألة أخرى تماماً.

كانت الأفلاطونية المحدثة واحدة من أكثر الفلسفات شعبية في أواخر العصر الروماني. ففي القرنين الأول والثاني الميلاديين لم يكن فلاسفة الأفلاطونية المحدثة يشدهم أفلاطون المفكر الأخلاقي والسياسي بل أفلاطون المتصوف. فعاليه كانت تساعد الفيلسوف على تحقيق ذاته الحققة عن طريق تحرير روحه من سجن الجسد، ويتمكنه من .

الصعود إلى العالم المقدس. لقد كان منهجاً نبيلًا استخدم علم الكونيات كصورة للاستمرارية والانسجام. فالأحد One كان موجوداً في تأمل هادىء لذاته خارج تخريب الزمن والتغير، في ذروة سلسلة الوجود العظيمة، كل الوجود مستمد من الواحد كنتيجة ضرورية لوجوده النقي: فالأشكال الأبدية فاضت عن الواحد، وبدورها أحيت الشمس والنجوم والقمر كل في فلكه الخاص. وكانت الآلهة تعتبر كوزراء ملائكة عند الواحد تنقل التأثير الإلهي إلى عالم البشر الأرضي. لم تكن الأفلاطونية بحاجة إلى حكايات بريرة عن إله قرر نجاة خلق العالم، أو إله تجاهل التسلسل الراسخ ليتصل مباشرة بجماعة صغيرة من الكائنات البشرية. وكذلك لم يكن الإله بحاجة إلى خلاص استعراضي من خلال مسيح مصلوب. فيما أنه كان مثيلاً لله الذي أمد الأشياء بالحياة كان باستطاعة الفيلسوف الصعود إلى العالم الإلهي بطريقة عقلانية مرتبة، اعتماداً على جهوده الخاصة.

كيف كان باستطاعة المسيحيين شرح دينهم إلى العالم الوثني؟ لم تكن المسيحية تبدو ديناً ولا فلسفة بالمعنى الروماني. زد على ذلك لا بد أن المسيحيين قد وجدوا تعداد معتقداتهم أمراً مربكاً، وربما كانوا غير عارفين كيف يطوروا نظاماً فكرياً مميزاً، وبذلك كانوا مثل جيرانهم الوثنيين. لم يكن في دينهم اتساق ثيولوجي، لكن كان بالإمكان وصفه على أنه التزام جيد التأسيس. فعندما كانوا يذكرون معتقداتهم لم يكونوا يوافقون على مجموعة من الاقتراحات: فكلمة *Credere* مثلاً يبدو أنها مشتقة من كلمة *Cordere* أي «أن يعطي المرء قلبه». فعندما كانوا يلفظونها فإن معناها يتضمن موقفاً عاطفياً أكثر مما يتضمن موقفاً فكرياً. وهكذا شرح الأسقف ثيودور موبسوستيا Theodor Mopsuestia لرعاياه في صقلية (٣٩٢-٤٢٨):

عندما تقول إنني أفيد نفسي أمام الله، فإني أعني أنك ستبقى ثاباً في موقفك معه.

إنك لن تفصل نفسك أبداً عنه، وإنك سوف تعتقد أنه أسمى من أي شيء آخر.

أن تكون معه، وأن تعيش معه، وأن تسلك بشكل منسجم مع أومره^(٣٦).

ستدعو الحاجة المسيحيين إلى تقديم عرض نظري لدينهم، ويطورون ميلاً نحو الجدل اللاهوتي الذي سيغدو فريداً في تاريخ الدين العالمي. فقد رأينا مثلاً عدم وجود تناقض رسمي في اليهودية، وأن أفكاراً حول الله كانت أساساً مسائل خاصة، ولا بد أن المسيحيين قد شاركوهم في هذا الموقف.

فخلال القرن الثاني حاول بعض الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية الوصول إلى

جيرانهم غير المصدقين بدينهم كي يبينوا لهم أن دينهم لم يكن قطعة مدمرة مع التراث. أحد هؤلاء المدافعين الأوائل هو جوستين سيزاريا Justin Caesarea (١٠٠-١٦٥) الذي مات شهيد الدين. نستطيع أن نرى قلق تلك الفترة الروحي في بحثه الدؤوب عن معنى. لم يكن مفكراً بارزاً أو عميقاً. فقبل اعتناقه المسيحية جلس عند قدمي فيلسوف رواقى وفيثاغورثي، لكنه أخفق في فهم ما كانت تتضمنه نظمهم؛ لأنه كان يفتقر إلى الذكاء والطبع الملائمين للفلسفة. وعلى ما يبدو كان بحاجة إلى ما هو أكثر من العبادة والطقس في الدين فوجد الحل في المسيحية فقي كتابيه بعنوان /دفاع/ ١٥٠م ١٥٥م. قال إن المسيحيين كانوا يتبعون أفلاطون الذي قال بوجود إله واحد. وأن الفلاسفة اليونانيين والأنبياء اليهود قد تنبؤوا جميعاً بمجيء المسيح، فكان لعرضه هذا تأثير على وثني عصره بسبب وجود حماسة جديدة تجاه النبوءات. وقال أيضاً إن المسيح هو تجسيد اللوغوس أو العقل الإلهي الذي رآه الرواقيون في نظام الكون. فاللوغوس فعال في العالم عبر التاريخ وقد ألهم اليونانيين والعبريين على السواء. بيد أنه لم يشرح معاني هذه الفكرة الجديدة نوعاً ما: كيف كان باستطاعة كائن بشري أن يجسد اللوغوس؟ وهل كان اللوغوس هو نفس الصور التوراتية كالكلمة أو الحكمة؟ وما هي علاقة اللوغوس بالله الواحد؟

مسيحيون آخرون كانوا يطورون ثيولوجيات أكثر جنسية ليس بدافع التأمل بحد ذاته بل لتهذيب قلق عميق. فالغنوصيون خاصة (أي العارفون) تحولوا من الفلسفة إلى المثولوجيا لشرح المعنى الدقيق الذي استخدموه ليعبروا عن الانفصال عن العالم الإلهي. لكن جهلهم بالله والإلهي سرعان ما واجه أساطيرهم، فكان مصدراً للحزن والحنج. باسيليدس Basilides الذي درّس في الاسكندرية من عام ١٣٠ حتى ١٦٠ ، وفالنتينوس Valentinus الذي غادر مصر كي يدرس في روما كان لدهما معلومات ضخمة، وبينما أن الكثيرين من الذين تحولوا إلى المسيحية كانوا يشعرون بالضيق، وأنهم مقتلون من جذورهم.

بدأ الغنوصيون بحقيقة لا يمكن فهمها إطلاقاً أسموها الربوبية لأنها كانت المصدر للوجود الأعلى الذي نسميه الله. لم يكن هناك شيء يمكننا قوله حياله، لأنه يفر تماماً من فهم عقولنا المحدودة، لقد كانت الربوبية كما شرحها فالنتينوس:

كامل، ذو وجود قبلي... مستقر في مرتفعات لا مرئية، ولا اسم لها، هذا هو ما قبل البداية، وما قبل الآب والابن. لا يمكن احتواؤه، وغير مرئي، أبدي، ولا يتكاثر، هادىء، في عزلة عميقة طوال عصور لا متناهية.

به كان الفكر، ويسمى أيضاً النور والسكون^(٣٣).

لقد فكر الناس بالمطلق دائماً، لكنهم لم يقدموا شرحاً وافياً له. من المحال وصف الربوبية لأنه ليس خيراً ولا شراً، وليس بالإمكان القول أنه «يوجد». نادى باسيليوس - في البداية بذلك، وأنه لم يكن هناك الله بل الربوبية فقط التي كانت بالتحديد لا شيء، لأنه لم يكن موجوداً بأي معنى يمكننا فهمه^(٣٤).

لكن هذه اللاشيئية Nothingness كانت ترد أن تجعل نفسها معروفة ولم تكن راضية عن بقائها وحدها في العمق والصمت. ففي أعماق وجودها الذي لا يسير غوره هناك ثورة داخلية. هذا الوجود الذي تمخض عن سلسلة فيوضات مماثلة للفيوضات التي وصفتها الميثولوجيا الوثنية القديمة. كان الفيض الأول هو «الله» الذي نرقه ونصلي له، علماً أنه عصي على الفهم وبحاجة إلى إيضاح أكثر. بالتالي بدأت فيوضات جديدة من الله على شكل ثنائيات، كل منها كانت تعبر عن الصفات الإلهية. فالله خارج نطاق الجنس تذكيراً أو تأنيثاً، وكان كل فيض مكون من ذكر وأنثى كما في الإينوما ليتش. وقد رمت هذه الخطوة إلى تحييد المعنى الذكري عن التوحيدية التقليدية. وكلما ابتعدت الفيوضات عن مصدرها الإلهي أصبحت أضعف وأكثر وهناً. ثم توقف الفيض بعد انبثاق ثلاثين فيضاً، وكان العالم المقدس باليروما Paleroma كاملاً. لم يقترح الغنوصيون عالماً كونياً حالياً بالكامل، لأن كل امرئ كان يعتقد أن الكون مليء بدهور وشياطين وقوى روحانية. وقد أشار القديس بولص إلى عروش، وهيمنات، وممالك، وقدرات، بينما اعتقد الفلاسفة أن هذه القدرات اللامرئية كانت آلهة قديمة، وجعلوها وسطاء بين الإنسان والواحد.

كان هناك كارثة، هبوط بدئي وصفه الغنوصيون بأساليب شتى. فقال بعضهم إن الحكمة التي كانت الفيض الأخير هبطت من البهاء Grace لأنها أوحيت بمعرفة محرمة بالربوبية التي لا يمكن بلوغها. فهبطت من العالم المقدس بسبب افتراضها المغرور فشكل حزنها وضيقها عالم المادة. هامت الحكمة في الأكوان متقيّة ضائعة يملؤها حنين العودة إلى مصدرها الإلهي. عبّر هذا الدمج للأفكار الشرقية والوثنية عن الإحساس الغنوصي العميق بأن عالمنا كان يلهي معنى شكلاً منحرفاً عن العالم السماوي، مولود من الجهل وخارج المكان المناسب. وقال غنوصيون آخرون أن الله لم يخلق العالم المادي لأنه لا يمكن أن يكون مهتماً بالمادة الحقيرة. فكان هذا العالم المادي من صنع أحد الإيونات Aeon التي أسماها الخالق أو Demiourgos. لقد أصبح غيوراً من الله وكان يطمح لأن يكون مركز

العالم المقدس، وبالتالي هبط، وخلق العالم في إحدى نوبات التحدي. لقد شرح فالنتينوس ذلك: «خلق العالم دون معرفة، شكّل الإنسان في جهل الإنسان، وجلب الأرض إلى النور دون فهم للأرض»^(٣٥). لكن اللوغوس الذي هو أحد الإيونات جاء كي يساعد، فهبط إلى الأرض متخذاً نفس المظهر الجسدي ليسوع كي يعلم البشر طريق العودة إلى الله. بيد أن هذا النوع من المسيحية انقرض بسرعة. لكننا سنرى لاحقاً أن اليهود والمسيحيين والمسلمين سيعودون إلى هذا النمط من الميثولوجيا بعد قرون تالية، أي بعد أن وجدوا أنه كان يعبر عن معرفتهم الدينية بالله بدقة أكثر مما كان يعبر عنه اللاهوت المحققي. لم يكن المراد من هذه الأساطير أن تكون وصفاً حقيقياً للخلق والخلاص، بل كانت مجرد تعبيرات رمزية عن حقيقة داخلية. لم يكن الله والعالم السماوي حقيقتين خارجيتين بل كان ينبغي اكتشافهما في الداخل:

تخل عن البحث عن الله والخلق والمسائل الأخرى المشابهة.
ابحث عنه بجعل نفسك نقطة البداية. تعرّف من الذي في داخلك،
يجعل كل شيء ملكه ويقول: ربي، عقلي، فكري، روحي، جسدي.
تعلم مصادر الحزن، والسعادة، والحب والكراهية.
تعلم كيف يحدث الأمر أن يراقب المرء دون إرادة.
ويحب دون رغبة. إن تحرّى هذه الأمور بدقة،
فلنك ستجدها في نفسك^(٣٦).

العالم المقدس كان يمثل مخطط الروح. وكان بالإمكان رؤية النور الإلهي عبر هذا العالم المظلم إذا عرف الغنوصي إلى أين ينظر. فأتاء الهبوط الأول - هبوط الحكمة أو الإيون - سقطت بضع شرارات من العالم المقدس واستقرت في المادة. وباستطاعة الغنوصي أن يجد جذوة مقدسة في روحه فيصبح عارفاً للعنصر الإلهي داخله، والذي سيساعده في إيجاد طريقه إلى موطنه الأول.

لقد أوضح الغنوصيون أن العديد من معتقي المسيحية الجدد كانوا غير راضين عن المفهوم التقليدي لله الذي ورثوه عن اليهودية. لم يعرفوا العالم على أنه خير ومن خلّقه إله رحيم. فالثنائية والقتلاع من المكان كانا مميزين لعقيدة مارسيون Marcion (١٠٠ - ١٦٥) الذي أسس كنيسة المنافسة في روما، وجذب عدداً كبيراً من الأتباع. قال يسوع: «ما من شجرة جيدة تثمر ثمرأ ردياً»^(٣٧). فكيف خلق الله الخير العالم الذي كان مليئاً بالشر والألم؟ وقد راع الكتاب المقدس اليهودي مارسيون لأنه يصف إلهاً قاسياً فظاً

يستأصل أمة بكاملها في حالة انفعالية كي يحقق العدل، فقرر بناء على ذلك أن هذا الإله اليهودي كان من «مشتهي الحرب، وغير ثابت في مواقفه، ومتناقض مع ذاته»^(٣٨). لقد أوضح يسوع أن إلهاً آخر كان موجوداً ولم يرد ذكره في الكتب اليهودية، كان هذا الإله الثاني «وادعاً، هادئاً، وخيراً»^(٣٩). لقد كان مختلفاً تماماً عن الخالق العادل القاسي للعالم. وبالتالي ينبغي أن تتحول عن العالم الذي ليس في وسعه أن يخبرنا شيئاً عن هذا الإله الرحيم - لأنه ليس من صنعه - وعلينا أن نهمل العهد القديم أيضاً، وأن نركز على ما جاء في العهد الجديد الذي حفظ روح يسوع. لقد بينت الشعبية التي حظيت بها تعاليم مارسيون أنها كانت تعبيراً عن قلق عام. فعلى ما يبدو كان على وشك أن يؤسس كنيسة منفصلة. لقد وضع أصبعه على شيء هام في التجربة المسيحية. لقد وجدت أجيال من المسيحية صعوبة في إقامة علاقة إيجابية مع العالم المادي، وما يزال هناك عدد كبير من الذين لا يدرون ماذا يفعلون بالإله العبري. لقد أشار اللاهوتي تيرتوليان Tertullian (١٦٠ - ٢٢٠) - من شمالي إفريقيا - إلى أن إله مارسيون الخير كانت فيه سمات مشتركة مع إله الفلسفة الإغريقية أكثر من سماته المشتركة مع إله الإنجيل. كان هذا الإله الهادي الذي لا علاقة له بهذا العالم الناقص أقرب بكثير من المحرك الذي لا يُحرك الذي وصفه أرسطو، وهو أكثر قرباً من قرب الإله اليهودي من يسوع المسيح. في حقيقة الأمر وجد الكثيرون في العالم الإغريقي - الروماني أن الإله الإنجيلي إله محير مربك غير جدير بالعبادة. ففي عام ١٧٨/ اتهم الفيلسوف الوثني كلوسوس Celsus المسيحيين بتبني نظرة إقليمية ضيقة عن الله. فوجد زُعم المسيحيين بأن الله سيتجلى لهم أمراً مرعياً: كان الله موجوداً لجميع البشر، ومع ذلك اجتمع المسيحيون سوياً في جماعة دينية صغيرة دنيئة مؤكدين: «أن الله قد هجر العالم كله، وحركات السماوات، وأهمل الأرض الفسيحة كي يعير اهتمامه لنا وحدنا»^(٤٠). فعندما اضطهدت السلطات الرومانية المسيحيين كانت تتهمهم بالإلحاد، لأن مفهومهم عن الله كان يدين روح الجماعة الرومانية، فعن طريق فشل الناس في إعطاء الآلهة التقليدية مكانتها كانوا يخشون أن المسيحيين سيرضون الدولة للخطر، فيقبلون الاستقرار الهش. وهكذا بدت المسيحية عقيدة بربرية تتجاهل إنجازات الحضارة.

بدأ بعض المثقفين الوثنيين باعتناق المسيحية في نحو نهاية القرن الثاني، وكانوا قادرين على تعديل الإله المتعالي بما يتوافق مع المثال الروماني - الإغريقي. أول هؤلاء كان كلمينت الاسكندري (١٥٠ - ٢١٥) الذي ربما درس الفلسفة في أثينا قبل إيمانه. لم يكن لديه شك بأن يهوى وإله الفلاسفة الإغريق كان واحداً والإله ذاته: فقد أسمى أفلاطون

موسى الأتيكي Attic، فلو أن يسوع والقديس بولص علما بهذا اللاهوت لكان أدهشهم. تميز إله كلمينت بعدم التأثير، غير قادر على أن يتغير أو يتألم مثله في ذلك مثل إله أفلاطون وأرسطو. وكان باستطاعة المسيحيين المشاركة في هذه الحياة الإلهية عن طريق الهدوء وعدم قدرتنا على النفاذ إلى الله ذاته. لقد وضع كلمينت قاعدة للحياة مماثلة جداً للقواعد التفصيلية في السلوك التي وضعها الأحبار، عدا قواسمها المشتركة مع المثال الرواقي. ينبغي على المسيحي أن يحاكي وداعة الله في كل جزئية من حياته يجب أن يجلس جلسة صحيحة، وأن يتكلم بهدوء، ويمتنع عن العنف، والقهقهة أثناء الضحك، وأن يتجشأ بلطف. فاتباع هذا التدريب المتقن للهدوء المدروس سيعرف المسيحيون هدوءاً داخلياً شامعاً، فهو صورة الله منقوشة في وجودهم. ليس هناك هوة فاصلة بين الله والبشر. فإذا التزم المسيحيون بالمثال الإلهي سيجدون أن لهم رفيقاً إلهياً «يشاركنا منازلنا، وجالساً إلى الطاولة معنا، ومشاركنا في كل جهد أخلاقي نقوم به في حياتنا»^(٤١).

لقد اعتقد كلمينت أيضاً أن يسوع هو الله «الإله الحي الذي غُذِبَ وغَيِبَ»^(٤٢)، فهو الذي «غسل أقدامهم مطوقاً بمنشفة فكان «إله ورب الكون دون تعالي»^(٤٣). فإذا حاكي المسيحيون المسيح فإنهم سوف يصبحون مقدسين «إلهيين لا يعترهم الفساد، ولا يتأثرون. فالمسيح هو اللوغوس الإلهي، الذي أصبح إنساناً، وبذلك بإمكانك أن تتعلم من المسيح كيف تصبح إلهاً»^(٤٤). أما في الغرب فقد علّم أسقف ليون إيريناوس Irenaeus (١٣٠-٢٠٠) عقيدة مماثلة، فيسوع كان اللوغوس مجسداً، أي العقل الإلهي. وعندما أصبح إنساناً قدس كل مرحلة من التطور البشري ففداً أئموذجاً للمسيحيين. وينبغي عليهم محاكاته بالطريقة التي يتمص فيها الممثل الشخصية التي يمثل دورها، وبذلك سوف ينجزون قدرتهم البشرية الكامنة»^(٤٥). لقد عدل كلمينت وإيريناوس الإله اليهودي بما يتوافق مع مفاهيم كانت سمة مميزة لعصرهما وثقافتهما. مع ذلك فقواسم مفهومهما مع إله الأنبياء الذي كان يتميز أساساً بعواطفه وعدم تأثره قواسم قليلة. وسيفقد مفهوم كلمينت (عدم التأثير Apatheia) ذا أهمية أساسية للمفهوم المسيحي لله. ففي العالم الإغريقي كان الناس تواقين إلى الارتقاء فوق فوضى العاطفة والاستقرارية كي يبلغوا هدوءاً إنسانياً مثاليّاً، وقد ساد هذا المثال على الرغم من التناقض الملازم له.

لقد ترك لاهوت كلمينت أسئلة حاسمة دون إجابات: كيف يستطيع إنسان إن يصبح اللوغوس أو العلة الإلهية؟ وماذا كان يعني القول أن يسوع كان إلهياً؟ هل كان اللوغوس هو «ابن الله» نفسه؟ وماذا كان يعنيه هذا اللقب اليهودي في العالم الهيليني؟

وكيف تعذب الله الذي لا يتأثر في شخص يسوع؟ كيف كان يوسع المسيحيين الاعتقاد بأنه كان وجوداً إلهياً بينما يصرون في الوقت ذاته على وجود إله واحد فقط؟ لقد أصبح المسيحيون مدركين لهذه المسائل خلال القرن الثالث. ففي مطلع هذا القرن اقترح سابيليوس Sabellius - شخصية وهمية - أن الكلمات الإنجيلية التالية: الآب، والإبن، والروح بالإمكان مائلتها بالأقعة التي يرتديها الممثلون كي يلعبوا دوراً مسرحياً، ولجعل أصواتهم مسموعة للمشاهدين. وهكذا أصبح «الله الواحد» يعني شخصاً مختلفين عند التعامل مع العالم. لقد جذب سابيليوس إليه بعض التلاميذ، لكن نظريته هذه لم ترض معظم المسيحيين: لأنها كانت تعني أن الله الذي لا يتأثر قد تعذب - بمعنى من المعاني - عندما كان يلعب دور الابن، فوجدوا أن هذه الفكرة لا يمكن قبولها. وعندما اقترح أسقف انطاكية بولس ساموساتا Samosata (٢٦٠-٢٧٢) أن يسوع كان مجرد إنسان استقرت فيه كلمة وحكمة الله كما استقرت في الهيكل من قبل، اعتبر الناس رأيه مناقضاً للعقيدة. وقد أدين لاهوته في المجمع المسكوني الذي عقد في إنطاكية عام ٢٦٤، لكنه تمكن من البقاء على موقفه بدعم من زنبوبيا ملكة تدمر. كان واضحاً أن إيجاد طريقة لتعديل القناعة المسيحية بالوهية المسيح مع اعتقادهم الراسخ أن الله كان واحداً كان أمراً في غاية الصعوبة.

عندما غادر كليمنت الاسكندرية كي يصبح قساً في خدمة أسقف أورشليم نبأ مكانه تلميذه الشاب الذكي أورجين Origen في المدرسة التعليمية، كان عمره آنذاك عشرين سنة. كان أورجين الشاب مقتنعاً متحمساً أن الشهادة كانت هي الطريق إلى السماء. فوالده ليونيدس Leonides قد قضى نحبه في الحلبة قبل أربع سنوات، فحاول أورجين اللحاق به. بيد أن والدته أنقذته بإخفاء ملابسه. بدأ أورجين بالاعتقاد أن الحياة المسيحية كانت تعني التوجه ضد هذا العالم، لكنه شجب هذا الموقف لاحقاً، وطور شكلاً من أفلاطونية مسيحية. فبدلاً من رؤية هوة بين الله والعالم لا يمكن تجاوزها، رأى إمكانية عبورها، إنما بجسر الشهادة. قام بتطوير لاهوت شدد على استمرارية الله مع العالم. كان عالمه نور روحاني، فتأؤل وبهجة، وباستطاعة المسيحي صعود سلسلة الوجود خطوة خطوة حتى يصل إلى الله، عنصره الطبيعي وموئله.

كان أورجين مقتنعاً بالرابطة بين الله والروح لكونه أفلاطونياً: فمعرفة الله كانت أمراً طبيعياً للبشر، وكان بالإمكان استحضارها وإيقاظها عن طريق ممارسات خاصة. فلكني يعدل فلسفته الأفلاطونية بما يتناسب مع الكتب المقدسة السامية طور طريقة رمزية لقراءة

الإنجيل. وهكذا ينبغي عدم فهم ولادة المسيح من عذراء كحدث فعلي بل على أنه ولادة الحكمة الإلهية في الروح. وتبنى كذلك أفكاراً من الغنوصية. فجميع الكائنات في العالم الروحاني قد تأملت الله الذي لا يوصف الذي كشف نفسه لها في اللوغوس، أي الكلمة والحكمة الإلهيتين. لكنها سمعت من هذا التأمل والهبوط من العالم المقدس في أشياء احتوت هبوطها. أما الآن فقد ضاع كل شيء. فباستطاعة الروح الصعود إلى الله في رحلة مستمرة طويلة تستمر بعد الموت. وسترمي تدريجياً قيود الجسد، لتعلو فوق الجنس كي تصبح روحاً نقية. فمن طريق التأمل تتقدم الروح في معرفة (غنوصية) الله التي ستحولها حتى تغدو مقدسة، كما بشر أفلاطون. فالله غامض لا يمكن التعبير عنه بكلمات أو مفاهيم بشرية، لكن الروح لديها المقدرة على معرفة الله كونها تشترك معه في الطبيعة الإلهية. بالنسبة لنا كان تأمل اللوغوس أمراً طبيعياً طالماً أن الكائنات الروحية كانت أساساً كل منها مساوٍ للآخر. فعندما هبطت هذه الكائنات كان العقل المستقبل ليسوع فقط راضياً بالبقاء في العالم المقدس متأملاً كلمة الله، وكانت أرواحنا مساوية لروحه. كان الاعتقاد بالوُهو يسوع الإنسان أحد أطواره فقط، وسوف يساعدنا في طريقنا، لكن في النهاية سوف يتسامى عندما نرى الله وجهاً لوجه.

أدانت الكنيسة بعضاً من آراء أورجين بدعوى الهرطقة في القرن التاسع. لم يعتقد أورجين ولا كليمنت أن الله خلق العالم من عدم، وستصبح هذه الفكرة عقيدة مسيحية لاحقاً. لم تكن رؤية أورجين لألوهية يسوع وخلاص البشرية ملتزمة - بكل تأكيد - بالتعاليم المسيحية الرسمية لاحقاً. إنه لم يكن يعتقد أن موت المسيح كان خلاصاً له، بل آمن أننا صعدنا إلى الله تحت دافعتنا نحن. وهناك نقطة هامة هي أنه بينما كان كليمنت وأورجين يكتبان ويعلمان أفلاطونيهما المسيحية لم يكن هناك معتقد رسمي. لم يكن هناك أي شخص متأكداً من معرفة إذا كان الله خلق العالم، أو كيف أن كائناً بشرياً كان يعتبر إلهياً. وقد أدت الأحداث العاصفة في القرنين الرابع والخامس إلى تحديد المعتقد الأرثوذكسي بعد صراع مؤلم.

لقد خصى أورجين نفسه، وقال يسوع في الأنجيل أن بعض الناس خصوا أنفسهم من أجل مملكة السماء فطبق أورجين ذلك على نفسه. كان الحصري عمله شائعة في أواخر الفترة الرومانية لكن أورجين لم يفعل ذلك بسكين، ولا بقرار مستمد من كراهية عصابية للجنس تميز بعض اللاهوتيين الغربيين مثل القديس جيروم Jerome (٤٢٠-٤٩٠). يترح العلامة بيتر براون Peter Brown أنها ربما كانت محاولة لإيضاح معتقده بوسطية الشرط

الإنساني الذي ينبغي على الروح أن تتجاوزه حالاً. وكما يبدو سيتم ترك عوامل ثابتة كالجنس خلقاً في المسار الطويل للانتقال إلى الطور الإلهي، فمع الله لا وجود لمذكر أو مؤنث. ففي عصر كان يرعي الفيلسوف فيه لحيته (كدلالة على الحكمة) كان خدلاً أورجين الناعمان وصوته الجمهوري منظراً مذهلاً.

درس أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠) على يد أستاذ أورجين في الاسكندرية أمونيوس ساكوز، وتطوع لاحقاً في الجيش الروماني على أمل الذهاب إلى الهند مع الجيش حيث كان متلهفاً للدراسة. لكن لسوء حظه مُنيت الحملة بالفشل فهرب إلى انطاكية، ثم أسس مدرسة للفلسفة في روما. هذا كل ما نعرفه عنه، لأنه كان رجلاً كئيباً جداً لم يتحدث أبداً عن نفسه، ولم يحتفل بعيد ميلاده قط. وجد أفلوطين المسيحية عقيدة غير مرغوب بها كلياً، مع ذلك أثر على أجيال لاحقة من الموحدين في الأديان الثلاثة، وهذا ما يدعونا إلى إعطاء حجة تفصيلية لرؤيته لله. وصف أحدهم أفلوطين بأنه مثل إراقة الماء لأنه قد تمثل التيارات الرئيسية التي كانت قبل (٨٠٠ سنة) من التأمل اليوناني، ونقلها في شكل استمر في التأثير على شخصيات بارزة في عصرنا مثل ت. س. إليوت و هنري بيرغسون. لقد أنشأ نظاماً مصمماً لتحقيق فهم للذات مستنداً إلى أفكار أفلاطون. إنه لم يكن مهتماً إطلاقاً بإيجاد تفسير علمي للكون، ولا بمحاولة شرح الأصول المادية للحياة. فبدلاً من النظر إلى خارج العالم من أجل تفسير موضوعي، كان يبحث تلاميذه على الإنسحاب إلى داخل أنفسهم كي يبدأوا استكشافهم في أعماق النفس.

البشر مدركون أن هناك شيء ما خطأ في شرطهم، ويشعرون باختلاف مع أنفسهم ومع الآخرين داخل طبيعتهم الداخلية التي لا سبيل إلى الوصول إليها وأنهم فقدوا إمكانية التوجه. فالصراع وغياب البساطة هما اللذان يميزان وجودنا. مع ذلك فإننا نسعى باستمرار إلى توحيد الظواهر الكثيرة وإلى تقليدها إلى كل مرتب. فعندما ننظر إلى شخص فإننا لا نرى أعضاء جسده بشكل متفرق بل ننظم آلياً هذه العناصر في كائن بشري متكامل. هذا الدافع للوحدة أمر أساسي في الطريقة التي تعمل بها عقولنا ويجب أن تمكس الطريقة جوهر الأشياء عموماً. فلنجد الحقيقة الكامنة في الواقع ينبغي على الروح أن تعيد تشكيل نفسها، وأن تخضع للتطهير والاستغراق في التأمل كما نصنعنا أفلاطون. يجب أن تنظر الروح إلى ما هو خلف الكون، خلف العالم المذكر، وتخلط حدود الفكر حتى نرى في قلب الواقع. لن يكون هذا صعوداً إلى خارج أنفسنا بل هبوطاً إلى داخل أعماق الفجوات في عقولنا: أي صعوداً داخلياً إذا أمكن القول.

كانت الحقيقة النهائية وحدة بدئية أسمائها أفلوطين الـ (واحد One) وتدين جميع الأشياء في وجودها إلى هذه الحقيقة الفعالة، لأن الـ (واحد) هنا هو البساطة ذاتها وليس بالإمكان قول شيء عنها: صفاتها ليست مختلفة عن جوهرها مما يجعل الوصف العادي غير ممكن. لقد كانت وحسب، وبالتالي قال (واحد) اسم لها. وإذا كان لا بد من التفكير بالـ (واحد) إيجابياً سيكون في الصمت صدق أكبر^(٤٦). «لا نستطيع أن نقول إنها توجد فهي بذاتها ليست شيئاً مميزاً عن الأشياء كلها»^(٤٧) وقد شرح أفلوطين هذه الحقيقة «إنها كل شيء ولا شيء»؛ قد تكون غير متماثلة مع أي من الأشياء الموجودة ومع ذلك فهي كلها جميعاً^(٤٨). وسنرى أن هذا المفهوم سيكون موضوعاً ثابتاً في تاريخ الله.

بيد أن هذا الصمت لا يمكن أن يكون الحقيقة كاملة طالما أننا قادرون على بلوغ بعض معرفة عن المقدس. هذا سيكون ضرباً من المحال إذا بقي الـ (واحد) مُغلقاً في غموض لا يمكن النفاذ إليه. قال (واحد) يجب أن يتجاوز ذاته وأن يذهب إلى ما وراء بساطته كي يجعل ذاته مفهوماً لدى الكائنات غير الكاملة مثلنا نحن. بالإمكان وصف التعالي الإلهي كـ«نشوء» وهي تسمية مناسبة لأنها خروج خارج الذات في سخاء محض: «ساعياً إلى لاشيء، ممتلكاً لاشيء، مفتقراً لالشيء»، الـ (واحد) الكامل، فاض قولده فيض الجديدي^(٤٩). لا وجود لشيء شخصي في هذه جميعاً. رأى أفلوطين الـ (واحد) خارج جميع المجالات البشرية، من بينها مجال الشخصية. لقد عاد إلى أسطورة الفيض القديمة لشرح إشعاع الأشياء التي توجد من هذا المصدر البسيط تماماً. استخدم عدداً من التشبيهات لوصف هذه العملية: كان كنور يسطع من الشمس، أو الحرارة التي تشع من نار بحيث تصبح أكثر دفئاً كلما اقتربت من مركزها المتأجج. فإحدى تشبيهاته المفضلة هو تشبيه الـ (واحد) بنقطة في منتصف دائرة، فهذه النقطة تحتوي كل إمكانية إنشاء الدوائر المستقبلية التي تكون النقطة مركزاً لها. كان الله ماثلاً للأثر الموجي الذي يحدثه رمي حصاة في بركة ماء. لم يكن هذا الفيض ماثلاً للفيوضات في أسطورة كالـ (إينوما إليش) حيث أصبح كل زوج من الآلهة التي انبثقت أحدها عن الآخر أكثر كمالاً وفعالية، فمخطط أفلوطين كان عكس ذلك تماماً. فكما في الأساطير الغنوصية كلما ابتعد الكائن عن مصدره ازداد ضعفاً.

اعتبر أفلوطين الفيضين الأولين اللذين صلتا عن الـ (واحد) مقدسين لأنهما مكنانا من المعرفة والمشاركة في حياة الله. وشكّل هذان الفيضان مع الـ (واحد) ألوهة ثلاثية، فكانت هذه الدلائل بشكل ما قريبة من الحل المسيحي النهائي للثالوث. فالفعل هو الفيض الأول، يقابله ملكة المثل عند أفلاطون: جعل بساطة الـ (واحد) مفهومة، لكن المعرفة هنا

كانت حدسية آنية لا يمكن اكتسابها بالبحث المضني وعمليات المحاكمة بل بالإمكان استيعابها مثلما تستوعب حواسنا الأجسام التي ندرک فيها وجودها، تستوعب الروح التي تفيض من العقل بنفس الطريقة التي يفيض بها العقل من الـ (واحد)، وهي أبعد قليلاً عن الكمال، وفي هذه المملكة يمكن اكتساب المعرفة منطقياً، ولذلك فإنها تنفّر إلى البساطة المطلقة والإنسجام. فالروح تقابل الواقع كما نعرفه: كل ما تبقى من الوجود المادي والروحي يفيض من الروح التي تعطي علمنا أية وحدة وانسجام تمتلكهما. ينبغي أن نؤكد على أن أفلوطين لم يتخيل ثلاثية الـ (واحد)، العقل والروح كإله «هناك خارجاً». فالإله قد خلق الوجود كله. فكان الله الكل في الكل وكانت الكائنات الأدنى موجودة فقط مادامت تشارك في الوجود المطلق للـ (واحد)^(٥٠).

ثم وقف التدفق الخارجي للفيض بحركة مقابلة للعودة إلى الـ (واحد). فكما نعرف من فعاليات عقولنا وعدم رضانا عن الصراع والتعددية فإن جميع الكائنات نحن إلى الـ (الواحد)؛ إنها تنوق إلى العودة إليه. فهذه ليست صعوداً إلى واقع خارجي بل نزولاً داخلياً إلى أعماق العقل. ينبغي أن نتذكر الروح البساطة التي نسيته، وأن تعود إلى ذاتها الحقّة. فما دامت جميع الأرواح حية في الواقع نفسه لذلك بالإمكان مقارنة البشر بكورس يقف حول قائد فرقته، فإذا ما شرد أحد أفراد الكورس سيحدث نشاز، لكن إذا ركّز الجميع عليه فإن المجموعة كلها سوف تكون في انسجام معه (سوف ينشدون كما يجب، كونهم معه)^(٥١).

الـ (واحد) هو غير شخصي ولا جنس له، وهو ناس لنا تماماً. والعقل مُدَكِّز، والنفس مؤثّفة، ويدل هذا على رغبة أفلوطين في الحفاظ على الرؤية الوثنية للتوازن الجنسي والانسجام فالله عنده لا يشبه الله الإنجيلي: إنه لا يخرج كي يلاقينا ويوجهنا إلى بيتنا الأول، ولا يحن إلينا، أو يحبنا، أو يكشف عن نفسه لنا، وليس لديه معرفة لما هو خارج ذاته^(٥٢). مع ذلك فالروح البشرية كانت جذلي أحياناً في فهم نشوي «من نشوة للـ (واحد)». وهكذا لم تكن فلسفة أفلوطين عملية منطقية بل بحثاً روحياً:

ولمن جانبنا يجب أن ننحي جانباً كل شيء آخر، وأن نستقر على هذه الحالة وحدها، وأن نصبح هذه لوحدها، متحرين من جميع عوائقنا. يجب أن نسرع في الهروب من هنا، وألا نصبر على قيودنا الأرضية كي نعانق الله بكل وجودنا بحيث لا يبقى جزء منا غير متعلق بالله. فهناك نستطيع أن نرى الله وأنفسنا كما قالت الشريعة: أنفسنا في سناء، بلوناً نور الفكر أو بالأحرى نور ذاته، نقي، مرح، أثري... نصبح آلهة^(٥٣).

لم يكن هذا الإله جسماً غريباً بل هو ذاتنا في أفضل صورها. «فلا يتحقق هذا عن طريق المعرفة أو الفكر الذي يكشف الوجودات الفكرية في العقل بل عن طريق حضور Parousia الذي يتخطى كل معرفة»^(٥٤).

كانت المسيحية تشق طريقها الخاص بها في عالم، الشيطنة فيه للمثل الأفلاطونية. عندما حاول مفكرون مسيحيون تفسير تجربتهم الدينية عادوا بشكل طبيعي إلى الرؤية الأفلاطونية المحدثة التي قدمها أفلوطين وتلامذته الوثنيون اللاحقون. فمفهوم الاستنارة كان غير شخصي وخارج مجالات البشر، وأمرأ طبيعياً للبشرية. كان هذا المفهوم قريباً جداً من المثال الهندوسي والبوذي في الهند. وعلى الرغم من الاختلافات السطحية بين أنصار النزعة الوحداية وبين رؤى الواقع الأخرى إلا أنه كان هناك أوجه تشابه عميقة. فعندما يتأمل البشر المطلق يبدو أن أنكاراً وتجارب متماثلة تتشكل لديهم. إحساس بالحضور والنشوة والرهبة في حضور حقيقة ما قد تسمى بالاستنارة، الواحد، براهمن، أو الله، ويبدو أن هذا الإحساس هو حالة عقلية وتصور طبيعي يسعى البشر إليه إلى ما لا نهاية.

كان بعض المسيحيين مصممين على مصادقة العالم اليوناني، بينما لم يُردُّ آخرون أي شيء له أية علاقة به. فقد ظهر نبي جديد في بداية الاضطهاد في عام ١٧٠/، يدعى مونتانوس Montanus ، ظهر فيما يعرف الآن باسم تركيا الحديثة، وزعم أنه الله:

«أنا الله القدير الذي نزل إلى الإنسان»، وكان يصيح «أنا الآب والابن والبارقليط (أي الروح القدس)». وزعم رفيقه بريشيل Priscilla وماكسميلا Ma xemilla مزاعم مماثلة^(٥٥). كانت المونتانية (نسبة إلى مونتانوس هذا) عقيدة رؤوية شرسة رسمت صورة مفزعة لله. فلم يكن أنصارها مجبرين على أن يديروا ظهورهم إلى العالم، وأن يعيشوا حياة عذاب فحسب بل لقنوا أن الشهادة هي الطريق الوحيد الأكيد إلى الله. فموتهم المؤلم من أجل الدين سوف يسرع من مجيء المسيح. فالشهداء كانوا جنود الله منشغلين في معركة مع قوى الشر. لاقت هذه العقلية الرهيبة استحساناً لدى التطرف الكامن في الروح المسيحية؛ فانتشرت كانتشار النار في الهشيم في تركيا، وراقيا Thrac وسوريا وبلاد الغول Goul، وكانت قوية في شمال أفريقيا على الأخص حيث كان الناس معتادين على آلهة كانت تطلب قربانين بشرية. وقد قمع الامبراطور الروماني في القرن الثاني الميلادي عادة التضحية بالولد البكر التي كانت تنص عليها عبادة بعل. وسرعان ما جذبت هذه الهرطقة شخصاً لا يقل عن ثيودوليان اللاهوتي الذي كان يتزعم الكنيسة اللاتينية. وفي

الشرق، بشر كلمينت وأورجين بعودة سعيدة سالمة إلى الله، لكن في الكنيسة الغربية كان هناك إله مخيف أكثر، وكان يطلب موتاً بشعاً كشرط للخلاص. كانت المسيحية في هذه المرحلة ديناً كفاحياً في أوروبا الغربية وشمال أفريقيا، ومنذ البداية كان هناك ميل نحو التطرف والقسوة.

كانت المسيحية في الشرق تخطو خطوات كبيرة، وبحلول عام ٢٣٥/ كانت قد أصبحت أحد الأديان الأكثر أهمية في الامبراطورية الرومانية. بعدئذ أخذ المسيحيون يتحدثون عن كنيسة عظيمة وعن منطق ديني واحد يمنع التطرف والشذوذ. قال هؤلاء اللاهوتيون الأرثوذكسيون بيطلان رؤى الفصوصيين المتشائمة وكذلك رؤى مارسيون والمولتاييين، واستقروا من أجل الطريق للمتوسط. كانت المسيحية قد بدأت تصبح عقيدة مدنية تتحاشى تعقيدات العبادات السرية والزهدية غير المزنة. بدأت تلقى قبولاً لدى أناس حادي الذكاء. فكانوا قادرين على تطوير الدين في مسارات باستطاعة العالم الروماني اليوناني أن يفهمها. وقد لاقت قبولاً بين النساء. فالإنجيل لا يفرق بين ذكر وأنثى، وأصر أن على الرجال تقدير زوجاتهم مثلما قدر المسيح كنيسته. وهكذا توافرت في المسيحية جميع المزايا التي جعلت اليهودية ديناً جذاباً ذات يوم دون مساوئ الحتان، تلك العادة الغربية. لقد تأثر الوثنيون بنظام الصالح العام الذي أرسته الكنائس، وسلوك المسيحيين الرحيم تجاه كل فرد. فخلال صراعها من أجل البقاء من الاضطهاد الخارجي ومن الفرقة الداخلية أنشأت الكنيسة أيضاً تنظيماً كفواً جعلته نموذجاً مصغراً تقريباً عن الامبراطورية ذاتها: كان التنظيم متعدد الأعراق: كاثوليكي دولي، مسكوني يديره بيروقراطيون أكفاء.

لقد أصبحت الكنيسة عامل استقرار فلاقت استحسان الامبراطور قسطنطين الذي اعتنق المسيحية بعد معركة جسر ميليفيان Milvian عام ٣١٢ وجعل المسيحية رسمية في السنة التالية، وبذلك أصبح المسيحيون أحراراً في تملك الأرض والعبادة، تقدموا مساهمة متميزة في الحياة العامة. على الرغم من أن الوثنية قد ازدهرت طوال أكثر من قرنين إلا أن المسيحية قد أصبحت الدين الرسمي في الامبراطورية، وبدأت تجذب معتنقين جدد شقوا طريقهم إلى داخل الكنيسة سعياً وراء مصلحة مادية. فالكنيسة التي بدأت حياتها كطائفة مضطهدة تتوسل من أجل التسامح سرعان ما وجدت نفسها تطالب بالالتزام بقوانينها ومعتقداتها. إن الأسباب الكامنة وراء انتصار المسيحية غامضة، وبالتأكيد لولا دعم الامبراطورية الرومانية لها لما كتب لها النجاح، علماً أن هذا الدعم قد جلب معه إشكالات لا بد منها. فهي قبل كل شيء دين محنة، ولم تكن للمسيحية في أفضل حالاتها أبداً في

حالات الرخاء. فأحدى المسائل التي كان ينبغي حلها هي المعتقد المتعلق بالله، ولم يكذ قسطنطين يجلب السلام إلى الكنيسة حتى ظهر خطر جديد من الداخل شق الصف المسيحي إلى معسكرات متحاربة بضراوة.

الفصل الرابع

الثالوث: الإله المسيحي

سيطر ولع لاهوتي شديد على كنائس مصر وسوريا وآسيا الصغرى في نحو عام ٣٢٠م. كان البحارة ينشدون أهازيج شعبية تعلن أن الآب وحده هو الله الحق، وأنه فريد لا سبيل إلى الوصول إليه، والابن كان غير خالده، وليس غير مخلوق لأنه قد تلقى الحياة والوجود من الآب. ونسمع كذلك عن أحد الخدم في الحمامات العامة الذي كان يخطب بالمستحامين مؤكداً على أن الابن قد أتى من العدم. ونسمع كذلك عن صيرفي كان يستهل إجابته بمقالة حول الفارق بين تراتب المخلوق والله غير المخلوق قبل أن يقدم سعر الصرف لزيونه. وعن خباز أخبر زيونه أن الآب كان أعظم من الابن. وكان الناس يناقشون هذه المسائل العويصة بالحماسة نفسها التي يناقش فيها الناس كرة القدم اليوم^(١). فقام أريوس Arius بإشعال فتيل الجدل: كان أريوس عضواً في مجلس كنيسة الاسكندرية، وسمياً جذاباً وذا صوت ناعم معبر، ووجه ينم عن سوداوية. فقد أصدر تحدياً وجد أسقف الاسكندرية، أن من المحال تجاهله، لكن ما هو أكثر صعوبة هو الرد على هذا التحدي بالحجة: كيف كان يسوع المسيح إلهاً مثل الله الآب؟ لم يكن أريوس ناكراً لألوهة المسيح لأنه أطلق على يسوع تسمية «إله قوي» و«الله الكامل»^(٢). لكنه جادل: إذا اعتقدنا أنه كان إلهاً بطبيعته فإن هذا تجديف، فيسوع قد قال أن الآب أعظم منه. أدرك الاسكندر أسقف الاسكندرية ومساعدته الذكي أثنانازيوس على الفور أن هذا القول لم يكن مجرد تأنيق لاهوتي بل أن أريوس كان يطرح أسئلة هامة حول طبيعة الله. كان أريوس في ذلك الوقت رجلاً دعاية بارع، فقد صاغ أفكاره موسيقياً وسرعان ما كان عامة المسيحيين يناقشون القضية بحماسة مماثلة لمناقشتها من قبل أساقفتهم.

أصبح الجدال حامياً جداً لدرجة أن الامبراطور قسطنطين قد تدخل شخصياً وطلب عقد مجمع مسكوني في نيقيا Nicaea (في تركيا الحديثة) لتسوية المسألة. واسم آريوس في يومنا هذا كلمة عابرة تطلق على الهرطقة. لكن عندما اندلع النزاع لم يكن هناك موقف عقيدتي رسمي من المسألة، وكان مؤكداً أن مسائل أخرى ستطرح مثل فيما إذا كان آريوس مخطئاً أم لا. ولماذا لم يكن في مطلبه شيء جديد: فأوريجين الذي كان يحظى بتقدير كلا الجانبين طرح معتقداً مماثلاً. مع ذلك كان المناخ الفكري في الاسكندرية قد تغير منذ عهد أوريجين، فلم يعد الناس مقتنعين بأن بالإمكان دمج إله أفلاطون بإله الانجيل بنجاح. فقد توصل آريوس والاسكندر وأثناسيوس إلى الإيمان باعتقاد مدهش حتى للأفلاطوني: لقد اعتبروا أن الله خلق العالم من عدم مستندين برأيهم هذا إلى الكتاب المقدس (في الحقيقة لا يرد هذا الاعتقاد في سفر التكوين). فالؤلؤ الكهنوتي كان يعني أن الله خلق العالم من عماء بدئي، وبذلك أصبحت فكرة أن الله خلق الكون كله من فراغ مطلق جديدة كل الجدة. كانت غريبة عن الفكر اليوناني، ولم يعلمها لاهوتيون من أمثال كليمنت وأوريجين اللذين التزما بمخطط الفيض الأفلاطوني. وفي القرن الرابع تبنى المسيحيون النظرة الغنوصية للعالم على أنه هش أصلاً وغير مكتمل، ومتفصل عن الله بهوة شاسعة. فالاعتقاد الجديد بالخلق من عدم كان يؤكد هذه النظرة الغنوصية إلى الكون. وأن العالم معتمد على الله في الوجود والحياة. فلم يعد الله والبشرية متشابهين كما كانا في الفكر اليوناني. فالله قد خلق كل كائن من لجة العدم، وفي أية لحظة باستطاعته أن يسحب يده الممددة بالحياة. لم يعد هناك سلسلة وجود عظيمة تفيض إلى الأبد من الله، وليس هناك عالم وسط من كائنات روحانية تنقل المانا الإلهية إلى العالم. لم يعد يوسع الناس صعود سلسلة الوجود إلى الله بجهودهم هم. فالله الذي خلقهم من العدم في المقام الأول وأبقاهم في الوجود إلى الأبد هو فقط الذي بإمكانه تأكيد خلاصهم الأبدي.

كان المسيحيون يعرفون أن يسوع المسيح قد أنقذهم بموته وقيامته. لقد خلصهم من الموت، وسوف يشاركون وجود الله الذي كان هو الوجود والحياة ذاتها ذات يوم. فقد مكنتهم المسيح بطريقة ما - من عبور الهوة التي كانت تفصل الله عن البشرية. كان السؤال هو: كيف قام الله بذلك؟ فلم يعد هناك عالم سماوي، مكان الكمال فيه وسطاء وأقانيم. فإن المسيح أو الكلمة كان ينتمي إلى مملكة الله التي أصبحت الآن مملكة الله وحده، أو أنه كان ينتمي إلى تراتب مخلوق هش. فقد وضع آريوس وأثناسيوس المسيح على الجانب المقابل من البرزخ: فقد وضعه أثناسيوس في العالم المقدس بينما وضعه آريوس في التراتب المخلوق.

أراد آريوس أن يؤكد على الفارق الأساسي بين الله المتفرد عن سائر مخلوقاته. فعندما كتب إلى الأسقف الاسكندر كان الله «الوحيد الذي لم يولد، الأزلي الوحيد، الواحد الأحد دون بداية، الحق وحده، الوحيد الذي له الخلود، الحكيم الوحيد، الخبير الوحيد، الحاكم الوحيد»^(٣). كان آريوس على دراية تامة بالكتاب المقدس فقدم درعاً من النصوص تدعيماً لرأيه بأن المسيح الكلمة هو مخلوق على شاكلتنا نحن. فهناك فقرة هامة كانت الوصف للحكمة الإلهية في الأمثال تقول بكل وضوح إن الله قد خلق الحكمة منذ البداية^(٤). ويقول النص إن الحكمة كانت سبب الخلق، وهذه فكرة تكررت في استهلال إنجيل يوحنا. كانت الكلمة مع الله في البداية:

من خلاله وجدت جميع الأشياء.

ما من شيء خلق إلا من خلاله^(٥).

كان اللوغوس هو الأداة التي استخدمها الله كي يدعو المخلوقات الأخرى إلى الوجود. ولذلك كان اللوغوس مختلفاً كلياً عن جميع الكائنات الأخرى وذا منزلة رفيعة استثنائية. لكن بما أن اللوغوس مخلوق من قبل الله فإن اللوغوس مختلف أساساً ومتميز عن الله نفسه.

أوضح القديس يوحنا أن يسوع كان هو اللوغوس، وقال أيضاً إن اللوغوس كان الله^(٦). مع ذلك لم يكن اللوغوس هو الله بحكم طبيعته، لكن الله رفعه إلى منزلة مقدسة. كان اللوغوس مختلفاً عنا جميعاً لأن الله خلقه مباشرة، وخلق الأشياء الأخرى كلها من خلاله. لقد رأى الله أنه عندما أصبح اللوغوس إنساناً فإنه سيطيعه تماماً فأصبح القداسة على يسوع مقدماً. لكن ألوهة يسوع لم تكن طبيعية له: بل كانت مكافأة أو هبة فقط. كان باستطاعة آريوس أن يقدم نصوصاً عديدة تدعم وجهة نظره. فحقيقة مثل أن يسوع نادى الله «أباه» تتضمن فارقاً بينهما. فالأبوة بطبيعتها تتضمن وجوداً سابقاً وتفقواً ما على الابن. أكد آريوس على تواضع وضعف المسيح مستنداً في ذلك إلى فقرات إنجيلية. لم يكن في نية آريوس أن يشوه سمعة يسوع كما زعم أعداؤه. كانت لديه فكرة بارعة عن فضيلة المسيح وطاعته حتى الموت الذي كان يؤكد خلاصتنا. كان إله آريوس قريباً جداً من إله الفلاسفة الإغريق، بعيداً ومتعالياً تماماً عن العالم، والترم أيضاً بمفهوم الخلاص اليوناني. فالرواقيون على سبيل المثال علموا دائماً أنه كان من الممكن لكائن بشري فاضل أن يصبح إلهياً، وكانت هذه النظرة أساسية أيضاً في النظرة الأفلاطونية. اعتقد آريوس متحمساً أن المسيحيين تم إنقاذهم وجعلوا مقدسين، وأنهم سيشاركون في طبيعة الله. فكان هذا ممكناً فقط لأن يسوع قد أضاء لنا طريقاً. لقد عاش حياة بشرية كاملة، وأطاع الله حتى الموت

على الصليب كما قال القديس بولص، وبسبب طاعته حتى الموت رفعه الله إلى مرتبة مجيدة وأعطاه القرب الإلهي الرب Lord^(٧). فلو لم يكن يسوع كائناً بشرياً لما كان لدينا أمل، ولما كان في حياته شيء ذو ميزة لو أنه كان الله في طبيعته، ليس فيه شيء بالنسبة إلينا كي نحاكبه. فمن طريق تأمل حياة المسيح من بنوة مطبوعة تماماً يصبح المسيحيون مقدسين أيضاً، فبمحاكاة المسيح المخلوق الكامل يصبح المسيحيون «مخلوقات كاملة لا يعثرها التغير ولا التحول»^(٨).

لكن كان لدى أثنانازيوس نظرة أقل تفاؤلاً بقدرة الإنسان تجاه الله. فرأى البشرية ضعيفة ضعفاً متأصلاً: لقد أتينا من الدم، وسقطنا في العدم عندما أخطأنا. فعندما تأمل الله خلقه:

رأى أن كل الطبيعة المخلوقة لو أنها تركت إلى قوانينها الخاصة لكانت في حالة تدفق ومعرضة للفناء. منعا لهذا، وحفاظاً على الكون من التفكك وأن يصبح لا وجوداً، صنع الله جميع الأشياء من خلال اللوغوس الأبدي الخاص به. وأنعم على الخلق بالوجود^(٩).

فمن طريق المشاركة في الله فقط أي عبر لوغوسه الخاص - يستطيع الإنسان تجنب العدم، لأن الله وحده كان الوجود الكامل. فلو كان اللوغوس مخلوقاً حساساً سريع العطب فلن يكون قادراً على إنقاذ البشر من الفناء. لقد يجعل اللوغوس جسداً كي يعطينا الحياة. لقد نزل من عالم الموت والتحلل كي يمدنا بمشاركة في خلود وعدم تأثر الله. ولكان هذا الخلاص محالاً لو كان اللوغوس مخلوقاً ضعيفاً يستطيع أن ينزل عائداً إلى العدم. فالله الذي خلقه فقط باستطاعته إنقاذه، وذلك يعني - أن المسيح أي اللوغوس الذي اكتسب جسداً - لا بد أن يكون من طبيعة الآب ذاتها. فكما قال أثنانازيوس أصبحت الكلمة إنساناً كي يكون باستطاعتنا أن نصبح مقدسين^(١٠).

عندما انعقد مجلس الأساقفة في نيقيا في ٢٠ أيار سنة ٣٢٥ م لحسم هذه الكارثة لم توافق سوى قلة ضئيلة على رأي أثنانازيوس بالمسيح. وتبنى معظمهم موقفاً وسطاً بين أريوس وأثنانازيوس. مع ذلك تمكن أثنانازيوس من فرض لاهوته على المجتمعين، ولم يرفض التوقيع على هذا الرأي سوى أريوس واثني من رفاقه الشجعان علماً أن أنفاس الامبراطور كانت تصل حتى أعناق المندوبين. وهكذا أصبح الخلق من العدم عقيدة مسيحية رسمية لأول مرة، مشددة على أن المسيح لم يكن مجرد مخلوق أو أقنوم. فالخالق والمخلص كانا واحداً.

— نحن نؤمن بإله واحد — الآب القدير، خالق جميع الأشياء المادية واللامادية، وإله واحد — يسوع المسيح، ابن الله. الابن الوحيد المولود من الله. أي هو من مادة الآب نفسها. إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود وليس مخلوقاً. من مادة واحدة — من مادة واحدة هي مادة الآب. الذي من خلاله خلقت جميع الأشياء، الأشياء الموجودة في السماء، وتلك الأشياء الموجودة على الأرض. الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا هبط وغرق إنساناً تمذهب، قام ثانية في اليوم الثالث، وصعد في السماوات، وسوف يأتي كي يحاكم الأحياء والأموات، وأنا نؤمن بالروح القدس^(١١).

أدخلت هذه الموافقة السرور إلى قلب الامبراطور قسطنطين الذي لم يكن لديه أدنى فهم بالقضايا اللاهوتية. لكن لم يكن في نيقيّا لإجماع. فبعد أن انفض المجلس استمر كل أسقف يعلم ما كان يعلمه من قبل واستمرت الأزمة الأيروسية (نسبة إلى أريوس) ستين سنة أخرى. رد أريوس وأتباعه بهجوم مضاد تمكنوا بالفوز برعاية امبراطورية، بينما نفى أثناسيوس ما لا يقل عن خمس مرات. كان صعباً جداً أن يجعل معتقده راسخاً. فكلمة Homoousion تعني حرفياً (مصنوع من المادة نفسها) كانت جدلية جداً لأنها لم ترد في الكتاب المقدس، ولها معنى مادي. وبذلك فإن قطعتي نقود نحاسيتين كان بالإمكان القول عنهما إنهما Homoousion لأنهما مصنوعتان من المادة نفسها. زد على ذلك فقد أثار معتقد أثناسيوس أسئلة هامة كثيرة. قال إن يسوع كان إلهاً لكنه لم يشرح كيف يكون اللوغوس «من المادة نفسها» مادة الآب، دون أن يكون إلهاً ثانياً. وفي عام ٣٣٩ ظهر مارسيلوس أسقف أنسييرا Ancyra - صديق وزميل أثناسيوس والذي نفى معه في إحدى المرات. جادل مارسيلوس بأن اللوغوس لا يمكن أن يكون وجوداً إلهياً أبدياً: لقد كان صفة فقط أو قدرة كامنة ملازمة داخل الله. فبالإمكان إتهام الصيغة النيقية - كما كانت - بالتثليث، أي الاعتقاد بوجود ثلاثة آلهة: الآب، الابن والروح. فبدلاً من الكلمة Homoousion مثار الجدل اقترح مارسيلوس كلمة تسوية هي homoiousion أي من طبيعة ماثلة أو مشابهة.

أثارت طبيعة هذا النقاش المتلوية السخرية في أغلب الأحيان، وبخاصة من قبل غيبون Gibbon الذي وجد من السخف أن يهدد حرف نصف صوتي الوحدة المسيحية. والأمر الهام هو استمرار المسيحيين بعتاد في فهمهم ألوهة المسيح، على الرغم من الصعوبة الكبيرة في صياغة ذلك في كلمات مفهومة. فقد شعر مارسيلوس وآخرون كثر بالقلق

الناجم عن تهديد موجه إلى الوحدة الإلهية. فقد اعتقد مارسيلوس - كما يبدو - أن اللوغوس كان مظهراً عابراً فقط: انبثق من الله عند الخلق، وأصبح مجسداً في يسوع، وعند اكتمال الخلاص سيدوب عائداً إلى الطبيعة الإلهية وبذلك يكون الله الواحد الكل في الكل.

تمكن أثناسيوس من إقناع مارسيلوس وتلاميذه في نهاية المطاف بأن يجمعوا قواهم لأن قواسمهم المشتركة فيما بينهم أكثر من قواسمهم مع أنصار أريوس، هؤلاء الذين قالوا ان اللوغوس كان من طبيعة الآب نفسها، وأنه كان مماثلاً في طبيعته لطبيعة الآب كانوا وأخوة، يعنون ما يعنون، ويتخاصمون على مفردات لغوية^(١٢). فالأولوية هي معادة أريوس الذي أعلن أن الابن كان مختلفاً تماماً عن الله ومن طبيعة مختلفة أساساً. ويبدو هذا الجدال لشخص من الخارج مضجعة للوقت: لم يكن باستطاعة امرئ إثبات أي شيء بالتحديد بشكل أو بآخر. واتضح أن الجدال كان يؤدي إلى مزيد من الانقسام فحسب. وكان المشاركون يرون أن هذا النقاش الذي يتمحور حول طبيعة المعرفة المسيحية غير مثمر. كان أريوس وأثناسيوس ومارسيلوس مقتنعين بأن شيئاً جديداً قد أتى إلى داخل هذا العالم مع يسوع، فكانا يكافحون من أجل إيضاح هذه التجربة برمز مفهومية بشرحونها لأنفسهم وللآخرين. فالكلمات لا يمكن أن تكون إلا رمزية لأنه لم يكن بالإمكان وصف الحقائق التي توصلوا إليها. ولسوء الحظ كان هناك عدم تسامح دوغمائي يتسلل إلى المسيحية، سيجعل تبني الشيء الصحيح أو الرموز الأرثوذكسية أمراً حاسماً وإلزامياً. كان هذا الهاجس المعتقد فريداً في المسيحية، فقد أدى وبكل بساطة إلى نوع من الخلط بين الرمز البشري والحقيقة الإلهية. فالمسيحية كانت دائماً دين النقائص: فقد تغلبت التجربة الدينية القوية لدى المسيحيين الأوائل على اعتراضاتهم الإيديولوجية، وتوجت بفضيحة المسيح المنتظر المصلوب. ففي نيقيا اختارت الكنيسة الوقوف إلى جانب مفارقة التجسيد على الرغم من عدم انسجامها الظاهري مع الوحدةانية.

حاول أثناسيوس في كتابه /حياة أنطون/ هذا الزهد الصحراوي الشهير أن يبين كيف أثر معتقده الجديد على الروحانية المسيحية. فأنطون المعروف بأنه أب الحياة الرهبانية عاش حياة صارمة مرعبة في الصحراء المصرية. مع ذلك نجد في /أقوال الآباء/ المجهولة المؤلف بديهيات لربان الصحراء الأرائل: نجده يظهر إنساناً حساساً وإنسانياً، متبرماً من الضجر، متأملاً في المشاكل البشرية، ويقدم نصيحة مباشرة بسيطة. وفي سيرة حياته يقدمه

أنا زيرس في ضوء مختلف تماماً. فعلى سبيل المثال نراه متحولاً إلى خصم متحمس ضد ما دعا إليه أيروس. وقد بدأ مسبقاً يتمتع بطعم تأليهه المستقبلي لأنه يشترك مع الله في طبيعته إلى درجة كبيرة. فعلى سبيل المثال عندما قام من القبر حيث أمضى عشرين سنة يصارع الشياطين يقول أنا زيرس انه لم تظهر على جسد أنطون أمارات الشيوخة. لقد كان مسيحياً كاملاً، ووضعه هدوءه وعدم تأثره في معزل عن الناس الآخرين: «كانت روحه غير مشوشة، ومظهره الخارجي ينم عن الهدوء»^(١٣). لقد حاكى المسيح بشكل كامل. فكما اكتسى اللوغوس لحماً ونزل إلى العالم الثاني وحارب قوى الشر كذلك نزل أنطون إلى مستقر الشياطين. فلا يذكر أنا زيرس التأمل أبداً، هذا التأمل الذي كان بالنسبة إلى المسيحيين الأفلاطونيين مثل كلمينت وأورجين السبيل إلى التأله والخلص. فلم يعد ممكناً للفائزين أن يصعدوا إلى الله بهذه الطريقة من خلال قدراتهم الطبيعية. بدلاً من ذلك يجب على المسيحيين أن يقلدوا نزول الكلمة التي اتخذت جسداً إلى العالم المادي الفاسد.

كان المسيحيون مايزالون مربكين: فإذا كان هناك إله واحد فقط، فكيف يكون اللوغوس إلهاً أيضاً؟ ظهر أخيراً ثلاثة لاهوتيين في كايا دوسيا في شرقي تركيا هم: باصيل أسقف قيصرية Caesarea (٣٢٩ - ٣٧٩) وأخوه الأصغر غريغوري أسقف نيسا Nyssa (٣٣٥ - ٣٩١)، وصديق لهما هوزريغوري نازيا نزوس (٣٢٩ - ٣٩٥) فأطلق عليهم اسم الكايا دوسيون، كانوا روحانيين حتى أعماقهم. كانوا يجدون متعة كبيرة بالتأمل والفلسفة، لكنهم كانوا مقتنعين أن التجربة الدينية وحدها بإمكانها أن تقدم المفتاح لمسألة الله. وكانوا مدرسين في ميدان الفلسفة الإغريقية، ومدرسين تماماً للفارق الخامس بين المضمون الحقيقي للحقيقة ومظاهرها الوهمية، وقد لفت العقلايون الإغريق الأوائل الانتباه إلى هذا الفارق. فقد قارن أفلاطون الفلسفة (التي يتم التعبير عنها بكلمات العقل، فكانت بذلك قادرة على البرهان) بالتعليم الذي لا يقل أهمية والذي تنقله إلينا الميتولوجيا فيراوغ التفسير العلمي. فقد رأينا أن أرسطو قد أقام فارقاً مماثلاً عندما أشار إلى أن الناس كانوا يحضرون أديان الخفايا لا ليتعلموا أي شيء بل كي يخبروا شيئاً ما. وقد عبر باصيل عن هذه النظرة ذاتها في معنى مسيحي عندما أقام فارقاً بين الدوغما Dogma وكيريغما Kerygma وكتأملها أساسية في الدين. فالكيريغما هي التعليم العام الذي تقوم به الكنيسة والمبني على الكتاب المقدس. وتحمل الدوغما المعنى الأعمق للحقيقة الإنجيلية التي بالإمكان فهمها عن طريق التجربة الدينية فقط، ويعبر عنها في شكل رمزي. فإلى جانب رسالة الإنجيل الواضحة هناك تراث سري يتم نقله من الرسل «في شكل سري»، فكان هذا «تعليم سري وخاص».

الذي صانه آباؤنا المقدسون في صمت يمنع القلق والفضول... بحيث يصون هذا الصمت الطابع المقدس للسِر. فلا يسمح لغير المدخلين الاطلاع على هذه الأشياء: ويجب ألا يفشى معناه عن طريق كتابته. لقراء الرموز المقدسة وتعاليم يسوع المشرقة هناك دوغما سرية تمثل لهما للدين أكثر تطوراً^(١٤).

الفارق بين الحقيقة الخفية والخارجية سيكون ذا أهمية كبيرة في تاريخ الله. ولن يقتصر هذا الفارق على اليونانيين والمسيحيين بل سيشمل اليهود والمسلمين فيطورون تراثاً سرياً. ففكرة معتقد «سري» لم يكن يعني منع الناس من الحصول عليه. لم يكن باصبل يتحدث عن شكل مبكر من ماسونية حرة. إنه كان يلفت الانتباه إلى الحقيقة القائلة بأنه ليس ممكناً التعبير عن جميع الحقائق الدينية أو تعريفها بوضوح وبشكل منطقي. فبعض الرؤى كان لها رنين داخلي يمكن أن يفهمه كل فرد في عصره الخاص أثناء ما أسماه أفلاطون التأمل. فطالما أن الدين كله كان موجهاً نحو حقيقة لا يمكن وصفها تقع خارج مجال المفاهيم العادية، فإن الكلام سيكون محدوداً ومربكاً. فإذا لم يروا هذه الحقائق بين الروح فإن الناس الذين ليس لديهم خبرة كبيرة قد يفهمون الفكرة بشكل خاطئ تماماً. فبالإضافة إلى المعنى الخرفي للنصوص المقدسة فإن لها أيضاً معنى روحياً ليس سهلاً لإيضاحه دائماً. فقد أشار بوذا كذلك إلى أن أسئلة محددة كانت «غير لائقة» أو «غير ملائمة» لأنها تشير إلى حقائق تقع خارج ما يمكن أن تصل إليه الكلمات. إنك ستكتشفها فقط بالمرور بأساليب استبطانية تأملية: بمعنى أن عليك أن توجدتها بنفسك. ومن المحتمل أن محاولة وصفها هو مجرد عرض مزخرف لإحدى رباعيات بيهوفن الأخيرة. فكما قال باصبل إن هذه الحقائق الدينية المراوغة بالإمكان الإحياء بها عبر إشارات رمزية في القربان المقدس أو عبر الصمت وهذا أفضل^(١٥).

ستغدو المسيحية الغربية ديناً أكثر ميلاً نحو الثروة وستركز على الكيريغما وتشكل هذه واحدة من مشكلاتها الأساسية مع الله. وفي الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، سيغدو كل لاهوت جيد صامتاً أو سكوتياً. فكما قال غريغوري النياسي إن كل مفهوم عن الله هو مجرد صورة شبه زائفة، صتم: ليس باستطاعته الكشف عن الله ذاته^(١٦). يجب على المسيحيين أن يكونوا مثل إبراهيم الذي وضع جميع الأفكار عن الله جانباً واعتنق ديناً «غير خلط» وخالياً من أي مفهوم^(١٧). شدد غريغوري في كتابه /حياة موسى/ على «أن الرؤيا والمعرفة الحققة التي نسعى إليها تتكون بدقة من عدم الرؤية، في وعي منا أن غايتنا تتجاوز كل معرفة، وفي كل مكان تنقطع عنا بظلمة كونه عصياً على الفهم»^(١٨) لا نستطيع أن

نرى الله فكراً لكن إذا سمحنا لأنفسنا أن تغلفنا السحابة التي نزلت على قمة سيناء فإننا سنشعر بحضوره. لقد عاد باصبل إلى الفارق الذي أقامه فيلون بين جوهر الله وقدرته في العالم: «نحن نعرف ربنا عن طريق قدراته فقط، لكننا لا نحتمل الاقتراب من جوهره»^(٩٦). وهله ستكون فكرة أساسية في كل اللاهوت المستقبلي في الكنيسة الشرقية.

كان الكابادوسيون تواقين أيضاً إلى تطوير فكرة الروح القدس التي شعروا أنها قد عولجت بطريقة روتينية في نيقيا: «ونحن نؤمن بالروح القدس» بدت أنها أضيفت إلى مذهب أثنانازيوس كفكرة لاحقة. بينما كان الناس مربكين حول الروح القدس، فهل كان - ببساطة - مرادفاً لله أم أنه شيء أكثر من ذلك؟ فكما أشار غريغوري نازيانزوس «فهم بعضهم الروح كقدرة، وبعضهم فهمها ك مخلوق، وبعضهم الآخر على أنها الله، وآخرون ليسوا متأكدين مما سيسمونه»^(٩٧). تحدث القديس بولس عن الروح القدس على أنه متجدد خالقاً ومقدساً، لكن هذه القدرات لا يمكن أن يقوم بها إلا الله. نجم عن ذلك أن الروح القدس الذي قيل ان حضوره داخلنا هو خلاصنا لا بهد أن يكون إلهاً وليس مجرد مخلوق. وقد استخدم الكابادوسيون صيغة استخدمها أثنانازيوس في نزاعه مع أيروس: الله كان له جوهر واحد بقي عصياً على فهمنا، لكن ثلاثة تعبيرات جعلته معروفاً. بدلاً من البدء بمناقشتهم لله بطبيعته العنسية على الفهم بدأ الكابادوسيون بتجربة البشر مع تعبيراته الثلاثة. فيما أن جوهر الله غير قابل للوصف فإننا نستطيع أن نعرفه من تلك المظاهر التي تجلت لنا: الأب، الابن والروح. فهذا لا يعني أن الكابادوسيين لم يكونوا مؤمنين بكائنات مقدسة ثلاثة كما تخيل بعض اللاهوتيين الغربيين. فكلية Hypostasis كانت مربكة لغير الملمين باللغة اليونانية لأن لها معاني عديدة. فقد اعتقد بعض اللاهوتيين مثل القديس جيروم أنها تحمل المعنى نفسه الذي تحمله كلمة Ousia (الجوهر)، وكان اليونانيون يؤمنون بجواهر مقدسة ثلاثة. لكن الكابودسيين شددوا على وجود فارق هام بين الكلمتين ببني أن نضعه في اعتبارنا. وبذلك فإن جوهر مادة ما هو الذي جعل شيئاً ما على ما هو عليه، وكان يطلق عادة على مادة كما كانت داخل ذاتها. وبالمقابل كان كلمة Hypostasis تستخدم لتعني مادة منظوراً إليها من الخارج. وأحياناً كان الكابادوسيون يفضلون استخدام كلمة Prosdon بدلاً عنها. فكلية Prosdon كانت أصلاً تعني قوة لكنها اكتسبت عدداً من المعاني الثانوية: فقد تشير إلى ملامح وجه شخص ما؛ أي تصويراً خارجياً لحالته العقلية، واستخدمت كذلك لتعني دوراً يتناهى شخص عن وعي، أو شخصية أراد أن يلعب دورها. وبالتالي فإن كلتا الكلمتين كانت تعنيا التعبير الخارجي للطبيعة الداخلية لشخص ما أو الذات الفردية كما رأها مشاهد. وهكذا عندما قال الكابادسيون إن الله كان جوهرًا

واحداً في تعبيرات ثلاثة إنما كانوا يعنون أن الله كما هو في ذاته كان واحداً: كان هناك وعي ذاتي إلهي وحيد. لكن عندما يسمح أن ترى مخلوقاته شيئاً ما من ذاته فإنه ثلاثة تعبيرات.

وهكذا فإن التعبيرات الآب، الابن، والروح ينبغي ألا تُعرف بالله ذاته لأن - كما شرح غريغوري النياسي «جوهر الطبيعة الإلهية لا اسم له، ولا يمكن الحديث عنه. وكلمات الآب والابن والروح هي مجرد كلمات نستخدمها لتحدث عن القدرات التي عرف الله بها عن نفسه»^(٢١). مع ذلك فهذه الكلمات ذات قيمة رمزية لأنها تترجم الحقيقة التي لا توصف إلى صور يمكننا فهمها. لقد عرف البشر الله على أنه متعال (الآب) مخبأ في نور لا يوصف، وكمبدع (اللوغوس)، وكفيض (الروح القدس). لكن هذه التعبيرات هي جزئية فقط، ولحات ناقصة للطبيعة الإلهية ذاتها التي تقع بعيداً جداً خارج كل مجاز ولغة مفهومية^(٢٢). ولذلك فإن الثالوث يجب ألا يُرى كحقيقة فعلية بل كمثال مقابل لحقائق فعلية في حياة الله المستمر.

فقد لخص غريغوري في رسالته إلى ألابيوس: أنه لا توجد ثلاثة آلهة/ معتقده الهام بعدم الفصل أو التلازم بين الشخص أو التعبير المقدسة الثلاث. ينبغي ألا يفكر المرء أن الله شق نفسه إلى ثلاثة أجزاء فذلك فكرة غروتسك «زخرفة»، وفي الحقيقة تجديف. فقد عبر الله عن ذاته كلياً في كل من هذه التعبيرات الثلاثة عندما أراد أن يكشف عن ذاته للعالم. وهكذا يعطينا الثالوث علامة للنموذج (لكل عملية تمتد من الله إلى الخلق): فكما يبين الكتاب المقدس أن أصل النموذج في الآب، وينتقل عبر قدرة الابن، ويصبح فعالاً في العالم عن طريق فيض الروح. لكن الطبيعة الإلهية حاضرة كذلك في كل مظهر من العملية. ففي خبرتنا نستطيع أن نرى التداخل غير المستقل لهذه التعبيرات الثلاث: فلما كنا عرفنا أهدأ الآب لو لم يكن تجلياً للابن، ولا التعرف على الابن دون الروح المستقرة فيه الذي يجعله معروفاً لنا. فالروح يرافق كلمة الآب المقدسة تماماً كما يرافق التقدس الكلمة التي ينطقها الإنسان. فالشخص الثلاث لا توجد جنباً إلى جنب في العالم المقدس. نستطيع مقارنتها بوجود ميادين مختلفة من المعرفة في عقل الفرد. فالفلسفة قد تكون مختلفة عن الطب لكنها لا تستقر في عالم منفصل من الوعي. فالعلوم الثلاثة ينتشر كل منها في الآخر، تملأ العقل بأكمله ومع ذلك تبقى متميزة عن بعضها^(٢٣).

وأخيراً فالثالوث له معنى فقط كتجربة صوفية أو روحية: ينبغي أن تعاش هذه التجربة، وألا نفكر بها لأن الله قد مضى بعيداً خارج نطاق المفاهيم البشرية. فالثالوث لم

يكن صياغة منطقية أو فكرية بل مثلاً تخيلياً يدحض العقل. فقد أوضح غريغوري نازيانزوس هذا عندما شرح أن تأمل الثلاثة في واحد يحرض انفعالاً عميقاً وغامراً كان يدحض الفكر والوضوح الفكري:

وما أن أنصوّر الواحد حتى يشرق عليّ بهاء (الثلاثة)،
وما أن أميز الثلاثة حتى أخفّل خلفاً في (الواحد).
عندما أفكر في أي من (الثلاثة)، أفكر به على أنه الكل فثملاً عني.
والجزء الأكبر مما أفكر به يهرب مني^(٢٥).

ما يزال المسيحيون اليونانيون والروس الأرثوذكسيون يجدون أن التأمل في الثالوث هو تجربة دينية ملهمة. بينما الثالوث بالنسبة لكثير من المسيحيين الغربيين مربك. وهذا أمر ممكن لأن الغربيين يأخذون بما أسماه الكاثوليكون التعبيرات الكيرغماتك، بينما أسماها اليونانيون حقيقة دوغمائية يمكن فهمها عن طريق الحدس فقط، وكنيجة لتجربة دينية. وبالطبع لم يكن لها أي معنى منطقي. ففي موعظة سابقة شرح غريغوري استعصاء معتقد الثالوث على الفهم يجعلنا في مواجهة السر المطلق لله، ويذكرنا بأنه ينبغي ألا يكون لدينا أمل في فهمه^(٢٥). يجب أن يمتنعنا من الإدلاء بأقوال سطحية حول الله الذي يستطيع أن يبر عن طبيعته بطريقة لا توصف عندما يكشف عن ذاته. حزننا باصبل كذلك من أن نتخيل أن باستطاعتنا معرفة الطريقة التي يعمل بها الثالوث: لم يكن مستحسنًا - مثلاً - أن نحاول تخمين كيف أن التعبيرات الثلاثة للرؤية كانت واحدة، ومتميزة عن بعضها ومتطابقة في الوقت ذاته. فهذا يقع خارج نطاق الكلمات والمفاهيم وقدرات البشر على التحليل^(٢٦).

ينبغي ألا يفسر الثالوث بطريقة واقعية. إنها ليس نظرية عويصة بل هي نتيجة التأمل. فعندما أريك هذا الاعتقاد المسيحيين في الغرب خلال القرن الثامن عشر، وحاولوا التكهّن به إنما كانوا يحاولون جعل الله عقلاً وممكنًا فهمه في عصر العقل ذلك. فكانت هذه الحالة إحدى العوامل التي أدت إلى ما يسمى موت الله في القرنين التاسع عشر والعشرين كما سنرى لاحقاً. أحد الأسباب التي حدثت بالكاثودوسيين إلى تطوير هذا النموذج كان منع الله من أن يصبح عقلاً كما كان في الفلسفة اليونانية، وكما فهمه هراطقة من أمثال أيروس. فلاهرت أريوس كان واضحاً ومنطقياً. فالثالوث كان يذكر المسيحيين بأن الحقيقة التي نسميها الله لا يمكن فهمها عن طريق الفكر البشري. وعقيدة التجسيد كما تم التعبير عنها في نيقيا كانت هامة، لكن كان ممكناً أن تؤدي إلى صنمية ساذجة. فقد يبدأ الناس التفكير بالله ذاته على أنه بشر: ومن الممكن أن نتخيله يفكر ويتصرف ويخطط مثلاً. ومن

هنا لم يتبق إلا خطوة قصيرة كي ننسب جميع أنواع الآراء للتحيزة إلى الله وبذلك نجعلها مطلقة. فالثالوث كان محاولة لتصحيح هذا الميل. فبدلاً من رؤية الثالوث كقول حقيقة عن الله ربما ينبغي أن نراه قصيدة أو رقصة ثيولوجية بين ما يعتقده ويقبله مجرد بشر فاني عن الله، والإدراك الذكي بأن أي قول كهذا أو كيرغما قد يكون شرطياً فقط.

الفارق بين الاستخدام اليوناني والغربي لكلمة نظرية هو فارق ثقافي. ففي المسيحية الشرقية تعني كلمة Theoria التأمل دائماً. أما في الغرب فقد أصبحت تعني فرضية عقلانية ينبغي شرحها منطقياً. فتطوير نظرية عن الله كان يعني أن بالإمكان احتواء الله في نظام فكري بشري، فاجتماع نيقيا لم يضم إلا ثلاثة لاهوتيين لاثين فقط. فمعظم المسيحيين الغربيين لم يكونوا أكفاء لدخول هذا المستوى من النقاش، وما أنهم لم يفهموا بعضاً من المفردات اليونانية فقد شعر الكثيرون بعد الرضا عن معتقد الثالوث، ولربما لم يكن قابلاً للترجمة إلى مصطلح آخر «فكل ثقافة ينبغي عليها أن تخلق الفكرة الخاصة بها عن الله. فلو وجد الغربيون التفسير اليوناني للثالوث غريباً عنهم لكانوا صاغوا تفسيراً خاصاً بهم».

فاللاهوتي اللاتيني الذي عوف الثالوث للكنيسة اللاتينية هو أوغسطين الذي كان أفلاطونياً متحمساً، وموالياً لأفلوطين، ولذلك كان متحرراً من هذا المعتقد اليوناني أكثر من بعض زملائه الغربيين. فكما شرح فإن سوء الفهم كان في أغلب الأحيان يعزى إلى المصطلحات الفنية.

من أجل وصف أشياء لا توصف قد يكون باستطاعتنا أن نمر بطريقة ما عما لسنا قادرين على التعبير عنه تماماً بأية طريقة. فقد تحدث أصدقاؤنا اليونانيون عن جوهر واحد وثلاث تعبيرات، بينما تحدث اللاتين عن جوهر واحد أو تعبير واحد وثلاثة شخوص^(٢٧).

فبينما قارب اليونانيون الله بتناول هذه التعبيرات الثلاث، ورافضين تحليل وحدانيته وجوهره غير المعروفين، نجد أوغسطين شخصياً والمسيحيين الغربيين من بعده قد بدأوا بالوحدة الإلهية ثم شرعوا في مناقشة مظاهرها الثلاثة. كان المسيحيون اليونانيون يجولون أوجسطين ويرون فيه أحد آباء الكنيسة العظام، لكنهم كانوا يشكون في لاهوته التثليسي لأنهم شعروا أنه جعل الله يبدو عقلياً لدرجة كبيرة، ومتحولاً إلى شكل بشري. لم تكن مقارنة أوجسطين ميتافيزيقية - مثل مقارنة اليونانيين لهذا الموضوع - بل كانت سيكولوجية وشخصية جداً.

بالإمكان تسمية أوغسطين مؤسس الروح الغربية، فما من لاهوتي كان له نفس التأثير كأوغسطين في الغرب، عدا القديس بولس. إننا نعرفه بدقة أكثر مما نعرف أي مفكر آخر من الفترة القديمة وذلك بسبب /اعترافاته/ التي هي عرض بليغ وعاطفي لاكتشافه الله. فقد سعى منذ السنوات الأولى من حياته إلى دين توحيدى، فقد رأى أن الله أمر أساسي للبشرية. فكما يخاطب الله في مطلع اعترافاته: «لقد خلقتنا من أجل نفسك، ولن ترتاح قلوبنا حتى تستقر فيك»^(٢٨). اعتنق المانشية Manichesim بينما كان يعلم البلاغة في قرطاجة، وهذه عبارة عن شكل من أشكال الغنوصية من بلاد الرافدين، لكنه تخلى عنها في النهاية بعد أن وجد أن نظرتها الكونية لم تكن مقنعة. كما وجد فكرة التجسيد خاطئة وتدنيها لفكرة الله. وأثناء وجوده في إيطاليا تمكن أمبروس - أسقف ميلانو - من إقناعه بأن المسيحية لم تكن تتسجم مع أفلاطون وأفلوطين. مع ذلك كان أوغسطين متردداً في قبول التعميد كخطوة أولى. لقد شعر أن المسيحية كانت تستدعي أن يظل عازباً، وكان كارهاً لاتخاذ تلك الخطوة: «رب أعطني العفة، لكن ليس الآن» كما كان يدعو^(٢٩).

كان اعتناقه المسيحية موضوعاً لحركة شتورم أند درانغ Sturm and Drang حركة أدبية ألمانية في أواخر القرن الثامن عشر تميزت بالثورة على حركة التنوير الفرنسية والحقاكة الألمانية لها، فكان تحولها إلى المسيحية تحولاً عنيفاً وولادة جديدة مؤلمة، فكانت بذلك سمة مميزة للتجربة الدينية الغربية. فذات يوم بينما كان جالساً مع صديقه أليبيوس في الحديقة في ميلانو أتى الصراع إلى رأسه؟

فمن أغوار دفينية رفع نحر للذات عميق، كومة من يؤسي
ووضعها أمام عين قلبي.

وذلك دفع عاصفة هائلة حاملة معها دموعاً ملرارة
أن أذرفها مع تأوهات مرافقة. نهضت من جانب أليبيوس
(بدت لي العزلة أكثر ملائمة للبكاء)..

ألقيت نفسي تحت شجرة تين، وتركت دموعي تتساب بحرية.
أنهار تدلقت من عيني. أضحية مقبولة لك.

ومع أنني لست في هذه الكلمات. فقد قلت لك مراراً بهذا المعنى:
«إلى متى أيها الرب، إلى متى ستكون غاضباً إلى الحد الأقصى؟»^(٣٠).

الله لم يأت بسهولة دائماً إلينا في الغرب. فاعتناق أوغسطين المسيحية يبدو مثل إزالة عقيدة سيكولوجية، يسقط بعدها المؤمن منهكاً بين ذراعي الله، وقد صرف كل عاطفته. فبينما كان أوغسطين يستلقي باكياً على الأرض سمع فجأة صوت طفل في منزل

مجاور ينشد العبارة Tolle Lage «أي التقط واقراً، التقط واقراً»، فاعتبرها أوغسطين نبوءة قفز واقفاً على قدميه واندفع عائداً إلى صديقه المندهب الذي طال عذابه، وخطف منه العهد الجديد، ثم فحه على كلمات القديس بولص إلى الرومان: «لا في البطر والسكر، ولا بالمضاجع والمهر لا بالخصام والحسد، بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات» وبذلك انتهى الصراع الطويل. «لم أكن أود أن أقرأ المزيد، ولم تكن هناك حاجة لفعل ذلك» كما تذكر أوغسطين. «فمع الكلمات الأخيرة في هذه الجملة وكان نور خلاص من كل القلق غمر قلبي، تبهدت كل الشكوك»^(٣١).

قد يكون الله أيضاً مصدر سرور: فلم يكن قد مضى وقت طويل على إيمان أوغسطين عندما مر بحالة نشوة ذات ليلة مع أمه مونيكا في أوستيا على نهر التير. وستناقش هذه القصة بشكل مفصل في الفصل السابع. فكون أوغسطين أفلاطونياً فقد كان يعرف أن الله موجود في العقل. وفي الفصل العاشر من /الاعترافات/ ناقش مقدرة أسماها الذاكرة، فهي أكثر تعقيداً من المقدرة على التذكر، وأقرب إلى ما يسميه علماء النفس «اللاشعور». إن الذاكرة كانت بالنسبة إليه الشعور واللاشعور وتعقدها وتنوعها ملأه حيرة. لقد كانت «سراً يوحى بالرهبة»، عالم من الصور لا يسير غوره، ووجودات ماضينا وسهول وكهوف لا تحصي^(٣٢). فقد نزل أوغسطين عبر هذا العالم الداخلي كي يجد الله الذي كان في داخله وفوقه هو في أن يوحى بالتناقض. فليس من المستحسن البحث عن إثبات أو برهان لله في العالم الخارجي. فبالإمكان اكتشافه في عالم العقل الواقعي فقط:

أحييتك متاعراً أيها الجمال المفرق في القلم والجديد في آن.
متاعراً أحييتك، وانعمست حائتي الكنية في تلك الأشياء
الجميلة التي خلقتها. لقد كنت معي ولم أكن معك. الأشياء الجميلة
أبقتي بعيداً عنك، فإذا لم يكن وجودها فيك فليس لها وجود على
الإطلاق^(٣٣).

ولذلك لم يكن الله واقعاً موضوعياً بل حضوراً روحياً في الأعماق المعقدة للذات. فأوغسطين لا يشارك أفلاطون وأفلاطون في رؤيته هذه فحسب بل يشارك البوذيين والهندوس والشامان في الأديان غير التوحيدية. مع ذلك فإنه لم يكن إلهاً غير شخصي بل إلهاً شخصياً جداً مستمداً من التراث اليهودي - المسيحي. فقد تطف الله على ضعف الإنسان ومضى بحثاً عنه.

لقد ناديت وصرخت عالياً فحطمت صممي. لقد كنت مشعاً متألقاً،

فأذهبت العمى عن عيني. كنت عبقاً وأنا استشق أنفاسي، والآن
الهُت ورائك. لقد ذقتك، فلا أشعر إلا بالجوع والظما إليك.
لقد لمستني، وأنا على نار كي أبغ السكينة التي كانت مسكنك^(٣٥).

لا يرى اللاهوتيون اليونانيون عادة تجاربهم الشخصية في مؤلفاتهم اللاهوتية، لكن
لاهوت أوغسطين نبع من قصته الفريدة جداً.

قاد افتتان أوغسطين بالعقل إلى تطوير نظريته التثليثية النفسية في كتيب /الثالث/
الذي كتبه في مطلع القرن الخامس. فيما أن الله خلقنا على صورته لذلك ينبغي أن نكون
قادرين على فهم الثالث في أعماق عقولنا. فبدلاً من البدء بالتجريد الميتافيزيقي والفوارق
العقلية التي عرف بها اليونانيون بدأ أوغسطين استكشافه بلحظة صدق لا بد أن خبرها
معظمنا. فعندما نسمع عبارات مثل «الله نور» أو «الله هو الحق» فإننا نشعر غريزياً بجمعة
روحية متسارعة، ونشعر أن الله يعطي لحيواتنا معنى وقيمة. لكننا نسقط بعد هذه الإشرقة
اللحظية إلى الخلف في الإطار العادي لعقولنا، عندما تسيطر علينا «الأشياء المعتادة والأشياء
الدنيوية»^(٣٦). فمهما حاولنا لن نستطيع أن نمسك ثانية بتلك اللحظة من التوق الذي لا
يمكن التعبير عنه. فالعمليات الفكرية العادية لا يمكنها مساعدتنا. فبدلاً من ذلك يجب أن
نصغي إلى «ما يعنيه القلب» ببارات مثل «هو الحق»^(٣٧). لكن هل بالإمكان أن نحس
حقيقة لا نعرفها؟ يضي أوغسطين ليين أنه مادام هناك ثالث في عقولنا يعكس صورة الله
- مثل أية صورة أفلاطونية - فإننا نحن إلى نمطنا البدني، النموذج الأصل الذي خلقنا عليه.

فإن نبدأ تأمل العقل محباً ذاته فإننا لا نجد ثالثاً بل ثنائية: الحب والعقل. لكن مالم
يكن العقل مدركاً لذاته - أي ما نسميه وحي الذات - فلن يستطيع أن يحب نفسه. جادل
أوغسطين قبل ديكارت بأن معرفة أنفسنا هي المصدر الراسخ لكل يقينية أخرى. حتى
معرفتنا للشك تجعلنا واعين لأنفسنا^(٣٨).

توجد ثلاث خصائص داخل الروح: الذاكرة، الفهم والإرادة مقابلة للمعرفة، معرفة
الذات والحب. هذه الفعاليات العقلية - مثل الشخص المقتدسة الثلاثة. هي أساساً واحدة
لأنها لا تشكل ثلاثة عقول منفصلة بل يملأ كل منها العقل بأكمله ويسم على الأخرى.
«أتذكر أن لدي ذاكرة وفهماً وإرادة، أدرك أنني أفهم وأريد وأتذكر. أريد إرادتي الخاصة
بي، وتذكرني وفهمي»^(٣٩). هذه الخصائص الثلاث - مثل الثالث المقدس الذي وصفه
الكابادسيون «تشكل حياة واحدة، وعقلاً واحداً، وجوهر واحد»^(٤٠).

هذا الفهم لآليات عمل عقلنا هو فقط الخطوة الأولى. فالثالث الذي نتعرف عليه

داخلنا ليس الله ذاته بل أثر من الله الذي خلقنا. وقد استخدم كل من أنانازيوس وجرينغوري النياسي تشبيه انعكاس صورة في مرآة لوصف الحضور المتحول لله داخل روح الإنسان. وكما نفهم هذا التحول بشكل صحيح يجب أن نتذكر أن اليونانيين كانوا يعتقدون أن صورة المرأة كانت حقيقة تتشكل عندما يمتزج الضوء الصادر من عين الراي بالضوء المنبعث عن المادة وينعكس على سطح المرآة^(٤٠). اعتقد أوغسطين أن الثالوث في العقل كان أيضاً انعكاساً يشمل حضور الله وكان موجهاً نحوه^(٤١). لكن كيف نصل إلى ما خلف هذه الصورة المنعكسة وكأنها صادرة عن مرآة بشكل قائم، إلى الله ذاته؟ فالمسافة الهائلة بين الله والإنسان لا يمكن قطعها بجهد بشري فقط لأن الله قد أتى كي يقابلنا في شخص الكلمة المجسدة بحيث نستطيع أن نجد صورة الله داخلنا، الصورة التي تأذت وتشوهت بالخطيئة. فنحن نفتح أنفسنا أمام الفعالية الإلهية التي سوف تحولنا عن طريق قاعدة ثلاثية يسميها أوغسطين ثالث الإيمان: Retheo (مستوعباً حقائق التجسيد في عقولنا، Contemplatio (تأملها) ، Delectio (الاستمتاع بها). فمن خلال تنمية إحساس مستمر بحضور الله داخل عقولنا في هذه الطريقة سيكشف الثالث لنا^(٤٢). فلم تكن هذه المعرفة مجرد حياة عقلية للمعلومات بل تدريباً إبداعياً سيحولنا من الداخل عن طريق كشف بعد إلهي في أعماق الذات.

مر العالم الغربي بعصور مظلمة ومرعبة، فكانت القبائل البربرية تتدفق في أوروبا وتسقط الامبراطورية الرومانية: فكان سقوط الحضارة في الغرب ذا تأثير حتمي على الروحانية المسيحية هناك. فأمبروس الناصح المخلص لأوغسطين نادى بدين، كان دفاعياً أساسياً. كانت الكُلية فضيلته الأكثر أهمية، وكان على الكنيسة صيانة معتقداتها البكر - كجسد مريم العذراء الطاهرة - بحيث لا تخترقها معتقدات البرابرة الزائفة الذين تحول الكثيرون منهم إلى مذهب آريوس. فقد ميز حزن عميق أعمال أوغسطين اللاحقة، لقد أثر سقوط روما على اعتقاده بالذنب البدئي الذي سيغدو مركزياً في الطريقة التي نظر فيها الناس الغربيون إلى العالم. فقد اعتقد أوغسطين أن الله قد حكم على البشرية بلعنة أبدية بسبب الذنب الذي ارتكبه آدم. وينقل هذا الذنب إلى أحفاده عبر العمل الجنسي الذي كان مولوياً بما أسماه أوغسطين بالشهوانية. كانت الشهوانية رغبة لاعتقالية للاستمتاع بالخلقوات بدلاً من الاستمتاع بالله، ويشعر المرء بها أثناء العمل الجنسي عندما تغمر عاطفة وانفعال ما عقلانيتها كلها؛ عندها يُنسى الله تماماً وتعربد الخلوقات دون خجل كل منها في الآخر. هذه الصورة للعقل وقد انحط في فوضى من الأحاسيس والانفعالات التي لا ضابط لها كانت ماثلة وبشكل مزعج لروما مصدر العقلانية والقانون والاستقرار في

الغرب وقد مرغتها القبائل البربرية. فمعتقد أوغسطين القاسي يرسم ضمناً صورة مرعبة لإله لا يعرف الصنف:

مطروداً من الفردوس بعد خطيئته، لف آدم ذريته أيضاً بعقوبة الموت واللعنة. تلك الذرية التي زرعها في نفسه عن طريق الخطيئة. فأية ذرية ولدت عبر شهوانية جنسية أوقعت به عقاباً مناسباً لعلم الطاعة منه ومن زوجه التي كانت سبب الخطيئة وزلفيته في اللعنة. سوف تجر الذرية عبر العصور ووزر الخطيئة الأولى والتي ستؤدي إلى مزيد من الخطايا والأحزان إلى ذلك العذاب الأخير الذي لا نهاية له مع الملائكة المتمردين.. هكذا كانت المسألة البشرية التي حلت عليها اللعنة. كانت تستلقي ممددة، كلا، كانت تنغمس في الشر، تسقط على رأسها من شر إلى آخر. وانضمت إلى عصبة من الملائكة المذبذبة. فكانت تدفع جزاء عادلاً لحياتها وعقوقها^(٤٣).

لم ينظر اليهود ولا المسيحيون اليونان الأرثوذكس إلى هبوط آدم في ضوء مأساوي كهذا، وكذلك لن يتبنى المسلمون لاحقاً هذا التفسير اللاهوتي القاتم للذنب الأصلي. هذا الاعتقاد الذي يشكل لوحة الله الصارمة التي كانت فريدة في الغرب قد اقترحها تيرتوليان من قبل.

لقد تركنا أوغسطين مع ميراث صعب. دين يعلم الرجال والنساء أن ينظروا إلى عيب تاريخي في بشريتهم وقد يغربهم هذا عن أنفسهم، وهذا التفرغ واضح في تشوه الجنس عموماً والنساء خصوصاً. فمع أن المسيحية كانت إيجابية أساساً حيال النساء إلا أنها قد طورت ميلاً لكراهية النساء في الغرب في عصر أوغسطين. فرسائل القديس جيروم عابقة بكراهية الأنتي التي تبدو أحياناً مربكة. وانتقد تيرتوليان بدوره النساء على أنهن مغويات شريرات وعطش أبدي على الرجال:

ألا تعرفن أن كلاً منكن هي حواء؟

حكم الله على جنسكن أن تعيش في هذا العصر: فالخطيئة يجب أن تعيش بالضرورة أيضاً أنتن بوابة الشيطان. أنتن فاضحات الشجرة الخمرية.

أنتن أول اخارجين على الشريعة الإلهية.

أنتن هي من أقمت ذلك الذي لم يكن الشيطان شجاعاً بما فيه الكفاية كي يهاجمه.

أنتن دمرتن دون مبالاة كبيرة الإنسان صورة الله.

حي ابن الله كان عليه أن يموت بسبب خذلائكن^(٤٤).

كتب أوغسطين إلى أحد أصدقائه: «ما هو الفرق؟ أكان ذلك في زوجة أو أم - ما تزال هي حواء الفاوية التي يجب أن نحذر منها في أية امرأة»^(٤٥). وفي الحقيقة نجد أوغسطين في حيرة واضحة: أكان على الله أن يخلق الجنس الأنثوي؟ وفي النهاية وإذا كانت الصحبة الجيدة والحديث الذي كان آدم بحاجة إليه، لكان من الأفضل لو وجد رجلان سوياً كأصدقاء، وليس امرأة ورجل»^(٤٦). الوظيفة الوحيدة للمرأة هي إنجاب الأطفال الذين ينقلون الخطيئة إلى الجيل التالي مثل مرض سار. فالدين الذي ينظر شذراً إلى نصف الجنس البشري، والذي يعتبر كل حركة غير إرادية للعقل والقلب والجسد شهوانية جنسية فإنه يقرب الرجال والنساء عن شرطهم. فالمسيحية الغربية لم تتعاف تماماً من هذه العزوبة العصابية التي ما تزال ترى في رد الفعل غير المتوازن تجاه فكرة ترسيم النساء كهنة. بينما تقاسمت النساء الشرقيات عبء الدونية الذي حملته نساء العالم المتحضر في هذا العصر، وحملت أخواتهن في الغرب وصمة إضافية للجنسية المذبذبة التي سببت لهن النبذ في كراهية وخوف.

هذه سخرية مضاعفة. فيما أن الله أصبح جسداً واشترك في بشريتنا إذن كان يجب أن تشجع هذه الفكرة المسيحية على احترام الجسد. هناك نقاش حول هذا الاعتقاد الصعب. فخلال القرنين الرابع والخامس طرح هراطقة من أمثال أبولوناريوس ونيستوروس و Eutyches أسئلة صعبة جداً. كيف كان لألوهة المسيح أن تتلازم مع بشريته؟ أو لم تكن مريم أم الله بل هي بالتأكيد أم يسوع الإنسان؟ كيف كان ممكناً أن يكون الله عاجزاً، طفلاً رضيعاً يحمو؟ أليس أكثر دقة أن نقول ان الله عاش مع المسيح في علاقة حميمة كما لمي معبد؟ فعلى الرغم من عدم الاتساق الواضح فقد بقي الأرثوذكس متشبثين بسلامتهم. فسيريل Cyril أسقف الإسكندرية رفض دين أتانازيوس. الله قد نزل فعلاً إلى عمق عالمنا الناقص والفاقد. وأنه ذاق طعم الموت والهجر. بدا من المحال مصالحة هذا الاعتقاد مع الاعتقاد الراسخ بأن الله لا يمكن وصفه أبداً، وغير قادر على التأثر أو التغير. كان إله الإغريق النائي يتسم أساساً بالتأثير الإلهي Apathia وبذلك كان إلهاً مختلفاً كلياً عن الله الذي كان يفترض أن يصبح مجسداً في يسوع المسيح. شعر الأرثوذكس أن الهراطقة الذين أوجدوا فكرة إله لا حول له ولا قوة ويتعذب فكرة خاطئة، فكانوا بذلك يريدون أن يفرغوا الله من سره وأعاجيبه. وبدت مفارقة التجسيد تريقاً للإله الهليني الذي لم يفعل شيئاً كي يهز رضانا عن ذواتنا، والذي كان عقلياً بالكامل.

وفي عام ٥٢٩ أغلق الامبراطور جوستيان مدرسة الفلسفة العريقة في أثينا التي

كانت المعقل الأخير للزعة الوثنية الفكرية. وكان مدرستها الأخير بروكلوس العظيم (٤١٢ - ٤٨٤) تلميذاً متحمساً لأفلوطين. استمرت الفلسفة الوثنية سراً وبدت مهزومة على يد الدين المسيحي الجديد. وبعد مضي أربع سنوات ظهرت أربع كتيبات صوفية كتبها - كما بدا - دينس الأريوباغيستي أول أثيني اعتنق المسيحية على يد القديس بولس. لكن هذه الكتيبات قد كتبها مسيحي يوناني عاش في القرن السادس وأغفل كتابة اسمه، وكان ذلك قدرة رمزية أكثر أهمية من هوية المؤلف. تمكن دينس الزائف من ترميد رؤى الأفلاطونية المحدثة، ومن خلق تزاوج بين إله اليونانيين وإله الانجيل المثالي.

كان دينس وريث الآباء الكابادوسيين أيضاً. فقد تناول الفارق بين الكيرغما والدوغما بجدية كبيرة أكثر مما فعل باصيل. فقد أكد في إحدى رسائله أن هناك تراثين لاهوتيين وكلاهما مستمد من الأناجيل. كان الإنجيل الكيرغماتي واضحاً وبمكناً معرفته بينما كان الانجيلي المعتقدي صامتاً وصوفياً وكلاهما يعتمدان على بعضهما وأساسيان في الإيمان المسيحي. كان أحدهما رمزياً ويفترض مسبقاً الإدخال الديني^(٤٧). أما الآخر فكان فلسفياً وقادراً على البرهان، والذي لا يوصف منسوجاً مع ما يمكن التحدث عنه^(٤٨). فالكيرغما يقع وبضخ من خلال حقيقته الظاهرة، لكن تراث الدوغما الخفي أو الصامت كان سراً يتطلب إدخالاً: إنه يؤثر ويثبت الروح بالله عن طريق إدخالات لا تعلم أي شيء^(٤٩). وقد شدد دينس على ذلك في كلمات تذكرنا بأرسطو. هناك حقيقة دينية لا يمكن التعبير عنها في كلمات بشكل كاف أو بالمنطق أو الحوار العقلاني. إنما يتم التعبير عنها رمزياً بكلمات وإشارات الطقس أو المعتقدات التي كانت «غلالات مقدسة» حُجبت المعنى الذي لا يمكن التعبير عنه بالنظر، والتي عدلت أيضاً الله الغامض كلياً بما يتناسب مع حدود الطبيعة البشرية، وعبرت عن الحقيقة بكلمات يمكن فهمها تخيلياً إن لم تكن تفهم مفهوماً^(٥٠).

لم يكن المعنى الخفي أو السري مقتصرًا على نخبة ممتازة بل متيسراً للجميع المسيحيين. لم يكن دينس يدعو إلى منهج مبهم مناسب للرهبان والزهاد فقط. فالقربان المقدس الذي كان يحضره جميع المؤمنين كان الطريق الرئيسي إلى الله، وهذه الفكرة سيطرت على لاهوته. فالسبب في كون هذه الحقائق مختفية خلف حجاب واحد هو عدم استثناء الرجال والنساء، ذوات الإرادة الطيبة بل لرفع جميع المسيحيين فوق الممركات الحسية والمفاهيم إلى حقيقة الله ذاته التي لا يمكن التعبير عنها. فالتواضع الذي ألهم الكابادوسيين بالدعوة أن كل اللاهوت يجب أن يكون صامتاً أصبحت بالنسبة لدينس

طريقة جسورة للصعود إلى الله الذي لا يمكن التعبير عنه.

في الحقيقة لم يكن دينس يود استخدام كلمة «الله» على الإطلاق، ومن المحتمل أنها اكتسبت مضامين تجسدية غير كافية، وكان يفضل أن يستخدم بدلاً منها كلمة بروكلير Theurgy التي كانت تتعلق أساساً بالقربان المقدس. وكانت هذه الكلمة تعني في العالم الوثني بدلاً للامنا الإلهية عن طريق القران والتأله. وقد استخدم دينس هذه الكلمة على حديث - الله - الذي بالإمكان فهمه كما يجب، وقد تطلق على القدرة الإلهية الملزمة في الرموز المكشوفة. هذا وقد وافق جميع الكابادوسيين على أن جميع كلماتنا ومفاهيمنا عن الله غير كافية، ويجب ألا نعتبرها وصفاً دقيقاً لحقيقة تقع خارج عقولنا. وحتى كلمة الله كانت خاطئة لأن الله كان «فوق الله» أي «سر خلف الوجود»^(٥٠). يجب أن يدرك المسيحيون أن الله ليس هو الوجود المتعالي، الوجود الأعلى من كل توجهات مراتب كائنات أدنى. فالأشياء والناس لا تتراتب مقابل الله كحقيقة منفصلة أو وجود بديل قد يكون موضوع المعرفة. فالله ليس واحداً من الأشياء التي توجد، وهو بالتأكيد لا يشبه أي شيء مما نعرفه. إنه لأكثر دقة أن نسمي الله «لأشياء» ويجب علينا ألا نسميه ثالثاً حتى لأنه ليس وحدة أو ثالثاً بالمعنى الذي نعرفه فيه^(٥١). إنه فوق جميع الأسماء مثلما هو فوق كل وجوده^(٥٢). فالاتحاد معه ليس أقل من إسباغ طابع أوهة على طبيعتنا. لقد كشف الله لنا عن بعض أسمائه في الكتاب المقدس: الآب، الابن، والروح، فالغاية من ذلك ليس تقديم معلومات عنه بل كي يشد الرجال والنساء إليه، وليمكنهم من مشاركته في طبيعته الإلهية. في كل فصل من كتيبه /الأسماء الإلهية/ يبدأ دينس بحقيقة كيرينماتية كشفها الله. خبره، حكمته، أبوته وما شابه. ثم يشرح بعدئذ في تبيان أنه على الرغم من أن الله أظهر شيئاً من ذاته في هذه الأسماء إلا أن ما يكشف عنه ليست ذاته. فإن نود حقاً أن نفهم الله علينا أن ننكر هذه الصفات والأسماء. وبذلك علينا أن نتحول إلى ما هو الله وليس الله معاً، «الخَيْر» وليس الخَيْر. الصدمة التي تحدثها هذه النقااض عملية تتضمن المعرفة واللامعرفة معاً، وسترفعنا فوق عالم الأفكار الدنيوية إلى الوجود الذي لا يمكن التعبير عنه:

وهكذا نبدأ بالقول:

إنه يوجد فهم، عقل، معرفة، لمس، تصور، مخيلة، اسم وأشياء كثيرة أخرى. لكن لا يمكن فهمه، لا شيء يمكن أن يقال عنه، لا يمكن تسميته. إنه ليس واحداً من الأشياء الموجودة^(٥٣).

فقرأة الكتاب المقدس ليست عملية اكتشاف حقائق عن الله بل يجب أن تكون

معرفة نقائص تحول الكيرينغا إلى دوغما. فهذه الطريقة هي سرية، إفراغ القدرة الإلهية التي تمكننا من الصعود إلى الله ذاته، وكما علم الأفلاطونيون دائماً، نصبح الهيين. إنها طريقة نجعلنا نتوقف عن التفكير «يجب أن نترك وراءنا جميع تصوراتنا عن الله. وأن نوقف جميع قدرات عقولنا»^(٥٤). وعلينا أن نترك نكراننا لصفات الله خلفنا. عندئذ فقط سنبلغ نشوة الاتحاد بالله.

عندما يتحدث دينس عن النشوة فإنه لا يشير إلى حالة خاصة للعقل أو إلى شكل بديل للوعي لتحقيق عن طريق تدريب يوغاوي غامض. يستطيع كل مسيحي بلوغ ذلك بهذه الطريقة المتناقضة عبر الصلاة والسرية القربانية. إنها ستوقنا عن الكلام، ونحضرنا إلى مكان الصمت «بينما نفرق في ذلك الظلام الذي خارج الفكر. سنجد أنفسنا أننا لا نفهم الكلمات فقط بل في الحقيقة نكون صامتين وغير عارفين»^(٥٥). فقد وجد دينس - مثل ما وجد غريغوري النبلسي في قصة صعود موسي جبل سيناء بعداً تعليمياً. فعندما صعد موسى الجبل فإنه لم ير الله ذاته على القمة بل أُخِضِرَ إلى المكان الذي كان فيه الله. لقد غلفته سحابة كثيفة من الغموض ولم يستطع أن يرى شيئاً: فكل شيء نستطيع رؤيته أو فهمه رمز (الكلمة التي يستخدمها دينس هي Paradigm) «نظرة»، يكشف حضور حقيقة تقع خارج كل فكر. فموسى مضى في ظلام اللامعرفة وبذلك بلغ الاتحاد بذلك الذي يتجاوز كل فهم، سوف تبلغ نشوة مماثلة «ستأخذنا خارج أنفسنا» وتوحدنا مع الله.

وهكذا فهذا هو الممكن فقط، وكأن الله يأتي كي قابلنا على الجبل. فهنا يفترق دينس عن الأفلاطونية المحدثة التي تصورت الله كسكوني وبعيد، عصي تماماً على المعرفة البشرية، لم يكن إله الفلاسفة اليونان ملزماً للمتصوف الذي استطاع أحياناً بلوغ النشوة من الاتحاد معه، بينما يلتفت إله الإنجيل نحو البشرية. ويبلغ الله أيضاً نشوة أخذته خارج نفسه إلى مملكة الوجود المخلوق الهشة:

يجب أن نتجراً كي نؤكد (لأنها هي الحقيقة) أن خالق الكون ذاته في حينه الخير والجميل إلى الكون إنما يُثقل خارج ذاته في قدراته الإلهية تجاه جميع الأشياء التي لها وجود.. وبذلك يُسحب من عرشه المتعالي فوق جميع الأشياء ليستقر داخل قلب جميع الأشياء. عبر قدرة نشوية فوق الوجود، وبها يبقى داخل ذاته^(٥٦).

لقد أصبح الفيلسوف حياً متدفقاً، إرادياً وجارفاً أكثر منه مجرد عملية آلية فطرية دينس في الفنى والنقائص لم تكن مجرد شيء تقوم به بل شيء يحدث لنا.

كانت النشوة بالنسبة إلى أفلوطين فرحاً يأتينا قليلاً، وبلغه مرتين أو ثلاثاً طوال حياته. بينما رأى دينس النشوة كحالة مستمرة لكل مسيحي، فكانت هذه هي الرسالة الخفية في الكتاب المقدس والقربان للقدس تظهر في أقل إشارات. وهكذا عندما يغادر المحتفلون المذبح عند بداية القداس يسير الكاهن عبر الجموع راشأً لإياهم بالماء المقدس قبل العودة إلى المحرم. فهذا ليس مجرد شعيرة تطهيرية مع أنها هي كذلك أيضاً. إنها تحاكي النشوة الإلهية إذ يغادر الله بها عزله ويظهر نفسه مع مخلوقاته. يحتمل أن أفضل طريقة للنظر إلى لاهوت دينس هي أن ننظر إليه كما لو أنه رقصه روحية بين ما يمكننا أن نؤكد عن الله واستحسان كل شيء نستطيع قوله عنه لا يمكن أن يكون إلا رمزياً. فكما هو الأمر في البوذية فإن إله دينس له جانبان: جانب متجه نحونا ويظهر نفسه في العالم والجانب الآخر هو الجانب البعيد كما هو في ذاته، والذي يبقى عصياً على الفهم تماماً. إنه يبقى ضمن ذاته «في سرية أبدية وفي الوقت ذاته منغمساً كلياً في الخلق، إنه ليس وجوداً آخر إضافياً إلى العالم. وهذا أصبحت طريقة دينس معيارية في اللاهوت اليوناني. وفي الغرب سيستمر اللاهوتيون بالحديث والشرح. فقد تخيل بعضهم أنهم عندما كانوا يلفظون كلمة «الله» فإن الوجود الإلهي تزامن فعلاً مع الفكرة في عقولهم. وينسب بعضهم أفكارهم ومثلهم إلى الله قائلين إن الله أراد هذا، ومنع ذلك، وخطط للآخر بطريقة كانت صمنية بشكل خطير. فقد بقي إله الأرثوذكسية اليونانية خفياً، وبقي الثالث يذكر المسيحيين الشرقيين بالطبيعة الشرطية لمعتقداتهم. وفي النهاية قرر اليونانيون أن اللاهوت الحق يجب أن يلتقي مع مبدئي دينس: اللاهوت الصامت، والقائم على التقاض.

طور اليونانيون واللاتين أيضاً آراء مختلفة هامة حول ألوهة المسيح، فقد حدد ماكسيموس الكونفيسور (٥٨٠ - ٦٦٢) المفهوم اليوناني حول التجسيد، ويعرف ماكسيموس بأنه أبو اللاهوت البيزنطي. لقد اعتقد ماكسيموس أن البشر يحققون أنفسهم عندما يتم اتحادهم مع الله فقط، تماماً كما اعتقد البوذيون أن الاستتارة كانت قدر البشرية الملائم. وبذلك كان إله ليس وجوداً خارجياً غريباً إضافياً واختيارياً مفروضاً على الشرط الإنساني. ففي الرجال والنساء قدرة كامنة تجاه الله، وسيصبحون كاملي الإنسانية إذا ما تم ذلك. فاللغوس لم يصبح إنساناً كي يكفر عن خطيئة آدم، فلو أن آدم لم يخطئ لكان التجسيد قد حدث أيضاً. فقد خلق البشر مشابهين للغوس، وهم سيحققون قدرتهم الكاملة إذا ما اكتمل هذا الشبه. فعلى جبل تايور أظهرت لنا بشرية يسوع المبجلة الشرط البشري الإلهي الذي يجب أن نطمح إليه جميعاً. لقد جعلت الكلمة جسداً كي يصبح الجنس البشري كله إلهاً، تأله بنعمة الله: «أن يصبح إنساناً - إنساناً كاملاً، روحاً وجسداً

بالطبيعة، وأن يصبح إلهاً كاملاً روحاً وجسداً بالنعمة الإلهية. فكما أن الاستنارة البوذية لم تتضمن غزواً من وجود خارق للطبيعة بل كانت تصعيداً لقدرات كانت طبيعية للبشر كذلك أظهر يسوع الإله لنا الحالة التي يمكننا بلوغها من خلال النعمة الإلهية. كان باستطاعة المسيحيين أن ييجلوا يسوع الله - الإنسان بالطريقة نفسها التي كان البوذيون ييجلون فيها صورة غاوتاما الذي بلغ الاستنارة: لقد كان المثال الأول للإنسانية متحققة وممجدة بحق.

فبينما جعلت النظرة اليونانية للتجسيد المسيحية أقرب ما تكون من التراث الشرقي نجد أن النظرة الغربية ليسوع قد أخذت مساراً أكثر غرابة. لقد عبر أنسيلم أسقف كانتري (١٠٣٣ - ١١٠٩) عن اللاهوت الكلاسيكي في كتيبه (لماذا أصبح الله إنساناً). كانت الخطيئة تمديداً ذا أهمية كبيرة، وكانت كفارتها أساسية إذا لم تحبط تماماً مخططات الله الجنس البشري. لقد خُلِقت الكلمة جسداً كي يكفر بالنيابة عنا. أمرت العدالة الإلهية أنه يجب دفع الدين من قبل أحد ما كان إلهاً وإنساناً في آن معاً: فكانت أهمية الذنب تمنى أن ابن الله فقط كان يوسعه أن يحقق خلاصنا. لكنه كإنسان كان مسؤولاً، لأن المخلص أيضاً كان يجب أن يكون فرداً من الجنس البشري. كانت خطة قانونية مرتبة صورت الله يفكر، ويحكم، ويوزن الأشياء وكما لو أنه كائن بشري. وعززت هذه الصورة أيضاً الصورة الغربية لإله قاسٍ رضي بموت ابنه موتاً شائناً قلّمه كنوع من قربان بشري.

لقد أسيء فهم معتقد الثالوث في العالم الغربي في معظم الأحيان. لأن الناس يميلون إلى تخيل ثلاثة شخوص إلهية أو إلى تجاهل هذا المعتقد برتمه، ويعرفون الله بالآب، ويجعلون يسوع صديقاً إلهياً لكن ليس في مستوى واحد. وقد وجد المسلمون واليهود هذا المعتقد محيراً بل وتجديفاً على الله. مع ذلك فقد طور المتصوفون اليهود والإسلام مفاهيم مماثلة للإله. ففكرة كنوسيس Knosis هي نشوة الله التي تفرغ ذاتها مثلاً ستكون حاسمة في كل من القبالة والصوفية. في الثالوث ينقل الآب كل ما هو عليه إلى الابن، معطياً كل شيء - حتى إمكانية التعبير عن ذاته في كلمة أخرى. وما أن تنطلق تلك الكلمة فإن الآب يبقى صامتاً: لا يوجد شيء يمكننا قوله حوله لأن ما نعرفه عن الله هو اللوغوس أو الابن. ولذلك ليس للآب هوية، لا «أنا» بالمعنى العادي ويدحض مفهومنا للشخصية. ففي أصل الوجود ذاته هناك اللاشيء، ولم يره دنيس فقط بل أفلوطين أيضاً وفيلون وبوذا. وطالما أن الآب يُقدّم عادة ككافية للسعي المسيحي، فإن المرحلة المسيحية تصبح تقدماً باتجاه لا مكان، ولا أين، ولا أحد. كانت فكرة إله شخصي أو مطلق مشخص هامة جداً للبشرية.

فالهندوس والبوذيين كان عليهم أن يسمحوا بالولاء الشخصي لبهاكتي Bhakti. لكن الرمز أو معنى الثالوث يوحى بأن النزعة الشخصانية يجب تجاوزها، وأنه ليس كافياً تخيل الله كإنسان ضخم يتصرف ويتفاعل مثلنا تماماً. بالإمكان رؤية معتقد التجسيد كمحاولة أخرى لتحديد خطر الوثنية. ففي الماضي كان الناس يرون الله كوجود آخر كلي «موجود هناك»، قد يصبح وبكل سهولة مجرد صنم أو إسقاط يمكن البشر من إخراج عبادة أهوائهم ورغباتهم. وقد حاولت التراثات الدينية الأخرى منع هذا بإصرارها على أن المطلق هو رهن الشرط الإنساني كما هي الحال في المنظور البراهمي الأتمني. فأريوس والنسطوريون أرادوا جميعاً جعل يسوع إما بشرياً أو إلهياً، ولقوا مقاومة، جزئياً بسبب ميلهم هذا لإبقاء البشرية والألوهة في عالَمين منفصلين.

صحيح أن حلولهم كانت أكثر عقلانية إلا أن الدوغما المناقضة للكريغما - ينبغي أن تكون محدودة بالذي يمكن تفسيره بالكامل، فلا تعود أكثر من شعر أو موسيقى. عبر أتانازيوس عن الاعتقاد بالتجسيد وكذلك ماكسميوس - بارتباك. فكانت محاولة لتوضيح الرؤية الكونية بأن الله والإنسان يجب أن يكونا غير منفصلين. ففي الغرب حيث لم تتم صياغة التجسيد بهذه الطريقة هناك ميل لإبقاء الله خارجياً بالنسبة للإنسان ووجوداً بديلاً للعالم الذي نعرفه. بالتالي من السهل جداً جعل هذا الله إسقاطاً، أصبح مؤخراً أمراً مشكوكاً به.

فمن طريق جعل يسوع إلهاً بشرياً وحيداً فقد رأينا أن المسيحيين تبنا مفهوماً وحيداً للحقيقة الدينية: كان يسوع كلمة الله الأولى والأخيرة إلى الجنس البشري الذي اعتبر الوحي المستقبلية أمراً غير ضروري. وبالتالي - مثلهم مثل اليهود - فقد تم فضحهم عندما ظهر نبي في الجزيرة العربية خلال القرن السابع، وادعى أنه تلقى وحياً مباشراً من الإله، وأنه أحضر كتاباً مقدساً جديداً إلى شعبه. هذه النسخة الجديدة للتوحيد التي عرفت بالإسلام انتشرت بسرعة مذهلة في أرجاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وكان الكثيرون من معتنقي المتحمسين في هذه البلدان (حيث لم تكن الهلينية على أرض مريحة لهما) تحولوا وهم يشعرون بالراحة من النزعة التلثية اليونانية التي عبرت عن سر الله في مصطلح كان غريباً عنهم، وتبنوا مفهوماً أكثر صامية للوجود الإلهي.

الفصل الخامس

الوحدة: إله الإسلام

ظهر تاجر عربي من مدينة مكة المزدهرة في الحجاز في نحو عام ٦١٠م. لم يكن قد قرأ الإنجيل أبداً، ومن المحتمل أنه لم يكن قد سمع بأشعيا أو إرميا وحزقيال، ومر بتجربة كانت خارقة ومثالة لتجارهم. كان محمد بن عبد الله - أحد أفراد قبيلة قريش المكية - يأخذ أسرته إلى جبل حراء على مشارف مكة كي يقوم بعزلة روحية خلال شهر رمضان، وكانت هذه عادة منتشرة بين عرب شبه الجزيرة. كان محمد يمضي تلك الفترة مصلياً لله والتقدير إله العرب، ويوزع الطعام والصدقات على الفقراء الذين كانوا يأتون لزيارته خلال هذه الفترة المقدسة. من المحتمل أنه أمضى وقتاً كثيراً في تفكير قلق. ومن أواخر سيرة حياته نعرف أنه كان مدركاً تماماً لانحراف مقلقي عم مكة على الرغم من نجاحها الراهن الذي كان يدعو إلى الإعجاب. فقبل هذه الفترة بجيلين كانت قريش تعيش حياة قبلية قاسية على شاكلة القبائل البدوية الأخرى. فكل يوم كان يتطلب صراعاً مريراً من أجل البقاء. لكن خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس أصبح القرشيون ناجحين جداً في التجارة فجعلوا مكة المستوطنة الأكثر أهمية في الجزيرة العربية، وأصبحوا أغنى مما رأوا في شطحات أحلامهم، وتبعاً لذلك تغير نمط أسلوب حياتهم. وحلت قيم رأسمالية عنيفة لا ترحم محل القيم القبلية القديمة، مما جعل الناس يشعرون بالضيق وفقدان الاتجاه. وعرف محمد أن القرشيين كانوا في مسار خطر وبحاجة إلى إيديولوجيا تساعد على التكيف مع ظروفهم الجديدة.

في هذه الفترة كان لا بد لأي حل سياسي من أن يرتدي طابعاً دينياً، وكان محمد مدركاً أن القرشيين يصنعون ديناً جديداً من المال، ولم يكن في هذا غرابة لأنهم لا بد قد

شعروا أن ثروتهم الجديدة قد أنقذتهم من مخاطر الحياة البدوية وأدت إلى تراجع سوء التغذية والعنف القبلي اللذين استوطننا سهوب الجزيرة العربية حيث كانت كل قبيلة تواجه إمكانية الانقراض يومياً. لقد أصبح لديهم الآن ما يكفي تقريباً كي يأكلوا، فجعلوا من مكة مركزاً دولياً للتجارة ومركزاً مالياً كبيراً. وهكذا راح يتملكهم الشعور بأنهم أسياد مصائرهم، وكما يبدو تخيل بعضهم أن ثروتهم سوف تعطيتهم خلوداً ما - بينما كان محمد يرى أن هذا الإيمان الجديد بالاكثفاء الذاتي يعني تفكك القبيلة. في الماضي كانت القبيلة تأتي في المقام الأول والفرد في المرتبة الثانية: فكل فرد فيها كان يعرف أن بقاءه رهن ببقائها. وبالتالي كان على الأغنياء الاعتناء بالفقراء والضعفاء في جماعتهم العرقية. بيد أن نزعة فردية حلت محل هذا الملل الجماعي، وأصبحت المنافسة هي الحالة المعيارية. بدأ الأفراد بجمع ثروات شخصية دون أن يعبروا اهتماماً بالقرشيين الأضعف منهم. فكل القبائل أو الجماعات الأسرية في القبيلة كانت في حالة تآخر من أجل نصيب من الثروة في مكة، وشعرت بعض العشائر الأقل حظاً في الثروة (مثل بني هاشم - عشيرة محمد) أن بقاءها كان محفوظاً بالمخاطر. كان محمد مقتنعاً أنه مالم تتعلم قريش وضع قيمة سامية في مركز حياة أفرادها، وما لم يتغلبوا على أنانيتهم وجشعهم فإنها ستمزق نفسها أخلاقياً وسياسياً في صراع مميت.

كانت الحالة في بقية الجزيرة العربية كئيباً أيضاً. فقد عاشت القبائل البدوية في منطقتي الحجاز ونجد في تنافس شرس مع بعضها بعضاً من أجل ضرورات الحياة الأساسية. فمن أجل مساعدة الناس على تنمية الروح الجماعية التي كانت أساسية للبقاء طوّر العرب إيديولوجيا أسموها المروعة التي أُنجزت العديد من وظائف الدين. كان هناك مجتمع آلهة وثنية يتمتع العرب في صوامعها؛ لكنهم لم يطوروا ميثولوجيا تشرح لهم مرجعية هذه الآلهة والأماكن المقدسة لحياة الروح. لم يكن لديهم أي مفهوم عن الحياة الأخرى، التي اعتقدوا بدلاً عنها بالدهر - بالإمكان ترجمته بالزمن أو القدر، ومن المحتمل أن هذا الموقف كان أساسياً في مجتمع كانت نسبة الوفيات فيه مرتفعة جداً. غالباً ما يترجم الغربيون المروعة بكلمة الرجولة لكن المروعة ذات دلالات أوسع بكثير من دلالات الرجولة: كانت المروعة تعني الشجاعة في المعركة، الصبر واحتمال الألم والولاء المطلق للقبيلة. كانت تتطلب فضائل المروعة أن يطيع العربي سيده أو زعيم قبيلته دون اعتبار لسلامته الشخصية. كان عليه أن يكرس نفسه لواجبات الفروسية، وللثأر إذا ما ارتكب خطأ ضد قبيلته، وأن يحمي أفرادها الضعفاء. ولضمان بقاء القبيلة عند الشدائد كان السيد يتقاسم ثرواته وممتلكاته بشكل متساو مع أفرادها وكان يتأثر لموت أحد أفراد قبيلته بقتل فرد من قبيلة القتال. فهنا نرى الأخلاق الجماعية في غاية الوضوح: لم يكن من الضروري معاقبة القتال شخصياً لأن

من الممكن أن يختفي فرد ما دون أن يترك أي أثر في مجتمع ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية، وبدلاً من ذلك يُنتقى فرد من أفراد القبيلة المعادية ويُقتل. وبذلك كان الثأر أو عداوة الدم هي السبيل الوحيد لتأمين الحد الأدنى من الأمن الاجتماعي في منطقة لا وجود لسلطة مركزية فيها حيث كانت كل جماعة قبلية قانوناً بحد ذاتها، فإذا فشل زعيم في الانتقام فإن قبيلته لن تحظى بالاحترام، وكان أفراد القبائل الأخرى يعرفون أن ليس بإمكانهم قتل أفرادها دون عقوبة. وهكذا كان الثأر شكلاً جاهزاً وخشناً من العدالة التي كانت تعني عدم السماح لقبيلة بالتطاول على قبيلة أخرى، وكان يعني كذلك أن القبائل قد تصبح متورطة في حلقة عنف لا يمكن إيقافها. كل ثأر يؤدي إلى ثأر آخر إذا ما شعر الناس أن الثأر لم يكن متناسباً مع الجريمة الأصلية.

كانت المروءة تمارس حضوراً قوياً متعدد الوجوه: تشجع على المساواة وتقويتها وتمييقها وتشجع على عدم الاكتراث بالسلع المادية التي يحتمل أنها كانت أساسية في منطقة لم يكن يتوافر فيها ما يكفي من الأساسيات كي تُوزَّع. مبدأ الأريحية والكرم فضيلتان هامتان علمتا العرب عدم التفكير بالفد. فهذه الفضائل ستصبح هامة جداً في الإسلام كما سنرى. لقد لعبت المروءة دوراً جيداً في حياة العرب طيلة قرون، لكنها في القرن السادس لم تكن قادرة على الاستجابة لظروف الحداثة. فخلال الفترة الأخيرة من فترة ما قبل الإسلام التي يسميها المسلمون الجاهلية (أي زمن الجهل) يبدو أن سخطاً واسع الانتشار وقلقاً روحياً كانا يسمان هذه الفترة. كان العرب محاطين بامبراطوريتين عاتيتين هما الامبراطورية الساسانية في فارس والامبراطورية البيزنطية. بدأت الأفكار الجديدة من البلدان المستقرة تنفذ إلى الجزيرة، فالتجار الذين كانوا يسافرون إلى سورية أو العراق يعودون معهم قصص عن أعاجيب الحضارة، مع ذلك بدا العرب وكأنه محكوم عليهم ببربرية أبدية. كانت القبائل منشغلة في حروب مستمرة جعلت جمع مصادره الضئيلة أمراً محالاً، كي يصبحو الشعب العربي الموحد الذي كانوا يدركون وجوده بشكل غير واضح. لم يكونوا قادرين على حمل قدرهم وتأسيس حضارتهم بأيديهم. بدلاً من ذلك كانوا عرضة لاستغلال القوى العظمى. إن المنطقة الأكثر خصوبة ومعركة في جنوب الجزيرة والمعروفة الآن باسم اليمن التي كانت تستفيد من الأمطار الموسمية، أصبحت مجرد ولاية من ولايات فارس. الأفكار الجديدة التي كانت تتسلل إلى المنطقة جلبت معها خصوصيات الزعة الفردية التي نسفت الروح الجماعية القديمة: فالاعتقاد المسيحي بالحياة بعد الموت - مثلاً - جعل المصير الأبدي لكل فرد ذا قيمة مقدسة. فكيف كان بالإمكان جعل الفردية

منسجمة مع المثل الأعلى القبلي الذي جعل دور الفرد ثانوياً أمام المثل الأعلى الجماعي الذي كان يؤكد على أن خلود الفرد - الذكر أو الأنثى - إنما يكمن في بقاء القبيلة؟

لقد كان محمد ذا عبقرية استثنائية. فعندما توفي في عام ٦٣٢ كان قد جمع جميع القبائل في الجزيرة العربية في جماعة موحدة أو أمة. لقد جلب للعرب روحانية فريدة تتناسب مع تراثاتهم، فنزعت أغلال قدرات مخترنة ومكتسبة خلال مئة سنة - من تأسيس امبراطوريتهم العظيمة التي امتدت من الهيمالايا إلى جبال البيرينييه، فكانت حضارة فريدة. عندما كان محمد يجلس مصلياً في الكهف الصغير على قمة جبل حراء أثناء اعتكافه في شهر رمضان عام ٦١٠ لم يكن باستطاعته أن يتصور هذا النجاح الظاهرة. فعلى شاكلة الكثير من العرب أصبح محمد يؤمن أن الله الإله الكبير في مجمع الآلهة العربية القديمة كان ممثلاً لله الذي عبده اليهود والمسيحيون. وقد اعتقد أن نبياً مرسلًا من هذا الله هو الذي باستطاعته فقط أن يحل مشاكل شعبه، لكنه لم يكن يعتقد ولو للحظة أنه هو من سيكون ذلك النبي. في الحقيقة كان العرب يشعرون بعدم الرضا لأن الله لم يرسل لهم أبداً نبياً أو كتاباً مقدساً خاصاً بهم على الرغم من أنهم أقاموا صومعتهم في وسطهم منذ زمن قديم جداً. إذ بحلول القرن السابع توصل العرب إلى الاعتقاد بأن الكعبة الصومعة - المكعبة الشكل الضخمة في قلب مكة - كانت مكرسة لله أساساً، على الرغم من وجود الإله النبطي هبل في الكعبة في ذلك الوقت. كان المكيون فخورين جداً بالكعبة التي كانت أهم مكان مقدس في الجزيرة العربية. وكان العرب يتوافدون من أرجاء الجزيرة لأداء الحج في مكة كل سنة، يؤدون الشعائر التراثية في فترة تبلغ عدة أيام. يحرم العنف في الحرم وفي المنطقة المقدسة حول الكعبة. وهكذا كان بوسعهم الاتجار بسلام عارفين مسبقاً أن العداوات القبلية القديمة كانت مؤجلة مؤقتاً. وكان القرشيون يعلمون أنهم ما كانوا ليحققوا نجاحهم المادي لولا الكعبة، وأن امتيازهم بين القبائل العربية يعتمد على رفادة الكعبة وعلى صيانة موجوداتها المقدسة القديمة. مع أن الله خص وبكل وضوح قريشاً بحبيته الخاصة إلا أنه لم يكن قد أرسل لهم رسولاً مثل إبراهيم أو موسى أو يسوع، ولم يكن لدى العرب كتاب مقدس بلغتهم.

لأسباب الآفة الذكر كان العرب يشعرون بدونية روحية. فكان اليهود والمسيحيون الذين احتكوا بهم يعيرونهم بأنهم شعب بربري لم يتلق وحياً من الله، وبالمقابل كان العرب يكرهون هؤلاء الذين كانت لديهم معرفة ليست في حوزتهم هم. لم تحقق اليهودية

والمسيحية سوى تقدم قليل في المنطقة مع أن العرب كانوا يعترفون بأن هذا الشكل المتقدم من الدين كان أعلى مستوى من وثنيتهم التراثية. وكانت قبائل يهودية لا يعرف أصلها في يثرب وقدك إلى الشمال من مكة، وبعض من القبائل الشمالية على الحدود الفاصلة بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية التي اعتنقت المونوفيزية Monophysite أو المسيحية النسطورية. كان البدو متمسكين باستقلاليتهم بضراوة، وكانوا مصممين على عدم الخضوع للقوى العظمى مثل إخوانهم في اليمن، كما كانوا مدركين تماماً أن الفرس والبيزنطيين قد استخدموا اليهودية والمسيحية كي يزدوا من صنائعهم في المنطقة. ويحتمل أنهم كانوا مدركين غريزياً أنهم قد عانوا بما فيه الكفاية من اقتلاع ثقافي بينما كانت تراثاتهم تتآكل. آخر شيء كانوا بحاجة إليه كان إيديولوجيا أجنبية مطرزة بلغات وتراثات غريبة عنهم.

يبدو أن بعض العرب حاول اكتشاف شكل للوحداية أكثر حيادية غير ملوثة بارتباطات إمبريالية. ففي القرن الخامس يخبرنا المؤرخ المسيحي الفلسطيني سوزومينوس Sozomenus أن بعض العرب في سوريا اكتشفوا ما أسموه دين ابراهيم الحنيف الذي عاش قبل أن ينزل الله التوراة أو الانجيل، وبالتالي لم يكن يهودياً ولا مسيحياً. ويخبرنا محمد بن اسحق (d - ٧٦٧) أول كاتب سيرة للنبي أن أربعة من قرشي مكة قد قرروا اتباع الحنفية دين ابراهيم الحق، وقد جادل بعض العلماء الغربيين أن هذه الطائفة الحنفية القليلة هي قصة تقوى ترمز إلى القلق الروحي الذي كان في الجاهلية، لكن لا بد أن لها أساساً واقعياً، فالمسلمون الأوائل يعرفون ثلاثة من هؤلاء الأحناف الأربعة وهم: عبيد الله بن جحش (ابن عمه محمد)، وورقة بن نوفل الذي أصبح مسيحياً في النهاية (أحد مستشاري محمد الروحيين) وزيد بن عمر خال عمر بن الخطاب (أحد المقربين من محمد، والذي أصبح الخليفة الثاني للامبراطورية الإسلامية). فهناك قصة تروى عن زيد قبل أن يغادر مكة كي يبحث في سوريا والعراق عن دين ابراهيم. كان زيد واقعاً قرب الكعبة متكاً على جدارها، وقرش تؤدي طقس الطواف حولها بالطريقة التي كانت مبهجة في ذلك العصر، قال زيد: «يا معشر قرش، والذي نفس زيد بيده ما من أحد منكم يتبع دين ابراهيم سواي». ثم أضاف حزياً: «يا إلهي لو أنني أعلم كيف تريد أن تُعبد لكنت عبتك كذلك، لكنني لا أعلم»^(١).

لقد تحققت لهفة زيد إلى وحي إلهي على جبل حراء في عام ٦١٠ في الليلة السابعة

عشرة من رمضان عندما استيقظ محمد من نومه هلعاً، وكان يشعر أنه محاط بحضور مقدس منهك. وقد وصف لاحقاً هذه التجربة - التي تفوق الوصف - بكلمات عربية مميزة. قال إن ملاكاً قد ظهر له وأعطاه أمراً موجزاً: «اقرأ» مثل الأنبياء العبرانيين الذين كانوا يترددون غالباً في نطق كلمة الله. رفض محتجاً: «ما أنا بقارىء». إنه لم يكن كاهناً، ولا واحداً من مفسري الأحلام الذين يسقطون في نشوة والذين كانوا يزعمون قراءة النبوءات الملهمة. قال ابن اسحاق: لكن الملاك غطاه بكل بساطة بضمة قوية إليه ف شعر أن نفسه قد اعتصر من جسده. ولما لم يعد محمد يستطيع احتمال تركه الملاك وأمره ثانية «اقرأ» ورفض محمد ثانية، ثم ضمه الملاك ثانية حتى شعر أنه قد وصل نهاية احتماله. وفي الضمة المربعة الثالثة وجد محمد الكلمات الأولى من كتاب مقدس جديد يتدفق من فمه:

«اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم»^(١).

لقد تم نطق كلمة الله لأول مرة في اللغة العربية، وسوف يسمى هذا الكتاب القرآن.

استعاد محمد وعيه في حالة خوف وتغير. كان خائفاً من أنه قد أصبح كاهناً سيئ السمعة وهو الذي كان الناس يستشيرونه إذا أضاع أحدهم شيئاً له. كان العرب يعتقدون أن الكاهن مسكون بجني - أحد الأشباح التي يعتقد أنها تغشى الأماكن الطبيعية، وقد تصبح نزوية فتقود الناس إلى الخطأ. كما اعتقدوا أن الشعراء ممسوسون بجن خاص بهم. ولذلك قال حسان بن ثابت - شاعر يثرب الذي أسلم لاحقاً - عندما كان يتلقى نداء الشعر الباطني كان جنّيه يظهر له، ويلقيه أرضاً، ويخرج عنوة الكلمات الموحاة من فمه. كان هذا هو الشكل الوحيد للإلهاء الذي كان معروفاً لدى محمد. وفكرة أن يصبح مجنوناً (أي مسه جنّي) قد ملأته بأساً لدرجة أنه قد تمنى الموت. كان يكره المتكهنين جداً، هؤلاء الذين كانت نبوءاتهم غير مفهومة ومشوشة، وكان حريصاً جداً على تمييز القرآن عن الشعر العربي التقليدي. بعدئذ خرج من الكهف، وقرر أن يرمي نفسه من قمة الجبل ليلقى حتفه. لكنه رأى على سفح الجبل كاتباً عرفه فيما بعد - أنه جبريل:

«عندما كنت في منتصف الطريق على الجبل سمعت هاتفاً من السماء يقول: «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل». فرفعت رأسي إلى السماء؛ فإذا جبرائيل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد

أنت رسول الله وأنا جبرائيل. قال: فوقفت انتظر إليه وشغلني ذلك عما أردت؛ فما أتقدم وما أتأخر؛ وجعلت أصرف وجهي عنه في أفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك^(١).

جبريل في الإسلام هو النظير للروح القدس في الوحي، أي الوسيلة التي يتصل بها الله مع الناس. فجبريل لم يكن مجرد ملاك عادي بل حضور غامر كلي الوجود ولا سبيل إلى الهرب منه. كان في محمد ذلك الخوف المتعاطف من الحضور المقدس الذي أسماه الأنبياء العبرانيون «قدوس»، الآخريه Otherness الإلهية الخفية. لقد شعر هؤلاء الأنبياء أنهم مشرفون على الموت، وفي حالة إرهاق جسدي ونفسي لدى مرورهم بهذه التجربة. لكن محمداً لم يكن مثل أشعيا أو إرميا لأنه لم يكن لديه عزابات من تراث راسخ كي تدعمه. بدت التجربة مرعبة بعد أن هبطت عليه من الغيب فتركته في حالة صدمة عميقة. فعاد غزيباً وهو في كربه إلى زوجته خديجة.

رمى محمد نفسه وهو يرتجف في حجرها صائحاً: «دثروني، دثروني». راجياً إياها أن تغطيه من الحضرة المقدسة. وبعد أن خفت عنه وطأة الخوف سألها فيم إذا كان قد أصبح حقاً مجنوناً فأسرعت خديجة تقول له: وأعينك بالله من ذلك يا أبا القاسم! ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك، وصلة رحمتك^(٢)! لم يكن تصرف الله عشوائياً. فقد اقترحت خديجة على محمد أن يستشير خاله ورقة بن نوفل الذي أصبح مسيحياً وعارفاً بالكتب المقدسة. لم يكن لدى ورقة شك على الإطلاق في أن محمد قد تلقى الوحي من رب موسى والأنبياء وأنه قد أصبح المبعوث الإلهي إلى العرب. وبعد مضي سبع سنوات كان محمد قد اقتنع بحالته، فبدأ يدعو القرشيين حاملاً إليهم كتاباً مقدماً بلغتهم هم.

كان نزول القرآن مختلفاً عن التوراة التي أوحيت إلى موسى - كما في الرواية الموجودة في العهد القديم - في لقاء واحد على قمة جبل سيناء. فالقرآن نزل على محمد آية آية، وسطراً تلو آخر في فترة تبلغ ٢٣/ سنة. كان نزول الوحي تجربة مؤلمة فقد وصف محمد هبوط الوحي «لم أتلُق الوحي مرة إلا وشعرت أن روحي تكاد أن تخرج مني»^(٣). كان عليه أن يصغي متمعناً إلى الكلمات الإلهية. قال إن مضمون الرسالة الإلهية كان أحياناً واضحاً: هذا وكأنه كان يرى جبريل ويسمع ما كان يقوله. وأحياناً أخرى كانت الأصدا Reverberations تخف عندما أكون مدركاً لرسالتها^(٤). ويصوره ككتاب السَّيْرِ الأوائل للفترة الكلاسيكية مصغياً باهتمام إلى ما ندعوه الآن اللاشعور، أي بالأحرى كشاعر يصف عملية «الاستماع» إلى قصيدة كانت تعمل إلى السطح من أعماق عقله

الدفينة معلنة نفسها بسلطة وكمال للدرجة تبدو فيها منفصلة عنه بطريقة غامضة. ففي القرآن يخبر الله محمداً أن يستمع إلى المعنى غير المترابط بانتباه، أي بما سماه وردزورث «سلبية حكيمة»^(٧). يجب ألا يندفع لفرض كلمات أو لفرض معنى مفهومي معين بل عليه الانتظار حتى يفصح المعنى الحقيقي عن نفسه في وقته المناسب.

ولا تحرك به لسانك لتتجمل به. إن علينا جففةً وقرآنه.

إذا قرأته فأتبع قرآنه. ثم إن علينا بياته»^(٨).

لقد كانت عملية صعبة مثلها مثل كل عملية إبداعية. كان محمد يدخل في حالة نشوة، وكما يبدو كان يفقد وعيه أحياناً. كان يتصبب عرقاً، حتى في يوم بارد، وكان غالباً ما يشعر بوطأة داخلية مثل الحزن الذي كان يجبره على أن يخضض رأسه بين ركبتيه. كان المتصرفون اليهود يتخذون هذا الوضع عند الدخول إلى حالة وعي بديلة، بينما لم يكن محمداً يعرف ذلك.

ليس مستغرباً إذا وجد محمد هذه الإيحاءات عبثاً هائلاً عليه: فهو لم يكن يعمل فقط في إيجاد حل سياسي جديد كل الجدة لشعبه بل كان أيضاً يؤلف إحدى الروائع الأدبية الروحية العظيمة على مر العصور. لقد اعتقد أنه كان يضع كلمة الله التي يجب عدم نطقها - في لفته العربية، لأن القرآن ذو أهمية مركزية للروحانية الإسلامية مثل أهمية يسوع اللوغوس في المسيحية. إننا نعرف عن محمد أكثر مما نعرف عن أي مؤسس لأي دين رئيسي آخر. وفي القرآن الذي بالإمكان تحديد تواريخ سوره بدقة معقولة نستطيع رؤية كيفية نشأة رؤياه وتطورها لتصبح أكثر كونية في مداها. في البداية لم يكن يتطلع إلى ما حققه لاحقاً، بل كان هذا ثوحى له شيئاً فشيئاً، بينما كان يستجيب لمنطق الأحداث الداخلي. لدينا في القرآن ما يشبه تعليقاً معاصراً على بدايات الإسلام، وهذا أمر فريد في تاريخ الدين، ففي هذا الكتاب المقدس يبدو الله وهو يعلق على الحالة المتطورة للأحداث: يرد على بعض من منتقدي محمد، ويشرح أهمية معركة، أو يتحدث عن نزاع داخل الجماعة الإسلامية الأولى، ويشير كذلك إلى البعد الإلهي في الحياة الإنسانية. فالقرآن لم ينزل على محمد بالترتيب الذي نقرأه فيه اليوم بل بطريقة أكثر عشوائية: حسبما تلميه الأحداث، وكما استمع إلى معناها الأكثر عمقاً. فكلما كانت ثوحى آية، كان محمد يقرأها بصوت عالٍ، وكان المسلمون يحفظونها غيباً، ويكتبها قلة من المتعلمين. بعد مضي نحو عشرين سنة على وفاة النبي تم أول جمع رسمي للوحي. وضع كتاب الوحي السور الأطول في البداية والأقصر في النهاية. وهذا الترتيب ليس عشوائياً كما قد يبدو؛ لأن القرآن ليس قصة ولا جدالياً يحتاج إلى ترتيب متسلسل. إنه يتعرض لمواضيع متنوعة:

حضور الله في العالم الطبيعي، حيوات الأنبياء، أو يوم القيامة. فالقرآن يبدو مملأً ومكرراً بالنسبة إلى غربي لا يتذوق جمال اللغة العربية، ويبدو له أنه يتعرض للموضوع ذاته مرة تلو أخرى. فالقرآن لم يكن من أجل الدراسة الخاصة بل من أجل تلاوة طقسية. فعندما يسمع المسلمون القرآن يرتل في المساجد فإنهم يذكرون بمعتقدات دينهم كالحل.

عندما بدأ محمد الدعوة في مكة لم يكن لديه سوى تصور متواضع عن دوره. لم يكن يصدق أنه يؤسس ديناً كونياً جديداً، بل كان يرى نفسه جالياً الدين القديم، دين الله الواحد إلى قريش. في البداية لم يخطر له حتى أن يدعو القبائل العربية الأخرى بل كانت دعوته موجهة إلى المكيين وإلى من هم في جوارهم^(٩). لم تكن لديه أحلام بتأسيس ثيوقراطية ومن المحتمل أنه لم يكن يفهم ما تعنيه هذه الكلمة: يجب ألا تكون له شخصياً وظيفة سياسية في المدينة، بل هو مجرد نذيرها^(١٠). لقد أرسله الله كي يحلحله القرشيين من المخاطر التي تحيط بهم. ولم تكن رسالته في بدايتها محكومة بالاخفاق على أية حال، بل كانت رسالة أمل تحمل السرور. ولم يكن على محمد أن يثبت لقريش وجود الله، فهم جميعاً يؤمنون ضمناً بالله الذي خلق السموات والأرض، وكان يعتقد معظمهم أنه كان الله الذي عبده اليهود والمسيحيون. وهكذا كان الإيمان بوجود الله أمراً بديهياً:

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسفر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون. ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأجيبه الأرض من بعد موتها ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون»^(١١).

المشكلة التي كانت تواجهه هي أن القرشيين لم يكونوا يفكرون في مضامين هذا الاعتقاد. قاله قد خلق كل واحد منهم من نطفة مني كما أوضح الوحي الأول، وكانوا يعتمدون على الله في طعامهم وبقائهم، ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم مركز الكون في افترض غير واقعي (كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى أرايت الذي ينهى^(١٢))، غير آخذين في الاعتبار مسؤولياتهم كأفراد في مجتمع عربي جدير بالاحترام. جميع الآيات الأولى في القرآن تشجع القرشيين على أن يصبحوا مدركين لنعمة الله التي يستطيعون رؤيتها أنى ينظرون. عندئذ يدركون فضل الله عليهم على الرغم من نجاحهم الجليل، ويقدرعون اتكالهم الكامل على خالق النظام الطبيعي:

قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. مِنْ نَاطِقَةٍ خَلَقَهُ لَقَرَهُ. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ. كَلَّا لَمْ يَقْضَ مَا أَفَرَهُ. فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَلَمْ يَصْنَعْ الْمَاءَ صَبْأً. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدائقَ غُلًّا. وَفَاكِهَةً رَأْبًا..

متاعاً لكم ولآلئكم (١٣).

فوجود الله أمر مسلم به ولا جدال فيه. ففي القرآن نجد أن الكافر بنعمة الله ليس ملحقاً كما نفهم من الكلمة التي نعني بها من لا يؤمن بالله، بل من لا يكون شاكراً له، أي من يرى بكل وضوح ما هو مدين لله به لكنه يرفض تمجيده وينكر جميله.

لم يكن القرآن يعلم القرشيين أي شيء جديد، فهو يُذكر باستمرار بأشياء معروفة مسبقاً يطرحها بأريحية واضحة. فكثيراً ما يستهل القرآن موضوعاً بعبارة مثل ألم تر...؟ ألم تعتبروا...؟ لم تكن كلمة الله تصدر أوامر اعتبارية من أعلى بل كانت تدخل في حوار مع القرشيين. فهي تُذكرهم - مثلاً - أن الكعبة هي بيت الله الذي يتوقف عليه نجاحهم، الذي كان بمعنى من المعاني ديناً عليهم. كان القرشيون يحبون القيام بالطواف الطقسي حول الكعبة لكن عندما وضعوا أنفسهم ونجاحهم المادي في مركز الحياة نسوا تماماً معاني هذه الشعائر القديمة وتوجهها. عليهم أن ينظروا إلى آيات نعمة الله وقدرته في العالم الطبيعي. فإذا ما فشلوا في إعادة إنتاج نعمة الله في مجتمعهم فإنهم سيفقدون كل صلة بالطبيعة الحقة للأشياء. جعل محمد أصحابه ينحنون في صلاة طقسية مرتين في اليوم. فهذا المظهر الخارجي سيساعد المسلمين على تنمية موقف داخلي، وإعادة توجيه حيواتهم. يسمى دين محمد بالإسلام لأي عملية تسليم وجودي يقوم به كل مسلم إلى الله. فالمسلم رجلاً كان أم أنثى - هو من سلم وجوده كله إلى الخالق. دُعيَ القرشيون عندما رأوا هؤلاء المسلمين الأوائل يؤدون الصلاة: وجدوا أنه أمر غير مقبول لفرد من قبيلة قريش الصلوة - التي ترافقها استقلالية بدوية متفطرة طوال قرون - أن يكون مستعداً للسجود على الأرض كعبد. كان على المسلمين الانسحاب إلى شعاب مكة كي يؤدوا صلاتهم سرّاً. قرئ فعل القرشيين قد أوضح بكل جلاء أن محمداً قد شخص روحهم بكل دقة.

كان الإسلام - في كلمات عملية - يعني أن على المسلمين واجب خلق مجتمع تسوده العدالة والمساواة، ويعامل فيه الفقراء والضعفاء باحترام. فرسالة القرآن الأخلاقية الأولى في غاية البساطة: تكديس الثروات خطأ كبير. لا بأس في أن يجمع المرء ثروة إلا أن تُقاسم ثروة المجتمع بالعدل فضيلة، بإعطاء نسبة محددة من ثروة المرء إلى الفقراء (١٤). فالزكاة المرافقة للصلاة هما ركنان أساسيان من أركان الإسلام الخمس. فقل محمد - ما فعله الأنبياء العبرانيون قبله عندما دعا إلى نظام أخلاقي يمكننا أن نطلق عليه أخلاقاً اشتراكية كنتيجة لعبادته الله الواحد. لا وجود لمعتقدات إلزامية حول الله: فالقرآن يرتاب

جداً من التأمل اللاهوتي - المنطقي، فيستبعده على أنه زني، تورط في الظن حول أشياء ليس في وسع أحد معرفتها أو إثباتها. فمعتقد المسيحية: التجسيد والثالوث هي أمثلة أساسية على الزني، فليس مستغرباً إذا وجد المسلمون هذه المفاهيم تجديدياً. في اليهودية تم تصور الله كضرورة أخلاقية. وبما أن محمداً لم يكن على اتصال عملي باليهود أو المسيحيين وكتبهم المقدسة لذلك فقد اتجه مباشرة إلى جوهر الوحدةانية التاريخية.

في القرآن نجد أن الله أكثر لاشخصانية من يهوى، يفترق إلى عواطف وانفعالات الله في الكتاب التوراتي المقدس. نستطيع أن نلمح فقط شيئاً من الله في آيات الطبيعة، وبما أنه متعالٍ جداً نستطيع أن نتحدث عنه من خلال رموز فقط^(١٥). ولذلك نجد القرآن يحث المسلمين دائماً على رؤية العالم كتجلى، يجب عليهم أن يقوموا بجهد تخيلي كي يروا عبر جزئيات العالم قدرة الوجود الأول الكاملة، الحقيقة المتعالية التي تمتد لجميع الأشياء بالحياة. ينبغي على المسلمين أن ينموا داخلهم موقفاً رمزياً أو تقديسياً.

«إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»^(١٦).

يشدد القرآن دائماً على استخدام العقل في فك رموز آيات أو رسالة الله. يجب على المسلمين ألا يتخلوا عن عقولهم بل عليهم أن ينظروا إلى العالم بتمعن وفضول. فهذا الموقف بالذات هو الذي مكّن المسلمين لاحقاً من بناء تراث جميل للعالم الطبيعي الذي لم يكن يُقدّر خطراً على الدين كما عدته المسيحية. فدراسة لآليات عمل العالم الطبيعي تبين أنه ذو بعد ومصدر متعالٍ يمكننا أن نتحدث عنه في رموز أو إشارات: ويجب ألا تفسر قصص الأنبياء، أو روايات يوم القيامة، أو مباحث الفردوس بشكل حرفي بل كرموز لحقيقة أسمى لا يمكن وصفها.

لكن الآية الأعظم من بين الآيات جميعاً هي القرآن ذاته. يجد الغربيون القرآن كتاباً صعباً، والسبب في ذلك هو الترجمة. فترجمته من اللغة العربية تحديداً أمر صعب جداً: حتى الأدب العادي، وعبارات الساسة الدنيوية، يبدو وقعها متكلفاً وغريباً عند ترجمتها إلى الإنجليزية. ويصبح هذا صحيحاً جداً بالنسبة إلى القرآن المتميز بلغة مختصرة ومكثفة ولامعة جداً. فالشعر الأولي تعطي انطباعاً بلغة بشرية مطبوعة ومتشظية تحت التأثير الإلهي. يقول المسلمون أنهم عندما يقرؤون القرآن مترجماً يشعرون أنهم يقرؤون كتاباً مختلفاً تماماً عن

القرآن لغياب جماليات اللغة العربية. فالمراد من القرآن - كما يوحي اسمه - أن يُرْتَل بصوت عالٍ، ووقع اللغة في النفس أمر أساسي في تأثيره. فالمسلمون يقولون إنهم عندما يسمعون ترتيل القرآن في المسجد يشعرون بأنهم محاطون بصوت ذي بعد سماوي مثلما كان محمد محاطاً بضم جبريل له في غار حراء. إنه ليس كتاباً يقرأ فقط من أجل الحصول على معلومات بل المراد منه أن يقدم إحساساً بالله، وينبغي ألا يقرأ على عجل:

وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً. فتعالى الله الملك الحق، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحّيه وقل ربّ زدني علماً^(١٧).

فمن طريق تناول القرآن بالطريقة الصحيحة يمر المسلمون بإحساس متسام، وبوجود لا نهائي وبقدرة كامنة خلف الظواهر العابرة والسابحة في العالم الديني. وبذلك فإن قراءة القرآن هي تدريب روحي قد يجد للمسيحيون فهمه أمراً صعباً، لأن ليس لديهم لغة مقدسة، ولهذا السبب نجد العبرية والمنسكركية والعربية مقدسة لدى اليهود والهندوس والمسلمين. يسوع هو كلمة الله، والعهد القديم اليوناني لا شيء فيه مقدس. أمّا اليهود فلديهم موقف مماثل من التوراة: فعندما يدرسون الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم لا يجولون بأبصارهم على الصفحة، وغالباً ما يقرؤون الكلمات بصوت عالي دون قراءة الكلمات التي يعتقدون أن الله قد استخدمها عندما تجلّى لموسى على جبل سيناء. وأحياناً يهزون أجسامهم إلى الأمام والخلف مثل لهب أمام نَفَس الروح Spirit. فكما يبدو فإن اليهود الذين يقرأون كتابهم بهذه الطريقة فإنهم يخبرون كتاباً مختلفاً جداً عن المسيحيين الذين يجلبون معظم أسفار موسى الخمس مملّة وغامضة للغاية.

يصف كتّاب السير الأوائل باستمرار التعجب والرهبة التي كان العرب يشعرون بها لدى سماعهم القرآن للمرة الأولى، فقد أسلم الكثيرون فوراً، لاعتقادهم أن الله وحده هو القادر على صياغة هذا الجمال اللغوي الخارق في القرآن. وغالباً ما كان يصف المسلم هذه التجربة على أنها إقحام إلهي فَصَدَ حتماً ذيقاً وأطلق فيضاً من المشاعر. فالفتى القرشي عمر بن الخطّاب الذي كان خصماً عتيلاً لمحمد، كان قد نذر نفسه إلى الوثنية القديمة، وكان على استعداد لاغتياي النبي. لكنه اعتنق الإسلام لا برؤيا يسوع الكلمة بل بسماعه القرآن. فهناك روايتان لقصة إسلامه تجدر الإشارة إلى كليهما. الأولى تروي أن عمر أقد اكتشف أن أخته قد اعتنقت الإسلام سرّاً. ولدى سماعه تلاوة سورة جديدة زأر غاضباً رامياً فاطمة المسكنة إلى الأرض أثناء دخوله المنزل. لكنه ربما شعر بالخجل عندما رآها

تترف لأن وجهه قد تغير لونه. التفت المخطوط قائلًا: «ما هذا الهراء؟»، وأخذ يقرأ المخطوط، إذ كان عمر أحد القرشيين القلائل الذين كانوا يقرؤون. وكان له سلطة معترف بها على الشعر العربي الشفوي، وكان الشعراء يستشيرونه بالمعاني الدقيقة للغة. لكنه لم يكن قد صادف أبداً شيئاً مماثلًا للقرآن. فقال مبدياً إعجابه: «ما أجمل وما أنبل هذا الكلام»^(١٨)، واعتنق دين الله الجديد على الفور. لقد وصل جمال الكلمات رغم ما كان يضره من حقد وضيغنة إلى مركز تلقى لم يكن مدركاً له. فتحن جميعاً نمر بتجربة مماثلة كالذي يحصل عندما تلامس قصيدة ما وتزّ معرفة كامن في مستوى أعمق من المستوى العقلاني. أما في الرواية الثانية لإسلام عمر فتسير على النحو التالي: ذات ليلة قابل عمر محمداً في الكعبة وهو يرتل القرآن بهدوء وحده أمام الخراب. كان عمر يود الاستماع إلى الكلمات، فتسلل تحت القماش الدمشقي الذي كان يغطي المكعب الغرائبي الضخم، ودار حتى أصبح واقفاً أمام النبي مباشرة. وعندما قال له «لا شيء بيننا سوى غطاء الكعبة» سقطت كل دفاعاته ما عدا واحداً. بعدئذ فعل سحر اللغة العربية فعلة: «عندما سمعت القرآن رُقّ قلبي وبكيت، ودخل الإسلام قلبي»^(١٩). فالقرآن هو الذي منع أن يكون الله مجرد وجود قدير «هناك خارجاً»، وإنما جلبه إلى داخل عقل وقلب وكيان كل مؤمن.

بالإمكان مقارنة تجربة عمر والمسلمين الآخرين الذين حولهم القرآن إلى الإسلام بالتجربة الفنية التي وصفها جورج شتاينر George Steiner في كتابه /حضورات حقيقية/: هل هناك أي شيء فيما نقول؟ إنه يتحدث عما يسميه «طيش الفن والأدب والموسيقا الجادة الذي يتساءل عن الخصوصيات الأخيرة لوجودنا». إنها حالة غزو تقتحم «منزل وجودنا الصغير الحذر، ويأمرنا: بذل حياتك». فبعد صدور أوامر كهذه فإن المنزل «لن يعود صالحاً للسكن كما كان من قبل»^(٢٠). يبدو أن المسلمين مثل عمر قد تعرضوا لإدراك لمستقر مماثل، لصحوة وإحساس بالأهمية مزعج مكنتهم من القيام بقطعة مع الماضي والتراث. فحتى القرشيون الذين رفضوا اعتناق الإسلام كان القرآن مصدر إزعاج لهم، لأنهم وجدوا أنه يقع خارج نطاق مجالاتهم المألوفة: لم يكن القرآن شبيهاً بالهلام الكاهن أو الشاعر ولم يكن كذلك مثل تمائم ساحر. وتبين بعض القصص أن قسماً من القرشيين المقتدرين بقوا ثابتين في معارضتهم التي كانت تهتز - كما يبدو - لدى سماعهم إحدى السور. لقد أوجد محمد شكلاً أدبياً جديداً كلياً لم يكن الناس مستعدين له، وكان يدخل النشوة في قلوب الآخرين. ويبدو محتملاً جداً أنه ما كان للإسلام من دون تجربة القرآن هذه أن يضرب جذوره. فكما رأينا بقي الإسرائيليون القدماء نحو ٧٠٠/ سنة حتى تمكنوا

من إحداهن قطعة مع ولعائهم الدينية القديمة كي يقبلوا الوجدانية، بيد أن محمداً تمكن من مساعدة العرب على إنجاز هذا الانتقال الصعب في مدة ٢٣/ سنة فقط. فمحمداً كشاعر ونبي، والقرآن كنص وتجلي هو بالتأكيد مثال مذهل غير عادي للاستجماع العميق الموجود بين الفن والدين.

فخلال السنوات الأولى من رسالته جذب محمد الكثيرين من الجيل الشاب إلى دينه، هؤلاء الذين خدعتهم روح الرأسالية في مكة، ومن الجماعات المهمشة دون امتيازات، ومن النساء والعبيد وأفراد من قبائل أضعف. وتخبّرنا المصادر القديمة، بدت مكة وكأنها كانت ستقبل دين الله المعدل الذي جاء به محمد، بينما بقي أفراد المؤسسة الأكثر غنى متحفظين على فهم الحالة. ولم تحدث قطعة رسمية مع قادة قريش حتى منع محمد المسلمين من عبادة الآلهة الوثنية. وكما يبدو فإن محمداً في السنوات الثلاث الأولى من رسالته لم يؤكد على المضمون الوجداني لرسالته، وربما تخيل الناس أن بإمكانهم الاستمرار في عبادة آلهتهم التقليدية إلى جانب عبادة الله، «الله المتعالي» كما كانوا يفعلون دائماً. لكن عندما أدان محمد هذه العبادات القديمة على أنها وثنية خسّر معظم أتباعه في ليلة واحدة، وبذلك أصبح أقلية مضطهدة، ومكروهة. فكما رأينا من قبل يتطلب الإيمان بإله واحد فقط تحولاً مؤلماً في الوعي. وكحالة المسيحيين الأول، اتهم المسلمون بالإلحاد الذي كان مهدداً للمجتمع. فمكة التي كانت فيها حضارة مدنية جديدة جداً لا بد أنها قد بدت إنجازاً هشاً لجميع القرشيين الذين كانوا يتفانرون بالاكثفاء الذاتي، ولا بد أن العديد قد شعروا بالخوف العميق واليأس الذي شعر به أولئك المواطنون في روما الذين ضجوا مطالبين بالدم المسيحي. ويدعو أن القرشيين قد وجدوا أن القطيعة مع آلهة الأجداد كانت تهددهم بمخاطر كبيرة. ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت حياة محمد مهددة بالخطر. يؤرخ العلماء الغربيون هذه القطيعة مع قريش إلى الحادثة المشكوك في صحتها والتي تعرف باسم /الآيات الشيطانية/ التي أصبحت معروفة منذ صدور قصة سلمان رشدي المأساوية. كانت ثلاثة إلهات من الآلهة العربية تحظى بمكانة خاصة لدى عرب الحجاز هن: اللات و«أي الإلهة» و«العزى» (أي العزيز أو المقتدر) التي كانت صوامعها منتشرة في الطائف ونخلة خاصة التي تقع إلى الجنوب الشرقي من مكة، و«مناة» أي «المحيطة» التي كانت صومعتها في «قضيض Qudayd على ساحل البحر الأحمر». لم تكن هذه الآلهة مشخصة بشكل كامل مثل جونو أو أثينا. وكانت تسمى غالباً بنات الله، لكن لا تتضمن هذه التسمية بالضرورة مجمع آلهة متطور تماماً. كان العرب يستخدمون كلمات مترادفة للتعبير عن علاقة مجردة: وهكذا فإن بنات الدهر (تعني حرفياً بنات القدر) كانت تعني سوء

الطالع فقط، أو تقلب الأيام. ولربما عنت عبارة بنات الله «كائنات إلهية». لم تُصوّر هذه الآلهات بتمائيل حقيقية في صوامعهن بل بحجارة كبيرة واقفة مثل الحجارة التي كان يستخدمها الكنعانيون. كان العرب يعبدونها لا بطريقة بدائية ساذجة بل كبؤرة «تركيز» الألوهة. وهكذا أصبحت صوامع هذه الإلهات نقاط علام روحية أساسية في الساحة العاطفية عند العرب مثلها في ذلك مثل الكعبة، فأجدادهم كانوا يتعبدون هناك منذ زمن محيق، وهذا كان يعطيهم إحساساً شافياً بالاستمرارية.

قصة الآيات الشيطانية ليست واردة في القرآن ولا في أي من المصادر المدونة أو الشفوية الأولى. وليست موجودة في سيرة ابن اسحق الأكثر وثوقية. ولم يوردها سوى أبو جعفر الطبري (d 9٢٣) الذي عاش في القرن العاشر. فيخبرنا أن محمداً كان متضيقاً من الصدع الذي تطور بينه وبين معظم قبيلته بعد أن حرم عبادة الإلهات الثلاث. وبعد أن ألهمه الشيطان تفوه بآيات خادعة كان تسمح بتبجيل بنات الله كشفيعات، أي كملائكة. ففي هذه الآيات الشيطانية المزعومة لم تكن الإلهات الثلاث بمرتبة الله بل كائنات روحية أدنى مرتبة تتوسط لصالح الإنسان عند الله. ويقول الطبري أن جبريل قد أخبر النبي أن هذه الآيات كانت من أصل شيطاني، ويجب حذفها من القرآن وأن يستعاض عنها بالآيات التالية التي أعلنت أن بنات الله كن مجرد استقاطات الخيلة وشطحاتها:

أفرايتم اللات والزوى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سئتموها أنتم وآباؤكم وما أنزل الله بها من سلطان إن يحبون إلا الفتن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى. أم للإنسان ما قفى. فله الإنيزة والأولى. وكم من ملك في السموات لا نفى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى^(٢١).

كانت هذه الإدانة هي الإدانة الأكثر جذرية للآلهة الوثنية السلفية لأنها ألغت أية فرصة للمصالحة مع قریش. وأصبح محمد موحداً غيوراً من هذه الفترة فصاعداً، وأصبح الشرك أكبر الذنوب جميعاً.

لم يقدم محمد أي تنازل للشرك في حادثة الآيات الشيطانية وكأنها لم تحدث. ومن غير الصحيح أيضاً تخيل أن دور الشيطان كان يعني تدنيساً مؤقتاً للقرآن بالشر. فالشيطان في الإسلام شخصية سهلة الانقياد أكثر مما كانت في المسيحية. فالقرآن يخبرنا أنه سوف يُجْهَل إلى يوم الدين، وغالباً ما استخدم العرب كلمة الشيطان للإشارة إلى مغرٍ بشري أو

إغراء طبيعي^(٢٢). وتدل هذه الحادثة على الصعوبة التي كان يشعر بها محمد بالتأكيد عندما حاول تجسيد الرسالة الإلهية في كلمات بشرية. إنها مرتبطة بآيات قرآنية قوية تعني أن معظم الأنبياء قد ارتكبوا هفوات شيطانية مماثلة عندما كانوا ينقلون الرسالة لكن الله كان دائماً يصحح أخطأهم، وكان يرسل وحياً جديداً أعلى بدلاً من السابق. هناك بديل وأسلوب أكثر دنيوية للنظر إلى هذه المسألة هي: أن نرى محمداً ينقح عمله على ضوء رؤى جديدة مثلما يفعل أي فنان مبدع. فالمصادر تبين أن محمداً كان يرفض مساومة قریش رفضاً تاماً في مسألة عبادة الأصنام لقد كان رجلاً عملياً براغماتياً - نراه على استعداد لتقديم تنازل عندما يكون الأمر غير أساسي لكنه كان يرفض طلب القرشيين عندما كانوا يطلبون منه السماح لهم بعبادة آلهة الأجداد وأن يستمر هو وأصحابه في عبادة الله. كان محمد يرفض هذا الاقتراح بنصف. وقد صاغ القرآن هذا الأمر بكل وضوح: «ولا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين»^(٢٣). فالمسلمون يسلمون إلى الله وحده ولن يخضعوا لآلهة زائفة - ولو كانت آلهة أو قيماً يراعاها القرشيون.

مفهوم وحدانية الله كان الأساس الأخلاقي في القرآن. كانت كلمة الشرك تعني الخضوع إلى سلع مادية أو وضع الثقة في كائنات أدنى من الله، لذا يُعدّ الشرك أكبر ذنب في الإسلام. وكالتوراة يصب القرآن سخرته على الآلهة الوثنية: إنها آلهة غير فعالة أبداً، فهي لا تستطيع تقديم العون أو الطعام. ووضعها في مركز حياة المرء أمر غير جيد لأنها لا قدرة لها. وبدلاً من ذلك - يجب على المسلم أن يدرك أن الله هو الحقيقة الفريدة والنهائية: قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد^(٢٤).

لقد شدد المسيحيون - كما شدد أثنانازيوس أيضاً - على أن الخالق الواحد هو مصدر الوجود وببده قدرة الخلاص، وقد عبروا عن هذه الرؤية في التالوث والتجسيد. يعود القرآن إلى فكرة الوجدانية الإلهية المتعالية، ويرفض تخيل أن يلد الله ابناً؛ ليس هناك إله سوى الله خالق السموات والأرض، وهو وحده القادر على أن ينقذ الإنسان، وأن يرسل إليه العون الروحي والمادي الذي يحتاجه. فمن طريق الاعتراف به فقط على أنه الصمد أي «العله الأولى لكل ما في الوجود» يبلغ المسلمون بعداً للحقيقة تقع خارج الزمن والتاريخ. وميأخذهم هذا البعد خارج انقساماتهم القبلية التي كانت تترق مجتمعاتهم. كان محمد يعرف أن الوجدانية هي علو القبلية: فوجود إله واحد في مركز العبادة سيمل شمل المجتمع والفرد كذلك.

ليس هناك مفهوم تبسيطي لفكرة الله على أية حال. فهذا الإله الواحد ليس كائناً

مثلنا يمكننا معرفته أو فهمه. فعبارة الله أكبر التي تدعو المؤمنين إلى الصلاة تميز بين الله وبقية الوجود، وبين الله كما هو في ذاته، وبين أي شيء يمكننا قوله عنه. فالله الذي لا سبيل إلى فهمه أو الوصول إليه قد أراد أن يجعل نفسه معروفاً. في ثراث قديم /أي الحديث/ يقول الله للحمد: كنتُ سرّاً دفيناً، أردت أن أعرف، ولذلك خلقت العالم كي أعُدو معروفاً^(٢٥)، فمن طريق تأمل آيات الطبيعة والقرآن يتمكن المسلمون من لمح ذلك الجانب من الألوهة التي التفتت نحو العالم، والتي يسميها القرآن وجه الله. ويوضح الإسلام لنا - مثلما أوضح الدينان الأقدم منه - أننا نرى الله عبر قدراته فقط، وتكيف هذه القدرات وجوده الذي لا سبيل إلى فهمه بما يتناسب وفهمنا المحدود. فالقرآن يحث المسلمين على تنمية وعي أبدي «التقوى» بوجه أو بذات الله الذي يحيط بنا من كل جانب «فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله إن الله واسع عليم»^(٢٦). يرى القرآن الله - كما رآه الآباء المسيحيون: المطلق، وهو وحده ذو وجود حق «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»^(٢٧). لله الأسماء الحسنى التي يبلغ تعدادها ٩٩/ اسماً وتؤكد على أنه الأعظم ومصدر جميع الصفات الإيجابية التي نجدها في الكون. وهكذا العالم موجود لأنه هو الغني «غني ولا نهائي»، إنه واهب الحياة «الحبي»، العارف بالأشياء جميعاً «العليم»، منتج الكلام «الكلمة». فلولا لما كانت حياة أو معرفة أو كلام. إنها تأكيد على أن الله فقط له الوجود الحق والقيمة والإيجابية. مع ذلك تبدو أسماء الله وكأن كلاً منها يلغي الآخر: «القاهر» الذي يهيمن ويكسر ظهور أعدائه، «الحليم» الذي قدرة احتماله لا متناهية. «القابض» الذي يأخذ بمبدأ، «الباسط» الذي يعطي بسخاء. «الخافض» الذي ينزل إلى أدنى مرتبة، «الرافع» الذي يرفع.... تلعب أسماء الله دوراً مركزياً في التقوى الإسلامية: فهي تُرَدّد وتعد على حيات المسباح، وترتل كحلقة، فهذه الأسماء تذكر المسلمين أن الله الذي يعبدون لا يمكن احتوائه في مجالات بشرية، ويرفض التعريف المبسط.

الشهادة هي أول ركن في الإسلام: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». لم تكن هذه الشهادة مجرد تأكيد لوجود الله بل اعترافاً بأن الله هو الحقيقة الوحيدة، والوجود الكامل الحق الوحيد. الله هو الوجود الحق الوحيد في الجمال والكمال: جميع الكائنات التي تبدو موجودة ولها هذه الصفات إنما تملكها ظلالاً أنها تشارك في هذا الوجود الأساسي. وينبغي على المسلمين أن يكملوا حياتهم يجعل الله فقط بؤرة تركيز في حياتهم وأولويتهم الوحيدة. فتأكيد وحدانية الله لا يتم عبر إنكار أن آلهة أخرى مثل بنات الله ليس أهلاً للعبادة. فقول إن الله واحد لم يكن مجرد تعريف عددي بل كان دعوة لجعل الواحد العامل المحرك في حياة المرء والمجتمع، فبالإمكان رؤية وحدانية الله في الذات المتكاملة حقاً.

وكانت وحدانية الله تتطلب من المسلمين الإقرار بالإحياءات الدينية في أديان أخرى: هناك إله واحد فقط، وجميع الأديان الحق لا بد أنها مستمدة منه وحده. الإيمان بالحقيقة العليا الوحيدة مشروط ثقافياً، وسيتم التعبير عنها في مجتمعات مختلفة في طرق مختلفة. لكن بصورة كل عبادة حق يجب أن تكون موحاة من الله ومتجهة إلى الوجود الذي أسماه العرب دائماً «الله». أحد أسماء الله في القرآن هو «النور»، فالله هو مصدر كل معرفة، وهو السبيل الذي من خلاله يستطيع الناس لمح المتعالي:

الله نور السموات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دريُّ يوقدُ من شجرة مباركة زينة لا شرقية ولا غربية يكاد زَيْهَا يضيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُوِّرْ على نور يَهْدِي الله النور من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم^(٢٤٨).

تذكرنا أداة التشبيه «كَمْ بالطبيعة الرمزية الأساسية في الخطاب القرآني عن الله. فالنور ليس هو ذات الله، بل يشير إلى الاستنارة التي يسبغها على ظهور محدّد (المصباح الذي يشع في قلب الفرد) (المشكاة). لا يمكن تعريف النور ذاته بحامله، لكنه مشترك بينهم جميعاً. فكما أشار المفسرون المسلمون منذ عصور قديمة إلى أن النور رمز جيد للتعبير عن الحقيقة الإلهية تمهيداً، التي تتعالى على الزمان والمكان. وقد فسرت صورة شجرة الزيتون في هذه الآية على أنها إشارة إلى استمرارية الوحي الذي ينبع من جذر واحد ويتفرع بعدد تنوع التجربة الدينية التي لا يمكن تعريفها أو حصرها في أي تراث محدّد أو محلية: إنها لا شرقية ولا غربية.

عندما اعترف ورقة بن نوفل بمحمد نبياً حقاً لم يكن يتوقع لا هو ولا محمد أن يعتنق الإسلام. ومحمد لم يطلب من اليهود أو المسيحيين اعتناق دينه إلا إذا رغبوا بذلك، لأنهم قد تلقوا وحيّاً خاصاً بهم. وبالتالي لم ير القرآن الوحي لاغياً لرسالات ورؤى أنبياء سابقين بل أكد على استمرارية تجربة البشر الدينية. إنه لمن الأهمية بمكان أن نشدد على هذه النقطة لأن الغربيين اليوم يشعرون أنهم ميالون إلى اتهام الإسلام بعدم التسامح. فنجد البداية رأى المسلمون الوحي في شروط استثنائية أقل مما رآه فيها اليهود أو المسيحيون. فتهمة عدم التسامح التي يوجهها أناس كثيرون إلى الإسلام لا تتبع دائماً من رؤية لله مغالفة لرؤيتهم، بل تتبع من مصدر آخر تماماً^(٢٤٩): لا يتسامح المسلمون مع الظلم سواء ارتكب ذلك من قِبل حكامهم من أمثال شاه إيران محمد رضا بهلوي أو من قبل الدول الغربية القوية. إن القرآن لا يدين التراثات الدينية الأخرى بدعوى أنها زائفة أو ناقصة، بل يبيّن أن كل نبي يستمر ويؤكد على رؤى هذا المنهج. فالقرآن يبين أن الله قد

أرسل رسلاً إلى كل أمة على وجه الأرض: ويقول التراث الإسلامي أنه قد بعث نحو / ١٢٤٠٠٠ نبياً، وهذا عدد رمزي يعني اللانهاية. وهكذا نرى القرآن يوضح مراراً أنه لا يجلب رسالة جديدة كلياً، وأن على المسلمين أن يؤكدوا على صلتهم بالأديان الأقدم من الإسلام:

ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقالوا
آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له
مسلمون^(٣٠).

أمر طبيعي أن يشير القرآن إشارات خاصة إلى الرسل الذين كان يعرفهم العرب/ مثل نوح وإبراهيم، وموسى ويسوع الذين كانوا أنبياء اليهود والمسيحيين، ويذكر أيضاً هود، وصالح اللذين أرسلوا إلى الشعوب العربية القديمة في مدين وثمود. ويؤكد المسلمون اليوم على أنه لو كان محمد عارفاً بالهندوسية والبوذية لكان ضمن حكماهم الدينيين. فبعد وفاة النبي فتح هؤلاء حرية دينية كاملة في الإمبراطورية الإسلامية، مثلما أُعطِيَ اليهود والمسيحيون. ويجادل المسلمون - استناداً إلى المبدأ نفسه أن القرآن كان سيكرم الشaman والمقدسين عند الهنود الأمريكيين أو عند بدائيي استراليا لو كانوا معروفين في حينه.

إن إيمان محمد في استمرارية التجربة الدينية سرعان ما وضع على المحك. فبعد الانشقاق عن قريش أصبحت الحياة مستحيلة أمام المسلمين في مكة. كان العبيد والمحررون الذين لم تكن لهم حماية قبلية كانوا يعذبون بوحشية حتى أن بعضهم قد توفي تحت التعذيب، وفُرضت مقاطعة على بني هاشم في محاولة لتجويعهم وإخضاعهم بالتالي: ومن المحتمل أن هذا الحرمان قد تسبب في وفاة زوجته الحبيبة خديجة، وفي النهاية أصبحت حياة محمد في خطر. ودعا العرب الوثنيون في يثرب المسلمين إلى ترك عشيرتهم والهجرة إلى يثرب: فكانت هذه خطوة لا سابقة لها إطلاقاً: لأن القبيلة بالنسبة للعربي كانت هي القيمة المقدسة في شبه الجزيرة فكان هذا الرد خرقاً لمبادئ أساسية. كانت يثرب على ما يبدو - ممزقة بحروب لا تتدخل بين الجماعات القبلية المتنوعة، وكان كثير من الوثنيين على استعداد لقبول الإسلام كحل روحي وسياسي لمشكلات الواحة. كانت في يثرب ثلاث قبائل يهودية كبيرة قد أعدت عقول الوثنيين لتقبل الوحدةانية، أي أنهم لم يشعروا بما شعر به القرشيون بتشويه سمعة الآلهة العربية. وهكذا انطلق نحو / ٧٠ مسلماً مع أسرهم قاصدين يثرب في صيف عام ٦٢٢م.

في السنة التي سبقت الهجرة إلى يثرب عدّل محمد دينه كي يجعله أقرب إلى

اليهودية كما فهمها هو. فبعد سنوات عديدة من العمل في عزلة لابد أنه كان يتطلع إلى العيش مع أفراد من تراث أقدم وأكثر رسوخاً. ولذلك فرض صوماً على المسلمين في يوم الغفران اليهودي وأمر المسلمين أن يصلوا ثلاث مرات كل يوم كما كان يفعل اليهود بدلاً من الصلاة مرتين حتى ذلك التاريخ. كان باستطاعة المسلمين الزواج من النساء اليهوديات، وكان عليهم الالتزام ببعض قوانين الحماية. زد على ذلك كان المسلمون يسمون وجوههم أثناء الصلاة نحو القدس مثلما كان يفعل اليهود والمسيحيون. في البداية كان يهود المدينة مستعدين لإعطاء وإلى فرصة: فالحياة قد أصبحت لا تتطابق في الواحة، وكانوا يشكون فيه خاصة منذ أن بدأ ميلاً إيجابياً تجاه دينهم. في النهاية تحولوا ضده وانضموا إلى الوثنيين الذين كانوا معادين للوافدين الجدد من مكة. كان لدى اليهود أسباب دينية سليمة لرفضهم: لأنهم كانوا يعتقدون أن عصر النبوة كان قد انتهى، وكانوا ينتظرون المسيح المنتظر، ومع ذلك كانت تحركهم اعتبارات سياسية: إذ في الأيام الغائرة كانت لديهم سلطة في الواحة عن طريق رمي ثقلهم مع هذا الطرف أو ذاك من القبائل العربية المتحاربة. لكن محمداً جمع هذه القبائل مع قريش في الأمة الإسلامية الجديدة: قبيلة قوية ضمت اليهود أيضاً. وحينما بدأ اليهود يرون أن مركزهم في المدينة راح يتحدر انقلاباً وأصبحوا معادين لمحمد. واعتادوا على التجمع في المسجد كي يسمعوا قصص المسلمين، وليضحكوا ويسخروا من دينهم^(٣١). وكان من السهل عليهم، بسبب معرفتهم بالكتاب المقدس، لإيجاد بعض الثغرات في قصص القرآن التي كان بعضها مختلفاً تماماً في روايته عن النص التوراتي. كانوا يسخرون من إدعاءات محمد قائلين إنه لأمر غريب أن يدعي امرؤ أنه نبي وليس في وسعه أن يثر على بجملة إذا ضاع.

ربما كان رفض اليهود لمحمد أكبر يأس في حياته، وجعل مركزه الديني كله موضع تساؤل بيد أن بعض اليهود كانوا على علاقة طيبة بمحمد، ويبدو أنهم شاركوا المسلمين في مقدرة مشرفة: كانوا يناقشون التوراة معه، ويبنون له كيف يرد على انتقادات اليهود، فساعدته معرفته الجديدة بالتوراة على تطوير رؤاه. فقد تعلم محمد - ولأول مرة - التسلسل التاريخي الدقيق للأنبياء، وكان ذلك ضبابياً له فيما سبق فأصبح باستطاعته الآن أن يرى الأهمية الكبيرة بأن إبراهيم قد عاش قبل كل من موسى أو يسوع. فحتى هذه المرحلة اعتقد محمد أن اليهود والمسيحيين كانوا ينتمون إلى دين واحد، لكنه علم بعدئذ أن هناك نقاط خلاف خطيرة بينهما. وكان الاختيار بين هذين الموقفين أمراً ليس بلدي أهمية خاصة بالنسبة لأناس من الخارج كالعرب مثلاً. ومن المنطقي تخيل أن أتباع التوراة والإنجيل قد أدخلوا عناصر غير صحيحة إلى الحنفية - دين إبراهيم الحنيف، مثل الشريعة الشفوية التي

شرحها الأحرار، والاعتقاد التجديفي بالثالوث. وعلم محمد كذلك أن اليهود قد شُؤوا في كتابهم المقدس «الشعب الذي لا دين له» الذين تحولوا إلى الوثنية كي يعبدوا العجل الذهبي. تطور الجدل ضد اليهود في القرآن تطوراً جيداً، وبين إلى أي حد شعر المسلمون بالخطر نتيجة رفض اليهود لهم، على الرغم من أن القرآن استمر في التأكيد على أنه ليس جميع «معتنقي الأديان الأقدم منه»^(٣٢) قد وقعوا في الخطأ، وعلى أن أصل جميع الأديان واحد.

كما تعلم محمد من بعض يهود المدينة الودودين قصة اسماعيل الابن البكر لإبراهيم. فكما في التوراة كان لإبراهيم ابن من خليلته هاجر، لكن سارة أصبحت غيرة بعد إنجابها لاسحق وطالبت إبراهيم بالتخلص من هاجر واسماعيل. فلكي يريح الله إبراهيم وعده أن يصبح اسماعيل أباً لأمة عظيمة. وقد أضاف اليهود العرب بعض الأساطير المحلية إلى هذه القصة قائلين إن إبراهيم ترك هاجر واسماعيل في وادي مكة، حيث اعتنى بهما الله، وكشف لهما نبع زمزم عندما كان الطفل على وشك الموت عطشاً. وأن إبراهيم قد زار اسماعيل لاحقاً وأن الأب وابنه بنيا الكعبة، أول معبد لله الواحد. وهكذا أصبح اسماعيل أباً العرب، وإبراهيم أباً لليهود لا بد أن هذه القصة كان لها وقع موسيقى على أذني محمد: لقد جلب إلى العرب كتابهم، والآن أصبح بإمكانه أن يمد جذور دينهم إلى تقوى أجدادهم. ففي كانون الثاني عام ٦٢٤م. أي عندما أصبح واضحاً أن عداوة يهود المدينة كانت أبدية، أعلن دين الله الجديد استقلاله. فأمر محمد المسلمين أن ييمموا وجوههم في الصلاة شطر مكة بدلاً من أورشليم، فكان هذا التغير في الاتجاه أثناء الصلاة الإشارة الدينية الأكثر إبداعاً. فعن طريق التوجه إلى الكعبة التي كانت مستقلة عن الدينين الأقدم أدرك المسلمون وبكل براعة أنهم لا ينتمون إلى دين راسخ سابق بل كانوا يسلمون أنفسهم إلى الله وحده. إنهم لم يكونوا منضمين إلى طائفة قسمت دين الله الواحد دون ورع إلى جماعات متحاربة. وكانوا يرجعون إلى دين إبراهيم الأول الذي كان المسلم الأول الذي استسلم لله، والذي بنى بيته للمقدس:

وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون^(٣٣).

إن تفضيل تفسير بشري للحقيقة على الله ذاته كان بكل تأكيد وثنية.

يرجع المسلمون تأريخهم الإسلامي لا إلى ولادة محمد، ولا إلى السنة التي تلقى

فيها أول وحي بل إلى السنة التي هاجروا فيها إلى المدينة (عندما بدأ المسلمون ينجزون الخطوة الإلهية في التاريخ يجعل الإسلام حقيقة سياسية: فقد رأينا أن القرآن يدعو جميع المؤمنين إلى العمل من أجل إقامة مجتمع تسوده العدالة والمساواة. وقد أخذ المسلمون هذا النداء السياسي بجدية كبيرة حقاً. فلم يكن في نية محمد أن يصبح قائداً سياسياً في البداية، لكن الأحداث التي لم يكن يوسعه التنبؤ بها دفعت به باتجاه حل سياسي جديد كلياً للعرب. فخلال السنوات العشرين للهجرة ووفاته عام ٦٣٢ دخل المسلمون الأول في صراع يائس من أجل البقاء ضد خصومهم في المدينة وضد قريش في مكة، وكان هؤلاء جميعاً على استعداد لاستئصال الأمة.

في الغرب قُدِّم محمد على أنه قائد محارب فرض الإسلام على عالم متردد بقوة السلاح إلا أن حقيقة الأمر كانت شيئاً مختلفاً تماماً. لقد كان محمد يحارب من أجل حياته، وكان يطور لاهوت الحرب العادلة في القرآن، وسياقته معظم المسيحيين على ذلك، ولم يجبر محمداً أحداً على اعتناق دينه. فقد نص القرآن بكل وضوح ولا إكراه في الدين. وفي القرآن تعتبر الحرب بغيضة، والحرب العادلة الوحيدة هي حرب الدفاع عن النفس. وفي بعض الأحيان من الضروري أن نحارب صوتاً لقيم ممتازة، تماماً مثلما اعتقد المسيحيون بضرورة محاربة هتزر. كان محمد يتمتع بمواهب سياسية رفيعة المستوى. ففي حوالي نهاية حياته كانت قد انضمت معظم القبائل إلى الأمة - علماً أن محمداً كان يعلم أن إسلامهم كان إما اسماً أو سطوحياً. في عام ٦٣٠ فتحت مكة بواباتها لمحمد الذي أخذها دون سفك دماء. وفي عام ٦٣٢ أي قبيل وفاته بوقت قصير قام بحجة الوداع فأبقى على الشعائر الوثنية العربية القديمة كالْحَجِّ الذي كان عزيزاً جداً على العرب وجعله الركن الخامس من أركان دينه.

نُفِرض الحُجَّج على المسلمين مرة في الحياة إن كانت ظروفهم الحياتية تسمح بذلك. فمن الطبيعي أن يتذكر الحجاج محمداً، لكن فُسرَت شعائر الحُجَّج كي تذكرهم بأبراهيم وهاجر واسماعيل أكثر مما تذكرهم بنبيهم. تبدو هذه الشعائر لإنسان غير مسلم غريبة مثلها مثل أية طقوس دينية أو اجتماعية، لكنها قادرة على إطلاق تجربة دينية عالية التركيز، وتعمل بشكل تام عن الجوانب الذاتية والجماعية في الروحانية الإسلامية. فالأول الحجاج الذين يجتمعون في مكة في الوقت المحدد ليسوا عرباً فقط، لكنهم قادرون على جعل الطقوس العربية طقوسهم. فعندما يتوافدون إلى الكعبة بملايس الإحرام التي تلغي جميع

الفوارق العرقية أو الطبقية فإنهم يشعرون بأنهم قد تحرروا من مشاغلهم الأنانية في حياتهم اليومية، وأنهم مندمجون في مجتمع له هدف واحد وتوجه واحد. إنه يصيحون بالنسجام «ها نحن في خدمتك أيها الرب (إتيك اللهم إتيك)» قبل أن يبدأوا الطواف حول الكعبة وقد أوضح المعنى الأساسي لهذه الشعيرة الفيلسوف الإيراني علي شريعتي:

«بينما تطوف وتقترب من الكعبة تشعر وكأنك جداول صغير يرفد نهراً كبيراً. أو أنك محمول على موجة، وقعدت الصلة بالأرض. وفجأة تجد نفسك عائماً بحملك الطوفان. وبينما تقترب من المركز بعصرك ضغط الحشود لدرجة تشعر معها أنك قد وُهِيت حياة جديدة، فأنت الآن جزء من الناس. أنت الآن إنسان، حي وخالد... فالكعبة هي شمس العالم التي يجذبك وجهها إلى داخل ملهها. لقد أصبحت جزءاً من هذا النظام الكوني. أن تطوف حول الله سرعان ما تنمي نفسك. لقد تحولت إلى ذرة تنصهر تدريجياً وتلاشى. هذا هو الحب المطلق في ذروته»^(٤٣).

لقد شدد اليهود والمسيحيون أيضاً على روحانية الجماعة. فالحج يمد كل فرد مسلم بتجربة كمال ذاتي في جو الأمة، والله في وسطها. فكما في معظم الأديان: السلام والانسجام هما موضوعان هامين في الحج، وما أن يدخل الحجاج في الإحرام حتى يُحرم كل نوع من العنف، حتى قتل حشرة أو النطق بكلمة نابية. ومن هنا كان السخط الذي عم العالم الإسلامي خلال موسم الحج عام ١٩٨٧ عندما قام الحجاج الإيرانيون بمظاهرة قتل فيها ٤٠٢/٤ شخصاً وجرح ٦٤٩/٦ آخرون.

توفي محمد بشكل غير متوقع بعد فترة مرض قصيرة في حزيران عام ٦٣٢ . فحاولت بعض القبائل البدوية الارتداد عن الأمة، لكن الوحدة السياسية في الجزيرة العربية كانت قد ترسخت. وفي النهاية قبلت القبائل المرتدة دين الله الواحد: لقد بين النجاح الحمدي للمدهش للعرب أن الوثنية التي خدمتهم جيلاً طوال قرون كانت دون فاعلية في العالم الحديث. لقد أدخل دين الله روح الجماعة الرحيمة التي كانت سمة الأديان المتطورة: فالأخوة والعدالة الاجتماعية هما فضيلتا المميزتان له. والمساواة ما تزال سمة مميزة للمثل الإسلامية.

كانت حياة محمد تتضمن المساواة بين الجنسين. جرت في يومنا هذا العادة على القول أن الإسلام دين يحط من قدر النساء، لكن دين الله كان موقفه إيجابياً من النساء. في الجاهلية - أي الفترة التي سبقت الإسلام كانت الجزيرة العربية ماتزال تحتفظ بالمواقف

الجاهلية تجاه النساء، والتي سادت قبل العصر الحواري. كان تعدد الزوجات شائعاً، كن يقيين في منازل آبائهن. وكانت نساء النخبة يتمتعن بسلطة وامتياز لا بأس بهما. فزوجة محمد الأولى خديجة تاجرة ناجحة، لكن معظم النساء كن على قدم المساواة مع العبيد، دون حقوق سياسية أو إنسانية، وأد البنات كان عادة شائعة. كانت النساء من أوائل المعتنقين للإسلام، وكان تحريرهن مشروعاً عزيزاً جداً على قلب محمد. لقد حرم القرآن وأد البنات تحريماً تاماً. وسخر من حزن العرب حينما يريزون بالإثناث. وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقاً قانونية في الإرث والطلاق: معظم النساء الغريات لم يكن لهن مثل هذه الحقوق حتى القرن التاسع عشر. لقد شجع محمد النساء على لعب دور فعال في شؤون الأمة، وكن يعبرن عن آرائهن بشكل مباشر، وكن وإثقات من أنهن سيلقين أذاناً صاغية. ففي إحدى المناسبات شكت نساء المدينة إلى الرسول أن الرجال كانوا يعزلوهن أثناء تدارسهن القرآن، وطلبن منه أن يأمر الرجال بالكف عن ذلك، وهذا ما فعله. وتسلطت النساء لماذا خاطب القرآن الرجال فقط في الوقت الذي أسلمت فيه النساء أيضاً. فكانت النتيجة نزول الوحي مخاطباً النساء كما خاطب الرجال، وأكد على المساواة بين الجنسين أخلاقياً وروحياً^(٣٠). ولذلك خاطب القرآن النساء صراحة، وقلما يحدث هذا في اليهودية أو المسيحية.

لكن لسوء الحظ سرعان ما اختطف الرجال الدين - كما في المسيحية - وفسروه بطريقة كانت لها نتائج سلبية على المسلمات، فالقرآن لا يفرض الحجاب على جميع النساء بل على زوجات محمد فقط للدلالة على مركزهن. وما أن تبوأ الإسلام مكانته في العالم المتحضر حتى بنى المسلمون تلك العادة الدنيوية التي أنزلت النساء إلى المرتبة الثانية. لقد بنى المسلمون عادة تحجيب النساء وعزلهن في الحرمك من فارس وبيزنطة المسيحية حيث كانت النساء مهمشات منذ أمد بعيد. كانت مكانة النساء في فترة الخلافة العباسية (٧٥٠ - ١٢٥٨) سيئة مثل مكانة أخواتهن في المجتمع اليهودي والمسيحي. واليوم تحت الحركات النسائية الإسلامية الرجال على العودة إلى روح القرآن الأصيلة.

يذكرنا هذا أن بالإمكان تفسير الإسلام - مثله مثل أديان أخرى - بطرق مختلفة عديدة، مما أدى إلى نشوء مذاهبه وأقسامه. أولى هذه هي السنة والشيعة التي تعاطم الصراع بينهما على القيادة بعد وفاة محمد المفاجئة. لقد انتخبت الأغلبية أبابكر صديق محمد الحميم، بينما قال البعض أن النبي كان يريد علي بن أبي طالب ابن عمه وزوج ابنته كي يكون خليفته. لقد قبل علي شخصياً قيادة أبي بكر، لكن خلال السنوات

القتال التالية يبدو أن مركز الولاء كان للمنشقين الذين لم يوافقوا على سياسات الخلفاء الأوائل: أبو بكر وعمر، وعثمان. وفي سنة ٦٥٦ أصبح علي الخليفة الرابع، ويسميه الشيعة «الإمام» أو قائد الأمة. أما فيما يتعلق بالقيادة فإن الخلاف بين السنة والشيعة كان سياسياً أكثر مما كان دينياً ويعتبر هذا دليلاً على أهمية علم السياسة في الدين الإسلامي، ومن ضمنه مفهوم الله. شيعة علي بقيت أقلية، وسوف تنظم لاحقاً احتجاجاً قوياً يتجمل في شخصية الحسين بن علي للمساواة - حفيد محمد الذي رفض قبول الأمويين الذين استولوا على الخلافة بعد موت أبيه علي، قتل مع نفر قليل من مؤيديه على يد الخليفة الأموي يزيد في عام ٦٨٠م على سهل كربلاء قرب الكوفة. جميع المسلمين ينظرون إلى المذبحة اللاأخلاقية التي ارتكبت بحق الحسين، نظرة رعب، لكنه أصبح بطلاً خاصاً بالشيعة، ويذكرنا هذا بأن من الضروري أحياناً محاربة الطغيان حتى الموت. في هذا الوقت كان المسلمون قد بدؤوا بتأسيس امبراطوريتهم. الخلفاء الأربعة (الراشدون) كانوا مهتمين بنشر الإسلام فقط. بين عرب الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية اللتين كانتا في حالة سقوط. في عهد الأمويين استمر التوسع إلى آسيا وشمال أفريقيا، ففي هذه الفتوحات لم يكن الملهم هو الدين بقدر ما كان مستمداً من تأسيس امبريالية عربية.

لم يُختَر أحد على اعتناق الإسلام في الامبراطورية الجديدة، وحتى بعد موت محمد بقرون عديدة لم تكن محاولة هداية الآخرين من أديان أخرى لاعتناق الإسلام تلقى تشجيعاً، وفي حوالي سنة ٧٠٠ / كان القانون يمنع ذلك. كان المسلمون يعتقدون أن الإسلام كان للعرب مثلما كانت اليهودية لأبناء يعقوب. لقد أُعطي أهل الكتاب - أي اليهود والمسيحيون - حرية دينية (الذمة)، حرية حمت الأقليات. وعندما بدأ الخلفاء العباسيون يشجعون الناس على اعتناق الإسلام، كانت الشعوب السامية والآرية في الامبراطورية تواق لاعتناق الدين الجديد: لقد كان نجاح الإسلام شكناً (أي مساعداً على التشكل والتكوين) مثلما كان فشل وإذلال المسيح في المسيحية. فالسياسة ليست أمراً عرضياً في حياة المسلم الدينية الشخصية، كما في المسيحية التي لا تلتق بالنجاح الدنيوي. فالمسلمون يعتبرون أنفسهم ملزمين بإنجاز مجتمع عادل وفقاً لإرادة الله، والأمة لها أهمية مقدسة قد باركها الله، كما بارك السعي لتحرير الإنسانية من الاضطهاد والظلم. فسلامة الأمة السياسية له المكانة نفسها في الروحانية الإسلامية كخيار ثيولوجي محدد. فإذا وجد المسيحيون تقدير المسلمين للسياسة أمراً غريباً، ينبغي عليهم أن يفهموا أن عاطفتهم تجاه نقاش ثيولوجي مبهم تبدو شاذة أيضاً بالنسبة لليهود والمسلمين.

كان التأمل في طبيعة الله في السنوات الأولى من التاريخ الإسلامي نابغاً في أغلب الأحيان من اهتمام سياسي حول دور الخلافة والمؤسسة. لقد أثبتت النقاشات العلمية حول من يقود الأمة وما هي مواصفاته أنها نقاشات شكلية في الإسلام، مثل النقاش حول شخص وطبيعة يسوع في المسيحية. فبعد انقضاء الخلافة الراشدة وجد المسلمون أنفسهم يعيشون في عالم مختلف جداً عن مجتمع المدينة الصغير المتناحر، وغدوا الآن سادة امبراطورية مترامية، وكان قاداتهم محفزين بالذنيوية والجشع. كان هناك رخاء وفساد بين الأرستقراطية والبلاط، وكان هذا شديد الاختلاف عن حياة التقشف التي عاشها النبي وأصحابه: كان المسلمون الأتقياء يتحدون المؤسسة برسالة القرآن الاجتماعية، فحاولوا جعل الإسلام متناسباً مع الظروف الجديدة مما أدى إلى ظهور عدد كبير من الحلول والمذاهب.

قدم الفقهاء الحل الأكثر شعبية، وكذلك فعل الترابيون الذين حاولوا العودة إلى مثل محمد والراشدين. أدى ذلك إلى تشكيل القانون الشرعي (أي العرف النبوي على القرآن والحياة والقواعد السلوكية التي مارسها النبي). كان يتم تناقل عدد مترك من التراث الشفوي حول كلمات «الحديث» وممارسة محمد «السنة» وأصحابه الأول. فتم جمعهما خلال القرنين الثامن والتاسع على يد عدد من جامعي الحديث: أكثرهم شهرة محمد بن اسماعيل البخاري، ومسلم بن عجاج القرشي. وبما أن محمد قد استسلم كلياً لله كان على المسلمين أن يحلوا حذوه في حياتهم اليومية. فمن طريق محاكاة أسلوب حديث، وأكل، واغتسال، وتعبّد، وحب محمد كان القانون المقدس الإسلامي يساعد المسلمين على أن يعيشوا حياة منفتحة على الإلهي. فمن طريق قبولية أنفسهم وفقاً للنبي كانوا يأملون في بلوغ انفتاحه الداخلي لله. فعندما يتبع المسلمون سنة كالمبادرة بالتحية، أو الرفق بالحيوانات، واللطف مع اليتامى والفقراء، مثلما كان كريماً وصادقاً في تعامله فإنه يتم تذكيرهم بالله. يجب ألا تكون المظاهر الخارجية غايات بحد ذاتها بل وسيلة لبلوغ التقوى «معرفة الله» كما وصفها القرآن وكما مارسها النبي، والتي تتكون من تذكّر مستمر (الذكر). حدث جدال كبير حول صحة السنة والحديث: اعتبرها البعض أكثر مصداقية مما اعتبرها آخرون: لكن في النهاية فإن مسألة الصحة التاريخية لهذه التراثات أمر أقل أهمية من أهمية الحقائق التي عبرت عنها. لقد أثبتت أنها قادرة على إحضار إحساس مقدس بالله إلى داخل حياة الملايين من المسلمين عبر القرون.

تهتم للسلمات والأحداث المجموعة حول النبي بشؤون الحياة اليومية، لكنها مهتمة بالماورائيات أيضاً، ونشوء الكون، واللاهوت. ويعتقد أن عدداً من هذه الأقوال قد ورد

على لسان الله إلى محمد. تؤكد هذه الأحاديث الشريفة على ذات الله وحضوره في المؤمن. فيرتب حديث مشهور المراحل التي يفهم المؤمن عبرها الحضور الإلهي الذي يبدو متجسداً في المؤمن تقريباً: تبدأ بالالتزام بأوامر القرآن والشريعة، ثم تتقدم لتصل إلى أعمال التقوى الطوعية:

لا يقترب عبدي مني عن أي طريق أغلى عليّ من تلك التي فرضتها وإجباً عليه. ويستمر عبدي بالاقتراب مني عبر التواضع حتى أحبه: وعندما أحبه أصبح أذنه التي يسمع بها، وعينه التي يرى بها، ويده التي يمسك بها وقدمه التي يسير عليها^(٣٦).

فالله المتعالي - كما في اليهودية والمسيحية - هو أيضاً حضور ملازم تقابله هنا على الأرض. وباستطاعة المسلمين تنمية إحساس بهذا الحضور الإلهي بطرق مماثلة لتلك الطرق التي اكتشفها الدينان السابقان.

بنى المسلمون الذين طوروا هذا النوع من الورع على محاكاة محمد، ويعرف هؤلاء بأهل الحديث أي الترائيون. وقد لاقى الورع استحساناً لدى عامة الناس لأن أخلاقهم كانت أخلاق مساواة صارمة. لقد عارضوا رفاهية القصور الأموية والعباسية، لكنهم لم ينفوا في صف التكنيكات الثورية الشيعية، لم يعتقدوا أن الخليفة يجب أن تنافر فيه مزايا روحانية استثنائية، فهو بكل بساطة متصرف. ومن خلال التأكيد على الطبيعة المقدسة لكل من القرآن والسنة، فإنهم زوّدوا كل مسلم بوسائل الاحتكاك المباشر مع الله، الاحتكاك الذي كان مدمراً وحدّياً جداً مع السلطة المطلقة. لم تكن هناك حاجة تدعو إلى وجود طبقة من الكهنوت لتعمل كوسطاء لأن كل مسلم مسؤول أمام الله عن مصيره.

قبل كل شيء علّمت التراثات أن القرآن كان حقيقة أبدية - مثل التوراة واللوغوس - الذي كان فيه - بشكل ما - جانب من الله ذاته، فقد استقر في عقله قبل بداية الزمن. وكان اعتقادهم بأن القرآن غير مخلوق يعني أن باستطاعة المسلمين سماع الله اللامرئي مباشرة لدى سماعهم ترتيل القرآن. فالقرآن كان يمثل حضور الله بينهم. كلامه على شفاههم عندما يرتلون كلماته المقدسة، وعندما يمسكون الكتاب المقدس فكأنما كانوا يلمسون الله ذاته. وقد اعتقد المسيحيون الأول بأن يسوع الإنسان هو الله مجسداً بطريقة مماثلة.

شيء وجد منذ البداية.

شيء سمعناه ورأيناه بعيوننا،

وراقبناه،

ولسنأه بأيدينا.

الكلمة الذي هو الحياة،

هذا هو موضوعنا^(٣٧).

لقد أثرت المنزلة الدقيقة (ليسوع الكلمة) كثيراً على المسيحيين. في الفترة اللاحقة بدأ المسلمون بمناقشة طبيعة القرآن: بأي معنى كان النص العربي هو حقاً كلمة الله؟ فقد وجد بعض المسلمين أن هذا الإعلاء للقرآن تجديف مثل المسيحيين الذين فضحتهم فكرة أن يسوع كان هو اللوغوس.

على أية حال طورت الشيعة تدريجياً أفكاراً بدت أقرب إلى التجسيد المسيحي. فبعد موت الحسين المأساوي أصبح الشيعة مقتنعين أن ذرية والده علي فقط هي التي يجب أن تقود الأمة، فأصبحت مذهباً متميزاً في الإسلام. وبما أن جميع أولاد محمد لم يتجاوز أحدهم فترة الطفولة لذلك كان علي قريبه الذكر الذي يمت إليه بصلة قرابة رئيسية. ففي القرآن كثيراً ما طلب الأنبياء من الله أن يبارك ذريتهم، فوسع الشيعة هذا المفهوم للمباركة الإلهية فاعتقدوا أن أفراداً فقط من أسرة محمد عبر بيت علي هي التي كانت تعرف الله حق المعرفة (العلم). وهم وحدهم من باستطاعتهم تزويد الأمة بالتوجيه الإلهي. فلو استلم أحد ذرية علي السلطة لكان يوسع للمسلمين أن ينظروا خلفهم إلى عصر العدل الذهبي، ولكانت قيادة الله قد تمت وفقاً لمشيئته.

لقد تطورت الحماسة لشخص علي في طرق مذهلة. فبعض جماعات الشيعة ترفع علياً وذريته إلى مرتبة فوق مرتبة محمد ذاته، وأعطتهم منزلة تقرب من القداسة. استمدوا نظرتهم هذه من التراث الفارسي لإله مختار أنجب أسرة ينتقل فيها المجد الإلهي من جيل إلى جيل. ففي نهاية العهد الأموي توصل بعض الشيعة إلى الاعتقاد بأن سلطة العلم كانت محصورة في نسل واحد من أحفاد علي، وسيعرف المسلمون على الشخص الذي أرادته الله إماماً حقاً للأمة في هذه الأسرة. فسواء أكان في السلطة أم لا فإن إرشاداته كانت ضرورية بشكل مطلق. ولذلك على كل مسلم واجب البحث عنه ومبايعته قائلاً له. لم ينظر الخلفاء إلى هؤلاء الأمة بعين الرضا فاعتبروهم أعداء للدولة: قتل العديدون من الأمة بالسم، وكان علي بعضهم أن يتخفى. ويعين كل إمام أحد أقاربه كي يرث العلم قبل وفاة الإمام. وهكذا تم تبجيل الأمة تدريجياً بصفتهم تعبيرات إلهية: فكل منهم حجة

الله على الأرض، ويعني غامض نوعاً ما هو الإله مجسداً في كائن بشري. فكلماته وقراراته وأوامره كانت قرارات وأوامر وكلمات الله. فكما رأى المسيحيون في يسوع أنه الطريق، والحقيقة، والنور الذي يقود البشر إلى الله، كذلك بجعل الشيعة أئمتهم بصفتهم مدخلاً (باب) إلى الله، السبيل وموجهاً لكل جيل.

تبعث فروع الشيعة التسلسل المقدس بشكل مختلف: فقد تجلّت الاثنا عشرية اثني عشر من ذرية علي عبر الحسين حتى عام ٩٣٩ حين توارى الإمام الأخير واختفى من المجتمع البشري، وبما أنه ليس له ذرية فقد انقطع نسله. أما الإسماعيليون الذين يعرفون باسم «السماعيين» فقد اعتقدوا أن السابع من بين هؤلاء الأئمة كان الإمام الأخير. وقد ظهر تأثير فكرة المنتظر بين الاثني عشرين الذين يعتقدون أن الإمام الثاني عشر أو المتواري سوف يعود كي يبدن عصراً ذهبياً. كانت هذه أفكار خطيرة، ولم تكن هدامة سياسياً بل بالإمكان تفسيرها وبسهولة بشكل تبسيطي فج. كما طورت الشيعة الأكثر تطرفاً تراثاً سرّياً قائماً على تفسير القرآن رمزياً. وهذا ما سنراه في الفصل القادم. كانت تقيتهم مبهمة بالنسبة لمعظم المسلمين الذين كانوا يعتبرون هذه الفكرة التجسدية ضرباً من التجديف، وكان الشيعة أفراداً من الأرستقراطية والمثقفين. ففي الغرب تميل إلى تصوير التشيع على أنه طائفة إسلامية تلازمها الأصولية، لكن هذا التقييم ليس دقيقاً. لقد أصبح التشيع تراثاً معقداً، وفيه كثير مما هو مشترك مع أولئك المسلمين الذين حاولوا تطبيق المجلد القرآني بشكل منهجي على القرآن. يعرف هؤلاء العقلايون باسم المعتزلة الذين شكلوا جماعات متميزة، وكانوا ذوي التزام سياسي راسخ. كانوا ينتقدون رقابية البلاط بشدة، وكانوا نشطاء سياسياً ضد المؤسسة.

ألهمت المسألة السياسية نقاشاً لاهوتياً حول حكم الله على الشؤون البشرية. فقد زعم مؤيدو الأمويين أن سلوك الأمويين غير إسلامي وأن ذلك لم يكن خطأ فيهم لأن الله قلّر عليهم مسبقاً أن يكونوا ما هم عليه. ففي القرآن مفهوم قوي جداً للوجود الكلي المطلق والمعرفة بكل شيء وهناك آيات كثيرة بالإمكان استخدامها لدعم هذه النظرة القدرية. بيد أن القرآن يشدد بالقدر نفسه على المسؤولية البشرية. ولا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما في أنفسهم، وبالتالي فقد شدد منتقدو المؤسسة على الإرادة الحرة والمسؤولية الأخلاقية. لكن المعتزلة اتخذوا سبيلاً وسطاً وانسحبوا (اعتزلوا) من معارضة متطرفة. لقد دافعوا عن الإرادة الحرة كي يصونوا الطليعة الأخلاقية للبشر. فالمسلمون الذين كانوا يعتقدون أن الله فوق مجرد مفاهيم بشرية للحق والباطل كانوا ينتقدون عدالته. فإله خرق جميع المبادئ

السامية ومضى بها بعيداً فقط لأنه إله لن يكون هذا إلهاً بل وحشاً وليس أفضل من خليفة مستبد. فقد أعلن المعتزلة - ما أعلنه الشيعة - أن العدالة كانت جوهر الله: فليس بوسع أحد تخطفه أي امرئ، وليس بوسعه المشاركة في أي شيء مناقض للعلل.

فهنا دخل المعتزلة في صراع مع التراثيين الذين جادلوا أن الله بخلقه الإنسان فإنه مؤلف وخالق قدره، وأن المعتزلة كانوا يهينون وجود الله الكلي. لقد تدمروا من المعتزلة لأنهم جعلوا الله عقلانياً كثيراً فغداً شبيهاً جداً بالإنسان. لقد تبناوا معتقد القدرية كي يؤكدوا عدم إمكانية فهم الله أساساً: فإذا زعمنا أننا نفهمه قلن يكون الله بل مجرد إسقاط بشري. فالله متعالٍ عن المفاهيم البشرية للخير والشر ولا يمكن تقييده بمعاييرنا وتوقعاتنا. وهذا عمل شر أو غير عدل لأن الله سمح له أن يكون كذلك، وليس لأن لهذه القيم الإنسانية بعد متسام يقيد الله نفسه.

المعتزلة في قولهم إن العدالة - هي مثال إنساني محض - هي جوهر الله كانوا على خطأ. فمشكلة القضاء والقدر والإرادة الحرة التي أثرت على المسيحيين أيضاً تشير إلى صعوبة مركزية في فكرة إله شخصي. فبالإمكان القول إن إلهاً غير شخصي مثل براهمين موجود خارج الخير والشر اللذين يعتبران قناعين للألوهة التي لا سبيل إلى سبر كنهها. لكن إلهاً مشخصاً بطريقة غامضة ما، وله دور فعال في تاريخ البشر يجعل نفسه معرضاً للنقد. فليس سهلاً جعل هذا الإله أكبر من حياة طاغية أو قاضي جائر، ويجعله يحقق آمالنا نستطيع أن نحول الله إلى توري Tury، أو اشتراكي، عنصري أو ثوري وفقاً لآرائنا الشخصية. الخطر الذي يتأتى من هذا قاد البعض إلى رؤية إله شخصي فكرة غير دينية لأنها بكل بساطة تفرقنا في أهوائنا، ويجعل أفكارنا الإنسانية مطلقة.

تجنباً لهذا الخطر أتى التراثيون بالفارق الذي مجده الزمن والذي استخدمه اليهود والمسيحيون على السواء، أي الفارق بين جوهر الله وقدراته. فادعوا أن بعضاً من تلك القدرات التي مكنت الله للمتعالى من نقلها إلى العالم مثل القدرة، المعرفة، الإرادة، السمع، البصر الكلام التي تنسب إلى الله في القرآن - أنها وجدت معه منذ الأزل بالطريقة نفسها التي وجد فيها القرآن غير المخلوق. كانت متميزة عن جوهر الله الذي لا سبيل إلى معرفته والتي سوف تراوِغ فهمنا دائماً. فكما تخيل اليهود أن حكمة الله أو التوراة قد وجدت مع الله من قبل بداية الزمن كذلك كان المسلمون يطورون فكرة ماثلة كي تعطي فكرة عن شخصية الله، وكي تذكر المسلمون أن ليس بالإمكان احتواؤه كلياً بالعقل البشري. لو لم يقف الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٢) إلى جانب المعتزلة، ولو لم يجعل أفكارهم معتقداً

إسلامياً رسمياً لما أثر هذا الجدل المويص إلا على قلة من الناس. لكن عندما بدأ الخليفة بتعذيب التراقيين كي يفرض الاعتقاد للمعتزلي على الناس شعر عامة الناس بالرعب من هذا السلوك غير الإسلامي. فالزعيم التراقي أحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) الذي نجا من الموت في التحقيق معه أصبح بطلاً شعبياً. قداسته ومقدرته - لقد صلب من أجل معذبيته - وتغديه الخلافة، وإيمانه بالقرآن المنزل أصبح كلمة السر لثورة شعبية ضد عقلانية المعتزلة.

رفض ابن حنبل تشجيع أي نوع من النقاش العقلاني حول الله. وهكذا عندما طرح المعتزلي الحيان القرابيصي (d - ٨٥٩) حل تسوية تعتبر القرآن كلام الله وأنه حقاً مُنزلاً إلا أنه عندما صيغ في كلمات بشرية أصبح مخلوقاً، أدان ابن حنبل هذا الاعتقاد. وكان القرابيصي على استعداد تام لتعديل وجهة نظره ثانية فأعلن أن اللغة العربية المكتوبة والمنطوقة في القرآن كانت منزلة طلالاً أنها مستمدة من كلام الله الأزلي. بيد أن ابن حنبل أعلن أن هذا الرأي غير شرعي أيضاً، فمن العبث والخطر أن نتأمل في أصل القرآن بهذه الطريقة العقلانية. فالمقل لم يكن أداة مناسبة لاستكشاف الله الذي لا يوصف. واتهم المعتزلة بأنهم يجرّدون الله من كل سر، وأنهم يجعلوه صيغة مجردة ليس لها قيمة دينية. عندما استخدم القرآن كلمات تجسيد بشرية لوصف قدرات الله في العالم، أو عندما قال القرآن إن الله يتكلم ويرى ويجلس على عرشه أصر ابن حنبل على تفسير هذه الكلمات حرفياً دون التساؤل كيف. بالإمكان مقارنة ابن حنبل مع مسيحيين راديكاليين مثل اثانازيوس الذي أصر على تفسير متطرف لعقيدة التجسيد في وجه الهرطقة الأكثر عقلانية. كان ابن حنبل يشدد على عدم قدرة الإنسان على وصف الله الذي يوجد خارج كل منطق وتحليل مفهومي.

مع ذلك يؤكد القرآن باستمرار على العقل والفهم فكان موقف ابن حنبل ينم عن سداجة في العقل. فقد وجد مسلمون كثير رأيه ضالاً وإيهامياً. فأبهر الحسن بن اسماعيل الأشعري (٨٧٨ - ٩٤١) الذي كان معتزلياً ثم تحول إلى تراقي بحلم رآه قدّم تسوية. فقد رأى النبي في الحلم، وحثه على دراسة الحديث. بعد ذلك ذهب الأشعري إلى الطرف الآخر وأصبح تراقياً متحمساً وأصبح سوط الإسلام ضد المعتزلة. بعدئذ رأى حليماً آخر بدا فيه محمد منزعجاً وقال له: **ولم أطلب منك الكف عن الجدل العقلاني بل أن توازن الأحاديث الصحيحة**^(٣٨). ومن تلك الفترة فصاعداً أخذ الأشعري باستخدام الأساليب العقلانية المعتزلة كي يرفع الروح اللاأدرية عند ابن حنبل. فحيث نادى المعتزلة بأن وحي الله لا يمكن أن يكون غير عقلاني، كان الأشعري يستخدم العقل والمنطق ليبين أن الله كان خارج نطاق فهمنا. كان المعتزلة في خطر تخفيض الله إلى مفهوم جاف لكنه

متناسك. بينما أراد الأشعري أن يعود إلى الله الممتلئ دماً في القرآن، على الرغم من عدم اتساق طرحه. كان الأشعري مثل دهنس الأريوباغيثي لأنه اعتقد أن التناقض سيؤدي إلى زيادة فهمنا لله. رفض أن يخفض الله إلى مفهوم بالإمكان مناقشته وتحليله مثل أية فكرة إنسانية أخرى. كانت الصفات الإلهية المعرفة، القدرة، الحياة وماشابه حقيقية تنتمي إلى الله منذ الأزل، لكنها كانت متميزة عن جوهر الله، لأن الله بالأساس واحد بسيط ومتفرد. لا يمكن اعتباره كائناً معقداً لأنه هو البساطة ذاتها. ليس في وسعنا تحليله عن طريق تعريف صفاته العديدة أو تقسيمه إلى أجزاء أصغر. لقد رفض الأشعري أية محاولة لإزالة التناقض: فقد أصر على أنه عندما يقول القرآن أن الله يجلس على عرشه يجب علينا أن نقبل هذا كحقيقة حتى وإن تكن خارج نطاق فهمنا لتصور روحاً محضة جالسة.

كان الأشعري يحاول أن يوجد سبيلاً وسطاً بين الظلامية العنيدة والعقلانية المتطرفة. فبعض الحرفيين قالوا: إذا كان للباركون سوف يرون الله في السماء - كما ذكر القرآن - فلا بد أن يكون له مظهر مادي، وقد مضى هشام بن الحكم بعيداً ليقول إن:

الله له جسد، معرف، واسع، عالي وطويل، ذو أبعاد متساوية يشع نوراً.
أبعاده الثلاثة كبيرة. في مكان خلف مكان مثل قضيب من معدن نقي،
يشع فيما حوله مثل لؤلؤة كروية من جميع الجوانب، وله لون، وطعم
ورائحة وملس^(٣٩).

قبل بعض الشيعة آراء كهذه بسبب اعتقادهم أن الأئمة كانوا تجسيدات للإله. أصر المعتزلة على أنه عندما يتحدث القرآن عن يديّ الله مثلاً يجب أن يفهم ذلك مجازياً ككنائية عن كرمه وسخائه. عارض الأشعري الحرفيين عن طريق الإشارة إلى أن القرآن أكد على أننا نستطيع أن نتكلم عن الله في لغة رمزية، لكنه عارض الترائيين أيضاً في رفضهم الإجمالي للعقلي. قال إن محمداً لم تقابله هذه المشكلات ولو حدث ذلك لكان قدم توجيهاً للمسلمين. على المسلمين واجب استخدام القياس كأدوات تفسيرية للاحتفاظ بمفهوم ديني صحيح عن الله.

كان الأشعري يختار دائماً موقع تموية وسط. ولذلك جادل بأن القرآن كان كلمة الله المنزلة الأبدية، لكنها حبر وورق، والكلمات العربية المكونة للآيات المقدسة كانت مخلوقة. وأدان اعتقاد المعتزلة بالإرادة الحرة، لأن الله وحده هو الخالق لأفعال الإنسان، وعارض نظرة الترائيين أيضاً في أن البشر لا يساهمون إطلاقاً في خلاصهم، فكانت تسويته تنطوي على ضرر لجلد ما: يخلق الله الأفعال لكنه يسمح للبشر امتلاك جدارة أو

عدم جدارة للقيام بهذه الأفعال. لم يكن الأشعري مثل ابن حنبل لأنه كان مستعداً لطرح أسئلة، وأن يستكشف هذه المشكلات الماورائية، مع أنه كان يهتم قوله في النهاية: من الخطأ أن نحاول احتواء الحقيقة التي لا توصف، الخفية التي نسميها الله في منهج عقلاني مرتب. لقد أسس الأشعري تراث علم الكلام الإسلامي الذي يترجم عادة بكلمة «اللاهوت». استمر خلفاؤه في القرنين العاشر والحادي عشر في تطوير أفكاره. فالأشاعرة الأوائل أرادوا تأسيس إطار ميتافيزيقي لمناقشة سليمة لسيادة الله. فأبو بكر الباقلاني (d ١٠١٣) اللاهوتي البارز الأول من المدرسة الأشعرية وافق في كتابه /التوحيد/ المعتزلة في قولهم أن بإمكان البشر إثبات وجود الله بالمنطق والجدل العقلاني: فالقرآن يصور إبراهيم وهو يكشف الخالق الأزلي عن طريق التفكير منهجياً بالعالم الطبيعي. لكن الباقلاني رفض مقولة أن بإمكان البشر التمييز بين الخير والشر دون وحي لأنهما ليسا مجالين طبيعيين بل أوجدهما الله: الله ليس مقيداً بمفاهيم بشرية عما هو حق أو باطل.

طور الباقلاني نظرية تعرف باسم المذهب الذري أو السببية التي حاولت أن تجد أساساً عقلياً لشهادة المسلم: لم يكن هناك إله أوحقيقة أو يقين سوى الله. كل شيء في العالم معتمد على اهتمام الله المباشر بشكل مطلق. فالكون كله تم تخفيضه إلى ذرات فردية لا تحصى: الزمان والمكان ليسا مستمرين، وما من شيء له هوية محددة خاصة به. فالكون الظاهري قد خُفِّضَ إلى العدم على يد الباقلاني مثلما فعل أثنانازيوس. لقد أحيا الكون وأمر خلقه في الوجود في كل ثانية. لم تكن هناك قوانين طبيعية تشرح بقاء الكون. على الرغم من أن مسلمين آخرين يكيّفون أنفسهم مع العلم بنجاح كبير إلا أن الأشعرية كانت عدائية بالأساس تجاه العلوم الطبيعية، ومع ذلك كان لها مرجعها الديني. كانت محاولة ميتافيزيقية لشرح حضور الله في كل جزء من تفاصيل الحياة اليومية، وتذكر أن الدين لم يكن يعتمد على المنطق العادي. فإذا ما استُخدم المنطق كمبدأ أكثر من استخدامه عرضاً حقيقياً للحقيقة فقد يساعد المسلمين على تطوير الشعور بالله (التقوى) الذي وصفه القرآن. يكمن ضعف الأشعرية في استبعاد الدليل العلمي لصالح التقضي، وتفسيرها الحرفي لموقف ديني مراوغ محير بالأساس. لقد أحدثت الأشعرية فجوة بين الطريقة التي كان ينظر فيها المسلم إلى الله والطريقة التي كان يفكر فيها بأمور أخرى. لقد حاول المعتزلة والأشاعرة - في طرق مختلفة - ربط التجربة الدينية بالله بالفكر العقلاني العادي فكان هذا الربط هاماً. كان المسلمون يحاولون أن يجدوا فيما إذا كان بالإمكان الحديث عن الله مثلما تناقش المسائل الأخرى. فقد رأينا أن اليونانيين قد اتفقوا على توازن لم يكن متوازناً، وأن الصمت هو الشكل الملائم فقط للاهوت. ووصل المسلمون إلى النتيجة ذاتها في نهاية

المطاف.

كان محمد وأصحابه ينتمون إلى مجتمع أكثر بدائية من مجتمع الباقلائي. لقد امتدت الامبراطورية الإسلامية إلى العالم المتحضر، وكان على المسلمين مواجهة أساليب فكرية أكثر تعقيداً في تصور الله والعالم. عاش محمد - وبشكل غريزي - في الصدام العبري القديم مع الله، فكان على الأجيال اللاحقة أيضاً أن تعيش من خلال بعض المشاكل التي وجهتها الكنائس المسيحية، وتراجع البعض إلى لاهوت التجسيد على الرغم من إدانة القرآن للتأليه المسيحي للمسيح. فالمغامرة الإسلامية توضح أن مفهوم إله شخصي متعال يمال إلى توليد النوع نفسه من المشكلات ويفضي إلى النوع نفسه من الحلول.

أوضحت تجربة علم الكلام أنه على الرغم من إمكانية استخدام طرائق عقلانية لتبيان أن الله كان عصياً على الفهم عقلانياً إلا أن هذا يجعل المسلمين قلقين. فلم يصبح علم الكلام أبداً بأهمية اللاهوت في المسيحية الغربية. فالخلفاء العباسيون الذين آزرُوا المعتزلة وجدوا أنهم لا يستطيعون فرض معتقداتهم على المؤمنين، ولم يفلحوا في ذلك. أما العقلانية فقد استمرت في التأثير على مفكرين في العصور الوسطى، لكنها بقيت مسعى أقلية، وأصبح معظم المسلمين لا يثقون بالمشروع كله، فالإسلام مثل المسيحية واليهودية قد نشأ من تجربة سامية لكنه اصطدم بالعقلانية اليونانية في مراكز الهيلينية في الشرق الأوسط. وكان مسلمون آخرون يحاولون هلئنة الله الإسلامي بشكل أكثر جذرية. فأدخلوا عنصراً فلسفياً جديداً إلى الأدیان الوحداية الثلاث. وسوف تتوصل هذه الأدیان إلى استنتاجات هامة جداً، لكنها مختلفة حول فاعلية الفلسفة وعلاقتها بمر الله.

الفصل السادس

إله الفلاسفة

خلال القرن التاسع احتك العرب بالعلم والفلسفة الإغريقين، وكانت النتيجة تفتحاً ثقافياً بالإمكان رؤيته كانتقال بين النهضة والتنوير. فقد جعل فريق من المترجمين - الذين أغلبهم من المسيحيين النسطوريين - النصوص الإغريقية متوفرة بالعربية، فأدوا عملاً رائعاً بذلك. وكان العرب المسلمون آنذاك يدرسون الفلك والكيمياء والطب والرياضيات بنجاح كبير لدرجة أن معظم الاكتشافات العلمية خلال القرنين التاسع والعاشر قد تحققت في الامبراطورية العباسية، وكانت أكبر مما تحققت في أية فترة سابقة من التاريخ. ظهر نمط جديد للمسلم الذي كان منسجماً مع المثل الأعلى الذي أسماه الفلاسفة. وعادة ما تترجم هذه الكلمة Philosophy لكنها ذات معنى أوسع وأكثر غنى: كانت مثل الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر، أراد الفلاسفة أن يعيشوا عقلانياً بما يتوافق مع القوانين التي اعتقدوا أنها تسيطر الكون، وأن بالإمكان رؤيتها في مستوى من الوجود. ركزوا في البداية - على علم الطبيعة، وبعدئذ كان لا مفر من تحويلهم إلى الميتافيزيقا الإغريقية، فصمموا على تطبيق مبادئها على الإسلام. كانوا يعتقدون أن إله الفلاسفة الإغريق هو نظير الله. وقد شعر المسيحيون اليونانيون بصدمة مع الهيلينية لكنهم قرروا أن إله اليونانيين يجب تعديله بإله الكتاب المقدس الأكثر تناقضاً. وفي النهاية - كما سنرى - أداروا ظهورهم إلى تراثهم الفلسفي لاعتقادهم أن العقل والمنطق ليس لهما سوى الشيء اليسير كي يساهما في دراسة الله. بينما توصل الفلاسفة إلى نتيجة عكسية: فقد اعتقدوا أن العقلانية كانت تمثل الشكل الأكثر تطوراً للدين، فطوروا فكرة عن الله أعلى من فكرة الله التجلي في الكتاب المقدس.

في يومنا هذا نرى عادة العلم والفلسفة خصمين للدين؛ لكن الفلاسفة كانوا رجالاً أتقياء، وكانوا يرون أنفسهم أبناء مخلصين للنبي. كمسلمين فاضلين كانوا واعين سياسياً، كانوا يكرهون ترف البلاط، ويريدون إصلاح مجتمعهم بما يتوافق مع أوامر العقل. كانت مغامرتهم هامة لأن دراساتهم الفلسفية والعلمية كان يسيطر عليها الفكر الإغريقي. كانت الحاجة ملحة من أجل إيجاد رابطة تربط إيمانهم بهذه النظرة الموضوعية الأكثر عقلانية. ليس من الصواب إحالة الله إلى مجال فكري منفصل، ورؤية الدين منعزلاً عن الاهتمامات البشرية الأخرى. لم يكن في نية الفلاسفة إلغاء الدين لكنهم أرادوا تنقيته مما اعتبروه عناصر بدائية ومحدودة. لم يكن يساورهم شك بأن الله موجود - في الحقيقة كانوا يعتبرون وجوده بوضوح عن نفسه، لكنهم شعروا أن إثبات ذلك منطقياً كان أمراً هاماً لتبيان أن الله كان منسجماً مع مثلهم الأعلى العقلائي.

كان هناك مشكلات على أية حال. فقد رأينا أن إله الفلاسفة الإغريق كان شديد الاختلاف عن إله التجلي: فالإله الأعلى عند أرسطو وأفلاطون كان أزلياً وعديم التأثير Impossible ولا يهتم بالأحداث الدنيوية، ولم يكشف عن نفسه في التاريخ - ولم يخلق العالم، ولن يقيم في نهاية الزمن. في الحقيقة إن تاريخ التجلي الرئيسي للأديان الوحدانية - قد استبعده أرسطو لأنه أدنى من الفلسفة. لم يكن له بداية أو وسط أو نهاية لأن الكون قاض وإلى الأبد من الله. لقد أراد الفلاسفة الذهاب إلى ما خلف التاريخ كي يروا عالم الإله المثالي الذي لا يعتره التغير فكان التاريخ بالنسبة لهم مجرد وهم. فعلى الرغم من تأكيد الفلسفة على العقل إلا أنها كانت تتطلب ديناً خاصاً بها - وكان الأمر يتطلب شجاعة فائقة كي تعتقد الفلسفة أن الكون حيث بدا العماء والألم أكثر وضوحاً من النظام Order الهادف - كان فعلاً محكوماً بمبدأ العقل. كان على الفلاسفة أيضاً أن ينمو إحساساً بمعنى لا نهائي وسط أحداث كثيرة ما كانت كارثية وخرقاء كانت تجري في العالم من حولهم. كان في الفلسفة نبل لأنها بحث عن الموضوعية وعن رؤية غير محددة بزمان. كانوا يريدون ديناً كونياً غير محدود بإحدى مظاهر الله، وجذوره ليست رهينة مكان وزمان محددين. اعتقدوا أن من واجبه أن يرجعوا وحي القرآن إلى المصطلح الأكثر تطوراً عبر العصور، مصطلح وضته أنبل العقول في جميع الثقافات. لقد اعتقد الفلاسفة أن الله كان هو العقل ذاته بدلاً من أن يروه سرّاً غامضاً.

إيمان كهذا بعالم عقلاني كلياً يبدو بسيطاً وساذجاً بالنسبة لنا اليوم، لأن اكتشافاتنا العلمية قد كشفت منذ أمد بعيد عدم كفاءة براين أرسطو لإثبات وجود الله. بينما كان

هذا المنظور أمراً مستحيلًا لأي امرئ من القرنين التاسع والعاشر. بيد أن تجربة الفلاسفة لها علاقة بمأزقنا الديني الراهن. فقد ورطت الثورة العلمية في الفترة العباسية المشاركين فيها بأكثر من اكتساب معرفة جديدة كما هي الحال في يومنا هذا، تطلبت الاكتشافات العلمية تنمية عقلية مختلفة حولت الطريقة التي كان ينظر فيها الفلاسفة إلى العالم. فالعلم يتطلب إيماناً عميقاً بأن هناك تفسيراً عقلانياً لكل شيء، ويتطلب كذلك مخيلة وشجاعة ليستا ماثلتين للإبداعية الدينية. فالعالم - شأنه شأن النبي أو المتصوف - يجبر نفسه أيضاً على مواجهة الظلام وملكة الحقيقة غير المخلوقة التي لا يمكن التنبؤ بها. كان لا مفر من هذا التأثير على مفهوم الفلاسفة عن الله، فجعلهم يتقحرون، وحتى يهجرن معتقدات معاصريهم القديمة. وبالطريقة ذاتها فإن الرؤية العلمية لعصرنا قد جعلت إنكار شخصية الإله أمراً مستحيلًا بالنسبة لكثير من الناس. إن التعلق باللاهوت القديم ليس فقط انهياراً عصبياً بل قد يتضمن إحساساً مضرراً بفقدان التكامل. حاول الفلاسفة مزوجة رؤاهم الجديدة بالتيار الرئيسي في الدين الإسلامي. أتوا ومعهم أفكار ثورية ألهمها الإغريق حول الله. مع ذلك فإن الفشل الأخير لتقواهم العقلاني لديه شيء لم يخبرنا به حول طبيعة الحقيقة الدينية.

كان الفلاسفة يسعون إلى ما هو أكثر من بحث كامل للفلسفة اليونانية والدين أكثر مما فعل الموحدون السابقون. فقد حاول المعتزلة والأشاعرة بناء جسر بين الوحي والعقل الطبيعي، لكن بالنسبة لهم إله الوحي أصبح هو الأول. لقد أسس علم الكلام النظرة الوحدانية التراثية للتاريخ على أنه تجلي، وقد جادلت بأن أحداثاً محددة ملموسة كانت حاسمة لأنها قدمت اليقين الوحيد المتوفر لدينا. وكان الأشاعرة يشكون بوجود قوانين عامة ومبادئ غير محددة بزم. مع أن هذه النظرية atomism كان لها قيمة إبداعية ودينية إلا أنها كانت غريبة بشكل سافر عن الروح العلمية، ولم تستطع إرضاء الفلاسفة الذين أسقطت فلسفتهم التاريخ - الملموس الخاص - لكنها تمت تقديرًا للقوانين العامة التي رفضها الأشاعرة. كان ينبغي اكتشاف إلههم عبر جدل منطقي وليس عبر إحياءات خاصة في لحظات زمنية متنوعة لأفراد. هذا البحث عن الحقيقة للموضوعية المعممة كان سمة مميزة لدراساتهم العلمية وحددت شروطاً للطريقة التي خبروا فيها الوجود النهائي. فالله الذي لم يكن هو ذاته بالنسبة لكل فرد - يعطي أو يأخذ تلويناً ثقافياً لا بد منه - لم يستطع أن يقدم حلاً مرضياً للسؤال الديني الأساسي التالي: «ما هو المعنى النهائي للحياة؟». لا تستطيع السعي إلى حلول علمية لها استخدام كوني في المختبر، وأن تصلي إلى إله الذي كان يعتبره المسلمون المؤمنون الهاجس الوحيد بالنسبة لهم. مع ذلك فقد كشفت دراسة القرآن أن

محمداً نفسه كان لديه رؤية كونية، وأكدت على أن جميع الأديان ذات التوجيه الصحيح قد أتت من الله. لم يشعر الفلاسفة أن هناك حاجة كي يتخلوا عن القرآن. بدلاً من ذلك حاولوا إيضاح العلاقة بين الاثنين: كلاهما كانا سبيلين صالحين إلى الله، ومناسبين لاحتياجات الأفراد. لم يروا تناقضاً أساسياً بين الوحي والعلم، بين العقلانية والإيمان. لذلك طوروا ما يسمى بالفلسفة النبوية، أرادوا أن يجدوا جوهر الحقيقة الموجودة في قلب جميع الأديان التاريخية التي كانت تسعى إلى تحديد حقيقة الله ذاته منذ فجر التاريخ.

لقد استمد الفلاسفة إلهاماً من العلم والمتافيزيقا الإغريقين، لكنهم لم يتواكفوا على الهيلينية كمبيد لها. فالإغريق - في مستعمراتهم في الشرق الأوسط - كانوا يميلون لاتباع منهج معياري Standard وعلى الرغم من وجود توكيدات مختلفة في الفلسفة الهيلينية كان يتوقع من كل دارس أن يقرأ مجموعة من النصوص بترتيب خاص. أفضى هذا إلى درجة من الوحدة والترابط. بيد أن الفلاسفة لم يتقيدوا بهذا المنهج بل قرؤوا النصوص حسب توفرها.

وكان لابد من أن يُحدث هذا رؤى جديدة. فبالإضافة إلى رؤاهم العربية والإسلامية فقد تأثر فكرهم بفكر فارسي وهندي وغنوصي.

كان يعقوب بن اسحاق الكندي (d ٨٧٠) أول مسلم طبق الطريقة العقلانية على القرآن، وكان على علاقة وثيقة بالمعتزلة، ولم يتفق مع أرسطو في عدة قضايا هامة. تعلم في البصرة لكنه استقر في بغداد حيث حظي برعاية الخليفة المأمون. كان نتاجه وتأثيره هائلين: شملت مؤلفاته الرياضيات والعلوم والفلسفة، بيد أن اهتمامه الرئيسي كان منصباً على الدين. فيخلفيته المعتزلية لم يكن يوسمه أن يرى إلا أن الفلسفة هي من صنع الوحي. فمعرفة الأنبياء الموحاة لهم قد تجاوزت دائماً رؤى الفلاسفة البشر، ولن يشاركه رأيه هذا معظم الفلاسفة اللاحقين. كان الكندي متلهفاً أيضاً إلى البحث عن الحقيقة في تراثات دينية أخرى. فالحقيقة كانت واحدة، وكان واجب الفيلسوف البحث عنها في أي زِي لغوي أو ثقافي تزيت عبر كل العصور.

يجب ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة، ويجب أن نتمثلها من أي مصدر جاءت، حتى ولو وصلتنا من أجيال سابقة ومن شعوب أجنبية. فبالنسبة لن يسعى إلى الحقيقة لا قيمة أعلى من الحقيقة ذاتها. إنها لا ترخصه أو تحط من قدره ومن يجعلها فإنها تسمو به وتكرمه^(١).
فالكندي هنا منسجم مع القرآن في نسق واحد. لكنه مضى إلى أبعد من

ذلك لأنه لم يقصر نفسه على الأنبياء بل التفت إلى الفلاسفة الإغريق. فاستخدم مناظرات أرسطو حول وجود المحرك الأول. دافع عن أنه في عالم عقلاني لكل شيء علة. ولذلك لابد من محرك لا يحرك كي تبدأ الكرة بالتدحرج. كان المبدأ الأول هو الوجود Being نفسه: كامل، لا يمكن فناءه، ولا يتغير. لكن الكندي بعد أن توصل إلى هذه النتيجة افترق عن أرسطو والتزم بالمعتقد القرآني في قصة الخلق من عدم Exnihilato. يعرف العقل على أنه خلق شيء من لا شيء. وهذا امتياز لله حصراً. إن الوجود الوحيد الذي باستطاعته الفعل بحق في هذا المعنى، وهو العلة الحقيقية لكل فعالية نراها في العالم من حولنا.

بيد أن الفلاسفة توصلوا إلى رفض الخلق من عدم: وبالتالي لا يمكن وصف الكندي على أنه حقاً فيلسوف. مع ذلك كان رائداً في المحاولة الإسلامية كي يجعل الحقيقة الدينية منسجمة مع الميتافيزيقا المنهجية. كان خلفاؤه أكثر تحررية منه. أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٩٣٠م) الذي وصف أنه اللامتلزم الأكبر في التاريخ الإسلامي رفض ميتافيزيقا أرسطو - وعلى شاكلة الغنوصيين - رأى الخلق من عمل صانع الكون Demiurge: فاللادة لا يمكن أن تبدأ من إله روحي بالكامل. ورفض كذلك الحل الأرسطي، المحرك الأول، وكذلك المعتقدات القرآنية بالوحي والنبوة. فالعقل والفلسفة فقط هما اللذان يوسعهما إتقاناً. لم يكن الرازي موحداً في حقيقة الأمر. ولذلك ربما كان أول مفكر حر يكشف مفهوم الله الذي لا سبيل لوصفه من منطلق علمي. لقد كان طبيباً ماهراً ورجلاً كريماً لطيفاً عمل لسنوات رئيساً لمشفى بلدته الري Rayy في إيران. فمعظم الفلاسفة لم يدفعوا بعقلانيتهم إلى هذا الحد. ففي نقاش مع مسلم أكثر تقليدية قال: ما من فيلسوف حق بإمكانه الاعتماد على التراث الراسخ بل عليه أن يفكر بالأشياء بنفسه، لأن العقل وحده هو الذي يوصلنا إلى الحقيقة. الاتكال على معتقدات موحاة كان غير مُنجِد لأن الأدهان لا تتفق. كيف يستطيع أي امرئ أن يعرف من كان مصيباً؟ لكن خصمه - الذي سمي بشكل مريب الرازي Ar-Razi^(١) - طرح نقطة هامة. وماذا عن عامة الناس؟ فمعظم هؤلاء غير قادر على فهم الفكر الفلسفي: هل ضاعوا بذلك، أو مقدر عليهم الخطأ والتشوش؟ أحد الأسباب التي جعلت الفلاسفة أقلية في الإسلام هو النخبوية الفلسفية. كانت الفلسفة تتجه بالضرورة إلى الذين لديهم مقداراً معيناً من (IQ^(٢)) (حاصل الذكاء) وبالتالي كانت ضد الروح الجماعية التي بدأت تقسم المجتمع المسلم.

تناول الفيلسوف أبو نصر الفارابي (d - ٩٨٠) مشكلة الجماهير غير المتعلمة، غير

القادرة على فهم العقلانية الفلسفية. بالإمكان اعتباره المؤسس الحقيقي للفلسفة، وقد بين الكونية الجذابة لهذا المثال الأعلى للمسلم. كان الفارابي ما نسميه بـرجل النهضة، فلم يكن طبيباً فقط بل كان موسيقياً ومتصوفاً. في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» أوضح كذلك الاهتمام الاجتماعي والسياسي الذي كان مركزياً في روحانية المسلم. دافع أفلاطون في كتابه «الجمهورية» أن مجتمعاً فاضلاً يجب أن يقوده فيلسوف وفقاً لمبادئ عقلانية. كان قادراً على إيضاحها للناس العاديين. دافع الفارابي أن النبي محمد كان هو الحاكم الذي تصوره أفلاطون. فقد عبر عن الحقائق الأزلية في شكل إبداعي فهمه الناس، ولذلك كان الإسلام مناسباً مثالياً لخلق مجتمع أفلاطون المثالي. وكانت الشيعة الشكل الإسلامي الأكثر ملائمة لتحقيق هذا المشروع، بسبب اعتقادها بالإمام الحكيم. مع أنه كان صوفياً ممارساً فقد رأى الفارابي الوحي عملية طبيعية تماماً. إن إله الفلاسفة الإغريق الذي كان بعيداً عن الاهتمام بالقضايا التي تهم البشر، لم يكن له أن يتكلم إلى كائنات بشرية، أو يتدخل في أحداث دينوية كما جاء في الاعتقاد التراثي. إلا أن ذلك لم يكن يعني أن الله بعيد عن اهتمام الفارابي الرئيسي. كان الله مركزياً في فلسفته. وبدأ كتابه بنقاش الله. كان هذا إله أرسطو وأفلاطون: كان هو أول جميع الكائنات. فالنسيحي اليوناني الذي نشأ على فلسفة دنيس الأريوباغيتي Denys Areopagite الصوفية يعترض على نظرية جعلت الله وجوداً آخر على الرغم من طبيعته العليا Superior. لكن الفارابي بقي قريباً جداً من أرسطو. لم يكن يعتقد أن الله قرر فجأة أن يخلق العالم. لأن ذلك كان يعني أن الله سيكون Static الأزلي في تغير غير مناسب.

رأى الفارابي - مثلما رأى الإغريق - سلسلة الوجود صادرة وإلى الأبد من الواحد في عشر فيوضات متعاقبة يشكل كل منها عوالم بطليموس: السماء الخارجية، عالم النجوم الثابتة، عوالم زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، والقمر. عندما نصل عالمنا تحت القمرى نصبح مدركين لتراتب وجود يدور في الاتجاه المعاكس مبتدئاً بالمادة التي لاحياة فيها ماراً بالنباتات والحيوانات وتنتهي بالبشرية على القمة.

الروح والفكر يشتركان مع العقل الإلهي، بينما يأتي جسده من الأرض. فعن طريق عملية التطهير التي وصفها أفلاطون وأفلاطون يستطيع البشر أن يتخلصوا من قيودهم الأرضية ويعودوا إلى الله، موطنهم الطبيعي.

هناك اختلافات واضحة عن الرؤية القرآنية للوجود. لكن الفارابي رأى أن الفلسفة

هي السبيل الأفضل لفهم الحقائق التي عبر عنها الأنبياء بأسلوب مجازي شعري كي يفهمها الناس. لم تكن الفلسفة لكل امرئ. ومع حلول منتصف القرن العاشر بدأ عامل سري يدخل الإسلام، وكانت الفلسفة إحدى جوانبه. الصوفية والشيعية فسرتا أيضاً الإسلام بشكل مختلف عن العلماء - أي المتدينين المختصين فقط بالشريعة المقدسة والقرآن. لذلك أبقا معتقداتهم سرية لا لأنهم أرادوا استبعاد عامة الناس بل لأن الفلاسفة والمتصوفين والمثبطين كانوا يفهمون جميعاً أن تفسيراتهم المبتكرة والمغايرة للإسلام قد يساء فهمها بكل سهولة. فالتفسير الحرفي أو التبسيطي لمعتقدات الفلسفة ولأساطير الصوفية أو إمامية الشيعة قد تربك الناس الذين ليس لديهم المقدرة أو التدريب أو الطبع للتعامل مع مقاربة تخيلية أو عقلانية أو رمزية للحقيقة النهائية. في هذه المذاهب السرية كان يتم تحضير المدخلين بكل عناية من أجل فهم هذه المفاهيم الصعبة عن طريق تدريبات خاصة للقل والقلب. وقد رأينا أن المسيحيين اليونانيين قد طوروا مفهوماً مماثلاً من خلال التمييز بين الدوغما Dogma والكيرغما Kerygma . لم يطور الغرب تراثاً سرياً بل التزم بتفسير كيرغماتي للدين كان يفترض أنه يبقى نفسه عند كل امرئ. فبدلاً من السماح لما يسمى المنحرفون أن يعضوا كل في طريقه الخاص فقد قام المسيحيون الغربيون باضطهادهم والقضاء على غير المترمين. وفي الإسلام مات المفكرون السريون عادة في فرشهم.

الاعتقاد الفارابي بالفيض أصبح مقبولاً عموماً لدى الفلاسفة. أما المتصوفون - كما سنرى - فقد أوجدوا مفهوماً عن الفيض أكثر انسجاماً من معتقد الخلق من عدم. فبعداً عن اعتبار الفلسفة والعقل كمعادين للدين، غالباً ما وجد المتصوفون المسلمون وأنصار القبالة اليهودية أن في رؤى الفلاسفة إلهاماً لصيغتهم الدينية الأكثر تخيلية، وكان هذا واضحاً في الشيعة على وجه الخصوص، فعلى الرغم من أنهم بقوا أقلية إسلامية إلا أن القرن العاشر يعرف بأنه القرن الشيعي، لأن الشيعة تمكنت من احتلال مناصب سياسية بارزة في أرجاء الامبراطورية.

المغامرة الشيعية التي كُتلت بالنجاح كانت تأسيس خلافة شيعية في تونس عام ٩٠٩ م معارضة للخلافة السنية في بغداد، فكانت هذه إنجازاً للطائفة الإسماعيلية التي تعرف بالفاطميين أو السباعيين تمييزاً لهم عن الشيعة الاثني عشرين الذين قبلوا سلطة اثني عشر إماماً. انشق الإسماعيليون عن الاثني عشرية بعد موت جعفر الصادق الإمام السادس في عام ٧٦٥ . كان جعفر قد عين ابنه اسماعيل خليفة له. لكن عندما توفي شاباً قبل

الاثني عشرون بسلطة أخيه موسى.

أما الاسماعيليون فيقروا موالين لاسماعيل. واعتقدوا أن الذرية انتهت به. أصبحت خلافتهم في شمال أفريقيا قوية جداً. وفي عام ٩٧٣ نقلوا عاصمتهم إلى القاهرة حيث بنوا مسجد الأزهر الكبير.

على أية حال لم يكن تبجيل الأئمة مجرد حماسة سياسية. فقد رأينا أن الشيعة اعتقدوا أن أئمتهم كانوا يجسدون حضور الله على الأرض بطريقة غامضة. وقد انشؤوا تقية سرية خاصة بهم كانت تعتمد على قراءة رمزية للقرآن وكانوا يعتقدون أن محمداً قد أودع معرفة سرية في ابن عمه وصهره علي بن أبي طالب، وأن هذا العلم يتم تناقله عبر سلالة من أئمة معينين، وهم من أحفاده المباشرين. فكان كل إمام يجسد «النور المحمدي» الروح النبوية التي مكنت محمداً من الاستسلام كلية لله. فلا النبي ولا الأئمة كانوا مقدسين بل كانوا مفتحين كلياً على الله الذي قد يستقر فيهم بطريقة أكثر كمالاً مما استقر في أي من البشر العاديين. فالنساطرة تبثوا نظرة مماثلة لهذه النظرة بيسوع. لقد رأى الشيعة - ما رآه النساطرة في يسوع - أئمتهم «معابده»، أو «كنوز» المقدس، تفيض منهم المعرفة الإلهية العرفانية. فهذا العلم لم يكن مجرد معلومات سرية بل وسيلة تحوّل وإيمان داخلي. فضحت توجيهه الداهي «المرشد الروحي» كان يتم انتشال المزيد من الكسل وفقدان الحساسية عن طريق رؤية ذات وضوح كالخلم. وبعد أن يتم تحوله يغلو قادراً على فهم التفسير السري للقرآن. هذه التجربة الأساسية كانت عملية صحوّة وهذا ما نراه في قصيدة ناصر خسرو - Nasirial Khusraw الفيلسوف الاسماعيلي في القرن العاشر. تصف هذه القصيدة رؤيا الإمام التي غيرت حياته:

هل سمعت يوماً عن البحر الذي ينساب من نار؟
هل رأيت ثعلباً وقد أصبح لئماً؟
فالشمس تستطيع أن تحول حجراً - التي لا تستطيع حتى يد
الطبيعة أن تحوله - إلى جوهرة
أنا ذلك الحجر الكريم، فشمسي هو
الذي يستاء امتلاء هذا العالم المظلم ضياء
غيرتي عليه تمنعني من ذكر اسم الإمام في هذه القصيدة
لكنني أستطيع القول إن أفلاطون بالنسبة له سيفقد عبداً
إنه المعلم، وشافي الأرواح، الذي يحبه الله
صورة الحكمة، ينبوع المعرفة والصدق

يا وجه العلم، وشكل الفضيلة
قلب الحكمة، وغاية البشر
يا عزة الكبرياء، ألق أمانك ضاحياً
وعارياً، مرتلياً متزراً صوفياً
وقبليت يدك وكأنها كانت قبر
النبي أو الحجر الأسود في الكعبة^(٣)

فكما جسد المسيح على قمة جبل Tabor البشرية المؤهلة بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس اليونانيين، ومثلما جسد بوذا تلك الاستنارة الممكنة لجميع البشر، كذلك تحولت طبيعة الإمام البشرية بانفتاحها الكلي على الله.

خشى الاسماعيليون من تركيز الفلاسفة على العوامل العقلانية والخارجية للدين، ومن إهمالهم لجوهره الروحي، ولذلك فقد عارضوا الفكر الحر الرازي، وفي الوقت نفسه طوروا فلسفتهم الخاصة بهم وعلمهم اللذين لم يعتبرهما غايتين بحد ذاتهما بل كنوع من تدريب روحي لتمكينهم من فهم المعنى الداخلي «الباطن» للقرآن. فتأكل التجريدات العلمية والرياضية نقي عقولهم من المجاز الحسي وحرروهم من عيوب وعيهم اليومي. فبدلاً من استخدام العلم للحصول على فهم حرفي ودقيق للوجود الخارجي - كما نفعل نحن - فقد استخدمه الإسماعيليون لتطوير مخيالاتهم. لقد التفتوا إلى الأساطير الزرادشتية في إيران ودمجوها ببعض أفكار الأفلاطونية المحدثة وأوجدوا فهماً جديداً لتاريخ الخلاص. يجب أن نتذكر أن في مجتمعات أكثر تقليدية كان الناس يعتقدون أن خبرتهم هنا كررت أحداثاً وقعت في العالم السماوي: معتقد أفلاطون بالمثل أو الأتماط البدئية الأبدية قد عبر عن هذا الاعتقاد المتكرر في مصطلح فلسفي. ففي إيران ما قبل الإسلام - على سبيل المثال - كان للوجود وجه مزدوج: فهناك سماء مرئية وسماء سماوية لا يمكننا رؤيتها بفهمنا العادي. وكان هذا ينطبق على حقائق مجردة وروحية. فكل صلاة تؤذيها أو عمل غير نقوم به هنا والآن في السماء المرئية كانت تضاعف في العالم السماوي الذي كان يعطيها وجوداً حقاً ومعنى أبدياً.

كان الناس يشعرون أن هذه الأتماط السماوية صحيحة بالطريقة نفسها التي كانوا يشعرون بها حيال الأحداث والمثل التي تسكن مخيلتنا فبدوا أغلب الأحيان حقيقة وذات معنى لنا أكثر من وجودنا الدنيوي. قد يرى هذا الأمر على أنه محاولة لتفسير قناعتنا بأن حيواتنا والعالم الذي نعرفه لهما معنى وأهمية على الرغم من كمية الأدلة المثبطة

للتقيض من ذلك. ففي القرن العاشر أحيأ الاسماعيليون هذه الميثولوجيا التي تركها المسلمون الفرس عندما اعتنقوا الاسلام، والتي كانت مازال جزءاً من ميراثهم الثقافي، وصاغوها بمخيلة مبدعة بمعتقد الفيض الأفلاطوني. لقد تصور الفارابي عشر فيوضات بين الله والعالم المادي الذي كان يوجه العوالم البطليموسية. بعدئذ جعل الاسماعيليون النبي والأئمة «الأرواح» هذا المخطط السماوي.

كان محمد في العالم النبوي الأعلى في السماء الأولى، وفي السماء الثانية علي، وكان كل إمام من الأئمة السبعة يستقر في العالم الذي يليه بالترتيب. أما فاطمة فكانت في العالم الأقرب إلى العالم المادي، ألا وهي التي جعلت هذه الذرية أمراً ممكناً. ولذلك هي أم الإسلام وكانت تقابل صوفيا Sophia إلهة الحكمة. هذه الصورة المؤلهة للأئمة تمكس التفسير الاسماعيلي للمعنى الحقيقي للتاريخ الشيعي. هذا التاريخ لم يكن مجرد تعاقب أحداث دنيوية خارجية، كان كثير منها مأساوياً. فحيوات هؤلاء البشر اللامعين هنا على الأرض كانت تقابل أحداثاً في العالم السماوي أي في الترتيب النمطي Archetype order⁽⁴⁾.

ينبغي ألا نتسرع ونسخر من هذا على أنه وهم. ففي أيامنا هذه نفخر بأنفسنا لاهتمامنا بالدقة الموضوعية، لكن الباطنيين الاسماعيليين الذين سعوا وراء البعد الباطني للدين كانوا مهتمين يبحث مختلف جداً. لقد استخدموا الرمزية - مثل الشعراء أو الرسامين - التي لها علاقة طفيفة بالمنطق، شعروا أنها كانت تكشف حقيقة أعمق مما تدركه الحواس، أو يعبر عنه بمفاهيم عقلانية. وبالتالي طوروا طريقة لقراءة القرآن أسموها التأويل. شعروا أن هذه الطريقة سترجعهم إلى النمط الأصلي للقرآن الذي نطق به في العالم السماوي في الوقت الذي كان فيه محمد يرتله في العالم الأرضي. لقد قارن هنري كوربان Henry Corban - المؤرخ للتشيع الإيراني - مبدأ التأويل مع مبدأ الانسجام في الموسيقى بهذا الأمر وكان الاسماعيلي كان يسمع «صوتاً» - آية قرآنية أو حديثاً - على عدة مستويات في الوقت ذاته، كان يحاول تدريب نفسه على سماع نظير هذا الصوت في السماء بالإضافة إلى سماع الكلمات العربية. إلا أن المحاولة أسكتت مقدرته النقدية الصاخبة وجعلته متركاً للصمت الذي يحيط بكل كلمة تماماً. بالطريقة نفسها التي يستمع فيها هندوسي إلى الصمت المحيط الذي لا يوصف عند لفظ المقطع المقدس OUM. فبينما كان يستمع إلى الصمت أصبح مدركاً للهوة الموجودة بين كلمائنا ومثل الله والحقيقة الكاملة⁽⁵⁾. لقد كان تدريباً ساعد المسلمين على فهم الله لأنه جدير أن يفهم،

كما شرح المفكر الإسماعيلي البارز أبو يعقوب السجستاني (d - ٩٧١).

تحدث المسلمون عن الله مجسداً في أغلب الأحيان جاعلين إياه أكبر من الإنسان الحي، بينما فرغه آخرون من كل معنى ديني، وخفضوه إلى مُجرد مفهوم. بدلاً من ذلك فقد دافع عن استخدام النفي المزدوج. يجب أن نبداً الحديث عن الله بكلمات النفي بالقول - مثلاً - إنه «لا وجود» بدلاً من «وجود»، «غير جاهل» بدلاً من «حكيم» وهلم جرا. لكن - يجب أن ننفي على الفور النفي المجرد أو الذي لا حياة فيه كأن نقول إن الله ليس لا جاهلاً not not - ignorant أو هو ليس لشيء not no - thing بنفس الطريقة التي نستخدم فيها الكلمة عادة. فمن طريق الاستخدام المتكرر لهذا التدريب اللغوي فإن الباطني سيفقدو مدركاً لعجز اللغة عن التعبير عن سر الله.

وصف أحمد حميد الدين الكرمانى (١٠٢١م) - مفكر اسماعيلي متأخر - السلام والرضا الكبيرين اللذين كان يحدثهما هذا التدريب في كتابه «رہف العقل» كان تدريباً عقلياً جافاً، حيلة ذكية، لكنه كان يستثمر كل تفصيل من تفاصيل الحياة الاسماعيلية بإحساس ذي معنى. تحدث الكتاب الاسماعيليون عن الباطن بكلمات الاستارة والتحول. فلم يكن المراد من التأويل تقديم معرفة عن الله بل خلق إحساس تعجب يثير الباطني في مستوى أعمق من المستوى العقلي. كذلك لم يكن التأويل هروباً لأن الاسماعيليين كانوا نشطاء سياسياً.

في الحقيقة عرف جعفر الصادق - الإمام السادس - الدين أنه العمل. كان على المؤمن أن يثبت إيمانه في العالم الدنيوي كما دعا إلى ذلك النبي والأئمة. شارك إخوان الصفا الاسماعيليين بهذه المثل. وهؤلاء جمعية سرية ظهرت في البصرة خلال القرن الشيعي، ويحتمل أنهم فرع من الاسماعيلية. لقد كرموا أنفسهم - مثلما فعل الاسماعيليون - إلى تحصيل العلم خاصة في ميادين الرياضيات والتنجيم، والعمل السياسي. سعى إخوان الصفا إلى البحث عن الباطن أي عن معنى الحياة الخفي. فكانت رسائلهم موسوعة من العلوم الفلسفية حظيت بشعبية كبيرة ووصلت حتى إسبانيا. لقد دمجوا العلم والفلسفة، واعتبروا أن الرياضيات هي مقدمة للفلسفة وعلم النفس. كشفت الأعداد الصفات المختلفة المتأصلة في الروح، وكانت أسلوباً للتركيز مكن الخير أن يصبح عارفاً بآليات عمل عقله. فكما رأى القديس أوغسطين أن معرفة الذات خطوة لا غنى عنها في معرفة الله كذلك أصبح الفهم العميق للذات حجر الأساس في الصوفية الاسماعيلية. المتصوفون السنة الذين شعر الاسماعيليون بصلة كبيرة معهم كان لديهم البديهية التالية:

«من يعرف نفسه، يعرف الرب». وقد وردت هذه المقولة في الرسالة الأولى من رسائل إخوان الصفا^(١). فبينما كانوا يتأملون أعداد الروح فقد سيقوا إلى الواحد البدئي، مبدأ الذات الإنسانية في قلب النفس Psyche. كان الإخوان قريين جداً من الفلاسفة. كانوا مثل المسلمين العقلانيين، أكدوا على وحدة الحقيقة التي ينبغي السعي إليها في كل مكان. فالساعي إلى الحقيقة يجب ألا يتأى عن أي علم، ولا يسخر من كتاب، ولا يتعلق متعصباً بأي عقيدة واحدة^(٢) لقد صاغوا مفهوماً أفلاطونياً محدثاً لله، رأوا أنه الواحد الأفلوطيني العصي على الفهم والوصف. كذلك التزموا بالاعتقاد الأفلوطيني بالفيض وكرسوا المعتقد القرآني بالخلق من عدم: فالعالم عبر عن العقل الإلهي، وباستطاعة الإنسان المشاركة في المقدس وأن يعود إلى الواحد عن طريق تطهير قدراته العقلية.

وصلت الفلسفة إلى ذروتها بمؤلفات أبي علي ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) الذي يعرف في الغرب باسم ابن سينا Avicenna. ولد في أسرة شيعية بالقرب من بخارى في آسيا الوسطى، وتأثر بالإسماعيليين الذين كانوا يأتون إلى أبيه ويجادلونه. لقد أصبح الطفل المعجزة: فعندما كان في السادسة عشرة كان مستشاراً لأطباء هامين وفي الثامنة عشرة كان قد اتقن الرياضيات، والمنطق والفيزياء. عانى من صعوبة مع أرسطو، لكن هذه الصعوبة زالت عندما قرأ مؤلف الفارابي «مقاصد ميثافيزيقا أرسطو». لقد عاش طبيباً جوالاً في الامبراطورية الإسلامية متكللاً على نزوات أرباب نعمته. ففي إحدى مراحل حياته أصبح وزير السلالة البويهية الشيعية التي حكمت فيما يعرف الآن غربي إيران وجنوبي العراق. لم يكن معلماً متحليلاً بل مثقفاً نير الفكر ذكياً، وكان شهوانياً أيضاً لأنه كما قيل مات مبكراً في سن «٥٨» لإفراطه في شرب الخمرة والجنس.

لقد أدرك ابن سينا أن على الفلسفة أن تتكيف مع الظروف المتغيرة داخل الامبراطورية الإسلامية. كانت شمس الامبراطورية العباسية آخذة بالانقراض وبالتالي لم يعد سهلاً رؤية دولة الخلافة على أنها المجتمع الفلسفي المثالي الذي وصفه أفلاطون في جمهوريته. ومن الطبيعي أن يتعاطف ابن سينا مع المطامح الشيعية السياسية والروحية. بيد أنه كان أكثر انجذاباً إلى فلسفة الأفلاطونية المحدثة التي نجح في إعطائها طابعاً إسلامياً أكثر مما فعل أي فيلسوف قبله. فقد اعتقد أنه إذا أرادت الفلسفة أن تفي بادعائها بأنها تقدم صورة تامة للوجود فيجب أن تجعل المعتقد الديني للناس العاديين ذا معنى أكبر - الذي كيفما اختار المرء تفسيره - كان حقيقة رئيسية في الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية. فبدلاً من رؤية الدين الموحى كنسخة أدنى من الفلسفة فإن ابن سينا اعتقد أن نبياً كـ محمد

كان أعلى من أي فيلسوف لأنه لم يكن معتمداً على العقل البشري بل كان لديه معرفة مباشرة وحسية بالله. فكان هذا ممثلاً للتجربة الصوفية عند المتصوفين وقد وصفه أفلوطين نفسه على أنه الشكل الأعلى للحكمة. بيد أن هذا لم يكن يعني أن العقل لا يستطيع تكوين معنى عن الله. قام ابن سينا بتفسير عقلاني لوجود الله مبني على براهين أرسطو التي غدت نماذج لدى فلاسفة العصور القروسطية لاحقاً في اليهودية والإسلام. فلم يكن لديه أدنى شك - وكذلك الفلاسفة - بأن الله كان موجوداً. ولم يُشككوا أبداً في أن العقل البشري المجرد باستطاعته الوصول إلى معرفة بوجود (وجود أعلى) Supreme Being. فالعقل كان أكبر قدرة مكرمة فقد صدر عن العقل الإلهي وبالتالي كان له دور هام في المعرفة الدينية. رأى ابن سينا أن واجباً دينياً مفروضاً على من لديهم مقدرة عقلية كي يكشفوا الله بأنفسهم لأن العقل بإمكانه أن يشذب المفهوم عن الله ويحرره من الخرافة والتجسدية. فابن سينا ومن أتى بعده من الذين أعمالوا فكرهم لتقديم تفسير عقلاني لوجود الله. لم يكونوا يجادلون بالمعنى الذي نفهمه نحن من الكلمة. لقد أرادوا استخدام العقل لاكتشاف قدر ما يستطيعون حول طبيعة الله.

يبدأ «برهان» ابن سينا بإيضاح الطريقة التي تعمل بها عقولنا. فحيثما ننظر في العالم نرى وجودات مركبة تتألف من عدد من عناصر مختلفة. فالشجرة على سبيل المثال - تتكون من الخشب واللحاء واللب، والنسج والأوراق. فعندما نحاول فهم شيء فإننا نحلله إلى أجزائه المكونة له إلى أن لا يعود بوسعنا القيام بمزيد من التجزئة. تبدو العناصر البسيطة أساسية لنا والموجودات المركبة التي تتشكل منها تبدو ثانوية. إننا باستمرار نبحث عن البساطة وعن موجودات هي أنفسها غير قابلة للاختزال. كانت إحدى مسلمات الفلاسفة بأن الواقع reality يشكل كلاً منسجماً منطقياً، وكان ذلك يعني أن بحثنا الذي لا نهاية له عن البساطة يجب أن يعكس أشياء على نطاق واسع. لقد شعر ابن سينا كما شعر جميع الأفلوطينيين أن التعددية التي نراها فيما حولنا يجب أن تكون معتمدة على الوحدة الأساسية. فيما أن عقولنا تعتبر الأشياء المركبة ثانوية ومشتقة، فلا بد أن هذه التزعة قد نُجمت عن شيء ما خارجها، أي عن حقيقة أعلى، وبسيطة. الأشياء التي تتكاثر هي مشروطة، والكائنات المشروطة هي أدنى من الحقائق realities التي تعتمد عليها كما هي الحالة في الأسرة: الأطفال في منزلة أدنى من منزلة الأب الذي أعطاهم وجودهم. شيء ما هو البساطة ذاتها ستكون ما يسميه الفلاسفة بوجود ضروري Necessary Being أي شيء لن يعتمد على أي شيء آخر من أجل وجوده. فهل هناك وجود كهذا؟ فيلسوف مثل ابن سينا اعتقد بديهياً أن الكون كان عقلانياً، وفي كون عقلاني لا بد من وجود

«وجود غير مُسبَّب Uncaused Being، محرك لا يُحرك». في قمة سلسلة الوجود شيء ما لا بد أنه قد بدأ سلسلة سبب ونتيجة. وغياب هذا الوجود الأسمى يعني أن عقولنا لم تكن منسجمة مع الحقيقة ككل. وذلك بدوره يعني أن الكون كان منسجماً وعقلانياً. هذا وجود بسيط تماماً يعتمد عليه حقيقة مركب مضاعف وهو ما أسسته الأديان «الله» ولأنه أسمى شيء لا بد أنه كامل مطلقاً وجدير بالتمجيد والعبادة. ولأن وجوده كان مختلفاً جداً عن وجود أي شيء آخر. لذلك لم يكن له ند في سلسلة الوجود.

كان الفلاسفة والقرآن متفقين على أن الله هو البساطة ذاتها: كان الواحد. وبالتالي لا يمكن تحليله أو تقسيمه إلى جزئيات مكونة أو إلى صفات، ولأن هذا الوجود البسيط بشكل مطلق لذلك ليس له علة ولا صفات، ولا بعد زمني، ولا يوجد شيء يمكننا قوله عنه. فالله لا يمكن أن يكون موضوعاً لفكر استطرادي لأن أدمغتنا لا تستطيع التعامل معه بالطريقة نفسها التي تتعامل بها مع كل شيء آخر. فالله أساساً فريد لا يمكن مقارنته بأي شيء آخر موجود بالمعنى المركب العادي. وبالتالي عندما نتحدث عن الله من الأفضل أن نستخدم المنغيات negatives كي نغيّره عن كل شيء آخر بشكل مطلق نتحدث عنه. لكن بما أن الله هو مصدر الأشياء جميعاً يمكننا أن نسلم بأشياء محددة حوله. ولأننا نعرف أن الخير موجود فإن الله لا بد أنه الخير بالضرورة أو أساس الخير، ولأننا نعرف أن الحياة والقدرة والمعرفة موجودة فلا بد أن يكون الله حياً ومقتدراً وذكياً أساساً وبالشكل الكامل. قال أرسطو أن الله هو عقل محض، وفي الوقت ذاته هو فعل المحاكاة «التعليل» بالإضافة إلى موضوع وفاعل الفكر - بإمكانه تأمل ذاته وليس لديه معرفة بواقع مركب أدنى منه. هذا المفهوم لم يكن متفقاً مع صورة الله في الوحي الذي يقال إنه يعرف جميع الأشياء وأنه موجود فعال في ترتيب الخلق. حاول ابن سينا التوصل إلى تسوية بين هاتين الصورتين: فالله منزّه جداً عن النزول إلى معرفة وضعية كمعرفة كائنات محددة كالإنسان وأفعالههم. وكما قال أرسطو «هناك أشياء يفضل عدم رؤيتها على رؤيتها»^(٨). فلا يمكن أن يلطخ نفسه ببعض دقائق الحياة الثقافة على الأرض. لكن في فعله الأبدى لمعرفة الذات فإنه يفهم كل شيء فاض منه، وكل شيء أوجده. إنه يعرف أنه علة المخلوقات المركبة. وفكره كامل جداً لدرجة يصبح التفكير والفعل واحداً ولذلك فإن تأمله الأبدى لذاته يولد عملية الفيض التي وصفها الفلاسفة. لكن الله يعرفنا نحن وعلمنا بشكل عام وكوني فقط، إنه لا يتعاطى مع التفاصيل.

لم يكن ابن سينا راضياً عن هذا الوصف التجريدي لطبيعة الله: أراد أن يربطه

بتجربة المؤمنين الدينية، المتصوفين والباطنيين. وبما أنه مهتم بالسيكولوجيا الدينية فقد استخدم مخطط الفيض الأفلوطيني كي يفسر تجربة النبوة. فعند كل طور من الأطوار العشرة لنزول الوجود من الواحد، قَدَّر ابن سينا أن المذكرات المحضة العشرة مع الأرواح أو الملائكة التي وضعت كلاً من العوالم البطليموسية في حالة حركة - من مملكة متوسطة بين الإنسان والله - والتي تماثل عالم الواقع النمطي البدئي، قَدَّر أن ذلك هو ما تخيله الباطنيون. هذه العقول Intelligences تمتلك أيضاً مخيلة، في الحقيقة، إنها الخيلة Imagination في حالتها النقية، وعبر هذا العالم الوسطي للمخيلة - لا عبر تحليل استطرادي - يصل الرجال والنساء إلى أكمل فهم لله. وآخر العقول في عالمنا هو العقل العاشر وهو روح القدس للوحي والذي يعرف باسم جبريل مصدر النور والمعرفة. الروح البشرية مكونة من فكر Intellect عملي يرتبط بهذا العالم، وفكر تأملي قادر على العيش بمحبة وثيقة مع جبريل. وبذلك من الممكن بالنسبة للأنبياء أن يحفظوا بمعرفة تخيلية حدسية لله، مماثلة للمعرفة التي تتمتع بها العقول Intelligences والتي تتجاوز العقل الاستطرادي العملي.

لقد أظهرت تجربة الصوفيين أنه كان ممكناً للناس الحصول على رؤية الله التي كانت صحيحة فلسفياً، دون استخدام للنطق والعقلانية. فبدلاً من استخدام القياس استخدموا وسائل تخيلية رمزية ومجازية. فالنبي محمد أكمل هذا الاتحاد المباشر بالعالم الإلهي. هنا التفسير السيكلوجي للرؤية والوحي سوف يمكن المتصوفين الذين لديهم ميل أكثر للفلسفة من مناقشة تجربتهم الدينية كما سنرى في الفصل التالي.

يبدو أن ابن سينا قد أصبح متصوفاً في نهاية حياته. ففي كتابه «كتاب الإشارات والتنبيهات» Kitab - Asherat أصبح منتقداً للمقاربة العقلانية لله، التي وجدها مخيلة. كان يتحول باتجاه ما أسماه «الحكمة المشرقية» Al-hikmat- almashriqiyyeh. وهذه لا تشير إلى الموقع الجغرافي في الشرق لكنها تشير إلى مصدر النور. أراد أن يكتب كتاباً سرياً تعتمد فيه الطرق على مبدأ الإشراق Ishraq بالإضافة إلى الاستدلال المنطقي، ولا نعرف فيما إذا كتب هذا الكتاب أم لا، فإذا فعل ذلك فإنه لم يصلنا. لكن كما سنرى في الفصل التالي فإن الفيلسوف الإيراني يحيى السهروردي قد أسس مدرسة الإشراق التي دمجت الفلسفة بالروحانية بالطريقة التي تخيلها ابن سينا.

لقد ألهمت قواعد علم الكلام والفلسفة حركة فكرية مماثلة بين يهود الامبراطورية الإسلامية. لقد بدؤوا يكتبون فلسفتهم باللغة العربية مدخلين عنصرأ تأملياً وميتافيزيقياً إلى

اليهودية لأول مرة. الفلاسفة اليهود لم يشغلوا أنفسهم بكل مجال العلم الفلسفي لكنهم ركزوا على المسائل الدينية بشكل كامل تقريباً. وكانوا بذلك مختلفين عما فعله الفلاسفة المسلمون. لقد شعروا أن عليهم أن يردوا على تحدي الإسلام بلغته، وتطلب ذلك خلق انسجام بين الله الشخصي Personalistic في الكتاب المقدس وبين الله عند الفلاسفة. لقد قلقوا - كما قلق المسلمون - من اللوحة التجسدية لله في الكتب المقدسة والتلمود وسألوا أنفسهم كيف يمكن أن يكون مثل إله الفلاسفة. لقد أقلقتهم مشكلة خلق العالم والعلاقة بين الوحي والعقل. وكان من الطبيعي أن يتوصلوا إلى استنتاجات مختلفة لكنهم كانوا متحمدين كثيراً على المفكرين المسلمين. وهكذا فإن سعدية بن يوسف (٨٨٢ - ٩٤٢) كان أول من قام بأول تفسير فلسفي لليهودية، كان تلمودياً لكنه كان أيضاً معتزلاً. لقد اعتقد أن العقل بإمكانه الوصول إلى الله عن طريق قدرات العقل ذاته. فكفيلسوف رأى الوصول إلى تصور عقلائي لله هو mitzvah ، أي واجب ديني. لم يكن يساوره شك في وجود الله، على شاكلة العقلائين المسلمين. هدت حقيقة الله الخالق واضحة جداً له. وكونه شعر أن وجود الله بحاجة إلى برهان مرده إلى احتمالية شك ديني أكثر من كونه أمراً إيمانياً، وهذا ما تناوله في كتابه «كتاب معتقدات وآراء Beliefs and opinions».

لم يكن مطلوباً من اليهودي أن يجهد عقله حتى يقبل حقائق الوحي، كما قال سعدية. لكن ذلك لم يكن يعني أن الله في متناول العقل البشري. اعترف سعدية أن فكرة الخلق من عدم كانت مليئة بمصاعب فلسفية وأن من المحال شرحها بكلمات عقلانية وأن إله الفلسفة غير قادر على اتخاذ قرار مفاجيء، وعلى المبادرة بالتغير. كيف كان ممكناً أن عالماً مادياً له أصله في إله روحاني كلياً؟ قد وصلنا هنا إلى حدود العقل، ويجب أن نقبل ببساطة أن العالم كان غير أزلّي - مثلما اعتقد الأفلاطونيون، بل كان له بداية زمنية. فكان هذا التفسير هو التفسير الوحيد الممكن المتفق مع الكتاب المقدس ومع الإدراك السليم. فإذا قبلنا هذا التفسير يمكننا أن نستنتج حقائق أخرى حول الله. الترتيب المخلوق مصمم بذكاء، فيه حياة وقدرة؛ ولذلك فالله الذي خلقه لابد أن لديه حكمة وحياة وقدرة. هذه الصفات ليست أرقام منفصلة hypastases كالاعتقاد المسيحي المقترح بالثالوث بل مجرد هيئات الله. فيما أن لغتنا البشرية لا تستطيع أن تعبر بشكل كاف عن حقيقة الله لذلك علينا أن نحلله بهذه الطريقة، ويدور أننا ندمر بساطته المطلقة بذلك. فإن نرد أن نكون دقيقين قدر استطاعتنا حول الله يمكننا أن نقول فقط أنه موجود. لم يحرم سعدية كل وصف إيجابي لله، وكذلك لم يضع إله الفلاسفة اللاشخصي والبعيد فوق إله الانجيل المتجسد

والشخصي. فعلى سبيل المثال عندما يحاول تفسير المعاناة التي نراها في العالم يلجأ سعيدة إلى الحلول التي قدمها كتاب الحكمة والتلمود؛ المعاناة هي عقاب على ذنب، إنها تطهرنا وتدرّبنا كي نجعلنا متواضعين. وهذا يرضي فيلسوفاً حقاً لأنه يجعل الله بشرياً جداً وينسب إليه خطأً ونوايا. لكن سعيدة لا يرى إله الكتاب المقدس المتجلي أدنى من إله الفلاسفة. فالأنبياء كانوا أعلى من أي فيلسوف. في النهاية بإمكان العقل أن يحاول فقط أن يوضح منهجياً ما جاء به الكتاب المقدس.

مضى بعض اليهود إلى أبعد من ذلك كما فعل سليمان بن غابريول Gabirol (١٠٢٦ - ١٠٧٠) في كتابه «نبع الحياة» Fountain of Life لم يستطع قبول اعتقاد الخلق من عدم، لكنه حاول أن يعدل نظرية الفيض كي يسمح الله بدرجة من العنوية والإرادة الحرة. لقد قال أن الله أراد أو رغب عملية الفيض محاولاً بذلك أن يجعلها أقل ميكانيكية وليدل على أن الله كان مسيطراً على قوانين الوجود بدلاً من كونه موضوع Subject الديناميكية نفسها dynamic. لكن غابريول أخفق في أن يوفّي شرح كيف أن المادة كانت مستمدة من الله. وكان يهود آخرون أقل إبداعاً. لم يكن باهيا بن باقره Bahya ibn Pakudah (d ١٠٨٠) أفلاطونياً تماماً، بل انسحب إلى طرق علم الكلام كلما كان ذلك مناسباً له. فقد جادل - مثلما فعل سعيدة - أن الله قد خلق العالم في لحظة محددة، فالعالم بالتأكيد لم يظهر إلى الوجود بمحض المصادفة: لأن تلك ستكون فكرة سخيفة مثل سخافة تخيل وجود فقرة مكتوبة بشكل تام على صفحة بمجرد سكب حبر على الصفحة. فترتيب وهدفية العالم توضح أنه لا بد من وجود خالق كما أوضح الكتاب المقدس. وبعد أن طرح هذا الاعتقاد الفلسفي جداً تحول باهيا من علم الكلام إلى الفلسفة ناقلاً برهان ابن سينا بأن وجوداً بسيطاً ضرورياً كان لا بد من وجوده.

اعتقد باهيا أن الناس الذين عبدوا الله كما ينبغي هم الأنبياء والفلاسفة، فالأنبياء كان لديهم معرفة حدسية مباشرة بالله، وكان لدى الفيلسوف معرفة عقلانية به. وكل امرئ آخر كان يعبد مجرد إسقاط لنفسه، أي إلهاً على صورته. فكانوا بذلك مثل عميان يقدّمهم بشر آخرون، هذا إذا لم يتمكنوا من إثبات وجود وحدانية الله بأنفسهم. كان باهيا نخبياً مثل أي فيلسوف، وكان لديه ميول صوفية قوية؛ فالعقل بإمكانه أن يخبرنا أن الله قد وجد لكن ليس باستطاعته أن يخبرنا أي شيء عنه. فكتابه «واجبات القلب» كما يوحي عنوانه قد استخدم العقل كي يساعدنا على تنمية موقف لائق تجاه الله. فإذا ما تعارضت الأفلاطونية المحدثة مع يهوديته كان يتخلى عنها بكل بساطة، وتجربته الدينية مع

الله كانت لها الأولوية على أية طريقة عقلانية.

إذا لم يستطع العقل أن يخبرنا أي شيء عن الله فما هي الغاية من النقاش العقلاني لمسائل ثيولوجية؟ لقد عذب هذا السؤال المفكر أبو حامد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١)، شخصية حاسمة تمثل رمزاً في تاريخ الفلسفة الدينية. ولد في خراسان، ودرس علم الكلام على المجتبي اللاهوتي الأشعري البارز، وفي سن الثالثة والثلاثين عين مديراً للمسجد النظامي في بغداد، كانت رسالته هي الدفاع عن المعتقدات السنية ضد التحدي الشيعي الاسماعيلي. ولقد جعله طبعه القلق يتصارع مع الحقيقة مثل كلب صغير terrier، معالجاً المشاكل حتى الموت الزؤام ورفضاً أن يقنع بإجابة تقليدية سهلة كما يخبرنا:

لقد نَقَبْتُ في كل لجة مظلمة، وقد شنت حرباً على كل مشكلة، لقد غصت في كل هوة. لقد محصت عقيدة كل طائفة. لقد حاولت أن أصل إلى أعماق معتقدات كل جماعة. فعلت كل هذا كي أتمكن من تمييز الحق عن الباطل، بين التراث الصحيح وهرطقة البدع^(١).

كان يبحث عن يقينية لا شك فيها كذلك التي شعر بها فيلسوف مثل سبدي لكن خيسته كانت متزايدة. بغض النظر كم كان بحثه منهكاً إلا أن اليقينية المطلقة كانت تراوغه. فمعاصروه كانوا يبحثون عن الله في سبل عديدة وفقاً لاحتياجاتهم الشخصية والمزاجية: في علم الكلام من خلال إمام، في الفلسفة وفي صوفية التصوف. ويبدو أن الغزالي قد درس كلاً من هذه المعارف في سعيه لفهم «ما هي حقيقة جميع الأشياء بحد ذاتها»^(٢). وجميع أتباع المذاهب الإسلامية الأربعة التي بحثها، اذعوا الإيمان الراسخ، لكن الغزالي سأل: كيف يمكن تأكيد هذا الادعاء بشكل موضوعي؟

كان الغزالي ملزماً - مثل أي ربي معاصر - أن اليقينية كانت حالة نفسية وليس بالضرورة أن تكون صحيحة موضوعياً فقد قال الفلاسفة إنهم حازوا على معرفة أكيدة عن طريق الجدول العقلاني. وأصر الصوفيون على أنهم وجدوها عبر الممارسات الصوفية، وكان الاسماعيليون يشعرون أنها موجودة في تعاليم إمامهم فقط. لكن الحقيقة التي نسميها الله لا يمكن اختبارها تجريبياً، ولذلك كيف نتأكد من أن معتقداتنا ليست سوى أوهام؟ فقد أنفقت البراهين العقلانية التقليدية في إقناع المعايير الصارمة التي وصفها الغزالي وبدأ علماء الكلام باقتراحات موجودة في القرآن، لكن هذه كانت قد صنفت على أنها خارج نطاق الشك العقلي. واعتمد الاسماعيليون على تعاليم إمام متخفي لا سبيل إلى الوصول إليه. لكن كيف نستطيع أن نتيقن من أن الإمام ملهم من الله، وإذا كنا لا نستطيع أن نجده

فما هي الغاية من هذا الإلهام؟ كانت الفلسفة غير مقنعة. فكرس الغزالي جزءاً لا بأس به من لاهوته الجدلي ضد الفارابي وابن سينا. وقد دفعه اعتقاده أن بالإمكان دحضهما من قبل خبير في ميدانهما إلى دراسة الفلسفة طوال ثلاث سنوات حتى أتقنها^(١١). في كتابه «تهافت الفلاسفة» قال أن الفلاسفة كانوا يتوسلون إلى المسألة. فلو أن الفلسفة قد حصرت نفسها في العالم المادي، والظواهر المادية كما في الطب، والفلك والرياضيات لكانت مفيدة جداً، لكنها لم تستطع أن تخبرنا شيئاً عن الله. كيف يستطيع امرؤ أن يثبت معتقدات الفيض بشكل أو بآخر؟ وما هي السلطة التي خولت الفلاسفة أن يؤكدوا على أن الله كان يعرف فقط الأشياء العامة الكونية أكثر مما يعرف دقائق الأمور؟ هل بوسعهم إثبات هذا؟ فجدالهم أن الله كان منزهاً عن معرفة الموجودات المنحطة كان غير كافٍ: فمتى كان الجهل في أي شيء أمراً ممتازاً؟ فليس هناك سبيل لتبرير أي من هذه الطروحات بشكل مقنع، وهكذا فقد كان الفلاسفة غير عقلانيين وغير فلسفيين في سعيهم إلى معرفة تقع خارج قدرة العقل ولا يمكن التأكد من صحتها عن طريق الحواس.

لكن أين ترك ذلك الباحث النزبه عن الحقيقة؟ هل كان إيمان راسخ سليم بالله محالاً؟ فبحث وطأه بحثه تعرض الغزالي إلى محنة شخصية أدت إلى انهاره. فوجد نفسه غير قادر على البلع أو الأكل، وشعر أنه منهك بوطأة قدر مشؤوم وبأس. وفي النهاية - أي في نحو عام ١٠٩٤ - وجد أنه لم يمكن قادراً على الكلام أو إلقاء محاضراته:

«لقد ربط الله لساني حتى منعت من تقديم مشورة. لذلك اعتدت أن أزم نفسي بالتعليم في يوم محدد خدمة لطلابي، لكن لساني لن ينطق كلمة واحدة»^(١٢).

ثم رقد في حالة وهن إكلينيكي. وقد شخص الأطباء حالته بأنه يعاني من قلق عميق الجذور وأخبروه أنه إذا لم يتخلص من قلقه الدفين فإنه لن يشفى أبداً. ولخوفه من أنه في خطر من نار جهنم إن لم يسترد إيمانه، لذلك استقال من مركزه الأكاديمي الممتاز ومضى لينضم إلى المتصوفين. وهناك وجد ما كان يبحث عنه: فدون أن يتخلى عن عقله - لأنه كان دائماً يكره الأشكال المتطرفة من الصوفية - اكتشف أن القواعد الصوفية كانت تقدم إحساساً مباشراً لكن حذسياً بشيء ما بالإمكان تسميته الله. ويوضح العلامة البريطاني جون بوكور John Bowker أن الكلمة العربية المقابلة لـ existence «أي الوجود» مشتقة من الجذر وَجَدَ^(١٣). فكلمة وجود تعني حرفياً «الشيء الذي بالإمكان وجوده» فكانت بذلك ملموسة أكثر من الكلمات الميتافيزيقية اليونانية، ومع ذلك أعطت المسلمين مهلة أكبر Leeway. فالفيلسوف الذي يتحدث العربية كان يحاول أن يثبت أن الله كان موجوداً لم

يكن عليه أن يقدم الله على أنه جسم آخر بين عدة أجسام: لذلك كان عليه أن يثبت فقط أن بالإمكان إيجاده: سيظهر الإثبات للطلق الوحيد لوجود الله عندما يقابل المؤمن الله وجهاً لوجه بعد الموت. لكن روايات أناس كالأنبياء مثلاً والمتصوفين الذين زعموا أنهم قد مروا بهذه التجربة في هذه الحياة ينبغي التعامل معها بحذر. فقد زعم المتصوفون بالتأكيد أنهم قد عرفوا وجود الله: وكلمة وَجَدَ كانت كلمة فنية للتعبير عن خشيتهم أثناء نشوتهم من الله الذي أعطاهم يقينية تامة «يقين» أي أن تجربتهم كانت حقيقة وليست مجرد خيال. ينبغي الاعتراف أن تلك الروايات قد تكون مزاعمها باطلة، لكن بعد أن عاش الغزالي عشر سنوات كمتصوف وجد التجربة الدينية أنها السبيل الوحيد لإثبات حقيقة تقع خارج الفكر البشري والعملية الدماغية. فالمعرفة الصوفية لم تكن معرفة ميتافيزيقية أو عقلانية بل كانت ماثلة للمعرفة الحسية لأنبياء الماضي: وهكذا وجد المتصوفون حقائق الإسلام الأساسية بأنفسهم عن طريق عيش تجربته المركزية من جديد.

ولذلك صاغ الغزالي عقيدة صوفية ستغدو مقبولة لدى المؤسسة الإسلامية، نظر فيها بازدراء إلى متصوفي الإسلام، وهذا ما سنراه في الفصل القادم. لقد نظر إلى الوراثة - كما فعل ابن سينا - إلى الاعتقاد القديم بمملكة بدئية خارج عالم التجربة الحسية لهذا العالم الدنيوي. العالم المرمي «علم الشهادة» نسخة أدنى عما أسماه عالم العقل الأفلاطوني «عالم الملكوت» الذي اعترف به أي فيلسوف. فالقرآن والكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين قد تحدثا عن هذا العالم الروحاني. وقد وقف الإنسان في عالمي الحقيقة هذين: كان ينتمي إلى العالم المادي وإلى عالم الروح الأعلى لأن الله قد حفر الصورة الإلهية في داخله. وفي كتابه «مشكاة الأنوار» يشرح الغزالي سورة النور القرآنية التي أوردتها في الفصل السابق^(١٤). النور في هذه الآيات يرجع إلى الله والأجسام المضيئة الأخرى: المصباح والنجم. وعقلنا منير أيضاً فهو لا يمكننا فقط من رؤية الأجسام الأخرى لكنه مثل الله يستطيع تجاوز الزمان والمكان؛ إنه ينهل من العالم الروحاني نفسه. لم يشر الغزالي إلى قدراتنا التحليلية الدماغية باستخدام كلمة العقل، فهو يذكّر قراءه أنه يجب ألا يأخذوا شرحه بمعناه الحرفي: يمكننا أن نناقش هذه المسائل فقط بلغة مجازية هي الحافظة لخيلة مبدعة. بعض الناس يمتلكون مقدرة أعلى من العقل، وسماها الغزالي «الروح التنبؤية» ومن لا يمتلكون هذه المقدرة يجب ألا ينكروا وجودها بدعوى أنهم ليسوا على علم بها. ونكرانهم سيكون عبثاً تماماً مثل زعم أصم أن الموسيقى هي وهم لأنه لا يستطيع تذوقها. يمكننا أن نتعلم شيئاً ما عن الله بواسطة محاكمتنا العقلية وقدرتنا التخيلية، لكن النوع الأمثل للمعرفة لا يحصل عليها سوى الأنبياء أو المتصوفون لأن لديهم قدرة خارجية وهبها

الله لهم تمكنهم من ذلك. يبدو رأيه هذا نخوياً غير أن المتصوفين في تراثات أخرى قد ادعوا امتلاك مثل هذا الحدس وصفات استقبالية receptive تتطلبها التأمل الزيني Zen أو البوذي وكلاهما هبة خاصة مثل موهبة كتابة الشعر. وهذه الموهبة ليست موجودة في كل شخص. لقد وصف الغزالي هذه المعرفة الصوفية بأنها إدراك بأن الخالق وحده موجود أوله وجود. ويؤدي هذا إلى تلاشي الذات واستفراقها في الله. المتصوفون قادرون على الارتفاع فوق عالم المجاز metaphor الذي عليه أن يرضي البشر الأقل موهبة، المتصوفون:

قادرون على رؤية أن ليس هناك وجود في العالم إلا الله. وأن وجه كل شيء قائم ماعدا وجه الله وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام... في الحقيقة كل شيء سواه هو لا وجود - إذا ما نظرنا إلى الأمر من منظور الوجود الذي يتلقاه من العقل الأول First Intelligence في المخطط الأفلاطوني - ووجوده ليس ببلاته بل بعلاقته مع وجه الخالق، ولذلك فإن الشيء الوحيد الموجود بحق هو وجه الله^(١٥).

فبدلاً من أن يكون الله موجوداً خارجياً موضوعياً بالإمكان إثباته عقلياً، الله وجود محيط بكل شيء ووجود نهائي، ولا يمكننا فهمه كما نفهم الوجودات التي تعتمد عليه وتستمد منه وجودها الضروري: علينا أن نمشي طريقة خاصة للرؤية. عاد الغزالي إلى مزاولته واجباته التعليمية في بغداد. لكنه لم يتخل عن قناعته أن من المحال أن نشرح وجود الله عن طريق المنطق والبرهان العقلاني. في كتابه «المنقذ من الضلال» دافع متحمساً أن لا الفلسفة ولا علم الكلام يقتنعان امرأ معرضاً لخطر فقدان إيمانه. وقد وصل الغزالي إلى شفير الشككة «السفسطة» عندما أدرك أن من المحال تماماً إثبات وجود الله خارج الشك العقلائي، الحقيقة التي نسميها الله تقع خارج مملكة الإدراك الحسي والفكر المنطقي، ولذلك لم تستطع الميتافيزيقا ولا العلم إثبات أو دحض وجود الله. أما بالنسبة للذين لا يمتلكون تلك الموهبة الصوفية أو النبوية فقد وضع الغزالي تدريجاً يمكن المسلمين من تنمية وعي بوجود الله في دقائق الحياة اليومية. لقد ترك تأثيراً لا يحصى على الإسلام. فلن يقوم للمسلمون ثانية بالافتراض السطحي أن الله كان وجوداً مثل أي وجود آخر والذي بالإمكان البرهنة على وجوده علمياً أو فلسفياً. ومن هنا فصاعداً ستغدو الفلسفة الإسلامية غير منفصلة عن الروحية ومناقشة صوفية لله.

أثر الغزالي على اليهودية أيضاً فالفيلسوف الإسباني يوسف بن صديق (d - ١١٤٣) استخدم برهان ابن سينا لوجود الله لكنه كان حريصاً على عدم القول بأن الله لم يكن مجرد وجود آخر - أحد الأشياء التي توجد بالمعنى المادي الذي تفهمه من الكلمة. فإذا

زعمنا أننا نفهم الله سيعني ذلك أن له نهاية Finite وغير كامل. فأدق قول يمكننا قوله حول الله هو أنه عصي على الفهم، متسام جداً عن قدراتنا الفكرية الطبيعية. نستطيع أن نتكلم عن قدرة الله في العالم بكلمات إيجابية لكننا لا يمكننا أن نتحدث عن جوهر الله «الذات» التي ستراوغنا دائماً. الطبيب الطليطي يهوذا هاليغي (١٠٨٥ - ١١٤١) تبع الغزالي عن كتب. فالله لا يمكن البرهنة عليه عقلاً، لكن ذلك لا يعني أن الإيمان بالله كان غير عقلائي بل لأن تفسير وجوده منطقياً لم يكن له جدوى دينية وتخبرنا باليسير جداً: لا توجد طريقة للتأكد من كيف استطاع إله لا شخصي وبعيد كهذا خلق هذا العالم المادي الناقص، وفيم إذا كان له علاقة بالعالم بأي شكل ذا معنى دون درجة من شك معقول. فعندما يزعم الفلاسفة أنهم أصبحوا متحدّين بالعقل Intelligence الإلهي الذي يأمر الكون عبر نفوذ العقل فإنهم بادعائهم هذا إنما يضللون أنفسهم. فالأنبياء هم الوحيدون الذين كان لديهم معرفة مباشرة بالله، ولم يكن لهؤلاء علاقة بالفلسفة.

لم يفهم هاليغي الفلسفة مثلما فهمها الغزالي لكنه وافق على أن المعرفة الموثوقة الوحيدة بالله كانت عن طريق التجربة الدينية. فكما فعل الغزالي كذلك طالب هاليغي بمقدرة دينية خاصة لكنه زعم أنها كانت امتيازاً محصوراً باليهود فقط. حاول هاليغي تليين موقفه هذا باقتراحه أن باستطاعة الغويم goyim الوصول إلى معرفة الله من خلال القانون الطبيعي لكن كان الهدف من كتابه الفلسفي العظيم «Thekuzari» هو تبرير المكانة الفريدة لإسرائيل من بين الشعوب. لقد اعتقد هاليغي - كما اعتقد أحبار التلمود - أن باستطاعة أي يهودي اكتساب الروح النبوية من خلال التقيد الدقيق بتماليم mitzvot. والله الذي سيقابله لم يكن حقيقة موضوعية بالإمكان البرهنة على وجودها علمياً بل هو تجربة ذاتية أساساً. وبالإمكان رؤيته حتى كامتداد للذات الطبيعية لليهودي:

ينتظر هذا المبدأ الإلهي - وكأنما ينتظر - لأجله، من أجل الذي يقابله كي يربط نفسه بحيث ينبغي أن يصبح إله كما كانت الحالة مع الأنبياء والقديسين. فكما تنتظر الروح دخولها الجنين كي تكتمل القدرات الحسوية الأخرى لتمكنها (الروح) من استقبال هذه الحالة العليا للأشياء. وبالطريقة نفسها التي تنتظر فيها الطبيعة مناعاً معتدلاً كي تتمكن من ممارسة تأثيرها على التربة كي تنتج الحنطرة^(١٦).

ليس الله حقيقة دخيلة غريبة وكذلك ليس اليهودي كائناً مستقلاً ممنوع عنه المقدس divine بالإمكان رؤية الله على أنه الإنسانية الكاملة، الإنجاز لقدرة الرجل والمرأة، زد على ذلك فالله الذي يقابله اليهودي هو إله له وحده، وهذه فكرة سنعالجها

يعمق أكبر في الفصل التالي. يحرص هاليفي على التمييز بين الله الذي بمستطاع اليهود معرفته وبين جوهر الله ذاته. فعندما يدعى الأنبياء والقديسون بأنهم عرفوا الله فإنهم لم يروه كما هو في ذاته بل في القدرات الإلهية داخله التي هي نوع مما تبقى من وهج الحقيقة السامية التي لا سبيل إليها.

على أية حال لم تمت الفلسفة نتيجة للاهوت الجدلي الذي وضعه الغزالي، ففي قرطبة حاول فلاسفة مسلمون إحياء الفلسفة، وجادلوا بأنها الشكل الأعلى للدين. فأبو الوليد بن أحمد بن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) المعروف في أوروبا باسم Averroes أصبح مرجعاً في الغرب لليهود والمسيحيين. فقد ترجمت مؤلفاته خلال القرن الثالث عشر إلى العربية واللاتينية، وكذلك تعليقاته على أرسطو كان لها تأثيراً هائلاً على لاهوتيين بارزين من أمثال ميمون بن موسى، وتوما الأكويني، وألبرت العظيم. وفي القرن التاسع عشر باركه أرلمست ريثان على أنه الروح الحرة، وبطل العقلانية في وجه الإيمان الأعمى. أما في العالم الإسلامي فكان ابن رشد أكثر من شخصية هامشية. ففي حياته وتأثيره المتقطع نستطيع أن نرى قطعة بالأساليب بين الشرق والغرب في مقارنتهما وتصورهما لله. لقد عارض ابن رشد متحسماً إدانة الغزالي للفلسفة والطريقة التي ناقش بها هذه المسائل السرية علانية. لم يكن مثل سابقه الفارابي وابن سينا، لقد كان قاضياً - قضيها بالشريعة - وفيلسوفاً أيضاً. لقد كان العلماء مرتابين من الفلسفة دائماً، ومن إلهها الذي كان مختلفاً كلياً لكن استطاع ابن رشد أن يوحد أرسطو مع تقوى إسلامية أكثر تراثية. كان مقتنماً أنه ليس هناك تناقض مهما كان بين الدين والنزعة العقلانية. فكلاهما يعبران عن حقيقة واحدة لكن بطرق مختلفة، وكلاهما كانا يتطلعان باتجاه الإله ذاته. فليس كل شخص قادر على الفكر الفلسفي وبالتالي فإن الفلسفة كانت من أجل النخبة المثقفة فقط. فالفلسفة قد تربك الجماهير وتقودهم إلى الخطأ الذي يعرض خلاصهم الأبدي إلى الخطر. ومن هنا أتت أهمية ذلك التراث السري الذي كان يحفظ هذه المعتقدات عن غير المؤهلين لتلقيها. وكذلك كانت الحالة مع الدراسات الصوفية والباطنية للإسماعيلية، فإذا تناولها أناس غير مؤهلين فمن المحتمل أن يعلوا أو قد يقعوا فريسة لجميع أنواع الاضطرابات الفيزيولوجية. فعلم الكلام كان خطيراً أيضاً، ويقصر عن الفلسفة الحققة، وقد أعطى الناس الفكرة المضللة بأنهم كانوا متورطين في نقاش عقلائي مناسب، بينما في الحقيقة لم يكونوا كذلك. وبالتالي أثار علم الكلام منازعات معتقدية لا ثمرة منها، وقد تؤدي فقط إلى إضعاف إيمان الناس غير المعلمين، ويجعلهم قلقين.

اعتقد ابن رشد أن قبول حقائق محددة كان أمراً أساسياً للخلاص - وهذه نظرة جديدة في العالم الإسلامي. كان للفلاسفة السلطات الرئيسية على العقيدة: فهم وحدهم كانوا قادرين على تفسير النصوص المقدسة وقد وصفهم القرآن بالراسخون في العلم^(١٧). على عامة الناس أخذ القرآن على ظاهره وقراءته حرفياً، في حين أن الفيلسوف هو من يستطيع تناول التأويل الرمزي. لكن حتى الفلاسفة كان عليهم الخضوع إلى مجموعة من المعتقدات الإلزامية التي عددها ابن رشد كما يلي:

- ١ - وجود الله كخالق هذا العالم.
- ٢ - وحدانية الله.
- ٣ - صفات المعرفة والقدرة، والإرادة، والسمع، والرؤية، والكلام، التي وصف بها الله في القرآن.
- ٤ - تفرد الله وتنزهه عن الشبه، التي أكد عليها القرآن: ليس كمثله شيء.
- ٥ - خلق الله العالم.
- ٦ - صحة النبوة.
- ٧ - عدالة الله.
- ٨ - البعث يوم القيامة^(١٨).

ينبغي الإقرار بهذه المعتقدات كلاً واحداً لأن القرآن ينص صراحة على ذلك. والفلسفة لم تقر دائماً بالاعتقاد بخلق العالم، على سبيل المثال، وهكذا ليس واضحاً كيف ينبغي فهم هذه المعتقدات القرآنية. فعلى الرغم من أن القرآن يقول بجلالة أن الله خلق العالم، إلا أنه لا يقول كيف فعل الله هذا، ولا فيما إذا كان العالم قد خُلِقَ في لحظة محددة من الزمن. لقد ترك هذا الفلاسفة أحراراً في تبني معتقد العقلانيين. ويقول القرآن كذلك بأن الله له صفات مثل المعرفة لكننا لانعرف بالضبط ما يعنيه هذا لأن مفهومنا للمعرفة هو مفهوم بشري وغير كافٍ. فالقرآن لا يتناقض بالضرورة مع الفلاسفة عندما يقول أن الله يعرف كل شيء نعرفه نحن.

كانت الصوبية - في العالم الإسلامي - بالغة الأهمية لدرجة أن مفهوم ابن رشد عن الله المبنى على اللاهوت العقلاني تماماً، كان تأثيره قليلاً. لقي ابن رشد التقدير لكنه كان شخصية ثانوية في الإسلام. إلا أنه أصبح هاماً جداً في الغرب الذي اكتشف أرسطو من خلاله، وطور مفهوماً عن الله أكثر عقلانية. كان لدى معظم المسيحيين الغربيين معرفة محدودة جداً بالثقافة الإسلامية، وكانوا جاهلين بالتطورات الفلسفية بعد ابن رشد. ومن هنا يُعتقد غالباً أن حياة ابن رشد كانت علامة نهاية الفلسفة الإسلامية. في الحقيقة ثمة فيلسوفان بارزان خلال حياة ابن رشد كان لهما تأثير كبير في العالم الإسلامي، كانا في

العراق وإيران. أحدهما هو يحيى السهروردي والآخر هو محي الدين بن العربي اللذان سارا على خطا ابن سينا أكثر من اقتدائهما باين رشد، وكلاهما حاول دمج الفلسفة بالروحانية الصوفية. وسوف نتناول أعمالهما في الفصل التالي.

أفضل تلميذ عند ابن رشد في العالم اليهودي كان التلمودي الكبير والفيلسوف الحير موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤)، ويعرف باللاتينية باسم Maimonides كان ميمون مواطناً في قرطبة - حيث كان ابن رشد - عاصمة إسبانيا المسلمة حيث كان هناك إجماع متزايد على أن اكتساب نوع محدد من الفلسفة كان أمراً أساسياً لفهم أعمق لله. اضطر ميمون إلى الهرب من إسبانيا عندما سقطت قرطبة فريسة لطائفة البربر المتعصبة من Almoravids التي اضطهدت التجمع اليهودي. ولم يجعل هذا الصدام المؤلم مع النزعة الأصولية القروسطية ميمون معادياً للإسلام ككل. فقد استقر هو ووالده في مصر حيث شغل منصباً رفيعاً في الحكومة حتى أصبح طبيب السلطان. وهناك كتب كتابه الشهير «دليل المختار» وجادل فيه أن الدين اليهودي لم يكن مجموعة معتقدات اعتباطية بل كان مبنياً على مبادئ عقلانية سليمة. كان ميمون يعتقد - كما اعتقد ابن رشد - أن الفلسفة كانت الشكل الأكثر تقدماً للمعرفة الدينية وهي الطريق الملكي العريض - إلى الله الذي يجب عدم الكشف عنه للجماهير بل يجب أن يكون حكراً على النخبة الفلسفية. اعتقد أن بالإمكان تعليم عامة الناس تفسير النصوص المقدسة رمزياً كي لا يحصلوا على نظرة تجسدية لله، وكان في موقفه هذا مخالفاً لابن رشد. واعتقد كذلك أن معتقدات محددة كانت ضرورية من أجل الخلاص، ونشر معتقداً مكوناً من ثلاثة عشر بنذاً مماثلاً لمعتقد ابن رشد.

- ١ - وجود الله.
- ٢ - وحدانية الله.
- ٣ - الله معنى incorporeality غير متجسد.
- ٤ - أزلية الله.
- ٥ - تحريم عبادة الأصنام.
- ٦ - صدق النبوة.
- ٧ - موسى كان أعظم الأنبياء.
- ٨ - أصل الحقيقة الإلهي.
- ٩ - المصادقية الأزلية للتوراة.
- ١٠ - الله يعرف أعمال البشر.
- ١١ - يحاكمهم في الوقت المناسب.

١٢ - سوف يرسل المسيح المنتظر.

١٣ - بعث الموتى^(١٩).

كانت هذه البنود ضحاً جديداً في اليهودية ولم تصبح أبداً مقبولة كلياً كما في الإسلام. إن مفهوم المعتقد القويم Orthodoxu المناقض «Orthoproxu» كان غريباً عن التجربة الدينية اليهودية. ففقايد ابن رشد وميمون تعني أن مقارنة فكرية وعقلانية للدين تؤدي إلى معتقدية «دوغمائية» وإلى المطابقة بين دين محدد الهوية مع إيمان صحيح.

مع ذلك كان ميمون حذراً بالقول أن الله كان أساساً عصياً على فهم العقل البشري ولا يناله كذلك. يثبت وجود الله عن طريق مناظرات أرسطو وابن سينا لكنه أصر على أنه الله لا يمكن وصفه أو فهمه بسبب بساطته المطلقة. فالأنبياء أنفسهم قد استخدموا الحكايات Paroples وعلّمونا أن الحديث عن الله كان ممكناً فقط بأية لغة رمزية خيالية ذات مغزى. ونعرف كذلك أنه لا يمكن مقارنة الله بأي شيء موجود، ولذلك يفضل استخدام مفردات سلبية عندما نحاول وصفه.

فعلى سبيل المثال بدلاً من القول «إنه يوجد» ينبغي أن ننكر عدم وجوده وهلم جرا. فكما كان الأمر مع الاسماعيليين كذلك الأمر مع ميمون: استخدام لغة النفي كان قاعدة تزيد من تدوينا لعلالي الله، وتذكرنا أن الحقيقة كانت مختلفة تماماً عن أية فكرة نستطيع نحن البشر المساكن أن نتصورها عنه. فنحن لا نستطيع أن نقول أن الله «خير» لأنه أبعد بكثير عن أي شيء قد نعيه بكلمة «الخير». فكانت هذه طريقة لإبعاد عيوبنا عن الله، ونمنعنا من إسقاط آمالنا ورغباتنا عليه. وتلك الطريقة ستخلق إلهاً على صورتنا وشبهنا. نستطيع أن نستخدم النفي كي نكون مفاهيم إيجابية عن الله وهكذا عندما نقول أن الله «ليس عاجزاً» بدلاً من قولنا إنه «قدير» يستتبع منطقياً أن الله لا يهد أن يكون قادراً على الفعل وبما أن الله «ليس غير كامل»، فلا بد أن تكون أفعاله كاملة، وعندما نقول أن الله «ليس جاهلاً» فإننا نعني أنه حكيم يمكننا أن نستنتج أنه حكيم تماماً وعارف. هذا النوع من الاستنتاج بالإمكان القيام به حول قدرات الله فقط، ولا يمكن استخدامها للحديث عن جوهره الذي يبقى خارج متناول عقلنا.

وعندما يحين وقت الاختيار بين الله في الكتاب المقدس وبين إله الفلاسفة فإن ميمون كان يختار دائماً الأول. فعلى الرغم من أن الاعتقاد بالخلق من عدم لم يكن متناقضاً فلسفياً إلا أن ميمون كان يبنى الاعتقاد التوراتي التراثي ويسخر من فكرة الفيض الفلسفية. كما أشار إلى أنه ليس ممكناً البرهنة على الخلق من عدم ولا على نظرية الفيض

تجديداً عن طريق العقل وحده. واعتبر أن النبوة أعلى من الفلسفة. وكل من النبي والفيلسوف تحدثا عن الله ذاته. فالنبي كانت لديه نعمة الخيال المتحجب والفكر. كانت لديه معرفة حدسية مباشرة بالله أعلى من المعرفة التي نحصل عليها بالمحاكمة للمسبة. ويدور أن ميمون كان متصوفاً لحد ما عندما تحدث عن الرعدة والإثارة التي ترافق هذا النوع من معرفة الله، انفعال تالي لكمال القدرات التخيلية^(٢٠).

فعلى الرغم من تشديد ميمون على العقلنة فقد تبني أن المعرفة الأسى لله مستمدة من الخيلة أكثر مما هي مستمدة من الفكر وحده. انتشرت أفكاره في أوساط اليهود في جنوبي فرنسا وإسبانيا، وما إن جاءت بداية القرن الرابع عشر حتى أدت إلى حركة تنوير فلسفية يهودية في المنطقة. فكان بعض هؤلاء الفلاسفة اليهود أكثر عقلانية من ميمون. فليفي بن غرسون Levi Ben Gerson (١٢٨٨ - ١٣٤٤) من باغنولز Bagnols في جنوبي فرنسا أنكر أن يكون لله علم بالشؤون الدنيوية، فكان إلهه إله الفلاسفة أكثر مما كان إله الكتاب المقدس. لكن كانت هناك ردة فعل لا مفر منها. فقد تحول بعض اليهود إلى الصوفية وأسسوا قاعدة القباله السرية كما سترى لاحقاً. وارتد آخرون عن الفلسفة، عند تعرضهم لمأساة وجدوا أن إله الفلسفة البعيد كان غير قادر على مواساتهم فيها.

وخلال القرنين الثالث والرابع عشر بدأت حروب الفتح المضاد للمسيحية كي تدفع حدود الإسلام إلى الخلف في إسبانية فجلبت معاداة السامية من أوروبا الغربية إلى شبه الجزيرة، فأدى هنا إلى تدمير اليهودية الإسبانية، في نهاية المطاف. وخلال القرن السادس عشر تحول اليهود عن الفلسفة وطوروا مفهوماً جديداً كلياً عن الله، مفهوم ألهتهم الميتولوجيا أكثر مما استمد إلهامه من المنطق العلمي.

لقد عزل الدين الصليبي المسيحية الغربية عن بقية التراثات الوحدانية الأخرى فالحملة الصليبية الأولى من ١٠٩٦ - ١٠٩٩ كانت أول تعاون مشترك قام به الغرب الجديد، وكانت دلالة على أن أوروبا كانت قد بدأت تتعافى من البربرية الطويلة الأمد التي تعرف بالصور المظلمة. فروما الجديدة كانت تشق طريقها إلى المسرح الدولي مدعومة من الشعوب المسيحية في أوروبا الشمالية. لكن مسيحية الإنجليز Angles والساكسونيين Saxons والفرانكيين Franks كانت بدائية. كان هؤلاء شعباً عدوانياً وعسكرياً لذلك أرادوا دنياً عدوانياً. فخلال القرن الحادي عشر كان الرهبان البندكتيون Benedicene في Abbey of cluny والمنازل التابعة لها قد حاولوا ربط هذه الروح العسكرية بالكنائس وأن تعلمهم القيم المسيحية عن طريق بعض شعائر التقوى كالحج مثلاً، لكن الصليبيين الأوائل رأوا في حملتهم إلى الشرق الأدنى رحلة حج إلى

الأرض المقدسة لكن مفهومهم عن الله والدين كان ما يزال بدائياً. فجنود القديسين مثل القديس جورج والقديس ميروكوري والقديس ديميتريوس كان هؤلاء يشكلون أكثر من إله واحد في تقواهم، وفي الممارسة لم يكونوا يختلفون إلا قليلاً عن الآلهة الوثنية. كانوا يرون يسوع مثل الإقطاعي الصليبي أكثر مما كانوا يرونه اللوغوس مجسداً: لقد حشر فرسانه كي يستعيد لإرثه - أي الأرض المقدسة من الكافرين. وعندما بدؤوا رحلتهم كان بعض الصليبيين قد قرر التآمر لموته بذبح التجمعات اليهودية على طول وادي الراين. وهذا العمل لم يكن فكرة أساسية لدى البابا أوربان الثاني Urban II عندما حشد الصليبيين لكن بدا للكثير من الصليبيين أن السير ثلاثة آلاف ميل لمحاربة المسلمين أمراً غير صحيح، هؤلاء الذين لا يعرفون عنهم شيئاً، بينما الناس الذين قتلوا المسيح فعلاً - كما كانوا يعتقدون - كانوا أحياء بالقرب من أبواب منازلهم. فخلال المسيرة المريعة إلى القدس - عندما نجح الصليبيون من الانقراض - كانوا يحتملون في بقائهم على الاعتقاد أنهم لا بد هم شعب الله المختار الذين حظوا بحمايته الخاصة بهم. وأنه كان يقودهم إلى الأرض المقدسة مثلما قاد الأسراليين ذات يوم. في كلمات عملية كان دينهم ما يزال الإله القبلي البدائي المذكور في الأسفار الأولى من الكتاب المقدس، وعندما فتحوا القدس أخيراً في صيف عام ١٠٩٩ هبطوا على سكان المدينة المسلمين واليهود بحماسة يشوع^(٤) Joshua وذبحوهم بوحشية أحدثت صدمة لمعاصريهم.

من هذه الفترة فصاعداً كان المسيحيون في أوروبا يعتبرون اليهود والمسلمين أعداء الله، ويقوا يشعرون بعداء عميق تجاه المسيحيين الأرثوذكس اليونانيين لفترة طويلة، هؤلاء الذين جعلوهم يشعرون أنهم برابرة وأدنى منهم مستوى^(٥). إلا أن هذه الحالة لم تكن دائماً واحدة. فخلال القرن التاسع استمد بعض مسيحي الغرب المتعلمين إلهاماً من اللاهوت اليوناني. وهكذا فالفيلسوف السلتي Celtic دونس سكوتز إيرجينا Duns Scotus Brigena (٨١٠ - ٨٧٧) الذي غادر بلاده الأصلية كي يعمل في بلاط شارل الشجاع ملك فرانك الغربية West Frank كان قد ترجم العديد من مؤلفات الآباء الكسبيين اليونانيين إلى اللاتينية خدمة للمسيحيين الغربيين، خاصة مؤلفات دليس الأروباغيتي Denys Arepagite. لقد اعتقد متحمساً أن الإيمان والعقل ليسا متنافرين. ولقد رأى - مثلما رأى الفلاسفة واليهود والمسلمون - أن الفلسفة هي الطريق الربح إلى الله. وأن أفلاطون وأرسطو هما معلمان يريدان عرضاً عقلائياً للدين المسيحي. فالكتاب المقدس ومؤلفات الآباء بالإمكان إنارتها بقواعد المنطق والبحث العقلاني. لكن ذلك لم يكن يعني تفسيراً حرفياً: بعض فقرات الكتاب المقدس يجب أن تفسر رمزياً لأنه كما شرح في «عرض لمراتب دليس السماوية» لاهوته كان نوعاً من الشعر^(٦).

استخدم إيرجينا أسلوب ديفيس الجدلي في مناقشة موضوع الله الذي بالإمكان مناقشته عبر النفاض الذي يذكرنا بنقاط القصور في فهمنا البشري. فالمقاربتان السلبية والإيجابية لله كانتا ناجعتين: كان الله عصباً على الفهم، وحتى الملائكة لا تقرُّ أو لا تفهم طبيعته الأساسية، لكن صياغة قول مثل أن الله حكيم أمر مقبول، لأننا عندما نرجع كلمة حكيم إلى الله فإننا نعرف أننا لا نستخدمها بمعناها العادي. فنحن نذكر أنفسنا بهذا من خلال المضي في إبداء قول سلبي مثل «الله ليس حكيماً» هذا التناقض يجبرنا على الانتقال إلى الطريقة الثالثة التي استخدمها ديفيس في الحديث عن الله، عندما نستنتج «الله أكثر من حكيم». هذا ما أسماه اليونانيون قول الرؤيون apophatic لأننا لا نفهم ما نعيه بما هو الأكثر حكمة. فهذه لم تكن لعبة فعلية بل قاعدة عن طريق تجاوز قولين مانعين تبادلياً يساعدنا على تنمية إحساس بالسر الذي تمثله كلمتنا «الله» لأنها لا يمكن حصرها في مفهوم بشري وحيد.

وعندما طبق إيرجينا هذه الطريقة على القول «أن الله يوجد» فقد توصل كالمعتاد إلى الافتراض: «أن الله هو أكثر من وجود». فالله لا يوجد كسائر الأشياء التي خلقها، وهو ليس مجرد وجود آخر موجود إلى جانبها - كما أشار ديفيس. يعلق إيرجينا ثانية أن هذا القول عصي على الفهم لأنه لا يبين ما هو ذلك الذي هو أكثر من «وجود». لأنه يقول إن الله ليس أحد الأشياء الموجودة بل هو أكثر من الأشياء الموجودة؛ أما ماهية ذلك «الوجود» فهذا ما لم يُعرف^(٢٣). في الحقيقة الله هو «العدم» Nothing. عرف إيرجينا بأن هذا غريب الواقع وثيق قاربه ألا يشعر بالخوف. كان منهجه مصمماً كي يذكرنا أن الله ليس جسماً object، لأنه لا يمتلك «وجوداً» في أي معنى من المعاني التي نستطيع فهمها. الله هو أكثر من وجود aliquo modo Superesse^(٢٤). حالة وجوده مختلفة عن وجودنا، مثل اختلاف وجودنا عن وجود الحيوان، أو اختلاف وجود الحيوان عن وجود الصخرة. لكن إذا كان الله هو «العدم» أو اللاشيء فهو أيضاً «كل شيء»: لأن هذا «الوجود الأعلى» يعني أن الله وحده ذو وجود حق، إنه جوهر كل شيء يشترك في هذا. ولذلك فكل من مخلوقاته هو تجلٍ له theophany، دليل على حضور الله. يتجسد ررع إيرجينا السلتى celtic في ابتهاال القديس بطرس الشهير: «يا إلهي كن في رأسي وفي فهمي» وهذا ما قاد إيرجينا إلى التشديد على ملازمة الله immanence. فالإنسان في مخطط الأفلاطونية المحدثة يحتل الخلق كله في ذاته، وهو الأكثر كمالاً بين هذه التجليات. ولذلك اعتقد إيرجينا - كما اعتقد أوفسطين - أننا نستطيع اكتشاف الثالث داخل أنفسنا وإن يكن في مرآة قائمة.

في لاهوت إيرجينا النفاضي، الله هو - في آن واحد - كل شيء ولا شيء، الكلمتان

في حالة توازن مع بعضهما وهما ثابتان بتوتر ثابت كي توحيا بالغموض الذي ترمز إليه كلمتنا «الله». وهكذا عندما يجيب على سؤال وجهه إليه أحد المدرسين: «ما الذي قصده وليس عندما سمى الله لا شيء» فيجيبه إرجينا أن العناية الإلهية كانت عصية على الفهم لأنها كانت «ماهية فائقة» Superessential - أي أكثر من العناية الإلهية goodness ذاتها - وطبيعة فائقة. وهكذا:

عندما يتم تأمله بحد ذاته «فإنه» لا يكون، ولا كان، ولن يكون لأنه مفهوم أنه ليس واحداً من الأشياء التي توجد، لأنه يتجاوز جميع الأشياء لكنه - بتزول ما لا يوصف - إلى داخل الأشياء التي توجد فإنه يُرى بعين العقل، وهو وحده الموجود في جميع الأشياء، وهو موجود، ووجد، وسوف يكون^(٢٥).

ولذلك عندما تفكر بالحقيقة الإلهية بناتنها «إنها ليس دون معقولة سميت بـ «لاشيء»، لكن عندما يقرر هذا العدم «الخواء» الإلهي أن يظهر من لا شيء في شيء ما، فكل مخلوق واحد يخبره، بالإمكان تسميته تجلياً أي ذلك هو المظهر الإلهي^(٢٦). لا نستطيع أن نرى الله كما هو في ذاته لأن هذا الله لا يوجد لكل النوايا والغايات. نستطيع فقط أن نرى الله الذي يحيي العالم المخلوق ويكشف نفسه في الأزهار والطيور والأشجار وكائنات بشرية أخرى.

في هذه المقاربة مشكلات. فماذا عن الشر؟ هل هذا - كما يؤكد الهندوس - أيضاً، أحد مظاهر الله في العالم؟ لا يحاول إرجينا تناول مشكلة الشر بعمق كاف بيد أن معتنقي القبالة اليهودية يحاولون لاحقاً اكتشاف الشر داخل الله لقد طوروا أيضاً لاهوتاً يصف الله مبتدأ من اللاشيء ليصبح شيئاً بطريقة مماثلة جداً للعرض الذي قدمه إرجينا مع أن هذا العرض لا يشبه أبداً أيّاً من كتاب القبالة الذين قرأهم.

لقد أوضح إرجينا أن اللاتين كان لديهم الكثير كي يتعلموه من اليونانيين، لكن في عام ١٠٤٥ قطعت الكنائس الشرقية والغربية العلاقات فيما بينها في انفصال اتضح أنه أبدي علماً أن مامن أحد أراد ذلك في تلك الفترة. كان للنزاع بينهما بُعداً سياسي لن أناقشه، لكنه تمحور حول نزاع على الثالث. وفي عام ١٧٩٦ عُقِدَ مجمع مسكوني ضم الأساقفة الغربيين في فريجوس Prejus في جنوبي فرنسا وأضاف شبه جملة إلى العقيدة التي أقرها مجمع نيقيا Nicene. مفاد الإضافة أن الروح القدس انطلق لا من الآب فحسب بل من الابن أيضاً «ffilioque». كان الأساقفة اللاتين يريدون أن يشددوا على المساواة بين الآب والابن معاً لأن بعضاً من رعاياهم تبنى آراء أريوس فجعل الروح تنطلق من الآب

والإبن معاً. واعتقدوا أن ذلك يؤكد على مركزيهما المتساويين. سرعان ما أصبح شارلمان امبراطور الغرب ومع أنه يكن لديه دراية على الإطلاق بالقضايا اللاهوتية فقد وافق على الإضافة الجديدة بينما أدانها اليونانيون. تمسك اللاتين بموقفهم وأصرروا على أن آباءهم قد علموا هذا المعتقد وهكذا رأى القديس أوغسطين الروح القدس كمبدأ في وحدة الثالوث، بدعوى أنه كان الحب بين الآب والإبن. ولذلك كان القول أن الروح قد انطلق منها معاً كان قولاً صحيحاً، وشبه الجملة الجديدة شددت على الوحدة الأساسية للشخص الثلاثة.

لكن الإغريق لم يكن لديهم ثقة دائماً بلاهوت الثلث عند أوغسطين لأنه كان تجسدياً أكثر من اللازم. وفي حين بدأ الغرب بفهم وحدة الله، ومن ثم اعتبر الشخص الثلاثة ضمن تلك الوحدة، نجد أن اليونانيين قد بدؤوا دائماً بالتعبيرات الثلاثة وأعلنوا أن وحدة الله - أي جوهره - كانت خارج إدراكنا. لقد اعتقدوا أن اللاتين جعلوا الثالوث مفهوماً أكثر مما يلزم، وكانوا يشكون أيضاً بأن اللغة اللاتينية كانت غير قادرة على التعبير عن هذه الأفكار التثليثية بدقة كافية. فالإضافة قد شددت بشكل مبالغ فيه على وحدة الشخص الثلاثة، بينما كان اليونانيون يجادلون أن هذه الإضافة قد جعلت الثالوث عقلياً أكثر مما ينبغي، بدلاً من الإشارة إلى عدم إمكانية فهم الله كأمر أساسي. فقد جعلت الإضافة الله واحداً بثلاثة جوانب أو أشكال وجود. في الحقيقة لم يكن في تأكيد اللاتين شيء يدعى هرطقة، مع أنها لم تكن تناسب الروحانية Apophatic اليونانية. كان من الممكن تسوية النزاع لو توفرت الإرادة لذلك لكن التوتر بين الشرق والغرب تصاعد خلال الحملات الصليبية خاصة عندما اجتاحت الدفعة الصليبية الرابعة العاصمة البيزنطية - القسطنطينية - في عام ١٢٠٤ فأحدثت جرحاً قاتلاً في الامبراطورية اليونانية. فالخطر الذي كشفه الابن Son كان أن اليونانيين واللاتين كانوا يطورون تصورات مختلفة لله. فالثالوث لم يكن أمراً مركزياً للروحانية الغربية بينما بقي كذلك عند اليونانيين. لقد شعر اليونانيون أنهم بالتشديد على وحدة الله بهذه الطريقة كان الغرب يعرف الله نفسه بـ «جوه بسيط» بالإمكان تعريفه ومناقشته، مثل إله الفلاسفة^(١٧). وفي الفصول اللاحقة سنرى أن المسيحيين الغربيين كانوا قلقين حول الاعتقاد بالثالوث، وأن كثيرين منهم سيسقطونه كله خلال عصر التنوير في القرن الثامن عشر. بالنسبة لجميع النوايا والأهداف فإن الكثير من المسيحيين الغربيين ليسوا تثليثيين حقاً. إنهم يتذمرون من أن الاعتقاد بشخص ثلاثة في إله واحد أمر غير مفهوم، وبذلك فإنهم لا يدركون أن هذا الأمر بالنسبة لليونانيين كان الأمر كله.

بعد هذا الخلاف سار اليونانيون واللاتين في دربين مختلفين. في الأرثوذكسية اليونانية تعني كلمة theologia دراسة الله وبقيت كذلك بكل دقة، وظلت مقتصرة على

التأمل بالله في المعتقدات الصوفية الأساسية للثالوث والتجسيد. إنهم سيجدون تناقضات في فكرة لاهوت الله Theology of grace أو لاهوت العائلة Theology of the family فهم لم يكونوا مهتمين بالمناقشات النظرية وتعريفات القضايا الثانوية على وجه الخصوص. بينما كان الغرب مهتماً بشكل متزايد بتحديد هذه المسائل وليكون رأياً صحيحاً ملزماً لكل شخص. فحركة الإصلاح على سبيل المثال قسمت المسيحية إلى معسكرات متحاربة لأن الكاثوليكين والبروتستانتين لم يفلحوا في الاتفاق على الآليات التي حدث فيها الخلاص وبالضبط حول ماهية Eucharist القربان المقدس. كان المسيحيون الغربيون يتحدثون اليونانيين باستمرار أن يطرحوا رأيهم في هذه القضايا الخلافية لكن اليونانيين كانوا يتكلمون في ذلك، وإذا ما أجابوا كانت إجاباتهم تبدو غير متقنة. لقد أصبحوا غير الواقعيين من النزعة العقلانية فوجدوها أداة غير ملائمة لمناقشة موضوع الله الذي يجب أن يفر من المفاهيم والمنطق. كانت الميتافيزيقا مقبولة في الدراسات الدنيوية لكن اليونانيين ازداد شعورهم أنها قد تهدد الإيمان بالخطر. كانت الميتافيزيقا تتوجه إلى الجزء المزدحم الأكثر ثرثرة في العقل، بينما لم تكن نظريتهم رأياً فكرياً بل صمت منضبط أمام الله الذي بالإمكان معرفته فقط عن طريق التجربة الصوفية والدينية، ففي عام ١٠٨٢ حوكم الفيلسوف والإنساني جون إيتالوس John Italos بتهمة الهرطقة بسبب استخدامه المفرط للفلسفة ولتصوره عملية الخلق المستمد من الأفلاطونية المحدثة. حدث هذا الانسحاب المتعمد من الفلسفة قبل وقت من انهيار الغزالي في بغداد ليتخلى عن علم الكلام كي يصبح متصوفاً.

إنه لأمر يدعو للتأثر والسخرية أن يبدأ المسيحيون الغربيون بالتزول إلى الفلسفة في اللحظة التي بدأ اليونانيون والمسلمون يفقدون الإيمان بها. لم تكن مؤلفات أفلاطون وأرسطو متوفرة باللغة اللاتينية خلال العصور الوسطى. فكان لا مفر من أن يتخلف الغرب. كان اكتشاف الفلسفة محفزاً ومثيراً. يبدو أن لاهوتي القرن الحادي عشر أنسيلم كانتربري Anselm of canterbury الذي ناقشنا آراءه حول التجسيد في الفصل الرابع، كان يعتقد أنه من الممكن إثبات أي شيء. فإلهه لم يكن لا شيء Nothing بل هو الوجود الأسمى من جميع الموجودات وكان بوسع حتى غير المؤمن أن يُكوّن فكرة عن وجود متعالٍ كان ذا «طبيعة واحدة، أسمى من جميع الأشياء الموجودة، وحده مكفي بذاته في بهاء أولي»^(٢٨). وقد أصر أيضاً على أن معرفة الله ممكنة عبر الإيمان فقط وهذا ليس متناقضاً كما قد يبدو. ففي دعائه الشهير تأمل أنسيلم بكلمات أشعيا «المالم تؤمن فلن تفهم».

إني أتوق كي أنهم بعضاً من حقيقتك التي يؤمن بها قلبي ويحيها. إنني

لا أسمى إلى أن أفهم لكي يكون عندي إيمان، لكن لدي إيمان كي
أفهم credout intellegam ، وحتى أنني مقتنع بأنني لن أفهم ما لم
أؤمن^(٣٩).

العبارة التي يستشهد بها كثيراً أؤمن كي أتقبل credout intellegam ليست تنازلاً
فكرياً. فأنسيلم لم يكن يقول باعتراف العقيدة كالأعمى على أمل أن تكون ذات معنى
ذات يوم. في الحقيقة ينبغي ترجمة تأكيد: «أنا ألزم نفسي كي أستطيع أن أفهم». هذه
المرّة كلمة Credo ما تزال دون المعنى الفكري لكلمة «معتقد belief اليوم، بل كانت
تعني موقف ثقة وولاء. ينبغي أن نشير إلى أنه حتى في الوهج الأول للعقلانية الغربية بقيت
المعرفة الدينية بالله لها الأولوية وتأتي قبل النقاش أو الفهم المنطقي.

لقد اعتقد أنسيلم - مثلما اعتقد الفلاسفة المسلمون واليهود - أن بالإمكان مناقشة
وجود الله عقلياً وقد صاغ برهانه الذي يسمى عادة بالجدل الأنطولوجي. عرف أنسيلم
الله كـ «شيء ما لا يمكننا أن نفكر بشيء أعظم منه»^(٣٠). وهذا يعني أن الله قد يكون
موضوعاً فكرياً، وبالتالي بالإمكان أن يتصوره ويفهمه العقل البشري. وقال إن هذا الشيء
لا بد أن يوجد. وبما أن الوجود هو أكثر كمالاً أو تاماً من اللاوجود، لذلك فالشيء الكامل
الذي نتخيله يجب أن يكون له وجود وإلا سيكون غير كامل. كان برهان أنسيلم بارعاً
وفعلاً في عالم يهيمن عليه الفكر الأفلاطوني حيث كان يعتقد أن المثل كانت تشير إلى
أنماط أرضية، إنه لمن غير المحتمل أن يقع هذا البرهان متشككاً في يومنا هذا. فكما ألمح
اللاهوتي البريطاني جون ماكوارري John Macquarrie : تستطيع أن تتخيل أنك تملك
١٠٠ جنيه لكن لسوء الحظ لن يجعل ذلك المال حقيقة في جيبتك^(٣١).

كان إله أنسيلم وجوداً Being ولم يكن اللاشيء الذي وصفه ديس وإرجينا. كان
راغباً أن يتحدث عن الله بكلمات أكثر إيجابية أكثر مما فعل معظم الفلاسفة السابقين. إنه
لم يقترح مبدأ - طريقة النفي Via Negative بل بدا أنه يعتقد أن من الممكن الوصول إلى
فكرة كافية لحد ما عن الله بواسطة العقل الطبيعي الذي كان يقلق دائماً اليونانيين
حول اللاهوت الغربي. وبعد أن أثبت وجود الله بشكل مرضٍ شرع أنسيلم في
شرح معتقدات التجسيد والثالوث التي أصر اليونانيون أنها تتحدى العقل والمفهومية. في
كتابه /لماذا أصبح الله إنساناً why God Became Man/ الذي تعرضنا له في الفصل
الرابع، اعتمد على المنطق والفكر العقلاني أكثر مما اعتمد على الوحي. وتبدو شواهد من
الكتاب المقدس والآباء أمراً عرضياً محضاً في مسار جدله الذي - كما رأينا - عزا الدافع
الإنساني إلى الله بشكل أساسي. وبذلك لم يكن المسيحي الغربي الوحيد الذي حاول

شرح سر الله في كلمات عقلانية. فمعاصره بيتر أبيلار Peter Abelard (١٠٧٩ - ١١٤٧) الفيلسوف الباريسي الفاتن قدم أيضاً شرحاً للثالوث الذي أكد على الوحدة الإلهية نوعاً ما على حساب التمييز بين الشخوص الثلاثة. وقد طور أيضاً مبدأً عقلانياً متحرراً ومعتدلاً لسر الغفران: لقد صلب المسيح كي يوقظ الرحمة فينا وبعمله هذا أصبح مخلصنا.

فأبلار كان أصلاً فيلسوفاً وكان لاهوته تقليدياً بالأحرى. وقد أصبح شخصية قيادية في النهضة الفكرية في أوروبا خلال القرن الثاني عشر، وكان له أتباع كثير، وقد أدى هذا إلى نزاع مع برنار Bernard رئيس دير Cistercian Abbey في clarivaux بورغندي الذي كان الرجل الأكثر قوة في أوروبا. كان البابا يوجين الثاني Eugene II والملك الفرنسي لويس السابع في جيبه. وقد ألهمت بلاغته ثورة رهبانية في أوروبا: فعشرات الشبان تركوا منازلهم كي يتبعوه في الترتيب Cistercian الذي كان يسعى إلى إصلاح الشكل Cluniac في الحياة الدينية البندكية Benedictine. فعندما وعظ برنار الحملة الصليبية الثانية في عام ١١٤٦ كاد الناس في فرنسا وألمانيا الذين كانوا فاترين تجاه الحملة أن يزعزقوه إرباً من حماسهم، فأخذوا يتقاطرون للانضمام إلى الجيش بأعداد كبيرة لدرجة أن برنار كتب مسروراً إلى البابا أن الريف بدأ مهجوراً. كان برنار رجلاً ذكياً أعطى التقوى الخارجية التي تميزت بها أوروبا المسيحية بعداً داخلياً جديداً. فالتقوى الـ Cistercian يبدو أنها أثرت على أسطورة الكأس المقدس Holy Grail التي تصف رحلة روحية إلى مدينة رمزية ليست من هذا العالم بل تمثل رؤية الله. كان برنار لا يثق من أعماقه بالنزعة الفكرية التي تميز بها بعض العلماء مثل أمثال أبيلار فأقسم أن يسكته. لقد اتهم أبيلار بمحاولة جعل فضيلة الدين المسيحي تساوي لا شيء لأنه يعتقد أن عن طريق العقل البشري يستطيع أن يفهم كل ماله علاقة بالله^(٣٢). وأشار إلى ترنيمة القديس بطرس بالدعوة إلى المحبة. زعم برنار أن الفيلسوف كان يفتقر إلى الحب المسيحي: «إنه لا يرى شيئاً كأحجية، لا شيء كما في امرأة، لكنه ينظر إلى كل شيء وجهاً لوجه»^(٣٣). فالحب وممارسة العقل كانا أمران لا يحتملان. وفي عام ١١٤١ أمر أبيلار بالثول أمام مجلس Sens الذي ملأه بمؤيديه، وقف بعضهم خارج المبنى كي يرفعوا أبيلار عند وصوله. ولم يكن ذلك أمراً يصعب القيام به لأن أبيلار كان قد أصيب بداء باركسون. هاجمه برنار ببلاغة أودت بحياة أبيلار في السنة التالية.

لقد كانت لحظة رمزية، كانت نقطة علام لصيغة بين العقل والقلب. في النزعة

التأليئية عند أوغسطين القلب والعقل لا ينفصلان. فلربما قرر فلاسفة مسلمون من أمثال ابن سينا والغزالي أنه ليس في وسع العقل وحده أن يجد الله لكنهم تخيلوا في نهاية المطاف فلسفة تأتمر بالمثل الأعلى للحب وقواعد الصوفية. وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر حاول المفكرون البارزون في العالم الإسلامي دمج القلب والعقل، ورأوا أن الفلسفة لا تنفصم عن روحانية الحب والمخيلة وصعد المتصوفون هذه الرؤية. بينما بدأ برنار خائفاً من العقل وأراد أن يقيه منفصلاً عن أقسام العقل الحدسية والعاطفية، فكان هذا أمراً خطيراً: لأنه قد يؤدي إلى تشتت غير صحي في الإدراك الذي كان مجلبة للقلق مثل النزعة العقلانية القاحلة. كانت الصليبية الموجهة بمواعظ برنار كارثة لأنها اعتمدت على نزعة مثالية غير مدجنة بإدراك سليم والتي كانت في حالة تنكّر فاضح لروح الجماعة المسيحية أي الرحمة^(٣٤). كانت معاملة برنار لأبلار تفتقر بشكل مشين للمحبة، لقد حرص الصليبيين على البرهنة على حبهم للمسيح بقتل الكفار وطردهم من الأرض المقدسة. كان برنار محقاً في خوفه من النزعة العقلانية التي سعت إلى شرح سر الله وهددت بإضعاف الحس الديني من رهبة وتعجب، لكن أنانية لا حدود لها تخفق في إخضاع أمورها للنقد قد تقود إلى أسوأ مبالغات دينية. ما كان مطلوباً هو ذاتية ذكية عارفة وليس انجرافاً عاطفياً للحب الذي يكبح العقل بهتف ويتخلى عن الرحمة التي يفترض أن تكون سمة دين الله. مفكرون قلائل قاموا بمساهمة خالدة للمسيحية الغربية كذلك التي قدمها **توماس الإكويني** (١٢٢٥ - ١٢٧٤) الذي سعى إلى تركيبة من فلسفة أوغسطين والفلسفة اليونانية التي أصبحت متوفرة حديثاً في الغرب. كان العلماء الأوروبيون يتقاطرون إلى إسبانيا خلال القرن الثاني عشر، حيث كانوا يلتقون بالعلماء المسلمين. فقد قاموا بمشروع ترجمة هائل لأعمال أفلاطون وأرسطو وفلاسفة العالم القديم الآخرين على أمل إحضار هذه الثروة الفكرية إلى الغرب، وساعدهم في عملهم هذا المثقفون المسلمون واليهود. غدت هذه الترجمات متوفرة باللغة اللاتينية للناس في أوروبا الشمالية ولأول مرة. وقد عمل المترجمون أيضاً على المعارف الإسلامية الحديثة من ضمنها مؤلفات ابن رشد بالإضافة إلى اكتشافات العلماء والأطباء العرب. وفي الوقت ذاته الذي كان فيه بعض المسيحيين الأوروبيين متكبين على تدمير الإسلام في الشرق الأدنى، كان المسلمون في إسبانيا يساعدون الغرب على بناء صرح حضارته. فكتاب *Summa Theologiae*^(٣٥) / موجز اللاهوت ل**توما الإكويني** كان محاولة لإكمال الفلسفة الجديدة بالتراث المسيحي الغربي. كان الإكويني متأثراً بنقد ابن رشد لأرسطو تأثراً خاصاً. فلم يعتقد - كما اعتقد أنسيلم وأبلار - أن أسراراً كالتالوث بالإمكان البرهنة عليها بواسطة العقل، وميز بكل دقة

بين حقيقة الله التي لا تدرك وبين المعتقدات البشرية حوله، لقد اتفق مع دينس: أن الطبيعة الحقيقية لله عصبية على العقل البشري، «فكل ما يعرفه الإنسان عن الله هو أن يعرف أنه لا يعرفه، وأنه يعرف أن ماهية الله تتجاوز جميع ما نستطيع معرفته عنه»^(٣٥). فهناك قصة تروى عنه بعد أن أنهى إملاء الجملة الأخيرة من كتابه هذا وضع الاكوييني رأسه حزناً بين ذراعيه، وعندما سأله الناسخ عن الأمر أجابه بأن كل ما كتبه كان كقشة بالمقارنة مع ما قد رأى.

سعى الاكوييني لوضع تجربته الدينية في لحمه الفلسفة الجديدة وكان ذلك أمراً ضرورياً كي يفصل الدين بحقيقة أخرى لا أن يحيله إلى عالم منزول خاص به، فالترعة الفكرية المفرطة ضارة بالإيمان لكن إذا كان لا يجب أن يصبح الله تجبيراً متساهلاً لأننا نتنا فإن التجربة الدينية ينبغي أن توجه بالتقويم الصحيح لمضمونها. عرف الاكوييني الله بالرجوع إلى تعريف الله نفسه الذي قدمه إلى موسى: «أنا أكون ما أكون»^(٣٦). وكان أرسطو قد قال أن الله وجود ضروري Necessary Being. وبذلك فقد ربط الاكوييني إله الفلاسفة بإله الكتاب المقدس. وقد أوضح بكل جلاء أن الله ليس مجرد وجود آخر مثل أنفسنا فعريف الله بأنه وجود ذاته كان ملائماً ولأنه لا يدل على أي شكل محدد بل وجود ذاته^(٣٧). ولن يكون من الصواب أن نلوم الاكوييني على النظرة العقلانية لله التي سادت فيما بعد في الغرب.

لسوء الحظ يعطي الاكوييني انطباعاً بأن من الممكن مناقشة الله بالطريقة نفسها التي تناقش فيها الأفكار الفلسفية الأخرى أو الظواهر الطبيعية بسبب استهلال مناقشته لله بإيضاح لوجوده من الفلسفة الطبيعية. فهذا يوحي أن بإمكاننا معرفة الله بالطريقة نفسها التي نعرف بها الحقائق الدنيوية الأخرى. إنه يعدد خمسة براهين على وجود الله، وهذه ستصبح ذات أهمية كبيرة في العالم الكاثوليكي، وسوف يستخدمها البروتستانتيون كذلك:

- ١ - جدال أرسطو للمحرك الأول.
- ٢ - برهان مماثل يؤكد أنه لا يمكن أن توجد سلسلة لا نهائية من العلل: لا بد أن هناك نهاية.
- ٣ - الجدل من الجواز Contingency ، الذي اقترحه ابن سينا الذي يتطلب جدل الجائز والضروري.
- ٤ - جدال أرسطو من الفلسفة بأن تراتب الجودة في هذا العالم يعني الكمال الذي هو أفضل الجميع.

٥ - جدل البنين، الذي يدافع بأن الترتيب والغاية اللذين نراهما في الكون لا يمكن أن يكون نتيجة للمصادفة فقط.

في يومنا هذا هذه البراهين غير صحيحة، مع أنها من منظور ديني مشكوك في صحتها، فإذا ما أقمنا - كل استثناء ممكن من جدل البنين - يتضمن كل برهان أن الله هو وجود آخر، حلقة أخرى في سلسلة الوجود. إنه الوجود الأسمى، الوجود الضروري، الوجود الأكثر كمالاً. صحيح أن استخدام كلمات مثل العلة الأولى أو وجود ضروري تعني أن الله ليس كمثال أي شيء في الوجودات التي نعرفها بل هو السبب أو الشرط لوجودها. فهذه هي بكل تأكيد نية الاكوييني. مع ذلك فإن قراءة كتابه Summa لم يقوموا بهذا التفريق الهام، وتحذروا عن الله وكأنما هو فقط الوجود الأسمى من الجميع. وهذا تخفيض قد يجعل هذا الوجود الأسمى صنماً خلق على صورتنا ويحول بسهولة إلى أنا أعلى Super-ego دينوي. من المحتمل أن افترضنا أن أناساً كثيرين في الغرب يعتبرون الله كوجود بهذه الطريقة، واقتراحنا هذا ليس غير صحيح. زُبط الله بالليل الجديد إلى الفلسفة الأرسطية التي كانت راجعة في أوروبا كان أمراً هاماً. فالفلاسفة كانوا أيضاً قلقين من أن فكرة الله يجب أن تبقى متمشية مع المصور وألا تحال إلى أقلية منقرضة، إن فكرة وتجربة الله ينبغي تجديدها في كل جيل. فكان على معظم المسلمين - إذا أمكن القول - إن يصوتوا بأقداسهم وأن يقرروا أن أرسطو لم يكن لديه الكثير ليسهم في دراسة الله، مع أنها كانت قد سميت بالميتافيزيقا: فكان إلهه بكل بساطة استمرارية لحقيقة فيزيائية أكثر من كونه حقيقة من ترتيب مختلف كلياً. ففي العالم الإسلامي مزج النقاش المستقبلي للهِ الفلسفة بالصوفية. فالعقل وحده لم يستطع الوصول إلى فهم ديني للحقيقة التي نسميها الله. لكن التجربة الدينية كانت بحاجة إلى تعلّم الفكر النقدي ومبادئ الفلسفة إذا أرادت ألا تصبح انفعالاً فوضوياً متساهلاً أو خطراً حتى.

المعاصر الفرنسي سكاني للإكوييني هو بوناڤنتورا Bonaventure (١٢٢١ - ١٢٧٤) كانت لديه نفس الرؤية تقريباً. لقد حاول خلق انسجام بين الفلسفة والتجربة الدينية إغناء متبادلاً لكلا العالمين. في /الطريق الثلاثية/ The three fold way/ هذا حذر أومسطين في رؤية الثلاثيات في كل مكان من الخلق وأخذ هذه التثليثية الطبيعية نقطة انطلاق له في كتابه /رحلة العقل إلى الله/ The Journey of the Mind to God/. في الحقيقة كان يعتقد أن بالإمكان البرهنة على الثالوث بالعقل الطبيعي المجرد، لكنه نفادى مخاطر شوفينية العقلانيين بالتأكيد على أهمية التجربة الروحية كمكون أساسي لفكرة الله؛

فاتخذ فرانسيس الأسيسي Francis of Assisi مؤسس رهبنته كمثال عظيم للحياة المسيحية. فعن طريق النظر إلى أحداث حياته استطاع لاهوتي مثله أن يجد دليلاً على معتقدات الكنيسة. وسيجد الشاعر التوسكاني دانتي الجيري Dante Alighieri (١٢٦٥ - ١٣٢١) أيضاً كائناً بشرياً مثله تجسيدا لله. وهذا الكائن في حالة دانتي ليس سوى امرأة فلورنسية (بياتريس بورتيناري Beatrice Portinari). هذه المقاربة الشخصية لله كانت مستمدة من القديس أوغسطين.

استخدم بونافينيتورا إثبات أنسلم Amslem الأنطولوجي كدليل على وجود الله أثناء مناقشته لفرانسيس على أن وجود الله تجلي. جادل بأن فرانسيس قد بلغ مستوى من الجودة في هذه الحياة بدت أكثر من بشرية، وبالتالي كان ممكناً لنا أثناء عيشنا على الأرض أن «نرى ونفهم أن الأفضل هو أكثر من الذي لا يمكننا تخيل شيء أفضل منه»^(٣٨). وكوننا قادرين على تكوين مفهوم مثل «الأفضل» قد أثبت أن الأفضل لابد أن يوجد في كمال الله الأسمى. فإذا دخلنا إلى داخل أنفسنا - كما نصحبنا كل من أفلاطون وأوغسطين - فإننا سنجد صورة الله منعكسة «في عالمنا الداخلي»^(٣٩)، لقد كان هذا الاستبطان أساسياً. فمشاركتنا في القربان المقدس في الكنيسة أمر هام. لكن ينبغي على المسيحي أن ينزل أولاً إلى أعماق ذاته حيث يُنْقَلُ في نشوة إلى ما فوق العقل، ويجد رؤية الله الذي تعالى عن مفاهيمنا البشرية المحدودة.

اعتبر بونافينيتورا والكويني التجربة الدينية أمراً أساسياً، وكانا مخلصين لتراث الفلسفة لأن في اليهودية والإسلام كان الفلاسفة متصوفين ومدركين تماماً لحدود العقل في المسائل اللاهوتية. لقد طوروا براهين عقلية على وجود الله كي يخلقوا انسجاماً بين إيمانهم - الديني ودراستهم العلمية. لم يكن يساورهم شك بوجود الله، وكان العديدون منهم مدركين ليعوب منجزاتهم. فلم يكن المراد من هذه البراهين أن تقنع غير المؤمنين، لأنه لم يكن بينهم ملحد بالمعنى الحديث للكلمة. ولذلك كان هذا اللاهوت الطبيعي ليس مقدمة لتجربة دينية بل مرافقاً لها: لم يكن الفلاسفة يعتقدون أنه ينبغي عليك أن تقنع نفسك عقلياً بوجود الله قبل أن تتاح لك تجربة صوفية. فإن النتيجة كانت الإيمان تماماً فسرعان ما حل إله المتصوفين محل إله الفلاسفة في العوالم اليهودية والإسلامية والأرثوذكسية اليونانية.

الفصل السابع

إله المتصوفين

طورت اليهودية والمسيحية والإسلام - بدرجة أقل - فكرة إله شخصي، ولذلك تميل إلى الاعتقاد أن هذا المثال يمثل الدين في أفضل صوره. فالإله الشخصي قد ساعد الموحدين على تبجيل المقدس، وحقوق الفرد الثابتة، وعلى تنمية احترام للشخصية الإنسانية. وهكذا فقد ساعد التراث اليهودي - المسيحي الغرب على اكتساب النزعة الإنسانية التحررية التي يقدرها الغرب كثيراً. فهذه القيم كانت أساساً محفوظة في إله شخصي يقوم بكل ما يقوم به كائن بشري: فهو يحب، يحاكم، يعاقب، يرى، يسمع، يخلق ويدمر كما تفعل نحن. فقد بدأ يهوى كإله مشغص جداً، وانفعالاته بشرية فيما نحب ونكره. وأصبح في مرحلة لاحقة رمزاً للتعالي، وغدت أفكاره غير أفكارنا، وكانت دروبه تحلق فوق دروبنا مثلما تعلق السماء الأرض. فالإله الشخصي يعكس رؤية دينية هامة: فأيّة قيمة سامية لا يمكن أن تكون إلا قيمة بشرية. فكانت هذه النزعة التشخيصية مرحلة هامة ولاغنى عنها في التطور الأخلاقي والديني. فقد نسب أنبياء إسرائيل انفعالاتهم وعواطفهم إلى الله، وكان على البوذيين والهندوس أن يدخلوا ولاء شخصياً إلى تجسيد الحقيقة العليا. وكذلك جعلت المسيحية شخصاً بشرياً مركز الحياة الدينية، فكانت بذلك فريدة في تاريخ الدين: أي قامت بدفع النزعة التشخيصية المتأصلة في اليهودية إلى مداها. فمن المحتمل أن الدين لا يستطيع أن يضرب جنوره دون درجة ما من هذا النوع من تحديد الهوية والتجسيد العاطفي.

مع ذلك قد يصبح إله شخصي عائقاً محزناً، فقد يكون مجرد صنم محفور على صورتنا، اسقاطاً لاحتياجاتنا المحددة ولخاوفنا ورغباتنا. فنحن نفترض أنه يحب مانحب

ويكره مانكره، مجبرين أهواننا بدلاً من أن نجربنا على التسامي عليها. فعندما نشعر أنه فاشل في منع كارثة، أو يرغب في مأساة فإنه يبدو لنا قاسياً ومتوحشاً. فالاعتقاد السطحي بأن كارثة ما هي إرادة الله يجعلنا نقبل أشياء هي أصلاً غير مقبولة لنا. ولو أن لله جنس gender لكان ذلك تحديداً له. ولكن ذلك يعني أن الميل الجنسي يصبح مقدساً لدى نصف الجنس البشري على حساب النصف الآخر، ويؤدي إلى عدم توازن عصابي في المقدار الجنسي لدى الإنسان. وقد يكون الإله الشخصي خطراً، فبدلاً من أن يسحبنا إلى خارج حدودنا، فإنه قد يشجعنا على البقاء راضين داخلها، وقد يجعلنا قساة متوحشين ومكتفين ذاتياً، ومتحيزين كما يبدو هو. وقد يشجعنا على أن نحاكم، وندين، ونهمش بدلاً من أن يلهمنا المحبة التي يجب أن تكون طابعاً مميزاً لكل دين متقدم. ولذلك يبدو أن فكرة الإله الشخصي مرحلة في تطورنا الديني، ويبدو أن جميع الأديان العالية قد أدركت هذا الخطر فسمت إلى تجاوز المفهوم الشخصي للحقيقة المتعالية.

بإمكاننا أن نقرأ الكتاب اليهودي المقدس على أنه قصة التشذيب، وقصة التخلي عن يهوى القبلي والمشخص الذي أصبح يهوه Yhwh. وما لاجدال فيه هو أن المسيحية هي الدين الأكثر تشخيصاً من بين الأديان التوحيدية، وقد حاولت مع ذلك - تعديل عبادة الله المجدد بإدخال عقيدة الثالوث المتجاوز للتشخيص. كما أن المسلمين عانوا من تلك الآيات القرآنية التي تتضمن كلمات مثل «الله يرى، يسمع، ويحكم» مثل البشر. فهذه الأديان التوحيدية طورت تراثاً صوفياً جعل إلهها يتسامى على النطاق الشخصي، ليصبح أكثر تماثلاً مع حقائق الاستتار، والأمنان البراهمية اللاشخصية. فالفادرون على الصوفية الحققة هم قلة من الناس فقط. لكن في هذه الأديان الثلاثة (عدا المسيحية الغربية) أصبح الله الذي يعرفه المتصوفون هو الإله المعياري وسط المؤمنين، حتى فرة حديثة نسبياً.

لقد كانت الوحدة التاريخية صوفية أساساً، فقد سبق أن رأينا الفارق بين تجربة متأمل مثل بوذا عن تجربة الأنبياء. فاليهودية والمسيحية والإسلام جميعها هي أديان عملية أساساً، مكرسة لضمان أن إرادة الله نافذة على الأرض كما هي في السماء. والدافع المركزي في هذه الأديان النبوية هو مواجهة أو لقاء شخصي بين الله والبشرية. فهذا الله معروف بأنه أمر فعلاً، فهو يستدعينا إلى نفسه، يعطينا الخيار، رفض أو قبول حبه واهتمامه، وهو يتصل مع البشر بواسطة حوار أكثر من اتصاله عن طريقة التأمل. فهو ينطق كلمة تصبح البؤرة الرئيسية في الولاء، والتي يجب أن تتجسد بشكل مؤلم في شروط الحياة المأساوية والناقصة على الأرض. في المسيحية - التي هي الأكثر تجسدية بين الأديان الثلاثة،

تتسم العلاقة مع الله بالهحية. لكن الغاية من الهحية هي تدمير الأنا، بمعنى من المعاني. فسواء في الحوار أو الحب فإن الأنا هي إمكانية أبدية. وقد تكون اللغة بحد ذاتها قدرة تضفي محدودة، لأنها تطوقنا في مفاهيم ترجمتنا الدنيوية.

لقد أعلن الأنبياء الحرب على الميثولوجيا: فإنه الأنبياء أثبت فعاليتهم في التاريخ والأحداث السياسية الجارية أكثر مما كان فعالاً في الأسطورة البدائية المقدسة. عندما تحول الموحدون إلى الصوفية عادت الميثولوجية كي تؤكد نفسها من جديد على أنها الوسيلة الرئيسية للتجربة الدينية. هناك علاقة فقهية بين الكلمات الثلاث التالية: «أسطورة myth»، «صوفية mysticism»، «سر mystery»، وهي جميعاً مشتقة من الفعل اليوناني musteion: أي يخلق العتيرين والقم. وبالتالي فإن هذه الكلمات الثلاث لها جذر في تجربة الظلام والصمت^(١)، وهي ليست كلمات شائعة في الغرب في أيامنا هذه. فغالباً ما تستخدم كلمة أسطورة كمترادف لكلمة كذبة: وإذا ماوردت في حديث عام فإنها تعني شيئاً ما غير صحيح. فالسياسي أو النجم السينمائي يستبعد الروايات البذيئة لنشاطاتهما بقولهم: إنها أساطير. ويشير العلماء كذلك إلى آراء خاطئة من الماضي بقولهم: إنها أسطورية. فمنذ عصر التنوير توجي كلمة سر بشيء ما ينفي إيضاحه، وغالباً ما ترتبط بالتفكير المبهم. وفي الولايات المتحدة تسمى قصة بوليسية «سر»، وهي جوهر هذا النوع الذي يوحي بأنه ينفي أن تحل المشكلة بشكل مرض. وسوف نرى أنه حتى المتدينين أصبحوا يعتبرون كلمة «سر» كلمة سيفة في عصر التنوير. وكذلك الأمر فإن كلمة الصوفية ترتبط في أغلب الأحيان بالمهووسين، أو المشعوذين، أو الهيبين. فيما أن الغرب لم يكن أبداً متحمساً للصوفية - حتى خلال أوجها في أصقاع أخرى من العالم، لذلك نجد قلة من الناس تفهم الذكاء والانضباط الأساسيين في هذا النوع من الروحانية.

مع ذلك هناك بوادر تشير إلى أن مد الصوفية قد يعود، فمنذ عام ١٩٦٠ ما يزال الغربيون يكتشفون فوائد بعض أنواع من اليوغا. الأديان مثل البوذية - التي لها مزية عدم التلون بوحداية غير كافية - والتي قد حظيت بازدهار كبير في أوروبا والولايات المتحدة. فالأولف الذي كتبه جوزيف كامبل Joseph Campbell في الميثولوجيا لاقي رواجاً كبيراً. وبالإمكان فهم الحماسة الدينية الكبيرة تجاه التحليل النفسي في الغرب كرسية بنوع ما من الصوفية، لأننا سوف نرى أوجه تشابه مذهلة بين كلا العلمين. لقد كانت الميثولوجيا دائماً محاولة لتفسير عالم النفس الداخلي. ولذلك اتجه فرويد ويونغ غريزياً إلى الأساطير القديمة

كأسطورة أوديب كي يشرحا علمهما الجديد. وقد يشعر الناس في الغرب بحاجة إلى دليل عن النظرة العلمية المحضة للعالم.

فالدين الصوفي أكثر مباشرة، ويميل إلى أن يكون أكثر نفعاً في وقت المحنة من نفع الدين المسيطر على الدماغ بشكل مسبق. فقواعد الصوفية تساعد الحبير على العودة إلى الواحد «one» البداية الأصلية، وعلى تنمية إحساس ثابت بالحضور. فالصوفية اليهودية المبكرة التي نشأت خلال القرنين الثاني والثالث - والتي كانت بالغة الصعوبة بالنسبة لليهود - بدت أنها تؤكد على الهوية الفاصلة بين الله والإنسان. كان اليهود يريدون الهروب بعيداً من عالم كانوا يعيشون فيه مضطهدين مهمشين إلى عالم سماوي أكبر قدرة. فقد تخيلوا الله كملك مقتدر لا يمكن الوصول إليه إلا عبر رحلة محفوفة بالمخاطر عبر السماوات السبع. واستخدم المتصوفون لغة طنانة بليغة بدلاً من أن يعبروا عن أنفسهم بأسلوب الأحبار المباشر البسيط. كره الأحبار هذه الروحانية، وكان المتصوفون قلقين في معاداتهم. مع ذلك لابد أن الصوفية، صوفية العرش «Throne mysticism» كما أضيفت، لبث حاجة هامة طالما أنها استمرت في النمو إلى جانب المدارس الحبرية الكبيرة التي دمجت أخيراً في القبالة Kabbalah الصوفية اليهودية الجديدة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. توحي النصوص الكلاسيكية لصوفية العرش التي دونت في بابل في القرنين الخامس والسادس أن المتصوفين الذي كانوا متحفظين على تجاربهم كانوا يشعرون بصلة قوية مع التراث الحبري لأنهم يعتبرون الجيل الأول من الأحبار مثل: الحبر أكيفا Akifa، والحبر اسماعيل، والحبر يونان أبطالاً لهذه الروحانية. لقد كشفوا عن نزعة تطرف جديدة في الروح اليهودية بينما كانوا يحمسون قافلة جديدة إلى الله بالنيابة عن شعبهم.

كان لدى الأحبار تجارب دينية بارزة كما رأينا. ففي المناسبة التي نزل فيها الروح القدس على الحبر يونان وعلى تلاميذه في شكل نار من السماء كانوا يناقشون المغزى من رؤيا حزقيال الغريبة لرؤية عربة الله. ويبدو أن العربة والشمخص الغامض الذي لمح حزقيال جالساً على عرشه كانا موضوعاً لتأمل سري مبكر. فدراسة العربة كانت تربط عموماً بالتأمل حول مغزى قصة الخلق وأول عرض لدينا عن الصعود الغامض إلى عرش الله في أعالي سمواته قد أكد على المخاطر التي تحيق بهذه الرحلة الروحية:

قال أحبارنا: إن أربعة أشخاص دخلوا بستاناً وهم: عزاي، بن زوما، أمير، والحبر أكيفا. قال الحبر أكيفا لهم: عندما تصلون إلى صخور من رخام لا تقولوا: «ماء، ماء». لا يسكن وسط بيتي عامل غش، المتكلم بالكذب

لاثبت أمام عيني. تأمل بن عزاي ومات. وعنه يقول الكتاب المقدس: عزير
في عيني الرب موت ألقائه. وتأمل بن زوما ومات. وعنه يقول الكتاب
المقدس: هل وجدت العسل؟ كل كفايتك كي لا تصاب بتخمة فتقياها.
وقطع أهير الجنود (أي أصبح من الهرطقة). ورحل الحبر أكيفا بسلام^(١).

كان الحبر أكيفا قد بلغ من النضج مافيه الكفاية كي يعبر الطريق الصوفي دون أذى،
فالرحلة إلى أعماق العقل محفوفة بمخاطر شخصية كبيرة لأننا قد لانكون قادرين على
احتمال مايجده هناك. وهذا مادعا جميع الأديان إلى التأكيد على أن الرحلة الصوفية
لايمكن أن يحتملها الإنسان إلا بإشراف خبير يتمكن من ضبط مسار التجربة، ويرشد
المريد عبر الأماكن الخطرة، ويتأكد من أنه لايزيد عن قوة احتماله مثل المسكين بن عزاي
الذي مات، وبين زوما الذي فقد عقله. ويشدد جميع المتصوفين على الحاجة إلى الذكاء
والاستقرار العقلي. ويقول معلمو الزينية Zen أنه من غير المجدي أن يسمى شخص عصامي
إلى علاج له في التأمل لأن ذلك سيجعله أكثر مرضاً. وينبغي ألا تعتبر ضلالاً السلوك
الغريب والهمجي لبعض القديسين الكاثوليك الأوروبيين الذين كانوا يحفظون بتقدير كبير
مكتصوفين. وتبين القصة السرية للحكماء والتلموديين أن اليهود كانوا مدركين لهذه
المخاطر من البداية، فهم لم يسمحوا للشباب أن يصبحوا مُدْخِلِينَ في قواعد القبالة حتى
يكتمل نضجهم، ويجب أن يكون المتصوف متزوجاً للتأكد من أنه سليم جنسياً.

كان على المتصوف أن يرتحل إلى عرش الله عبر مملكة السموات السبع الأسطورية،
فكانت هذه الرحلة تحليقاً وهمياً فقط، ولم تؤخذ حرفياً أبداً، بل اعتبرت صعوداً رمزياً عبر
مناطق العقل الغامضة، فقد يشير التحدير الغريب الذي أبداه الحبر أكيفا حول صخور من
رخام إلى كلمة السر التي يجب أن ينطلقها المتصوف في مراحل حاسمة متنوعة في رحلته
الخيالية، وكانت تعتبر هذه الصور جزءاً من تدريب متقن. فكما نعرف في أيامنا هذه أن
اللاشعور هو كتلة مولدة للصور التي تطفو إلى السطح في الأحلام والهذيان وفي النفس
الشاذة أو في الظروف العصابية كالصرع أو الانفصام. لم يتخيل المتصوفون اليهود أنهم
كانوا «فعلاً طائرين في السماء، أو داخلين إلى القصر الإلهي بل كانوا ينظمون الصور
الدينية التي كانت تملأ أذهانهم بطريقة مرتبة ودقيقة. فهذا كان يتطلب مهارة كبيرة
وتدريماً واستعداداً محددين. كان يتطلب تركيزاً ممثالاً للتدريب الذي تتطلبه اليوغا أو
الزينية zen اللتان تساعدان أيضاً الخبير أن يجد طريقة عبر متاهات المرات في النفس.
فالحكيم البابلي هاي غاون Hai Gaon (٩٣٩ - ١٠٣٨) شرح قصة الحكماء الأربعة عن

طريق تدريب صوفي معاصر. فالإستان يشير، إلى صعود روح الصوفي إلى السماء السابعة حيث قصر الله، ومن يود القيام بهذه الرحلة الداخلية الوهمية يجب أن يكون مباركاً وتوافر فيه صفات محددة. فإن يود تأمل العربة السماوية وقاعات الملاكمة عليه القيام ببعض التدريبات المماثلة لتدريبات اليوغا والمتأملين في أصقاع العالم أجمع:

يجب أن يصوم أياماً محددة. يجب أن يضع رأسه بين ركبتيه هامساً بصوت خفيض، مسيحاً الله ووجهه إلى الأرض. ونتيجة لذلك فإنه سيتأمل في خطايا قلبه السحيقة، وسيلدو وكأنه رأى السماوات السبع بعينه، متقللاً من قاعة إلى أخرى ليرى مايقع عليه بصره^(٣).

على الرغم من أن أقدم نصوص صوفية العرش هذه تعود إلى القرن الثاني أو الثالث إلا أن من المحتمل أن هذا النوع من التأمل يعود إلى زمن أكثر قدماً. وهكذا يشير القديس بولس إلى صديق «كان من أتباع المسيح المنتظر» الذي حُجِّلَ إلى السماء الثالثة قبل نحو أربع عشرة سنة. لم يكن بولس متأكداً من الكيفية التي يفسر بها هذه الرؤيا، لكنه اعتقد أن الرجل «قد حمل إلى الفردوس، وسمع أشياء ينبغي عدم وصفها بلغة بشرية»^(٤).

فالرؤى ليست غايات بحد ذاتها بل وسيلة إلى تجربة دينية لا يمكن وصفها، لأنها تتجاوز المفاهيم العادية. وهذه الرؤى مشروطة بتراث المتصوف الديني. فالحالم اليهودي سيرى رؤى للسماوات السبع لأن مخيلته الدينية مليئة بهذه الرموز الخاصة. ويرى البوذيون كذلك صوراً متنوعة ليودا وبودهيستافا، ويرى المسيحيون مريم العذراء. من الخطأ أن يعتبر الحالم هذه المظاهر العقلية موضوعية أو أنها أي شيء آخر غير كونها رمزاً للتسامي! فالهلوسة هي حالة مرضية غالباً، ولا بد من توفر مهارة وتوازن عقلي لا بأس بهما من أجل التعامل وتفسير الرموز التي تظهر أثناء التأمل المركز والتفكير الداخلي.

إحدى أغرب هذه الرؤى اليهودية القديمة، وأكثرها متاراً للجدل موجودة في shiur Qomah «أي بعد الارتفاع»، يصف نص من القرن الخامس الشخص الذي رآه حزقيال على عرش الله، وتسمى هذه الرؤيا الشخص باسم Yozrenu «أي الخالق». من المحتمل أن وصفها الغريب لرؤية الله يقوم على فقرة من نشيد الأنشاد الذي كان نصه التوراتي لدى الحبر أكيفاً. العروس تصف حبيبها.

حبيبي غشٍّ ومزود،
يُعرف لو كان بين عشرة آلاف.

رأسه ذهبي، ذهبي خالص
غصلات شعره مسبلة حالكة كالغراب
عيناه كالحمام على مجاري المياه
معسولتان باللين جالستان في وقيهما.
خنداه كخميلة الطيب وأتلأم رباحين ذكية.
شفاه تقطران مرأ راقماً.
يله حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد
بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق.
ساقاه عمودا رخام مؤستان على قاعدتين من إبريز.
طلحه كلبان^(٥).

رأى البعض أن هذا الوصف لله إنما يشير إلى رعب أجيال من اليهود، ويبدأ شيوركوماه Shiur Qomah بقياس كل طرف من أطراف الله المذكورة هنا. في هذا النص الغريب قياسات محيرة لا يستطيع العقل أن يفهمها. الوحدة الأساسية في القياس هي باراسنغ Parasang تعادل نحو ١٨٠/ مليون إصبع، وكل إصبع تمتد من طرف الأرض إلى الطرف الآخر. وهذه الأبعاد الهائلة تحير العقل، وتضع نهاية لمحاولة تتبع أو تصور إصبع بهذا الحجم، وتلك هي الغاية. يحاول شيوركوماه أن يخبرنا أن من المحال قياس الله أو وصفه بكلمات بشرية. إن مجرد المحاولة توضح استحالة هذا المشروع، وتعطينا معلومة جديدة عن تعالي الله. فليس مستغرباً أن يجد يهود كثير هذه المحاولة الغريبة لقياس الله الروحي الكامل، أن يجدوها تجديدًا. ولهذا السبب أبقى هذه القصة مخبأة عن غير العارفين. وإذا ما نظرنا إليها كنص فإنه يعطي الحبريين المستعدين لمقارنتها بالطريقة الصحيحة وبإشراف روحي موجه نظرة جديدة عن تعالي إله يتجاوز جميع المجالات البشرية. لم يكن المقصود منها أن تفهم بشكل حرفي، وهي تنقل معلومات سرية بكل تأكيد. إنها حالة امتصاص متعمدة كانت تخلق إحساساً بالرهبة والعجب.

تعرفنا هذه القصة على مقومين أساسيين للوحة الله الصوفية، وهما شائمان في الأديان الثلاثة المقوم الأول إنها تخيلية أساساً. أما المقوم الثاني فهو أن هذه اللوحة غير قابلة للوصف. فالوصوف في هذه القصة هي صورة الله الذي يراه المتصوفون جالساً على عرشه في نهاية صعودهم. ليس هناك شيء رقيق محبب أو شخصي إطلاقاً حول هذا الله، وتبدو قداسته متفرة. وعندما يرونه كان الأبطال المتصوفون يرددون الأناشيد التي تقدم معلومات قليلة جداً عن الله، لكنها تخلق تأثيراً هائلاً:

سمة قداسة، سمة قدرة، سمة مخفية، سمة رهبة،

سمة خشوع، سمة يأس، سمة رعب، تلك هي سمة لباس الخالق.

أدوناي Adonai إله إسرائيل المتوج، يأتي إلى عرش مجده. لباسه منقوش بالداخل وال خارج، ومغطى كله بـ يهوى، يهوى.

ما من عين تستطيع رؤيته. لآعين من لحم ودم. ولا حتى عيون خدمه^(٢٠).

إذا كنا لانستطيع تخيل شكل مئزر يهوى، فكيف نستطيع أن نأمل رؤية الله ذاته؟

من المحتمل أن أشهر النصوص الصوفية اليهودية هو/ كتاب الخلق Sefer Yezirah من القرن الخامس. لاتوجد فيه محاولة لوصف عملية الخلق واقعياً، وهو رمزي دون حجل، ويصور الله يخلق العالم بواسطة لغة وكأنه كان يؤلف كتاباً. لكن اللغة قد تحولت بالكامل، ورسالة الخلق لم تعد واضحة. فكل حرف من الأبجدية العبرية ذو قيمة عددية، فعن طريق جمع الأحرف مع الأعداد المقدسة وإعادة ترتيبها في تشكيلات لانهاية لها كان المتصوف يعد عقله عن المضامين العادية للكلمات. كانت الغاية هي تفتيح العقل وتذكير اليهود أن ما من كلمات أو مفاهيم يمكنها أن تمثل الحقيقة التي كان يشير لها الاسم. فتجربة دفع اللغة حتى نهاياتها وجعلها تكتسب أهمية ليست لغوية كان يخلق إحساساً بآخرية الله. لم يكن المتصوفون يريدون حواراً مباشراً مع الله الذي عرفوه قداسة مسيطرة أكثر منه صديقاً أو أباً عطوفاً.

لم تكن صوفية العرش فريدة. ويقال أن النبي محمد قد مر بتجربة مماثلة عندما قام برحلته الليلية من الجزيرة العربية إلى الهيكل في أورشليم. فقد نقله جبريل في نومه على حصان سماوي، ولدى وصوله حياه إبراهيم وهوسى ويسوع وحشد من الأنبياء الآخرين الذين أهدوه في مهمته النبوية. ثم بدأ جبريل ومحمد صعوداً خطراً في معارج عبر السماء السابعة، على رأس كل سماء نبي، وأخيراً وصل إلى العالم الإلهي. تحتفظ المصادر القديمة بصمتها حيال الرؤيا الأخيرة التي تشير إليها هذه الآيات القرآنية:

ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى.

إذ يمشى السدرة مايشى. مازاغ البصر وماطفي، لقد رأى من آيات ربه الكبرى^(٢١).

لم ير محمد الله ذاته بل رموزاً فقط أشارت إلى الوجود الإلهي: ففي الهندوسية شجرة المعرفة تعني حدود الفكر العقلاني، إذ لاتوجد طريقة يظهر فيها الله إلى تجارب الفكر

العادية أو اللغة. فالصعود إلى السماء هو رمز إلى أبعد مدى تصله الروح الإنسانية الذي يعلم عبية المتى النهائي.

رمزية الصعود شائعة، وقد عرف القديس أوغسطين صعوداً إلى الله مع أمه مونيكا في Ostia التي وصفها أفلوطين بلفته:

رُفِعَتْ عقولنا إلى أعلى بحب غامر باتجاه الأزلي ذاته. صعدنا خطوة خطوة خارج كل أشيائنا المشتركة. والسماء نفسها حيث الشمس والقمر والنجوم تسكب النور على الأرض. صعدنا إلى أبعد من ذلك حتى بالتفكير الداخلي والحوار وتعجبنا من أعمالك ودخلنا إلى داخل عقولنا^(٨).

كان صعود أوغسطين مليئاً بالصور اليونانية في سلسلة الوجود العظيمة بدلاً من الصور السامية للسموات السبع. لم تكن هذه رحلة فعلية عبر الفضاء الخارجي إلى الله بل صعود عقلي إلى واقع داخلي. يبدو هنا التحليق الخيالي وكأنه شيء معطى من الخارج عندما يقول «رُفِعَتْ عقولنا إلى أعلى» وكأنه هو ومونيكا Monica كانا متلقين سلبيين لله. لكن هناك قصد في هذا الصعود الثابت باتجاه «الوجود الأزلي». وهناك كذلك صور مماثلة لصعود نلاحظه في حالة نشوة الشامان Shaman من سيبيريا إلى Tierra del fuego كما عبر عنه جوزيف كامبل^(٩).

يعني رمز الصعود أن المفاهيم الأرضية قد تُرِكَت خلفاً. ولا يمكن وصف معرفة الله التي لا تتحقق أخيراً على الإطلاق، لأن اللغة العادية لم تعد صالحة في هذه الحالة. فاليهود المتصوفون يصفون أي شيء عدا الله. فهم يصفون مئزره، وقصره، وبلاده السماوي، والحجاب الذي يحجبه عن نظر البشر، ويمثل وصفهم هذا الأنماط الأبدية. ويؤكد المسلمون الذين تأملوا تحليق محمد إلى السماء على الطبيعة المتناقضة لرؤيته الأخيرة لله: فهو قد رأى ولم ير الحضور الإلهي^(١٠). ما أن يدخل المتصوف عالم الخيال في ذهنه حتى يصل إلى نقطة لا تستطيع المفاهيم ولا الخيلة أن تحمله إلى أبعد من ذلك. وكان أوغسطين ومونيكا كاثوليكين حيال هذه الذروة التي بلغاها في تحليقهما مؤكدين على تجاوزها الزمان والمكان والمعرفة العادية «نجدنا وهما يلتهنان من أجل الله، وفي لحظة تركيز كاملة في القلب لاسماه بشكل ماء»^(١١). بعدئذ كان عليهما أن يعودا إلى الكلام العادي حيث لكل جملة بداية ومنتصف ونهاية:

لذلك قلنا: لو حدثت هذه التوبة لأي امرئ لكان سقط صامتاً. إذ كانت صور الأرض والماء والهواء ساكنة. إن تغلق السماوات ذاتها، والروح ذاتها

لا يحدث صوتاً، ومتجاوزاً ذاته لا عن طريق التفكير بذاته. فإذا ما استبعدت جميع الأحلام والرؤى في الخيلة، إذا كانت كل اللغة وكل شيء عابر ساكناً؛ لأنه إذا استطاع امرؤ أن يسمع، عندئذ هذا ماسوقولونه جميعاً وإننا لم نخلق أنفسنا، نحن خلقنا هو ذلك الذي يوجد إلى الأزل... ذلك ما كان عندما في تلك اللحظة اتسع مدنا، وفي ومضة قدرة عقلية بلغنا الحكمة الأزلية التي تستقر خارج الأشياء كلها^(١٢).

لم تكن هذه رؤيا طبيعية لإله شخصي: إنهما لم يسمعا صوته بأي وسيلة من وسائل التواصل الطبيعي: من خلال كلام عادي، أو صوت ملاك، أو من خلال الطبيعة أو الرمزية في حلم. هذا وكأنهما قد «الاسماء» الوجود الذي يقع خارج هذه الأشياء جميعاً^(١٣).

على الرغم من أن هذا النوع من الصعود مشروط فكرياً بكل وضوح فإنه يبدو حقيقة حياتية لأجدال فيها. ومهما اخترنا لتفسيرها فإن الناس في أرجاء العالم وفي كل مراحل التاريخ قد مارسوا هذا النوع من التجربة التأملية. أطلق الموحدون على هذه الرؤية المناخية «رؤية الله»، واعتقد أفلوطين أنها كانت معرفة الواحد (The one)، وأسمائها البوذيون لحمة الاستنارة. الغاية هي أن هذا شيء أراد البشر الذين لديهم موهبة روحية معينة القيام بها. فالمعرفة الصوفية لله ذات خصائص محددة شائعة بين الأديان جميعاً إنها معرفة ذاتية تتضمن رحلة داخلية، وليست فهماً لحقيقة موضوعية خارج الذات، ويتم القيام بها عبر الجزء المولد للصور في العقل، أي الذي يسمى عادة الخيلة، أكثر مما هي مقدرة منطقية فطرية. أخيراً إنها شيء يخلقه المتصوف في ذاته عمداً: تدريبات عقلية أو جسدية محددة تؤدي إلى رؤيا نهائية، فهي لا تأتي إليهم دائماً دون معرفتهم.

يبدو أن أوغسطس قد تخيل أن البشر المتميزين كانوا قادرين أحياناً على رؤية الله في هذه الحياة: وأورد مثالين على ذلك هما موسى والقديس بولس. لكن البابا غريغوري العظيم (٥٤٠ - ٦٠٤) الذي كان معلماً مشهوراً له في الحياة الروحية بالإضافة إلى كونه حبراً قديراً لم يوافق أوغسطس فيما ذهب إليه، لم يكن مثقفاً، وبما أنه كان رومانياً نموذجياً كان لديه نظرة روحانية أكثر براغماتية فاستخدم تشبيهات السحابة، الضباب أو الظلام كي يوحى بغموض كل معرفة بشرية لله. لقد بقي إلهه محتجباً عن البشر في ظلام لا يمكن اختراقه، ظلام أكثر إبلاماً بكثير من غيمة الجهل التي عرفها المسيحيون اليونانيون مثل غريغوري نيسا Nyssa ودينيس. كان الله تجربة مقلقة بالنسبة لغريغوري، فقد أصر على أن الله صعب المنال. فليس هناك سبيل تستطيع استخدامه كي نتحدث عنه بألفه، وكأنما بيننا

وبينه شيء مشترك. فنحن لانعرف شيئاً عن الله إطلاقاً لا يمكننا التكهن حول سلوكه على أساس معرفتنا بالناس: «إذن هل هناك حقيقة فيما نعرفه عن الله؟ فنحن نكون عقلاء لانستطيع أن نعرف تماماً أي شيء عن الله»^(١٤). كثيراً ما يتحدث غريغوري عن الألم والجهد في مقاربة الله. سعادة وسلام التأمل يمكن بلوغهما للحظات قلائل بعد صراع كبير. قبل تذوق حلاوة الله على الروح أن تشق طريقها خارج الظلام الذي هو عنصرها الطبيعي:

إنها لانستطيع أن تثبت بصيرتها على ذلك الذي رآته بلمحة سريعة داخل ذاتها. لأنها مجبرة بحكم عاداتها أن تنفوس إلى أسفل. في هذه الأثناء تلهث وتكافح وتسمى جاهدة للصعود فوق ذاتها لكنها تنفوس عائدة منهكة إلى داخل ظلمتها المألوفة^(١٥).

بالإمكان الوصول إلى الله بعد «جهد جهيد يذله العقل» الذي عليه أن يتصارع معه مثلما صارع يعقوب الملاك. الطريق إلى الله محفوف بالذنوب والدموع والإعياء. وكلما اقترب العقل منه لايسع الروح أن تفعل شيئاً سوى أن تبكي «تعبدها رغبته إلى الله. فهي تجرد راحتها في الدموع فقط لأنها تكون قد أنهكت»^(١٦) بقي غريغوري مرشداً روحياً حتى القرن الثاني عشر، واستمر الغرب يجد - بكل وضوح - الله إلهاداً.

في الشرق تميزت المعرفة المسيحية لله بالنور بدلاً من الظلام. وطور اليونانيون شكلاً مختلفاً للصوفية المنتشرة في العالم أجمع. لم تكن هذه الصوفية تعتمد على التخيل والرؤيا بل كانت قائمة على التجربة الصامتة التي وصفها ديفيس الأورباغيتي. لقد تجنبوا جميع المفاهيم العقلانية عن الله. فكما شرح غريغوري ليسا في كتابه/شرح نشيد الأنشاد/ «كل مفهوم يدركه العقل يصبح عائقاً في وجه من يبحث». كان هدف التأمل هو المضي إلى ما وراء الأفكار وجميع التصورات مهما كانت لأنها لن تكون سوى إرباك. بعد ثذ سيحصل على «إحساس بالحضور»، لا يمكن تحديده، وبالتأكيد يتجاوز كل المعارف البشرية عن علاقته بشخص آخر^(١٧). لقد أطلق على هذا الموقف الحشية، أو «الهدوء الداخلي» فما دامت الكلمات والأفكار والتصورات تعيقنا بالعالم الدنيوي هنا والآن، فلا بد أن يكون العقل قد أسكتته عمداً أساليب التركيز بحيث ينمي صمتاً انتظارياً. عندئذ يوسع التأمل أن يأمل في فهم وجود يتجاوز كل شيء باستطاعته فهمه.

كيف كان ممكناً معرفة الله الذي لا سبيل إلى فهمه؟ كان اليونانيون يحبون ذلك النوع من التناقض والحشية، وكانوا يلتفتون إلى الفارق القديم بين جوهر الله وقدراته أو

أنعاله في هذا العالم والتي مكنتنا من فهم شيء عن الإلهي، فيما أنه ليس باستطاعتنا أبداً فهم الله كما هو بذاته لذلك فإن مانعرفه في الصلاة إنما هي القدرات لا الجوهر. بالإمكان وصف هذه القدرات على أنها أشعة الألوهة التي كانت تنير العالم، وتتدفق من الإله، لكنها مختلفة عن الله ذاته كاختلاف أشعة الشمس عن الشمس ذاتها. فهذه القدرات كانت تظهر إلهاً صامتاً تماماً ولاسبيل إلى معرفته، فكما قال القديس باصيل Basil: «نعرف إلهنا من خلال قدراته، فلا نوافق على أننا نقرب من الجوهر ذاته لأن قدراته تنزل إلينا، لكن يبقى جوهره دون سبيل للاقتراب منه»^(١٨). سميت هذه القدرة في العهد القديم عظمة الله. وفي العهد الجديد أشرقت في شخص يسوع على جبل التابور عندما تحولت بشرته بالأشعة الإلهية، ومن ثم نفذت إلى الكون المخلوق فألهمت الذين تم إنقاذهم. فكلمة قدرة energei كانت مفهوماً ديناميكياً وفاعلاً في الله. فيما كان الغرب يرى الله معروفاً بصفاته الأزلية - الخيرية، العدالة المحبة وكلية القدرة فقد فهم اليونانيون أن الله جعل سبيل الوصول إليه ممكناً في قدرة لا تتوقف وكان حاضراً فيها بشكل ما.

عندما نتعرف على القدرات في الصلاة، فإننا بالتالي نتحدث مع الله بشكل أو بآخر بينما تبقى الحقيقة التي لاسبيل إلى معرفتها مغلقة بالغموض. إفاغريوس بونتوس (-، ٣٩٩) المعروف بخشيته أصر على أن المعرفة التي لدينا عن الله في الصلاة لاعلاقة لها بالمفاهيم أو التصورات، بل إن معرفة مباشرة بالله تتجاوز كل المفاهيم والتصورات ولهذا السبب من الأهمية بمكان أن يعري الوردون أرواحهم كي تصبح عارية. فقد أخبر إفاغريوس وهبانه:

«عندما تصلون لانتشكوا داخل أنفسكم أية صورة عن الله، ولا تدعوا عقولكم تتشكل تحت تأثير أي شكل». فبدلاً من ذلك يجب عليهم «أن يقتربوا من اللامادي بطريقة لامادية»^(١٩)، أي كان يقترح نوعاً من يوغا مسيحية. وبالتالي فهذه التجربة لم تكن عملية تأمل لأن «الصلاة تعني عزلاً للفكر»^(٢٠). فبالأحرى كانت فهماً حديسياً لله سوف يؤدي إلى إحساس بوحدة الأشياء جميعاً، تحرر من الحيرة والوفرة وفقدان الأنا، وهي تجربة مماثلة للتجربة التي أوجدها التأملون في أديان غير وحدانية مثل البوذية. فمن طريق الفطام المنهجي لمقولهم عن انفعالاتهم كالكبرياء، الجشع، الحزن، أو الغضب التي تقيدهم بالأنا سيتجاوزوا انفسهم ويصبحون إلهيين مثلما كان يسوع على جبل التابور بعد أن حولته القدرات الإلهية.

لقد شدد ديودوخوس: Diodochus أسقف فوتيك photic في القرن الخامس على

أن هذا التأليه ليس مؤجلاً إلى العالم الآخر بل بالإمكان بلوغه هنا على الأرض. لقد علّم طريقة تأمل كانت تشمل التنفس: بينما يتنشق المتقون الهواء عليهم أن يدعو: يسوع ابن الله، وأثناء الزفير يرددون «ارحمنا». وفي مرحلة لاحقة شذب الحاشعون هذا التدريب على النحو التالي: على التأملين أن يجلسوا ورؤوسهم وأكتافهم محنية، ناظرين إلى القلب أو السرة. ينبغي أن يكون تنفسهم بطيئاً بشكل يتيح لهم توجيه اهتمامهم إلى داخلهم، إلى مراكز نفسية كالقلب. كان التدريب صارماً، وينبغي توخي الحذر، لأنه لا يمكن ممارسته إلا تحت إشراف خبير. وبشكل تدريجي يجد المتأمل أن يوسعه أن يضع أفكاره العقلانية برفق جانباً كراهب بوذي، ويتلاشى التصور الذي كان يحيط بالعقل، وسيشعر أنه هو وصلاته واحد. لقد اكتشف المسيحيون اليونانيون لأنفسهم أساليب بقيت تمارس منذ قرون في الأديان الشرقية. فقد رأوا في الصلاة نشاطاً سيكوسماتياً^(٥) بينما اعتقد المسيحيون الغربيون من أمثال أوغسطين وغريغوري أن الصلاة يجب أن تحرر الروح من الجسد. لقد أصّر ماكسيموس الكونفيسر Maximus the Confessor على «أن الإنسان كله يجب أن يصبح إلهاً، مؤلهاً بنعمة الله الذي أصبح إنساناً، ليصبح رجلاً كاملاً روحاً وجسداً، بطبيعته، ويصبح إلهاً كاملاً روحاً وجسداً عن طريق النعمة الإلهية». سيحس الحاشعون بهذه التجربة كندف طاقة ووضوح قوي، وأمره جداً لا يمكن أن يكون مصدرها سوى الله. فقد رأى اليونانيون في هذا التأليه استتارة طبيعية للإنسان، كما وجدوا إلهاماً في يسوع التحول على جبل التابور، تماماً كما كانت صورة بوذا مصدر إلهام للبوذيين، بوذا الذي بلغ أسمى مرتبة إنسانية. فعيد التحول هام جداً في الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، إنه يسمى عيد «الظهور»، أي تجلي الله. لم يعتقد اليونانيون أن القوة، والجفاف، والهجر مقدمة لمعرفة الله: هذه مظاهر اضطرابات عصبية يجب علاجها. لم يكن اليونانيون يؤمنون بليل الروح المظلم. كان الدافع المهيمن عليهم هو التابور بدلاً من الجثمانية Gethsemane (أي الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس) والجلجلة (المكان الذي صلب فيه المسيح).

ليس باستطاعة امرئ بلوغ هذه الحالات العليا، لكن المسيحيون الآخرون، بإمكانهم الحصول على شحة من هذه التجربة الصوفية في أيقوناتهم. أما في الغرب فقد أصبح الفن الديني شيئاً فنيّاً تمثيلاً: صوّر الفن أحداثاً تاريخية من حياة المسيح أو القديسين. وفي بيزنطة لم تكن تعني الأيقونة إعادة تمثيل لأي شيء في هذا العالم، بل كانت محاولة لتصوير التجربة الصوفية التي لا يمكن وصفها، والتي يمر بها الحاشعون في شكل مرئي كي تلهم غير المتصوفين. فالأورخ البريطاني بيتر براون يشرح ذلك: «في أنحاء العالم المسيحي

الشرقي كانت الأيقونة والرؤيا تضيي كل منهما الشرعية على الأخرى. نوع من تجمع عميق في مركز بؤري للمخيلة الجمعية... أكدت أن الحارق للطبيعة قد طغى بحلول القرن السادس على السمات البارزة الدقيقة في الأحلام وفي مخيلة كل شخص، والتي صورت عموماً في الفن. لقد كان للأيقونة قوة حلم متحقق^(٢٢). لم يكن المراد من الأيقونات أن تُعلم المؤمنين، أو أن توضح معلومة أو أفكاراً أو معتقدات، بل كانت مركز تأمل يزود المؤمن بنوع من نافذة على العالم الإلهي.

لقد أصبحت الأيقونات في مركز المعرفة البيزنطية لله، وبحلول القرن الثامن أصبحت موضوعاً لخلاف عقائدي حاد في الكنيسة اليونانية. وبدأ الناس يتساءلون عما كان الفنان يرسم عندما رسم المسيح، لأن من المحال أن يحاول الفنان تصوير إلهه. لكن إذا زعم الفنان أنه كان يرسم بشرية يسوع فقط فهل كان مذنباً بالنسبوية أي المعتقد الهرطقي بأن بشرية يسوع والطبيعات الإلهية كانت مختلفة تماماً؟ فمحطمو الأيقونات كانوا يريدون تحريمها، لكن راهبان شرعا في الدفاع عنها هما: حنا الدمشقي (٦٥٦ - ٧٤٧) من رهبانية القديس ساباس Sabbas بالقرب من بيت لحم والثاني ثيوفور (٧٥٩ - ٨٢٦) من رهبانية ستوديوز Studios بالقرب من استانبول. قال هذان الراهبان أن محطمي الأيقونات كانوا مخطئين في تحريمهم تصوير المسيح لأن التجسيد - أي العالم المادي والجسد البشري قد أعطيا بعداً إلهياً وبالتالي فإن باستطاعة الفنان أن يصور هذا النمط من البشرية المولدة. كان الفنان يرسم صورة الله لأن المسيح اللوغوس كان أيقونة الله دون منازع. لا يمكن احتواء الله في كلمات ولا يمكن اختصاره في مفاهيم بشرية، لكن بالإمكان وصفه بريشة الفنان أو في إشارات القربان الرمزية.

كان ورع اليونانيين قائماً على الأيقونات إلى حد كبير، مما أدى إلى هزيمة محطمي الأيقونات بمطالبة جماهيرية في عام ٨٢٠. لم يؤد هذا التأكيد على أن بالإمكان توصيف الله إلى التخلي عن لاهوت دنيس. فقد دافع الراهب نيسيفوراس Nicephoras في كتابه «تبرير أكبر للصور المقدسة» أن الأيقونات كانت «معبرة عن صمت الله، وموضحة لذاتها عن سر لا يمكن وصفه، ويتجاوز الوجود. فدون توقف ودون كلام كانت تمتدح نعمة الله في إيقاع اللاهوت المبجل النار ثلاثاً^(٢٣)». فبدلاً من تلقين المؤمنين عقائد الكنيسة، ومساعدتهم في تشكيل مثل واضحة حول دينهم كانت الأيقونات تبقّهم في حالة إحساس بالسر. وعندما يصف تأثير هذه الرسوم الدينية يقارنه بتأثير الموسيقى: التأثير الذي

لا يوصف من بين الفنون، ومن الممكن الأكثر مباشرة. فالموسيقى تنقل الانفعال والمعرفة بطريقة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات أو المفاهيم. وقد أكد والتر باتر Walter pater - في القرن التاسع عشر أن الفن كله كان يطمح إلى بلوغ حالة الموسيقى. وكان المسيحيون اليونانيون في بيزنطة القرن التاسع يرون اللاهوت توافاً لبلوغ مرتبة فن الأيقونات. فقد وجدوا أن بالإمكان التعبير عن الله في عمل فني بشكل أفضل مما يعبر عنه نقاش عقلائي. ويعد جدال في التعليل اللاهوتي christological على امتداد القرنين الرابع والخامس كانوا يطورون لوحة الله التي كانت تعتمد على تجربة المسيحيين التخيلية.

كان هذا ما عبر عنه تماماً سيميون Symeon (٩٤٩ - ١٠٢٢) رئيس دير صغير في دير القديس ماكراش Macras في القسطنطينية الذي أصبح يعرف فيما بعد بلقب اللاهوتي الجديد. فهذا النمط من اللاهوت لم يتم بمحاولة تعريف الله. فقد شدد سيميون على أنه لا سبيل إلى الحديث عن الله بأية طريقة إطلاقاً، وأن العصي على الفهم هو ممكن الفهم^(٢٤). فهدلاً من الجدل حول طبيعة الله اعتمد اللاهوت الجديد على التجربة الدينية الشخصية المباشرة. فكان مستحيلاً معرفة الله في كلمات مفهومية وكأنه مجرد وجود آخر نكون أفكاراً عنه، فالله كان سراً. والمسيحي الحق هو الذي حاز على تجربة واعية بالله الذي أظهر نفسه في بشرة المسيح المتحولة. فسيميون نفسه قد تحول من حياة ذنوبية إلى التأمل بتجربة بدت أنها هبطت عليه من السماء. ففي البداية كان لديه فكرة عما كان يحدث، لكنه أصبح تدريجياً مدركاً أنه كان يمر في عملية تحول، وكأنما كان يمتص في النور الذي كان من الله ذاته. لم يكن هذا النور كالنور الذي نعرفه بالطبع، لقد كان خارج الشكل أو الصورة أو التمثيل، ولا يمكن معرفته إلا حدسياً عبر الصلاة^(٢٥). لم تقتصر هذه التجربة على النخبة أو الرهبان فقط، فالملكوت الذي أعلنه المسيح في الأناجيل كان اتحاداً بالله وبوسع كل امرئ معرفته هنا والآن دون الانتظار حتى الحياة الآخرة.

وبالتالي كان الله بالنسبة لسيميون معروفاً وغير معروف، قريباً وبعيداً. وبدلاً من القيام بالمهمة المستحيلة أي وصف «المسائل التي لا توصف بالكلمات وحدها»^(٢٦) حث رهبانه على التركيز على ما بالإمكان معرفته كحقيقة متحولة في أرواحهم. فكما قال الله لسيميون في إحدى رؤاه: «أجل، أنا الله، الواحد الذي أصبح إنساناً إكراماً لك. وانظر إنني خلقتك كما ترى، وسوف أجعلك إلهياً»^(٢٧). لم يكن الله حقيقة موضوعية خارجية بل كان أساساً ذاتياً، واستتارة شخصية. مع ذلك فرفض سيميون الحديث عن الله لم يقده

إلى قطيعة مع الرؤى اللاهوتية الماضية، لأن اللاهوت الجديد مبني بقوة على تعاليم آباء الكنيسة. وفي كتابه /ترانيم الحب الإلهي/ عبر سيميون عن المعتقد اليوناني القديم بتأليه البشرية كما وصفه كل من أفانازيوس وماكسيموس:

أيها النور الذي لا يستطيع أن يسميه أحد، لأنه لا اسم له.

أيها النور بأسماء عديدة، لأنه يفعل في الأشياء جميعاً.

كيف تفرج نفسك بالعشب؟

فبينما تبقى دون تغير، لا يمكن وصفك،

فكيف تحافظ على طبيعة العشب دون أن يفنى (٢٨)؟

تعريف الله الذي كان يقوم بهذا التحول أمر محال لأنه كان خارج الكلام والوصف. مع ذلك كتجربة متحققة قد حولت البشرية دون أن تخرج عن كمالها «كان الله حقيقة لا تنهل الجدل». لقد طور اليونانيون أفكاراً عن الله - مثل الثالث والتجسيد - أدت إلى فصلهم عن الموحدين الآخرين. مع ذلك كانت تجربة المتصوفين العقلية ذات قواسم مشتركة كبيرة مع تجربة المتصوفين المسلمين واليهود.

مع أن النبي محمد كان مهتماً أساساً بتأسيس مجتمع عادل فإنه هو وبعض من رفاقه المقربين كان لديهم ميل صوفي، وطور المسلمون سريعاً تراثهم الصوفي المتميز فخلال القرنين الثامن والتاسع نشأ شكل زهدي من الإسلام إلى جانب الطوائف الأخرى، وكان الزهاد مهتمين بمثل مااهتم به المعتزلة والشيعة بشراء البلاط وبالتخلي الظاهري عن تمسك الأمة الأولى بالدين. لقد سموا إلى العودة إلى حياة المسلمين في المدينة الأكثر بساطة من حياتهم، فلبسوا ملابس خشنة من الصوف التي كانوا يعتقدون أن النبي كان يفضلها، ومن هنا جاءت تسميتهم «الصوفيين». لقد بقيت العدالة الاجتماعية أمراً حاسماً في تقواهم كما أشار إلى ذلك العلامة الفرنسي لويس ماسيغون Louis Massigou:

«الدعوة الصوفية كقاعدة هي نتيجة تمرد داخلي للوجدان على المظالم الاجتماعية، ليس على مظالم الآخرين فقط بل بالأساس وبالتحديد ضد إعطاء المتصوف، ورغبة عارمة بتطهير داخلي للثور على الله بأي ثمن» (٢٩).

في البداية كان للمتصوفين قواسم كثيرة مشتركة مع الفرق الأخرى. فالمعتزلي المعتزلي العظيم واصل بن عطاء (d - ٧٤٨) كان تلميذ الحسن البصري (d - ٧٢٨) زاهد المدينة المنورة الذي يُجل لاحقاً كأحد آباء الصوفية. كان العلماء قد بدأوا يميزون بين

الإسلام والأديان الأخرى بحدّة، ويرون فيه الدين الوحيد الحق، وبقي المتصوفون مخلصين للرؤية القرآنية لوحدة الدين وسبيله الصحيح. كان الكثير من المتصوفين يجلبون يسوع على أنه نبي الحياة الداخلية. وقد غدّل بعضهم الشهادة لتصبح «لا إله إلا الله ويسوع هو رسوله» التي كانت فيأً صحيحة لكنها كانت ضمناً استفزازية. فحيث يتحدث القرآن عن إله العدل الذي يلهم الخوف والخشية نجد الزاهدة رابعة العدوية (d - ٨٠١) تتحدث عن الحب بطريقة يجدها المسيحيون مألوقة:

طريقتان أحبك بهما، أنانية، وأخرى تليق بك
إنه حب أناني لأفعل شيئاً سوى التفكير بك
إنه لأتقى حب عندما لا أرفع الحجاب أمام نظري العابدة
فالتمجيد ليس لي في هذه الطريقة أو تلك
لك المجد في كليهما. إلي أعرف^(٣٠).

وهذا مماثل لدعاتها الشهير: ربي إني أعبدك لاختوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، بل أعبدك كما أنت بجمالك الأزلي^(٣١). لقد أصبح حب الله علامة بارزة في الصوفية. ربما تأثر المتصوفون بالزهاد المسيحيين في الشرق الأدنى لكن كان محمد تأثير حاسم عليهم: كانوا يأملون معرفة الله كما عرفها محمد عندما تلقى الوحي. ومن الطبيعي أنهم تأثروا ببعوده الصوفي إلى السماء، الذي أصبح المنظور الأسمى لمعرفتهم بالله.

لقد أنشأوا أساليب وقواعد ساعدت المتصوفين في أرجاء العالم على بلوغ حالة وهي بدلة. أضاف المتصوفون ممارسات الصيام والسهر الليلي، وإتشاد أسماء الله الحسنى كحلقة أساسية لمقتضيات الشرع الإسلامي الأساسية. تأثر هذه الممارسات كان يؤدي أحياناً إلى سلوك بدا شاذاً لأضابط له وكانوا يعرفون بالصوفيين «المخمورين» drunken. أول هؤلاء أبو يزيد البسطامي (d - ٨٧٤) الذي قارب الله كماشق كما فعلت رابعة. أعتقد أن عليه أن يتعذب كي يرضي الله، وأن يضحى باحتياجاته ورغباته كي يصبح واحداً مع حبيبته، كما يحدث في قصة حب بشرية. فالقواعد الاستيطانية التي تبنّاها لبلوغ غايته قادته بعيداً عن تصوّره الشخصي لله. فبينما كان يقترب من نواة هوية الله شعر أن ما من شيء يقف بينه وبين الله، في الحقيقة قد ذاب وتلاشى كل شيء فهمه على أنه ذات:

تأملت الله بعين الحقيقة وقلت له:

من هذا؟ فقال: «هذا ليس أنا وليس غير أنا، ليس هناك إله غيري». ثم حولني من هويتي إلى داخل ذاته، ثم تحدّثت إليه بلسان حاله قائلاً:

كيف تصير حالي بحالك؟ فقال «أنا أكون خلالك فلا إله إلا أنت» (٣٢).

كان هذا إلهاً خارجياً «هناك» غريب عن البشر. اكْتَشَفَ الله بمائلة غامضة في أعماق الذات. وأفضى التدمير المنهجي للأنا إلى إحساس بالامتصاص في وجود لا يوصف. لقد أصبحت هذه الحالة من الفناء مركزية في مثل الصوفية الأعلى. فقد أعاد البسطامي تفسير الشهادة بطريقة ما كان بالإمكان وصفها إلا تجديفاً لو لم يعتبرها مسلمون آخرون كثر أنها هي المعرفة الحققة للإسلام الذي أمر به القرآن.

عُرف متصوفون آخرون باسم المتصوفين المعتدلين الذين فضلوا روحانية أقل إفراطاً. فجنيد البغدادي (d - ٩١٠) الذي أرسى أرضية لكل التصوف الإسلامي اللاحق اعتقد أن نزعة التطرف عند البسطامي قد تكون خطيرة وعُلِّمَ أن الفناء يجب أن يعقبه البقاء أي العودة إلى ذات متسامية. فالاتحاد مع الله يجب ألا يدمر قدراتنا الطبيعية بل أن يحققها: فالمتصوف الذي مرق أنانية غامضة كي يكتشف الحضور الإلهي في قلب وجوده سوف يعرف تحقيق الذات وضبط النفس بدرجة أكبر، إنه سيصبح أكثر كمالاً إنسانياً. فعندما كان المتصوفون يعمرون بتجربة الفناء والبقاء فإنهم يبلغون حالة أسماها المسيحي اليوناني «تأليها». فضالة المتصوف - حسب رأي الجنيد - هي العودة إلى حالة الإنسان البدئية في يوم الخلق: العودة إلى الإنسانية المثالية التي أرادها الله لهم، عودة إلى مصدر وجوده. فتجربة الانفصال والتغريب مركبتين للمتصوف ولهما نفس الأهمية للتجربة الغنوصية أو الأفلاطونية. وربما تماثل الانفصال الذي يتحدث عنه الفرويديون وأنصار كلين Klein اليوم، على الرغم من أن المحللين النفسانيين يعزونه إلى مصدر غير وحداني. فمع طريق التدريب المنضبط الدقيق الذي يشرف عليه سيد متصوف قال الجنيد أن بالإمكان إعادة المسلم إلى الاتحاد مع خالقه، وبلوغ ذلك الاحساس الأصلي بحضرة الله مباشرة، هذا الإحساس الذي خبره عندما ولد من عضو آدم التناسلي كما يقول القرآن. فنهاية الانفصال والحزن اتحاد جديد مع ذات أعمق، هي أيضاً الذات المراد تحقيقها. لم يكن الله وجوداً وعكساً خارجياً منفصلاً بل هو بشكل ما واحد مع قاع وجود كل شخص:

الآن قد عرفت يا ربي،

ماذا يكمن في قلبي.

في السر منعزلاً عن العالم

لساني كلّم معبودي

بشكل ما غدونا متحدين، أصبحنا واحداً

مع أننا منفصلين إلى الأبد في حالتنا.

بالرغم من أن خشية عميقة
حببت وجهك عني
فإني في نعمة النشوة والعجب
أشعر بك تلاصق أعماقي^(٣٣)

يعد التأكيد على الوحدة إلى المثل الأعلى القرآني /التوحيد/: فمن طريق جمع ذاته المشتتة سيتمكن المتصوف من معرفة حضور الله في تكامل شخصي.

كان الجنييد مدركاً تماماً لمخاطر الصوفية. سيكون من السهل على الناس غير المدربين الذين لم يستفيدوا من نصيحة السيد والتدريب الصوفي الصارم أن يسيئوا فهم نشوة المتصوف، وبالتالي يحصلون على فكرة تبسيطية عما أراد بقوله أنه كان واحداً مع الله. وبالتأكيد أثارت مزاعم البسطامي المبالغة غضب المؤسسة الدينية. ففي هذه المرحلة المبكرة كانت الصوفية تضم أقلية، واعتبرها العلماء بدعة لأصل لها في الدين. فحسين بن منصور تلميذ جنيد المعروف باسم الحلاج رمى بكل التحذيرات مع الرياح وأصبح شهيد إيمانه الصوفي. تجول في العراق منادياً بخلق الخليفة وتأسيس نظام اجتماعي جديد. فأودع السجن إثر ذلك وصُلب مثلما صلب بطلة يسوع. ففي حالة نشوته كان يصيح «أنا الحق». فوفقاً للأناجيل صاح يسوع الصبيحة ذاتها عندما قال «أنا الطريق والحق والحياة». أدان القرآن تكراراً الاعتقاد المسيحي بتجسيد المسيح على أنه تجديف، ولذلك لم يكن مستغرباً إذا شعر المسلمون بصبيحة الحلاج «أنا الحق» أنها تجديف، لأن الحق أحد أسماء الله، وإذا ما ادعى إنسان هذا الاسم لنفسه فإنه يعني أنه قد جعل من نفسه إلهاً. كان الحلاج يعبر عن إحساسه بالاتحاد مع الله بأنه كان قريباً جداً للدرجة أنه كان يحس بتماهي الهوية عندما قال في إحدى قصائده:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فإذا أبصرتني أبصرت وإذا أبصرتني أبصرتنا^(٣٤)

لقد كان تعبيراً جسوراً عن تماهي الذات والاتحاد مع الله الذي أسماه الجنييد الفناء. رفض الحلاج إعلان التوبة عندما اتهم بالتجديف على الله فمات كقديس:

عندما تم إحضاره كي يصلب، ورأى الصليب والمسامير، انفتحت إلى الناس
وتلا دعاءً ينتهي بالكلمات التالية: هؤلاء هم عبيدك الذين تجمعوا كي
يزهقوني غيرة على دينك ورغبة في كسب رضاك. سامحهم ياربى،

واوحيهم. لأنك لو ظهرت لهم كما ظهرت لي لما فعلوا ما فعلوه. ولو أنك
أخفيت عني ما أخفيت عنهم لما تعرضت لهذه الخنة. فالحمد لك فيما فعل،
والحمد لك على ما تشاء^(٣٥).

صيحة الحلاج أنا الحق توضح أن إله المتصوفين ليس حقيقة موضوعية بل ذاتية
عميقة. وقال الغزالي عن الحلاج أنه لم يكن مجدفاً على الله بل كان غير حكيم في إعلان
حقيقة سرية قد تكون مضللة لغير المدخلين. فكما تؤكد الشهادة ليس هناك حقيقة سوى
الله، لذلك فجميع الناس هم مقدسون أساساً فالقرآن يقول أن الله خلق آدم على صورته،
وبذلك يستطيع تأمل ذاته كما في مرآة^(٣٦). ولهذا السبب أمر الله الملائكة أن تسجد
وتعبد الإنسان الأول. قال المتصوفون إن خطأ المسيحيين هو أنهم اعتقدوا أن إنساناً واحداً
قد احتوى في شخصه التجسيد الكامل لله. فالمتصوف الذي استعاد رؤيته الأصلية لله قد
اكتشف الصورة الإلهية داخل ذاته كما ظهرت في يوم الخلق فالحديث الشريف الذي أحبه
المتصوفون يصور الله ساحباً مسلماً نحوه، قريباً جداً للدرجة أنه قد أصبح مجسداً في كل
واحد مع عبده: «عندما أحبه أصبح أذنه التي بها يسمع، وعينه التي بها يرى، ويده التي
بها يمسك، وقدمه التي يمشي عليها». كما توضح قصة الحلاج العداوة العميقة التي قد
توجد بين المتصوف والمؤسسة الدينية التي لديها مفاهيم مختلفة عن الله والوحي، فالوحي
بالنسبة للمتصوف هو حدث يحدث داخل روحه، بينما يعتقد معظم التقليديين وبعض من
العلماء أنه حدث ثابت راسخ في الماضي، فقد رأينا أن الفلاسفة المسلمين في القرن الحادي
عشر: مثل ابن سينا والغزالي وجدوا أن النقاشات الموضوعية لله كانت غير مرضية لذلك
تحولوا إلى التصوف. لقد جعل الغزالي الصوفية مقبولة لدى المؤسسة الدينية، وقد أوضح
أنها الشكل الأكثر مصداقية لروحانية المسلم. فخلال القرن الثاني عشر ربط الفيلسوفان:
الإيراني يحيى السهروردي، والاسباني المولد محي الدين بن العربي ربطا الفلسفة
الإسلامية بالصوفية بشكل لا انفصام بينهما، وجعل الله الذي عرفه المتصوفون حالة معيارية
في أجزاء عديدة من الإمبراطورية الإسلامية. لقد قتل السهروردي مثلما قتل الحلاج - على
يد علماء حلب في عام ١١٩١ لأسباب لاتزال غامضة. فقد قام بالربط بين مأساهم الذين
الشرقي والإسلام، وكان هذا شغله الشاغل طيلة حياته ثم أكمل المشروع الذي اقترحه ابن
سينا. لقد زعم أن جميع حكماء العالم القديم قد دعوا إلى معتقد واحد: فبالأساس كانت
هذه الدعوات قد ابتدأت بدعوة هرمس Hermes (الذي مثله السهروردي بالنبي ادريس
في القرآن أو إnoch في الكتاب المقدس). وفي العالم اليوناني نقله أفلاطون
وفيثاغورث، وانتقل في الشرق الأوسط عبر الزرادشتية. فمنذ أرسطو على أية حال لف

الغموض هذا الدين بفلسفة عقلية وفكرية أضيق أفقاً منه، لكنه كان ينقل سرياً من حكيم إلى آخر حتى وصل أخيراً إلى السهروردي نفسه عبر البسطامي والحلاج. كانت هذه الفلسفة المتواترة صوفية وتخيلية لكنها لم تكن تشمل التنكر للعقل. كان السهروردي متيناً فكرياً مثل الفارابي لكنه شدد على أهمية الحدس في مقارنة الحقيقة. فكما ورد في القرآن، أتت الحقيقة كلها من الله، ويجب السعي إليها حيثما كانت. فقد توجد الحقيقة في الوثنية والزرادشتية مثلما توجد في تراث الوندانية. فالصوفية - ليست على شاكلة الدين الدوغمائي الذي يعرض نفسه إلى نزاعات طائفية تنادي في أغلب الأحيان بأن عدد السبل إلى الله بعدد الناس. فالصوفية تحديداً سوف تطور فهماً بارزاً لدين الآخرين.

يلقب السهروردي بشيخ الإشراق. فقد عرف الله عبر النور مثله مثل الإغريق. فكلمة الإشراق في العربية تشير إلى أول ضوء للفجر الذي يأتي من الشرق، إضافة إلى إشارتها إلى الاستنارة: وبالتالي فالشرق ليس هو الموقع الجغرافي بل مصدر النور والطاقة. ففي العقيدة السهروردية الشرقية يتذكر البشر مصدرهم بشكل معتم، ويشعرون بالقلق في هذا العالم من الظل، ويتوقون إلى العودة إلى مثوانهم الأول. قال السهروردي أن فلسفته سوف تساعد المسلمين على العثور على توجيههم الصحيح كي يتقوا الحكمة الأزلية داخلهم عن طريق الخيلة.

كان نظام السهروردي البالغ التعقيد محاولة للربط بين جميع الرؤى الدينية في العالم في دين روحي واحد. يجب البحث عن الحقيقة حيثما كانت. وبالتالي فقد ربطت فلسفته الكوسمولوجيا الإيرانية ما قبل الإسلام بنظام الكواكب الباطليموسي، وبخطة الفيض في الأفلاطونية المحدثة. مع ذلك لم تستشهد أية فلسفة بالقرآن مثلما استشهدت هذه الفلسفة. فعندما ناقش السهروردي علم نشوء الأكوان فإنه لم يكن مهتماً في تقديم عرض لأصول الكون المادية. وفي كتابه الرائع /حكمة الإشراق/ بدأ بمناقشة مشكلات الفيزياء والعلوم الطبيعية، لكن دراسته هذه لم تكن سوى مقدمة للجزء الصوفي من كتابه. لقد كان مثل ابن سينا، غير راضٍ عن التوجه الكامل للفلسفة الموضوعية والعقلاني. علماً أنه كان يؤمن أن التأمل الميتافيزيقي والعقلاني لهما دورهما في فهم الحقيقة الكلية. فالحكيم الحق في رأيه - ينبغي أن يكون متفوقاً في الفلسفة والصوفية، ولابد من وجود دائم لهذا الحكيم في العالم. كانت نظرتهم قريبة جداً من نظرة الإمامية الشيعية: اعتقد السهروردي أن هذا القائد الروحي هو القطب الحق الذي لا يمكن أن يستمر العالم دون حضوره، حتى ولو بقي متخفياً. فالصوفية الاشراقية السهروردية ما تزال تمارس في إيران، وهي منهج سري

ليس لأنها خاصة بل لأنها تتطلب تدريباً روحياً، ومقدرة على التخيل، أي نفس التدريب الذي يخضع له الاسماعيليون والمتصوفون.

ربما أطلق اليونانيون على نظام السهروردي دغماتيك بدلاً من كيرغماتيك. كان يسعى إلى اكتشاف النواة التخيلية الموجودة في صلب الدين والفلسفة، فقد شدد على أن العقل ليس كافياً، إلا أنه لم ينكر حق العقل في الغوص إلى أعماق الحفايا. يجب أن يتسم البحث عن الحقيقة بالعقلانية العلمية إلى جانب الصوفية السرية، والمقدرة على الفهم يجب أن تنمي وتأنم بالفكر النقدي.

كانت فلسفة الاشراق - كما يعني اسمها - رمز النور الذي يرى كمرادف تام لكلمة الله.. ففي القرن الثاني عشر كان الله غير مادي، ولا سبيل إلى وصفه على الرغم من كونه أكثر حقائق الحياة وضوحاً في العالم: واضحة بذاتها كلياً، وليست بحاجة إلى تعريف، بل يحس بها كل امرئ أنها العنصر الفاعل الذي جعل الحياة ممكنة. كانت حقيقة واسعة الانتشار: فأية آية تعود إلى أجسام مادية كانت تأتي من النور مباشرة، مصدر خارج الأشياء. نور الأنوار في كوسمولوجيا الفيض السهروردية كان المقابل لوجود الفلاسفة الضروري الذي كان بسيطاً جداً. نتج عن ذلك تسلسل متراتب تنازلي لأنوار، كل نور معتمد في الاستقلالية على نور الأنوار، وطور ذات ظلية كانت مصدر مملكة مادية تماثل أحد عوالم بطليموس. وكان هذا تشبيهاً لتطبيقات البشر. كان هناك دمج مماثل بين النور والظلام داخل كل منا: كان الروح القدس يسبغ النور أو الروح على الجنين (أو جبريل كما يسميه ابن سينا، نور عالمنا). تتوق الروح إلى الاتحاد مع عالم الأنوار الأعلى، فإذا ما وُجِّهت بشكل مناسب من القطب (إمام عصره) أو أحد مريديه، فإنه يمكن لها أن تلتقط قبساً منه هنا على الأرض.

لقد وصف السهروردي استنارته في /الحكمة/. فقد سيطرت عليه مسألة معرفية كهاجس لكنه لم يستطع أن يحرز تقدماً: فاطلاعه على الكتب لم يقل له شيئاً. ثم رأى منظرًا للإمام، القطب، شافي الأرواح:

فجأة لفتني رقة، وحدث ومض يخطف الأبصار - ثم نور شفاف على شكل شرر، نظرت متعناً. كان هناك، اقرب مني، وحياني بلطف أزال ارتباكِي وهلمي. أفصح أجنال لشعور بالألفة. وبعدئذ بدأت أشكو له عن مشكلتي مع هذه المسألة المعرفية.

قال لي: استيقظ وستكون مشكلتك محلولة^(٣٧).

كانت عملية البقطة أو الاستتارة مختلفة جداً عن إلهام النبوة الثقيل الوطء: فيها سمات مشتركة مع استتارة بوذا الهادئة. لقد كانت الصوفية تدخل روحانية أكثر هدوءاً في أديان الله. فبدلاً عن الاصطدام بوجوده من الخارج تأتي الاستتارة من داخل المتصوف ذاته، إذ ليس هناك نقل لحقائق. فتدريب الخيلة البشرية سيمكن الناس من العودة إلى الله عن طريق إدخالهم في عالم المثل، أي عالم الصور النقية.

أخذ السهروردي عن الاعتقاد الإيراني القديم بعالم غمطي بدئي حيث لكل شخص أو جسم في هذا العالم المادي الدنيوي نظيره في العالم السماوي وبنى على هذا الاعتقاد. فالصوفية تحيي الميثولوجيا القديمة، وأديان الله قد تم هجرها ظاهرياً. فالعالم السماوي الذي أصبح في نظام السهروردي عالم المثل أصبح الآن مملكة وسطاً بين عالمتنا وعالم الله، ولا يمكن فهمها عن طريق العقل ولا الحواس. فمقدرة الخيلة المبدعة التي مكنتنا من اكتشاف مملكة الأنماط البدئية المستترة، مثلما كشف التفسير الرمزي للقرآن عن المعنى الروحي الحقيقي كان عالم المثل قريباً من الفهم الأسماغي لتاريخ الإسلام الروحي الذي كان المعنى الحقيقي للأحداث الدنيوية، أو عالم الملائكة عند ابن سينا، الذي ناقشناه في الفصل السابق. وهذا سيكون أمراً حاسماً لجميع المتصوفين الإسلاميين كطريقة لتفسير تجاربهم ورؤاهم. كان السهروردي يتحرى الرؤى التي كانت متماثلة بشكل مذهل، سواء رآها الشامان، أو المتصوفون، أو الوجديون في حضارات عديدة. وقد حظيت هذه الظاهرة باهتمام كبير. فمفهوم يوفغ عن اللاشعور الجمعي هو محاولة لتحرير هذه التجربة التخيلية العامة للبشرية. حاول علماء آخرون مثل فيلسوف الدين الأمريكي، الروماني الأصل ميرسيا إلياد Mercea Eliade أن يبين أن ملاحم الشعراء القديمة، وبعض أنواع الحكايات الخرافية إنما تستمد من الرحلات الوجدية والتخليق الصوفي^(٣٨).

لقد أكد السهروردي أن رؤى المتصوفين ورموز الكتاب المقدس: كالسما، المجيم أو يوم القيامة، أكد أنها حقيقية مثل الظواهر التي نخبرها في هذا العالم لكن ليس بنفس الطريقة. ليس بالإمكان اليرهنة عليها عملياً بل بالإمكان رؤيتها بالمقدرة التخيلية المبررة التي مكنت الحالمين من رؤية البعد الروحي في الظواهر الأرضية. فهذه التجربة لا معنى لها لأي امرئ لم يتلق التدريب المطلوب، مثل الاستتارة البوذية تماماً التي لا يمكن بلوغها إلا بعد القيام بالتدريب العقلي والأخلاقي الضروريين. فأفكارنا ومثلنا ورغباتنا وأحلامنا ورؤانا لها مايقابلها في عالم المثل. فقد تنبه النبي محمد - على سبيل المثال - إلى هذا العالم الوسط - أثناء حلمه الليلي الذي أخذته إلى عتبة العالم الإلهي. وقد زعم السهروردي أن

رؤى «متصوفي العرش من اليهود» قد حدثت عندما تعلموا الدخول إلى عالم اللؤلؤ خلال تدريبات التركيز الروحي التي كانوا يتلقونها، فالطريق إلى الله لم تكن عبر العقل فقط - كما ظهر للفلاسفة - بل عبر الخيلة المبدعة، أي مملكة التصوف.

يشعر الناس في الغرب - اليوم - بالأس إنا قال لاهوتي بارز إن الله - بمعنى عميق - هو نتاج الخيلة، مع ذلك ينبغي أن نوضح أن الخيلة هي المقدرة الدينية الأساسية، وقد عرفها جان بول سارتر بأنها «المقدرة على أن تفكر بما هو ليس موجوداً»^(٣٩). فالبشر هم الحيوانات الوحيدة التي لديها المقدرة على تصور شيء ما ليس حاضراً أو غير موجود بعد بل يمكن الوجود فحسب. وهكذا فإن الخيلة هي السبب الكامن وراء إنجازاتنا الهامة في العلم والتكنولوجيا والفن والدين أيضاً. فمهما عُرِّفَت فكرة الله فربما هي المثال الرئيسي على وجود غائب - على الرغم من مشكلاته البنيوية، وقد ألهم البشر طوال آلاف السنين، فالطريقة الوحيدة التي بها نستطيع فهم الله الذي يبقى خارج ماتدركه حواسنا، وخارج البرهان المنطقي هي عن طريق الرموز، ووظيفة العقل التخيلي الأساسية هي أن يفسر هذه الرموز. كان السهروردي يسعى إلى تفسير إلهي لهذه الرموز التي كان لها تأثير حاسم على الحياة البشرية، على أن الحقائق، ما تزال تشير إليها أنها وهمية. بالإمكان تعريف الرمز على أنه شيء أو فكرة يمكننا أن ندركه بحواسنا أو بعقولنا لكننا نرى في الرمز شيئاً أكثر مما نرى في الشيء ذاته. فالعقل وحده لن يمكننا من فهم الشيء الآني أو الخالد أو الكوني على وجه الخصوص. تلك هي مهمة الخيلة المبدعة التي ينسب إليها المتصوفون والفنانون رؤاهم. إن أكثر الرموز الدينية فعالية هي تلك التي تأمر بها المعرفة والفهم الذكيان للشرط الإنساني. فالسهروردي الذي كتب بلغة عربية جميلة كان ميتافيزيقياً بارعاً جداً، وكان فناناً مبدعاً ومتصوفاً أيضاً كان يدمج سوياً أشياء لاوجود للعلاقة ظاهرة بينها، فكان قادراً على مساعدة المسلمين على خلق رموزهم، وعلى أن يجدوا معنى جديداً وأهمية في الحياة.

كان محي الدين ابن العربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) أكثر تأثيراً من السهروردي. نستطيع أن نرى حياته كرمز للفراق بين الشرق والغرب. كان والده صديقاً لابن رشد الذي كان متأثراً جداً ببورع الشاب في المناسبة التي التقيا فيها. تحول ابن العربي إلى الصوفية أثناء مرض شديد ألتم به. غادر أوروبا في سن الثلاثين قاصداً الشرق الأوسط. حج وأمضى سنتين مصلياً ومتأملاً في الكعبة، لكنه استقر أخيراً في ملاطية على نهر الفرات. وغالباً ما كان يلقب بشيخ العقبة Akbah «أي المعلم العظيم». لقد أثر تأثيراً عميقاً على المفهوم الإسلامي لله، لكن فكره لم يؤثر على الغرب الذي اعتقد أن الفلسفة الإسلامية قد

انتهت بآين رشد، وهكذا فقد آمنت المسيحية الغربية بآله آين رشد الأرسطي بينما اختار معظم المسلمين، حتى وقت قريب نسبياً - إله المتصوفين التخيلي.

في عام ١٢٠٠ رأى آين العربي أثناء طوافه حول الكعبة رؤيا كان لها تأثيراً عميقاً ومستمراً عليه: رأى فتاة شابة تدعى نظام محاطة بهالة سماوية؛ فأدرك أنها كانت تجسيدا للمحكمة، أي الحكمة الإلهية. فهذا التجلي جعله يدرك أن من المحال أن نحب الله إذا اعتمدنا على الجدل الفلسفي العقلاني فقط. كانت الفلسفة تؤكد على تعالي الله المطلق، وتذكرنا أن ما من شيء يشبهه. فكيف لنا أن نحب وجوداً غريباً كهذا؟ بيد أنه باستطاعتنا أن نحب الله الذي نراه في خلقه وإن نحب كائناً لجماله، فإنك لن تحب أحداً سوى الله لأنه هو الوجود الجميل، هذا مقالته في الفتوحات المكية. «وهكذا من جميع جوانبه فإن موضوع الحب هو الله وحده»^(٤٠). فالشهادة تذكرنا أنه لاوجود لإله أو حقيقة مطلقة سوى الله. وبالتالي لاوجود لجمال مستقل عنه. لا نستطيع أن نرى الله ذاته، لكننا نستطيع أن نراه كما اختار أن يكشف عن ذاته في مخلوقات، مثل نظام التي ألهمت قلوبنا بالحب. على المتصوف خلق تجليات الله بنفسه كي يرى فتاة مثل نظام كما كانت فعلاً. فالحب كان بالأساس اشتياقاً لشيء يبقى غائباً. لقد أصبحت نظام «موضوع مسعاه وأمل، العذراء الأكثر لقاء».

وكما شرح في مقدمة كتابه /الديوان/ الذي هو مجموعة قصائد:

وفي الأشعار التي نظمها للكتاب الحالي فإنني لأنني عن التلميح إلى الإلهام الإلهي والرؤى الروحية، وإلى أوجه الشبه بين عالنا وعالم الملائكة الغفاف لقد التزمت بطريقتي المعتادة في التفكير وفي الرموز، لأن أشياء العالم اللامرئي تجذبني أكثر مما تجذبني أشياء الحياة الواقعية، لأن هذه الشابة تعرف تماماً ما كنت أشير إليه^(٤١).

لقد حولت الخيلة المبدعة، نظام، إلى تجلٍ لله.

مر دانتى الجبري بتجربة مماثلة في فلورنسا بعد مضي نحو /٨٠/ سنة تالية، عندما رأى بياتريس بورتيناري. عندما لحها شعر أن روحه ترتعش بعنف، وبدا له وكأنه سمعها تصبح «توقف أيها الإله الأكثر قدرة مني، والذي يأتي كي يحكمني»، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً كان دانتى مسيراً بحبه لبياتريس، التي تملكته «بسبب القدرة التي أمدته بها مخيلته»^(٤٢). كانت بياتريس صورة حب إلهي له. ونرى في /الكوميديا الإلهية/ كيف أحضر هذا الحب دانتى في رحلة وهمية عبر الجحيم إلى المطهر ثم إلى السماء، ومنها إلى

رؤية الله. لقد استمد دانتني إلهامه من روايات صعود محمد إلى السماء، وكان رأيه بالخيلة المبدعة مماثلًا بالتأكيد لرأي ابن عربي. قال دانتني أنه ليس صحيحاً أن الخيلة تدمج الصور المستمدة من العالم الدنيوي فحسب - كما قال أرسطو - بل كان مصدرها جزئياً من الله:

أو أينها الخيلة التي تحملينا بعيداً

من أنفسنا فبقى منذهلين، ونعاني الصمم على الرغم من قراع ألف طبل حولنا.

ما الذي يحركك عندما لاترك الأحاسيس شيئاً؟

النور يحركك متشكلاً في السماء بلاوادة منه،

من يرسلك إلى أسفل، أو أنه من صنع الذات^(٢٤٣)

في القصيدة كلها يظهر دانتني القصة من الصور المرئية والحسية تدريجياً. فالوصف المادي المحي للجحيم يفسح مجالاً إلى الصعود العاطفي الصعب إلى قمة المطهر، ومنه إلى الفردوس الأرضي حيث تلومه بياتريس لأنه رأى كيانها المادي غاية بحد ذاته: كان عليه أن يراها رمزاً أو ظهوراً يقوده من العالم إلى الله. ففي الفردوس لا توجد مقطوعات وصف مادية، حتى الأرواح المباركة وهمية، وتذكرنا بأن ما من شخصية بشرية يمكنها أن تصبح موضوعاً نهائياً للتوق البشري. وفي النهاية تعبر الصورة الفكرية الباردة عن التعالي المطلق لله الذي هو خارج مخيلتنا. فقد اتهم دانتني برسم لوحة باردة لله في الفردوس، لكن التجريد يذكرنا أننا لانعرف عنه شيئاً في نهاية المطاف.

كان ابن العربي مقتنعاً أن الخيلة هي مقدرة ينعم بها الله. فعندما كان المتصوف يخلق تجلياً لذاته فإنه كان يؤكد هنا على الأرض حقيقة كانت موجودة وأكثر كمالاً في مملكة الأنماط البدئية. فعندما نرى الإلهي في أناس آخرين فإننا نقوم بمحاولة تخيلية لإمالة اللثام عن الوجود الحق: خلق الله المخلوقات مثل حجب، ومن يعرفها على هذا النحو يُعاد إلى الله، لكن من ينظر إليها على أنها واقعية فإنه يُعجز من حضرة الله^(٢٤٤). وما بدا كروحانية شخصية جداً مركزة على كائن بشري قادت ابن العربي إلى مفهوم عبر شخصي transpersonal لله. بقيت هذه الصورة للأنتي هامة بالنسبة لله: كان يعتقد أن النساء تجسيدات للحكمة Sophia الأكثر فعالية. أي الحكمة الإلهية، لأنهن يلهمن الحب في الرجال، هذا الحب الموجه نحو الله مباشرة. ينبغي أن نتعرف هنا أن هذه النظرة ذكورية؛ لكنها كانت محاولة لإدخال بعد أنثوي إلى دين إله كان يعتبر ذكورياً كاملاً في أغلب الأحيان.

لم يعتقد ابن العربي أن الله الذي عرفه كان له وجود موضوعي. مع ذلك فقد كان ميتافيزيقياً بارعاً، ولم يكن يعتقد أن بالإمكان البرهنة على وجود الله منطقياً. كان يحب أن يسمى نفسه تلميذ /الحضر/، ويطلق هذا الاسم على شخصية غامضة تظهر في القرآن كموجه روحي لموسى الذي جلب الشريعة الخارجية إلى الإسرائيليين قاله قد أعطى الحضر معرفة خاصة به عن ذاته، ولذلك نجد موسى يتوصل إليه كي يعلمه لكن الحضر يخبره أنه لن يطبق معه صبراً لأن معرفته تقع خارج تجربة موسى الدينية^(٤٥). فليس مستحسنًا محاولة فهم المعلومات الدينية التي لم نخبرها نحن بأنفسنا. ويدل أن معنى اسم الحضر يدل على أن حكمته كانت متجددة إلى الأبد. فحتى نبي له طبيعة موسى لا يستطيع بالضرورة فهم أشكال الدين الخفية لأنه يجد نفسه - في القرآن - غير قادر على الصبر على الطريقة التي يعلمه بها الحضر. ويدل أن معنى هذه الحادثة الغريبة يوحي أن معطيات الدين الخارجية لا تنطبق دائماً مع عامله الصوفي أو الروحي. فالتناس - كالعلماء مثلاً - قد يكونون غير قادرين على فهم إسلام متصوف مثل ابن العربي. فتراث المسلم يجعل الحضر معلم كل الذين يسعون إلى الحقيقة الصوفية التي هي أعلى مرتبة ومختلفة تماماً عن الأشكال الخارجية الحرفية إنه لا يتقود تلميذه إلى أحد مفاهيم الله الذي هو مثل مفهوم كل واحد بل يقوده إلى إله ذاتي بالمعنى الأعمق للكلمة.

يحتل الحضر مرتبة هامة عند الاسماعيليين أيضاً. فعلى الرغم من أن ابن العربي كان سنياً إلا أن تعاليمه كانت قريبة جداً من التعاليم الاسماعيلية، وبالتالي أدخلوها إلى لاهوتهم فكان هذا مثلاً آخر للدين الصوفي الذي كان قادراً على تجاوز التقسيمات الطائفية. لقد أكد ابن عربي - مثلما فعل الاسماعيليون على رحمة الله التي كانت تقف على نقيض حاد مع لامبالاة الله عند الفلاسفة. فإله المتصوفين كان تواقفاً كي تعرفه مخلوقاته. واعتقد الاسماعيليون أن كلمة الله مشتقة من جنسها العربي ولذا: أي يكون حزناً أو يتنهّد على^(٤٦). ففي الحديث الشريف يقول الله: «كنت كنزاً دفيناً، ونُفْتُ كمي أعرف». ثم خلقت الخلق كي يعرفوني». ليس هناك برهان عقلائي على حزن الله، إنما نعرفه فقط من خلال توفنا إلى شيء ما، فإما أن نلبي أعماق رغباتنا، وإما أن نفسر مأساة الحياة وألمها. فطالما أننا مخلوقون على صورة الله لذلك علينا أن نفكر بالله للثال الأعلى. ويجب أن يعكس توفنا إلى الحقيقة التي نسميها الله تعاملاً مع رحمة الله. تخيل ابن العربي الإله الوحيد متنهّداً، يملأه توق، لكن هذا التنهد (نَفَسٌ رحمانى)، لم يكن تعبيراً عن شفقة ذاتية جياشة. كانت فيه قدرة إبداعية فعالة خلقت كوننا كله. فقد زفر أيضاً كائنات بشرية

أصبحت لوغوي logoi أي كلمات تعبر عن الله لذاته. يستتبع ذلك أن كل كائن بشري هو تجسيد فريد لله المستتر، مظهراً إياه بطريقة خاصة لا تتكرر.

كل واحدة من هذه اللوغويات الإلهية هي أسماء الله الحسنى التي سعى نفسه بها، جاعلاً نفسه حاضراً في كل تجلي من تجلياته، إذ ليس بالإمكان تلخيص الله في تعبير بشري واحد لأن الحقيقة الإلهية لا تنضب. وبالتالي فإن الإلهام الذي خلقه الله في كل واحد منا فريد مختلف عن الله الذي يعرفه عدد لا يحصى من البشر الذين هم لوغويات (هـ). سنعرف فقط إلهنا لأننا لا نستطيع التعرف إليه موضوعياً، ومن المحال معرفته بنفس الطريقة التي يعرفه فيها أناس آخرون. يقول ابن العربي: «كل كائن له إله، إله خاص به، فليس ممكناً أن يكون لديه كلية الإله». وكان يحب الاستشهاد بالحديث «فكروا في نعم الله، ولا تفكروا بالجواهر والذات»^(٤٧). إذ لا سبيل إلى معرفة حقيقة الله الكلية، يجب أن نركز على الكلمة المحدودة المنطوقة في وجودنا، وكان يجب أن يسمى الله العماء أي «السحابة» أو «العمى»^(٤٨) كي يؤكد على أنه لا سبيل إلى فهمه، لكن هذه اللوغوي البشرية تكشف أيضاً الله المستتر لذاته. إنها عملية ذات مسلكين: الله يتنهد كي يصبح معروفاً ويتخلص من عزله من قبل الناس الذين يكشف عن نفسه فيهم. فحزن الله غير المعروف يهدأ بالله المتجلي في كل كائن بشري يجعله معروفاً لنفسه. فالإله المستتر في كل فرد يتوق إلى العودة إلى مصدره، وهذا الحنين الإلهي يلهم توقنا.

كانت الألوهة والبشرية مظهرين من الحياة الإلهية التي تحمي الكون بأكمله. كانت هذه الرؤى مماثلة للفهم اليوناني لتجسد الإله في يسوع، لكن لم يكن باستطاعة ابن العربي قبول فكرة أن كل كائن بشري - مهما كانت قداسته - يعبر عن حقيقة الله اللامتناهية. فأعتقد بدلاً من ذلك أن كل امرئ كان تجلياً فريداً للإله. لقد طور رمز الإنسان الكامل الذي جسد سر الله المتجلي في كل جيل خدمة لمعاصريه، مع أنه لا يجسد بالطبع حقيقة الله كلها أو جوهره المستتر. كان النبي محمد هو الإنسان الكامل في جيله، وتحديدًا رمزاً فعالاً للإله.

كانت الصوفية التخيلية الاستبطانية بحثاً عن سبب الوجود في أعماق الذات. فقد حرمت المتصوف من اليقينات التي كانت تتسم بها أشكال الدين الأكثر دوغمائية. فيما أن لكل رجل وامرأة معرفة فريدة بالله، بالتالي ليس باستطاعة دين ما أن يعبر عن السر الإلهي كاملاً. فليس هناك حقيقة موضوعية عن الله يتوجب على الناس تأييدها، لأن هذا الله يتجاوز مجال الشخصية، والتكهنات حول سلوكه وميوله أمر محال ومن غير المقبول

إحساس المرء بتعصب حيال دينه على حساب دين آخر، لأن مامن دين لديه حقيقة الله بأكملها. لقد طور ابن العربي موقفاً إيجابياً تجاه الأديان الأخرى المذكورة في القرآن، وبذلك نادى بالتسامح الديني:

قلبي قادر على كل شكل: صومعة الراهب، معبد الأصنام، مرعى للغزلان،
مريدوا الكعبة، ألواح التوراة والقرآن. الحب هو الدين الذي اعتنقه، فحيثما
تسير جماله ما يزال الدين الحق ديني^(٩٩).

فإله الإنسان موجود في البيت، في الكنيس في المعبد، في الكنيسة والمسجد لأنها جميعاً تقدم خشية قوية من الله. وكثيراً ما استخدم ابن العربي عبارة «إله الذي خلقته الأديان»، وحرفياً «خلق الحق في الاعتقاد». وقد تكون العبادة انتقاصاً إذا ما كان معناها إله الذي خلقه البشر في دين محدد، وإذا ما اعتبر نظيراً لله ذاته. فهذا سيؤدي إلى عدم التسامح والتعصب، فبدلاً من صنمية كهذه قلم ابن العربي هذه النصيحة:

لا تقيد نفسك بأية عقيدة وحيدة بحيث تكذب المعتقدات الباقية، ولا
تستخسر غيراً كثيراً. بل ستخلق في التعرف على الحقيقة الفعلية للمسألة،
فإله الكلّي الوجود والقدرة ليس محدوداً في عقيدة وحيدة لأن الله يقول
«وأيما تولوا فثم وجه الله». فكل امرئ يمجّد ما يعتقد، وإلهه هو مخلوقه
هو، ويتمجّده إذاً يمجّد نفسه. وبالتالي فإنه يوجه اللوم إلى المعتقدات
الأخرى، ولو كان عادلاً لما فعل ذلك، لكن كراهيته مبنية على الجهل^(١٠٠).

إننا لا نرى أي إله سوى الاسم الشخصي الذي تكشف لنا، وأعطي وجوداً ملموساً
في كل منا. وبالتالي فإن فهمنا لربنا الشخصي مشوب بالتراث الديني الذي ولد فينا. لكن
المتصوف العارف يعرف أن إلهنا هذا هو بكل بساطة ملاك أو رمز محدد للإله الذي ينبغي
عدم الخلط بينه وبين الحقيقة المستترة ذاتها. وبالتالي يرى جميع الأديان المختلفة تجليات
صحيحة. فبينما يقسم الله في الأديان الأكثر دوغمائية البشر إلى معسكرات متحاربة نجد
إله المتصوفين قوة موحدة.

كانت تعاليم ابن العربي عويصة بالنسبة للغالبية العظمى من المسلمين، ولذلك لم
تصل إليهم. فخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم تعد الصوفية حركة أقلية بل
أصبحت اتجاهًا إسلامياً مسيطراً في أجزاء عديدة من الإمبراطورية الإسلامية. فتأسست في
هذه الفترة الطرائق الصوفية، كل منها له تفسيره الصوفي للدين، كان للشيخ المتصوف
تأثير كبير على العامة، وكانوا يقدرونه كقديس بالطريقة نفسها التي كان فيها الشيعة

يقدرون أئمتهم. تميزت هذه الفترة بعدم الاستقرار السياسي: كانت الخلافة في بغداد تتفكك، وكانت القبائل المغولية تدمر المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى. كان الناس يريدون إلهاً أكثر مباشرة وتعاطفاً من الله البعيد الذي دعا إليه الفلاسفة والفقهاء. فالممارسات الصوفية /الذكر/ أي ترديد أسماء الله الحسنى كانت حلقة لبث النشوة، فانتشرت خارج الطرائق. فالتدريبات الصوفية التي تقوم على التركيز، وأساليبها المصممة بدقة كبيرة: كالتنفس والوضع الجسدي، ساعدت الناس على الشعور بحضور متعال داخلهم. لم يكن كل فرد قادراً على الحالات الصوفية الأعلى بل ساعدت هذه التمارين الروحية الناس على التخلي عن مفاهيم الله التجسدية التبسيطية، وعلى معرفته كحضور داخل الذات. فقد استُخدمت بعض الطرائق - الموسيقى والرقص - لزيادة التركيز، وأصبح شيخوها أبطالاً في نظر الناس.

أشهر الطرق الصوفية هي المولوية التي يعرف أفرادها في الغرب بـ «الدراويش الذين يدورون»، وكان رقصهم المناسب لطريقة للتركيز، فعندما يدور المتصوف حول نفسه كالمنزل، كان يشعر أن قيوده الذاتية كانت تتلصق بينما كان يذوب في رقصه، معطياً إياه إحساساً بالفتاء. مؤسس هذه الطريقة هو جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣) الذي يناديه مريدوه «مولانا» أو «سيدنا». ولد في خراسان في آسيا الوسطى لكنه هرب إلى قونية في تركيا الحالية قبل وصول الجيوش المغولية. بالإمكان اعتبار صوفيته كاستجابة إسلامية لهذه الكارثة التي من المحتمل أنها جعلت الكثيرين يفقدون إيمانهم بالله. أفكار ابن الرومي مماثلة لأفكار معاصره ابن العربي، لكن قصيدته (المتنوي) التي عُرفت بأنها /كتاب الصوفية المقدس/ لاقت قبولاً بين الناس، وساعدت على نشر إله المتصوفين وسط المسلمين العاديين. في عام ١٢٤٤ أصبح رومي تحت تأثير تعويذة الدراويش المتجول شمس الدين الذي اعتبره رومي الإنسان الكامل في جيله. لقد اعتقد شمس الدين أنه تجسداً جديداً للنبي وأصر على مناداته بمحمد. كانت شهرته مشوبة ببعض شكوك، لأنه كان يعرف عنه عدم التزامه بالشريعة والقانون الإسلامي المقدس لأنه كان يعتبر نفسه فوق تقاضات كهذه. شعر مريدو الرومي بالقلق من الخبل الواضح الذي ألم بسيدهم. وعندما قتل شمس في أعمال شغب لم يجد الرومي عزاء له فكرس المزيد من الوقت للموسيقى والرقص الصوفيين. كان قادراً على تحويل حزنه تخيلاً إلى رمز لحب الله. تولى الله إلى البشرية وتولى البشرية إلى الله. سواء تحقق ذلك أم لا، فكل امرئ كان يبحث عن الله الغائب، وكان يشعر أنه منفصل عن مصدر الوجود:

استمع إلى قصب الماء كيف يحكي حكاية، شاكياً من الفراغ. فمنذ أن

رحلت عن أكلة القصب أقمت مندتي. الرجال والنساء يتأوهون؟ أريد
صبراً مزقه الشدة. كي ألقي إليه بقدرة رغبة الحب كل امرئ متروك
بعيداً عن مصدره يتمنى عودة الزمن الذي يتحد فيه معه^(١١)

لقد اعتقد أن الإنسان الكامل يلهم مزيداً من الناس العاديين بالسعي إلى الله:
فشمس الدين أطلق في الرومي شعره / المتنوي/ الذي كان يفص بآلام هذا القراق.

رأى الرومي الكون كتجلي لأسماء الله الكثيرة مثلما رآه المتصوفون الآخرون. فبعض
هذه الأسماء يكشف عن غضب أو قسوة الله، بينما عبرت أسماء أخرى عن صفات
الرحمة التي كانت متأصلة في الطبيعة الإلهية. كان المتصوف منشغلاً في صراع لا يتوقف
(الجهاد) كي يميز رحمة وحب وجمال الله في جميع الأشياء وليجري كل شيء آخر.
حرّض المتنوي المسلم على إيجاد البعد المتسامي في الحياة البشرية، وعلى أن يتفد من
خلال المظاهر إلى الحقيقة المستترة داخله. فالأنا هي التي تعمينا عن السد الكامن في جميع
الأشياء، لكن ما أن تخرج خارج الأنا حتى تصبح واحداً مع علة الوجود كله وليس
كائنات منفصلة معزولة. أكد الرومي أن الله تجربة ذاتية فقط. ويروي الحكاية الطريفة عن
موسى والراعي كي يوضح الاحترام الذي يجب أن يديه لفهم الآخرين لله. فذات يوم
سمع موسى راعياً يتحدث بألفة إلى الله: أراد الراعي أن يساعد الله أينما كان بفلس
ملايسه، بانتشال القمل منها، بتقبيل يديه وقدميه عند النوم. «كل ما يمكنني قوله، تذكر
وخاتمة الصلاة، إي وآه ممدودة. أصاب الرعب موسى. فإلى من تخيل الراعي نفسه
يتحدث؟ إلى خالق السماء والأرض؟ لقد بدا الأمر وكأنه كان يتحدث إلى عمه: تاب
الراعي وهام في الصحراء دون عزاء لكن الله وبخ موسى. إن الله لم يكن يريد كلمات
معتقدية بل حياً متقدماً وتواضعاً، لم يكن هناك سبل صحيحة للتحدث عن الله:

ما يبدو لك خطأ هو صحيح بالنسبة له، وما هو سمّ لامرئ عسل شخص آخر.

الطهر والدنس، الكسل والاجتهاد في العبادة، لا تعني هذه شيئاً لي
أنا بعيد عن كل ذلك. يجب ألا تعبر طرق العبادة أن إحداها أفضل من الأخرى.
فالهندوس يقومون بأشياء هندوسية، والدرافيش المسلمون في الهند يفعلون
ما يفعلون

كل هذا تسبيح وكله صحيح. ففي أعمال العبادة ليس أنا من أتجل إنهم
العابدون. لأسمع الكلمات التي يرددونها. أنظر إلى التواضع في الداخل.
المختصر الصريح هو الحقيقة ليست اللغة. اتسوا العبارات. أنا أريد الاتفاق

كونوا أصدقاء مع انقادكم، أوقفوا تفكيركم وأشكال تعبيركم^(٥٢).

فأي كلام عن الله كان عبثاً مثل كلام الراعي لكن عندما كان المؤمن ينظر عبر الحجب ليرى كيف كانت الأشياء حقاً فإنه سيجد أن ما يراه يكذب جميع المفاهيم البشرية المسبقة.

في هذه الأثناء كانت المأساة قد ساعدت اليهود في أوروبا على تكوين مفهوم جديد عن الله، فالنزعة الصليبية المعادية للسامية في الغرب كانت تجعل الحياة أمراً لا يطاق في التجمعات اليهودية، فكان الكثيرون يريدون إلهاً شخصياً أكثر مباشرة من الإله البعيد الذي عرفه متصوفوا العرش. خلال القرن التاسع هاجرت أسرة كالونيموس Kalonymos من جنوبي إيطاليا إلى ألمانيا، وأحضرت معها بعضاً من أدب التصوف. وبحلول القرن الثاني عشر كان الاضطهاد قد أدخل تشاؤماً جديداً في التقوى الأشكنازية وقد غُيّر عنه في مؤلفات ثلاثة من أفراد هذه الأسرة. فقد كتب الحبر صموئيل الأب كتيباً عن /كتاب خشية الله/ ١١٥٠ ، وكتب الحبر يهوذا الورع /كتاب الورع/، وابن عمه الحبر اليعازار بن يهوذا الوري (d - ١٢٣٠) الذي نسخ عدداً من الكتيبات والنصوص الصوفية. لم يكن هؤلاء مفكرين فلاسفة ولا مفكرين منهجين، وتوضح أعمالهم أن أفكارهم كانت مقتبسة من مصادر عديدة. كانوا متأثرين كثيراً بالفيلسوف سعدي بن يوسف الذي ترجمت مؤلفاته إلى العبرية، وبالتصوفين المسيحيين مثل فرانسيس الأسيسي. فمن هذه المصادر المتنوعة تمكنوا من خلق روحانية بقيت هامة عند يهود فرنسا وألمانيا حتى القرن السابع عشر. لقد أعلن الأحيار أن إنكار المرء لمسرته ذنب يرتكبه، فهذه المسرات قد خلقها الله. لكن الورعين الألمان نادوا بإنكار للذات ولذلك كان موقفهم مشابهاً لموقف الزهد المسيحي. فاليهودي يجب أن يرى ملكوت الله في العالم الآخر إذا أدار ظهره إلى المسرات، وإذا تخلى عن اللهو كترية الحيوانات الأليفة في المنزل أو اللعب مع الأطفال. يجب على الأطفال أن ينمو إحساساً باللامبالاة تجاه الآخر، فلا يتأثروا بالسخرية والإهانات.. بالإمكان مخاطبة الله كصديق. فصوفية العرش لم تحلم بمخاطبة الله باستخدام كلمة أنت كما فعل اليعازار. وتسلت هذه الألفة إلى القربان المقدس، فقد تم تصور إله كان في حالة فيض وكان حاضراً في الوقت الذي كان فيه متعالياً:

كل شيء هو فيك، وأنت كل شيء، أنت تملأ كل شيء وتوجهه، فعندما خلق كل شيء، كنت في كل شيء قبل أن يخلق كل شيء أنت كنت كل شيء^(٥٣).

لقد تم تعديل هذا الفيض ببيان أن لأحد يستطيع مقارنة الله ذاته، بل الله فقط كما أظهر نفسه إلى البشر في عظمته أو في «الاشعاع العظيم المسمى شيكنه». لم يكن الوردون قلقين من عدم الاتساق الظاهري، لكنهم ركزوا على مسائل عملية أكثر مما ركزوا على مسائل لاهوتية. فعلم هؤلاء أخوتهم اليهود طرائق التركيز وحرركات تزيد إحساسهم بحضور الله. كان الصمت أساسياً: يجب على الورد أن يخلق عينيه بإحكام، وأن يغطي رأسه بشال صلاة كي لا يتشتت انتباهه، وأن يضمر معدته وأن يصك أسنانه. وضعوا طرقاً خاصة تشد إلى الصلاة، وجدوها أنها تشجع هذا الإحساس بالحضور. فبدلاً من تكرار كلمات القربان فقط يجب أن يقرؤوا الحروف المكونة لكل كلمة، ويحسبوا معادليها الرقمي، وأن يمضوا إلى أبعد من المعنى الحرفي للكلمة. يجب أن يركز اهتمامه إلى أعلى كي يشجع إحساسه بحقيقة أسمى.

كان اليهود في الإمبراطورية الإسلامية أكثر سعادة من اليهود في بقية العالم، لأنهم لم يتعرضوا للإضطهاد وبالتالي لم يكن هناك داع لهذه التقوى الأشكنزية. فكانوا يطورون نمطاً جديداً من اليهودية كاستجابة للتطورات الإسلامية. فكما حاول الفلاسفة اليهود شرح الكتاب المقدس فلسفياً كذلك حاول يهود آخرون أن يعطوا إلههم تفسيراً رمزياً صوفياً. كان هؤلاء المتصوفون أقلية بادئ الأمر، فكانت صوفيتهم سرية ينقلها سيد إلى مرید أسموها القبالة أو التراث الموروث. في النهاية سيتوجه إله القبالة إلى معظم اليهود ويستولي على الخيالة اليهودية بطريقة لم يلنها إله الفلاسفة. فقد هدت الفلسفة أن تحوّل الله إلى تجريد بعيد، لكن إله المتصوفين كان قادراً على ملامسة تلك المخاوف والقلق الذي يكمن في مكان أكثر عمقاً من العقلاني. كان متصوفوا العرش راضين بتأمل عظمة الله من الخارج. بينما سمعت القبالة إلى النفاذ إلى حياة الله الداخلية وإلى الوعي البشري، فبدلاً من التأمل عقلانياً في طبيعة الله والمشكلات الميتافيزيقية بعلاقته مع العالم، تحول القباليون إلى الخيالة.

لقد استفاد القباليون، مثلما استفاد المتصوفون - من التمييز الغنوصي والأفلاطونية المحدث بين جوهر الله والله الذي نلمحه في الكشف وفي الخيالة. لاسبيل إلى معرفة الله ذاته، فهولاً شخصي ولا يمكن تصوره. فقد أسموا الله المستتر En Sof «تعني حرفياً» دون نهاية. لا نعرف عنه شيئاً: ولا يرد ذكره في التوراة أو التلمود لقد كتب مؤلف مجهول من القرن الثالث عشر أن En Sof غير قادر على أن يصبح موضوع إلهام للبشرية^(٤). على العكس من يهوى لم يكن للـ En Sof اسم موثق، إنه ليس شخصاً. حقاً إنه لأكثر صحة

أن نشير إلى الربوبية بالضمير هو، لغير العاقل. كان هذا فراق جلزي عن إله التوراة والتلمود الشخصي جداً. لقد طور القباليون أساطيرهم كي تساعد على استكشاف مملكة جديدة من الوعي الديني. في محاولة لشرح العلاقة بين En Sof ويهوى دون الوقوع في الهرطقة الغنوصية، أنشأ القباليون طريقة رمزية لقراءة الكتاب المقدس. لقد تخيلوا طريقة - مثلما فعل المتصوفون - يكشف الله بها عن نفسه للبشرية. لقد أظهر الـ En Sof نفسه إلى المتصوفين اليهود في عشرة وجوه مختلفة عن الحقيقة الإلهية التي فاضت من أعماق الربوبية التي لا سبيل إلى معرفتها لأنه لا يمكن سبر أغوارها. فكل مرحلة من التقوى كانت تمثل مرحلة في الكشف عن الله المستتر، ولها اسم رمزي خاص بها، ويحتوي كل من هذه العوالم الإلهية على السر الكامل لله الذي يناقش تحت اسم خاص. فجعلت التفسيرات القبالية كل كلمة من الكتاب المقدس تشير إلى واحد أو آخر من العوالم Sefiroth العشرة: وكل آية تصف حدثاً أو ظاهرة لها نظيرها في الحياة الداخلية النفسية.

لقد رأى ابن العربي أن تنهد الله الرحيم - الذي كان يكشفه للجنس البشري - مثله مثل الكلمة التي خلقت العالم. وبالطريقة ذاتها كان السفروث Sefroth هو في آن واحد الأسماء التي أعطاهها الله لذاته والوسائل التي خلق بها العالم فهذه الأسماء تشكل اسمه الواحد العظيم الذي لا يعرفه البشر. فكانت تمثل المراحل التي نزل بها الله المستتر من وجوده المنعزل الذي لا سبيل إلى معرفته إلى العالم المادي. وهي مرتبة في لائحة كما يلي:

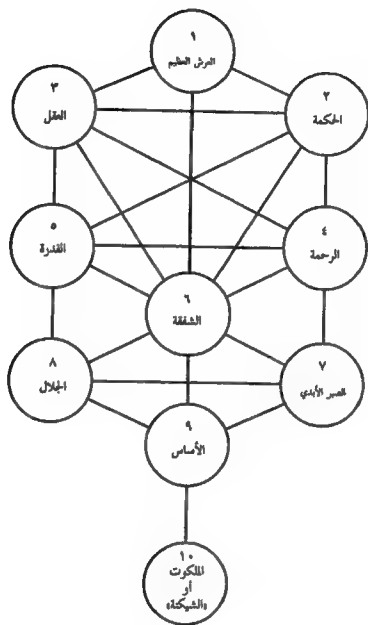
- ١ - العرش العظيم
- ٢ - الحكمة
- ٣ - العقل
- ٤ - الرحمة
- ٥ - القدرة (تبدى عادة في محاكمة شديدة)
- ٦ - الشفقة. تدعى أحياناً الجمال
- ٧ - الصبر الأبدي
- ٨ - الجلال
- ٩ - الأساس. المنطلق
- ١٠ - الملكوت والشيكنة

تُصوّر هذه الأسماء على شكل شجرة نامية رأساً على عقب، جذورها في أعماق الله المستتر الذي لا سبيل إلى فهمه (انظر الشكل ص ٢٥٠)، وقمتها في الملكوت أي في العالم. تعبر الصورة العضوية عن وحدة الرمز القبالي. والله المستتر هو النسغ الذي يجري

في أغصان الشجرة فيمدها بالحياة، موحداً لها في وجود معقد وغامض. على الرغم من وجود فارق بين الله المستتر وعالم أسمائه إلا أن الإثنين هما واحد مثلما يعتبر الفهم هو الجمر. تمثل هذه الأسماء العشرة عوالم النور التي تبين ظلمة الله المستتر الذي يبقى في غموض لا سبيل إلى النفاذ إليه. إنها مع ذلك سبيل آخر لتبيان أن مفاهيمنا عن الله لا يمكن أن تعبر تماماً عن الحقيقة التي تشير إليها.

ليس عالم السفروت حقيقة بديلة «هناك» بين الربوبية والعالم. إنها ليست درجات سُلم بين السماء والأرض؛ لكنها تكمن في العالم الذي نخبره بالحواس. وبما أن الله هو الكل في الكل فإن عوالم الأسماء موجودة وفعالة في كل شيء موجود. إنها تمثل أيضاً مراحل الوعي البشري التي يصعد المتصوف عبرها إلى الله عن طريق النزول في عقله هو. فقد صُوِّرَ الله والإنسان على أنهما لا يفترقان. رأى بعض القباليين في «السفروت» أعضاء الإنسان الأولى التي أرادها الله أصلاً. وهذا مادعا إليه الكتاب المقدس عندما قال إن الله خلق الإنسان على صورته: فالوجود الدنيوي هنا يقابل حقيقة بدئية في العالم السماوي. فصور الله كشجرة أو كإنسان كانت صوراً تخيلية لحقيقة تحدث الصياغة العقلانية. لم يكن القباليون عدائين حيال الفلسفة، معظمهم كان يحترم معلمي، جاد، وميمون بن موسى، لكنهم وجدوا أن الرمزية والميثولوجيا غرضية من أجل النفاذ إلى سر الله أكثر من المتافيزيقا.

الكتاب القبالي الأهم هو كتاب /الزهار/ ١٢٧٥ (أي كتاب النور)، ربما كتبه المتصوف الاسباني موسى الليوني Moses of leon. عندما كان شاباً شعر بهجاذية تشده تدريجياً إلى الصوفية وتراث القبالة السري. هذا الكتاب هو نوع من الرواية الصوفية التي تصور التلمودي سميون بن يوهاي - في القرن الثالث - متجولاً في أرجاء فلسطين مع ابنه اليعازار، ومتحدداً إلى تلاميذه عن الله، والطبيعة والحياة البشرية. فهي خالية من بناء واضح وليس فيها تطور منهجي في الموضوع أو الأفكار فمقاربة من هذا النوع ستكون غريبة عن روح الزهار الذي رفض إلهه أي منهج فكري أتى. اعتقد موسى الليوني - كما اعتقد ابن العربي - أن الله يعطي كل متصوف كشفاً شخصياً فريداً، وبالتالي لاحدود للطريقة التي بالإمكان تفسير التوراة بها. فكلما يتقدم القبالي تتكشف له مرتبة فوق مرتبة في المعنى. أوضح الزهار الفيض الغامض للأسماء العشرة كعملية يصبح بها الإله المستتر شخصاً. في المراحل الثلاث العليا - عندما يوشك الله المستتر أن يكشف عن ذاته - تدعى الحقيقة الإلهية



شجرة السفروت

هو (the)، وعندما ينزل عبر «المفروت» الوسط - هسيد، دن، تيفرث، نشة، هود ويوز - فإن «هو» يصبح «أنت». وفي نهاية المطاف أي عندما يصبح الله حاضراً في الملكوت فإن «هو» نفسه يسمى ذاته «أنا». ففي هذه النقطة كما لو أن الله قد أصبح فرداً، وتعبيره عن ذاته تماماً، يستطيع الإنسان أن يبدأ رحلته الصوفية. فما أن يحرز المتصوف فهماً لأعماق ذاته حتى يصبح مدركاً لحضور الله داخله، بعدئذ يستطيع أن يصعد إلى العوالم العليا اللاشخصية متجاوزاً حدود الشخصية والأنانية. إنها عودة إلى مصدر وجودنا الذي لاسبيل إلى تخيله، وإلى عالم الحقيقة غير المخلوقة الخفية. من هذا المنظور فإن عالمنا من الانطباع الحسي هو الدرع الأخير الأبعد للحقيقة الإلهية.

في القباله - كما في الصوفية - فإن قصة الخلق ليست مهمة بأصول الكون المادية. فالزهار يرى سفر التكوين كعرض لرواية رمزية لكارثة حدثت داخل الله المستتر، والتي جعلت الرب يخرج عن استبطانه الذي لايسر غوره، ويكشف عن ذاته: فكما يقول الزهار:

في البداية عندما بدأت إرادة الملك تصبح نافذة، نقش إشارات في الهالة الإلهية. ابقى لهب أسود من أعماق معتزل Ensof، مثل ضبابه تشكلت من اللاشكل، وأحاطت حلقة بهذه الهالة، لايمضاء ولا سوداء، لاهمراء ولاخضراء، ولا لون لها^(٥٥).

فكما ورد في سفر التكوين أول كلمة لفظها الله هي «فليكن هناك نور»، وفي شرح الزهار لسفر التكوين ورد: «نادى الله بيهوشيت Bereshit العبرية بعد كلمته الافتتاحية: هذا الله الهب القائم هو العرش العظيم دون شكل ودون لون. يفضل قباليون آخرون أن يطلقوا عليه كلمة لا شيء Nothing. فالشكل الأعلى للألوهة الذي يستطيع العقل البشري تصوره مساوٍ للشيئية Nothingness لأنه ليس له مثل من الأشياء في الوجود. وبالتالي تنطبق جميع العوالم الأخرى من رحم اللاشيئية. هذا تفسير صوفي للاعتقاد التراثي بالخلق من لا شيء. تستمر عملية تعبير الرب عن ذاته بينما يتعد النور الذي ينتشر في عوالم أكثر اتساعاً يتابع الزهار:

لكن عندما بدأ هذا الله الهب يأخذ حجماً واتساعاً، فإنه وُلدَ الوائء مشعة. لأنه ابقى يتر في أعماق المركز تدفقت منه السنة النيران على كل شيء أدنى منه مغيباً في أسرار الله المستتر الغامضة. انفجر البئر، ومع ذلك لم ينفجر مولدُ الهالة الأبدية التي أحاطت به. لقد كانت مدركة بالكامل

حتى تحت تأثير انفجاره سطعت نقطة سماوية خفية. لا يمكن معرفة أو فهم أي شيء خلف هذه النقطة التي تُسمى بيروثيت، البداية كلمة الخلق الأولى^(٥٦).

هذه النقطة هي الحكمة، الاسم الثاني الذي يحتوي على الشكل المثالي لجميع الأشياء المخلوقة. تتطور النقطة إلى قصر أو بناء يصبح (Binah: Intellegence العقل) الاسم الثالث. تمثل هذه العوالم العليا حدود الفهم البشري، يقول القبايليون إن الله يوجد في Binah «كمن Who» العظيم، هذه الكلمة التي تنصدر كل سؤال. لكن الحصول على إجابة ليس أمراً ممكناً فعلى الرغم من أن الإله المستتر يعدّل ذاته تدريجياً بما يتوافق مع الحدود البشرية لذلك لا سبيل لدينا لمعرفة من هو «who» : كلما صعدنا إلى أعلى كلما يبقى مغلفاً بالظلمة والسرية.

يقال أن «السفروتات» السبعة تماثل أيام الخلق السبعة الواردة في قصة الخلق في سفر التكوين. لقد تمكن يهوى من الانتصار على إلهات كنعان القديمة وعلى عباداتها الجنسية أثناء الفترة التوراتية. لكن بينما كان القبايليون يجاهدون كي يعبروا عن سر الله كانت الميثولوجيا القديمة تؤكد نفسها من جديد بشكل مُقْتَنِع. يصف الزهار أن Binah هو الأم الكبرى التي اخترق اللهب القاتم رحمها كي يعطي ولادة السفروتات السبعة الأدنى. فالسفروت التاسع يوحى بتأمل القضيب phallic، صور كفناة تندفق خلالها الحياة الإلهية في الكون في عمل إنجاب صوفي. وفي السفروت العاشر تظهر الرمزية الجنسية القديمة للخلق وأصل الآلهة بوضوح شديد. كان الملكوت في التلمود شخصية حيادية دون جنس ونوع. بينما يصبح الملكوت في القبالة ذا مظهر أنثوي لله. لقد عرّف كتاب البهير Bahir/١٢٠م أحد أقدم نصوص القبالة عرّف الملكوت بالشخصية الغنوصية صوفياً، الفيض الأخير من الفيوضات الإلهية التي هبطت من السماء والآن هائمة ومغرّبة عن الرب في العالم. يربط الزهار هذا النفي للملكوت بهبوط آدم كي تروي القصة في سفر التكوين. تقول القصة أن آدم سمح له برؤية السفروت الأوسط في شجرة الحياة والملكوت في شجرة المعرفة بدلاً من عبادة السفروتات السبعة سوياً اختار تجنب الملكوت وحده، فاصلاً الحياة عن المعرفة ومزقاً وحدة السفروت. فلم يعد في وسع الحياة الإلهية أن تندفق دون انقطاع في هذا العالم الذي عُزِلَ عن مصدره الإلهي. فمن طريق الالتزام بالتوراة يستطيع شعب إسرائيل معالجة منفي الشكثة وتوحيد العالم بالرب من جديد. ليس مستغرباً إذا وجد العديد من التلموديين المترمتين هذه الفكرة مقبّعة، لكن نفي الملكوت الذي كان يعكس صدى الأساطير القديمة لإلهات همن بعيداً عن العالم الإلهي أصبح

واحداً من أكثر العناصر شعبية في القبالة. فالملوكوت الأتقي جلبت بعض التوازن الجنسي إلى فكرة الله التي كانت إلى جانب الذكر، وقد لبّت حاجة دينية هامة بكل وضوح.

كانت فكرة النقي الإلهي موجهة أيضاً إلى الإحساس بالانفصال الذي هو سبب معظم القلق الإنساني. يعرف الزهار الشر كشيء قد أصبح منفصلاً، أو شيء دخل في علاقة لم يكن مناسباً لها. فإحدى المشكلات في الوحدانية الأخلاقية هي أنها تعزل الشر. لأننا لانستطيع قبول فكرة وجود الشر في إلها. فهناك خطر من أننا لن نكون قادرين على احتماله داخل أنفسنا، وبالتالي يتم استبعاده بعدئذ ليصبح غولياً ولا إنسانياً. كانت صورة الشيطان المرعبة في المسيحية الغربية إسقاطاً مشوهاً. في محاكمة (دين) أو شترين Din or Stern Judgement من السفروت الخامس، يجد الزهار أن جذر الشر موجود في الله ذاته. صُورَ (دين) على أنه يد الله اليسرى، والرحمة على أنها يده اليمنى. فطلما أن (دين) يعمل بانسجام مع الرحمة الإلهية فإنه إيجابي ومفيد، لكن إذا انفلت (دين) وأصبح منفصلاً عن الرحمة فإنه يصبح شراً ومدمراً. لا يخبرنا الزهار كيف حدث هذا الانفصال. وسوف نرى أن القباليين المتأخرين فكروا في مشكلة الشر التي رأوها نتيجة لحادث بدئي وقع في المراحل المبكرة جداً من كشف الله لذاته. فإذا ماتم فهم القبالة بشكل حرفي فإن معناها يتدنّى، لكن أساطيرها أثبتت أنها مُرضية سيكولوجياً. حين حلت الكارثة وللأساة بيهود اسبانيا خلال القرن الخامس عشر كان إله القبالة هو الذي ساعدهم على جعل معاناتهم ذات معنى.

نستطيع أن نرى حلة سيكولوجية في القبالة في مؤلفات المتصوف الإسباني أبراهام أبو العافية Abraham Abulafia (١٢٤٠ - ١٢٩١) الذي كتب معظم مؤلفاته في الوقت الذي كتب فيه الزهار. لكن أبا العافية ركز على الطريقة العملية لبلوغ الإحساس بالله أكثر من تركيزه على طبيعة الله ذاته. فهذه الأساليب ماثلة لتلك التي يستخدمها المحللون النفسيون اليوم في بحثهم الديني عن الاستارة فكما أراد الصوفيون معرفة الله مثلما عرفه محمد زعم أبو العافية أنه وجد طريقة لبلوغ الإلهام النبوي فأنشأ شكلاً يهودياً لليوغا مستخدماً تدريبات عادية من التركيز والتنفس، وترديد ترانيم، وتبني وضع جسدي خاص لبلوغ حالة وعي بديلة. كان أبو العافية قبالياً غير عادي، واسع المعرفة، درس التوراة والتلمود والفلسفة قبل تحوله إلى الصوفية بتجربة دينية غامرة في سن الواحدة والثلاثين فكما يبدو كان يعتقد أنه المسيح المنتظر لليهود والمسيحيين أيضاً. ارتحل كثيراً في إسبانيا كلها جامعاً مريدين له، وغامر حتى الشرق الأدنى. وفي عام ١٢٨٠ زار البابا على أنه

مبعوث يهودي. وعلى الرغم من انتقاده للمسيحية جهاراً إلا أنه كان يستحسن التشابه بين الإله القبالي ولاهوت الثالوث. فالسفرورات الثلاث العليا هي بقايا اللوغوس والروح، العقل وحكمة الله الذي انطلق من الآب، اللاشيئي فقد نوره الذي لاسبيل إلى بلوغه. وكان يجب أن يتكلم عن الله بطريقة تثليثية.

كي نجد هذا الله من الضروري «أن نطلق العنان للروح، وأن نفك العقد التي تقيدها»، وعبرة فك العقد موجودة أيضاً في البوذية التبتية وهذا دليل آخر على التوافق الأساسي للمتصوفين في أرجاء العالم. بالإمكان مقارنة هذه العملية بمحاولة تحليل نفسانية لإطلاق العقد التي تعوق صحة المريض العقلية. كقبالي كان أبو العافية أكثر اهتماماً بالقدرة الإلهية التي تحمي الخليقة كلها والتي لا يمكن أن تفهمها الروح. فطلما نخل عقولنا بأفكار مبنية على إدراك حسي من الصعب علينا أن نميز عنصر الحياة المتعالي. فمن طريق تدريبات اليوغا علم مريدبه الماضي إلى أبعد من الوعي العادي، لاكتشاف عالم جديد بأكمله. كانت إحدى طرقه «دمج الأحرف» الذي أخذ شكل تفكير باسم الله. كان على القبالي أن يدمج الأحرف المكونة لاسم الله في أشكال مختلفة بأسلوب يعدد العقل عن المادي إلى طريقة فهم أكثر تجريداً. فنتائج هذا التدريب الذي يبدو غير واعد للإنسان دخیل كانت ممتازة لأفراده. وقد قارنه أبو العافية بالاحساس عند الاستماع إلى التناغم الموسيقي، فأحرف الأبجدية تحمل محل النوتات في السلم الموسيقي واستخدم أيضاً طريقة لربط الأفكار أسماها القفز والانزلاق، وهي مماثلة للممارسة التحليلية الحديثة التي تدعى التداخي الحر، ويقال أن هذه الطريقة قد حققت نتائج مذهلة، وقد شرح أبو العافية ذلك: إنها تجلب إلى النور عمليات عقلية كامنة، وأنها حررت القبالي «من سجن الأجواء الطبيعية، وقادته إلى حدود العالم الإلهي»^(٥٧). بهذه الطريقة يتم فتح أقفال الروح، فيكتشف المدخل مصادر قدرة نفسية كانت تنير عقله وتخرج ألم قلبه.

لقد شدد أبو العافية على أن الرحلة الصوفية في العقل لا يمكن القيام بها إلا بإشراف معلم من القبالة تماماً مثلما يحتاج فيها مريض إلى التحليل النفسي وإشراف مُعالِج. كان مدركاً تماماً للأخطار، وقد عانى شخصياً من تجربة دينية مدمرة في شبابه كادت أن تودي به إلى اليأس. في يومنا هذا يُنخَلُ المرضى إلى داخل شخص المحلل النفسي المعالج كي يوائموا القوة والصحة التي يمثلها المحلل. وقد كتب أبو العافية أن القبالي في أغلب الأحيان «يرى ويسمع شخص مرشده الروحي الذي يصبح المحرك من الداخل، الذي يفتح الأبواب المغلقة داخل المريض». إنه يشعر بدفق طاقة جديد وتحول داخلي غامر جداً لدرجة أنه يبدو

صادراً عن مصدر إلهي. قدم أحد مريدي أبا العافية تفسيراً آخر للنشوة: أن المتصوف يصبح مسيحه المنتظر. في نشوة يواجه برؤيا ذاته المتحررة والمستترة:

اعلم أن روح النبوة بأكملها تتشكل بالنسبة للنبي
في أنه يرى فجأة شكل ذاته واقعاً أمامه وهو ناسٍ نفسه
وذاته متحررة منه.. وقد قال معلوماً عن هذا السر في التلمود: عظيمة
هي قوة الأنبياء الذين يقارنون بين الشكل الذي منه Him الذي شكله.
(أي يقارنون الله بالبشر) (٥٨)

تردد المتصوفون اليهود دائماً حيال زعم الاتحاد مع الله. فقال أبو العافية ومريده أنه عن طريق الاتحاد مع مرشد روحي، أو بلوغ تحرر شخصي فإن القبالي يكون قد لامسه الله بشكل غير مباشر. هناك أوجه اختلاف واضحة بين الصوفية القروسطية والعلاج النفسي الحديث، لكن كلاهما قد أرسيا أساليب مماثلة من أجل الأشفاء والتكامل الشخصي.

كان المسيحيون في الغرب متباطئين في تطوير تراث صوفي، فقد سقطوا خلف الموحدين في الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا مستعدين لهذا التطور الجديد. خلال القرن الرابع عشر حدث انفجار حقيقي للدين الصوفي، خاصة في أوروبا الشمالية. لقد قدمت ألمانيا تحديداً - سرناً من المتصوفين هاينريش إيكهارت (١٢٥٦ - ١٣٢٧)، جون تاوولر (١٣٠٠ - ١٣٦١) وغير تروود العظيم (١٢٥٩ - ١٣٠٢) وهنري سوزو (١٢٩٥ - ١٣٠٦). وقدمت إنجلترا مساهمة هامة من خلال أربعة متصوفين عظام جذبوا إليهم أتباعاً بسرعة سواء في القارة الأوروبية وفي بلادهم أيضاً مثل ريتشارد رول من هامبول (١٢٩٠ - ١٣٤٩)، والمؤلف المجهول لكتاب /غيمة المجهول/، وولتر هيلتون (d - ١٣٤٦)، وديم جوليان (١٣٤٢ - ١٤١٦)، وكان بعضهم أكثر تقدماً من الآخرين فريتشارد رول على سبيل المثال يبدو أنه حصر اهتمامه في تنمية إلهامات غريبة، وكانت روحانيته تنقسم أحياناً بدرجة ما من الأنانية. لكن النظام من بين هؤلاء فقد اكتشفوا بأنفسهم رؤى عديدة كان قد أنجزها اليونانيون والمتصوفون والقباليون.

كان المايستر إيكهارت الذي أثر على تاوولر وسوزو متأثراً بدينس الأروباغيتي وميمون موسى، وكان راهباً دمينيكانياً مثقفاً لامعاً ومحاضراً في فلسفة أرسطو في جامعة باريس. وفي عام ١٣٢٥ قادته تعاليمه الصوفية إلى نزاع مع أسقفه كوكولون الذي حاكمه بتهمة الهرطقة: فاتهم بإنكار خيرية الله، لقوله أن الله ذاته ولد في الرحم، ولأنه بشر بأزلية العالم. وقال أحد منتقديه المتشددين أن: الخطأ يكمن في تفسير بعض ملاحظاته حرفياً بدلاً من تفسيرها رمزياً كما أريد لها. كان إيكهارت شاعراً يستمتع كثيراً بالتناقض

والاستعارة. فبينما كان يعتقد أن الإيمان بالله أمر عقلاني كان ينكر فكرة أن العقل وحده يستطيع أن يشكل مفهوماً كافياً عن الطبيعة الإلهية: فهو يجادل «البيات شيء معروف يتم إما بالحواس أو بالفكر». لكن «فيما يتعلق بمعرفة الله لا يمكن الحصول على إيضاح من الفهم الحسي لأنه روحي، ولأن الفكر لأن الله يفتقر إلى أي شكل معروف لنا»^(٥٩). لم يكن الله وجوداً آخر يمكن إثبات وجوده مثل أية مادة فكرية عادية.

أعلن إيكهارت أن الله كان لاشيء^(٦٠). وهذا لا يعني أنه وهم، بل يعني أن الله كان نوعاً من وجود أكثر كمالات وغنى مما هو معروف لنا. لقد سمي الله أيضاً «الظلام» لا كي يشير إلى غياب النور بل ليدل على حضور شيء ما أكثر ضياءً. ميز إيكهارت كذلك بين «الرب» الذي يجب وصفه بكلمات سلبية مثل «صحراء» «برية» «ظلام»، «لا شيء»، والله المعروف لدينا باسم الآب والابن والروح^(٦١)، كان إيكهارت يحب استخدام تشبيهه أوغسطين للثالوث في العقل البشري، وكان يعني بذلك أنه على الرغم أن من المحال معرفة الثالوث بالعقل، فإن الفكر وحده كان يفهم الله كشخص ثلاثة: وحالما يبلغ المتصوف الاتحاد بالله، يراها واحداً. لم يوافق اليونانيون على هذه الفكرة، لكن إيكهارت وافقهم على أن الثالوث كان أساساً معتقداً صوفياً. أراد أن يتحدث عن الآب يؤكد الابن في الروح مثلما حملت مريم المسيح في رحمها. وقد رأى رومي Rumi أن ولادة العذراء للنبى يسوع هي رمز لولادة الروح في قلب المتصوف. وشدد إيكهارت على أن ذلك كان تعاوناً بين الروح والله.

بالإمكان معرفة الله من خلال تجربة صوفية فقط، وأن من الأفضل أن نتحدث عنه بكلمات سلبية كما اقترح ميمون. كان علينا أن ننقي مفهومنا لله، بالتخلص من مفاهيمنا المسبقة المسخفة ومن الصورة التجسيدية ويجب تجنب استخدام كلمة الله. وهذا ما عناه عندما قال: «آخر وأسمى فراق هو عندما يطلب إذنًا من الله»^(٦٢). فستكون عملية مؤلمة. فيما أن الله لاشيء، علينا أن نكون مستعدين كي نصبح لاشيء كي نصبح معه واحداً. تحدث إيكهارت عن عملية مماثلة للفناء التي وصفها المتصوفون، فوصفها بالانفصال^(٦٣). فكما يعتبر المسلم أن تجيل أي شيء عدا الله صنمية أو شركاً، نادى إيكهارت أن على المتصوف ألا يكون عبداً لأية أفكار نهائية حول الله. وهكذا فإنه سيلبغ «التماهي مع الله حين يصبح وجود الله وجودي وكيونته كينونتي»^(٦٤). وبما أن الله أساس الوجود فليس هناك حاجة كي نبحث عنه «هناك» أو نتصور صعوداً إلى شيء ما خارج العالم الذي عرفناه.

لقد عادى الحلاج العلماء بصيحه «أنا الحق»، وكذلك صدمت معتقدات إيكهارت الصوفية أساقفة ألمانيا: فما معنى أن تقول أن باستطاعة أي امرئ أن يصبح واحداً مع الله؟ لقد ناقش اللاهوتيون اليونانيون هذه المسألة مطولاً في القرن الرابع عشر. فبما أنه لا سبيل إلى فهم الله فكيف كان ممكناً أن يعبر عن ذاته للبشر؟ وإذا كان هناك فارقاً بين جوهر الله وقدراته - كما قال الآباء - فمقارنة الله الذي يقابله المسيحي في الصلاة مع الله ذاته كان تجديفاً بكل تأكيد؟ لقد قال غريغوري بالاماس رئيس أساقفة سالونيك أن باستطاعة المسيحي أن يحظى بمعرفة مباشرة لله ذاته مهما بدا ذلك متناقضاً. صحيح أن جوهر الله هو دائماً خارج مدى فهمنا لكن قدراته لم تكن تتميز عن الله، ويجب ألا تعتبر مجرد بقية وهج لله. فالتصوف اليهودي كان على استعداد أن يوافق على أن الله المستتر يبقى دائماً مغلفاً بالظلام، لا يمكن النفاذ إليه، لكن السفروثات (التي تقابل القدرات عند اليونانيين) كانت إلهية تناسب من قلب الرب إلى الأبد. ويستطيع البشر أحياناً رؤية أو معرفة هذه القدرات مباشرة كما يقول الكتاب المقدس أن نور الله قد ظهر. لم ير شخص قط جوهر الله لكن ذلك لا يعني أن معرفة مباشرة لله كانت مستحيلة. وبما أن هذا التأكيد كان متناقضاً فإنه لم يضايق بالاماس على الأقل. لقد اتفق اليونانيون منذ أمد طويل على أن أي قول عن الله يجب أن يكون تقاضياً، وبهذه الطريقة فقد يستطيع الناس الاحتفاظ بإحساس بسرهم وعدم إمكانية وصفه. يصوغ بالاماس الأمر كما يلي:

نصل إلى مشاركة في الطبيعة الإلهية، ومع ذلك تبقى عصية على الفهم.
فنحن بحاجة إلى تأكيد كليهما في الوقت ذاته، وأن نصور التفاضل
كقاعدة للمعتقد الصحيح^(٢٥).

لم يكن في معتقد بالاماس شيء جديد، فقد لخصه سميون (سمعان) اللاهوتي الجديد في القرن الحادي عشر. لكن بارلام كالابريان دحض بالاماس. درس بارلام في إيطاليا وكان متأثراً جداً بالنزعة العقلانية الأرسطية عند توما الإكويني. لقد عارض الفارق اليوناني التقليدي بين (جوهر) الله و (قدراته)، متهماً بالاماس بشق الله إلى جزأين منفصلين. فقد اقترح بارلام تعريفاً لله يعود إلى قدامى العقلايين اليونان وأكد على بساطته المطلقة. وقال إن الفلاسفة اليونانيين من أمثال أرسطو قد تلقوا الاستشارة من الله، وعلم أن لا سبيل إلى معرفة الله، وأنه بعيد عن العالم وبالتالي كان مستحيلاً أن يرى البشر الله. برسمهم أن يشعروا بتأثيره بشكل غير مباشر في الكتاب المقدس أو في أعاجيب الخلق. أذن مجلس الكنيسة الأرثوذكسية بارلام في عام ١٣٤١، لكنه تلقى دعماً من رهبان آخرين كانوا متأثرين أيضاً بالإكويني. أصبح هذا الموضوع نزاعاً بين إله المتصوفين وإله

الفلاسفة. وبذلك تم تغريب بارلام ومؤيديه من أمثال غريغوري اكنيديوس، ونيسافوراس غريغورس، وتوماس بروشوز سيدونيس عن لاهوت بيزنطة، الذي شدد على الصمت والغموض والنقائص. فضل هؤلاء لاهوت أوروبا الغربية الأكثر إيجابية الذي عرّف الله كوجود أكثر منه لاشيء. ومقابل الإله الغامض عند دنيس وسيمون وبالاماس رسموا إلهاً بالإمكان التحدث عنه. لم يثق اليونانيون دائماً بهذه النزعة في الفكر الغربي، وفي وجه تسلسل الأفكار العقلانية اللاتينية أعاد بالاماس التأكيد على لاهوت النقائص في الأرثوذكسية الشرقية. يجب عدم تخفيض الله إلى مفهوم يمكن التعبير عنه بكلمة بشرية. وافق بارلام على أنه لا سبيل إلى معرفة الله لكن أصر على أن البشر قد عرفوه. فالنور الذي حوّل بشرية يسوع على قمة جبل تابور لم يكن جوهر الله الذي لم يره إنسان بل كان الله نفسه بطريقة غامضة. ان الطقوس المقدس الذي - وفقاً للاهوت اليوناني - حفظ الرأي الأرثوذكسي، أعلن أنه على جبل تابور: (رأينا الأب كنور، والروح كنور). لقد كان كشفاً فلما كنا عليه ذات يوم، وماسكون عليه عندما نصبح إلهيين مثل المسيح^(٦٦). فما رأيناه عندما تأملنا الله في هذه الحياة لم يكن بدلاً عن الله بشكل ما، بل الله ذاته. كان هذا تناقضاً بالطبع لكن الله المسيحي كان نقيضاً وصمتاً، مثل الوضع الصحيح الوحيد قبل السر الذي أسميناه الله وليس hubris فلسفية كانت تحاول ترسيخ الصعاب.

لقد حاول بارلام أن يجعل مفهوم الله متسقاً أيضاً، فمن وجهة نظره كان ينبغي إما أن يُعرف الله بجوهر أو لا يعرف حاول أن يقصر الله على جوهره، وأن يقول أن من المحال أن يكون الله حاضراً خارج ذاته في قدراته. لكن ذلك يعني أن تفكر بالله كأني ظاهرة أخرى، تقوم على مفاهيم بشرية محضة فيما يتعلق بالممكن واللا يمكن. أصر بالاماس أن رؤية الله كانت نشوة تسام متبادلة عن طريق المضي خارج ذاته كي يجعل نفسه معروفاً لمخلوقاته: «الله أيضاً يخرج من ذاته ويصبح متحداً مع عقولنا من خلال تعلقه بنا»^(٦٧). ان انتصار بالاماس - الذي بقي لاهوته معياراً في المسيحية الأرثوذكسية - على العقلانيين اليونانيين في القرن الرابع عشر يمثل انتصاراً أكبر للصوفية في الأديان التوحيدية الثلاثة. فمنذ القرن الحادي عشر توصل الفلاسفة المسلمون إلى نتيجة مفادها أن العقل الذي لا يمكننا الاستغناء عنه في دراسات الطب والعلم غير كاف عندما ندرس موضوع الله. فالاعتماد على العقل وحده كان مثل محاولة أكل الحساء بالشوكة.

لقد اكتسب إله المتصوفين سطوة على إله الفلاسفة في معظم أرجاء الإمبراطورية الإسلامية وسنرى - في الفصل التالي. أن إله القبالة أصبح مهيمناً في الروحانية اليهودية

خلال القرن السادس عشر. كانت الصوفية قادرة على النفاذ إلى العقل بعمق أكبر مما كانت عليه أنماط الدين الفقهية أو العقلية. كان يوسع إله الصوفية التوجه إلى آمال أولية، ومخاوف وقلق، وبالتالي أصبح إله الفلاسفة للتمالي واهناً. بحلول القرن الرابع عشر كان الغرب قد أطلق دينه الصوفي وقام بانطلاقة واعدة جداً لكن الصوفية لم تكن واسعة الانتشار كانتشارها في التراثات الأخرى. فأنجلترا وألمانيا والأراضي المنخفضة قدمت متصوفين بارزين، لكن المصلحين البروتستانت في القرن السادس عشر شجبوا هذه الروحانية غير المنسجمة مع الكتاب المقدس. وكان متصوفون بارزون تابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية مثل القديسة تيريزا، وأفيلا Avilla مهادين بمحاكم التفتيش المناهضة لحركة الإصلاح، وهكذا بدأت أوروبا ترى الله في كلمات أكثر عقلانية، كنتيجة لتأثير حركة الإصلاح.

الفصل الثامن

إله المصلحين

كان القرنان الخامس والسادس عشر حاسمين بالنسبة لخلق الله من البشر، وكانت فترة عصيبة للغرب المسيحي تحديداً. لم ينجح هذا الغرب في اللحاق بالحضارات الأخرى وحسب بل كان على وشك أن يباغتتها. وشهد هذان القرنان النهضة الإيطالية التي امتدت إلى أوروبا الشمالية بسرعة، واكتشاف العالم الجديد وبداية الثورة العلمية التي سيكون لها آثار مدمرة على بقية العالم. بحلول نهاية القرن السادس عشر كان الغرب على وشك خلق نوع ثقافي مختلف كلياً. ولذلك اتسمت هذه الفترة الانتقالية بالإنجازات والقلق، وانضج ذلك في تطور المفهوم الغربي لله في هذه الفترة. فعلى الرغم من النجاح المادي كان اهتمام الناس في أوروبا يتزايد فيما يتعلق بدينهم أكثر من ذي قبل. لم يكن عامة الناس خصوصاً راضين عن أشكال الدين القروسطية، لأنها لم تعد تلبي احتياجاتهم في العالم الجديد الشجاع. فقد عبر مصلحون عظام عن هذا القلق، واكتشفوا سبلاً جديدة لتناول موضوعي الله والخلاص، فآدى ذلك إلى شق أوروبا إلى معسكرين متحاربين هما الكاثوليك والبروتستانت، وتأصلت بينهما الكراهية وعدم الثقة. كان المصلحون - الكاثوليك والبروتستانت، يحرضون المؤمنين على تحرير أنفسهم من الطاعة العمياء للقديسين والملائكة، وأن يركزوا على الله وحده. في حقيقة الأمر بدت أوروبا ممسوسة بالله. وبحلول بداية القرن السابع عشر كان البعض يهيم بخيالاته حول الإلحاد. فهل كان هذا يعني أنهم كانوا على استعداد للتخلي عن الله؟

كانت هذه الفترة كارثة على اليونانيين واليهود والمسلمين أيضاً. ففي عام ١٤٥٣ فتح الأتراك العثمانيون العاصمة المسيحية القسطنطينية، ودمروا إمبراطورية بيزنطة، واستمر

المسيحيون الروس في السير على خطا التراث الروحية التي طورها اليونانيون. وفتح
فرديناند وإزابيلا غرناطة المعقل الإسلامي الأخير في أوروبا في عام ١٤٩٢ ، أي في السنة
التي اكتشف فيها كولومبس العالم الجديد. وبعد فترة طرد المسلمون من شبه جزيرة إيسيريا
بعد أن كانت موطناً لهم طيلة /٨٠٠/ سنة. كان تدمير إسبانيا المسلمة قاتلاً لليهود. فني
أذار عام ١٤٩٢ أي بعد أسابيع قليلة من سقوط غرناطة تحوّل الملوك المسيحيون اليهود
الإسبان بين التعميد أو الطرد، فكان الكثيرون منهم مرتبطين بوطنهم فأصبحوا مسيحيين،
على أن بعضهم استمر في ممارسة شعائر دينه سرّاً مثلهم في ذلك مثل المورسيكيين المسلمين
الذين تحولوا إلى المسيحية. وكانت محاكم التفتيش بالمرصاد لليهود الذين تحولوا إلى
المسيحية بدعوى الهرطقة. رفض نحو /١٥٠,٠٠٠/ يهودي التعميد فأُجلبوا عنوة عن
إسبانيا، فالتجّروا إلى تركيا ودول البلقان وشمال إفريقيا. كانت إسبانيا أفضل وطن لليهود
في أرجاء العالم منذ الشتات الأول، ولذلك ندبوا لإنهاء الوجود اليهودي على أنه أكبر
كارثة حلت بشعبهم منذ تدمير الهيكل في عام ٧٠ ق.م، ودخلت تجربة النفي بمحق أكبر
في الوعي الديني اليهودي أكثر من ذي قبل. فأدت إلى شكل جديد من القبالة، وإلى نشوء
مفهوم جديد لله.

كانت هذه السنوات عصيبة على المسلمين أيضاً في أنحاء أخرى من العالم. ربما
أدت السنوات التي تلت الغزوات المغولية إلى نزعة محافظة جديدة لأن الناس حاولوا
استرداد ماضٍ منهم. ففي القرن الخامس عشر أعلن علماء مدارس الدراسات الإسلامية
«أن أبواب الاجتهاد قد أُقفلت». ومن تلك الفترة فصاعداً كان على المسلمين تقليد أعلام
الماضي العظام، خاصة في دراسة الشريعة، فكان من غير المرجح ظهور أفكار جديدة حول
الله في هذا المناخ المحافظ أو في أي مجال آخر. مع ذلك من الخطأ أن نعتبر هذه الفترة
بداية انحطاط في الإسلام كما اقترح الأوروبيون غالباً. فكما يشير المارشال ج. - س.
هودغسون G.S.hodgson في كتابه/ مغامرة الإسلام، الوجدان والتاريخ في حضارة
عالمية/ إننا بكل بساطة لانعرف ما يكفي عن هذه الفترة كي نصدر تعميمات جائرة. فمن
الخطأ على سبيل المثال - أن نفترض وجود تراجع في العلم الإسلامي في تلك الفترة لأنه
ليس لدينا دليل كافٍ بشكل أو بآخر.

كانت هذه النزعة المحافظة طافية على السطح خلال القرن الرابع عشر في أبطال
الشريعة مثل أحمد بن تيمية الدمشقي (d - ١٣٢٧) وتلميذه ابن القيم الجوزية. فابن تيمية
الذي كان يحبه الناس حباً جماً أراد أن يوسع الشريعة بحيث يجعلها تنطبق على جميع

الظروف التي قد يواجهها المسلمون. فلم يكن المقصود أن تصبح قانوناً قمعياً، بل كان يريد أن يطرح القواعد القديمة جانباً كي يجعل الشريعة أكثر التصاقاً بحياة المسلمين ولتهدئة قلقهم خلال هذه الفترات العصيبة: ينبغي أن تقدم لهم الشريعة إجابات منطقية واضحة على مشكلاتهم الدينية العملية. وفي حماسه للشريعة هاجم علم الكلام والفلسفة والأشعرية. لقد أراد العودة إلى المصادر أي إلى القرآن والحديث اللذين تقوم عليهما الشريعة - شأنه في ذلك شأن كل مصلح - وأن يستبعد كل الزوائد اللاحقة: «لقد تحرمت كل الطرق الفلسفية واللاهوتية فوجدتها غير قادرة على علاج أية مساوئ أو إرواء أي ظمأ، أفضل طريقة مفضلة لدي هي القرآن»^(١). وأضاف ابن الجوزي الصوفية إلى تلك اللائحة مدافعاً عن التفسير الحرفي للقرآن، وأدان عقيدة المتصوفين التي كانت مماثلة تماماً للمصلحين البروتستانت في أوروبا. ابن تيمية وابن الجوزية مثلها مثل لولر وكالفن لم يعتبرهما معاصروهما سلفيين بل تقدميين أرادا تخفيف العبء عن شعبيهما. وبحزننا هو دغسون من استبعاد ما يدعى بالنزعة المحافظة في هذه الفترة على أنها «ركوده»، فيشير إلى أن مامن مجتمع قبل مجتمعا كان قادراً على التقدم أو تصوره بنفس المجال الذي نشهده اليوم^(٢). فقد عنف الدارسون الغربيون مسلمي القرنين الخامس عشر السادس عشر على إخفاقتهم في أخذ النهضة الإيطالية باعتبارهم. صحيح أن النهضة كانت واحدة من التفاتات الثقافة العظيمة في التاريخ لكنها لم تتجاوز أو تختلف كثيراً عن سلالة سونغ Sung في الصين التي كانت مصدر إلهام للمسلمين خلال القرن الثاني عشر. كانت النهضة حاسمة في الغرب لكن لم يكن باستطاعة أحد أن يتنبأ ولادة العصر التقني الحديث الذي نستطيع أن نرى بنظر أعشى أنها كانت تؤذن به. فإذا كان المسلمون يبدون عن النهضة الغربية، فإن هذا لا يكشف بالضرورة عن عدم كفاءة ثقافية لاسبيل إلى إصلاحها. ليس مستغرباً إذا كان المسلمون أكثر اهتماماً بأمورهم أكثر من اهتمامهم بالإصلاحات خلال القرن الخامس عشر.

كان الإسلام مازال أكبر قوة عالمية خلال هذه الفترة، وكان الغرب آنذاك مدركاً أنها تقف على عتبة أوروبا. لقد تأسست ثلاث إمبراطوريات مسلمة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر: الأتراك العثمانيون في آسيا الصغرى وأوروبا الشرقية، والصوفيون في إيران، والمغول في الهند. تبين هذه المغامرات الجديدة أن الروح الإسلامية كانت بعيدة عن الاحتضار، بل كان بوسعها تزويد المسلمين بالإلهام كي ينهضوا ثانية ليحققوا نجاحاً بعد كارثة وانحطاط. لقد حققت كل من هذه الإمبراطوريات انفتاحاً ثقافياً بارزاً خاصاً بها: كانت النهضة الصوفية في إيران وآسيا الوسطى مماثلة للنهضة الإيطالية: كلاهما عبرتا عن

نفسيهما في الرسم، وبدأت أنهما تعودان بشكل إبداعي إلى الجذور الوثنية لثقافتهما. كانت النزعة المحافظة مسيطرة على الرغم من سلطة هذه الإمبراطوريات الثلاث وأبهتها. فبينما كان المتصوفون والفلاسفة الأوائل مثل الفارابي وابن سينا مدركين أنهم كانوا يحثون أرضاً جديدة، إلا أن هذه الفترة شهدت تكراراً حاداً ودقيقاً لموضوعات قديمة. يجعل هذا تقدير الغربيين أكثر صعوبة لأن علماءنا تجاهلوا هذه المغامرات الإسلامية الأكثر حداثة مدة طويلة، ولأن الفلاسفة والشعراء أيضاً كانوا يتوقعون أن تكون عقول قرائهم مليئة بصور وأفكار من الماضي.

على أية حال كان هناك أوجه تشابه مع التطورات الغربية المعاصرة. لقد أصبح نمط جديد من الشيعة الإمامية دين الدولة في إيران في عهد الصفويين، ويعتبر هذا بداية عداوة بين الشيعة والسنة لاسبق لها. فحتى هذه الفترة كانت هناك قواسم مشتركة كثيرة بين المثقفين أو المتصوفين في كلا الفريقين. لكن لسوء الحظ شكل الطرفان معسكرين متنافسين، على شاكله الحروب الطائفية في هذه الفترة في أوروبا. لقد تسلم الشاه اسماعيل الصفوي - مؤسس السلالة الصفوية - مقاليد الحكم في أذربيجان في عام ١٥٠٣، ووسع سلطته لتشمل غربي إيران والعراق، وكان مصمماً على مسح السنة وفرض المذهب الشيعي على رعاياه بقسوة لا مثيل لها، وكان يرى نفسه إمام جيله، كان لهذه الحركة نقاط تشابه مع حركة الإصلاح البروتستانتية في أوروبا: جذور كليهما في تراثات الاحتجاج، ومناهضة للارستقراطية، ومرتبطة بتأسيس حكومات ملكية. لقد ألغى المصلحون الشيعة الطرق الصوفية في مناطقهم بطريقة تذكر بحل الأديرة التي قام بها البروتستانتيون. لقد ألهموا السنة في الإمبراطورية العثمانية بتصلب مماثل فقاموا باضطهاد الشيعة في مناطقهم. فالعثمانيون الذين رأوا أنفسهم على الخط الأول في الحرب المقدسة ضد الغرب الصليبي غمّو تصلياً جديداً تجاه رعاياهم المسيحيين. من الخطأ على أية حال أن نرى المؤسسة الإيرانية بأكملها مؤسسة متعصبة. فالعلماء الشيعة في إيران الذين أدخلوا يتساءلون داعمين للإصلاح، كانوا في موقفهم هذا مختلفين عن نظرائهم العلماء السنة، رفضوا إقتال باب الاجتهاد، وأصرروا على حقهم في تفسير الإسلام بشكل مستقل عن الشاهانان. لقد رفضوا قبول السلالة الصفوية والقاجار لاحقاً على أنهم خلفاء الأئمة. لقد تحالفا مع الشعب ضد الحكام فأصبحوا أبطال الأمة في وجه الاضطهاد الملكي في أصفهان وطهران لاحقاً. لقد طوروا تراثاً يدافع عن حقوق التجار والفقراء في وجه انتهاكات الشاهانان، فمكنتهم هذا من تعبئة الشعب ضد نظام الشاه محمد رضا بهلوي الفاسد في عام ١٩٧٩

لقد طورت شيعة إيران فلسفتها الخاصة بها التي استمرت في تراث السهروردي الصوفية. كان مؤسس هذه الفلسفة الشيعية مير ديماد Mir dimad (d - ١٦٣١)، كان عالماً ولاهوتياً أيضاً. لقد عزف النور الإلهي بالاستنارة التي بلغتها شخصيات رمزية مثل محمد والأئمة. كما أكد على اللاشعور وعلى العنصر النفسي في التجربة الدينية مثلما فعل السهروردي. كان المدافع الأكبر عن المدرسة الإيرانية هذه هو تلميذ المير ديماد، صدر الدين شيرازي الذي يعرف عادة باسم ملا الصدر (١٥٧١ - ١٦٤٠) ويعتبره مسلمون كثيرون المفكر الإسلامي الأكثر عمقاً. ويرى البعض أن عمله يمثل صورة مصغرة لدمج الميتافيزيقا والروحانية التي أصبحت سمة مميزة للفلسفة الإسلامية، وبدأ الغرب يعرفه بعد ترجمة إحدى مؤلفاته إلى الإنجليزية.

اعتقد ملا الصدر - كما يعتقد السهروردي، أن المعرفة ليست مسألة تحصيل معلومات بل هي عملية تحول، وكان عالم المثل الذي تحدث عنه السهروردي حاسماً في تفكيره: فقد رأى الشيرازي أحلاماً ورؤى كأعلى شكل للحقيقة، وبذلك كانت الشيعة الإيرانية ما تزال ترى الصوفية الأداة الأكثر ملاءمة لاكتشاف الله أكثر من كونها محض علم وميتافيزيقا. قال الشيرازي إن الاقتراب من الله هو الغاية من الفلسفة، ولا يمكن حصره في معتقد أو دين واحد. فكما أوضح ابن سينا: الله هو الحقيقة العليا وهي وحدها لها وجود حقيقي. وهذه الحقيقة تبلغ سلسلة الوجود كلها من المملكة الإلهية حتى الغبار. كان الشيرازي من القائلين بوحدة الوجود، فكان يرى الله المصدر لجميع الأشياء الموجودة: فالكائنات التي نراها ونعرفها هي مجرد أوعية تحتوي النور الإلهي بشكل محدود. فאלله يتعالى أيضاً على الوجود الدنيوي. فوحدة الوجود لا تعني أن الله وحده موجود بل بمائل لوحدة الشمس مع حزم النور التي تشع منها. وقد ميز - كما فعل ابن العربي - بين جوهر الله أو «العماء» وتجلياته المختلفة. رؤيته مماثلة للرؤية الإغريقية والصمت hgy chasts والقباليين. كان يرى أن الكون كله مشع من العماء يشكل «جوهرة واحدة» ذات طبقات عديدة تماثل تدرجات كشف الله لذاته في صفاته أو آياته، وتمثل كذلك عودة البشرية إلى مصدر الوجود.

لم يكن الاتحاد بالله مؤجلاً إلى العالم الآخر بل بالإمكان بلوغه بالمعرفة. ولا حاجة للقول أنه لم يكن يعني معرفة عقلية فقط: ففي صعود المتصوف إلى الله عليه أن يسافر عبر عالم المثل: ملكة الرؤيا والخيال. فالله ليس حقيقة بالإمكان معرفتها موضوعياً بل بالإمكان العثور عليها داخل المقدرة الصانعة للصور التي يمتلكها كل فرد مسلم. فنعمنا يتحدث

القرآن عن الفردوس أو جهنم أو عرش الله فإنه لا يشير إلى حقيقة كانت في موقع منفصل، بل إلى عالم داخلي مخبأ تحت غلالات الظواهر المحسوسة:

كل شيء يطمح إليه الإنسان، كل شيء يرغب به موجود لحظياً أمامه. أو بالأحرى علينا أن نقول: أن يتصور رغبته هي ذاتها كي يترك الحضور الحقيقي لمادتها. لكن الخلاوة والسرور هما تعبيرات للفردوس والجهنم، والخير والشر، فكل ما يمكن أن يصل إلى الإنسان، - جزؤه في العالم الآخر - ليس له مصدر آخر سوى الجوهر وأناه الإنسان ذاته، الذي تشكله نواياه وخططه ومعتقداته الداخلية وسلوكه^(٣).

فالشيرازي - مثل ابن العربي الذي كان يقدره الشيرازي كثيراً - لم يتصور الله جالساً في عالم آخر، في سماء موضوعية خارجية ستكون ملاذ جميع المؤمنين بعد الموت. يجب اكتشاف السماء والعالم الإلهي داخل الذات، في عالم المثال الذاتي الذي هو ملكية ثابتة لكل كائن بشري. ما من شخصين سيكون لهما نفس السماء أو نفس الله.

الشيرازي الذي كان يقدر كثيراً الفلاسفة السنيين واليونانيين والمتصوفين والأئمة الشيعة يذكرنا أن الشيعة الإيرانية لم تكن متعصبة أو مغلقة على ذاتها دائماً. ففي الهند نأى العديد من المسلمين تسامحاً مماثلاً تجاه التراثات الأخرى. وعلى الرغم من أن الإسلام كان مهيمناً ثقافياً في الهند المنغولية بقيت الهندوسية مع ذلك نشطة ومبدعة، وتعاون بعض المسلمين والهندوس في المهين والمشروعات الثقافية. وعلى مدى زمن طويل كانت شبه القارة الهندية خالية من التعصب الديني. خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر أكد أكثر أشكال الهندوسية إبداعاً على وحدة الغاية الدينية: كل السبل صالحة طالما أنها تؤكد على حب داخلي للإله الواحد. وقد تردد صدى هذا في الصوفية والفلسفة اللتين كانتا الموقعين الإسلاميين المهيمنين في الهند. فقد شكل بعض المسلمين والهندوس مجتمعات متداخلة دينياً، أكثرها أهمية هي السيخية Sikhism التي أسسها غورناماك في القرن الخامس عشر. هذا الشكل الجديد للوحدانية كان يعتقد أن الله هو إله الهندوسية ذاته. من الجانب الإسلامي كان العلامة الإيراني مير أبو القاسم الفندريسكي (d - ١٦٤١) المعاصر للمير ديماد والشيرازي. دُرُس مؤلفات ابن سينا في اصفهان، وأمضى قسماً كبيراً من حياته في الهند يدرس الهندوسية واليوغا. انه لمن الصعب أن نتخيل خبيراً كاثوليكياً رومانياً ك ثوما الإكويني في هذه الفترة يبدي حماساً مماثلاً لدين لم يكن في التراث البراهمي حتى.

اتضحت روح التسامح والتعاون هذه بشكل مذهل في سياسات الإمبراطور المغولي أكبر الذي حكم من سنة ١٥٦٠ حتى ١٦٠٥ ، والذي كان يحترم جميع الأديان. أصبح نباتياً من تأثير الهندوسية عليه وتخلّى عن الصيد الذي كان رياضة يستمتع بها كثيراً، وحرّم تقديم القرابين الحيوانية في عيد ميلاده، أو في الأماكن المقدسة. وفي عام ١٥٧٥ شيد بيتاً للعبادة كان ملتقى العلماء من جميع الأديان كي يتناقشوا حول الله. فكانت البعثات التبشيرية اليسوعية هنا هي الأكثر عدوانية. فقد أسس طريقته الصوفية المكرسة إلى «وحدانية الله المقدسة» /التوحيد الإلهي/ الذي أعلن إيماناً جذرياً بالله الواحد الذي باستطاعته الكشف عن نفسه في أي دين صحيح التوجه. وقد رثاه أبو الفضل علامي (١٥٥١ - ١٦٠٢) في قصيدة بعنوان /أكبر نامه/ أي (كتاب أكبر) حاول فيها تطبيق مبادئ الصوفية على تاريخ الحضارة. كان علامي يرى في أكبر حاكم الفلسفة المثالي والإنسان الكامل في عصره. لقد أدت الحضارة إلى سلام كوني عند إقامة مجتمع متحرر وكرّم على يد حاكم مثل أكبر الذي جعل التعصب أمراً مستحيلاً. بالإمكان تحقيق الإسلام بمعناه الأصلي التسليم لله في أي دين، وأن دين محمد لم يحتكر الله. لم يشارك جميع المسلمين أكبر في رؤيته، ورأى فيه آخرون خطراً على الدين. واستمرت سياسته التسامحية طيلة الفترة التي كان فيها المغول في موقع قوة. وما أن بدأت سلطتهم تضعف حتى بدأت جماعات كثيرة الثورة على الحكام المغوليين، فتصاعدت النزاعات بين المسلمين والهندوس والسيخ. ربما اعتقد الإمبراطور أورغيزب (١٦١٨ - ١٧٠٢) أن بالإمكان إعادة الوحدة عن طريق انضباط أكبر داخل المعسكر المسلم: سن تشريعاً يضع حداً لمظاهر التراخي مثل شرب الخمر، أدى إلى جعل التعاون مع الهندوس أمراً مستحيلاً، وقلل عدد الأعياد الهندوسية، وضاعف الضرائب على التجار الهندوس. فكان التعبير الجملي لهذه السياسات المذهبية انتشار تدمير المعابد الهندوسية، فكانت نقيضاً تاماً لنهج أكبر التسامح ثم التخلي عنها بعد موت أورغيزب. لكن الإمبراطورية المغولية لم تتعاف من التعصب المدمر الذي سهله ودشنه اسم الله.

كان الشيخ البارز أحمد السيرهندي (١٥٦٣ - ١٦٢٥) واحداً من أهم خصوم أكبر الأشداء خلال حياته. وكان متصوفاً أيضاً مثل أكبر. وكان مريدوه يرون فيه الكمال. وقف السيرهندي مناهضاً للتراث الصوفي عند ابن العربي الذي توصل تلامذته إلى اعتبار الله الحقيقة الوحيدة. وكان الشيرازي قد أكد هذا المفهوم لوحدة الوجود. كان ذلك إعادة صياغة للشهادة: لا وجود لحقيقة سوى الله. فالتصوفون المسلمون مثل المتصوفين في أديان أخرى كانوا يعرفون شكلاً من الوحدانية، وكانوا يشعرون أنهم واحد مع الوجود كله،

بينما استبعد السيرهندي هذا المفهوم لأنه ذاتي محض، فبينما كان المتصوف يركز على الله وحده، وكل شيء سواه يميل إلى التلاشي من وعيه، لكن هذا لم يتطابق مع حقيقة موضوعية. حقيقة إن الحديث عن أية وحدانية أو تمازج بين الله والعالم كان سوء فهم خطير للمفهوم. حقيقة لم يكن هناك إمكانية لمعرفة الله مباشرة، الذي هو خارج متناول البشر تماماً: «إنه الواحد القدوس، ماوراء الماوراء، وثانية وراء الماوراء، وثالثة وراء الماوراء»^(٤). ليس هناك علاقة بين الله والعالم ماعدا علاقة غير مباشرة من خلال التأمل وآيات الطبيعة. زعم السيرهندي أنه شخصياً قد اجتاز إلى ماوراء حالة المتصوف النشوية مثل ابن العربي - إلى حالة وعي أسمى وأكثر هدوءاً. استخدم الصوفية والتجربة الدينية كي يؤكد على الإيمان بإله الفلاسفة البعيد، حقيقة موضوعية لكن لا سبيل إلى فهمها. تبنى تلاميذه آراءه متحمسين بينما لم تتبناها غالبية المسلمين الذين بقوا مخلصين إلى إله المتصوفين الذاتي الخفي.

بينما كان مسلمون مثل أكبر وفليديرسكي يسعون إلى تفاهم مع الناس من أديان أخرى كان الغرب المسيحي قد أوضح في عام ١٤٩٢ أن ليس في وسعه التسامح حيال التقارب بين ديني إبراهيم الآخرين. لقد كان العداء للسامية في القرن الخامس عشر قد ازداد في أرجاء أوروبا، وكان اليهود يطردون من مدينة إلى أخرى: من لينز Linz وليمينا في عام ١٤٢١، ومن كولون في عام ١٤٢٤، ومن أوجبورغ في عام ١٤٣٩، ومن بافاريا عام ١٤٤٢ (وثانية في عام ١٤٥٠)، ومن مورافيا عام ١٤٥٤، ومن بيمروجيا عام ١٤٨٥. ومن فيسينزا عام ١٤٨٦، وبارما ١٤٨٨، ولوكا وميلانو ١٤٨٩ ومن توسكانيا ١٤٩٤. ينبغي أن نرى طرد اليهود السفودم من إسبانيا ضمن هذه النزعة الأوروبية الأكبر حجماً. استمر اليهود الأسبان الذين استقروا في الإمبراطورية العثمانية يعانون من إحساس بالافتلاع ممزوج بإحساس بذنب لاعقلاني لكنه لايمحي - الخلاص. وهذا الإحساس مماثل للذنب الذي كان يحسه الذين تمكنوا من النجاة من الهولوكوست النازي، وأنه لمن المفيد أن يشعر بعض اليهود بالنجذاب إلى الروحانية التي أنشأها اليهود الشرقيون خلال القرن السادس عشر كي تساعد على نفي نفيتهم.

ربما نشأ هذا النوع الجديد من القبالة في ولايات البلقان التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية حيث أسس الكثير من اليهود الشرقيين تجمعات لهم. ويبدو أن مأساة عام ١٤٩٢ قد أدت إلى توق إلى خلاص إسرائيل الذي تنبأ به الأنبياء. فقد هاجر بعض اليهود على رأسهم يوسف كارو، وسليمان احتجاز من اليونان إلى فلسطين - أرض إسرائيل.

قد سعت روحانيتهم إلى علاج الذل الذي ألحقه الطرد باليهود وبالإلههم. قد أرادوا وأن يرفعوا للملكوت من الغبار كما قالوا لكنهم لم يكونوا يسعون إلى حل سياسي، ولم يتصوروا عودة جماعة لهم إلى أرض الميعاد. لقد استقروا في صفد والجليل، وقاموا بإحياء صوفي بارز أدى إلى الكشف عن معنى عميق في تجربة تشردهم. كانت القبالة تتوجه - حتى هذا التاريخ إلى النخبة فقط، لكن بعد الكارثة تحول اليهود في أرجاء العالم إلى روحانية أكثر صوفية. لقد بدت لهم عزاءات الفلسفة جوفاء: فبدأ أرسطو قاحلاً وإلهه بعيداً لاسبيل إلى الوصول إليه. لام الكثيرون الفلسفة على الكارثة زاعمين أنها قد أضعفت النزعة اليهودية، وأخمدت الإحساس بنداء إسرائيل الخاص بها. لقد أفتعت عالميتها وتكيفها اللطيف، الكثيرين من اليهود بقبول التعميد. ومن جديد لن تكون الفلسفة ذات أهمية روحية عند اليهود.

كان الناس تواقين إلى معرفة لله أكثر مباشرة، وقد بلغ هذا الحنين درجة تركيز شهواني تقريباً في صفد. كان القباليون يتجولون عبر تلال فلسطين، ويستلقون على قبور التلموديين الكبار في مسعى منهم - كما بدأ الأمر - لامتصاص رؤياهم إلى داخل حياتهم المضطربة. كانوا يقولون يقظون طيلة أسبوع تقريباً مثل عاشقين خائبين يشدون أغاني حب لله، وينادونه بأسماء عشق. لقد وجدوا أن ميثولوجيا وتدريبات القبالة كانت تحطم تحفظهم، وتلامس الألم في أرواحهم بطريقة لاتوصلهم إلى الميتافيزيقا أو دراسة التلمود. فيما أن ظروف المنفيين الإسبان كانت مختلفة عن ظروف موسى ليون مؤلف /الزهار/ فقد كانوا بحاجة إلى تعديل رؤيته بحيث تتوافق مع ظروفهم الخاصة. لقد توصلوا إلى حل خيالي غير عادي ساوى التشرد المطلق مع الورع على إطلاقه. كان نفي اليهود يرمز إلى الاقتلاع الجذري من قلب الوجود كله. فليس الخلق كله فقط لم يعد في مكانه المناسب بل كان الله منفياً عن ذاته. لقد حققت قبالة صفد الجديدة شعبية خلال فترة وجيزة، فأصبحت حركة جماهيرية لابن اليهود الشرقيين فحسب بل أعطت أملاً جديداً إلى أشكيناز أوروبا الذين اكتشفوا أن ليس أمامهم مدينة ترويههم في المسيحية. ويوضح هذا النجاح غير العادي أن أساطير صفد المركبة والغريبة - كما تتراءى للدخيل - كانت لها المقدرة على مخاطبة ظروف اليهود، وبذلك كانت آخر حركة يهودية تنبأها كل يهودي تقريباً، فأحدثت تغيراً عميقاً في الوعي الديني بين يهود العالم. كانت تدريبات القبالة الخاصة للنخبة المدخلة فقط، إلا أن أفكارها ومفهومها لله أصبحت تعبيراً معيارياً للتقوى اليهودية.

كي نصف هذه الرؤية الجديدة لله علينا أن نفهم أن المراد من هذه الأساطير هو عدم فهمها بشكل حرفي. لقد كان القباليون الصوفيون مدركين أن الرموز التي كانوا يستخدمونها كانت باللغة الجراءة، فكانوا يحومون حولها بتعابير مثل «وكانما» أو «يمكن للمرء أن يفترض». لكن أي حديث عن الله كان حديثاً إشكالياً، ليس أقله الاعتقاد التوراتي بخلق الكون. لقد وجد القباليون هذا أمراً صعباً في طريقتهم مثلما وجدته الفلاسفة. فقد بنى كلاهما تشبيه الفيض الأفلاطوني الذي يشمل الله والعالم الذي يفيض منه إلى الأبد. لقد شدد الله على قدسية الله وانفصاله عن العالم، لكن /الزهار/ اقترح أن عالم الله كان يشمل الحقيقة كاملة فكيف كان بالإمكان أن يكون الله منفصلاً عن العالم إذا كان هو الكل في الكل؟ لقد رأى يعقوب القرطبي الصفيدي هذا التناقض بكل جلاء فحاول إزالته. فالله المستتر في لاهوته لم يعد رباً عصبياً على الفهم لكنه فكرة العالم: لقد كان واحداً في جميع الأشياء المخلوقة في حالتها المثالية الأفلاطونية، لكنه منفصل عن تجسيدها المعاب على الأرض: «إن كل شيء يوجد محتوئاً في وجوده، والله يوجه كل الوجود، وجوهره موجود في سفروته، وهو ذاته في كل شيء، ولا يوجد شيء خارجه»^(٤)، وبذلك اقرب كثيراً من أخدية ابن العربي والشيروازي.

حاول بطل وقديس قبالة صغد، اسحق لوريا (١٥٣٤ - ١٥٧٢) أن يشرح تناقض التعالي والتلازم الإلهي بشكل أكثر إسهاباً في واحدة من أكثر الأفكار إدهاشاً حول الله. كان يدي معظم اليهود المتصوفين تحفظاً شديداً حول تجريرهم المقدسة. فإحدى تناقضات هذا النوع من الروحانية هي أن المتصوفين يزعمون أنه لا يمكن وصف تجاربهم الصوفية، مع ذلك فهم مستعدون لكتابتها بمرمتها. كان القباليون حذرين من هذا فكان لوريا من أوائل القديسين الذين جذبوا إليهم مريدن لطريقته بسحر شخصيته. لم يكن كاتباً، وتعتمد معرفتنا لمنهجه القبالي على الأحاديث التي دونها تلميذاه حاييم فيتال (١٥٥٣ - ١٦٢٠) في كتابه /شجرة الحياة/ ويوسف بن طابول، ولم ينشر هذا المخطوط حتى عام ١٩٢١.

لقد واجه لوريا السؤال الذي حير الموحدين طيلة قرون: كيف تمكن إله لامتناه كامل من خلق عالم محدود مُلَفَّزٌ بالشر؟ من أين يا ترى أتى الشر؟ وجد لوريا الإجابة عن طريق تخيل ماحدث قبل فيض السفروت: عندما عكف الله المستتر على نفسه في لحظة استبطان عالية، كي يجد متسعاً للعالم فقد أدخل الإله المستتر منطقة داخل ذاته، وبهذا الانكماش، أو «الانسحاب» خلق الله مكاناً لم يكن فيه، مكان فارغ تمكن من ملئه بعملية متزامنة من الكشف عن ذاته والخلق معاً. فكانت محاولة لوريا جريئة لشرح معتقد الخلق الصعب من

لاشيء: أول عمل قام به الإله المستتر كان نقياً فرضه على ذاته من خارج ذاته، وكأنه قد هبط بعمق أكبر داخل وجوده هو، ووضع حداً على ذاته. فكانت فكرة مماثلة للعناء البدئي الذي تخيله المسيحيون في الثلاثين حين أفرغ الله ذاته في ابنه في عمل تعبيراً عن الذات. وطيلة القرن السادس عشر كان الانسحاب بالنسبة للقباليين أسامياً رمزاً للنفي الكامن في بنية كل الوجود المخلوق قام به الله المستتر ذاته.

تصوروا أن المكان الحالي الذي خلقه الله بانسحابه كان على شكل دائرة يحيط بها الله المستتر من جميع الجوانب. فكان هذا توهو بوهو Tohubohu أي القفز المذكور في سفر التكوين. فقبل ارتداد الانسحاب امتزجت قدرات الله المتنوعة بانسجام سوياً، فشكلت لاحقاً السفروت؛ إنها لم تكن متباينة إحداها عن الأخرى، فقد وجدت رحمة الله وشدته وحكمته داخل الله في حالة انسجام تام. لكن أثناء عملية الانسحاب فصل الله المستتر حكمه الشديد عن بقية صفاته ورماها في المكان الحالي الذي تخلى عنه. وهكذا لم يكن الانسحاب عمل حب تفرغ للذات بل بالإمكان رؤيته كنوع من تطهير إلهي: استأصل الله غضبه أو حكمه الشديد (التي رأها كتاب الزهار كجذر للشر من داخل وجوده: أظهر عمله البدئي قسوة وخشونة تجاه ذاته. وبعد انفصال الرحمة عن الغضب وبقية أسماء الله كان أمراً مدمراً. مع ذلك لم يهجر الإله المستتر المكان الحالي كلياً. فقد نفذ و«يحيط رفيع» من النور الإلهي إلى هذه الدائرة التي اتخذت شكل مأسماه كتاب الزهار آدم قضمون أي الإنسان الأول.

بعدئذ حدث فيض السفروت، ولم يكن هذا ما حدث في كتاب الزهار. قال لوريا أن السفروت قد تشكل في آدم قضمون: السفروتات الثلاثة الأعلى: العرش، الحكمة، العقل، شعت من أنفه وأذنيه وفمه على التوالي. بعد ذلك حدثت كرامة أسماها لوريا «تخبط أوعية». كان السفروت بحاجة إلى أن يصبح محتوى في أغذية خاصة به أو أوعية كي يميز ويفصل إحداها عن الأخرى، ولمنعها من العودة ثانية إلى وحدتها السابقة. لم تكن هذه الأوعية أو «الأنابيب»، مادية بالطبع بل مكونه من نور أكثف شكلت مايمائل «الدرع» للنور الأنتي للسفروت. فعندما شعت السفروتات الثلاث العليا من آدم قضمون قامت أوعيتها بدورها تماماً. لكن عندما فاضت السفروتات الست التالية من عينيه لم تكن أوعيتها قوية بما فيها الكفاية كي تحتوي النور الإلهي فتحطمت، وبالتالي تبثر النور. فصعد بعضه إلى أعلى وعاد إلى الرب. لكن بعض جمرات إلهية سقطت في القفز الفارغ وبقيت محتجزة في حالة عماء. ومن ذلك الحين فصاعداً لم يعد شيء في مكانه المناسب. حتى

السفرووات الثلاث العليا نزلت إلى عالم أدنى نتيجة لهذه الكارثة. لقد دُفِنَ الانسجام الأصلي، وضاعت الجمرات الإلهية في قفر لاشكل له توهو يوهو في منفى عن الرب.

تذكرنا الأسطورة الغريبة هذه بالأساطير الفنوصية الأقدم منها حول الاقتلاع البدئي. إنها تعبر عن التوتر الذي غلف عملية الخلق كلها التي هي أقرب ماتكون إلى الانفجار الكبير الذي يتصوره العلماء اليوم أكثر من قربها من التسلسل المرتب السلمي الذي وصفه سفر التكوين. لم يكن سهلاً على الله المستتر أن يظهر من حالته المستترة: تمكن من القيام بذلك وكأنها في نوع من التجريب والخطأ. وفي التلمود وجد الأحبار فكرة ماثلة. قالوا إن الله صنع عوالم أخرى ودمرها قبل أن يخلق هذا العالم، لكنه لم يصنع كل شيء. قارن بعض القبايل بين هذا التحطيم بانفجار أو ولادة فلقة البذار. كان الانفجار مقدمة إلى خلق جديد. فعلى الرغم من أن كل شيء كان في حالة فوضى فقد خلق الله المستتر حياة جديدة من هذه الفوضى الظاهرية عن طريق عملية تكامل جديدة.

صدر بعد الكارثة سيل جديد من النور من الله المستتر، وانبثق من جبين آدم قضيون، أعيد هذه المرة تنظيم السفروت في أشكال جديدة: لم تعد جوانب عامة عن الله، أصبح كل منها المظهر الذي تكشف فيه شخصية الله الكاملة، ملامح مميزة ماثلة لشخص الثالث. كان يحاول لوريا أن يجد طريقة جديدة للتعبير عن الفكرة القبالية القديمة عن الله الغامض الذي ولد بذاته كشخص. استخدم لوريا رمزية المفهوم في عملية التكامل، الولادة وتطور الشخصية البشرية كي توحى بنشوء مماثل في الله. فقد أعاد الله الاستقرار في عملية التكامل بتقسيم السفرووات العشرة إلى خمسة مظاهر مرتبة في المراحل التالية:

١ - العرش: السفروت الأعلى الذي أسماه الزهار «لاشي»، يصبح

المظهر البارز والأول، ويدعى أربك أي الواحد المنلر.

٢ - الحكمة: تصبح المظهر الثاني: الآب.

٣ - العقل: تصبح المظهر الثالث: الأم.

٤ - الحكم الإلهي، الرحمة، المحبة، الصبر، الجلال جميعها

تصبح المظهر الرابع ويدعى الواحد غير الصبور.

٥ - الملوكوت: يصبح المظهر الخامس ويدعى المرأة.

فالرمزية الجنسية هي محاولة جسورة لتصوير إعادة توحيد السفروت، ولعلاج الانفجار الذي حدث عند تحطم الأوعية، ولإعادة الانسجام البدئي. ينغمس الآب والأم

في جماع، ويرمز هذا التزاوج بين الذكر والأنثى داخل الله إلى الاستقرار المستعاد. فالقبايون يحلزون القراء من فهم هذه الصورة حرفياً. إنها قصة خيالية وضعت كي توضح عملية التكامل التي لا يمكن التعبير عنها بكلمات عقلانية واضحة، وإلى تحييد صورة الله الذكر المسيطرة - فالخلاص الذي تصوره المتصوفون لم يكن يعتمد على أحداث تاريخية مثل مجيء المسيح المنتظر بل عملية يجب أن ير الله بها. أول خطوة لله كانت أن يجعل البشرية مساعدة له في عملية استرجاع لتلك الجذوات الإلهية التي بُعثت واختزنت في العماء أثناء تحطيم الأوعية. فخطيئة آدم في جنة عدن هي التي منعت من إعادة الانسجام الأصلي، وانتهاء النفي الإلهي في السبت الأول، لكن هبوط آدم كرر الكارثة الأولى - تحطم الأوعية. فقد سقط الاستقرار المخلوق والنور الإلهي في روحه، وبُعث خارجاً وسجن في مادة معطوبة. وبالتالي وضع الله خطة أخرى. فاختار إسرائيل عوناً له في صراعه من أجل السيادة والسيطرة. فمع أن إسرائيل قد بُعثت في أرجاء عالم الشتات كالجذوة الإلهية - الذي لارب له: أي أن اليهود ذوو رسالة خاصة، ويبقى الله غير تام طالما أن الجمرات الإلهية منفصلة وضائعة في المادة. ويستطيع كل يهودي المشاركة بإعادة الجمرات الإلهية إلى مصدرها ويخلص العالم عن طريق الالتزام بالتوراة والصلاة. ففي هذه النظرة إلى الخلاص لا يتأمل الله البشرية متلفاً، بل يتوقف تطفه على الجنس البشري كما أصر اليهود على ذلك. وهكذا لدى اليهود امتياز فريد، المساعدة على إعادة تشكيل الله، وعلى خلقه من جديد.

قدم لوربا معنى جديداً لصورة النفي الأولى للملكوت. ويجب أن نذكر أن الأحبار في التلمود قد رأوا الملكوت يسير طوعاً إلى المنفى مع اليهود بعد تدمير الهيكل. وقد مائل الزهار الملكوت بالسفروت الأخير، فجعله جانباً أثوباً للألوهة. ففي أسطورة لوربا سقط الملكوت مع السفروت الآخر عندما تحطمت الأوعية. فالمرحلة الأولى من الخلاص أصبحت عن طريق الزواج مع المرأة، السفروت المتوسط السادس، أصبحت مندمجة بالعالم المقدس. لكن عندما أخطأ آدم سقط الملكوت ثانية وذهب إلى المنفى عن بقية عوالم الرب. من غير المحتمل أن يكون لوربا قد اطلع على مؤلفات المسيحيين الفنوصيين الذين طوروا ميثولوجيا مماثلة. لقد أعاد عقوباً إنتاج أساطير المنفى القديمة والسقوط كي تلبى الظروف المسأوية في القرن السادس عشر. فحكايات الجماع الإلهية، والإلهة المنفية كان أمراً رفضه اليهود خلال الفترة التوراتية، عندما كانوا يرسمون معتقد الله الواحد. علاقتهم بالوثنية وعبادة الأصنام كانت مرفوضة منطقياً من قبل السفرديم. لقد اعتنق معظم اليهود ميثولوجيا لوربا بدءاً من بلاد فارس إلى إنجلترا وألمانيا وبولندا وإيطاليا حتى شمال أفريقيا وهولندا

واليمين لأنها كانت قادرة على العزف على وتر دفين ، وأن تقدم أملاً جديداً في لجة اليأس. فقد مكنت اليهود من الإيمان بوجود معنى نهائي ومغزى على الرغم من الظروف المرعبة التي كان يعيشها الكثيرون منهم.

لقد أصبح باستطاعة اليهود إنهاء نفي الملوكوت عن طريق الالتزام بالتوراة والصلاة، وبذلك يستطيعون إعادة بناء إلههم ثانية. من المتع مقارنة هذه الأسطورة باللاهوت البروتستانتي الذي كان يطوره لوثر وكالفن في أوروبا في الفترة ذاتها تقريباً. كان المصلحون البروتستانتيون يشرون بسلطة الله المطلقة في لاهوتهم، فليس في وسع البشر المساهمة بشيء إطلاقاً في خلاصهم. بشر لوريا بالإيمان بالأعمال: الله كان بحاجة إلى البشر، وسيبقى غير تام بشكل ما، دون صلاتهم أو أفعالهم الخيرة. وعلى الرغم من المسألة التي حلت باليهود في أوروبا، كانوا قادرين على التنازل بالبشر أكثر من تنازل البروتستانت. لقد رأى لوريا مهمة الخلاص بكلمات تأملية. فبينما كان مسيحيوا أوروبا - كاثوليكين وبروتستانت - يصيغون المزيد من المعتقدات، قام لوريا بإحياء طرق أبراهام أبو العافية الصوفية كي يساعد اليهود على تجاوز هذا النوع من النشاط الفكري، وأن ينموا وعياً أكثر حدسية. فترتيب أحرف الأسماء الإلهية في روحانية أبي العافية كان يذكر القباليين أنه لا يمكن التعبير عن معنى الله بكلمات بشرية. كانت ميولوجيا لوريا تجسد إعادة بناء وإصلاح لله. فقد وصف حايميم فيتال التأثير العاطفي لطرق لوريا: عن طريق فصل نفسه عن التجربة اليومية العادية، والبقاء ساهراً عندما ينام الآخرون، وعن طريق الصيام عندما يتناول الآخرون الطعام، وعندما ينسحب القبالي إلى عزلة لفترة يتمكن من التركيز على الكلمات الغريبة التي لا تحمل علاقة معنوية بالكلام العادي. سيسهر أنه في عالم آخر. وسيجد نفسه مرتعشاً، وكأنه قوة خارج ذاته تسيطر عليه.

لم يكن هناك داع للقلق، فكما أكد لوريا أن على القبالي أن يحقق السكينة العقلية قبل البدء بالتدريب الروحي. فالسعادة والمرح أمران أساسيان: يجب ألا يحدث لطم للصنوبر، أو التأنيب أو الذنب أو القلق فيما يتعلق بأداء اليهودي، وقد أكد فيتال على أن الملوكوت لا يستطيع أن يعيش في مكان حزين وأليم، وجذور هذه الفكرة موجودة في التلمود. فالحرر ينبع من قوى الشر في العالم بينما تمكن السعادة القبالي من حب الله والمتعلق به. يجب ألا يوجد غضب أو عدوان في قلب القبالي تجاه أي شخص كان حتى تجاه الغوييم. لقد مائل لوريا بين الغضب وعبادة الأصنام لأن المرء الغاضب يكون مُستَيطراً عليه من قبل «إله غريب». توجيه النقد إلى صوفية لوريا أمر سهل. فكما يشير جرشوم

شوليم أن الله المستتر الذي كان قوياً جداً في الزهار يصبح مفقوداً في دراما الخلاص أي «تخبط الأواني»^(٦). وفي الفصل التالي سوف نرى أن ذلك قد ساهم في حادثة كارثية في التاريخ اليهودي. فمع أن مفهوم الله عند لوريا كان قادراً على مساعدة اليهود في تنمية الاحساس بالسعادة والطف وموقف إيجابي من البشرية في وقت كان الشعور بالذنب وغضب اليهود دفعا بالكثيرين إلى اليأس وإلى فقدان إيمانهم بالحياة كلها لولا ذلك.

لم يكن مسيحيوا أوروبا قادرين على تقديم روحانية إيجابية كهذه. فهم كذلك احتملوا كوارث تاريخية لا يمكن أن يهدئها دين فلسفي مدرسي. فالمتأسف أن عام ١٣٤٨ وسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، والفضائح الكنسية المتعلقة بأسر أفيجنون Avignon (من ١٣٣٤ حتى ١٣٤٢)، والانشقاق الكبير (١٣٧٨ - ١٤١٧) الذي رمى عجز الطرف الإنساني في شعور عارم بالارتياح، وجلب سوء السمعة إلى الكنيسة. بدت البشرية غير قادرة على تخلص نفسها من مأزقها الخفيف دون مساعدة من الله، فخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان اللاهوتيون من أمثال دونس سكوتس الأوكسفوردي Duns Scotus of oxford (١٢٦٥ - ١٣٠٨) واللاهوتي الفرنسي جون غريسون (١٣٦٣ - ١٤٢٩) اللذين أكلتا على سيادة الله الذي يتحكم بشؤون البشر كحاكم مطلق. لم يكن باستطاعة البشر المساهمة بشيء من أجل خلاصهم، فالأعمال الخيرة لا تنم عن امتياز بحد ذاتها بل لأن الله قد قَدَّر أن تكون هذه الأعمال خيرة. وبالتأكيد كان هناك تحول خلال هذين القرنين، فغريسون كان متصوفاً وكان يعتقد «أن من الأفضل حب الله دون بحث، على أن نبحث بناعاً على أسباب من الإيمان الحق، كي نفهم طبيعة الله»^(٧). كانت في أوروبا القرن الرابع عشر موجة صوفية، لأن الناس - كما رأينا - قد بدأوا يدركون أن العقل كان غير كافٍ لتفسير السر الذي أسموه «الله»، وكما قال توماس أكيمبس في /محاكاة المسيح/:

ما الفائدة من النقاش العلماني في الثالث. فإن نفقد إلى التواضع ولا ترضى بالثالث. فإنني أفضل أن أشعر بالندم على أن أكون قادراً على تعريظه. فلو حفظت الكتاب المقدس عن ظهر قلب، وكل تعاليم الفلاسفة، فكم سيساعدك هذا دون نعمة وحب الله؟^(٨)

لقد أصبحت /محاكاة المسيح/ بنزعتها الدينية الكيبية القامية واحدة من الكلاسيكيات الروحية الغربية الأكثر شعبية. فخلال هذه الفترة كانت نزعة التقوى تتركز بشكل متزايد على يسوع الإنسان: القيام بإشارة الصليب كانت تتركز على ألم يسوع الجسدي وعلى حزنه. وبعض التأملات التي دونها كاتب مجهول في القرن الرابع عشر

تخبر القارئ أنه عندما يستيقظ صباحاً بعد تمضية معظم الليل مفكراً بالعشاء الأخير، وبالعذاب في الحديقة، يجب أن تكون عيناه حمراوين من البكاء، عليه أن يبدأ بصلب المسيح، وأن يسير وراءه إلى الجلجلة حيث صلب، ساعة بعد أخرى يجب أن يتخيل القارئ نفسه متوسلاً للسلطات من أجل إنقاذ المسيح، وأن يجلس إلى جانبه، وأن يقبل يديه وقدميه المكبتين بالسلاسل^(٩). في هذا البرنامج القابض للصدر لا تحظى قيامة المسيح سوى بالقليل، فالتأكيد هنا هو على بشرية يسوع الحساسة. تتسم هذه المقطوعات الوصفية - لقارئ معاصر - بالانفعال والفضول الكئيب. حتى المتصوفون الكبار مثل برهجت السويدية أو جوليان الترويشية تتأملان التفاصيل الكمية لحالة يسوع الجسدية:

رأيت وجهه الحبيب جافاً، لاتسيل منه الدماء، وشحوب الموت يغطيه.
أصبح أكثر شحوباً، كالموت بعد أن فارقه الحياة. بعدئذ مات فأصبح لونه
أزرق، وتحول تدريجياً إلى أزرق غامق بينما كان نبض الحياة يفارق
الجسد. ظهرت آلامه لي في وجهه المبارك، خاصة على شفتيه. هناك أيضاً
رأيت الألوان ذاتها بعد أن كان وجهه مضرباً بالحرمة وبناعة الشباب
والجمال. فامتلاً قلبي حزناً وأنا أرى لونه يتحول تدريجياً مفارقاً الحياة،
ارتعشت فمحتاً أنفه، وجفتا أمام عيني، وأصبح جسده الغالي أسود وبنياً
بينما كان يجففه الموت^(١٠).

يذكرنا هذا الوصف بمقطوعات الوصف لصلب المسيح في اللغة الألمانية في القرن الرابع عشر. بأشكال شخصها التي تتلوى، والدم المتدفق منها، والتي بلغت الذروة في وصف متياس كورنفالد (١٤٨٠ - ١٥٢٨). كانت جوليان قادرة على بلوغ رؤية عظيمة داخل طبيعة الله: تصور الثالث يعيش داخل الروح، وليس مجرد حقيقة خارجية هناك كمتصوفة حقيقية. لكن بدت قوة التركيز الغربي على المسيح البشري قوية جداً لا يمكن مقاومتها. فخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان الرجال والنساء يجعلون كائنات بشرية مركزاً لحياتهم الدينية أكثر مما جعلوا الله مركزاً لها. فعبادة مريم والقديسين التي كانت قد تزايدت في العصور الوسطى إلى جانب العبادة المتزايدة ليسوع الإنسان. لقد صرف الحماس تجاه المقدسات والأماكن المقدسة المسيحيين الغربيين عن الشيء الضروري الواحد. فبدا كأن الناس كانوا يركزون على أي شيء ماعدا الله.

ظهر الجانب القاتم من الروح الغربية خلال عصر النهضة، فكان فلاسفة، وإنسانيوا النهضة ينتقدون كثيراً الورع الذي كان سائداً في العصور الوسطى، وكانوا يكرهون

السكولامتين كثيراً لأنهم كانوا يشعرون أن تأملاتهم الغامضة جعلت الله يبدو غريباً ومبغضاً. لقد أرادوا العودة إلى أصول الدين وبخاصة إلى القديس أوغسطين. كان علماء اللاهوت في العصور الوسطى يجعلون أوغسطين كلاهوتي، لكن الإنسانيين أعادوا اكتشاف الاعترافات التي كتبها فوجدوه إنساناً عادياً في بحث ذاتي، لم تكن المسيحية مجموعة معتقدات بل كانت تجربة. فقد شرح لورينز وفالا (١٤٠٥ - ١٤٥٩) أن لاجدوى من مزج العقيدة الدينية المقدسة «بالأعيب الديالكتيك» الماحكات الميتافيزيقية^(١١). وقد أدان القديس بولص كليهما. وقال فرانسيسكو بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) «أن اللاهوت هو في حقيقته شعر، شعر يتعلق بالله». وهو مؤثر ليس لأنه «ثبت أي شيء بل لأنه ينفذ إلى القلب»^(١٢). كان الإنسانيون يمدون اكتشاف الكرامة الإنسانية، ولم يقدمهم هذا إلى رفض الله: بل أكدوا على بشرية الله الذي أصبح إنساناً، لكن المخاطر القديمة بقيت على حالها. كان رجال النهضة ملوكين إدراكاً عميقاً هشاشة معرفتنا، وكان باستطاعتهم أيضاً أن يتعاطفوا مع الإحساس بالذنب الذي تحدث عنه أوغسطين. فكما قال بترارك:

كم مرة فكرت فيها باليأس والموت، وبأمة فيضانات من الدموع سبت
إلى غسل آلامي لدرجة أنني نادراً ما أتحدث عن الذنب دون أن أبكي،
دون جدوى حتى الآن. فالله هو الأفضل حقاً وأنا الأسوأ^(١٣).

كانت هناك مسافة شاسعة بين الله والإنسان: وكولوكيو ساليوتالي (١٣٣٠ - ١٤٠٦) وليوناردو برونو (١٣٦٩ - ١٤٤٤) كانا يريان أن الله متعالٍ جداً عن العقل البشري ولا سبيل إلى الوصول إليه.

أما الفيلسوف الألماني ورجل الكنيسة نيكولاس موصا (١٤٠٠ - ١٤٦٤) فقد كانت ثقته أكبر في مقدرتنا على فهم الله. وكان شديد الاهتمام بالعلم الجديد الذي سيمكثنا من فهم سر الثالث. فالرياضيات التي كانت تتناول تجريدات صرفة كان بمقدورها أن تقدم يقيناً يستحيل أن تقدمه المعارف الأخرى. وهكذا فإن المفهوم الرياضي للحد الأقصى والحد الأدنى كانا متناقضين ظاهرياً لكن بالإمكان رؤيتهما متطابقين منطقياً. «وتزامن الأضداد» يشمل فكرة الله. فكرة الحد الأقصى تشتمل كل شيء، إنها تتضمن مفاهيم الوحدة والضرورة اللتان تشيران إلى الله مباشرة. زد على ذلك لم يكن الحد الأقصى مثلاً أو دائرة أو كرة بل يشملها جميعاً متحدة: فوحدة الأضداد كانت أيضاً

الثالث. مع ذلك فالتفسير الذي قدمه نيكولاس كان ذا معنى ديني يسير، ويقلل فكرة الله - كما يبدو - إلى درجة لغز منطقي^(١٤). لكن اقتناعه أن الله يحتضن كل شيء حتى المتناقضات مماثل للمفهوم الأرثوذكسي اليوناني بأن اللاهوت الحق يجب أن يكون قائماً على التناقض. فعندما كان نيكولاس يكتب كمعلم روحي أكثر من كونه فيلسوفاً وعالم رياضيات - كان مدركاً أن المسيحي يجب أن «ترك كل شيء خلفه» أثناء سعيه إلى الاقتراب من الله. وأن «يتجاوز فكره» ليمضي إلى ما وراء الاحساس والعقل. فوجه الله سيبقى مغلقاً في «صمت صوفي وسري»^(١٥).

لم تستطيع الرؤى الجديدة للنهضة أن تخاطب المخاوف الأعمق مثل: الله يقع خارج تناول العقل. ولم يمس وقت طويل على وفاة نيكولاس حتى اندلع، رهاب مدمر في ألمانيا وامتد إلى أرجاء أوروبا الشمالية. ففي عام ١٤٨٤ نشر البابا أنوست الثامن الأمر المعروف باسم *Summa Desiderantes* الذي كان نقطة علامة لبداية جنون السحر الكبير الذي استمر متقطعاً في أرجاء أوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر مجتاحاً الجماعات البروتستانتية والكاثوليكية على السواء، فكشف عن الجانب القاتم في الروح الغربية. فخلال هذا الاضطهاد المشين تم تعذيب الآلاف من الرجال والنساء حتى اعترفوا بجرائم مذهلة مثل زعمهم أنهم كانوا يقيمون اتصالات جنسية مع الشياطين، أو طيرانهم في الهواء لمئات الأميال كي يشاركوا في طقوس العريضة السرية حيث يعيد الشيطان بدلاً من الله في قلداس فاحش. فنحن نعرف الآن أنه لم يكن هناك ساحرات، لكن ذلك السعار الذي كان يمثل نزوة جماعية واسعة اشترك فيها أعضاء محاكم التفتيش، وضحايا كثيرين حملوا بهذه الأشياء، وكان إقناعهم سهلاً بحدوث هذه الأشياء بالفعل. ارتبطت هذه النزوة بمعادة للسامية وبخوف جنسي عميق. فقد ظهر الشيطان كظل لله، مقتدر ومحال أن يكون خيراً. لكن هذه النزوة تحدثت للمتحدث في الدين الإلهي الآخر. فالقرآن على سبيل المثال يوضح أن الله سيفخر للشيطان في يوم الحساب. وقال بعض المتصوفين أنه هبط من السماء لأنه أحب الله أكثر مما أحبه أي من الملائكة. أمره الله أن يسجد لآدم في يوم الخلق لكن الشيطان أبى لأنه اعتقد أن السجود لا يكون إلا لله وحده. أما في الغرب فقد أصبح الشيطان شخصاً يدل على شر لا يمكن ضبطه. وغالباً ماصوره الناس حيواناً هائلاً ذا شهوة جنسية جامحة، وله جهاز تناسلي ضخم. وكما اقترح نورمن كوهن في كتابه /شياطين أوروبا الداخلين/ أن هذه اللوحة للشيطان لم تكن مجرد اسقاط لخوف وقلق دينيين. فجنون السحر كان يمثل أيضاً ثورة تشنجية غير واعية ضد دين قمعي

واله قاس. وكانت محاكم التفتيش تخلق مع الساحرات مريباً في غرف التعذيب نزوة كانت نقيضاً للمسيحية. لقد أصبح القداس الأسود Black Mass مريضاً وانحرافاً لكنه كان مربياً بعيد فيه الشيطان بدلاً من الله الذي بدا قاسياً ومخيفاً جداً لدرجة تعتذر التعامل معه^(١٦).

كان مارتن لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) قوي الإيمان بالسحر، وكان يرى أن الحياة المسيحية كانت مثل معركة مع الشيطان. بالإمكان فهم حركة الإصلاح على أنها مسمى لمخاطبة هذا القلق على الرغم من أن معظم المصلحين لم يطوروا أي مفهوم جديد عن الله. فتمسكة حلقة التغير الديني الهائلة التي حدثت في أوروبا خلال القرن السادس عشر «بالإصلاح» سيكون ذلك تبسيطاً بالطبع. فالكلمة تعني حركة موحدة ومتعمدة أكثر مما حدث فعلاً.

كان المصلحون بتنوعاتهم يحاولون التأسيس لوعي ديني جديد كانوا يحسونه بقوة، لكنهم لم يصيغوه في مفاهيم أو في فكر واضح. فنحن لانعرف تماماً لماذا حدثت حركة الإصلاح: ففي أيامنا هذه يحذرنا العلماء من الروايات التي تقدمها لنا الكتب القديمة. فأسباب التغيرات لم تكن كلها فساد الكنيسة كما يعتقد غالباً، وانفور في الحماس الديني. فكما يبدو كان في أوروبا حماس ديني دفع الناس إلى انتقاد الانتهاكات التي كان الناس يعتبرونها سابقاً بديهيات. لقد انبثقت أفكار المصلحين الحقيقية من العلوم اللاهوتية الكاثوليكية القروسطية. وقد لعب ظهور القومية والمدن في ألمانيا وسويسرا دوراً مماثلاً للدور الذي لعبته التقوى الجديدة والوعي اللاهوتي لعامة الناس خلال القرن السادس عشر. كما ساد في أوروبا إحساس متزايد بالفردية، وهذا الإحساس كان يستلزم مراجعة جذرية للمواقف الدينية الراهنة. فبدلاً من أن يعبر الناس عن إيمانهم بطرق جماعية خارجية كانوا قد بدأوا اكتشاف آثار الدين الداخلية. لقد ساهمت هذه العوامل جميعاً في التغيرات العنيفة والمؤلمة التي دفعت الغرب إلى الحداثة.

كان لوتر، قبل تحوله إلى البروتستانتية، قد أصبح يائساً من إمكانية إرضاء إله أصبح يكرهه: وعلى الرغم من أنني عشت حياة لالأوم نفسي على شيء فيها، شعرت أنني كنت مذنباً، وأنتي لست مستريح الوجدان أمام الله. ولم أكن أعتقد أنني قد أرضيته بأعمالي. فبصرف النظر عن محبة ذلك الله الحق الذي كان يعاقب المذنبين، فإنتي في الحقيقة كرهته. لقد

كنت راهباً فاضلاً، وشديد الالتزام ضمن سلكي للدرجة أنه إذا كان هناك راهب ما، سيصعد إلى السماء لانضباطه الكهنوتي فإني أنا ذلك الراهب. ويؤكد ذلك جميع رفاقي في الدير... مع أن وجداني لم يمدني باليقين، كنت أشك دائماً، وكنت أقول «أنت لم تفعل ذلك كما يجب. لم تكن متأكداً بما فيه الكفاية. لقد تركت ذلك الشيء من اعترافك»^(١٧).

يتعرف مسيحيون كثير في يومنا هذا على هذه الحالة التي لم تستطع حركة الإصلاح إنقاذها تماماً. كان إله لوثر يتسم بالغضب، وامان قديس ولائبي ولازموري Pasimists قادر على احتمال هذا الغضب الإلهي. ولم يكن من المستحسن أن يفعل الإنسان مافي وسعه فقط لأن الله كان أزلياً كلي القدرة، كان غضبه على المذنبين الراضين عن أنفسهم هائلاً ولامتناهياً^(١٨). ولا يمكن التعرف على مشيئته. ليس بوسع الالتزام بقوانين الله أو الترتيب الديني إنقاذنا. في الحقيقة كان القانون الإلهي مجلبة للاتهام والرعب لأن يظهر عدم كفاءتنا. فبدلاً من أن يجلب قانون الله رسالة أمل كان يكشف عن «غضب الله، والذنب، والموت واللعة من منظور الله»^(١٩). ظهر الاختراق الشخصي الذي قام به لوثر عندما صاغ معتقده للتبrette: ليس في وسع الإنسان أن ينقذ نفسه، فالله يقدم كل شيء ضروري للتبrette، وإعادة علاقة بين المذنب والله. فالله إيجابي والبشر سلبيون وحدهم. أعمالنا الخيرة، والالتزام بالشرع ليست السبب في تبرئتنا، بل النتيجة فقط هي التي تبرئنا. فنحن قادرون على الالتزام بفاهيم الدين لأن الله قد أنقذنا. وهذا ما عناه القديس بولص في عبارته «التبrette بالإيمان».

لم يكن في نظرية لوثر شيء جديد. لقد كانت سارية في أوروبا منذ مطلع القرن الرابع عشر. لكن ما أن أمسك لوثر بها، وجعلها فكرته حتى شعر أن كل مخاوفه قد تلاشت. فالكشف الذي حدث «جعلني أشعر وكأنني قد ولدت من جديد، كأنني دخلت عبر بوابات مشرعة إلى الفردوس نفسه»^(٢٠).

مع ذلك بقي لوثر شديد التشاؤم حول الطبيعة البشرية. ففي نهاية عام ١٥٢٠ طور مأسماه لاهوت الصليب. لقد تبنى عبارة القديس بولص التي خاطب بها المؤمنين الكورنثيين بأن صليب المسيح قد أوحى أن «حماية الله هي أكثر حكمة من الحكمة البشرية، وأن ضعف الله أقوى من قوة البشر»^(٢١). فالله يبرئ المذنبين الذين يعتبرون مخطئين إذا ما طبقت عليهم المعايير البشرية، وأهلاً للعقاب. ففوة الله كانت تتكشف في

ما كان يعتبر ضعفاً في عيون البشر. بينما كان لوريا يعلم القبايل أن بالإمكان العزور على الله في الهدوء والسعادة كان لوثر ينادي أن «الإمكان العزور على الله في الألم والصليب»^(٢١). طور لوثر من هذا الموقع لاهوتاً جديلاً ضد السكولاستية بميزاً اللاهوتي المزيف الذي يقدم عرضاً للذكاء البشري فيعتبر أن «الإمكان فهم أشياء الله الخفية بكل وضوح»^(٢٢)، عن اللاهوتي الحق الذي يفهم أشياء الله المرئية الواضحة عبر الألم والصليب»^(٢٣). بدأ الاعتقاد بالتالوث والتجسيد عرضة للشك بسبب الطريقة التي صاغها فيها آباء الكنيسة؛ والتي كانت معقدة إلى حدٍ بدأ معها (لاهوت الفترة) زائفاً. مع ذلك بقي لوثر وفياً لمعتقدات نيقيا Nicaea وإفسوس Ephesus وشاليسندون Chalcedon. كانت تعتمد نظريته في الثبوت على ألوهة المسيح والبناء التالوثي. كانت هذه المعتقدات التراثية بالله متجنزة بعمق في التجربة المسيحية، ولاداعي لأن يتساءل عنها لوثر أو كالفن. لكن لوثر رفض الغموض الذي صاغه اللاهوتيون الزائفون. تساءل قائلاً «ما الفرق بالنسبة لي؟» عندما واجهته المعتقدات التعليلية اللاهوتية لشخص المسيح: كل ما كان بحاجة لمعرفة كان: إن المسيح هو مخلصه»^(٢٤).

كان لوثر يشك بإمكانية البرهنة على وجود الله. قاله الوحيد الذي بالإمكان استنتاجه من النقاش المنطقي - كالذي استخدمه توما الإكويني كان إله الفلاسفة الوثنيين. فعندما نادى لوثر بأن «الإيمان» يربطنا لم يكن يقصد تبني الآراء الصحيحة حول الله: الإيمان لا يتطلب معلومات ومعرفة يقينية كما ورد في إحدى مواضعه «بل استسلام حر ورهان سعيد على خيرية الله غير المعروفة والتي ليست بحاجة إلى إثبات»^(٢٥). لقد استشرّف حلولاً بامسكال وكيرغارد لمشكلة الإيمان. فالإيمان لم يكن يعني الموافقة على مقترحات عقيدة ما وليس اعتقاداً في رأي عقيدتي. كان الدين قفزة في الظلام باتجاه حقيقة يجب تبنيها بثقة. كان نوعاً من «معرفة وظلمة لا يرى المؤمن فيهما شيئاً»^(٢٦). لقد أكد على أن الله قد حرم تحريماً تاماً النقاش التأملّي لطبيعته. فمحاولة الوصول إليه عبر العقل وحده قد تكون خطرة، وتؤدي إلى اليأس لأن ما سنكتشفه هو قدرة الله وحكمته وعدائته التي لا ترعب سوى المذنبين المذنبين. فبدلاً من أن يخوض المسيحي في نقاش عقائلي حول الله ينبغي عليه أن يوائم بين الحقائق الموضحة في الكتاب المقدس وأن يجعلها حقائقه هو؛ وقد أوضح لوثر السبيل إلى ذلك في العقيدة التي صاغها في كتابه (حوار عقيدتي صغير):

أؤمن أن يسوع مولود من الآب من الأزل، وأؤمن أيضاً بالإنسان الذي ولدته مريم العذراء هو ربي الذي خلصني بعد أن كنت مخلوقاً ضالماً مداناً، وخلصني من جميع ذنوبي، من الموت، ومن سطوة الشيطان، لم يفتديني بالفضة أو الذهب بل بدمه المقدس الثمين، وبعباده البريء، وموته كي أعيش تحته، وفي ملكوته، وأن أخدمه بالطريق القويم المبارك إلى الأبد حتى عندما يبعث من عالم الأموات والعصور إلى الأبد^(٢٨).

كان لوثر مدرباً في اللاهوت السكولاستي، لكنه تحول إلى أشكال إيمانية أكثر بساطة، وعمل ضد لاهوت القرن الرابع عشر الغامض الذي لم يكن يوسع فعل شيء كي يهدئ من مخاوفه. مع ذلك فهو شخصياً كان غامضاً عندما حاول شرح كيف تتم تبرئتنا. فأوغسطين بطل لوثر قد علم أن الاستقامة الإلهية أصبحت جزءاً منا، وأصر لوثر على أن الاستقامة بقيت خارج للذنب، لكن الله اعتبرها وكأنها كانت استقامتنا نحن. لقد أدت حركة الإصلاح إلى إرباك عقائدي، وإلى تكاثر معتقدات جديدة كرايات لطوائف عديدة كانت ضعيفة وتقية مثل بعض الطوائف التي سمعت كي تحمل مكانها.

زعم لوثر أنه وُلِدَ ثانية عندما صاغ معتقد التبرئة، لكن لا يبدو أن جميع مخاوفه قد زالت فقد بقي متضيقاً غاضباً وعنيفاً. فجميع التراثات الدينية الرئيسية تزعم أن حمض الاختبار لأية روحانية هو الدرجة التي تتكامل فيها في الحياة اليومية. فكما قال بوذا أن على المرء بعد الاستنارة «أن يعود إلى مكان السوق» ويمارس الرحمة على الكائنات البشرية. إحساس بالسكينة والهدوء، وإحساس بالحُب هذه جميعاً نقاط عَلامَ للرؤية الدينية الحققة. كان لوثر معادياً للسامية متطرفاً، وكان كارهاً للنساء، ويتشنج من كراهيته ورعبه من الجنس، وكان يعتقد أن جميع الفلاحين المتمردين يجب أن يقتلوا. فرويته لإله غاضب ملأته بغضب شخصي، وقد اقترح البعض أن شخصيته القتالية قد أوقعت ضرراً كبيراً بحركة الإصلاح. ففي بداية حياته كمصلح كان الكثيرون من الكاثوليك المتعصبين يتبنون الكثير من أفكاره، وكان بإمكانهم أن يعطوا الكنيسة حيوية جديدة، لكن تكتيك لوثر العدواني جعلهم عرضة لشك غير ضروري^(٢٩).

في نهاية المطاف كان لوثر أقل أهمية من جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) الذي كان منحي الإصلاح السويسري لديه مبنياً على أكثر من لوثر، على مثل النهضة، وكان ذا تأثير عميق على روح الشعب الغربية الناهضة. ففي نهاية القرن السادس عشر كانت الكالفانية قد ترسخت كمعقدة عالمية بجزاياها ومساوئها. كانت قادرة على تحويل المجتمع،

وأن تمدد الناس بالإلهام بأنهم يستطيعون بلوغ ما كانوا يريدونه. فقد ألهمت الأفكار الكالفانية الثورة البيوريتانية في إنجلترا بزعامة كرومويل في عام ١٦٤٥ ، واستعمار نيو انجلاند في عام ١٦٢٠ . كانت معظم أفكار لوثر محصورة في تأثيرها على ألمانيا بعد وفاته، بينما بدت أفكار كالفن أكثر تقدمية. لقد طور تلاميذه تعاليمه، وأثروا على الموجة الثانية من حركة الإصلاح. أشار المؤرخ هورغ فريפור روبر إلى أن الكالفانية كان يتخلى عنها معتقوها بسهولة أكبر من تخلي معنقي الكاثوليكية الرومانية؛ ومن هنا جاء القول المأثور «إذا اعتنقت الكاثوليكية، فإنك سوف تبقى كاثوليكياً دائماً». مع ذلك فقد أحدثت الكالفانية تأثيرها الخاص بها: فعندما يتم التخلي عنها يمكن عندئذ التعبير عنها في أساليب دينوية^(٣٠). وكان هذا صحيحاً في الولايات المتحدة بشكل خاص. فالأمريكيون الذين ماعادوا يؤمنون بالله كان بإمكانهم الإقرار بالأخلاق البيوريتانية في ميدان العمل، وبفكرة الاصطفاء الكالفانية: لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم «أمة مختارة» عَلمَها ويُثَلِّها لهما غاية نصف إلهية. فالأديان الرئيسية كما رأينا - كانت بأحد معانيها نتائج الحضارة، وبخاصة حضارة المدينة. لقد تطورت في عصر كانت فيه طبقات التجار تصعد فوق المؤسسة الوثنية القديمة، وأرادت أن تضع قدرها في أيديهم. كانت النسخة الكالفانية للمسيحية جذابة للبيورجوازية، خاصة في المدن الأوروبية الحديثة التطور، هذه البيورجوازية التي أرادت تحطيم أغلال الكهنوت القمعي.

لم يكن اللاهوتي السويسري هولدرش زلفلي (١٤٨٥ - ١٥٣١) مهتماً بالعقيدة تحديداً كما كان كالفن. كان اهتمامه منصباً على جوانب الدين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كان يريد العودة إلى ورع أكثر بساطة، كما في الكتاب المقدس، لكنه تبنى الاعتقاد بالتأثير على الرغم من أن أصل مفرداته ليس الكتاب المقدس فكما كتب في / معاهد الدين المسيحي/ أعلن أن الله واحد، لكنه يطرح هذه المقولة أمامنا موجوداً في شخوص ثلاثة^(٣١). وقام بإعدام اللاهوتي الإسباني ميشيل سرفينتوس في عام ١٥٥٣ لأنه أنكر التأثر. كان سرفينتوس قد هرب من إسبانيا الكاثوليكية ملتجئاً إلى جنيف الكالفانية، ومبشراً بأنه كان يعود إلى دين الرسل وآباء الكنيسة الأوائل الذين لم يسمعو قط بهذا المعتقد الغريب. فقال أنه لا يوجد شيء في العهد الجديد يناقض الوحدانية الصارمة للنصوص المقدسة اليهودية. وبالتالي كان الاعتقاد بالتأثر بفكرة بشرية «حرفت عقول الناس عن معرفة المسيح الحق، وقدمت لنا إلهاً ثلاثياً»^(٣٢). شاركه في معتقده مصلحان إيطاليان هما: جورجيو فاللورانا (١٥١٥ - ١٥٩٠) وفلاستوس سومينوس (١٥٣٩ -

١٦٠٤) اللذان هربا إلى جنيف، لكنهما اكتشفا أن لاهوتهما كان أكثر تحمراً إذا ما قورن بحركة الإصلاح السويسرية، وهما لم يلتزما بالنظرة التقليدية الغربية للفقراء. لم يعتقد أن الرجال والنساء نالوا البراءة بموت المسيح بل نالوها من خلال إيمانهم أو ثقتهم بالله. فقد أنكر سوسينوس في كتابه /المسيح المنقذ/ ما يسمى بعقيدة مجمع نيقيا المسكوني: فعبارة «ابن الله» لم تكن تعبر عن طبيعة يسوع الإلهية بل كانت تعني أن الله كان يحبه محبة خاصة. وأنه لم يميت كي يغفر لنا ذنوبنا بل كان مجرد معلم فأوضح وعلم السبيل إلى الخلاص». أما بالنسبة إلى الاعتقاد بالثالوث الذي كان مجرد تضخيم فهو رواية خيالية «لا يقبلها العقل»، وتشجع المؤمن على الاعتقاد بآلهة ثلاثة منفصلة^(٣٣). بعد إعدام سرفينوس هرب بالاندراثا وسوسينوس إلى بولندا وترانسلفانيا حاملين معهما دينهما الوحيداني الإله.

كان زفنغلي وكالفن يعتمدان على أفكار أكثر تقليدية حول الله، وأكدوا على سلطته المطلقة - كما فعل لوثر - ولم يكن هذا مجرد اقتناع فكري بل نتيجة لتجربة شخصية جداً. ففي آب ١٥١٩ أي بعد أن بدأ زفنغلي عمله كوزير في زيوريخ، حين كان الوفاء قد أجهز على ٢٥٪ من سكان المدينة وشعر أنه مغلول لاحول له ولاطول بعد أن أدرك أن ليس بإمكانه فعل شيء لانقاذ نفسه، لم يخطر له أن يصلي إلى القديسين ليمدوا لهم العون، أو يطلب تدخل الكنيسة لصالحه. وبدلاً من ذلك رمى نفسه لرحمة الله، وكتب هذا الدعاء المميز:

افعل ما تشاء،
لأنني لا أفكر إلى شيء،
إنني دعاؤك
كي تستعاد أو يدمر^(٣٤).

كان استسلامه ماثلاً للمثل الأعلى في الإسلام: فالمسيحيون الغربيون مثلهم مثل اليهود والمسلمين في مرحلة مماثلة من تطورهم لم يهودوا واثبتوا بقبول وسطاء، بل كانوا يطورون إحساساً بمسؤوليتهم الثابتة أمام الله. وبنى كالفن أيضاً إصلاحه الديني على الحكم المطلق لله، دون أن يترك لنا عرضاً كاملاً لتجربته التي حولته. يخبرنا في كتابه /تعليق على المزامير/ أن تحولته كان من عمل الله بالكامل. وكان مستعبداً تماماً بالكنيسة الدستورية وبالحرفات البابوية. لم يكن قادراً وبالأحرى لم يكن راغباً بالانعتاق منهما، وإن عمل الله هو الذي خلصه «وأخيراً حول الله مساري في اتجاه مختلف عن طريق لحام رعايته

الخفي. بتغير مفاجئ إلى الانقياد، فلدجن عقلاً عنيداً جداً^(٣٥). كان الله وحده المسيطر، وكان كالفن عاجزاً تماماً أمامه، وشعر أنه تم اختياره لمهمة خاصة بإحساسه المرهف لعجزه وإخفاقه.

كان هذا التحول الجذري سمة مميزة للمسيحية الغربية منذ عهد أوغسطين، وسوف تستمر البروتستانتية في تراث الانفجار المفاجئ والعنيف من الماضي أي مأساءه الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس دين «ولادة مزدوجة» والأرواح المريضة^(٣٦). كان المسيحيون يولدون من جديد على إيمان بالله ورفض كوكبة من الوسطاء الذين وقفوا حاجلاً بينهم وبين الله في الكنيسة القروسطية. قال كالفن إن الناس كان يجلون القديسين بدافع من خلقهم، كانوا يريدون استرضاء إله غاضب بكسب مودة القريين منه. فعندما كان البروتستانتيون يسمعون أن القديسين غير مؤثرين كانت تنفجر كمية كبيرة من غضبهم وعداوتهم التي كانوا يحسون بهما تجاه إله غاضب في رد فعل مركز. فقد وجد الإنساني البريطاني توماس مور حقناً شخصياً في كثير من النقد اللاذع الموجه إلى عبادة القديسين الوثنية^(٣٧). وكان يجد هذا الحقن متنفساً له في عنف تحطيم الصور. كان البروتستانتون والبيوريتانيون يدينون الصور الميتة في العهد القديم بأقصى جدية عندما هشموها تماثيل القديسين ورمم العنقاء، وطلوا اللوحات الجدارية في الكنائس والكاتدرائيات باللون الأبيض. دلت قوة حماسهم أنهم كانوا خائفين من تأثيم هذا الإله الغيور الغاضب بمقدار خوفهم عندما كانوا يصلون للقديسين كي يتوسطوهم، وأوضحت كذلك أن هذا الحماس لعبادة الله وحده لم يكن نابعاً من اقتناع هادئ بل من إنكار قلق جعل الإسرائيليين القدماء يحطمون أعملة عشيرة، ويصبون سيولاً من الشتائم على آلهة جيرانهم.

يذكر كالفن عادة بإيمانه بالقدر، لكن اعتقاده هذا لم يكن مركزياً في فكره: ولم يصبح أمراً حاسماً في الكالفانية حتى بعد موته. فمشكلة مصالحة كلية القدرة الإلهية، وكلية معرفته مع حرية الإرادة البشرية تنبع من مفهوم تم تصويره للإله (anthropomorphic) أي خلج صفات بشرية على الآلهة). فقد رأينا أن المسلمين قد واجهوا هذه الصعوبة خلال القرن التاسع دون أن يجدوا مخرجاً منطقياً أو عقلياً لها، فقد شددوا على سر وعدم القدرة على معرفة الله. بيد أن هذه المسألة لم تزعج المسيحيين الأرثوذكس اليونانيين الذين كانوا يستمتعون بالتناقض ووجدوها مصدراً للنور والإلهام، لكنها كانت نزاعاً قاسياً في الغرب حيث كانت تسود نظرة أكثر شخصانية لله. حاول الناس التحدث عن مشيئة الله وكأنه كان مجرد كائن بشري، خاضع لنفس القيود مثلاً،

وكان يُسَيِّر العالم فعلياً كحاكم دنيوي. هذا وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد أدانت فكرة أن الله قد قَدَّر مسبقاً من حلت عليهم اللعنة إلى جهنم، فقد استخدم أوغسطين كلمة «القدر المسبق» ليلطِّفها على قرار الله في انتقاد النخبة، لكنه أنكر أن بعض الأرواح الضالة محكوم عليها بالهلاك، علماً أن هذه كانت نتيجة منطقية لفكره. لقد أعطى كالفن حيزاً يسيراً لموضوع القدر المسبق في معاهدته. فعندما ننظر في شؤوننا يبدو أن الله كان يفضل فعلاً أناساً على آخرين كما اعترف كالفن. ولماذا استجاب البعض للإنجيل، ولم يكرث له آخرون؟ هل كان الله يتصرف بطريقة اعتباطية أو غير عادلة؟ أنكر كالفن أن يكون الاختيار الظاهري للبعض وإهمال آخرين دليلاً على سر الله^(٣٨). لم يكن هناك حل عقلاني للمشكلة التي بدت أنها تتضمن أن حب الله وعدله لا يمكن التوفيق بينهما، ولم يسبب هذا قلقاً كبيراً لكالفن لأنه لم يكن مهتماً كثيراً بالعقيدة.

نبعد وفاته، عندما احتاج الكالفانيون أن يميزوا أنفسهم عن اللوثريين من ناحية وعن الكاثوليك الرومان من ناحية أخرى قام تيودور بيزا (١٥١٩ - ١٦٠٥) الذي كان الساعد الأيمن لكالفن في جنيف بتولي القيادة بعد وفاته، وجعل القدر المسبق العلاقة المميزة للكالفانية. لقد صاغ هذا التناقض بمنطق لايلين. فيما أن الله كلي القدرة بالتالي ليس في وسع الإنسان المساهمة بشيء في خلاصه، كان الله غير قابل للتغير، وأوامره عادلة وأبدية: وهكذا فقد قرر منذ الأزل أن ينقذ البعض، وقدر مسبقاً اللعنة الأبدية على الباقين، تراجع بعض الكالفانيين عن هذا الاعتقاد اليغضب المرعب، وجادل جاكوب أرمينيوس في البلاد المنخفضة أن هذا الاعتقاد كان نموذجاً للاهوت رديء لأنه يتحدث عن الله وكأنه كائن بشري. كان الكالفانيون يعتقدون أن بالإمكان مناقشة الله موضوعياً مثل مناقشة أية ظاهرة أخرى، فكانوا يطورون أرسطية جديدة كانت تشدد على أهمية المنطق والميتافيزيقا. كانت هذه الأرسطية مختلفة عن أرسطية القديس توما الإكويني، لأن اللاهوتيين الجدد لم يكونوا مهتمين بمضمون فكر أرسطو قدر اهتمامهم بطريقته العقلانية. لقد أرادوا تقديم المسيحية كمناهج عقلاني متماسك بالإمكان استنباطه من خلال استنتاجات استقرائية قائمة على بديهيات معروفة. فكان هذا مفارقة كبيرة بالطبع لأن المصلحين جميعاً قد رفضوا هذا النقاش العقلاني لله. فاللاهوت الكالفاني اللاحق المتعلق بالقدر المسبق أظهر ماقد يحدث عندما لم يعد التناقض وسر الله يعتبران شعراً بل يفسران بمنطق متماسك لكنه منطوق مرعب. فما أن يبدأ التفسير الحرفي للكتاب المقدس بدلاً من التفسير الرمزي حتى تغدو فكرة الله مستحيلة. فإذا تخيلنا أن إلهاً مسؤول فعلياً عن كل شيء يحدث على الأرض فإن هذا يتضمن تناقضات مستحيلة فإله الكتاب المقدس يتوقف عن كونه رماً

لوجود متعالٍ ليصبح طاغية ظالماً وقاسياً. وبين الاعتقاد بالقدر المسبق عيوب إله شخصي كذلك.

بنى البيوريتانيون تجربتهم الدينية على فكرة كالفن، فوجدوا - كما يتضح - أن الله صراع. فلا يبدو أنه أمدهم بالسعادة أو بالرحمة. وتبين يميزهم الذاتية ومجالاتهم أنهم كانوا محسوسين بفكرة القدر المسبق، ويرعب من أنهم لن ينفذوا. وهكذا أصبح التحول شاغلاً مركزياً، مسرحية معذبة عنيفة يصارع فيها المذنب وموجهه الروحي كل من أجل خلاص روحه. كان على التائب الخضوع لإذلال شديد أو تجربة يائس حقيقة من نعمة الله حتى يدرك اتكاله الكلي على الله. ففي أغلب الأحيان كان التحول يمثل إزالة العقد النفسية: تحول غير صحي من يأس متطرف إلى ابتهاج. وقد قاد التشديد المكثف على الجحيم واللعة - متحداً بتدقيق الذات مبالغ فيه - بالكثيرين إلى إحباط إكلينكي: فكان الانتحار سائداً، وكان البيوريتانيون يعزونه إلى الشيطان الذي بدا حضوره في حياتهم قادراً كإله^(٣٩). كانت النزعة البيوريتانية ذات بعد إيجابي فعلاً: لقد أعطت الناس إحساساً بالكبرياء في عملهم الذي كانوا يمارسونه وكلما هو نوع من الرق، فأصبحوا يرونه «نداءاً». ولقد ألهمت الروحانية الرؤوية العاجلة البعض باستعمار العالم الجديد. لكن إله البيوريتانيين - في أسوأ حالاته - ألهمهم القلق وعدم تسامح فظ للذين لم يكونوا من ضمن النخبة.

وهكذا أصبح الكاثوليكيون والبروتستانتون يعتبرون بعضهم أعداءً علماً أن مفهومهم ومعرضهم حول الله كانت متماثلة بشكل ملحوظ. فبعد المجلس الكنسي في ترينت ١٥٤٥ - ١٥٦٣ ألزم اللاهوتيون الكاثوليك أنفسهم بلاهوت الأرسطية المحدثة الذي حصر دراسة الله بعلم الطبيعة. فالمصلحون مثل اغناطيوس لويولا (١٤٩٠ - ١٥٥٦) مؤسس جماعة يسوع شارك في التأكيد البروتستانتي على معرفة مباشرة بالله، والحاجة إلى كشف مناسب، وأن يجعله المرء خاصاً به. فالغاية من التمارين الروحية التي طورها اليسوعيون الأوائل أن تغري بالتحول، والتي قد تكون تجربة مؤلمة، مدمرة وشديدة الغبطة في آن معاً. فمن خلال تأكيدها على تحيز الذات وقرار شخصي فإن هذه الغزلة التي تدوم ثلاثين يوماً تتخذ فيها خطوات - خطوة تلو أخرى، بإشراف مرشد كانت مماثلة للروحانية البيوريتانية. وتمثل هذه التمارين دورة منهجية عالية الكفاءة في الصوفية. فقد طور المتصوفون تمارين مماثلة التي يستخدمها المحللون النفسيون اليوم، ومن الهام أيضاً أن نرى الكاثوليك والأنجليكانيين يستخدمون هذه التمارين لتقديم نطع علاجي بديل.

كان اغناطيوس مدرّكاً لمخاطر الصوفية الزائفة. وأدرك - مثل لوريا - أهمية الهدوء

والبهجة محذراً مريديه من الإفراط الانفعالي الذي دفع بعض البيوريتانيين إلى الحافة. ففي كتابه/قواعد للأرواح البصيرة/ يقسم الانفعالات المتنوعة التي من المحتمل أن يتعرض لها الممارس خلال عزله إلى: انفعالات قد تأتي من الله وانفعالات تأتي من الشيطان. يجب أن يحس الممارس بالله في سلام وأمل وبهجة و«سمو عقلي» بينما يأتي الهدوء والحزن وعدم المتعة والضياع من «الروح الشريرة». كان إحساس اغناطيوس بالله شديداً: جعله يبكي غبطة، وقال ذات مرة أن دون هذا الإحساس لن يكون قادراً على العيش. لكنه لم يكن يثق بتبدلات الانفعال العنيفة، وشدد على حاجة المريد في رحلته إلى ذات جديدة. لقد رأى المسيحية - كما رآها كالفن - لقاء مع المسيح ثم التخطيط له في التمارين: فكانت الذروة «التأمل» للحصول على الحب الذي يرى «جميع الأشياء كمخلوقات من فضل الله وانعكاسات له»^(٤٠). فبالنسبة لأغناطيوس كان الله يملأ العالم. فخلال عملية تقديس كان مريدوه يستذكرون.

كما نرى غالباً أن حتى الأشياء الصغيرة كان باستطاعتها أن تجعل روحه تخلق نحو الأعلى، إلى الله الذي هو الأعظم حتى في الأشياء الصغيرة. ولدى رؤية نبات، أو ورقة، أو زهرة، أو ثمرة، أو دودة أو حيوان صغير كان باستطاعته أن يحلق حراً فوق السموات، وأن يصل إلى داخل الأشياء التي تقع خارج الحواس^(٤١).

عرف اليسوعيون الله - مثلما عرفه البيوريتانيون - كقوة دينامية تملوهم ثقة وقدرة في أفضل حالاتها. فكما تجرأ البيوريتانيون على عبور الأطلنطي للاستقرار في نيو انجلند كذلك طافت البعثات التبشيرية اليسوعية العالم: فرانسيس زافير (١٥٠٦ - ١٥٥٢) نشر الانجيليكانية في الهند واليابان. ومايورتشي (١٥٥٢ - ١٦١٠) أخذ الانجيل إلى الصين، وروبرت دونوميلي (١٥٧٧ - ١٦٥٦)، أخذ الانجيل إلى الهند. كان اليسوعيون علماء متحمسين. وقد قال بعضهم أن أول نقابة علمية لم تكن الجمعية الملكية في لندن أو الجامعة الأكاديمية في سيمنتو Cimento بل الجامعة اليسوعية.

مع ذلك هذا الكاثوليك مضطربين مثل البيوريتانيين. فاغناطيوس مثلاً اعتبر نفسه مذنباً كبيراً للدرجة أنه كان يدعو كي يكشف جسده بعد موته فوق تلة روث كي تأكله الطيور والكلاب. وقد حذره أطباؤه من أنه قد يفقد بصره إذا مااستمر في الهكاء أثناء القداس. تيريزا أفيللا التي أصلحت حياة أديرة النساء في سلك الكورمليت الحافي رأت رؤيا مرعبة شاهدت المكان المحجوز لها في جهنم. وبدا وكأن القديسين الكبار في تلك الفترة

كانوا يعتبرون الله والعالم نقيضين لا يمكن التوفيق بينهما: كي ينال المرء الخلاص عليه أن ينكر العالم وكل المشاعر الطبيعية. كان فنتيث دو بول الذي عاش حياة تنسم بالخبية والأعمال الصالحة يدعو الله أن ينتزع منه حبه لوالديه. جين فرانسيس دوشا لثال التي أسست سلك العذراء خطت فوق جسد ابنها عندما مضت كي تنضم إلى ديارها: رمى ابنها نفسه على عتبة البيت كي يمنعها من الرحيل. لقد حاولت النهضة التوفيق بين السماء والأرض بينما حاولت حركة الإصلاح الكاثوليكية شقهما نصفين. فلربما جعل الله المسيحيين المصلحين في الغرب أكفاء ومقتدرين لكنه لم يجعلهم سعداء فعصر حركة الإصلاح كان عصر خوف كبير من كلا الجانبين: كان هناك رفضاً عنيفاً للماضي، وإدانات مريرة وحرمان من الكنيسة، هرطقة مرعبة وانحراف معتقدي، وعي منافق بالذنب وهاجس بالبحيم. ففي عام ١٦٤٠ تم نشر الكتاب الذي أثار الجدل، كتاب الهولندي الكاثوليكي كورنيلوس جانسن الذي نادى بما نادى به الكلفانية: إله مرعب، قدر محتم لجميع الناس ماعدا المختارين إلى لعنة أبدية. من الطبيعي أن يمدح الكالفانيون الكتاب بعد أن وجدوا أنه يعلم معتقد سلطة لاسبيل إلى مقاومتها لنعمة الله، وأن هذا الاعتقاد صحيح ومنسجم مع معتقد الإصلاح^(٤٢).

كيف نستطيع مواجهة هذا الخوف واليأس المنتشرين في أوروبا؟ لقد كانت فترة قلق شديد: نوع جديد من المجتمع - قائم على العلم والتكنولوجيا - بدأ يظهر وسيهزم العالم في فترة وجيزة. بدأ أن الله غير قادر على إزالة هذه المخاوف، ولا على تقديم العزاء الذي وجده اليهود السفارديم في أساطير اسحق لوريا - على سبيل المثال. بدأ الله لمسيحيي الغرب وكأنه شيء من عبء، ويبدو أن المصلحين الذين سعوا إلى تهدئة هذه المخاوف الدينية إنما جعلوا الأمور أكثر سوءاً، فإله الغرب الذي اعتقد الناس أنه قدر للعنة الأبدية على ملايين البشر أصبح مخيفاً أكثر من الإله القاسي الذي صورته تيرتوليان أو أوغسطين في اللحظات الحالكة. فهل كان ممكناً أن يكون مفهوم تخيلي عمداً قائم على الميثولوجيا والصوفية أكثر فعالية كوسيلة تقدم الشجاعة للنجاة من مأساة وقلق أكثر من إله تُفسر أساطيره حرفياً؟

في نهاية القرن السادس عشر شعر أناس كثيرون أن الدين كان مشوهاً بشكل محزن. كانوا يشعرون بالغثيان من اقتتال البروتستانت والكاثوليك. فمات مئات من الناس شهداء لاعتنائهم آراء من إحمال البرهنة عليها بشكل أو بآخر. المذاهب التي تبشر بتنوع معتقدات مربك كان مبرورها الوحيد هو فكرة الخلاص، وقد تكاثرت هذه المذاهب بشكل

مزيج. كانت هناك خيارات دينية كثيرة شعر الكثيرون أنهم مشلولون وقلقون من جراء تنوع التفسيرات الدينية المعروضة. فلربما شعر البعض أن بلوغ الإيمان قد أصبح أكثر صعوبة من ذي قبل. ففي هذه المرحلة من تاريخ الله الغربي بدأ الناس يعتبرون الملحدن الذي بدأ عددهم كبيراً كعدد الساحرات، أعداء الله القدامى وحلفاء للشيطان. فقد قيل أن هؤلاء الملحدن أنكروا وجود الله، وكانوا يكسبون أنصاراً لذهبيهم وبذلك ينسفون لحمة المجتمع. في الحقيقة إن إلحاداً كاملاً بالمعنى الذي تستخدم فيه هذه الكلمة اليوم كان أمراً مستحيلاً. فكما أوضح لوسيان فييفر في كتابه الكلاسيكي /مشكلة عدم الإيمان في القرن السادس عشر/ الصعوبات المفهومية في أسلوب إنكار تام لوجود الله في هذا القرن كانت كبيرة جداً لدرجة أنه لا يمكن التغلب عليها. كان الدين يسيطر على حياة كل امرئ بدءاً من الولادة والتعميد إلى الموت والدفن في باحة الكنيسة. فكل نشاط يومي توقفه أجراس الكنائس داعية المؤمنين إلى الصلاة وكان مشوباً بمعتقدات ومؤسسات دينية، كانت مهيمنة على الحياة العامة والمهنية، وحتى النقابات والجامعات كانت تنظيماً دينية. ويشير فييفر إلى أن الله والدين كانا موجودين بكثرة لدرجة أن مامن امرئ في هذه المرحلة كان يفكر أن يقول: «لذلك فحياتنا، كل حياتنا تسيطر عليها المسيحية وبا لصغر مساحة حياتنا التي غدت دينية إذا ما قورنت بكل شيء يسيطر عليه، وينظمه، ويشكله الدين»^(٤٣). وحتى المرء الاستثنائي الذي كان باستطاعته بلوغ الموضوعية الضرورية كي يتساءل عن طبيعة الدين ووجود الله، لم يكن ليجد دعماً في فلسفة عصره أو علمه. وإلى أن تشكلت مجموعة من الأسباب التماسكة كل منها قائم على مجموعة علمية، ما من أحد كان بإمكانه إنكار وجود إله كان يشكل دينه الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية والعاطفية في أوروبا. فدون هذا الدعم فإن إنكاراً كهذا سيكون نزوة شخصية أو دافعاً عابراً لا يستحق أن يعتبر جدياً. فكما أوضح فييفر فإن لغة محلية كالفرنسية كانت تفتقر إلى مفردات أو تراكيب مناسبة للرؤية، وكلمات مثل «منطق»، و«نسبي» و«سببية» أو «مفهوم» أو «حس» لم تكن مستخدمة آنذاك^(٤٤). ينبغي أن نتذكر أيضاً أن مامن مجتمع قد استأصل الدين الذي كان الناس يقبلوه بديهياً كإحدى حقائق الحياة. ولم يحدث ذلك إلا في نهاية القرن التاسع عشر عندما وجدت حفنة من الأوروبيين أن من الممكن إنكار وجود الله.

إذن ما الذي كان الناس يعنون عندما كان يتهم أحدهم آخر بالإلحاد؟ العالم الفرنسي مارين مرسين (١٥٨٨ - ١٦٤٨) الذي كان عضواً في سلك فرانسيسكاني

مترمت أعلن أن هناك نحو /٥٠.٠٠٠/ ملحد في باريس وحدها، لكن معظم الملحدين الذين ذكر أسمائهم كانوا يؤمنون بالله. وبمبير كارين الذي كان صديقاً لميشيل مونتييني دافع عن الكاثوليكية في كتابه /الحقائق الثلاث/ ١٥٨٩ لكن في كتابه الرئيسي /حقائق الحكمة الثلاث/ شدد على عجز العقل، ونادى بأن الإنسان يستطيع الوصول إلى الله عبر الإيمان، لكن مرسين لم يوافق على هذا ورأى أنه معادل للإلحاد. فأحد غير المؤمنين الذين شجبهم كان العقلائي الإيطالي جيوردانو برونو (١٥٥٨ - ١٦٠٠) علماً أنه كان يؤمن بنوع من إله رواقى هو روح وأصل ونهاية الكون. أطلق مرسين على هذين الرجلين ملحدين لأنه اختلف معهما حول الله لا لأنهما أنكرا وجود كائن أسمى. بالطريقة نفسها كان وثيوا الإمبراطورية الرومانية يطلقون على اليهود المسيحيين كلمة ملحدين لأن رأيهم في المقدس كان مختلفاً عن رأي الوثنيين بينما اقتصرت كلمة ملحد على اللاهوت الجدلي فقط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. في الحقيقة كان سهلاً أن تطلق على عدو لك كلمة ملحد بالطريقة نفسها التي كان يستخدم فيها الناس كلمات مثل «فوضيون» أو «شيوخيون» في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. أصبح الناس بعد حركة الإصلاح قلقين على المسيحية إنما بطريقة جديدة. كانت كلمة «ملحد» مثل كلمة «الساحرة» أو «فوضوي» أو شيعي اسقاطاً لقلق دفين. كانت تعكس قلقاً دفيناً حول الإيمان، وكان بالإمكان استخدامها كتكبيك مفاجئ تخيف المؤمنين وتشجعهم على الفضيلة. فقد دعا الأنجليكاني ريتشارد هوكر (١٥٥٤ - ١٦٠٠) في كتابه /قوانين الدولة الكنسية/ إلى أن هناك نوعان من الملحدين: جماعة قليلة لا تؤمن بالله، وجماعة كبيرة تعيش وكأن الله غير موجود.. فكما يبدو لم يعد الناس يرون هذا الفارق فركزوا على الثاني أي على نمط عملي من الإلحاد. وهكذا في كتاب /مشرح أحكام الله/ ١٥٩٧ للكاتب توماس بيورد الملحد الخيالي الذي أنكر فيه العناية الإلهية وخلود الروح وحياة ما بعد الموت، ووجود الله كما يبدو. وقال جون ونجفيلد في كتابه /الإلحاد مغلفاً ومكشوفاً: المناقش ملحد، الرجل الشرير ملحد، المنتهك، والمتفاجر الوقح ملحد، وكل مالا سبيل لإصلاحه أو تعليمه ملحد^(٤٥). وبالنسبة للشاعر الويلزي وليام فون (١٥٧٧ - ١٦٤١) يعتبر الذين ساعدوا في استعمار نيو انجلند، والذي يرفعون قيمة الإيجارات، أو يفلقون المحلات العامة كل هؤلاء ملحدين. والكاتب المسرحي الإنجليزي توماس ناش (١٥٦٧ - ١٦٠١) أعلن أن الطموح والجشع والنهم، والزهو، والعهر كل هذه صفات الملحدين.

كانت كلمة ملحد إهانة، ولم يكن يقيها أي شخص، ولم تكن بعد يافطة يرفعها

المرء متفائراً. فخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر نُمي الناس في الغرب موقفاً جعل إنكار الله ليس أمراً ممكناً فقط بل وحتى مرغوباً وقدم العلم دعماً لأرائهم، مع ذلك يبدو أن إله المصلحين متحمس للعلم الحديث، لأنهم كانوا يؤمنون بسلطة الله المطلقة. ولهذا السبب رفض لوتر وكالفن رأي أرسطو في الطبيعة على أن لديها قدرات ثابتة خاصة بها. اعتقدا أن الطبيعة كانت سلبية مثل المسيحي الذي يقبل نعمة الخلاص من الله دون أن يفعل شيئاً بنفسه. فقد أوصى كالفن صراحة بالدراسة العلمية للعالم الطبيعي الذي جعل الله المستتر نفسه معروفاً من خلاله.

تبناً لذلك لم يكن هناك نزاع بين العلم والكتاب المقدس: فالثقافة نفسها مع حدود البشرية مثلما يكيف خطيب بارع فكره وكلامه بما يتناسب وقدرته مستمعيه. اعتقد كالفن أن قصة الخلق كانت مثلاً على حديث الأطفال التي ناسبت العمليات المعقدة والغامضة بما يتناسب مع عقلية الناس البسطاء بحيث يؤمن كل شخص بالله^(٤٦). وينبغي ألا تؤخذ قصة الخلق حرفياً.

لم تكن الكاثوليكية الرومانية منفتحة العقل دائماً، ففي عام ١٥٣٠ كان الفلكي البولندي ليكولاس كوبرنيكوس قد أكمل كتابه /De Revolutionibus/ الذي قال فيه أن الشمس هي مركز الكون، وطبع قبل وقت قصير من وفاته عام ١٥٤٣، فوضعت الكنيسة على قائمة الكتب المحرمة. وفي عام ١٦١٣ قال الرياضي غاليليو غاليلي من بلدة بيزا أن المراقب الذي اخترعه أثبت أن نظام كوبرنيكوس كان صحيحاً. وأصبحت قضيته دعوى تثير اهتمام الرأي العام. فتم استدعاؤه أمام محاكم التفتيش، التي طلبت منه التراجع عن عقيدته العلمية، وحكم عليه بالسجن لمدة غير محدودة. لم يوافق جميع الكاثوليكين على هذا القرار، لكن الكنيسة الكاثوليكية كانت تعارض غريزياً أي تغيير مثلها في ذلك مثل أية مؤسسة في تلك الفترة التي كانت تحكمها الروح المحافظة. كانت لدى الكنيسة السلطة في فرض معارضتها، وكانت كآلة تسير بيسر لدرجة أنها أصبحت كقوة بشكل مرعب في فرض الالتزام الفكري. بشكل مُحتم كانت إدانة غاليليو قد سبغت الدراسة العلمية في البلدان الكاثوليكية، علماً أن العديد من العلماء المرموقين في تلك الفترة مثل مارين مرسين، وديكارت، وباسكال بقوا مخلصين لإيمانهم الكاثوليكي. فقضية غاليليو معقدة ولاأريد النوص في جميع تشعباتها السياسية. إنما تنبثق منها حقيقة واحدة هامة في قصتنا وهي أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لم تدن النظرية الشمسية كمركز للكون لأنها كانت تهدد

الإيمان بالله الخالق بل أدانتها لأنها كانت تناقض كلمة الله في الكتاب المقدس.

كان لحاكمه غاليلو أثراً سلبياً في تلك الفترة، وأدت إلى إزعاج كبير وسط البروتستانتين. لم يدن كالفن ولا لوثر كوبرنيكوس، لكن صديق لوثر، فيليب ميلانكون (١٤٩٧ - ١٥٦٠) رفض فكرة حركة الأرض حول الشمس لأنها كانت تتناقض مع فقرات محددة من الكتاب المقدس، ولم يكن هذا شأنًا بروتستانتيًا محضاً. فبعد المجلس الكنسي في ترينت طور الكاثوليكيون حماساً جديداً تجاه الكتاب المقدس: فلجيت Vulgate ترجمة القديس جيروم إلى اللاتينية. فعلى لسان المفتش الإسباني ليون كاسترو في عام ١٥٧٦: «ليس بالإمكان تغيير أي شيء يتعارض مع النسخة اللاتينية للكتاب المقدس سواء أكان ذلك الشيء نقطة واحدة، أم نتيجة صغيرة، أو شبه جملة، أو كلمة، أو مقطع من كلمة أو حتى حرف واحد»^(٤٧). وقد رأينا أن بعض العقلايين والمثقفين قد خرجوا في الماضي عن مسارهم من قراءة حرفية للإنجيل أو القرآن لصالح تفسير رمزي معتمد لهما. وهكذا وضع البروتستانتون والكاثوليك إيمانهم في فهم حرفي للكتاب المقدس. فالاكتشافات العلمية لغاليليه، وكوبرنيكوس من المحتمل أنها لم تزعج الإسلاميين أو المثقفين أو القبايليين لكنها فرضت مشكلات على الذين اعتنقوا الحرفية الجديدة. فكيف كان ممكناً التوفيق بين النظرية التي قالت بأن الأرض تدور حول الشمس مع الآيات المقدسة: «العالم أيضاً ثابت لا يمكن تحريكه» والشمس أيضاً تشرق وتغرب، وتسرع إلى المكان الذي أشرقت منه، فقد حُدد القمر للفصول، والشمس تعرف مُستقرها»^(٤٨). تضايق بعض رجال الكنيسة كثيراً من مقترحات غاليليه. فكما قال أن من المحتمل وجود حياة على القمر، فكيف أتى الناس من آدم، وكيف خرجوا من فلك نوح؟ كيف يمكن التوفيق بين نظرية حركة الأرض وصعود المسيح إلى السماء؟ فالكتاب المقدس يقول إن السماء والأرض مسخرتان للإنسان. فكيف يكون هذا وغاليليه يقول أن الأرض كوكباً آخر يدور حول الشمس؟ فالسما والجهنم كانتا تعتبران أماكن حقيقية يصعب تحديد مكانهما في نظام كوبرنيكوس. فالجهنم واقع في مركز الأرض حيث وصفه دايتي. وقد وقف العلامة السوعي الكاردينال روبرت بيلامين الذي طلب /التجمع الجديد لنشر الدين/ مشورته في مسألة غاليليه، وقف إلى جانب التراث: «وجهنم هي مكان تحت أرضي مختلف عن القبور». واختتم حديثه قائلاً لا بد أنها في مركز الأرض مرسياً جلالة الأخير على «سبب طبيعي»:

الأخير هو سبب طبيعي. فدون شك أن مكان الشياطين ولللعونين الأشرار يجب أن يكون بعيداً جداً عن مكان إقامة الملائكة والمباركين إلى الأبد. فمشوى المباركين هو السماء (وخصوصاً يوافقونا على ذلك)، وليس هناك مكان أبعد عن السماء من مركز الأرض^(٤٩).

تبدو مناقشة بيلارمين سخيفة في أيامنا هذه فحتى المسيحيون الحرفيون ماعادوا يتخيلون أن جهنم هي في مركز الأرض. لكن الكثيرين وقد هزتهم نظريات علمية أخرى للدرجة أنهم لا يجدون لله متسعاً في كوسمولوجيا معقدة.

عندما كان الشيرازي يعلم المسلمين أن السماء وجهنم كانا في العالم الوهمي داخل كل فرد، كان رجال الكنيسة السفسطائيين يجادلون متعنتين أن هناك موقعاً جغرافياً محدداً بالحرف لهما. وعندما كان القبايليون يعدون تفسير قصة الخلق التوراتية بطريقة رمزية، ويحذرون مرديهم من فهم هذه الأساطير حرفياً كان الكاثوليك والبروتستانت يصرون على صحة الإنجيل في كل جزء من تفاصيله. وسيجعل هذا الموقف الميثولوجيا الدينية التراثية ضعيفة أمام العلم الجديد وفي النهاية سيجعل الإيمان بالله أمراً مستحيلًا لكثير من الناس. لم يكن اللاهوتيون يُعدّون شعوبهم جيداً لاستقبال هذا التحدي القادم. فمنذ الإصلاح والحماس الجديد تجاه النزعة الأسطوية بين الكاثوليك والبروتستانت بدأوا يناقشون الله وكأنه مجرد حقيقة موضوعية أخرى. وهذا مكّن الملحدّين الجدد في أواخر القرنين التاسع عشر والعشرين من الاستغناء عن الله.

ويدو أن اليسوعي اللاهوتي البارز ليونارد ليسيوس (١٥٥٤ - ١٦٢٣) قد قدم ولاءه إلى إله الفلاسفة في كتابه /العناية الإلهية/. بالإمكان إيضاح وجود هذا الإله علمياً كأية حقيقة من حقائق الحياة، ويشير مخطط الكون الذي لا يمكن أن يكون قد حدث بمحض المصادفة - إلى محرك رئيسي يمدّه بالحياة. فإله ليسيوس خالٍ من أي شيء مسيحي، إنه حقيقة علمية باستطاعة أي كائن بشري اكتشافه. قلما يذكر ليسيوس المسيح. إنه يعطي انطباعاً أن بالإمكان استنتاج وجود الله بالإدراك السليم، من الملاحظة العادية والفلسفة ومن دراسة الأديان المقارنة. وهكذا أصبح الله وجوداً آخر مثل كوكبية من أشياء أخرى كان العلماء والفلاسفة يستكشفونها في الغرب. لم يشك الفلاسفة في سلامة براهينهم على وجود الله، لكن أتباعهم المتدينين قرروا أخيراً أن إله الفلاسفة هذا كان ذو قيمة دينية قليلة. ربما أعطى توما الإكويني انطباعاً بأن الله كان موضوعاً آخر في سلسلة الوجود على

الرغم من أنه الأسمى. لكنه كان مقتنعاً شخصياً أن هذه المناقشات الفلسفية لاعلاقة لها بالإله الصوفي الذي عرفه في الصلاة. وبحلول بداية القرن السابع عشر استمر اللاهوتيون البارزون ورجال الكنيسة في الجدل حول وجود الله من منطلقات عقلية تماماً. واستمر الكثيرون في نقاشهم حتى يومنا هذا، وكان وجود الله يتعرض إلى الهجوم عندما لم يكن العلم الحديث موافقاً على النقاش. فبدلاً من رؤية فكرة الله رمزاً لحقيقة ليس لها وجود بالمعنى العادي للكلمة، والتي بالإمكان اكتشافها عن طريق تدريبات خيالية في الصلاة والتأمل، كان الناس يفترضون وبشكل متزايد أن الله كان حقيقة من حقائق الحياة كأية حقيقة أخرى. بينما كانت تقترب أوروبا من الحداثة كان اللاهوتيون أنفسهم يسلمون ملحدي المستقبل الذخيرة لرفض إله ذي قيمة دينية قليلة ملأ الناس خوفاً أكثر مما ملأهم بالأمل والإيمان. فالفلاسفة والعلماء ومسيحيوا ما بعد الإصلاح قد تخلوا فعلاً عن إله المتصوفين الخيالي، وسعوا إلى الامتناع من إله العقل.

الفصل التاسع

عصر التنوير

في نهاية القرن السادس عشر كان الغرب قد أبحر في عملية التقنية التي سوف تولّد مجتمعاً مختلفاً تماماً، ومثالاً جديداً للبشرية. فكان لابد من أن يؤثر هذا على مفهوم ودور وطبيعة الله. فإنجازات الغرب الحديث التصنيع قد غيرت أيضاً مسار تاريخ العالم. وقد وجدت البلدان الأخرى من العالم المتحدن صعوبة متزايدة في تجاهل العالم الغربي الذي كان فيما مضى متخلفاً عن الحضارات الرئيسية الأخرى، أو أنه كان يسعى إلى اللحاق بها. لم يحقق أي مجتمع شيئاً مماثلاً لما حققه الغرب. لقد خلق الغرب مشكلات جديدة كل الجدة، وكان التعامل معها صعباً جداً. فعلى سبيل المثال كان الإسلام حتى القرن الثامن عشر - القوة العالمية المهيمنة في إفريقيا والشرق الأوسط ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، فعلى الرغم من أن النهضة في القرن الخامس عشر قد وضعت المسيحية الغربية في موضع متقدم على الإسلام في بعض النواحي، إلا أن القوى المسلمة المتنوعة تمكنت من احتواء التحدي بكل يسر. فاستمر العثمانيون في تقدمهم داخل أوروبا، وكان المسلمون قادرين على صد المستكشفين البرتغاليين والتجار الذين ساروا في ركابهم. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر كانت أوروبا قد بدأت تهيمن على العالم، وطبيعة إنجازها كانت تعني أن من المحال اللحاق بها بالنسبة لبقية العالم. لقد استولى البريطانيون على الهند، وكانت أوروبا مؤهلة لاستعمار قدر ما تستطيع من العالم. وهكذا بدأت عملية النزعة الغربية ومعها العقيدة الدنيوية التي أعلنت استقلالها عن الله.

مالذي كان ينطوي عليه المجتمع الحديث؟ فالحضارات السابقة قد اعتمدت على الزراعة. وكانت الحضارة إنجاز المدن - كما يدل عليها اسمها. ففيها عاشت نخبة على

فوائض زراعية أنتجتها الطبقة الفلاحية، وكان لديها الوقت والمصادر لخلق ثقافات متنوعة. لقد نشأ الإيمان بهالة واحد في مدن الشرق الأوسط وأوروبا. مثل أية إيديولوجيات دينية رئيسية أخرى، كانت جميع هذه الحضارات الزراعية هشة على أية حال. كانت تعتمد على عوامل غير ثابتة كالحاصل والحصاد، والمناخ وتآكل التربة. فكلما زاد امتداد كل إمبراطورية تزايد عدد التزاماتها ومسؤولياتها، وكانت تستنفذ مصادرها المحدودة في نهاية المطاف. فبعد أن تصل إلى ذروة قوتها يبدأ انحسارها المحتوم وبالتالي سقوطها.

أما السيادة الجديدة فكانت تعني أنها قد أصبحت مستقلة عن الشروط المحلية والخارجية والمعوقات الآتية. لقد بني تراكم رأس المال في المصادر الاقتصادية التي بدت - حتى وقت قريب - أنها قابلة للتجدد بشكل لا متناه. لقد شملت عملية التحديث الغرب في سلسلة تغيرات عميقة: لقد أدت إلى التصنيع وإلى تحولات زراعية تالية، واستنارة فكرية، وثورات اجتماعية وسياسية. فكان طبيعياً أن تؤثر هذه التغيرات على الطريقة التي فهم فيها البشر أنفسهم، وجعلتهم يعيدون النظر في علاقتهم مع الحقيقة المطلقة التي أسموها تراثياً «الله».

كان التخصص أمراً حاسماً في المجتمع التقني الغربي: كانت الابتكارات في كل الميادين الاقتصادية والفكرية والاجتماعية تتطلب خبرة محددة في ميادين كثيرة مختلفة. فالعلماء مثلاً اعتمدوا على الكفاية المتزايدة لصانعي الآلات، وكانت الصناعة تتطلب آلات جديدة ومصادر للطاقة بالإضافة إلى نتائج نظري من جانب العلم. فتداخلت التخصصات وأصبح كل منها يعتمد على الآخر تدريجياً. فكان أحد التخصصات يلهم تخصصاً آخر في ميدان ليس له علاقة مباشرة بالأول. لقد كانت عملية تراكمية. فإيجازات أحد التخصصات كانت تتزايد باستخدامها في تخصص آخر، وكان هذا يؤثر بدوره على مردوده. فكان يعاد استثمار رأس المال وتكاثره على أساس متطور. لقد قدمت التحولات المشابكة دافعاً لا يتوقف، وجرى سحب المزيد من الناس من جميع الطبقات إلى عملية الخلافة بأعداد متزايدة من العالم. وبذلك لم تعد الحضارة والإيجاز الثقافي حكرًا على نخبة صغيرة بل أصبحا يعتمدان على عمال المصانع ومناجم الفحم وعمال الطباعة، وعلى الموظفين لا يصفقهم عمالاً فقط بل كمشتريين أيضاً في السوق المتزايد الاتساع. وفي النهاية كان ضرورياً لهذه المراتب الدنيا أن تصبح متعلمة وأن تشارك - بدرجة ما - في ثروة المجتمع إذا كان لابد من الحفاظ على الحاجة الملحة للكفاية. فالزيادة الضخمة في الإنتاج، وتراكم رأس المال، واتساع الأسواق العامة إضافة إلى التقدم الفكري الجديد في العلم أدت جميعاً

إلى ثورة اجتماعية: فقد زالت سلطة الإقطاع وحلت محلها سلطة البورجوازية المالية. لقد كانت الكفاءة الجديدة مطلوبة في شؤون التنظيم الاجتماعي الذي دفع الغرب تدريجياً إلى مستويات تم بلوغها من قبل في أجزاء أخرى من العالم: كالصين، والإمبراطورية العثمانية، وبعثت مكنته من تجاوزها. كانت الخدمة العامة في سنة ١٧٨٩ ، أي سنة الثورة الفرنسية تلقى تقديراً في فعاليتها وجدواها. فوجدت الحكومات المختلفة في أوروبا إعادة بناء نفسها وأن تدخل في مراجعة مستمرة لقوانينها كي تلبي ظروف الحداثة الدائمة التغير أمراً ضرورياً لاغنى عنه.

كان التغيير في عهد حكومات زراعية قديمة أمراً محال التفكير فيه لأنهم كانوا يعتبرون القانون ثابتاً والهيأ. كان التغيير دليلاً على الاستقلالية الجديدة التي كانت تجلبها التقنية إلى المجتمع الغربي: كان الناس يشعرون أنهم مسؤولون عن شؤونهم، وهذا لم يحدث من قبل أبداً. وقد رأينا الخوف العميق الذي كان يثبته التوجه الجديد والتغيير في المجتمعات التقليدية حيث كان الناس يشعرون أن الحضارة كانت إنجازاً هشاً، وكل قطع في الاستمرارية مع الماضي كان يلقي مقاومة على الدوام. لقد كان المجتمع التقني الحديث الذي أدخله الغرب مبنياً على أمل تطور وتقدم مستمرين. فقد دخل التحول المؤسسات وأصبح أمراً بديهياً. فالجمعية الملكية في لندن - على سبيل المثال - كانت مكرسة لجمع معلومات جديدة كي تحمل محل القديمة. وكان الاختصاصيون في العلوم المتنوعة يلقون التشجيع لصب مكتشفاتهم من أجل المساعدة في هذه العملية. فبدلاً من إبقاء مكتشفاتهم سرية أبدت المؤسسات العلمية الجديدة رغبة في نشر المعرفة كي تسرع نموها المستقبلي في ميادين عديدة. ومحل الروح المحافظة القديمة في الغرب حلت رغبة بالتغيير، وإيمان بأن التطور المستمر كان أمراً عملياً. وبدلاً من إحساس الناس أن الجيل الأصغر سناً كان ذاهباً إلى الكلاب - كما حدث في العصور الفائرة - كان يتوقع الجيل الأكبر سناً أن يمش أطفالهم في حالة أفضل من الحالة التي عاشوها. وهكذا كانت تسيطر أسطورة جديدة على دراسة التاريخ؛ إنها فكرة التقدم. لقد تم تحقيق أشياء عظيمة، لكن الضرر الذي لحق بالبيئة جعلنا ندرك أن هذه الطريقة في الحياة سريعة العطب مثل الطريقة القديمة. ولربما قد بدأنا ندرك أن هذه الطريقة خيالية مثل معظم الأساطير التي ألهمت البشرية عبر القرون.

فبينما جذب تجميع المصادر والاكتشافات الناس سوياً إلا أن التخصص الجديد كان لابد أن يفرقهم بأشكال أخرى. فحتى الآن كان ممكناً للمثقف أن يحتفظ في صدره بمعرفة على جميع الجهات؛ فالفلاسفة المسلمون على سبيل المثال كانوا بارعين في الطب

والفلسفة وعلم الجمال. كان الفيلسوف يقدم لطلابه عرضاً متماسكاً وشاملاً لكل ما كان يعتقد أنه الحقيقة كاملة. في القرن السابع عشر أصبحت عملية التخصص سمة بارزة للمجتمع الغربي وراحت تفصح عن نفسها فالمعارف المتنوعة من فلك، وكيمياء، وهندسة أخذت تتمايز عن بعضها. وفي نهاية المطاف أصبح محالاً في عصرنا أن يشعر خبير في ميدان ما بأية كفاية مهما كان نوعها في ميدان آخر.

نجم عن ذلك أن كل مثقف بارز رأى نفسه أقل محافظة على التراث من كونه رائداً. كان مستكشفاً مثل الملاحين الذين وصلوا إلى أجزاء جديدة من الكرة الأرضية. كان يفاخر في ممالك لاروسم لها من أجل مجتمعه. فالبتكر الذي كان يبذل هذا الجهد من مخيلته كي يكتشف أرضاً جديدة، ويرمي بالمقدسات القديمة - أثناء محاولته - أصبح بطلاً ثقافياً. كان هناك تفاؤل جديد لدى البشرية من خلال السيطرة على العالم الطبيعي - الذي أخاف ذات يوم الجنس البشري - وبدأ أنه يتقدم في خطوات قفز عريضة؛ بدأ الناس يعتقدون أنه كلما كان التعليم أفضل؛ وكلما أدخلت تحسينات على القوانين كلما جلب ذلك النور إلى روح الإنسان.

فالثقة الجديدة في قدرات البشر الطبيعية كانت تعني أن الناس أصبحوا يعتقدون أن باستطاعتهم بلوغ الاستتارة عن طريق محاولاتهم هم. ماعادوا يشعرون بالحاجة إلى الاعتماد على تراث موروث - سواء أكان مؤسسة أم نخبة - أو حتى لكشف من الله، كي يكتشفوا الحقيقة مع أن خبرة التخصص كانت تعني أن الناس للمخترطين في عملية التخصص هذه كانوا غير قادرين على رؤية الصورة بأكملها. وبالتالي شعر العلماء والمثقفون المبدعون أنهم مضطرون لصياغة نظرياتهم للحياة والدين منطلقين من البداية. لقد شعروا أن معرفتهم المتزايدة وفعاليتهم ألقت عليهم واجب إعادة النظر في التفسيرات المسيحية التراثية للحقيقة وجعلها معاصرة. الروح العلمية الجديدة كانت تجريبية مبنية على الملاحظة والتجربة. فقد رأينا أن العقلانية القديمة للفلسفة كانت تعتمد على الفعل الإيماني الأول في كون عقلاني. بيد أن العلوم الغربية لم يكن بوسعها أن تقبل شيئاً على البداية بهذه الطريقة؛ وكان الرواد مستعدين بشكل متزايد أن يفاقموا خطأً أو يهدموا سلطات ومؤسسات راسخة مثل الإنجيل والكنيسة والتراث المسيحي. فالبراهين القديمة على وجود الله لم تعد مقنعة أبداً، وكان علماء الطبيعة والفلاسفة متمثلين بحماسة للطريقة التجريبية. شعروا أنهم مضطرون للتحقق من حقيقة الله موضوعياً بالطريقة نفسها التي كانوا يبرهنون فيها على أية ظاهرة أخرى.

كان الإلحاد وما يزال مقيتاً. فكما سنرى اعتقد معظم فلاسفة التنوير ضمناً بوجود إله وقلة منهم كانت ترى حتى الله يجب ألا يؤخذ كبدئية. وربما أحد الأوائل الذين تحمسوا لهذه المقولة وتناول الإلحاد جدياً كان الفيزيائي وعالم الرياضيات واللاهوتي الفرنسي «بليز باسكال».

كان بليز باسكال blaise Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢) طفلاً عبقراً وكان معزولاً عن الأطفال الآخرين. وعلمه والده العالم الذي اكتشف أن ابنه الذي كان في الحادية عشرة من عمره قد حل سرّاً بنفسه فرضيات إقليدس الإحدى والعشرين الأولى. وفي السادسة عشرة نشر ورقة في الهندسة، رفض علماء مثل ديكارت أن يصدقوا أن من كتبها صبي كهذا. وفي مرحلة لاحقة صمم آلة حاسبة، ومقياس ضغط ومطبعة هيدروليكية. لم تكن أسرة باسكال عائلة ورعة لكنها تحولت إلى الجانسينية في عام ١٦٤٦. فدخلت جاكلين أخت باسكال دير بورت - رويال PORT-ROYAL في جنوب غرب باريس وأصبحت واحدة من أكثر المدافعين المتحمسين عن المذهب الكاثوليكي، وذات ليلة ٢٣ نوفمبر عام ١٦٥٤ مَرَّ باسكال بتجربة دينية دامت من الساعة العاشرة والنصف مساءً حتى حوالي الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، فقد أرته هذه التجربة أن إيمانه كان بعيداً جداً وأكادياً. وبعد وفاته عثرت على ذكرى هذا الإلهام مخبئة في سترته:

نار

إله إبراهيم، إله إسحق، إله يعقوب لإله الفلاسفة والعلماء.

اليقين، اليقين شعر القلب بالسعادة والسلام

إله يسوع المسيح

إله يسوع المسيح

إلهي وإلهك

إلهك سيكون إلهي.

العالم منسي وكل شيء ماعدا الله.

يمكن معرفته عبر الطرق التي تعلم وفي الأناجيل^(١)

كانت هذه التجربة الصوقية تعني أساساً أن إله باسكال كان مختلفاً عن إله العلماء والفلاسفة الآخرين الذين سوف نتعرض لهم في هذا الفصل فهذا لم يكن إله الفلاسفة بل إله الوحي والقدرة الجامعة لتحوله، قادت باسكال إلى إلقاء مصيره مع الجانسينية ضد اليسوعيين أعداءهم الرئيسيين.

وإذ رأى أغناطيوس الله يملأ الكون شجع اليسوعيون على تنمية إحساس بكلية وجود الله وكلية مقدرته، وجد باسكال والجانسينيون العالم قاحلاً وفارغاً إذا ما حرم من

الألوهة. فعلى الرغم من تجليه يبقى إله باسكال «إلهاً مستتراً» لا يمكن اكتشافه عن طريق برهان عقلاني. فالتأملات PENSEES - مذكرات باسكال حول الشؤون الدينية التي نشرت بعد وفاته في عام ١٦٦٩ - تضرب جلورها في تشاؤم عميق حول الشرط الإنساني. «فتفاهة الإنسان موضوع ثابت، ولا يمكن للمسيح أن يزيله، الإنسان الذي سيبقى في عذاب حتى نهاية العالم»^(٢).

إن الإحساس بالخراب والغياب المرعب لله تسم معظم الروحية في أوروبا الجديدة. وتدل الشعبية المستمرة (للتأملات) أن روحانية باسكال الأكثر قتامة وإلهه المستتر كانا يتوجهان إلى شيء حيوي في الوعي الديني الغربي،، فإنجازات باسكال العلمية لم تعطه ثقة كبيرة في الشرط الإنساني وعندما كان يتأمل ضخامة الكون كان يتجمد خوفاً.

عندما أرى حالة الإنسان الشقية العمياء، عندما أتفحص الكون كله في صميمه والإنسان متروك وحده دون نور وكأنه ضائع في هذه الزاوية من الكون دون أن يعرف من وضعه هناك، وماذا عليه أن يفعل، وماذا يحدث له، متى سيموت، غير قادر على معرفة أي شيء. لقد وصلت حد الرعب مثل إنسان نقل أثناء نومه إلى جزيرة مهجورة، وعند استيقاظه شعر أنه ضائع تماماً دون سبيل إلى النجاة. ثم أتعجب كيف لا تقود حالة بالسة كهذه الناس إلى اليأس»^(٣).

يجب ألا نغفم هذه الذكرى المفيدة حول التفاؤل البهيج في العصر العلمي. لم يستطيع باسكال أن يتصور الرعب الكامن في عالم بنا خالياً من معنى أو مغزى نهائي. رعب الاستيقاظ في عالم غريب كان دائماً ملازماً للبشرية. لم يلاق الرعب تعبيراً عنه أكثر فصاحة من تعبير باسكال. لقد كان باسكال شديد النزاهة مع نفسه، مختلفاً عن معظم معاصريه. لقد كان مقتنعاً أنه ليس هناك سبيل لإثبات وجود الله. فعندما كان يتخيل نفسه مجادلاً لأحد ما غير قادر على الإيمان دستورياً لم يكن بوسعهم أن يجد جدالاً كي يقنعه. فكان هذا تطوراً جديداً في تاريخ الوحداية، فحتى الآن لم يتساءل أحد جدياً عن وجود الله. فكان باسكال أول شخص يبدأ ذلك. قد يكون الإيمان بالله في هذا العالم الجديد والشجاع قد يكون مسألة خيار شخصي فقط، وبهذا الأمر كان الحدائي الأول.

مقاربة باسكال لمشكلة وجود الله ثورية في مضامينها لكن لم يتم قبولها رسمياً من قبل أية كنيسة. فالمدافعون المسيحيون فضلوا مقاربة ليونارد لسبوس العقلانية التي مرت معنا في نهاية الفصل الماضي، وهذه المناقشة تقضي إلى إله الفلاسفة وليس إلى إله الوعي الذي عرفه باسكال. فالإيمان - كما شدد - لم يكن موافقة عقلانية قائمة على الإدراك، بل

كان مقامرة. كان محالاً أن تبرهن أن الله موجود وفي الوقت ذاته كان يصعب على العقل دحض وجوده: «لسنا قادرين على معرفة ماهية الله أو وجوده... فالعقل لا يستطيع اتخاذ قرار في هذه المسألة، فثمة عماء لامتناهٍ يفصلنا. ففي النهاية القصية من هذه المسافة اللانهائية رُميت قطعة نقود وسوف تقع على أحد وجهيها (الصورة أو الرقم) دون شك، فعلى أيهما نراهن؟»^(٤)

على أية حال ليست هذه المقامرة لاعقلانية تماماً. أن تختار الله فهو الحل الرابع. في اختيار الإيمان بالله - كما يقول باسكال - تكون المقامرة محدودة والربح لانهائي. ومع تقدم المسيحي في الإيمان يصبح مدركاً لاستتارة مستمرة، إدراك لحضور الله هو بمثابة إشارة أكيدة للخلاص. فالاعتماد على سلطة خارجية أمر ليس مستحسنًا، فكل مسيحي يجب أن يعتمد على قدرة خاصة به. يُقابل تشاؤم باسكال إدراك متزايد في (التأملات) فما أن يتم الرهان حتى يكشف الله المستتر ذاته لأي شخص يسعى إليه. يجعل الله يقول: «ما كنت لتبحث عني لو لم تجدني من قبل»،^(٥) صحيح أن البشرية لا تستطيع أن تشق طريقها إلى الله البعيد عبر النقاش والمنطق ولا بقبول تعاليم الكنيسة الرسمية، بل باتخاذ قرار شخصي بالاستسلام لله يملك المؤمنين أنفسهم شعورٌ بأنهم قد أصبحوا مؤمنين، نزيهين، متواضعين، شاكرين، تملوهم أعمال الخير، أصدقاء مخلصين»^(٦). وسيجد المؤمنون بطريقة ما أن الحياة لها معنى وأهمية بعد أن أوجد الإيمان وأنشأ إحساساً بالله في وجه اللامعنى واليأس فالله كان حقيقة لأنها كانت مجدية. لم يكن الإيمان يقيناً فكرياً بل فقرة في الظلام وتجربة تعود على صاحبها باستنارة أخلاقية.

رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) واحد من الرجال الجدد الذي كان لديه ثقة أكبر في قدرة العقل على اكتشاف الله. فقد أكد على أن الفكر وحده بإمكانه أن يزودنا باليقين الذي نسعى إليه، وهو لم يكن موافقاً على رهان باسكال لأن هذا الرهان كان قائماً على تجربة ذاتية محضه، مع أن إيضاحه لوجود الله اعتمد على نوع آخر من الذاتية. كان قلقاً لرفض ريبته من قبل كاتب المقال الفرنسي ميشيل مونتaign Michel Montaigne (١٥٥٣ - ١٥٩٢) الذي أنكر أن يكون أي شيء مؤكداً أو حتى محتملاً. فديكارت عالم الرياضيات والكاثوليكي المقتنع شعر أن لديه رسالة تجعل العقلانية التجريبية في حالة حرب مع الريبة. اعتقد ديكارت - مثله مثل ليسيوس - أن الفكر وحده بإمكانه أن يقنع البشر بقبول الحقائق الدينية والأخلاقية التي كان يراها أساس الحضارة. الإيمان لم يخبرنا بشيء لا يمكن إيضاحه عقلياً: القديس بولس شخصياً قد أكد في الفصل الأول من رسالته إلى الرومان: «وأن ما يمكن معرفته عن الله أمر واضح تماماً للبشر لأن الله ذاته جعله واضحاً. منذ

أن خلق الله العالم كانت قدرته الأزلية والوهته - مهما تكن لامرئية - كانت هناك بالنسبة للعقل كي يراها في الأشياء التي خلقها الله. (٧)

تابع ديكارت قوله أن بالإمكان معرفة الله بسهولة وبتيقن أكبر من أي شيء من الأشياء الأخرى في الكون. فكان رأيُه هذا ثورياً في أسلوبه مثل رهان باسكال، خاصة أن برهان ديكارت رفض شهادة العالم الخارجي الذي قدمه بولص من أجل الاستبطان العقلي منعكفاً على ذاته.

باستخدام الطريقة التجريبية في علم رياضياته التي طورها منطقياً نحو الأبسط أو المبادئ الأولى حاول ديكارت إرساء تفسير تحليلي لوجود الله. بيد أنه كان مختلفاً عن أرسطو والقدس بولص وجميع الفلاسفة الموحدين، وجد الكون دون إله تماماً. لم يكن هناك نظام في الطبيعة. في الحقيقة كان الكون عماء «فوضى» ولم يكشف عن خطة ذكية. وبالتالي محال بالنسبة لنا أن نستقرئ أي يقين عن مبادئ أولية من الطبيعة. لم يكن لديه وقت للمحتمل أو الممكن: سعى إلى إرساء نوع من اليقين الذي بإمكان الرياضيات أن تقدمه. وبالإمكان العثور عليه في اقتراحات بسيطة تنقص عن نفسها مثل: ماحدث «لا يمكن منع وقوعه»، وهذا صحيح لايقبل الجدل. فبينما كان جالساً قرب مدفأة الحطب يفكر خطرت له البديهة الشهيرة: أنا أفكر إذن أنا موجود. وهكذا فقد وجد ديكارت دليلاً على الله في وعي الإنسان: وحى الشك فإنه يثبت وجود صاحبه. لا نستطيع أن نتأكد من أي شيء في العالم الخارجي لكننا نستطيع أن نكون متأكدين من تجربتنا الداخلية. فاتفضح أن نقاش ديكارت هو إعادة استخدام لبرهان أنسيلم Anselm الأنطولوجي. فعند مانشك فإن حدود نهاية الطبيعة، الأنا تتكشف. ولا يمكننا الوصول إلى فكرة عدم الكمال دون أن يكون لدينا تصور عن الكمال. استنتج ديكارت - مثلما فعل أنسيلم - أن كمالاً غير موجود سيكون مجرد تناقض في الكلمات. تجربتنا عن الشك تخبرنا أن وجوداً كاملاً أعلى - أي الله - لابد أن يوجد.

مضى ديكارت ليستنتج الحقائق حول طبيعة الله من هذا «البرهان» على وجوده بالطريقة نفسها التي كان يستخدمها في الرياضيات. فكما قال في (نقاش في الطريقة) إن من المؤكد على الأقل أن الله - الذي هو الوجود الكامل - يكون أو يوجد مثل أي حل هندسي ممكن. (٨).

وكما كانت مجموع زوايا المثلث الإقليدي تساوي زاويتين قائمتين دون شك كذلك كان للوجود الكامل الذي يشر به ديكارت سمات محددة. فخيرتنا تخبرنا أن العالم ذو وجود موضوعي وإله كامل يجب أن يكون صادقاً لا يمكن أن يفشنا. فبدلاً من

أن يستخدم العالم كي يثبت وجود الله استخدم ديكارت فكرة الله كي تعطيه إيماناً بوجود العالم. كان ديكارت يشعر أنه مغرب عن العالم مثل باسكال. فبدلاً من بلوغ العالم يتراجع عقله على نفسه. مع أن فكرة الله تمد الإنسان بيقين حول وجوده هو، وهذا أساسي جداً بالنسبة لاهتمولوجيا ديكارت، مع ذلك تكشف الطريقة الديكارتية عن عزلة وصورة استقلالية تصبحيان مركبتين في الصورة الغريبة للإنسان في قرنتا.

وسوف يفقد التغريب عن العالم والاعتماد على الذات، بافتخار، أناساً كثيرين إلى رفض فكرة الله كلها التي تقلل من قيمة الإنسان ليصبح متواكلاً.

من البداية مساعد الدين الناس على الارتباط بالعالم وعلى أن يضربوا جذورهم فيه. فعادة المكان المقدس سبقت التفكير بالعالم، وساعدت الرجال والنساء على إيجاد بؤرة فكرية في كون مرعب. فقد عجز تأليه قوى الطبيعة عن الإعجاب والرهبة اللذين كانا دائماً جزءاً من رد الفعل البشري تجاه العالم. وحتى أوغسطين وجد العالم مكاناً جميلاً يدعو إلى العجب على الرغم من روحانيته الفاضية. بينما ديكارت لم يكن لديه الوقت للعجب إطلاقاً على الرغم من أن فلسفته كانت مبنية على تراث الاستبطان الأوغسطيني. فالإحساس بالسرية كان يبنّي تفاديه مهما كلف ذلك لأنه كان يمثل حالة عقلية قد تجاوزها الإنسان المتحضر. ففي مقدمة كتابه (*Les meteoros*) قال أن من الطبيعي بالنسبة لنا وأن نكون أكثر إعجاباً بحال الأشياء التي فوقنا أكثر من إعجابنا بالأشياء التي تقع في مستوانا أو دونه^{٩٠}. ولذلك فقد صور الشعراء والرسامون السحب على أنها عرش الله، وتخللوا الله يرش الندى على السحب أو يرسل بيده البرق على الصخور:

يقودني هذا إلى أن أمل أنني إذا كنت هنا أشرح طبيعة السحب بطريقة
لأنعود نتعجب بها لأي شيء نراه منها، أو لأي شيء ينزل منها، فإننا
منعتقد بمسألة أن من الممكن أن نجد أسباب كل شيء يحظى بأقصى
إعجابنا على سطح الأرض.

شرح ديكارت الغيوم والرياح والندى والبرق على أنها مجرد حوادث فيزيائية كي
«يزيل أي سبب للتعجب»^{٩١}. فإنه ديكارت هو إله الفلاسفة الذي لم يكن عارفاً
بالأحداث الأرضية، إله ديكارت هذا لم يكن يتجلى لا في المعجزات التي وردت في
الكتب المقدسة بل في القوانين الأبديّة التي أرساها *Les meteoros*. يشرح أيضاً المانا التي
غذت الإسرائيليين القدامى في الصحراء على أنها نوع من الندى. وهكذا فقد ولد نوع
سخيّف من الدفاع عن العقائد المسيحية *apologetics* حاول أن يثبت صحة الإنجيل عن
طريق إيجاد تفسير عقلاني للمعجزات والأساطير المتنوعة. فإطعام يسوع لـ (٥٠٠٠)

شخص على سبيل المثال قد تم شرحه كإيهام الناس الذين في الحشد على إنتاج الطعام الذي كانوا قد أحضروه خيالياً وإطعامهم إياه. فهذا الشرح ينم عن حسن نية إلا أنه يقتقد إلى الغاية الرمزية التي هي القصص الإنجيلية.

كان ديكارت حذراً دائماً من الاستسلام إلى سيطرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فرأى نفسه مسيحياً أرثوذكسياً. لم ير تناقضاً بين الإيمان والعقل. ففي كتابة نقاش في الطريقة (Discourse on Method) جادل أن هناك منهجاً يمكن البشرية من بلوغ الحقيقة كلها. لاشيء يقع خارج متناولها. فكل ما كان ضرورياً في أية معرفة كان استخدام الطريقة وبالتالي سيكون ممكناً الحصول على معرفة موثوقة تتفادى كل إرباك وجهل. أصبح السر مشوشاً، والله الذي حرص العقلايون السابقون على فصله عن جميع الظواهر الأخرى أصبح الآن محتوئاً داخل نظام فكري إنساني. لم يكن للصوفية متسع من الوقت كي تضرب جذورها أمام الاضطرابات العقيدية لحركة الإصلاح. وهكذا فإن نط الروحية الذي انتصر على السر والميثولوجيا وارتبط بعقوداً غريباً عن المسيحيين في الغرب. حتى في كنيسة ديكارت كان وجود المتصوفين نادراً ومحط شبهة. فإله المتصوفين - الذي يعتمد وجوده على تجربة دينية - كان غريباً عن شخص مثل ديكارت الذي كان التأمل يعني له نشاطاً دماغياً محضاً.

عالم الفيزياء الإنجليزي اصحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) نزل الله إلى نظامه الحركي الميكانيكي. كان متلهفاً لتحرير المسيحية من السر، كانت نقطة البداية هي علم الحركة لالرياضيات لأن على العلم أن يتعلم رسم دائرة بشكل صحيح قبل أن يتمكن من إتقان الهندسة. لم يكن نيوتن مثل ديكارت الذي أثبت وجود ذات الله والعالم الطبيعي في ذلك الترتيب. بدأ نيوتن بمحاولة تفسير الكون الفيزيائي والله جزء أساسي من النظام. ففي فيزياء نيوتن كانت الطبيعة سلبية تماماً، الله وحده هو مصدر النشاط. وهكذا - كما عند أرسطو - كان الله استمرارياً للترتيب الفيزيائي الطبيعي. ففي كتابه العظيم (مبادئ الفلسفة الطبيعية Philosophiæ Naturalis Principia) ١٦٨٧ أراد نيوتن أن يصف العلاقات بين الأجسام السماوية والأرضية في كلمات رياضية بحيث يخلق نظاماً شاملاً متماسكاً. فمفهوم قوة الجاذبية التي أدخلها نيوتن شددت الأجزاء المكونة لنظامه سوياً. أغاظ مفهوم الجاذبية بعض العلماء الذين اتهموا نيوتن بالعودة إلى فكرة قوى المادة الجاذبة لأرسطو. وهذا الرأي لم يكن منسجماً مع الفكرة البروتستانتية بسيادة الله المطلقة. لقد أنكر نيوتن ذلك بقوله: «إلهاً سيداً كان مركزاً لنظامه كله، لأنه بدون مُحرك إلهي Mechanic ما كان للنظام أن يوجد».

عندما تأمل نيوتن الكون - كان مختلفاً عن ديكارت وباسكال - كان مقتنعاً أنه لديه برهان على وجود الله. لماذا لم تشد الجاذبية الداخلية للأجرام السماوية جميعاً إلى كتلة كروية ضخمة واحدة؟ لأنها موضوعة بدقة في فضاء لامتناه بمسافة كافية بين كل منها والآخر لمنع حدوث ذلك. وفي نقاشه مع صديقه ريتشارد بنتلي Richard Bentley عميد كلية القديس بولص أوضح أن هذا مستحيل دون مراقب إلهي ذكي: «لأعتقد أن بالإمكان شرح الأمر عن طريق أسباب طبيعية لكنني مجبر على أن أعزوها إلى تدبير مُبتكر»^(١). وبعد مضي شهر كتب إلى بنتلي ثانية «قد تضع الجاذبية الكواكب في حالة حركة، لكن دون قدرة إلهية لا يمكن وضعها في حالة حركة دائرية أبدية ولهذا السبب ولأسباب أخرى أنا مضطر أن أعزو إطار هذا النظام إلى قدرة ذكية»^(٢). فعلى سبيل المثال إذا دارت الأرض حول محورها بسرعة (١٠٠ ميل/سا) بدلاً من (١٠٠٠ ميل / سا) سيصبح الليل أطول بعشر ساعات وسيصبح العالم بارداً جداً لايسمح باستمرار الحياة. وخلال النهار الطويل ستُنْهِب الحرارة كل الحفصة. والوجود الذي ابتكر كل هذا بشكل كامل لابد أن يكون آلية ذكية.

بالإضافة إلى كونه ذكياً، فإن هذه القدرة لابد أن تكون قادرة بما فيه الكفاية كي تدير هذه الكتل الكبيرة. استنتج نيوتن أن القوة البدئية التي وضعت النظام المعقد واللامتناهي في حالة حركة كانت مسيطرة على الكون وحدها وجعلت الله مقدساً. البروفيسور إدوارد بوكوك Edward Pococke أستاذ للغة العربية في جامعة أوكسفورد أخبر نيوتن أن كلمة Deus اللاتينية مشتقة من الكلمة العربية du «الرب» لذلك فالسيطرة كانت هي الصفة الأساسية لله أكثر من الكمال الذي كان نقطة البداية في مناقشة ديكارت لله. في General Scholium التي تختتم مبادئ الفلسفة الطبيعية استنتج نيوتن أن كل صفات الله التقليدية هي من عقله intelligence وقدرته.

أجمل نظام للشمس والكواكب والمذنبات ينطلق من خطة وسيطرة وجود Being ذكي..... إنه كلي الوجود وقدرته أزلية ولامتناهية، أي ديمومة من الأزل إلى الأبد، ووجوده من اللانهاية إلى اللانهاية، يُصَرَّف الأشياء جميعاً ويعرف جميع الأشياء الحادثة والتي قد تحدث... نعرفه فقط من خلال وسائله الأكثر حكمة وتفوقاً بين جميع الأشياء، وعقله النهائية. نعجب به لكماله، لكننا نجله ونعبده بسبب سيطرته. نعبده كعبده له. فإنه دون سيطرة وعناية إلهية وعقل نهائية لاشيء سوى القدر

والطبيعة. فالضرورة الميتافيزيقية العمياء هي نفسها دائماً وفي كل مكان، ليس بإمكانها أن تنتج تنوعاً للأشياء. إن كل ذلك التنوع للأشياء الطبيعية التي نَجدها مناسبة للمصور والأماكن المختلفة لانتشاً إلا من أفكار وإرادة (كائن) موجود بالضرورة^(١٧).

لا يذكر نيوتن الإنجيل: نعرف الله عبر تأمل العالم فقط. فحتى الآن عبر الاعتقاد بالخلق عن حقيقة روحية، وقد دخلت إلى اليهودية والمسيحية متأخرة، وكان إشكالية لحد ما. العلم الحديث الآن دفع الخلق إلى مرحلة مركزية وقام بفهم حرفي وميكانيكي للمعتقد الحاسم لمفهوم الله. عندما ينكر الناس وجود الله اليوم فإنهم ينكرون إله نيوتن أصل الكون ومادّه بالحياة الذي لم يستطع العلماء تعديله.

كان على نيوتن شخصياً اللجوء إلى حلول مذهلة كي يجد متسعاً لله في نظامه الذي بحكم طبيعته لا بد أن يكون شاملاً. فإذا كان الفضاء لامتناهياً ولا نهائياً، هناك سمتان رئيسيتان للنظام فأين يقع الله في هذا النظام؟ أليس الفضاء نفسه إلهياً بشكل ما له سمتا الأزلية والخلود؟ هل كان الفضاء كينونة إلهية ثانية وجدت إلى جانب الله قبل بداية الزمن؟ كان نيوتن مهتماً دائماً بهذه المسألة. في مقالته المبكرة /De Gravitation et Aequipondio Fluidorum/ عاد إلى الاعتقاد الأفلاطوني بالفيز. فيما أن الله لا متناه لا بد أنه موجود في كل مكان. فالفضاء هو نتيجة لوجود الله، يفيض إلى الأبد من كلية الوجود الإلهي، الفضاء لم يخلقه الله في فعل لإرادة بل وجد كنتيجة لضرورة أو امتداد لوجوده الكلي الوجود. وبالطريقة نفسها ولأن الله ذاته أبدي فإنه يفيض الزمن. ولذلك يمكننا القول أن الله يشكل الزمان والمكان الذي نعيش ونتحرك ويتمحق فيهما وجودنا. فالمادة من ناحية ثانية خلقها الله في يوم الخلق بفعل إرادتي.

يمكن للمرء القول أنه قد قرر أن ينعم على بعض أجزاء المكان بشكل مصير مدرّك حسياً، وحرّكياً. كان من الممكن أن يقف إلى جانب الاعتقاد المسيحي بالخلق من لاشيء لأن الله قد خلق جوهر المادة من فضاء خالي: لقد خلق المادة من الفضاء.

فنيوتن - مثل ديكارت - ليس لديه متسع للسرية التي ساوى بينها وبين الجهل والخرافة. وكان متلهفاً كي يتقي المسيحية من الإعجازي حتى وإن وضعه ذلك في نزاع مع معتقدات حاسمة مثل ألوهية المسيح. فبدأ خلال ١٦٧٠ دراسة لاهوتية جادة للاعتقاد بالثالوث وتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذا المعتقد فرضه أثناسيوس على الكنيسة في شرط خادع على الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية. فأريوس Arius كان محقاً: يسوع المسيح لم يكن بالتأكيد الإله، وتلك الفقرات من العهد الجديد التي استخدمت كي تثبت الاعتقاد

الثالث والتجسيد غير شرعية وزائفة. فقد لفق أتانازيوس وزملاؤه هذه الفقرات وضافوها إلى أسفار الكتاب المقدس وبالتالي لاقت الأوهام البدائية استحساناً لدى الجماهير. من طبع الجانب الخرافي والانفعالي من البشر في مسائل الدين أن يكونوا مفرمين بالأسرار، ولذلك السبب فإنهم يفضلون الأشياء التي لا يفهمونها سوى فهم يسير.^(١٤) ومحو هذا الإرث الك من الدين المسيحي أصبح هاجساً بالنسبة له. ففي مطلع الثمانينات من ١٦٠٨ - أي قبل وقت قصير من نشر مبادئ الفلسفة الطبيعية بدأ نيوتن العمل في كتاب أسماء الأصول الفلسفية للاهوت غير المسيحي *The Philosophical Origins of Gentile Theology* جادل فيه أن نوحاً هو من أسس الدين الأولي للاهوت غير مسيحي الذي كان خالياً من الخرافة، ودعا إلى عبادة عقلانية لله. فالوصيتان الوحيدتان هما حب الله وحب الجار. وأمر الناس بالتأمل في الطبيعة التي هي المعبود الوحيد لله العظيم. ولم تلبث الأجيال التالية أن أفسدت هذا الدين النقي بحكايات المعجزات والأعاجيب، وسقط بعضهم في الصنمية والخرافة. مع ذلك أرسل الله سلسلة أنبياء كي يعيدوا الناس إلى الصراط. فكان فيثاغوث يعلم بأمر هذا الدين فقدمه إلى الغرب، وكان يسوع واحداً من الأنبياء المرسلين كي يعيدوا الناس إلى الحقيقة، لكن الدين النقي أفسده أتانازيوس وأعوانه، فيكتب الوحي Revelation تنبأ بظهور التثليثية - «هذا الدين الغريب في الغرب، أي عبادة ثلاثة آلهة متساوية كرفض للوحدانية»^(١٥).

وجد المسيحيون الغربيون دائماً الاعتقاد بالثالوث أمراً صعباً، وعقلانيتهم الجديدة جعلت فلاسفة وعلماء عصر التنوير حريصين على تجاهله. لم يكن نيوتن فاهماً لدور السرية في الحياة الدينية. فقد استخدم اليونانيون الثالوث كوسيلة لإبقاء العقل في حالة تعجب وكتمذكّر بأن الفكر البشري لا يمكنه أن يفهم طبيعة الله فكان تبني موقف مماثل أمراً صعباً لعالم مثل نيوتن. في العلم كان الناس يتعلمون أن عليهم أن يكونوا على استعداد لحذف الماضي وللبدء ثانية من المبادئ الأولى كي يجددوا الحقيقة. فالدين - على أية حال - مثل الفن يتألف غالباً من حوار مع الماضي من أجل إيجاد منظور للنظر منه إلى الحاضر.

فالتراث يقدم قفزة البداية التي تمكن الرجال والنساء من خوض الأسئلة المتكررة حول معنى الحياة النهائي. الدين والفن لا يعملان مثل العلم. فخلال القرن الثامن عشر بدأ المسيحيون يطبقون الطرق العلمية على الدين المسيحي فتوصلوا إلى الحلول التي توصل إليها نيوتن. ففي إنجلترا كان اللاهوتيون المتحررون مثل ماثيو تيندال Mathew Tindal وجون تولاند Johan Toland كانوا متلهفين إلى العودة إلى الأساسيات، وإلى تطهير المسيحية من الخلفاء، وأن يؤسسوا ديناً عقلياً حقاً. فقد دافع تولاند في كتابه (المسيحية ليست غامضة) ١٦٩٦ أن السرية كانت تفضي فقط إلى الطغيان والخرافة^(١٦). ومن الخطأ أن نتخذ أن

الله غير قادر على أن يعبر عن نفسه بكل وضوح. كان يجب أن يكون الدين معقولاً. حاول تتدلل في كتابه (المسيحية قديمة قدم الخلق) ١٧٣٠ - كما حاول نيوتن - أن يعيد خلق الدين الأساسي ويظهره من الشواذب اللاحقة. فالعقلانية كانت المحك للدين الحق. «هناك دين الطبيعة والعقل مكتوباً في قلب كل منا من الخلق الأول، وبه يجب أن يقدر الناس مصداقية الدين المؤسساتي مهما كانت»^(١٧) وبالتالي كان الظهور غير ضروري لأن بالإمكان الوصول إلى الحقيقة عبر بحوثنا العقلانية، والأسرار مثل الثالث والتجسيد حظيا بشرح معقول كاف وينبغي عدم استخدامها لإبقاء المؤمن البسيط في حالة خوف من الخرافة ومؤسسة الكنيسة.

انتشرت هذه الأفكار في القارة الأوروبية، وبدأ جيل جديد من المؤرخين يتحرون تاريخ الكنيسة موضوعياً. ففي عام ١٦٩٩ نشر غوتفريد أرنولد Gottfried Arnold كتاباً بعنوان (تاريخ الكنائس من بداية العهد الجديد حتى ١٦٨٨) يدافع فيه أن ما كان يعتبر في حينه معتقداً لا يمكن تتبعه إلى مصدره: الكنيسة الأولى. وقام يوهان لورينز فون موشيم Johann Lornez Von Mosheim (١٦٩٤ - ١٧٥٥) بفصل متعمد للتاريخ عن اللاهوت في عمله الجليل (مؤسسات التاريخ الكنيسي) ١٧٢٦ ودون تطور العقيدة دون الدفاع عن صحتها. وتحري مؤرخون آخرون مثل جورج وولش Gerog Walch وجيوفاني بوت Giovanni But وهنري نوريس Henry Noris تاريخ النقاشات المعتقدية الصعبة مثل الأريانية Arianism وفيليوك Filioque والمناظرات التي جرت دفاعاً عن العقيدة المسيحية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. كان أمراً مزعجاً للمؤمن أن يرى العقائد الأساسية حول طبيعة الله والمسيح قد تطورت عبر القرون وأنها لم تكن موجودة في العهد الجديد: فهل كان ذلك يعني أنها كانت زائفة؟ مضى آخرون إلى أبعد من ذلك وطبقوا هذه الموضوعية الجديدة على العهد الجديد نفسه. وقد قام هيرمان صموئيل ريماروس Herman Samuel Reimarus (١٦٩٤ - ١٧٦٨) بكتابة سيرة نقدية لحياة يسوع: مسألة بشرية يسوع لم تعد مسألة معتقدية أو صوفية بل وضعت تحت البحث العلمي في عصر العقل. فما أن حدث هذا حتى بدأ عصر الشك الحديث. قال ريماروس أن المسيح كان يريد تأسيس دولة إلهية وعندما أخفقت رسالته كمسيح منتظر مات يائساً. وقد أشار إلى أن يسوع في الأناجيل لم يزعم أبداً أنه قد جاء كي يكفر عن ذنوب البشر. وبالنسبة لتلك الفكرة التي أصبحت مركزية في المسيحية الغربية بالإمكان تتبعها إلى القديس بولس مؤسس المسيحية الحقيقي «يجب علينا ألا نبجل يسوع كإله بل كمعلم لدين عملي مجيد بسيط وبتنازه»^(١٨)

اعتمدت هذه الدراسات الموضوعية على فهم حرفي للكتاب المقدس وتجاهلت الطبيعة الرمزية أو المجازية للدين. قد يعترض المرء أن هذا النوع من النقد لم يكن مستمداً من الموضوع إلا بقدر علاقته مع الفن أو الشعر. لكن ما إن أصبحت هذه الروح علمية معيارية لأناس كثيرين حتى أصبح من الصعب عليهم قراءة الأنجيل بأية طريقة أخرى عدا هذه الطريقة. التزم المسيحيون الغربيون آنذاك بفهم حرفي لدينهم وتراجعوا عن الأسطورة بخطوة ثابتة، فالقصة كانت إما حقيقية فعلاً أو أنها كانت وهماً. أسئلة حول أصل الدين كانت أكثر أهمية للمسيحيين من أهميتها للبوذيين لأن تراثهم الوجداني قد دعا دائماً أن الله كان يتجلى في الأحداث التاريخية. فإذا كان على المسيحيين صيانة كمالهم integrity في عصر العلم كان لابد من الإجابة على هذه الأسئلة. بعض المسيحيين الذين كانوا يتبنون معتقدات أكثر تقليدية من معتقدات نيتال وريماروس بدؤوا يتساءلون عن الفهم الغربي التراثي لله. ففي كتابه (براءة فيتبرغ من جريمة قتل مزدوجة) ١٦٨١ كتب اللوثري جون فريدمان John Friedman Mayer أن الاعتقاد التراثي بالغفران - الذي لخصه أنسيلم Anselm - الذي صور مطلب الله لموت ابنه كان يمثل مفهوماً غير كافٍ لله. لقد كان «الله الحق، الله الغاضب، والله الذي يشعر بالمرارة الذي يطالب بعقاب صارم كان يملأ مسيحيين كثير بالخوف وعلمهم أن يرتدوا عن ذنوبهم»^(١٩). كان قلق المسيحيين يتزايد نتيجة قسوة معظم التاريخ المسيحي الذي وجهه الصليبيين الضعيفين ومحاكم التفتيش وحملات الاضطهاد باسم هذا الله العادل. وقد بدأ إيجاب الناس على الإيمان بمعتقدات أرثوذكسية مربعاً بشكل خاص بالنسبة إلى عصر مولع جداً بالحرية، وحرية الوجدان. فحمام الدم الذي أطلقته حركة الإصلاح وأثارها بدأ أنه القشة الأخيرة.

بدأ أن العقل هو الإجابة. فهل كان بوسع الله أن يتخلص من السرية التي جعلته طيلة قرون قيمة دينية فعالة في تراثات أخرى مقبولة للمسيحيين الحداثيين الأكثر تخيلاً؟ فالشاعر البيوريتاني جون ملتون John Milton (١٦٠٨ - ١٦٧٤) أزعجه سجل الكنيسة الحافل بعدم التسامح. وكونه إنساناً صادقاً مع عصره فقد حاول في كتابه الذي لم ينشر (في العقيدة المسيحية) أن يصلح حركة الإصلاح وأن يصوغ عقيدة لنفسه لا تستند على معتقدات وأحكام الآخرين. وكانت تساوره شكوك حول معتقدات تراثية مثل الثالث. إنه لأمر هام أن بطل راعته الفردوس المفقود هو الشيطان بدلاً من الله الذي أراد أن يبرر أفعاله للإنسان. فالشيطان ذو خصائص كثيرة مشتركة مع الأوروبيين الحداثيين: إنه يتحدى السلطة، ويعد نفسه لمواجهة المجهول، وفي رحلاته الجسورة من الجحيم - عبر عماء الأرض المخلوقة حديثاً - يصبح المستكشف الأول. يبدو أن إله ملتون يوضح العبث الفطري في

الحرفية الغربية. فدون الفهم السري للثالوث فإن مكانة الابن تغدو ملتبسة في القصيدة. وليس واضحاً فيما إذا كان وجوداً إلهياً ثانياً أم مخلوقاً مماثلاً للملائكة مع أنه أرفع منهم منزلة. ففي جميع الأحداث التي يكون فيها هو والأب وجودان منفصلان تماماً وعليهما الخوض في أحداث مطولة مملّة جداً كي يكتشف كل منهما نوايا الآخر، مع أن الابن هو الكلمة المحترف بها وحكمة الأب.

تناوُل ملتون لمعرفة الله المسبقة لجميع الأحداث على الأرض هي التي تجعل إلهه غير قابل للتصديق. بما أن الله بالضرورة يعرف مسبقاً أن آدم وحواء سوف يهبطان - حتى قبل أن يصل الشيطان الأرض - فعليه أن يخوض بتبرير أفعاله قبل وقوع الحدث. فكما يشرح لابن ما كان ليشر بالسورور لو أنه فرض الطاعة، ولذلك أعطى آدم وحواء المقدرة على مواجهة الشيطان. وبذلك ليس في وسعهما اتهام الله كما يدافع عن نفسه:

خالفهما - أو صالعهما، أو صانع قدرهما
وكان القدر قد سيطر

على إرادتهما، وقد صدرت بأمر مطلق
أو معرفة مسبقة عليا، هما نفسيهما أعلنّا
تقريدهما، وليس أنا: لو علمت مسبقاً،

فالمعرفة المسبقة ليس لها تأثير على خطيتهما
الذي اتضح أنهما بالتأكيد لم يكونا يعرفانه من قبل
لقد شكلتهما أحراراً، وأحراراً يجب أن يبقيا
حتى يلتتا بعضهما: وإلا يجب أن أغير
طبيعتهما، وأن أُلقي الأمر السامي
الذي لا يغير، الأبدي الذي أعلن
حريتهما، هما بأنفسهما يجب أن يرشما هبوطهما^(٧٠)

إن احترام هذا التفكير الدّعي ليس أمراً صعباً فقط بل يظهر الله قاسياً حقاً ويفتقر إلى الرحمة التي يُفترض أن دينه يُلم بها. فلزام الله أن يتكلم ويفكر مثل أي منا بهذه الطريقة بين عيوب التصور الشخصاني التجسدي للإله. هناك أيضاً تناقضات كثيرة تجعل إلهاً كهذا من المتعذر أن يكون منسجماً أو يستحق التبجيل.

إن الفهم الحرفي لهذه المعتقدات مثل كلية قدرة الله لن يكون مجدياً. فإله ملتون ليس فقط بارداً أو شرعياً بل إنه غير كفء أيضاً. في الجزئين الأخيرين من الفردوس المفقود يرسل الله الملاك الرئيسي ميكائيل كي يواسي آدم على خطيئته التي ارتكبها عن طريق

السماح له أن يرى كيف مستخلص ذريته. ففسار تاريخ الخلاص كله يكشف لأدم في سلسلة لوحات يرافقها تعليق ميكائيل: يرى مقتل قابيل على يد هابيل، وطوفان لوح، وفلكه وبرج بابل، ونداء إبراهيم، والخروج من مصر، وإنزال الشريعة على جبل سيناء. يشرح ميكائيل أن عدم كفاية التوراة التي اضطهدت شعب الله اختار النص طيلة قرون محرض لمجملهم يتوقون إلى شريعة أكثر روحانية. وبينما يستمر هذا العرض للخلاص المستقبلي للعالم: إنجازات الملك داوود، والنفي إلى بابل، وولادة المسيح وهلم جرا، يخطر للقارئ أنه لابد أن يكون هناك طريقة أكثر سهولة ومباشرة لخلاص الجنس البشري. هذه الخطوة المعذبة بإخفاقاتها المستمرة وبدائياتها الزائفة المقدر عليها مسبقاً، إلا أن تزرع شكوكاً كبيرة على ذكاء مؤلفها. فإله ملتون يوحى بثقة قليلة. وبعد الفردوس المفقود لم يحاول كاتب مبدع إنجليزي مرموق أن يصف العالم الخارق للطبيعة. ولن يكون هناك كُتّاب مثل سبنسر وملتون. ومن هذه الفترة فصاعداً سيفقد الخارق للطبيعة والروحي مجالاً لكتاب هامشيين مثل جورج ماكDonald وسي. إس. لوس C. S. Lewis: إله لا يرق للمخيلة وإله يعاني من متاعب.

ففي نهاية الفردوس المفقود يأخذ آدم وحواء طريقهما المنعزل خارجين من جنة عدن إلى العالم. في الغرب أيضاً كان المسيحيون على عتبة عصر أكثر دينوية بما أنهم كانوا مايزالون يتبنون الإيمان بالله. فالدين الجديد دين العقل عُرف فيما بعد بالتأليه Deism هذا الدين ليس لديه وقت للممارسات المبدعة للصوفية والميثولوجيا. لقد أدار ظهره إلى أسطورة الوحي وإلى أسرار تراثية كالتالوث الذي أبقى الناس مدة طويلة في الخوف من الخرافة. فبدلاً من ذلك أعلن الولاء للإله ((Deus)) الذي يستطيع الإنسان أن يكشفه بجهوده الخاصة. وفرنسموا ماري دو فولثير هو الذي سيكون المحمّد للحركة التي ستعرف لاحقاً باسم التنوير، فرنسموا هذا عرف هذا الدين المثالي في قاموسه الفلسفي الصادر عام ١٧٦٤ بأنه قبل كل شيء سيكون بأبسط شكل ممكن.

ألن يكون ذلك الذي لقن الكثير من الأخلاقية والقليل من العقيدة؟

ذلك الذي كان ميالاً لجعل البشر عادلين دون أن يجعلهم عبيدين؟

ذلك الذي لن يأمر المرء أن يؤمن بأشياء مستحيلة، متناقضة وضارة للألوهة، ومهلكاً للبشر والذي لا يتجرأ على التهديد بعقاب أبدي لأي امرئ يملك إدراكاً سليماً؟ ألن يكون ذلك الدين الذي لم يرسخ معتقده بالجلادين، ولم يفرق الأرض بالدم بدعوى صوفية غير مفهومة؟ الذي يعلم فقط بعبادة إله واحد والعدالة، والتسامح والإنسانية؟^(٢١)

كان على الكنائس أن تلوم نفسها فقط على هذا التحدي لأنها منذ قرون قد أثقلت كاهل المؤمن بعدد من معتقدات مشلولة. كان رد الفعل حتمياً، فكان إيجابياً.

فلاسفة التنوير لم ينكروا فكرة الله على أية حال. لقد أنكروا إله العقيدة القاسي الذي كان يهدد الجنس البشري بنار أبدية. لقد رفضوا معتقدات غامضة تتعلق به كانت مقبنة للعقل. لكن إيمانهم في وجود متعالٍ بقي سارياً. لقد بنى فولتير كنيسة صغيرة في فيرني Ferney وعليها نقش Deo Exerit Voltaire على عتبة الباب كي توحى بأنه لو لم يوجد الله لكان من الضروري أن نخترعه. في القاموس الفلسفي قال أن الإيمان بإله واحد كان أكثر عقلانية وطبيعية للبشرية من الإيمان بألهة عديدة. فالتناس أصلاً كانوا يمشون في قرى صغيرة وتجمعات منعزلة قد اعترفوا أن إلهاً واحداً كان مسيطراً على مصائرهم. فالشرك كان تطوراً لاحقاً. فالعلم والفلسفة العقلانية أشارتا إلى وجود أسمى: « ما هي النتيجة التي يمكننا أن نستخدمها من هذا كله؟» هذا هو السؤال الذي يطرحه في نهاية مقالته في الشرك في قاموسه فيجيب:

والشرك شر كبير في أولئك الذين يحكمون وأيضاً في الناس العارفين حتى وإن تكن حياتهم بريئة لأن من دراساتهم يستطيعون أن يؤثروا على الذين يتبوؤن المناصب، حتى وإن لم يكن الشرك ضاراً كضور التعصب، فإنه يكاد يكون دائماً قاتلاً للفضيلة. قبل كل شيء دعني أضيف أن هناك مشركين أقل اليوم أكثر مما كانوا في الماضي؛ لأن الفلاسفة قد فهموا أن ما من كائن نام دون بذره، وما من بذرة دون هدفه» (٢٢).

سأرى فولتير بين الشرك والخرافة والتعصب اللذين كان الفلاسفة حريصين على استئصالهما. فمشكلته لم تكن الله بل المعتقدات حوله التي كانت تعارض مع معايير العقل المقدسة.

لقد تأثر يهود أوروبا بالأفكار الجديدة. فباروخ سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) اليهودي الهولندي من أصل إسباني، أصبح غير مقتنع بدراسة التوراة فانضم إلى حلقة مفكرين أحرار من غير اليهود. لقد طور أفكاراً كانت مختلفة اختلافاً عميقاً عن اليهودية التقليدية والتي تأثرت بالمفكرين العلمانيين مثل ديكارت والسكولاستيين المسيحيين. في عام ١٦٥٦ عندما كان عمره واحداً وعشرين سنة تخلى رسمياً عن الكنيس في أمستردام. فبينما كان قرار القطيعة يقرأ بصوت عالٍ أطفقت أنوار الكنيس تدريجياً حتى عم الظلام على الحضور كي يتعرفوا بأنفسهم على ظلام روح سبينوزا في عالم لا إله له:

«فتحل اللغة عليه في النهار، وليعن في الليل، وليعن في رقاده، وفي

وقرؤه، في خروجه، ودخوله. ندهو الله ألا يسامحه أو يعترف به. فليحل عليه غضب الله وسخطه لحرقة من الآن فصاعداً، حملوه كل اللعنات المدونة في كتاب الشريعة وليمحى اسمه من تحت السماء^(٢٣).

من هذه الفترة فصاعداً لم ينتم سبينوزا إلى أي من التجمعات الدينية في أوروبا. فقد كان النسخة الأصلية للفكرة الدنيوية المستقلة التي ستغدو سارية في الغرب. في مطلع القرن العشرين عظم أناس كثيرون سبينوزاً كبطل للحدثة وكانوا يشعرون بصلة قرابة مع نفيه الرمزي، وغريته وبحته عن خلاص دنيوي.

لقد اعتبر سبينوزا مشركاً لكنه لم يكن لديه إيمان بإله، ولا حتى بإله التوراة، فقد رأى ماراً الفلاسفة أن الدين الموحى أدنى من المعرفة العلمية لله التي يلفها الفيلسوف. فطبيعة الإيمان الديني كانت مفهومة بشكل خاطئ كما قال في (كتاب اللاهوت السياسي). لقد أصبح «مجرد مركب من السلنجة والأهواء، نسيجاً من أسرار لاعمى لها»^(٢٤). لقد نظر نظرة نقدية إلى التاريخ التوراتي. أطلق الإسرائيليون اسم (الله) على أية ظاهرة لم يستطيعوا فهمها. قيل أن الأنبياء - على سبيل المثال - تلهمهم روح الله لأنهم كانوا بيساطة أناس ذوي فكر وقداة استثنائيين. لكن هذا النوع من الإلهام لم يقتصر على النخبة بل كان متوفراً لدى كل امرئ عبر العقل الطبيعي. فشعائر الدين ورموزه كانت تساعد فقط الناس الذين كانوا غير قادرين على التفكير العلمي العقلاني.

عاد سبينوزا - مثلما عاد ديكارت - إلى البرهان الأنطولوجي لوجود الله. ففكرة الله بحد ذاتها تتضمن إعلان شرعية وجود الله لأن القول أن ثمة وجوداً كاملاً لم يكن موجوداً، ينطوي على تناقض في الكلمات. كان وجود الله أمراً ضرورياً لأنه وحده الذي كان يقدم اليقينة والثقة الضرورييتين للقيام باستنتاجات أخرى حول الحقيقة Reality. ففهمنا العلمي للعالم يبين لنا أن العالم محكوم بقوانين ثابتة. الله بالنسبة لسبينوزا هو ببساطة مبدأ القانون، كمية من جميع القوانين الأبدية في الوجود. الله وجود مادي مساو ومماثل للترتيب الذي يحكم الكون. عاد سبينوزا - مثلما فعل نيوتن - إلى فكرة النفي الفلسفية، لأن الله موجود وملزم في جميع الأشياء - سواء للمادية منها والروحية. بالإمكان تعريفه على أنه القانون الذي ينظم الوجود. كان الحديث عن قدرة الله في العالم مجرد طريقة لوصف مبادئ الوجود الرياضية والسببية، كان إنكاراً مطلقاً للتسامي.

يبدو معتقد سبينوزا كيباً قاحلاً، لكن إلههم ألهمة برهية صوفية حقة. أما بالنسبة لإجمالي قوانين الوجود فقد كان الله الكمال الأمثل صاغ كل شيء في وحدة وانسجام.

فعندما يتأمل البشر أفعال عقولهم بالطريقة التي قام بها ديكارت فإنهم يفتحون أنفسهم أمام وجود الله الانهائي والأزلي: هو يفعل داخلهم. لقد اعتقد سبينوزا - مثلاً باعتد أفلاطون - أن المعرفة الحدسية والعفوية تكشف حضور الله أكثر مما تكشفه الحيازة المضنية للحقائق. فساعدتنا وبهجتنا في المعرفة مساوية لحب الله، إنه ليس موضوعاً فكرياً ألبداً لكنه علة ومبدأ ذلك الفكر، وهو واحد في أعماق كل كائن بشري. ليست هناك حاجة إلى الوحي أو القانون الإلهي: لأن هذا الله في متناول البشر كلهم، والثورة وحده هو قانون الطبيعة الأبدى. لقد أحضر سبينوزا الميتافيزيقا القديمة إلى جانب العلم الحديث: إلهه لم يكن إله الأفلاطونيين المحدثين الواحد الذي لا سبيل إلى معرفه بل كان أقرب إلى الوجود المطلق الذي وصفه فلاسفة مثل الإكويني. لكنه كان أيضاً قريباً من الإله الصوفي الذي عرفه الموحدون الأرثوذكسيون داخل أنفسهم. كان اليهود والمسيحيون والفلاسفة ميالين إلى اعتبار سبينوزا ملحداً: لم يكن هناك شيء شخصي حول هذا الله الذي كان غير منفصل عن بقية الوجود. في الحقيقة استخدم سبينوزا كلمة الله لأسباب تاريخية فقط. لقد وافق الملاحدون الذين يزعمون أن الحقيقة لا يمكن تجزئتها إلى جزء هو الله وإلى جزء آخر ليس الله. فإذا لم يكن ممكناً فصل الله عن أي شيء آخر فمن المحال القول أنه يوجد بأي معنى عادي. ما كان يقوله سبينوزا: لا وجود لإله مطابق بالمعنى الذي نلصقه عادة بتلك الكلمة، لكن الفلاسفة والمتصوفين كانوا يبدون النقطة نفسها طيلة قرون. قال بعضهم أن «لا شيء» منفصل عن العالم الذي نعرفه. ولولا غياب الإله المستتر المتعالي Ensof لكانت وحدة الوجود التي نادى بها سبينوزا مماثلة للقبالة، ويمكننا أن نرى صلة قرابة بين الصوفية والراديكالية وبين الإلحاد الطارىء حديثاً.

لقد كان الفيلسوف الألماني موسى مندلسون Moses Mendelssohn (١٧٢٩ - ١٧٨٦) هو الذي فتح الطريق أمام اليهود كي يدخلوا أوروبا الحديثة، على الرغم من أنه لم يكن ينوي في البداية تشييد فلسفة يهودية محدداً، كان مهتماً بعلم النفس وعلم الجمال بالإضافة إلى اهتمامه بالدين. فأعماله الأولى (فيدون وساعات الصباح Phaedon and Morning hours) كُتبت ضمن ظرفية حركة التنوير الأكثر اتساعاً. لقد سعى هذان الكتابان إلى ترسيخ وجود الله على أرضية عقلانية ولم يتناولوا المسألة من منظور يهودي. في بلدان مثل فرنسا وألمانيا جلبت أفكار التنوير التحررية الحرة والاعتناق ومكنت اليهود من دخول المجتمع. فلم يكن صعباً على اليهود المستعيرين قبول الفلسفة الدينية لعصر التنوير الألماني. فاليهودية لم تعان من الهاجس المعقدي الذي عانت منه المسيحية الغربية، ومعتقداتها الأساسية كانت عملياً منسجمة مع الدين العقلاني لعصر

التوير الذي كان ما يزال يقبل في ألمانيا فكرة المعجزات وتدخل الله في شؤون البشر. ففي كتابه (ساعات الصباح) كان إله ماندلسون الفلسفي مماثلاً جداً لإله الكتاب المقدس. كان إلهاً شخصياً، لا تجريداً ميتافيزيقياً. المواصفات البشرية مثل الحكمة والخير، والعدل، وحب اللطف والفكر، بالإمكان إطلاقها جميعاً على هذا الوجود الأسمي.

لكن هذا يجعل إله ماندلسون يشبهنا كثيراً. فكان دينه دين توير نموذجي:

دافئ، عاطفي، وميال إلى تجاهل تناقض والتباس التجربة الدينية. كان ماندلسون يرى أن حياة دون إله لا معنى لها لكن هذا لم يكن ديناً عاطفياً: كان مقتنعاً تماماً بمعرفة الله عن طريق العقل. فخيرة الله هي المشجب الذي يعلق عليه لاهوته. فلو كان على البشر الاعتماد على الإلهام وحده فإن هذا لن يكون منسجماً مع خيرة الله لأن أناساً كثيرين سيكونون مستثنين من الخطوة الإلهية. وهكذا فقد استغنت فلسفته عن غموض المهارات الفكرية التي كانت تتطلبها الفلسفة - والتي كانت ممكنة لأناس قلائل جداً - واعتمدت على الإدراك السليم الذي كان في متناول كل امرئ. هناك خطر في هذه الطريقة، لأنه من السهل جداً أن تجعل إلهاً كهذا يلتزم بأهوائنا ويجعلها مطلقة.

عندما نشر كتابه (فيدون) ١٧٦٧ كان دفاعه الفلسفي عن خلود الروحي إيجابياً، ويلقى أحياناً الدعم في الدوائر المسيحية أو غير اليهودية. كتب قس سويسري شاب يدعى يوهان كاسبر لافويتر Johann Casper Lavoyter أن مؤلف هذا الكتاب كان ناضجاً لاعتناق للمسيحية وتحدى ماندلسون أن يدافع عن يهوديته علانية. بعدئذ انشأ ماندلسون - ضد رغبته - إلى دفاع عقلاني عن اليهودية، مع أنه لم يكن مؤيداً لمعتقدات تراثية مثل الشعب المختار أو أرض الميعاد. لقد سار على خط رفيع: إنه لم يرد المضي إلى مذهب إليه سبينوزا، ولأن يجلب سمخه المسيحيين على شعبه إذا ما تكلم دفاعه عن اليهودية بالنجاح. جادل - كما جادل أنصار التأليه - أن بالإمكان قبول الوحي إن اتضح أن حقائقه ممكنة البرهنة عليها عقلياً. الاعتقاد بالتأليه لم ينطبق على مبدئه، فاليهودية لم تكن دين وحي بل هي شريعة ملهمة. المفهوم اليهودي لله كان مماثلاً أساساً للدين الطبيعي الذي كان يخص البشرية كلها وبالإمكان شرحه بالعقل المجرد. اعتمد ماندلسون على البراهين الكوسمولوجية والأطولوجية، وجادل بأن وظيفة الشريعة هي أن تساعد اليهود على تكوين مفهوم صحيح عن الله وأن يتجنبوا عبادة الأصنام. وانتهى بالتماس من أجل التسامح. دين العقل الكوني يجب أن يقود إلى احترام للطرق الأخرى في تناول ومقاربة الله، من ضمنها اليهودية - التي اضطهدتها الكنائس الأوروبية طيلة قرون.

كان تأثير ماندلسون على اليهود أقل بكثير من تأثير فلسفة عمانوئيل كانط الذي نشر

كتابه (نقد العقل المحض) ١٧٨١ في العقد الأخير من حياة مندلسون. لقد عرف كانط التوير بأنه «خروج الإنسان من الوصاية التي فرضها على ذاته أو اعتماده على سلطة خارجية.»^(٢٥) فالسبيل الوحيد إلى الله يقع عبر مملكة الوجدان الأخلاقية المستقلة التي أطلق عليها اسم «العقل العملي». لقد استبعد الكثير من هئات الدين مثل السلطة المعتقدية للكنائس، الصلاة والطقوس التي كانت تمتع البشر من الاعتماد على قدراتهم الذاتية، وتشجعهم على الاعتماد على الآخر. لكنه لم يكن معارضاً لفكرة الله ذاته. فقد جادل - كما فعل الغزالي قبل قرون - أن المجدالات التراثية من أجل إثبات وجود الله كانت عديمة الجدوى لأن عقولنا باستطاعتها أن تفهم فقط الأشياء التي توجد في مكان وزمان ماء وعقولنا ليست كفواً كي تناقش حقائق تقع خارج هذا المجال. لكنه قبل أن البشرية لديها ميل طبيعي نحو تجاوز هذه الحدود وأن تسعى إلى مبدأ وحدة يعطينا رؤية للحقيقة ككل مترابط. كانت هذه فكرة الله. لم يكن ممكناً إثبات وجود الله منطقياً ولم يكن دحض ذلك ممكناً كذلك. كانت فكرة الله أساسية بالنسبة لنا: إنها تمثل الحد المثالي الذي يمكننا من بلوغ فكرة شاملة للعالم.

كان الله بالنسبة لكانط مجرد وسيلة convenience قد يساء استخدامها. إن فكرة خالق كُلي القدرة حكيم قد تنسف البحث العلمي وتقود إلى اتكالية كسولة على إله خارج من آلة deus machina، إله يملأ الفجوات في معرفتنا. فقد يكون أيضاً مصدرراً لنزعة غموض غير ضرورية تؤدي إلى نزاعات حادة مثل تلك النزاعات التي بثت الخوف في تاريخ الكنائس. كان كانط ينكر أنه كان ملحداً، ووصفه معاصروه كرجل ورع كان مدركاً تماماً لقدرة الإنسان على الشر. وهذا الإحساس جعل فكرة الله أساسية بالنسبة له. فقد جادل في كتابه (نقد العقل العملي): كي نعيش حياة أخلاقية يحتاج الناس إلى حاكم يكافئ على الفضيلة وهو سعيد. في هذا المنظور كان الله قائماً على نظام أخلاقي كفكرة لاحقة. فمركز الدين لم يعد سرّاً لله بل الإنسان نفسه. لقد أصبح الله استراتيجياً تمكناً من العمل بكفاءة وأخلاقية أكبر ولم يعد سبب الوجود كله. ولن يمضي وقت طويل حتى يأخذ البعض مثله الأعلى بالاستقلالية خطوة أبعد ويستغني عن هذا الله كله. في الغرب كان واحداً من الأوائل الذين شكوا بصحة البراهين التراثية موضعاً أنها في حقيقة الأمر لم تكن توضح شيئاً. ولن تظهر أبداً مقنعة ثانية.

بدا هذا محرراً لبعض المسيحيين الذين آمنوا أن الله قد أغلق سبيلاً للإيمان كي يفتح سبيلاً آخر. كتب جون ويزلي John Wesley (١٧٠٣ - ١٧٩١) في كتابه (عرض مبسط للمسيحية الحقيقية):

كنت أحياناً ميالاً إلى الاعتقاد أن حكمة الله قد سمحت في - معظم
المصور اللاحقة - للليل الخارجي للمسيحية كي يكون موعواً لهذه الغاية
ذاتها، بحيث لا يستريح رجال الفكر هناك بل يسمعون جاهدتين إلى النظر
داخل أنفسهم وأن يهتوا بالنور المشرق في قلوبهم^(٢٦).

تطور نوع جديد من التقوى جنباً إلى جنب مع عقلانية التنوير، وتسمى غالباً «دين
القلب» وعلى الرغم من أنها كانت تتمركز في القلب أكثر من الرأس كان لها قواسم
كثيرة مشتركة مع التألّهية Deism . كانت تحت الرجال والنساء على التخلي عن البراهين
والمرجعيات واكتشاف الله الذي كان داخل القلب، وفي تناول كل شخص. مثلهم مثل
الكثيرين من أنصار التألّهية deists فإن تلاميذ الأخوة الويلزية أو الألماني الورع الكونت
نيكولاس لودفيج فون تيندورف Nicholas Ludvig Von Tinendorf (١٧٠٦ -
١٧٦٠) كانوا يشعرون أنهم ينفذون عنهم شوائب قرون ويعودون إلى المسيحية البسيطة
الحقة التي عاشها المسيح والمسيحيون الأوائل.

كان جون ويلزي مسيحياً متحمساً دائماً. وأثناء وجوده في كلية لينكولن في
أوكسفورد أسس مع أخيه تشارلز جمعية لمن هم في سنوات التخرج أسموها
النادي المقدس Holy Club. كانت تشدد على الطريقة والمعرفة ولذلك أصبح أعضاؤها
يعرفون باسم «الطوائيين». وفي عام ١٧٣٥ أبحر جون وشارلز إلى مستعمرة جورجيا في
أمريكا كمبشرين، لكن جون عاد حزينا بعد سنتين مدونا في مجلته: «ذهبت إلى أمريكا
كي أنشر الدين بين الهنود لكن من الذي سيهديني^(٢٧)». أثناء الرحلة تأثر الأخوان كثيراً
ببعض المبشرين من المذهب المورافي Moravian الذي تحاشى العقيدة كلها وأصر أن الدين
كان مجرد شأن قلبي. وفي سنة ١٧٣٨ مرّ جون بتجربة تحول أثناء اجتماع مورافي في
كنيسته في شارع ألدرزغيت Aldersgate في لندن وأقنعه هذه التجربة بأنه تلقى رسالة
مباشرة من الله بالمبشير بهذا النوع من المسيحية في أرجاء إنجلترا. ومن هذه الفترة فصاعداً
ارتحل هو وتلاميذه البلاد مبشرين في صفوف الطبقات العمالية والفلاحين في الأسواق
والحقول.

كانت تجربة الوجود «الولادة من جديد» حاسمة. وكانت «ضرورية بشكل مطلق»
للتعرف على: «الله الذي يتنفس باستمرار على الروح الإنسانية» ماثلاً مسيحياً «بحب
عرفاني مستمر لله» يشعر به بشكل واع، ويجعل من الضروري محبة كل طفل من أطفال
الله بطيئة ورقة ومعاناة طويلة^(٢٨). فالاعتقادات حول الله كان لاجدوى منها وقد تكون
ضارة. التأثير الفيزيولوجي لكلمات المسيح على المؤمن كان البرهان الأفضل على حقيقة

الدين. فكما في البيوريتانية، كانت تجربة دينية عاطفية، البرهان الوحيد على الدين الحق وعلى الخلاص، لكن هذه النزعة الصوفية قد تكون خطيرة إذا ماتبناها كل شخص. فقد أكد المتصوفون دائماً على مخاطر المسالك الروحية وحذروا من الهستيريا: السلام والهدوء هما دلائل الصوفية الحقة. هذه المسيحية المولودة ثانية قد تولد سلوكاً سعارياً، كما في حالات النشوة عند الكواكر Quakers والشيكركز shakers . وقد تؤدي إلى اليأس أيضاً كما حدث للشاعر وليم كوبر William Cowper (١٧٣١ - ١٨٠٠) الذي جن عندما لم يعد يشعر أنه قد أنقذ، متخيلاً أن غياب هذا الإحساس كان دليلاً على أنه كان ملعوناً.

في دين القلب كانت المعتقدات حول الله تحول إلى حالات عاطفية داخلية. وهكذا فالكونت فون زيتزندورف الذي كان راعياً لعدة جماعات دينية كانت تعيش على أملاكه في ساكسونيا Saxony قال - كما قال ويزلي - «الدين ليس في الأفكار ولا في الرأس بل في القلب، نور يضيء في القلب»^(٢٩) . باستطاعة الأكاديميين المضي في «الهدر حول سر الثالوث» لكن معنى المعتقد ليس علاقات الشخص الثلاث كل منها بالآخر بل «ما الذي تعنيه بالنسبة لنا»^(٣٠) . كان التجسيد يعبر عن سر ولادة فرد مسيحي من جديد، عندما أصبح المسيح «ملك القلب». هذا النوع من الروحانية المحفزة ظهر في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في الولاء لقلب يسوع المقدس الذي أسس نفسه في وجه معارضة كبيرة من قبل اليسوعيين والكنيسة الذين كانت تساورهم شكوك حول عاطفتها الغثة. لقد بقي دين القلب هذا إلى يومنا الحاضر: فالكثير من الكنائس الكاثوليكية الرومانية تحوي تمثالاً للمسيح معرباً صدره كي يوضح قلباً كالبصلة محاطاً بهالة نارية. وكان هذا الشكل هو الذي ظهر فيه لمارغريت ماري ألاكوك Margret Mary Alacoque (١٦٤٧ - ١٦٩٠) في ديرها في باري لومينال في فرنسا ParayLe Monial ليس هناك شبه بين هذا المسيح والشكل المكشوط Abrasive في الأناجيل. ففي نحيبه إشفاقاً على ذاته يبين مخاطر التركيز على القلب الذي يؤدي إلى استبعاد الرأس. ففي عام ١٦٨٢ تذكرت مارغريت ماري أن يسوع ظهر لها في بداية لينت Lent :

«جسده كله مغطى بالجراح والكدمات. كان دمه الطاهر يتدفق عليه من كل جانب: قال بلهجة حزينة: ما من أحد يشفق عليّ ويتعاطف معي . ويشاركني أحزاني، في هذه الحالة البائسة المدعاة للشفقة والتي أوصلني إليها الحاطون، خاصة في هذا الوقت.»^(٣١)

كانت مارغريت امرأة عصابية اعترفت بكرهيتها حتى لفكرة الجنس، عانت من

اضطرابات هضمية، وتورطت في أعمال مازوشية كي تثبت حبها للقلب المقدس. فهي بذلك توضح كيف يمكن أن يكون دين القلب. فمسيحها لاشيء أكثر من تلبية أمنية، وقلبه المقدس يعوضها عن الحب الذي لم تعرفه أبداً: «أنت ستكون إلى الأبد مرهده المحبوب، رياضة لسروره وضحية رغبته» هذا مقال له يسوع لها.

«إنه سيكون المتعة الوحيدة لجميع رغباتك، إنه سيرم ويعوض عن عيوبك، ويلبي جميع التراماتك نيابه عنك»^(٣٢). التركيز على يسوع الإنسان وحده، هذه التقوى هي مجرد إسقاط يسجن المسيحي في أنانية عصابية.

نحن الآن بعيدين عن عقلانية التنوير الباردة، مع ذلك كان هناك علاقة بين دين القلب في أفضل صوره والتأليهية Deism. كانط على سبيل المثال ترعرع في كونغسبورغ Konigsburg على التقوى، والمذهب اللوثري الذي كان تيسيندسروف له جذور فيه. فافتراحات كانط من أجل دين ضمن حدود العقل المجرد مماثل إلى الإصرار التقوي على دين «موجود في بنية الروح»^(٣٣). أكثر من وجوده في وحي مقدس في معتقدات الكنيسة السلطوية. فعندما أصبح معروفاً بوجهة نظره الراديكالية حيال الدين يقال أن كانط قد أكد ثانية لخادمه الورع بأنه فقط قد «دمر المعتقد كي يفسح المجال للإيمان»^(٣٤).

كان جون ويزلي مسحوراً بالتنوير وكان متعاطفاً مع مثل الحرية بشكل خاص. كان مهتماً بالعلم والتكنولوجيا، مغرماً بالتجارب الكهربائية ويشارك التنوير في تفاؤله حول الطبيعة البشرية وإمكانية التقدم. والعلامة الأمريكي ألبيرت ث. أوتلار Albert C. Outler يشير إلى أن دين القلب الجديد وعقلانية التنوير كانا ضد المؤسسة الكنسية لا يثقان بالسلطة الخارجية، وكلاهما انتشر وسط الحدائين في مواجهة القدامى، وكلاهما كانا يشتركان في كراهيتهما للإنسانية والحماسة تجاه حب الناس. يبدو أن تقوى راديكالية قد مهدت الطريق بالفعل أمام مثل التنوير كي تضرب جذورها وسط اليهود والمسيحيين أيضاً. هناك تشابه كبير في بعض هذه الحركات المتطرفة. كثير من هذه الطوائف بدا أنه يستجيب للتغيرات الهائلة في تلك الفترة عن طريق خرق محرمات دينية، بدأ بعضهم مجدفين، وكان آخرون ملحدين معروفين، بينما كان الآخرون قادة زعموا أنهم تجسيدات لله. معظم هذه المذاهب كان مسيحياً خلاصياً في لهجه وأعلنت الوصول الوشيك لعالم جديد كلياً.

حدث اندلاع لحماسة رؤية Apocalyptic في إنجلترا في عهد الحكومة البيوريتانية

التي كان يرأسها أوليفر كرومويل Oliver Cromwell ، خاصة بعد إعدام الملك شارل الأول في عام ١٦٤٩. وجدت السلطات البيوريتانية ضبط الحماس الديني أمراً صعباً، فقد امتد هذا الحماس إلى الجيش ووسط الناس العاديين، واعتقد كثيرون منهم أن يوم الله قد حان. سيسكب الله روحه على شعبه كله كما وعد في الإنجيل، ويؤسس مملكته في إنجلترا تحديداً. ويبدو أن كرومويل كانت لديه آمال مماثلة لآمال البيوريتانيين الذين استقروا في نيوانجلند خلال ١٦٢٠. ففي عام ١٦٤٩ كان جيرارد وينستاني قد أسس تجمعهم Diggers بالقرب من كوبهام Cobham في صري Surry ، مصمماً على إعادة الجنس البشري إلى حالته الأولى عندما هبط آدم من جنة عدن: كانت الملكية الخاصة، وكذلك الفارق الطبقي، وسلطة البشر ستلوي في هذا المجتمع الجديد. أكد (الأصحاب الأوائل The Quakers) جورج فوكس George Fox وجيمس نيلر Naylor وتلامذتهما في وعظهم أن بإمكان الرجال والناس التوجه إلى الله مباشرة. كان هناك نور داخلي داخل كل فرد، وبعد اكتشافه ورعايته بإمكان كل فرد أن يبلغ الخلاص هنا على الأرض بغض النظر عن الطبقة أو المركز. نادى فوكس شخصياً بالسلمية، نبذ العنف، ودعا إلى مساواة جنسية في مجتمع الأصدقاء الذي دعا إليه. طفا الأمل والحرية والمساواة والأخوة على السطح في إنجلترا قبل نحو ١٤٠ عاماً من نهوض الباريسيين لتحطيم الباستيل.

كان لمعظم هذه النماذج المتطرفة لهذه الروح الدينية الجديدة، قواسم كثيرة مع هراطقة العصور الوسطى الذين عرفوا باسم أخوة الروح الحرة Brethren of the Free Spirit. فكما يشرح المؤرخ البريطاني نورمان كوهن Norman cohn في كتابه (بحث الذكرى الألفية: ثورة الآلاف وفوضى القرون الوسطى) لقد اتهمها أعداؤها الموحدون فلم يترددوا بالقول: «أن الله هو في كل موجود»، «الله موجود في كل حجر وفي كل طرف من جسم الإنسان، مثل وجوده في خبز القران المقدس». «كل شيء مخلوق مقدس»^(٣٥). كان هذا شراً مكرراً لوجهة نظر أفلوطين. الجوهر الأبدي لجميع الأشياء التي فاضت من الواحد كانت مقدسة. كل شيء وجد كان تواقاً إلى العودة إلى مصدره الإلهي، وفي النهاية سوف يعاد امتصاصه إلى داخل الله: حتى شخوص الثلاث سوف يتلاشون في الوحدة البدئية. كان يتم بلوغ الخلاص من خلال معرفة الفرد لطبيعته الإلهية هنا على الأرض. لقد تم العثور على كتيب لأحد الأخوة في صومعة ناسك قرب نهر الراين جاء فيها «الجوهر الإلهي هو جوهرني، وجوهري هو جوهر الإله». وأكد هذا الأخ مراراً «أن كل مخلوق عاقل مبارك في طبيعته»^(٣٦). لم يكن معتقداً فلسفياً بقدر ما كان تواقاً عاطفياً لتجاوز

الحدود البشرية. وكما قال أسقف ستراسبورغ أن الأخوة ويقولون أنهم الله في طبيعتهم دون أي فارق بينهما. إنهم يعتقدون أن كل أشكال الكمال الإلهي موجودة فيهم، وأنهم خالدون وفي السرمية^(٣٧).

يجادل كوهن أن الطوائف المسيحية المتطرفة في إنجلترا أيام كرومويل مثل الكواكرز والليفلسيين Levellers والرانترز Ranters ، يجادل في أنها كانت إحياء لهرطقة الروح الحرة Free Spirit التي سادت في القرن الرابع عشر. بالطبع لم تكن إحياء وإعياً، لكن هؤلاء المتحمسين في القرن السابع عشر توصّلوا بشكل مستقل إلى رؤية وحدانية الوجود، يصعب ألا نراها نسخة شائعة عن وحدة الوجود الفلسفية التي شرحها باستفاضة سبينوزا بعد وقت وجيز. من المحتمل أن وينستاني Winstanley لم يكن يؤمن بإله متعالٍ على الإطلاق مع أنه - مثل الراديكاليين الآخرين - كان متردداً في صياغة إيمانه في كلمات مفهومة. مامن طائفة من هذه الطوائف الثورية كانت تعتقد فعلاً أنها مدينة في خلاصها إلى القرآن الذي قدمه يسوع التاريخي. فالمسيح الذي كان ذو أهمية لهم كان حضوراً منتشراً عبر أفراد الجماعة الذين لا يمكن تمييزهم عن الروح القدس. كانت هذه الطوائف جميعاً متفقة على أن النبوة كانت السبيل الأساسي للاقتراب من الله وأن الإلهام المباشر من الروح Spirit كان أعلى من تعاليم الأديان المعروفة. لقن فوكس أنصاره الكواكرز أن يتأملوا الله في صمت يذكر بالسكون اليوناني أو عبر النفي السلبي الذي تبناه فلاسفة العصور الوسطى. الفكرة القديمة لإله تليثي قد تحللت. هذا الحضور الإلهي للتأصل لا يمكن تقسيمه في شخوص ثلاثة. سمته الوحدانية، تنعكس في وحدة ومساواة الجماعات المختلفة. كان بعض الرانترز يعتقدون أنفسهم إلهيين، مثلما اعتقد الأخوة Brethren. اعتقد بعضهم أن المسيح هو تجسيد جديد لله. وكونهم حسبوا أنفسهم المسيح المنتظر فقد بشروا بمعتقد ثوري ونظام عالمي جديد. ففي كراسه اللاهوتي (كاتالوج واكتشاف أخطاء كثيرة، وهرطقات، وتجديف، وممارسات مهلكة لطوائف هذه الفترة ١٦٤٠) لخص توماس إدواردز Thomas Edwards معتقدات الرانترز Ranters:

كل مخلوق في حالة الخلق الأولى كان الله، وكل مخلوق هو الله، وكل مخلوق له حياة ونفس هو دقق من الله، وسوف يرجع إلى الله ثانية يمتصه كما تضيع قطرة في المحيط... فالإنسان الممعد بالروح القدس يعرف جميع الأشياء حتى مثلما يعرف الله جميع الأشياء التي غايتها سر عميق... فإن يعرف الإنسان بواسطة الروح نفسه ليكون في حالة نعمة

إلهية على الرغم من أنه ارتكب جريمة قتل، وكان يسكر فإن الله لا يرى فيه ذنباً... فكل ماعلى الأرض هو ملك القديسين، وينبغي أن توجد جماعة من الأخيار، ويجب أن يساهم القديسون في الأراضي وممتلكات السادة وأمثالهم^(٣٨).

أنهم الرانترز Ranters بالإلحاد - مثلما أنهم سبينوزا - فقد انتهكوا عمداً المحرمات المسيحية في مذهبهم المتحرر وزعموا مجدفين أن مامن فارق بين الله والإنسان. لم يكن كل امرئ قادراً على التجريد العلمي الذي صاغه كانط أو سبينوزا، لكن في تمجيد الذات الذي نادى به Ranters أو الإنرلايت Inner light أو الـ Quakers من الممكن أن نرى إلهاماً كان مماثلاً للإلهام الذي عبر عنه الثوريون الفرنسيون بعد قرن لاحق عندما نصبوا آلهة العقل في البانتيون.

زعم الكثيرون من الرانترز أنهم المسيح المنتظر، وأنهم تجسيد الله، عليهم إقامة ملكوت جديد. فالروايات التي بين أيدينا عن حياتهم توحى باضطرابات عقلية في بعض الحالات، لكن يبدو أنهم كانوا مايزالون يجذبون إليهم أتباعاً، لأنهم كانوا يخطبون حاجة روحية واجتماعية في إنجلترا عصرهم. وهكذا فإن وليام فرانكلين William Franklin الذي كان رب أسرة محترم أصبح مريضاً عقلياً في عام ١٦٤٦ بعد أن عصف وباء بأسرته. وقد دب الرعب في قلوب المسيحيين عندما أعلن نفسه أنه الله والمسيح لكنه تاب وتوسل طالباً الغفران لاحقاً. بدا أنه مسيطر تماماً على قدراته لكنه استمر في ترك زوجته وبدأ ينام مع نسوة أخريات، وكان يعيش حياة تسول سيئة السمعة. إحدى هذه النساء كانت ماري غادبري Mary Gadbry بدأت ترى رؤى وتسمع أصواتاً، وتنبأ بنظام اجتماعي جديد يلغي كافة الفوارق الطبقية. وعانقت فرانكلين على أنه ربهام ومسيحها. يبدو أنهما قد جذبا عدداً من التلاميذ حولهما، لكن في عام ١٦٥٠ ألقي القبض عليهما وجلدا، وشجنا في برايدول Bridewell وفي الوقت نفسه كان شخص آخر يدعى جون روبنسون John Robbins يُعجل كإله: لقد زعم أنه الله الأب واعتقد أن زوجته ستلد في مدة وجيزة مُخلص العالم.

ينكر بعض المؤرخين أن رجالاً مثل فرانكلين وروبنز كانا من الرانترز Ranters لأننا لانعرف شيئاً عن نشاطاتهما إلا من أعدائهما، وربما شوّهت معتقداتهما لأسباب لاهوتية جدلية. لكن بعض النصوص التي كتبها أفراد من الرانترز مثل جاكوب باولوملي Jacob Bauthumly وريتشارد كوبين Richard Coppin ولورانس كلاركسون Laurence clarkson تبين نفس التعقيد من الأفكار: لقد بشر هؤلاء

بمذهب اجتماعي ثوري. يتحدث باوتمولي في كتابه (الجوانب المضيق والمظلمة في الله) ١٦٥٠ عن الله بكلمات تذكر بالاعتقاد الصوفي بأن الله كان العين، والأذن واليد، للإنسان الذي يلجأ إليه: «بالإلهي ماذا سأقول عن ماهيتك؟ لأنني إن أتق أنني أراك، فإن قولتي هذا لشيء سوى رؤيتك لذاتك، لأن ليس في شيء قادر على رؤيتك بل ذاتك: إن أقل أنني أعرفك، فهذا ليس سوى معرفتك لذاتك»^(٣٩). يرفض باوتمولي - مثلما رفض العقلانيون - الثالوث. وكمتصوف يوصف اعتقاده بألوهة المسيح بالقول أنه بينما كان هو إلهياً فإن الله لا يمكن أن يتجلى في إنسان واحد فقط: «إنه في الحقيقة يسكن في لحم أناس ومخلوقات أخرى مثلما استقر في المسيح الإنسان»^(٤٠). عبادة إله محلي متميز هو شكل للوثنية، السماء ليست مكاناً بل حضوراً روحياً للمسيح. المفهوم التوراتي لله غير كافٍ: «الذنب ليس عملاً بل شرطاً، هبوط لا تدركه طبيعتنا الإلهية. وبشكل غامض كان الله موجوداً في الذنب الذي أطلقه عليه الجانب المظلم لله، مجرد انعدام للنور»^(٤١) شجب أعداؤه موقفه هذا على أنه إلحاد. لكن كتابه هذا لم يكن في روحه بعيداً عن فوكس، وزلي، وميزنسبورغ مع أنه يصور اعتقاده فيه بشكل أكثر فجاجة على شاكلة أنصار التقوى Pietists ، والطرائقيين. كان يحاول الغوص إلى داخل الله الذي أصبح بعيداً وموضوعياً بشكل للإنساني، وأن يحول المعتقد التراثي إلى تجربة دينية. رفض أيضاً السلطة، وكان ذا نظرة إنسانية متفائلة أساساً اشترك فيها مع فلاسفة الأنوار ومع الذين تبنا دين القلب.

كان باوتمولي يغازل معتقد قداسة الذنب المدمر والمثير جداً. فإذا كان الله كل شيء فإن الذنب لشيء - تأكيد حاول الرانترز من امثال لورانس كلاركسون، والاسستير كوب Alastair Coppe أيضاً لإيضاحه عن طريق انتهاك العرف الجنسي السائد جهاراً، أو عن طريق الشتم والتجديف علانية أمام الناس. كان كوب معروفاً بسكره وبالتدخين. فما إن أصبح أحد أفراد الرانترز حتى انغمس باللعن والشتائم التي كانت مكبوتة داخله. نسمع عنه أنه استمر باللعن طيلة ساعة في منبر الوعظ في إحدى كنائس لندن، وشتاماً ساقية في إحدى الحانات بشكل مخيف لدرجة أنها بقيت ترتجف طيلة ساعتين تاليتين. ربما كان هذا رد فعل على الأخلاق البيوريتانية الكتيبة من خلال تركيزها غير السليم على خطيئة البشر. أصغر فوكرو أثباعه من الكواكرز أن لاهرب من الذنب، لكنه بالتأكيد لم يشجع أصدقائه على الخطيئة، وكان يكره شهوانية الرانترز، لكنه كان يحاول التبشير بأثرولوجيا أكثر تفاؤلاً وأن يعيد التوازن. في كتابه (عين واحدة A single Eye) جادل لورانس كلاركسون بما أن الله قد جعل جميع الأشياء جيدة، فالخطيئة وحدها بقيت في خيال الناس. فالله

نفسه قال في الإنجيل أنه سوف يجعل الظلمة نوراً. لقد وجد الموحدون دائماً صعوبة في إيجاد حل لحقيقة الذنب، مع أن المتصوفين حاولوا اكتشاف رؤية أكثر قدسية. جوليان النرويشية اعتقدت أن الذنب كان متوجباً (Behovely) وضرورياً بشكل ما. واقترح القبايون أن الذنب له جذور بطريقة غامضة في الله. والمحررون للطرفون من الرانترز مثل كروب وكلاركسون يمكن اعتبارهما محاولة جاهزة فظة للتخلي عن مسيحية مُضطَهدة أدخلت الرعب إلى المؤمنين باعتقادها بإله غاضب منتقم. العقلانيون والمسيحيون المستيريون كانوا أيضاً يحاولون رمي أصفاد الدين الذي قَدَّم الله في شخصية سلطة قاسية، وأن يكشفوا إلهاً أكثر وداعة.

لاحظ المؤرخون الاجتماعيون أن المسيحية الغربية فريدة بين الأديان العالمية بسبب تبدلاتها العنيفة من قمع وتساهل. وأشاروا أيضاً أن جوانب القمع تتزامن عادة مع الإحياء الديني. فالمناخ الأخلاقي المترامي في عصر التنوير سوف يعقبه القمع في عدة أجزاء من الغرب في الفترة الفكرية التي رافقها تعاطف في نزعة أصولية دينية، في أيامنا هذه.

لقد شهدنا مجتمع التساهل في سنوات الستينات ١٩٦٠ مفسحاً المجال إلى أخلاق مترمة في فترة الثمانينات ١٩٨٠. تزامنت أيضاً مع نمو نزعة أصولية مسيحية في الغرب. فهذه ظاهرة معقدة يصعب حصر أسبابها في سبب واحد. وتقري أيضاً يربطها بفكرة الله التي وجدها الغربيون فكرة إشكالية. فعلماء اللاهوت والمتصوفون في العصور الوسطى ربما كانوا يدعون إلى إله محب لكن الأقدار الخفية على أبواب الكاتدرائيات التي تصور أشكال تعذيب من حلت عليهم اللعنة كانت تخبر قصة أخرى. كان الإحساس بالله يتسم بالظلامية والصراع في الغرب كما سبق أن رأينا. فأنصار الرانترز من أمثال كلاركسون وكوب كانوا ينتهكون المحرمات المسيحية ويعلمون قداسة الخطيئة في الوقت الذي كان فيه أوار السحر يستعر في بلدان مختلفة في أوروبا.

المسيحيون الراديكاليون في إنجلترا كرومويل كانوا أيضاً يترددون على إله ودين كان مثيراً ومخيفاً. للمسيحية التي ولدت من جديد والتي بدأت بالظهور في الغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت غير سليمة واتسمت بانفعالات ونكوصات عنيفة وأحياناً خطيرة. ونستطيع رؤية ذلك في موجة الحماس الديني الذي يُعرف باسم **الصهوة الكبرى** Great Waking التي اجتاحت نيواينجلند خلال الثلاثينات ١٦٣٠. استمدت هذه الموجة إلهامها من الوعظ الإنجيلي لجورج وايتفيلد George Whitfield أحد أنصار وزميل للأخوين ويزلي، ومواعظ نار الجحيم التي كان يلقيها خريج جامعة يال Yale

المدمر جونathan ادوارد Jonathan Edwards (١٧٠٣ - ١٧٥٨). يصف ادوارد هذه الصحوة في مقاله: «عرض صادق لعمل الله المدهش في نورثامبتون وكونناتكي». يصف رعايا أبرشيته أن لاشيء غير عادي فيهم. كانوا هادئين مستقرين، وجديين ولكن ينقصهم الحماس الديني. لم يكونوا أفضل أو أسوأ من الرجال والنساء في أي من المستعمرات الأخرى. لكن في عام ١٧٣٤ مات شابان ميتة مفاجئة وهذا الموت (عزته - على ما يبدو - كلمات مخيفة ألغها إدوارد نفسه - رمى المدينة في سعار حماس ديني. فلم يعد سكان البلدة يتكلمون في شيء سوى الدين، توقفوا عن أعمالهم، وأمضوا اليوم كله يقرؤون الإنجيل. في غضون ستة أشهر تمت ولادات جديدة لنحو ثلاثمئة فرد من جميع طبقات المجتمع: أحياناً كان يصل عددهم إلى خمسة مؤمنين أسبوعياً. رأى ادوارد هذا السعار على أنه عمل مباشر من الله نفسه: لقد كان يقصد هذا حرفياً إلى حد ما، ولم يكن مجرد اسلوب تعبير في النص Facon dep arler . وكما قال مراراً: «هذا الله خارجاً عن طريقته المعتادة» في السلوك في نيوانجلند وكان يحرك الناس بطريقة عجيبة وإعجابية، ينغي القول أن الروح القدس يظهر نفسه أحياناً في عوارض تبدو هستيرية. ويخبرنا إدوارد أنهم كانوا «محطمين» من الله و«غائصين في لجة تحت إحساس بالذنب لدرجة أنهم كانوا مقتنعين أن هذا الذنب لاحتجوه رحمة الله». يتلو ذلك ابتهاج مفرط عندما كانوا يشعرون أنهم أنقذوا بشكل مفاجيء. كانوا ينفلتون في «نوبات الضحك، وتهمر دموعهم كسيل، وأحياناً يكون بصوت عالٍ. وأحياناً لم يستطيعوا إلا أن يجهشوا بالبكاء معبرين عن إعجابهم الشديد»^(٤٢). فنحن هنا بعيدين جداً عن التحكم الهادئ الذي اعتقد المتصوفون في جميع الأديان الرئيسية أنه السمة المميزة للاستنارة الحقة.

استمر هذا التحول الانفعالي الشديد في كونه سمة مميزة للصحوة الدينية في أمريكا. كانت ولادة جديدة ترافقها تشنجات عنيفة من الألم والإجهاد، نسخة جديدة للصراع الغربي مع الله. امتدت هذه الصحوة كمرض معد إلى بلدات وقرى مجاورة لدرجة أن نيويورك بعد قرنين تالي أصبحت تدعى مقاطعة يجتاحها الحريق لأن نيران الحماس الديني كانت تسعها. وبنوه إدوارد أن أتباعه كانوا يشعرون أن العالم كان ممثماً. لم يكن بوسهم مفارقة أنجيلهم وكانوا ينسون حتى أن يأكلوا. فليس مستغرباً أن انفعالاتهم قد خدمت. وبعد سنتين لاحقتين أشار إدوارد إلى «أنه بدأ يتخذ شكلاً معقولاً وأن روح الله كان ينسحب تدريجياً منا». ومن جديد نجده لا يتكلم مجازياً: كان إدوارد جزيئاً غريباً صادقاً في المسائل الدينية. كان مقتنعاً أن الصحوة كانت تجلياً مباشراً لله في وسطهم، القدرة للمموسة للروح القدس مثلما كانت لأول مرة في عيد الحصاد عند اليهود Pentecost.

عندما انسحب الله بشكل مفاجيء كما جاء وأخذ مكانه الشيطان بشكل حرفي أيضاً. كان يتلو هذا الإفراط يأس انتحاري. فقد قتل مسكين نفسه بقطع بلعومه و«بعد أن ضغط على الحشود في هذه المدينة ومدن أخرى على القيام بما قام به هذا المسكين، شعر الكثيرون وكأن شخصاً ما كان يتحدث إليهم «اقطعوا بلعومكم، الآن مناسبة جيدة. الآن». جن اثنان «بأوهام غريبة»^(٤٧). ولم يحدث مزيد من التحول إلى هذه الطائفة، والناس الذين نجوا من هذه التجربة أصبحوا أكثر هدوءاً وابتهاجاً أكثر بما كانوا قبل الصحوة، أو هذا ما أراد إدوارد أن نعتقه. إله جونثان إدوارد ومريدوه الذي أظهر نفسه في حالة شذوذ ومحنة كهذه كان بكل جلاء إلهاً عشوائياً في تصرفاته حيال شعبه. التبدلات الانفعالية العنيفة والتحول الجنون واليأس العميق توضح أن الكثير من الناس السعي الحظ في أمريكا وجدوا صعوبة في المحافظة على اتزانهم في التعامل مع الله. ويوضح كذلك قناعة بأننا نجد أيضاً في دين ليونين العلمي أن الله مسؤول مباشر عن كل شيء يحدث في العالم مهما كان شاذاً.

من الصعب ربط هذه النزعة الدينية اللاعقلانية والحماسية بالهدوء المعروف لدى الآباء المؤسسين Founding Fathers. كان لإدوارد خصوم كثيرون ينتقدون الصحوة بشدة. فالث لا يمر عن ذاته عقلياً فقط - كما نادى الليبراليون - لاني ثورات عنيفة في شؤون بشرية. يجادل آلن هيمارت Alan Haimart في كتابه (الدين والعقل الأمريكي، من الصحوة الكبرى حتى الثورة) أن الولادة الجديدة للصحوة كانت نسخة إنجيلية عن المثل الأعلى للاستنارة سعيًا وراء السعادة: كانت تمثل وتحرراً وجودياً من العالم الذي فيه «يوقظ كل شيء خوف قوي»^(٤٨). حدثت اليقظة في المستعمرات الأكثر فقراً حيث كان لدى الناس أمل أقل بالسعادة في هذا العالم، على الرغم من آمال بالاستنارة المعقدة. جادل إدوارد أن تجربة تولد من جديد نتج عنها إحساس بالبهجة، وحس بالجمال كان مختلفاً تماماً عن أي إحساس طبيعي آخر. في الصحوة - لذلك - جعلت تجربة الله استنارة العالم الجديد متوفرة بين أيدي أكثر من حفنة من الناجحين في المستعمرات. يجب أن نذكر أيضاً أن التنوير الفلسفي كان أيضاً معروفاً كتحرر شبه ديني. فكلمتنا تنوير ecloirissement وتنوير Aufklarung كانتا ذات مضامين دينية تحديداً. إله جونثان إدوارد ساهم أيضاً في الحماس الثوري عام ١٧٥٥: في عيون الرجال النهضويين revivalists فقدت بريطانيا النور الجديد الذي سطع وهاجاً خلال الثورة البيوريتانية، والآن بدأ متراجماً وانكفائياً. فإدوارد وزملاؤه هم الذين قادوا الأمريكيين من الطبقات الدنيا إلى القيام بالخطوات الأولى نحو الثورة. كانت المسيحية المنتظرة messianism أساسية في دين إدوارد: الجهد البشري يجعل في مجيء ملكوت الله

كان ممكناً إحرازه وأمرأ ملازماً في العالم الجديد. الصخرة نفسها (على الرغم من نهايتها للمأساوية) جعلت الناس يعتقدون أن عملية الخلاص الموصوفة في الإنجيل قد بدأت من قبل. كان الله ملتزماً بقوة بهذا المشروع. أعطى إدوارد معتقد الثالث تفسيراً سياسياً. كان الابن «الإله الذي نجم عن فهم الله» وهكذا فإن كتابة نيوكمن ويلت بالبحر الأزرق، الروح «الإله المستمر في الفعل» كان القوة التي ستنتج هذه الخطوة في الوقت المناسب»^(٤٥). في عالم أمريكا الجديد كان الله قادراً على تأمل آيات كماله على الأرض. وسيعبر المجتمع عن آيات كمال الله ذاته. ستغدو نيوانجلند «مدينة على التل» نوراً يشرق على غير المسيحيين «يسطع بتأمل عظمة يهوه وقد أشرق عليها، وستكون جذابة وفاتنة للجميع»^(٤٦). ولذلك فإن إله جونثان إدوارد سيكون متجسداً في الكومنويلث: والمسيح مجسداً في مجتمع فاضل.

كان كلفانيون آخرون في عربة التقدم: أدخلوا الكيمياء إلى المناهج التقليدية في أمريكا ورأى تيموثي دوايت Timothy Dwight الحفيد الأكبر لتيموثي أن المعرفة العلمية هي مقدمة لكمال البشرية النهائي. لم يكن إلههم يعني بالضرورة النزعة نحو الغموض كما تخيل الليبراليون الأمر أحياناً. كان الكالفانيون يكرهون كوسمولوجيا نيون التي لم تترك لله إلا الشيء القليل ليفعله بعد أن وضع الأشياء في حالة العمل. فكما رأينا كانوا يفضلون إلهاً فعلاً في العالم حقاً: اعتقادهم بالقدر المسبق كان يبين أن الله من وجهة نظرهم كان مسؤولاً فعلاً عن كل شيء يحدث على الأرض سواء باتجاه الخير أو الشر. كان هذا يعني أن العلم كان باستطاعته الكشف عن الله الذي بالإمكان رؤيته في جميع فعاليات مخلوقاته التي كانت تبدو محظوظة. في بعض النواحي عارض الكالفانيون نزعتهم التجديدية وفضلوا الإيمان البسيط «على المفاهيم التأملية المخيرة» التي كانت تضايقهم في خطب دعاة الإحياء لديهم مثل وايتهيلد وإدوارد. يجادل آلن هيغارت أن أصول النزعة المعادية للفكر في المجتمع الأمريكي قد لا تكمن في الكالفانيين والإنجلييين لكن في البوسطنيين Bostonians الأكثر عقلانية مثل شارلز تشونسي Charles Chauncey أو صموئيل كوليسي Samuel Quincy الذين كانوا يفضلون أفكاراً عن الله كانت «أكثر بساطة ووضوحاً»^(٤٧).

حدثت تطورات مماثلة بارزة داخل اليهودية التي شُهد الطريق أمام انتشار المثل العقلانية بين اليهود وستمكّن الكثيرين من الانسجام مع السكان غير اليهود في أوروبا. ففي سنة الرؤيا apocalyptic سنة ١٦٦٦ أعلن مسيح يهودي أن الخلاص كان في متناول اليد وأن اليهود كانوا يتقبلونه بنشوة في أنحاء العالم. لقد ولد شابيتاي زيهي Shabbetai Zevi في الذكرى السنوية لتدمير الهيكل عام ١٦٢٦ في أسرة ثرية من

المفرديم في Smyrna في آسيا الصغرى. وأثناء نشأته طور ميولاً غريبة - بما يخص اليوم كآبة - تشبه حالة المسوس. كانت تعتره حالات يأس عميق عندما كان ينسحب من أسرته ويعيش في عزلة. كان يتلو هذه الحالة بهجة تبلغ حدود النشوة. خلال فترة المس هذه ينتهك عمداً شريعة موسى: يأكل طعاماً محرماً أمام الناس، يلفظ اسم الله المقدس، وزعم أن رحيماً كان يأمره القيام بذلك. اعتقد أنه كان المسيح المنتظر. وفي نهاية الأمر لم يستطع الأحيار احتمالاه أكثر من ذلك فطردوه من المدينة عام ١٦٥٦. أخذ يتجول بين التجمعات اليهودية في أرجاء الإمبراطورية العثمانية. وخلال نوبة مس أعلن في استانبول أن التوراة قد ألغيت صائحاً بصوت عالٍ «مبارك أنت، أيها الرب إلهنا، الذي تحلل الغمرات»، وقد سبب فضيحة في القاهرة بزواجه من امرأة هربت من مذبحة قتل منظمة في بولندا عام ١٦٤٨ وأصبحت عاهرة في القاهرة. وفي عام ١٦٦٢ انطلق شيتاي إلى أورشليم، كان في حالة كآبة واعتقد أنه ممسوس بالشياطين. في فلسطين تخبر أن حيراً شاباً يدعى ناتان Nathan كان بارعاً في طرد الأرواح الشريرة فانطلق في أثره إلى غزة.

كان ناتان قد درس قبالة اسحق لوريا، كما درسها شيتاي. وعندما قابل شيتاي أخبره أنه لم يكن ممسوساً: فبأسه القاتم اتضح أنه كان فعلاً المسيح المنتظر. عندما نزل إلى هذه الأعماق كان يحارب ضد قوى الشر في الجانب الآخر، مطلقاً الشرارات الإلهية في مملكة كليليوث التي لا يخلصها سوى المسيح المنتظر شخصياً. تلقى شيتاي أمراً بالنزول إلى الجحيم قبل أن ينجز خلاص إسرائيل النهائي. لم يقتنع في البداية لكن فصاحة ناتان أقتعته في النهاية. ففي ٣١ أيار من عام ١٦٦٥ استولت عليه نوبة مس وبشجيع من ناتان أعلن مهمته كمسيح منتظر. استبعد الأحيار البارزون كل مزاعمه على أنها هراء لكن يهوداً كثيرين في فلسطين تقاطروا إلى شيتاي، اختار من بينهم اثني عشر تلميذاً كي يكونوا قضاة إسرائيل التي سيلتهم شملها قريباً. أعلن ناتان الأنبياء السارة إلى التجمعات اليهودية في رسائل إلى إيطاليا وهولندا وألمانيا وبولندا بالإضافة إلى حواضر الإمبراطورية العثمانية فانتشر الحماس المسيحي Messianic مثل نار الهشيم عبر العالم اليهودي. ففرون الاضطهاد والنبيذ قد عزلت يهود أوروبا عن التيار الرئيسي وحالة شؤونهم غير الصحية قد هأت الكثيرين للاعتقاد بأن مستقبل العالم كان يعتمد على اليهود وحدهم. فالسيفارديم - أحفاد اليهود المنفيين في إسبانيا - قد اعتنقوا قبالة لوريا في قلوبهم وقد توصل الكثيرون إلى الاعتقاد بالنهاية المحتومة (يوم القيامة) End Of Days. كل هذه العوامل ساعدت شيتاي زيفي. ففي التاريخ اليهودي كان هناك العديد ممن زعموا أنهم المسيح المنتظر لكن لم يحظ أي منهم بهذا الدعم الجماهيري. وأصبح موقف اليهود المتحفظين على إدعاء شيتاي خطيراً

إذا ما أعلنوا موقفهم. كان أنصاره ينتمون إلى جميع طبقات المجتمع اليهودي: الأغنياء والفقراء، المعلمين والأميين. كتيبات وصحف نشرت الأخبار السارة باللغة الإنجليزية والهولندية والألمانية والإيطالية وسارت مواكب في بولندا وليتوانيا تكريماً له. وفي الإمبراطورية العثمانية تحول المتنبيون عبر الشوارع يصفون رؤى شاهدها وشيتاي جالساً على عرش. توقفت جميع الأعمال، وأسقط يهود تركيا اسم السلطان من صلاة المسبب تشاؤماً، ووضعوا اسم شيتاي بدلاً منه. وعندما وصل شيتاي أخيراً إلى استانبول في كانون الثاني عام ١٦٦٦ أُلقي القبض عليه كمتنمر وسجن في Gallipoli .

كان هناك أمل بعد قرون من الاضطهاد والنفي والذل. فقد شعر اليهود في أرجاء العالم بحرية داخلية وتحرك بهذا مماثلاً للنشوة التي كان يحسها القبايل للحظات لافلال عندما كانوا يتأملون في عالم السفروت Sefiroth الغامض. فنجرة الخلاص هذه لم تعد امتيازات لقلة قليلة بل غدت ملكية عامة. لأول مرة شعر اليهود أن حياتهم كانت ذات قيمة، وأن الخلاص لم يعد أملاً غامضاً للمستقبل بل كان حقيقةً وذا معنى كامل في الحاضر. لقد حان الخلاص ! كان لهذا التحول المفاجيء تأثير لايمحى. عيون العالم اليهودي بأكمله كانت تتجه إلى Gallipoli حيث كان شيتاي يحدث تأثيراً على سجنائه. الوزير التركي سجنه في منزل مريح بشكل معقول. بدأ شيتاي يوقع رسائله: وأنا الرب إلهكم، شيتاي زيفي». لكن عندما أُعيد إلى استانبول للمحاكمة وقع فريسة للباس ثانية. خيره السلطان بين الموت أو يعلن إسلامه فاختار شيتاي الإسلام فأطلق سراحه على الفور. أعطي تعويضاً سلطانياً ومات مسلماً مخلصاً كما يبدو في ١٧ أيلول عام ١٦٧٦ .

من الطبيعي أن تدمر الأنباء المربعة مؤيديه فتتكر الكثيرون لدينهم، وحاول الأخبار محو ذكره من على الأرض: أتلغوا كل الرسائل، والكتيبات وكل أثر طالت أيديهم عن شيتاي. وحتى يومنا هذا يرتبك يهود كثيرون بهذه الكارثة للمسيح المنتظر ويجدون صعوبة في التعامل معها. بينما قلل الأخبار والعقلانيون من أهميتها. وفي وقت قريب حاول العلماء أن يحذو حذو غريشوم شوليم Gershom Scholem في محاولتهم لفهم معنى هذه الحادثة الغريبة وآثارها الأكثر أهمية^(٤٨). ومن اللدهش أن كثيرين من اليهود بقوا مخلصين لمسيحهم على الرغم من فضيحة ارتلاده عن اليهودية. كانت تجربة الخلاص عميقة جداً لدرجة أنهم لم يستطيعوا أن يصدقوا أن الله قد سمح بأن يكونوا مضللين. وهذه الحادثة هي إحدى الأمثلة الأكثر إذهالاً عن تجربة الخلاص الدينية التي تبوأ الأولوية على الحقائق المجردة والعقل. فاليهود بعد أن ووجهوا بخيار التخلي عن أملهم الذي عثروا

عليه مجدداً أو قبول مسيح مرتد رفض عدد مئذ من اليهود من جميع الطبقات الامتثال لحقائق التاريخ القاسية. فئاتان غرة كرس بقية حياته لنشر سر شبتاي: فباعته الاسلام تابع شبتاي معركة حياته ضد قوى الشر. فقد فرض عليه انتهاك أعرق مقدسات شعبه كي ينزل إلى مملكة الظلام كي يحرر رليپوث Relipoth. لقد قبل عبء مهمته المأساوي ونزل إلى أخفض الأعماق كي يهزم العالم الذي لاإله له من الداخل. ففي تركيا واليونان بقيت نحو مئتا أسرة موالية لشبتاي. فبعد موته قررت أن تسير على خطاه كي يستمروا في معركته مع الشر وتحولوا جميعاً إلى الإسلام جماعياً في عام ١٦٨٣. بقي ولاؤهم سرأ لليهودية، وبقوا على اتصال وثيق بالأخبار ويجمعون في الكنيس السري في بيوت بعضهم. ففي عام ١٦٨٩ قام زعيمهم يعقوب كوريدو Jacob Querido بالهلع إلى مكة وأعلنت أرملة شبتاي أن يعقوب هذا هو تجسيد لشبتاي زيفي. وما تزال هناك جماعة صغيرة من الدومنة «التي تعني المرتدين» في تركيا الذين يعيشون ظاهرياً حياة إسلامية لكنهم متعلقون عاطفياً بيهوديتهم سرأ.

لم يذهب أنصار آخرون لشبتاي إلى هذا المدى بل بقوا مخلصين له وللكنيس. ويدور أن هناك عدداً أكبر من هؤلاء أكثر مما كان يعتقد. فخلال القرن التاسع عشر اعتبر يهود كثيرون الذين استوعبوا أو تبنا شكلاً لليهودية أكثر تحمراً أن من العار أن يكون أسلافهم من أنصار شبتاي لكن يبدو أن الكثيرين من الأبحار البارزين في القرن الثامن عشر كانوا يعتقدون أن شبتاي كان المسيح المنتظر.

يجادل شوليم Scholem أنه على الرغم من أن هذه النزعة المسيحية Messiansm لم تصبح أبداً حركة جماهيرية في اليهودية إلا أن عدد أفرادها يجب ألا يستهان به. لاقت القبول للمارانوس Marranos الذين أجبرهم الإسبان على اعتناق المسيحية لكنهم ارتدوا أخيراً إلى اليهودية. ومفهوم الارتداد كسر لطف ذنبهم وحزنهم. ازدهرت دعوة شبتاي في مجتمعات السفرديم في المغرب والبلقان، وإيطاليا، وليتوانيا. فبعضهم مثل بنيامين كوهين وإبراهيم روجيرو Reggio of Modeno كانا قباليين بارزين وكانا على علاقة بسر الحركة. وانتشرت من دول البلقان إلى اليهود الأشكناز في بولندا الذين كانوا مشوهين أخلاقياً ومنهكين بسبب العداء المتزايد للسامية في أوروبا الشرقية. في عام ١٧٥٩ سار تلاميذ النبي يعقوب فرانك Jacob Frank الغريب والفاقد على خطا شبتاي وتحولوا جماعياً إلى المسيحية، لكنهم ملتزمون بيهوديتهم سرأ.

يقترح شوليم Scholm مقارنة توضيحية مع المسيحية فقبل نحو (١٦٠٠) عام مضى

كان هناك مجموعة أخرى من اليهود الذين لم يكونوا قادرين على التخلي عن أملهم بمسيح فضائحي مات مثلما يموت مجرم عادي في أورشليم. فما أسماها القديس بولس فضيحة الصليب كانت بكل جزئية منها مذهلة مثل فضيحة مسيح مولد. ففي كلتا الحالتين أعلن التلاميذ ولادة شكل جديد لليهودية كانت تحمل محل اليهودية القديمة: اعتنقوا عقيدة قائمة على النقيض. الاعتقاد المسيحي بأنه كان هناك حياة جديدة في هزيمة الصليب كان مماثلاً للاقتناع الشبتائي بأن الارتداد كان سرّاً مقدماً. كلا الفريقين اعتقد أن حبة القمح كان عليها أن تضرب جذورها في الأرض كي تعطي ثماراً، لقد اعتقدوا أن التوراة القديمة كانت ميتة وقد حل مكانها قانون الروح الجديد. كلاهما طور الثلاث المفاهيم التجسدية لله.

اعتقد الشبتائيون - مثلما اعتقد كثير من المسيحيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر - أنهم كانوا واقفين على عتبة عالم جديد. وقد دافع القبايليون تكراراً أنه في الأيام الأخيرة سوف يتم كشف أسرار الله الحقة التي غلفها الغموض أثناء النفي. فالشبتائيون الذين اعتقدوا أنهم كانوا يعيشون في العصر المسيحي كانوا يشعرون أنهم أحرار في التحلل من الأفكار التراثية حول الله حتى وإن كان ذلك يعني قبول لاهوت تجديفي ظاهرياً. وهكذا فإن أبراهام كاردازو Abraham Cardazo (١٧٠٦) الذي ولد في مازانو Marrano وبدأ بدراسة اللاهوت المسيحي اعتقد أن جميع اليهود بسبب ذنوبهم قد قدر عليهم أن يصبحوا مرتدين. وهنا كان عقاباً عادلاً يحل بهم. لكن الله قد أنقذ شعبه من هذا القدر المرعب بالسماح للمسيح المنتظر بتقديم القربان الأسمي نيابة عنهم. وقد توصل إلى نتيجة مخيفة مفادها أن اليهود خلال المدة التي قضوها في المنفى فقدوا كل معرفة حقة بالله.

كان كاردازو مثل المسيحيين وتألّفتي التنوير، يحاول أن يستبعد كل ما كان يراه، مبالغات غير صحيحة من دينه وأن يعود إلى دين التوراة النقي. يجب أن ننوه إلى أن بعض الفنوصيين المسيحيين طوروا خلال القرن الثاني نوعاً من معاداة السامية ميتافيزيقية عن طريق التمييز بين إله يسوع الله المستتر عن إله اليهود القاسي الذي كان مسؤولاً عن خلق العالم. لقد أحيا كاردازو دون وعي منه هذه الفكرة القديمة لكنها عكسها تماماً. لقد علم أيضاً أنه كان هناك الإلهان: الله الذي أظهر نفسه إلى إسرائيل وإله آخر كان معرفة عامة. ففي كل حضارة أثبت الناس وجود علة أولى: فكان هذا هو إله أرسطو الذي كان يعبدته العالم الوثني بأكمله. ليس لهذا الإله أهمية دينية: لم يخلق العالم وليس مهتماً بما يحدث

للإلهية، لذلك لم يظهر نفسه في التوراة الذي لا يذكره. الإله الثاني هو الإله الذي أظهر نفسه إلى إبراهيم وموسى والأنبياء، كان إلهاً مختلفاً تماماً: لقد خلق العالم من عدم، وخلص إسرائيل فكان إلهها. في المنفى - على أية حال - كان الفلاسفة مثل سعادية وميمون محاطين بالغويم فأخذوا بعضاً من أفكارهم. وبالتالي خلطوا بين الإلهين ولقنوا اليهود أن هذين الإلهين كانا واحداً. فكانت النتيجة أن اليهود توصلوا إلى عبادة إله الفلاسفة وكأما كان إله آبائهم.

كيف كانت العلاقة بين هذين الإلهين؟ أنشأ كاردازو لاهوتاً تشليحياً كي يواجه هذا الإله الإضافي دون التخلي عن الوحدانية اليهودية. كان هناك رب رئيسي Godhead يتكون من ثلاث ملامح Hypostases أو Parzufim: الأول منهما كان يدعى Atik Kadisha عتيقة قاديشا أي القديم القدوس، إله العلة الأولى. والثاني Parzuf البارزوف الذي فاض من الأول وكان يدعى ملقى قاديشا Malka Kadisha كان هو إله إسرائيل. البارزوف الثالث كان الملكوت Shekinh الذي نُفي من الرب الرئيس حسبما أشار إسحق لوريا. يجادل كاردازو أن وعقد الإيمان الثلاث هذه لم تكن الآلهة الثلاثة المنفصلة كلياً بل كانت واحداً بطريقة غامضة لأنها ثلاثها كانت تظاهرات للرب ذاته.

كان كاردازو شبتائياً معتدلاً. لم يكن يعتقد أن من واجبه أن يرتد لأن شبتاي زيفي قد قام بهذه المهمة المؤلمة نيابة عنه. لكن في اقتراحه ثلوثاً إنما كان يخرق محرماً. فغير القرون كان اليهود يكرهون الثلاثية ويعتبرونها تجديفاً ووثنية. بيد أن عدداً مذهباً من اليهود انجذبوا إلى هذه النظرة المحرمة. فمع مرور السنين دون أي تغير في العالم كان على الشبتائيين تعديل آمالهم المسيئية. شبتايون مثل نحميا حاييم Nehemiah Hayim، وصموئيل برغر Samuel Primo وجونathan إيبسشوز Jonathan Eibeschuz توصلوا إلى نتيجة أن «سر الرب» انكشف تماماً في عام ١٦٦٦. «بدأ الملكوت بالظهور من النبوة كما تنبأ لوريا لكنه لم يعد بعد إلى الرب. والخلاص سوف يكون سيورة تدريجية وخلال هذا الزمن الانتقالي كان مسموحاً باستمرار بممارسة الشريعة القديمة والعبادة في الكنيس بينما كان الالتزام بالمعتقد المسيحي سرياً. هذه الشبتائية المنقحة فسرت كم من الأحبار الذين اعتقدوا أن شبتاي زيفي كان المسيح كانوا قادرين على البقاء في منابر الوعظ خلال القرن الثامن عشر.

المخطفون الذين ارتدوا تبنا لاهوت التجسيد منتهكين بذلك محرماً يهودياً آخر.

فقد أصبحوا يعتقدون أن شبتاي زيفي لم يكن فقط المسيح بل تجسيدا لله. فهذا الاعتقاد - كما في المسيحية - نشأ تدريجياً. وإبراهام كاردازو علم معتقداً كان ممثلاً لاعتقاد القديس بولص في تعظيم يسوع بعد قيامته: عندما بدأ الخلاص في ارتداد شبتاي ثم رفع شبتاي إلى الثالث: «الواحد القدوس (مالكا كاديشا) مبارك هو، رفع نفسه إلى أعلى، وصعد شبتاي زيفي ليكون إلهاً في مكانة الله»^(٤٩). وهكذا فقد تمت ترقيته بطريقة ما إلى مركز إله وأخذ مكانه إله إسرائيل البارزوف الثاني وماليت يهود الدومنه الذين اعتنقوا الإسلام أن دفعوا هذه الفكرة أبعد من ذلك خطوة وقرروا إن إله إسرائيل قد نزل وتكون جسداً في شبتاي. وبما أنهم توصلوا إلى الاعتقاد أن كل واحد من قادتهم كان تجسيدا للمسيح نتج عن ذلك أنهم أصبحوا إلهيين أيضاً بنفس الطريقة، ربما مثل أئمة الشيعة. فكل جيل من المرتدين كان له قائد كان تجسيدا للإله.

يعقوب فرانك Jacob Frank (١٧٢٦ - ١٧٩٥) الذي قاد التلاميذ الأشكيناز إلى التعميد في عام ١٧٥٩ كان يظن أنه كان الله مجسداً منذ بداية حياته. وقد وُصِفَ على أنه الشخصية الخفيفة أكثر من كل الشخصيات في تاريخ اليهودية كله. كان آمياً ومتفخراً بأميته لكن كان لديه المقدرة على إنشاء لاهوت ظلامي جذب إليه يهوداً كثر ممن وجدوا أن دينهم كان فارغاً وغير مقنع. أعلن فرانك أن الشريعة القديمة قد بطلت. جميع الأديان يجب أن تسف كي يسلم الله بوضوح في كتابه (Słowa panskie) (أقوال الرب). وصل بالشبتائية إلى حد العدم. كل شيء كان يجب أن يحطم: «حيثما سار آدم، بنيت مدينة، لكن حيثما أضاع قدمي سيدمر كل شيء، لأنني أتيت إلى هذا العالم كي أدمر وأبني»^(٥٠). هناك تشابه مزعج بين أقواله هذه وأقوال المسيح الذي دعى أيضاً أنه أتى لالقيم السلام بل السيف. لكن شبتاي كان مختلفاً عن يسوع والقديس بولص - عندما اقترح عدم بناء شيء مكان المقدسات القديمة. عقيدته العدمية هذه كانت ممثلة لعقيدة معاصره الأصغر سناً منه المركيز دو سادي Marquis De Sade. كانت نزولاً إلى أعماق الانحطاط التي قد ينزل لها البشر كي يجلبوا الله الخير. لم يكن هذا يعني فقط إنكار الدين كله بل ارتكاب أفعال خرية أدت إلى انحطاط إرادي وخزي مطلق.

لم يكن فرانك قبالياً بل دعا إلى نسخة أكثر فظاظاً من لاهوت كاردازو. اعتقد أن كلاً من المظاهر الثلاثة للشبتائي سوف يمثل على الأرض بمسيح مختلف - فشبتاي زيفي الذي كان يسميه فرانك «الواحد الأول» - كان تجسيدا «لله الخبير» الذي كان يعتبره كاردازو «الواحد القديم القدوس» وهو نفسه كان تجسيد البارزوف الثاني (إله إسرائيل). المسيح الثالث الذي سوف يجسد الملوك سيكون امرأة أسماها فرانك «العدراء». في

الوقت الحاضر كان العالم عبداً لقوى الشر على أية حال، ولن يتم خلاصه حتى يتبنى البشر رسالة فرانك العدمية. كان الشلم الذي وضعه جاكوب على شكل حرف V: فكي يصعد المرء إلى الله يجب عليه أولاً أن ينزل إلى الأعماق مثلما نزل يسوع وشبثاي. فقد أعلن فرانك: فإن هذا لكثير كما أخبرك. فالمسيح كما تعلم قال أنه قد أتى كي يخلص العالم من قوة الشر، لكنني أتيت أنا كي أخلصه من القوانين والعادات القائمة فيه. مهمتي هي أن أنسف كل هذا. بحيث يستطيع الإله الخبير أن يظهر نفسه^(٥١). فالذين كانوا يتبنون أن يجدوا الله ويحرروا أنفسهم من قوى الشر كان عليهم أن يتبعوا قائدهم خطوة خطوة إلى الهوة خارقين جميع القوانين التي يعتبرونها الأكثر قداسة: وأقول لكم أن جميع الذين سيغدون محاربين يجب أن يكونوا دون دين، وهذا يعني أن عليهم أن تكون حرياتهم ملك قدراتهم^(٥٢).

في القول الأخير هذا يمكننا فهم العلاقة بين رؤية فرانك القائمة والاستنارة العقلية. فاليهود البولنديون الذين اعتنقوا رسالته وجدوا أن دينهم غير قادر على مساعدتهم على التكيف مع ظروفهم المريعة في عالم لم يكن آمناً بالنسبة لليهود. بعد موت فرانك فقدت الفرانكية الكثير من فوضويتها والاعتقاد الوحيد التي احتفظت به هو أن فرانك كان إلهاً مجسداً، وبما أسماه شوليم وإحساساً بالخلع مُركّز ومضيء^(٥٣). لقد رأوا الثورة الفرنسية كإمارة على أن الله كان في صفهم. فدخلوا عن antinomianism وانخرطوا في العمل السياسي حاملين بثورة تعيد بناء العالم. وكذلك فعل الدومنة الذين اعتنقوا الإسلام ففقدوا أعضاء فعالين في جمعية الأتراك الشبان young Turks في مطلع القرن العشرين وانضم كثيرون منهم في تركيا الدنيوية كما فهمها كمال أتاتورك. العداوة التي كان يشعر بها جميع الشبثائيين تجاه العادات الخارجية كانت في إحدى معانيها تمرداً على ظروف الغيتو. فالشبثائية التي بدت ديناً رجعياً ظلامياً ساعدهم على تحرير أنفسهم من الطرق القديمة وجعلهم عرضة لتأثير أفكار جديدة. الشبثائيون المحتلون الذين بقوا موالين لليهودية ظاهرياً كانوا في أغلب الأحيان رواداً في حركة التنوير اليهودية، وكانوا أيضاً نشيطين في خلق إصلاح اليهودية خلال القرن التاسع عشر. فكان لهؤلاء خليطاً غريباً من أفكار قديمة وجديدة.

وهكذا كان جوزيف ويبي Joseph Wehte من براغ يقول في حوالي سنة ١٨٠٠ أن أباطاله كانوا موسى مندلسون، وعمانوئيل كانط، شبثاي زيفي واسحق لوروا. ليس باستطاعة كل شخص أن يسير على دريهم إلى الحدائق عبر ممرات العلم والفلسفة الصعبة:

المعتقدات الصوفية للمسيحيين واليهود الراديكاليين مكتنهم من العمل باتجاه الدنيوية التي وجدوها ذات يوم مقبولة عن طريق مخاطبة مناطق النفس الأكثر عمقاً وبدائية. تبنى البعض أفكاراً جديدة وتجديفية عن الله مكنت أطفالهم فيما بعد من التخلي عنه كلية.

في الوقت الذي كان فيه يعقوب فرانك ينشئ رسالته العدمية كان يهود بولنديون قد وجدوا مسيحاً مختلفاً جداً. فمنذ مذبحة عام ١٦٤٨ مرت اليهودية البولندية بصدمة الاقتلاع وانحطاط أخلاقي كان وقعه كبيراً مثل نفى السفارديم من إسبانيا. فقد تعرضت معظم الأسر اليهودية الروحية والمتعلمون في بولندا إما إلى القتل أو الهجرة من أوروبا الغربية التي كانت آمنة نسبياً. عشرات من آلاف اليهود رُحلوا وأصبح الكثيرون متجولين من بلدة إلى أخرى محرمين عليهم الاستيطان الدائم. الأبحار الذين بقوا كانوا غالباً من مرتبة دنيا وسمحوا للدراسة المنزلة أن تقيهم من قسوة حقيقة العالم الخارجي. كان القباليون الجوالون يتحدثون عن الظلمة الشيطانية للعالم، الجانب الآخر المنفصل عن الله. فكارثة شبتاي زيفي قد ساهمت أيضاً في الحفية العامة وفتنان روح النظام. فقد تأثر بعض يهود أوكرانيا بحركات التقوى المسيحية التي ظهرت في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أيضاً. بدأ اليهود ينتجون نوعاً مماثلاً للدين فائق للناس. كانت هناك تقارير عن يهود يسقطون في نشوة مغنون ومصنفين بأيديهم أثناء الصلاة. خلال الثلاثينات من ١٧٣٠ برز أحد هؤلاء النشويين كقائد لاجدال حوله لدين القلب اليهودي هذا وأسس مدرسة تعرف باسم *Hasidism*، *التقوية*.

لم يكن إسرائيل بن اليعازار Israel Ben Eliezer علامة، بل كان يفضل السير في الغابات، مغنياً الأغاني، ويروي قصصاً للأطفال عن دراسة التلمود، عاش هو وزوجته في فقر مدقع في جنوبي بولندا في كوخ في جبال الكارباتيان Carpathian. كان يقطع الكلس ويبيع - لفترة من الزمن - إلى سكان بلدة مجاورة. ثم أصبح مع زوجته يمتلكان نزلاً صغيراً. وعندما بلغ السادسة والثلاثين أعلن أنه قد أصبح مصلحاً دينياً وطارداً للأرواح الشريرة. ارتحل في قرى بولندا يعالج أمراض الفلاحين وسكان المدن بعلاج نباتي، وتقام وأدعية. كان هناك مداوون كثر في ذلك الوقت زعموا مداواة المرض باسم الرب. وهكذا أصبح إسرائيل يعال شيم توف Baal Shem Tov، أي سيد السمعة الطيبة: ومع أنه لم يُرسم أبداً بدأ أتباعه ينادونه الحبر إسرائيل يعال شيم توف، أو بهشت Beshet فقط. معظم المداوون كانوا مقتنعين بالسحر لكن بهشت كان صوفياً أيضاً. فحادثة شبتاي زيفي ألقته بالأخطاء المتأتمية من دمج الصوفية بالمسيحية فرجع إلى شكل أقدم من القبالة لم تكن للنخبة

بل لكل امرئ على السواء. فبدلاً من رؤية سقوط الشرارات الإلهية إلى العالم ككافة علّم البيشت أتباعه من التّقوية، النظر إلى الجانب المشرق. فالشرارات مستقرة في كل بند من الخلق وهذا كان يعني أن العالم كله كان مملوئاً بحضور الله. فبإمكان اليهودي الورع أن يحس بالله في أصغر عمل يقوم به في حياته اليومية - أثناء الأكل، والشرب، أو ممارسة الحب مع زوجته - لأن الشرارات الإلهية كانت في كل مكان فالرجال والنساء لم يكونوا محاطين بحفنة من الشياطين بل محاطين بإله كان موجوداً في كل هبة ريح، أو ورقة عشب: أراد اليهود أن يقتربوا منه بثقة واحتجاج.

تخلّى البيشت عن مخططات لوربا الكبيرة من أجل خلاص العالم. كان الورع (التقي) Hasid بكل بساطة مسؤولاً عن إعادة وحدة الشرارات الإلهية في بنود عالمه الشخصي - في زوجته، في خدمه - في أثاث منزله وفي طعامه. فكما شرح الأمر هليل زيتلين Hillel Zeitlin، أحد تلاميذ بيشت، على التّقي مسؤولية فريدة تجاه بيته الخاصة، وهو وحده من يستطيع القيام بها: «كل إنسان مخلص لعالم ما هو عالمه الخاص. سيُشاهد فقط ما عليه أن يشاهده هو، وهو فقط أن يشاهده ويشعر به هو خصيصاً»^(٤٠). وضع القبايليون تدريباً للتركيز ساعد المتصوفين على أن يصبحوا مدرّكين لحضور الله حيثما كانوا يلتفتون. فكما شرح أحد أعضاء القبالة الصّفية في القرن السابع عشر: «يجب أن يجلس المتصوفون في عزلة وينقطعوا لفترة عن دراسة التّوراة، وأن يتخلّوا نور الملكوت Shekinah فوق رؤوسهم وكأنّما كان ينساب من حولهم، وأنهم كانوا جالسين وسط النور»^(٤١). هذا الإحساس بحضور الله جلب لهم بهجة نشوية تجعلهم يرتجفون. علّم البيشت أتباعه أن هذه النشوة لم تكن حكرًا على النخبة المتصوفة ذات الامتياز بل على كل يهودي واجب ممارستها وأن يصبح مدرّكاً لحضور الله المهيمن. في الحقيقة كان الفشل في التركيز مساوياً للوثنية، إنكار بأنّ لاشيء يوجد بحق بشكل منفصل عن الله. وضعه هذا في نزاع مع المؤسسة الدينية التي كانت تخاف أن يتخلّى اليهود عن دراسة التّوراة لصالح هذه الولاعات الشاذة والخطرة.

انتشرت التّقوية بسرعة لأنها جلبت لليهود الساخطين رسالة أمل: معظم معتقبيها كانوا شتائليين سابقين. لم يكن البيشت يريد من تلاميذه أن يهجروا التّوراة، بل أعطاه تفسيراً صوفياً جديداً: فكلمة mitzvah التي تعني وصية كانت تعني عهداً. عندما كان يودي أحد التّقويين إحدى وصايا الشريعة أثناء ممارسة التركيز إمّا كان يربط نفسه بالله، مصدراً الوجود كله، وفي الوقت نفسه عندما يعيد توحيد الشرارات الإلهية في الشخص أو

الشيء فإنه كان يتعامل في تلك اللحظة مع الرب. شجعت التوراة اليهود منذ أمد على تقديس العالم عن طريق أداء الوصية، والبشيت كان فقط يضيء على هذا تفسيراً صوفياً. أحياناً مضت التَّقْوَةُ إلى أبعاد ملتبسة في حماسها لإنقاذ العالم: فقد أخذ الكثيرون يدخلون كثيراً لإنقاذ الشرارات في تبفهما باروخ ميدزيبوزا Baruch Medzibozh (١٧٥٧ - ١٨١٠) أحد أحفاد البشيت كان لديه بلاط ممتاز فيه أثاث فاخر وستائر رائعة برر ذلك بزعمه أنه كان مهتماً فقط بالشرارات في هذه الزخارف الرائعة. وكان أبراهام جوشوا هيشيل Abraham Joshwa Heschel of Apt (d - ١٨٢٥) يتناول كميات ضخمة من الطعام كي يستخلص الشرارات الإلهية في طعامه^(٥٦). باستطاعة المرء أن يرى المشروع الهاسيدي كمحاولة لإيجاد معنى في عالم قاسٍ وخطر. تدريبات التركيز كانت محاولة خيالية لتحرية حجاب الألفة عن العالم ولاكتشاف السعادة السماوية داخله. كان ماثلاً للرؤية الخيالية لدى الشعارين الإنجليزيين الرومانتيكين المعاصرين وليام وردزورث William Wordsworth (١٧٧٠ - ١٨٥٠) وصموئيل تايلور كولريدج Samuel Taylor Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤) اللذين كانا يشعران بالحياة الواحدة التي توحد الحقيقة كلها في كل شيء رأياه. وكذلك الأمر يصبح التَّقْوِي مدركاً لما رآه كقدرة إلهية موجودة في أرجاء العالم المخفوق كله الذي كان يحولها إلى مكان عظيم على الرغم من أحزان النفي والاضطهاد. تدريجياً سوف يتلاشى العالم إلى تفاهة وسيصبح كل شيء ظهوراً فقد قال موسى تيتلبوم أوجيهالي Moses Teitelbaum Of ujhaly (١٧٥٩ - ١٨٤١) أن موسى عندما رأى العليقة المحترقة إنما قد رأى الحضور الإلهي الذي يحترق في كل شجيرة ويقبها في الوجود^(٥٧). بدا أن العالم مغلف بنور إلهي وأن التَّقْوِينَ سوف يصيرون مبتهجين أثناء نشوئهم ويصفقون بأيديهم ويشعرون بالغناء، وكان بعضهم يبدأ بالشقبة مظهرين أن عظمة رؤيهم قد قلبت العالم كله رأساً على عقب.

لم يقصد بيشت Besht - مختلفاً بذلك عن سبينوزا وبعض الراديكاليين المسيحيين - أن كل شيء كان الله بل أن جميع الكائنات كانت في الله الذي كان يمنحها بالحياة والوجود. كان هو القوة الحيوية التي تبقى كل شيء في الوجود. لم يعتقد أن التَّقْوَةُ ستغدو إلهية عبر ممارسة التأمل، أو حتى بلوغ الاتحاد بالله - فتهدر كهذا بدا مبالغة مفرطة لجميع المتصوفين اليهود. ستتقرب التَّقْوَةُ من الله وتصبح مدركة لحضوره. فمعظمهم كانوا أناساً بسطاء دون تعقيد غالباً ماعبروا عن أنفسهم بمبالغات مفرطة لكنهم كانوا مدركين أن أساطيرهم كان يجب ألا تؤخذ بشكل حرفي. كانوا يفضلون القصص على النقاش

للمودى أو الفلسفي ويرون في القصص أفضل وسيلة للتعبير عن أية تجربة ذات علاقة بسيطة بالحقائق والعقل. كانت رؤياهم محاولة تخيلية لتصوير الاعتماد المتبادل بين الله والإنسان. لم يكن الله واقعاً موضوعياً خارجياً، فالثقويون كانوا يؤمنون بمعنى من المعاني أنهم كانوا يخلقون هذا الواقع بعد بنائه من جديد بعد تحلل. فمن طريق إدراكهم للشرارة الإلهية داخلهم سيبلغون الكمال الانساني بشكل أفضل. عبروا عن هذه الرؤية بكلمات ميثولوجية في القبالة. فلدوف باير Dov Baer خليفة بيشت قال أن الله والإنسان كانا يشكلان وحدة: إن الإنسان سيصبح آدم فقط كما أراد الله في يوم الخلق عندما كان يفقد إحساسه بالانفصال عن بقية الوجود، وبعد أن يتحول إلى «الشخصية الكونية للإنسان الأول الذي يضع حزيال شبيهاً للإنسان على العرش»^(٥٨). لقد كان تعبيراً يهودياً متميزاً عن الاعتقاد اليوناني أو البوذي بالاستنارة التي تجعل الكائنات البشرية مدركة لبعدها السامي.

لقد عبر اليونانيون عن هذه الرؤية في اعتقادهم بالتجسيد وتأليه المسيح. لكن التقوية طورت شكلها الخاص بعملية التجسيد هذه. فالخير التقوي صديق Zaddik أصبح مُشْتَرَك عصره، حلقة وصل بين السماء والأرض، وممثلاً للحضور الإلهي. الخير متاحهم لاحوم من شير نوهل Menahem Nahum of Chernobyl (١٧٣٠ - ١٧٩٧) كتب أن صديق «هو بحق جزء من الله، وأن مكانته كانت كأنها مع مكانة الله»^(٥٩). وكما حاكى المسيحيون المسيح محاولين الاقتراب من الله كذلك كان التقوي يقلد صديق الذي صعد إلى الله ومارس Devekuth الكامل. لقد كان مثلاً حياً على أن هذه الاستنارة كانت ممكنة. لأن صديق كان قريباً من الله. كان بإمكان التقوي أن يقترب من سيد الكون من خلال صديق. كانوا يحتشدون حول صديقيهم متعلقين بكل كلمة من كلماته عندما كان يقص عليهم قصة حول البيشت أو يفسر آية من التوراة. فالتقوية - على شاكلة الطوائف المسيحية المتحمسة - لم تكن دين عزلة بل ديناً جماعياً بشكل كبير. تحاول التقوية إتباع صديقها في صعوده إلى المطلق مع معلمهم، ضمن جماعة. ليس مدعشاً أن يشعر أحبار بولندا الأكثر تعصباً بالرب من هذه العقيدة الشخصية التي كانت تتجاوز الأحبار العلامة الذين كان يرى اليهود فيهم تجسيدا للتوراة. ترأس المعارضة الخير إيليا بن سليمان زلمان Elijah Ben Solomon Zalman (١٧٧٠ - ١٧٩٧) الذي كان رئيساً لأكاديمية فيلنا Vilna. هزيمة شبتاي زيفي جعلت بعض اليهود شديدي العداء للمصوفية، ورآه رئيس أكاديمية فيلنا أنه بطل دين أكثر عقلانية. مع ذلك كان قبالياً متحمساً بالإضافة إلى أحد معلمي التلمود. فتلמידه المقرب منه الخير حايم قولزهاين امتدح إعتاقه وتمكنه من (الزواهر)

كله... الذي درسه بلهب حب وخوف من الجلالة الإلهية، بقدامة، ونقاء devekuth رائعة^(١٠). فكان يرتعش جسده كله كلما تحدث عن اسحق لوريا. كانت لديه أحلام رائعة وإلهامات مع أنه كان يصبر دائماً على أن دراسة التوراة كانت السبيل الرئيسي لديه للوصول إلى التخاطب مع الله. لقد أبدى فهماً ممتازاً لهدف الأحلام في إطلاق حدس دقيق. كما يتابع الحبر حايميم قوله: «اعتاد أن يقول أن الله خلق النوم فقط من أجل هذه الغاية التي تمكن الإنسان من بلوغ رؤى لا يستطيع بلوغها عندما ترتبط الروح بالجسد لأن الجسد مثل ستارة معتمة، على الرغم من الجهد والكد الكبيرين»^(١١).

لاوجود لهوة كبيرة مثل تلك الهوة بين الصوفية والعقلانية. فملاحظات غاون Gaon فيلنا حول النوم تظهر فهماً واضحاً لدور اللاشعور: فنحن ننصح أصدقائنا بالنوم على مشكلة على أمل إيجاد حل لها كان غائباً عنهم أثناء اليقظة. فعندما تكون عقولنا في حالة انفتاح واسترخاء تأتي الأفكار من منطقة العقل الأكثر عمقاً. وقد عرف علماء كثر هذه التجربة مثل أرسيميدس الذي اكتشف مبدأ الطفو في الحمام. فالفيلسوف المبدع أو العالم الحق مثله مثل المتصوف عليه أن يواجه عالم الواقع غير الخلق المظلم، وسحابة عدم المعرفة على أمل اختراقها. وطالما يتصارعون مع النطق والمفاهيم فإنهم بالضرورة مسجونين في أفكار أو أشكال تم تأسيسها منذ زمن. وغالباً ماتبدو اكتشافاتهم معطاة من الخارج. إنهم يتحدثون عن رؤى وإلهام. وهكذا فإن إدوارد غيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤) الذي كان يكره الحماس الديني، بلغ ما يعرف بلحظة الرؤيا بينما كان يفكر في آثار الكابيتول في روما التي أجبرته على كتابته (انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية). وقال المؤرخ أرنولد توينبي معلقاً على هذه التجربة أنها «مشاركة»: «لقد كان مدركاً مباشرة لمرور التاريخ بلطف داخله في تيار قوي، وبحياته تندفق مثل موجة في مد هائل». ويختتم توينبي حديثه أن لحظة الإلهام هذه مماثلة لـ «التجربة الموصوفة باسم الرؤية السعيدة Beatific Vision من قبل الأرواح التي وجهت إليها هذه التجربة»^(١٢). أما ألبرت آينشتاين فقد قال أن الصوفية كانت «البصرة لكل فن وعلم حقيقيين»:

«أن نعرف أن ما يصعب علينا النفاذ إليه موجود فعلاً، مظهرًا نفسه لنا كأعلى شكل للحكمة، والجمال أكثر إشعاعاً تفهمه قدراتنا المتواضعة في أشكاله الأكثر بدائية. هذه المعرفة، هذا الإحساس، موجود في مركز جميع نزعات التدين الحقة. بهذا المعنى وبهذا المعنى فقط فإنني أنا أنتمي إلى

مرتبة الناس الورعين^(٦٣) .

وفي هذا المعنى فإن الاستارة الدينية التي يكتشفها المتصوفون مثل البيشت قد تُرى على أنها مماثلة لبعض إنجازات عصر العقل: كانت تمكن الناس الأكثر بساطة من جعل العبور الخيالي إلى حداثة العالم الجديد ممكناً.

خلال ثمانينات ١٧٨٠ لم يجد الحبر شنور زلمان ليادي Shneur Zalman Lyaday (١٧٤٥ - ١٨١٣) الإسراف الهاسيدي العاطفي أمراً غريباً عن البحث الفكري وأسس شكلاً جديداً للتقوية التي سعت إلى مزج الصوفية بالتأمل العقلاني. وأصبحت تعرف باسم هاباد Habad لصفات لله الثلاث: الحكمة، المقدرة، والمعرفة. اعتقد زلمان - على شاكلة المتصوفين الذين سبقوه الذين خلطوا الفلسفة بالروحانية - أن التأمل الميتافيزيقي كان أمراً أساسياً سابقاً للصلاة لأنه يكشف محدودية الفكر. انطلق تكنيكه من الرؤية التقوية الأساسية لله الموجود في جميع الأشياء وقاد المتصوف بأسلوب جدلي لإدراك أن الله كان الحقيقة الوحيدة. شرح زلمان: «من منطلق اللامتناهي - تعالى اسمه - فإن جميع الكلمات تكون وكأنها حرفياً: لاشيء وعدم^(٦٤)». فالعالم المخلوق لا وجود له بمزل عن الله وقوته الفعالة. وبسبب مفاهيمنا المحدودة فقط يبدو العالم وكأنه موجود بشكل منفصل لكن هذا مجرد وهم. وبذلك فالله ليس فعلاً وجوداً متعالياً يشغل عالماً بديلاً من الواقع. إنه ليس خارجياً عن العالم. فمعتقد أن تعالي الله هو وهم آخر من عقولنا التي تجد أمر الذهاب إلى ماوراء الانطباعات الحسية أمراً مستحيلاً. التدريبات الصوفية الهابادية تساعد اليهود على الابتعاد خارج الممركات الحسية ليروا الأشياء من منظور الله. يبدو العالم لعين غير مستترة خالياً من الله فالتأمل القبالي سوف يحطم الحدود العقلانية ليساعدنا على اكتشاف الله الموجود في العالم من حولنا.

يشارك الهاباد Habad ثقة الاستارة في مقدرة العقل البشري على بلوغ الله لكنه يقوم بذلك عبر التركيز الصوفي والطريقة النقائضية التي كرسها الزمن. كان زلمان مقتنعاً - شما كان بيشت - أن أي امرئ كان قادراً على رؤية الله. وبالتالي لم تكن الهابادية حكرًا على نخبة من المتصوفين، حتى وإن كان يبدو أن الناس ليسوا ذوي موهبة روحانية فبإمكانهم أيضاً بلوغ الاستارة، لقد كانت عملاً مضنياً على أية حال. فالخبر دوف باير لوبافيتش Dove Baer of Lubavitch (١٧٧٣ - ١٨٢٧)، ابن زلمان، شرح في (كتيب عن النشوة) كان يجب على المرء البدء بتحطيم مفهوم عدم الكفاءة. فالتأمل الدماغي ليس

كافياً. يجب أن يترافق بتحليل للذات ودراسة للتوراة والصلاة. كان التخلي عن الأهواء الفكرية والخيالية حول العالم أمراً مؤلماً وكان معظم الناس مترددين جداً في التخلي عن وجهة نظرهم. فما أن يخرجوا خارج هذه الأثنية حتى يشعر التَّقوي أنه مامن حقيقة في العالم سوى الله. ومثل المتصوف الذي كان يمر بتجربة الفناء، سيبلغ التَّقوي النشوة. قال باير أنه سوى يصل إلى خارج ذاته: «وجود كله مستوعب جداً للدرجة لا يبقى من وجوده شيء فلا يعود لديه شعور بذاته»^(١٥). تدريبات الهاباد جعلت القبالة وسيلة للتحليل النفسي ومعرفة الذات، تعلم التَّقوي النزول عالماً تلو عالم حتى عاينه الداخلي إلى أن يصل إلى مركز الذات. وهناك يكتشف أن الله هو الحقيقة الوحيدة. العقل بإمكانه اكتشاف الله بتدريب العقل والخيالة لكن هذا لا يكون إله الفلسفة الموضوعي ولا إله علماء مثل إله نيوتن، بل حقيقة ذاتية جداً غير منفصلة عن الذات.

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر عصراً تطرف مؤلم وإثارة للروح التي كانت تعكس الاضطرابات الثورية في العالم السياسي والاجتماعي بينما لم يحدث شيء مماثل لهذا في العالم الإسلامي في هذه الفترة، على الرغم أن هذا يصعب على الغربي أن يؤكد لأن الفكر الإسلامي في القرن الثامن عشر لم يكن قد حظي بدراسة وافية، فكان العلماء الغربيون يجدون سهولة في استبعاد هذه الفترة بدعوى أنها كانت فترة غير هامة. وكان يُعتقد أنه في الوقت الذي كانت تمر فيه أوروبا في عصر التنوير كان الإسلام يمر في فترة انحطاط، وقد اعتبرت هذه النظرة تبسيطية جداً. مع أن البريطانيين قد أحكموا سيطرتهم على الهند في عام ١٧٦٧ إلا أن العالم الإسلامي لم يكن منركاً بعد لطبيعة التحدي الغربي الذي لاسابقة لها. لعلّ المتصوف الهندي شاه والي قلّة من دلهي Shah Waliullah (١٧٠٣ - ١٧٦٢) كان أول من فهم هذه الروح الجديدة. لقد كان مفكراً مؤثراً شكاكاً حيال الكونية الثقافية، لكنه كان يعتقد أن على المسلمين أن يتحلوا بسوية كي يصونوا تراثهم. ومع أنه لم يكن يحب الشيعة إلا أنه اعتقد أن على السنة والشيعة أن يكون لديهم قاعدة مشتركة. حاول إصلاح الشريعة بحيث يجعلها ذات علاقة بالظروف الجديدة في الهند. ويبدو أنه كان لديه إحساساً سباقاً بنتائج الاستعمار: فابنه قاد الجهاد ضد البريطانيين. كان فكره محافظاً، وقائماً على فكر ابن عربي: لا يستطيع الإنسان أن يطور قوته دون الله. كان المسلمون سعداء في اتكاليته على مكنوزات الماضي في الشؤون الدينية وكان والي قلّة مثلاً على المقدرة التي مازال الصوفية يوسعها أن تلهمها. ففي أجزاء كثيرة من العالم بدأت الصوفية بالانحطاط نوعاً ما، وبدأت حركة إصلاح جديدة في

الجزيرة العربية بإزاحة سيطرة الصوفية التي وسعت المفهوم الإسلامي لله خلال القرن التاسع عشر والاستجابة الإسلامية لتحدي الغرب.

كان محمد بن عبد الوهاب (١٧٨٤) قاضي نجد في شبه الجزيرة العربية، مثله مثل المصلحين المسيحيين في القرن السادس عشر، يريد أن يعيد الإسلام إلى نقاء بداياته ويخلصه من جميع العناصر الدخيلة اللاحقة. كان معادياً للصوفية بشكل خاص. وكان كل اقتراح بلاهوت تجسدي أمراً مداناً، يشمل بذلك الولاء للقديسين والمتصوفين وأئمة الشيعة. وعارض كذلك الإيمان بقبر النبي في المدينة: يجب ألا يشتت انتباهنا عن الله أي إنسان كان. تمكن عبد الوهاب من جعل محمد بن سعود من أنصاره - هذا الذي كان حاكم وسط الجزيرة، فبدأ سوية حركة إصلاح كانت محاولة لإعادة خلق الأمة كما كانت في عهد النبي وصحابته. لقد هاجما اضطهاد الفقراء واللامبالاة تجاه محنة الأراذل واليتامى، والأخلاقيات، والصنمية. وأعلن الجهاد ضد سادتهم الاستعماريين العثمانيين، وكان يعتقد أن العرب لا الأتراك هم الذين ينبغي أن يتبؤوا قيادة الشعوب الإسلامية. لقد تمكننا من انتزاع جزء لا بأس به من الحجاز من السيطرة العثمانية، ولم يتمكن العثمانيون من استعادته حتى عام ١٨١٨. فاستولى هذا المذهب الجديد على مخيلة الكثيرين في العالم الإسلامي. كان الحجاج إلى مكة يتأثرون بهذه التقوى الجديدة التي بدت أكثر نضجاً وقوة من الصوفية الراهنة. فخلال القرن التاسع عشر أصبحت الوهابية الطابع الإسلامي المسيطر، وازداد تهميش الصوفية، على الرغم من أن الوهابية كانت أكثر غرابة وخرافية. كان للمسلمون - مثل اليهود والمسيحيين - قد بدؤوا الانسحاب من المثل الصوفي الأعلى واعتناق نمط تقوى أكثر عقلانية.

أما في أوروبا فكانت قد بدأت قلة من الناس بالتحول عن الله ذاته. ففي عام ١٧٢٩ عاش القس الريفي جان ميسليو حياة نموذجية لكنه مات ملحداً، فقد خلف وراءه مذكرة عمها فولتير. لقد عبر فيها عن كراهيته للبشر وعن عدم قدرته على الإيمان بالله. ففضاء نيوتن اللامتناهي كان الحقيقة الأبدية الوحيدة التي آمن بها ميسليو: لا شيء وُجد سوى المادة. فالدين كان وسيلة يستخدمها الأغنياء لاضطهاد الفقراء ويحولهم إلى عاجزين. كانت المسيحية تتميز بغرابة معتقدها، كالاعتقاد بالثالوث والتجسيد. فكان إنكار هذا القس لله لقمة سائغة قدمها للفلسفات. فقد انتزع فولتير الفقرات الإلحادية تحديداً وحول الراهب الفرنسي أبي Abbe إلى مثاله Deist. وفي حوالي نهاية القرن الثامن

عشر ظهرت قلة من الفلاسفة تفاخروا بتسمية أنفسهم ملحدين. فعلى الرغم من أنهم بقوا أقلية إلا أن هذا كان تطوراً جديداً. فحتى هذه الفترة كانت تعتبر كلمة ملحد شتيمة يكيلها المرء لأعدائه. أما بعد ذلك فأصبحت كلمة أو لقباً مدعاة للتباهي. فقد تبنى الفيلسوف الاسكوتلندي ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) التجريبية الجديدة من أجل الوصول إلى نتيجة منطقية. لم يكن هناك حاجة إلى الذهاب إلى ما وراء التفسير العلمي للواقع، ولا لسبب فلسفي للاعتقاد بأن شيئاً ما يقع خارج مدركاتنا الحسية. ففي كتابه (حوارات حول الدين الطبيعي) تخلص من الجدال الذي كان يهدف إلى إثبات وجود الله من تصميم الكون، وقال أنه كان يعتمد على نقاشات مماثلة غير شاملة. فقد يجادل امرؤ أن النظام الذي نراه في العالم الطبيعي يشير إلى مُسَيَّر ذكي، لكن كيف نواجه إذن الشر ومظاهر الفوضى؟ لم تكن هناك إجابة منطقية على هذا السؤال. وهوم الذي كتب حواراته في عام ١٧٥٠ تركها دون نشر، وكان ذلك حكمة منه. فبعد مضي نحو (١٢) شهراً أدخل الفيلسوف دهنس ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) إلى السجن لأنه طرح السؤال ذاته في (رسالة إلى العميان كي يستفيد منها المبصرون) التي طرحت إشكالية فاضحة لعامة الناس.

أنكر ديدرو التهمة التي وجهت إليه، فقال أنه لا يكثر فيما إذا كان الله موجوداً أم لا وعندما اعترض فولتير على كتابه أجاب: «أنا أؤمن بالله على الرغم من أنني أعيش حياة جيدة مع الملحدين... أمر هام ألا نخلط بين الشوكران Hemlock والبقدونس، لكن أن نؤمن أو لا نؤمن بالله فهذا أمر ليس بذي أهمية على الإطلاق». لقد وضع ديدرو إصبعه بدقة لانتخطي على النقطة الأساسية. فبعد أن توقف الله عن أن يكون تجربة ذاتية عاطفية لم يعد موجوداً. فكما أشار ديدرو في الرسالة ذاتها أن لاهدف يرتجى من الإيمان بـإله الفلاسفة الذي لايتدخل أبداً في شؤون العالم. فلقد تحول الإله المستتر وأصبح Deus Otiosus: «سواء وجد الله أم لم يوجد فقد بلغ مرتبة بين الحقائق الكبيرة التي لا فائدة منها»^(٦٦) لقد توصل إلى النتيجة المناقضة لما توصل إليه باسكال الذي رأى أن الرهان ذا أهمية قصوى ومن المحال تجاهله كلياً. في كتابه (تأملات فلسفية) ١٧٤٦ حذف ديدرو تجربة باسكال الدينية على أنها ذاتية جداً: فباسكال واليسوعيون كانوا مهتمين جداً بالله لكن أفكارهم حوله كانت شديدة الاختلاف فأياً من الموقفين نختار؟ إله كهذا لم يكن شيئاً سوى الطبع Temperament. فقبل ثلاث سنوات من طبع رسالته كان ديدرو يعتقد أن العلم وحده باستطاعته دحض الإلحاد. لقد أنشأ تفسيراً جديداً مؤثراً

للجدال من البنيان (design). فبدلاً من بحث حركة الكون الهائلة دعا الناس أن يتحروا البنية الكامنة في الطبيعة: نظام بذرة ماء، قراشة، أو حشرة كان معقداً جداً للدرجة أن من الخيال وجوده بالمصادفة. وفي تأملاته كان ديدرو ما يزال يؤمن بأن العقل يستطيع أن يثبت وجود الله. تحرر نيوتن من كل خرافات وسخافات الدين: إله كان يقوم بالمعجزات على قدم المساواة مع العقاريت التي نخيف بها أطفالنا.

بعد ثلاث سنوات توصل ديدرو إلى توجيه أسئلة إلى نيوتن، ولم يعد مقتنعاً أن العالم الخارجي قد قدم أي دليل على وجود الله. لقد رأى بوضوح أن الله ليس له أية علاقة مهما كانت بالعلم الحديث. لكنه عبر عن هذا الفكر الثوري الملتهب في كلمات خيالية (رسالة إلى العميان). تخيل ديدرو جدلاً بين أنصار نيوتن الذين أسماهم السيد هولمز، وأنصار نيكولاس ساوندسون (١٦٨٢ - ١٧٣٩) عالم الرياضيات في جامعة كامبريدج الذي فقد بصره عندما كان رضيعاً. يوجه الثاني إلى الأول أسئلة: كيف بالإمكان تحقيق جدال البنيان ليتصالح مع الوحوش والمصادفات من أمثاله هو نفسه، الذي لم يوضح شيئاً سوى مخططاً متساهلاً وذكياً:

ماهذا العالم ياسيد هولمز، سوى عالم معقد غامض لدورات من التغير تبدي جميعها نزوعاً مستمراً إلى التدمير: تعاقب سريع لكائنات يظهر واحداً تلو الآخر، تزدهر وتتلأشى، إنه مجرد تناسق عابر ومظهر استقرار لحظي^(٦٧).

لم يكن إله نيوتن، وإله الكثير من المسيحيين التقليديين، الذي يفترض أنه مسؤول فعلاً عن كل شيء يحدث، لم يكن فقط سخافة بل فكرة مرعبة. فإدخال الله لشرح أشياء لا نستطيع تفسيرها في الحاضر كان اخفاقاً في التواضع. يختتم ساوندسون قائلاً «باصديقي الطيب هولمز. اعترف بجهلك».

من منظور ديدرو لم يكن هناك حاجة لمخالق. فالمادة لم تكن المادة الحقيرة السلبية التي تخيلها البروتستانت ونيوتن بل لها ديناميتها الخاصة التي تقطيع قوانينها الخاصة. فمفهوم المادة هنا هو إلهي وليس ميكانيك Mechanik ، وهو المسؤول عن التصميم الظاهري الذي نعتقد أننا نراه. لم يوجد شيء سوى المادة. لقد دفع ديدرو بفكرة سبينوزا خطوة إلى الأمام. فبدلاً من القول أنه ليس هناك إله بل طبيعة قال ديدرو أن هنا الطبيعة فقط ولا إله مطلقاً. لم يكن ديدرو وحيداً في اعتقاده هذا: فعلماء مثل أبراهام ترمبلي

وجون توريفيل نيهام اكتشفوا مبدأ المادة المولدة الذي كان عائماً على السطح كفرضية في علم الحياة، والكائنات الدقيقة وعلم الحيوان والتاريخ الطبيعي، وعلم طبقات الأرض. قلة هم الناس الذين كانوا على استعداد للقيام بقطيعة نهائية مع الله. فحتى الفلاسفة الذين كانوا يترددون على صالون بول هنريش، وبارون هولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩) لم يكونوا يشجعون علانية الإلحاد مع أنهم كانوا يتناقشون بصراحة وجو مفتوح. ومن هذه المناقشات أتى كتاب هولباخ (نظام الطبيعة: أو قوانين العالم الفيزيائي والأخلاقي) ١٧٧٠ الذي أصبح يعرف بإنجيل المادية الإلحادية. لم يكن هناك بديل خارق للطبيعة، الذي قال عنه هولباخ أنه «سلسلة هائلة من أسباب ونتائج يتدفق أحدها عن الآخر»^(٢٨). فالإيمان بالله كان مشتبهاً وإنكاراً لتجربتنا الحقة، وكان أيضاً ضرباً من اليأس. فالذين خلق الآلهة لأن الناس لم يستطيعوا إيجاد تفسير آخر يواسيهم عن مأساة الحياة في هذا العالم. فقد تحولوا إلى وسائل عزاء وهمية من الدين والفلسفة في محاولة لترسيخ إحساس خادع بالسيطرة ومحاولة لاسترضاء قوة يتخيلون أنها كامنة خلف الكواليس كي يتجنبوا الوقوع في الخطأ والكارثة. لقد كان أرسطو مخطئاً: فالفلسفة لم تكن نتيجة لرغبة نبيلة بالمعرفة بل نتيجة التوق الجبان لتفادي الألم. كان مهد الدين هو الجهل والخوف ويجب أن يتسلق الإنسان المستدير الناضج صاعداً منه.

لقد صاغ هولباخ تاريخه الطويل حول الله. في البداية عبد الناس قوى الطبيعة، فكانت هذه الأنيمة البدائية مقبولة لأنها لم تحاول المضي خارج هذا العالم. لكن بدأ التعفن يدخل عندما بدأ الناس بتشخيص الشمس والرياح والبحر كي يخلقوا آلهة على صورتهم وشكلهم. وأخيراً جمعوا هذه الآلهة في إله واحد كبير لم يكن سوى إسقاط وكتلة نقائص. فالشعراء واللاهوتيون لم يفعلوا شيئاً عبر المصور الوسطى سوى:

خلق إنسان ميالغ به عملاق، سيحولونه إلى وهم يتكديس صفات لاسبيل
إلى بلوغها. فالبشر لن يروا أبداً في الله أكثر من كائن من النوع البشري،
يعود إلى تعظيم النسب فيه حتى يفندوا لهم وكأنهم شكلوا كائناً لا يمكن
تصوره كلياً.

يبين التاريخ أن من المحال إيجاد تسوية بين ما يسمى بخيرية الله مع كية قدرته لأنها تنفقر إلى الانسجام. ففكرة الله محكوم عليها بالتحلل. لقد بذل الفلاسفة والعلماء كل ما في وسعهم من أجل إنقاذها لكن حظهم لم يكن أفضل من حظ الشعراء واللاهوتيين.

والكمال الأسمى hautes perfectione الذي زعم ديكارت أنه يبرهنه إنما كان بكل بساطة نتاج مخيلته. وكان نيوتن العظيم «عبداً لأهواء طفولته». لقد اكتشف فضاء مطلقاً، وخلق إلهاً من الخلاء الذي كان بكل بساطة الإنسان القادر Unhomme Puissant طاغية إلهي يرغب مخلوقاته البشر، ويحط من مكانتهم كي يصبحوا عبيداً له^(٧٩).

لحسن الحظ سوف يمكن عصر التنوير البشرية من تحرير نفسها من هذه الطفولية، وسيحل العلم محل الدين. «فإذا كان الجهل بالطبيعة قد أدى إلى ولادة الآلهة فإن معرفتها هو بحد ذاته سيدمر هذه الآلهة»^(٨٠). فلا وجود لحقائق أسمى أو نماذج كامنة، ولاتصميم عظيم. هناك الطبيعة فقط:

الطبيعة ليست عملاً، إنها دائماً موجودة بذاتها، في صدرها يتم صنع كل شيء: إنها مختبر هائل مزود بالمواد. وهي تصنع الأدوات التي تنقسم لنفسها الفرصة كي تفعل بها. فجميع أعمالها هي نتائج: قدرتها ذاتها، ونتائج العوامل والأسباب التي تصنعها. ونتائج الأشياء التي تحويها والتي تضعها في حالة العمل^(٨١).

فإنه لم يكن غير ضروري فقط بل كان ضاراً إيجابياً أيضاً. ففي نهاية القرن قام بول سيمون دولابلاس (١٧٤٩ - ١٧٢٦) بقذف الله من الفيزياء. فنظام الكواكب قد أصبح نوراً من الشمس ويرد تدريجياً. فعندما سأله نابليون: «من كان مكوّن هذا؟» أجابه لابلاس «ليست لي حاجة بهذه الفرضية».

أصر الموحدون طيلة قرون على أن الله لم يكن مجرد وجود آخر. إنه لم يوجد مثل وجود الظواهر الأخرى التي نعرفها. واعتاد اللاهوتيون المسيحيون في الغرب على الحديث عن الله وكأنه فعلاً واحداً من الأشياء الموجودة. لقد ألغوا القبض على العلم الجديد كي يثبتوا الحقيقة الموضوعية لوجود الله وكأنما كان بالإمكان اختياره وتحليله مثل أي شيء آخر. لقد قلب ديترو، وهوبلأخ ولاهلاس هذه المحاولة رأساً على عقب للوصول إلى النتيجة ذاتها على شاكلة المتصوفين الأكثر تطرفاً. لا يوجد شيء في الخارج هناك. لم يمض وقت طويل حتى أعلن علماء وفلاسفة مظفرين أن الله كان ميتاً.

الفصل العاشر

الله والقرن التاسع عشر

كان الإلحاد تحديداً على جدول الأعمال بحلول بداية القرن التاسع عشر. كان التقدم في ميدان العلم والتكنولوجيا يخلق روحاً جديدة من الاستقلالية والحكم الذاتي مما دفع بالبعض إلى إعلان الاستقلال عن الله. ففي هذا القرن صاغ لودفيغ فيهرباخ، وكارل ماركس، وشارلز داروين، ونيتشه، وفرويد فلسفات وتفسيرات علمية للواقع لا مكان لله فيها. بدأ عدد كبير من الناس يشعرون أنه إذا لم يكن الله قد مات بعد فإن من واجب البشر المحررين العقلانيين أن يبدؤوا بقتله. ففكرة الله التي تعززت طيلة قرون في الغرب المسيحي بدت الآن غير كافية بشكل كارثي، وبدأ أن عصر العقل قد انتصر على قرون من الخرافة والتعصب، لكن السؤال ما يزال قائماً: هل انتصر حقاً؟ لقد أمسك الغرب بالمبادرة الآن وسيكون لنشاطاته آثار قاتلة بالنسبة لليهود والمسلمين الذين سيغدون مجبرين على مراجعة مواقفهم. فالكثير من الإيديولوجيات التي رفضت فكرة الله كانت ذات معنى. وكان إله المسيحية الغربية الشخصي التجسدي معرضاً للهجوم بعد أن ارتكبت باسمه جرائم مرعبة. وموته لم يكن يلقاه الناس كتحرر بهيج بل كان محاطاً بالشك والخوف، وبصراع مؤلم في بعض الحالات. حاول بعض الناس إنقاذ الله بتطوير لاهوتات جديدة تحرره من مناهج الفكر التجريبي المثبطة، لكن الإلحاد قد أتى كي يبقى.

كان هناك ردة فعل ضد دين العقل أيضاً. فقد أشار الشعراء والروائيون وفلاسفة الحركة الرومانسية إلى أن النزعة العقلانية كانت تقلل من القيمة الإنسانية بتخليها عن التخيلي والنشاطات الحدسية للروح. فقام البعض بإعادة تفسير لعقائد وأسرار المسيحية بطريقة دينوية. لقد ترجم هذا اللاهوت للتشكل الموضوعات القديمة كالجحيم والسماء،

والبعث والخلاص إلى مصطلح جعل هذه الموضوعات مقبولة فكرياً لمرحلة مابعد التنوير من خلال حرمانها من علاقتها بالحقيقة مافوق الطبيعية «هناك». فقد قال الناقد الأدبي الأمريكي م.ر. أبرامز^(١) أن أياً من الموضوعات «الحارقة للطبيعة» هي من صنع الخيلة المبدعة. كانت تعتبر كقدرة بإمكانها أن تتداخل مع الواقع الخارجي بطريقة تخلق فيها حقيقة جديدة. وقد صاغها الشاعر الإنجليزي جون كيتس (١٧٨٩ - ١٨٢١) بشكل محكم: «الخيلة هي كحلم آدم - استيقظ فوجده حقيقة». كان يشير إلى قصة خلق حواء في قصيدة جون ملتون (الفردوس المفقود). فبعد أن حلم آدم بواقع لم يخلق بعد، استيقظ ليجده في المرأة التي تقف أمامه. وكتب كيتس عن الخيلة معتبراً إياها مقدرة مقدسة: «لست متأكداً من شيء سوى من قداسة عواطف القلب ومن حقيقة الخيلة. فبا تعبيره الخيلة جمالاً يجب أن يكون الحقيقة - سواء وجدت من قبل أم لا»^(٢). كان للعقل دور محدد في هذه العملية الإبداعية. وقد وصف كيتس كذلك إحدى حالات العقل التي أسماها «المقدرة السلبية»: «عندما يكون المرء قادراً على أن يكون في لاقينيات، خفياً، شكوك دون أي سعي انفعالي خلف حقيقة وعقل»^(٣). فالشاعر - كالمصوف - عليه أن يتجاوز العقل وأن يبقى نفسه في موقف انتظاري صامت.

لقد وصف متصوفوا المصور الوسطى تجربة الله بنفس الطريقة تقريباً، وقد تحدث ابن عربي عن الخيلة وهي تخلق تجربتها الخاصة لوجود الله غير المخلوق في أعماق الذات. فكيتس ووردزورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) كان لهما نظرة الخيلة نفسها على الرغم من أن كيتس كان من منتقديها. فأفضل شعر كتبه ووردزورث يحثني بالاتحاد بين العقل البشري وعالم الطبيعة اللذين يؤثران على بعضهما فيخلقان رؤية ومعنى^(٤). كان ووردزورث متصوفاً، وتجاربه مع الطبيعة كانت مماثلة للتجربة مع الله. ففي أبيات قصيدته (أبيات نظمت على بعد أميال من فوق أبرشية تنترن) وصف حالة العقل المنفتحة التي أدت إلى رؤية نشوية للواقع:

تلك الحالة النفسية المباركة

التي فيها صعب السر المتعب الثقيل

لهذا العالم كله، العصي على الفهم، قد أضيء.

تلك الحالة المباركة الهادئة التي تقودنا العواطف فيها

حتى نقس هذا الإطار الجسدي

حتى حركة دنا البشري

لكاد تتوقف، نستلقي نالعين جسدياً، لنصبح روحاً حية:

بينما هدأت قدرة الانسجام، وقدرة السعادة الغامرة.

نرى داخل حياة الأشياء^(٥).

أنت هذه الرؤية من القلب والمواطف أكثر مما أتت من «الفكر المتطفل» كما أسماه وردزورث الذي تدمر قدراته التحليلية المحضة هذا النوع من الحدس. فالتناس ليسوا بحاجة إلى كتب تقدمهم بالمعرفة والنظريات، بل كل ما كان مطلوباً هو «سلبية حكيمة» و«قلب يشاهد ويتلقى»^(٦). بصيرة بدأت بتجربة ذاتية على الرغم من أنه كان ينبغي أن تكون حكيمة ليست مطلعة، ومنغمسة ذاتياً. فكما يقول كيتس لانتصبح حقيقة ما حقيقة حتى يحسها البض وتحملها العاطفة إلى داخل القلب حية.

لقد رأى وردزورث «روحاً» كانت واحدة، وفي الوقت ذاته متأصلة في الظواهر الطبيعية و متميزة عنها:

حضور يضايقي بسعادة: أفكار عليا، إحساس سام

بشيء مانتصهر بعمق، مسكنه نور شمس غاربة

واخيط الدائري، والهواء المفعم بالحياة، والسماء الزرقاء، وفي عقل الإنسان:

حركة وروح تسير كل الأشياء المفكرة، كل موضوعات التفكير كلها

وتتدحرج إلى داخل الأشياء جميعها^(٧).

ويجّد فلاسفة من أمثال هيجل هذه الروح في أحداث التاريخ. كان وردزورث حريصاً على عدم إعطاء هذه التجربة تفسيراً دينياً تقليدياً، وفي مناسبات أخرى كان يشعر بالسعادة أثناء حديثه عن الله، خاصة في ظرف أخلاقي^(٨). لم يعرف البروتستانتيون الإنجليز إله المتصوفين الذي أسقطه المصلحون. كان الله يتحدث من خلال الوجدان في أوامر الواجب، وكان يصحح رغبات القلب، لكنه كما كان يبدو ذا قواسم مشتركة قليلة مع «الحضور» الذي شعر به وردزورث في الطبيعة. فوردزورث المهتم دائماً بدقة التعبير أسماه «شيئاً ما»، وتستخدم هذه الكلمة غالباً كبديل عن تعريف دقيق استخدمه كي يصف الروح التي رفض أن يسميها بنزعة لأدرية صوفية حققة، لكنها لانتطبق على أي من المجالات التي عرفها.

هناك شاعر متصوف آخر أطلق إشارة ورؤية معلناً أن الله كان ميتاً. إنه وليم بليك

(١٧٥٧ - ١٨٢٧) الذي استخدم طريقة جدلية: فكلمات مثل «البراءة» و«الخبرة»، اللتان نبدوان متناقضتين لبعضهما اكتشف أنهما نصفاً حقائق لواقع أكثر تعقيداً. لقد حوّل بليك الأضداد المتقابلة التي كانت تسم البيتين الشعريين اللذين لهما نفس الوزن والقافية خلال عصر العقل في إنجلترا إلى أسلوب صياغة رؤية ذاتية وشخصية. ففي (أناشيد البراءة والخبرة) حالتان متناقضتان من حالات الروح البشرية، ويتضح أنهما غير كافيتين كي تنسجما: البراءة يجب أن تصبح الخبرة، والخبرة نفسها تهبط إلى أعماق الأعماق قبل استعادة البراءة الحقيقية. فالشاعر قد أصبح نبياً يرى الماضي والحاضر والمستقبل، ويستمتع إلى الكلمة المقدسة التي نطقها الله إلى البشر في زمن بدئي:

منادياً الروح الهابطة

وباكياً في لدى المساء

ذلك الذي بإمكانه التحكم

بالقطب المرصع بالنجوم

وهبطت، هبطت، يجمدها التور^(٩).

لقد تصور بليك.. مثلما تصور الغنوصيون والقباليون حالة هبوط مطلق، ولن يكون هناك رؤيا صحيحة حتى يدرك البشر حالتهم الهابطة. لقد استخدم بليك فكرة الهبوط الأول - مثلما فعل المتصوفون الأول - كي يُرمَّز عملية حاضرة باستمرار في الواقع الأرضي حولنا.

لقد تمرد بليك على رؤية التنوير التي حاولت منهجة الحقيقة، وعلى إله المسيحية الذي اعتاد على تغريب الناس عن إنسانيتهم. هذا الإله الذي أجبر على نشر قوانين غير طبيعية لقمع الميل الجنسي والحرية والبهجة العفوية. لقد تهجم بليك على «التناسق الخفيف» لهذا الإله الإنساني في قصيدته (التاير Tyger)، فبراه بعيداً عن العالم في «أعماق السموات». ويخضع حتى الله الآخر خالق العالم إلى التغير في قصائده، فالله نفسه عليه أن يهبط إلى العالم ويموت في شخص يسوع^(١٠). وهو يصبح الشيطان عدو الجنس البشري. كان بليك، كالفنوصيين والقباليين والتلثيين قد تصور الكينوسيس مغرغاً ذاته في الرب الذي يهبط من عزله في السماء ويصبح مجسداً في العالم. لم يعد هناك إله مستقل بذاته في عالم خاص به، إله يطالب البشر بالخضوع إلى قانون تابع خارجي. فمما نلاحظ بشري غريب عن الله، حتى الميل الجنسي الذي قمعته الكنيسة ظاهر في عاطفة يسوع نفسه. لقد

مات الله طوعاً في يسوع، فلم يعد الله المُعزَّب المتعالي موجوداً. فعندما يتم موت الله فإن الوجه الإلهي الإنساني سوف يظهر:

قال يسوع: «ألن تحبوا واحداً لم يمت أبداً من أجلكم؟، أو من أجل امرئ، إنه لم يمت من أجلكم. فلو لم يمت الله من أجل الإنسان لو لم يهب نفسه إلى الأبد إلى الإنسان لما وجد الإنسان، لأن الإنسان هو الحب مثلما أن الله هو الحب: فكل طيبة تجاه آخر هي موت قليل في الصورة الإلهية وليس باستطاعة الإنسان أن يوجد إلا عن طريق الأثوة»^(١١).

لقد تمرد بليك على الكنائس المؤسساتية لكن بعض اللاهوتيين كان يحاول دمج الرؤية الرومانسية في المسيحية الرسمية. فقد وجد هؤلاء أن فكرة الله المتعالي البعيد بغيضة ولاعلاقة لها بالدين، فأكدوا بدلاً من ذلك على أهمية التجربة الدينية الذاتية. في عام ١٧٩٩ أي بعد أن نشر وردزورث وكولريدج (القصاصد الشعبية الغنائية) في إنجلترا قام فريدريش شيللر ماخر (١٧٦٨ - ١٨٣٤) بنشر بيانه الرومانسي في ألمانيا تحت عنوان (في الدين، خطب إلى كارهيه للثقفين). لم تكن العقائد حقائق إلهية بل بكل بساطة «عروضاً للعواطف الدينية المسيحية مصاغة في كلمات»^(١٢). لم يكن بالإمكان حصر الإيمان الديني باقتراحات المعتقدات: لقد طور فهماً عاطفياً واستسلاماً داخلياً. فالفكر والعقل كان لهما مكانتهما، وكان باستطاعتها أن يأخذنا بعيداً جداً فقط، فعندما نصل إلى تخوم العقل سيكمل الشعور الرحلة إلى المطلق. عندما تكلم شيللر ماخر عن الشعور لم يكن يعني أيضاً من نزعة عاطفية بل حدساً كان يقود البشر باتجاه اللانهائي. فالشعور لم يكن مناقضاً للعقل البشري بل قفزة تخيلية تأخذنا خارج الخاص إلى فهم الكل. لقد نبغ هذا الإحساس بالله من أعماق كل فرد أكثر مما نجم عن اصطدام بحقيقة موضوعية.

لقد أبدى اللاهوت الغربي ميلاً للتأكيد على أهمية العقلانية منذ توما الإكويني، وقد تزايدت هذه النزعة منذ حركة الإصلاح. لقد كان لاهوت شيللر ماخر الرومانسي محاولة لإعادة التوازن. لقد أوضح أن الشعور لم يكن غاية بحد ذاته، وليس في وسعه تقديم تفسير كامل للدين. العقل والشعور كانا يشيران خارج ذاتهما إلى حقيقة لا سبيل إلى وصفها، فقد عرّف ماخر جوهر الدين على أنه «الشعور باتكالية مطلقة»^(١٣). وسيفندو هذا موقفاً محرمًا للمفكرين خلال القرن التاسع عشر، لكن ماخر لم يكن يعني خضوعاً مذللاً لله. تشير العبارة إلى الإحساس بالاحترام الذي ينشأ فينا عندما ننأمل لغز الحياة. وينبع موقف الرهبة هذا من التجربة الإنسانية الكونية مع المقدس. لقد عرف أنبياء إسرائيل هذا كصدمة عميقة عندما كانوا يرون رؤاهم المقلّصة. ولقد شعر الرومانسيون بتبجيل مماثل

وإحساس بالانكسالية على الروح التي كانوا يقابلونها في الطبيعة. فتلميذ ماعز التميز رودولف أوتو اكتشف هذه التجربة في كتابه الهام (فكرة المقدس) مبيناً أنه عندما يواجه البشر بهذا التعالي فإنهم لا يعودون يشعرون أنهم ألفا وأوميجا الوجود، أي بداية الوجود ونهايته.

لقد شعر ماعز في نهاية حياته أنه ربما بالغ في التأكيد على أهمية الشعور والذاتية. لقد كان مدركاً أن المسيحية قد بدأت تبدو عقيدة قديمة الطراز: كانت بعض المعتقدات المسيحية مضللة وجعلت الإيمان مفتوحاً على الريية الجديدة. لقد بدا معتقد الثالوث وكأنه يوحي بأن هناك ثلاثة آلهة. فقد رأى البريشث ويتشل (١٨٢٢ - ١٨٨٩) الاعتقاد بالثالوث مثلاً فاضحاً على زعرة الهلثنة. ولقد أفسدت الرسالة المسيحية بإدخال مجموعة من المفاهيم الميتافيزيقية الغريبة والمستمدة من فلسفة اليونانيين للطبيعة. فهذه لعلقة لها إطلاقاً بالتجربة المسيحية الأولى^(٤٤). مع ذلك فقد أخفق ماعز ويتشل في رؤية أنه على كل جيل أن يخلق تصوره التخيلي عن الله، تماماً مثلما كان على كل شاعر رومانسي أن يتعرف على الحقيقة بنفسه، بناء على نبضه الخاص. لقد كان الآباء اليونانيون يحاولون جعل المفهوم التعالي لله ينطبق - بالنسبة لهم - من خلال التعبير عنه في كلمات ثقافتهم هم. وبينما كان الغرب يدخل العصر التقني الحديث بدت الأفكار القديمة عن الله غير كافية. فحتى النهاية بقي شيللو مصراً على أن العاطفة الدينية لم تكن متعارضة مع العقل. فقد قال وهو مسجى على فراش الموت: «يجب أن أفكر بأعمق الأفكار التأملية، وبالنسبة لي فإنها تلتقي مع واحدة من أكثر الإحساسات الدينية حميمة»^(٤٥). كانت المفاهيم عن الله دون جدوى إذا لم تحوّل تخيلياً عن طريق الشعور والتجربة الدينية الشخصية.

خلال القرن التاسع عشر وقف الفلاسفة الواحد تلو الآخر في تحدٍ لوجهة النظر التراثية بالله، على الأقل الذي كان سائداً في الغرب. فبالتحديد كانوا يتضايقون من مفهوم إله ما فوق الطبيعة «هناك» ذا وجود موضوعي، فعلى الرغم من أن فكرة الله كوجود متعال قد حققت هيمنة في الغرب إلا أن التراثات التوحيدية الأخرى قد خرجت عن طريقتها كي تفصل نفسها عن هذا النوع من اللاهوت. لقد أسمر اليهود والمسلمون والمسيحيون الأرثوذكس وبطرقهم المختلفة على أن فكرتنا البشرية عن الله لم تكن تنطبق على الوجود الذي لا يوصف، والذي لم يكن الله سوى رمز له. فهذه الأديان قد اقترحت في مناسبة أو أخرى أنه أكثر صحة أن نصف الله بكلمة لاشيء Nothing أكثر من وصفه بالوجود الأعلى Supreme Being طالما أنه غير موجود بأية طريقة يمكننا تصورها. لقد فقد

الغرب هذه الرؤية لمفهوم الله التخيلي تدريجياً عبر القرون، وأصبح الكاثوليك والبروتستانت يعتبرونه وجوداً آخر مضافاً إلى العالم الذي نعرفه، ويشرف على نشاطاتنا كأخ أكبر في السماء. فليس مستغرباً ألا يكون هذا المفهوم لله مقبولاً لدى الكثيرين في العالم في فترة ما بعد الثورة، لأنه بدا أنه يحكم على البشر بعبودية ذليلة واتكالية تافهة لاتليق بالكرامة الإنسانية. وهكذا تمرد فلاسفة القرن التاسع عشر الملحدون على هذا الله بعقل سليم. وألهمت انتقاداتهم الكثير من معاصريهم أن يحذوا حذوهم. فقد بدا أنهم يقولون شيئاً جديداً تماماً عندما كانوا يتصدون لمسألة الله، إلا أنهم في أغلب الأحيان كانوا يكررون لاشعورياً وجهات نظر قديمة قدمها موحدون آخرون في الماضي.

وهكذا فقد طور جورج فيلهيلم هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) فلسفة كانت في بعض جوانبها مماثلة للقبالة بشكل مذهل، فكان هذا التماثل مفارقة كبيرة لأنه اعتبر اليهودية ديناً تافهاً مسؤولاً عن المفهوم البدئي لله الذي ارتكب خطأ فادحاً. من وجهة نظر هيغل كان الإله اليهودي طاغية يطلب استسلاماً لاتمازول فيه لشرعية لاترحم. فقد حاول يسوع أن يحرر البشر من هذه العبودية الذليلة لكن المسيحيين سقطوا في المصيدة التي سقط فيها اليهود، فطوروا فكرة طاغية إلهي. حان الوقت لرمي هذا الإله البربري جانباً وتطوير نظرة أكثر استنارة للشرط الإنساني. كان رأي هيغل غير الدقيق أبداً باليهودية قائماً على اللاهوت الجدلي في العهد الجديد الذي كان نوعاً جديداً من متافيزيقا معادية للسامية: لقد اعتبر هيغل - مثلما فعل كانط - اليهودية مثلاً على كل شيء خاطيء له علاقة بالدين. ففي كتابه (علم ظواهر العقل) ١٨١٧ استبدل فكرة الروح التي كانت قوة الحياة للعالم بباله تقليدي. فكما في القبالة، كانت الروح رغبة أن تعاني من محدوديتها ونفيها كي تبلغ الروحانية الحققة وفهم الذات، وهكذا كانت الروح محتمة على العالم والبشر في إنجازاتها، كما في القبالة. وهكذا أكد هيغل وجهة النظر الوحدانية القديمة التي هي سمة مميزة للإسلام والمسيحية: لم يكن الله منفصلاً عن الوجود المادي، إضافة اختيارية في عالم خاص به، بل كان مرتبطاً بالبشرية ارتباطاً وثيقاً. لقد عبر عن رأيه هذا ديكالكتيكاً معتبراً البشرية والروح متاهياً لامتناه، أي كصفتين لحقيقة واحدة يعتمد كل منهما على الآخر، ومستغرقان في عملية تحقيق الذات نفسها. فبدلاً من تهدئة إله بعيد عن طريق الالتزام بشرية غير مرغوبة وغريبة أعلن هيغل أن الإلهي كان يُقدأ من بشرتنا. فوجهة نظر هيغل في جوهر الكينوسيس Kenosis الروح التي تفرغ نفسها كي تصبح متصلة ومجسدة في العالم ذات قواسم كثيرة مشتركة مع اللاهوتات التجسيدية التي تطورت في الأديان الثلاثة.

كان هيجل إنساناً من عصر التنوير ورومانتيكياً أيضاً، ولذلك فقد أعلى من شأن العقل أكثر من الخيلة، وقد ردد صدًى وجهات نظر الماضي دون أن يفتن إلى ذلك. لقد رأى مآرأه الفلاسفة: أن العقل والفلسفة أعلى من الدين الذي كان متشبهاً بآليات تفكير تمثيلية. وقد استمد هيجل استنتاجاته - كما استمدتها الفلاسفة - حول المطلق من إعمال العقل الفردي الذي وصفه أنه رهينة سيرورة ديالكتيكية كانت تعكس الكل.

بدأت فلسفة هيجل متفائلة بشكل يثير سخرية آرثور شوينهاور (١٧٨٩ - ١٨٦٠) الذي يرمج محاضراته وفقاً لمواعيد محاضرات هيجل في بولن عام ١٨١٩ وهي السنة التي نشر فيها كتابه (العالم كإرادة وفكرة). في كتابه هذا لم يكن شوينهاور مؤمناً بوجود المطلق، ولا بالعلة، ولا بالله، ولا بروح تعمل في العالم: لأشياء سوى إرادة غريزية بدائية للعيش. لاقت هذه النظرة الكيكية قبولاً لدى النفوس الأكثر قتامة في الحركة الرومانسية. على كل حال لم تُسقط فلسفته جميع رؤى الدين. كان يعتقد أن الهندوسية والبوذية (والمسيحيين الذين أكدوا أن كل شيء كان من فراغ) قد وصلت إلى مفهوم صحيح للواقع عندما نادى أن كل شيء في العالم كان مجرد وهم. فظالماً أنه ليس هناك إله كي يتقننا فالقن فقط والموسيقى، والتدريب لإنكار الذات، والمحبة هذه جميعها يمكن أن تقربنا خطوة من السكينة. لم يكن لديه وقت لليهودية والإسلام اللذين - من وجهة نظره - لهما وجهة نظر هادفة وتبسيطية بشكل سخيف للتاريخ. وقد أثبت برأيه هذا أنه كان لديه بصيرة مستقبلية: فسوف نرى أنه في عصرنا وجد اليهود والمسلمون أن نظرتهم القديمة للتاريخ على أنه تجمل للإله، لم تعد صالحة للثبني كما كانت في الماضي، ولم يعد باستطاعة الكثيرين أن يصفوا الله بأنه رب التاريخ. بيد أن وجهة نظره في الخلاص كانت قريبة من المفاهيم الإسلامية واليهودية التي توجب على الأفراد أن يخلقوا إحساساً بالمعنى النهائي بأنفسهم. لم يكن لها علاقة بالتصور البروتستانتى لسيادة الله المطلقة التي كانت تعني أنه ليس بإمكان البشر المساهمة بأي شيء باتجاه خلاصهم، بل كانوا متكئين كلياً على إله خارجهم.

لقت المعتقدات القديمة هذه، حول الله إدانة متزايدة بدعوى أنها ذات عيوب وغير كافية. فالفيلسوف الدانماركي سورين كيركغارد (١٨١٣ - ١٨٥٥) أصر على أن العقائد والمذاهب القديمة قد أصبحت أصناماً، غايات بحد ذاتها، وبدائل عن وجود إله لا يوصف. فالإيمان المسيحي كان قفزة خارج العالم بعيداً عن هذه المعتقدات البشرية المستحاثية، ومواقف خارج المألوف إلى المجهول. وأراد آخرون أن يجندوا البشرية في هذا العالم وأن

يقتطعوا مفهوم بديل عظيم. جادل الفيلسوف الألماني لودفيغ ألدرياس فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) أن الله كان مجرد إسقاط بشري في كتابه الرائع (جوهر المسيحية) ١٨٤١. لقد غربتنا فكرة الله عن طبيعتنا بوضع كمال مستحيل فوقنا مناقض لضغطنا البشري. وهكذا كان الله لامتناهياً والإنسان فانياً، الله قدير والإنسان ضعيف، الله قدوس والإنسان خطيء. لقد وضع فيورباخ يده على ضعف أساسي في التراث الغربي، الذي كان يُفهم دائماً أنه خطر في الوحدةانية. فقد يؤدي نوع الإسقاط الذي يدفع الله خارج الشرط البشري إلى خلق صنم. لقد وجدت تراثات أخرى سبلاً متنوعة لمواجهة هذا الخطر، لكن في الغرب كانت فكرة الله قد أصبحت - لسوء الحظ - مدفوعة إلى الخارج بشكل متزايد فساهمت في فهم سلبي جداً للطبيعة البشرية. كان هناك تأكيد على الذنب والخطيئة، صراع وتوتر في دين الله في الغرب منذ عهد أوغسطين الذي كان غريباً عن اللاهوت الأرثوذكسي اليوناني. فليس مستغرباً إذا وجدنا فلاسفة مثل فيورباخ أو أوغست كومت (١٧٧٥ - ١٨٥٧) الذي كانت وجهة نظره في البشرية أكثر إيجابية، فأراد التخلص من هذا الإله الذي تسبب في غياب ثقة كان واسع الانتشار في الماضي.

كان الإلحاد دائماً رفضاً لتصور سائد للمقدس فقد أطلقت كلمة ملحدتين على اليهود والمسيحيين لأنهم أنكروا مفاهيم الألوهة الوثنية، مع أنهم كانوا مؤمنين بالله. وفي القرن التاسع عشر كان الملحدون الجند يهاجمون بعنف المفهوم المحدد لله الذي كان سائداً في الغرب أكثر مما كانوا يهاجمون مفاهيم أخرى عن المقدس. فقد رأى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٥) الدين: «زفرة مخلوق تُضطهد... أفيون الناس، الذي جعل احتمال هذا العذاب أمراً ممكناً...»^(١٦) مع ذلك فقد تبنى وجهة نظر مسينية للتاريخ معتمداً كثيراً على التراث اليهودي المسيحي. وقد استبعد الله على أنه لاهلقة له، وطالما أنه لاهلقة لمعنى أو قيمة أو غاية ماخارج إطار السيرة التاريخية فإن فكرة الله ليس بوسعها مساعدة البشرية. فالإلحاد - نفي الله - كان أيضاً مضيقاً للوقت. مع ذلك تعرض الله للنقد الماركسي، لأن المؤسسة غالباً ما استخدمته من أجل المصادقة على تراتب اجتماعي يجلس الغني في قصره بينما يجلس الفقير على بوابة القصر. على أية حال لم يكن هذا النقد صحيحاً بالنسبة للدين الونداني كله : فالله الذي يتفاضل عن الظلم الاجتماعي كان مصدر رعب لعاموس وإشعيا، ومحمد الذي استخدم فكرة الله من أجل غايات متباينة تماماً فكانت بذلك قرية جداً من المثل الأعلى الماركسي.

وبالمثل فقد جعل الفهم الحرفي لله والكتاب المقدس للعديد من المسيحيين فهماً هشاً

لا يصمد أمام الاكتشافات العلمية في تلك الفترة. فكتاب شارلز ليل (١٨٣٠ - ١٨٣٣) (مبادئ الجيولوجيا) الذي كشف عن الاتساع الهائل للزمن الجيولوجي، وكتاب شارلز داروين (أصل الأنواع) ١٨٥٩ طرحا فرضية نشوء بدت أنها مناقضة للعرض التوراتي لقصة الخلق في سفر التكوين. فمنذ عصر نيوتن كانت قصة الخلق أمراً مركزياً لفهم غربي لله. كما نقد الناس رؤية حقيقة أن المراد من القصة التوراتية ليس عرضاً حرفياً لأصل الكون للمادي. في الحقيقة كان الاعتقاد بالخلق من عدم أمراً إشكالياً دخل إلى اليهودية والمسيحية في وقت متأخر نسبياً. ففي الإسلام يتم تبني خلق الله للعالم بديهياً دون نقاش تفصيلي لكيفية الخلق. فالاعتقاد بالخلق، مثله مثل الكلام القرآني عن الله - هو فقط حكاية رمزية، آية أو رمز. وقد اعتبر الموحدون في الأديان الثلاثة قصة الخلق أسطورة بالمعنى الأكثر إيجابية للكلمة: عرضاً رمزياً ساعد البشر على تنمية موقف ديني محدد. فقد أوجد بعض اليهود والمسلمين عمداً تفسيرات خيالية لقصة الخلق كانت تختلف جذرياً عن أي معنى حرفي أما في الغرب فكان هناك ميل لاعتبار أن الإنجيل كان صحيحاً في كل جزئية من تفاصيله. أصبح أناس كثيرون يرون الله مسؤولاً فعلياً ومادياً عن كل ما يحدث على الأرض، بنفس الطريقة التي نحرك بها نحن الأشياء أو نضع الأحداث في حالة حركة.

كان هناك عدد كبير من المسيحيين الذين رأوا على الفور أن اكتشافات داروين كانت قاتلة لفكرة الله، وكانت المسيحية بشكل رئيسي قادرة على التكيف مع نظرية النشوء، ولم يكن اليهود والمسلمون متضايقين جدياً من الاكتشافات العلمية الجديدة مثل ضيقهم من كتاب أصول الأنواع: كانت مخاوفهم عموماً حول الله تنبع من مصدر مختلف تماماً كما سنرى. صحيح أن الدينوية الغربية قد انتشرت، وكان لامر من تأثيرها على الأفراد في أديان أخرى. إلا أن وجهة النظر الحرفية لله مازال سائدة، ويعتقد أناس كثيرون في العالم الغربي بشكل بديهي أن الكوسمولوجيا الحديثة قد وجهت ضربة مميتة لفكرة الله.

عبر التاريخ كله كان الناس يهتمون تصوراً لله عندما لم يعد هذا التصور فعالاً بالنسبة لهم. وقد اتخذ هذا شكل تحطيم عنيف للمعتقدات الدينية كما حطم الإسرائيليون القدماء معابد الكنعانيين، أو عندما كان الأنبياء يهاجمون آلهة جيرانهم الوثنيين. في عام ١٨٨٢ لجأ فيتشه إلى تكتيكات عنيفة مماثلة عندما أعلن أن الله كان ميتاً. لقد أعلن هذا الحدث في حكاية الرجل المجنون الذي ركض في السوق ذات صباح وهو يصيح: فإنني

أبحث عن الله! أنا أبحث عن الله! وعندما سأله المشاهدون المتفطرسون عن المكان الذي كان يعتقد أن الله قد ذهب إليه، وفيما إذا كان قد هرب بعيداً، أم هاجر، حلق المجنون فيهم صائحاً: «أين ذهب الله؟» وأريد أن أخبركم لقد قتلناه. أنتم وأنا؟ فنحن جميعاً قتلة. حدث لا يمكن تخيله ولا يمكن إلغاؤه لأنه قد اقتلع الجنس البشري من جذوره ورمى بالأرض خارج مسارها، رماها كي تعوم في كون لامسار له. لقد تلاشى كل شيء أمد البشر سابقاً بالإحساس بالإجماع. وسوف يؤدي موت الله إلى يأس وألم لا مثيل لهما. صاح المجنون غاضباً. «الآن هناك أعلى أو أدنى؟» «ألا نضل وكأننا في لاشيئية لامتناهية؟»^(١٧)

لقد أدرك نيتشه أن هناك تحولاً جذرياً في وعي الغرب سيجعل الإيمان بالظاهرة التي يسميها معظم الناس الله أمراً صعباً، بل متزايد الصعوبة. فالعلم لم يجعل فقط أنكاراً كهذه - الفهم الخرفي لقصة الخلق - أمراً محالاً، بل تحكمتنا الأكبر وقدرتنا جعلت فكرة مراقب إلهي أمراً غير مقبول. لقد شعر الناس أنهم يشهدون ولادة فجر جديد. لقد أكد مجنون نيتشه على أن موت الله سيجلب جانباً أعلى وأكثر جدة لتاريخ الإنسانية. ولكي يصبح الناس جديرين بقرارهم سيغدون آلهة بأنفسهم. في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) ١٨٨٣ أعلن نيتشه ولادة الإنسان الخارق الذي سيحل محل الله، والإنسان المستنير الجديد سيعلن حرباً على القيم المسيحية القديمة ويدوس على الإضافات النافذة لدى الغوغاء، مبشراً بإنسانية جديدة مقتدرة لن يكون فيها أي من الفضائل المسيحية مثل المحبة والشفقة. لقد التفت أيضاً إلى أسطورة البحث القديمة، وإعادة الولادة الأبدية الموجودة في أديان مثل البوذية. أما وقد أصبح العالم ميتاً فسيأخذ هذا العالم مكانته كقيمة أسمى. فكل شيء يذهب بمرور، وكل ما يموت يزهر ثانية، وكل ما يتحطم سوف يولد من جديد. بالإمكان تبجيل عالمنا على أنه أبدي ومقدس، وهما صفتان كانتا تطلقان على الله المتعالي البعيد.

قال نيتشه إن الله المسيحي كان يدعو للثناء، وكان سخيفاً وجريمة ضد الحياة^(١٨). لقد شجع الناس على الخوف من أجسادهم وعواطفهم ومن رغباتهم الجنسية، وصعد أخلاقية سائلة من المحبة جعلتنا ضعفاء. لوجود معنى أو قيمة نهائية، وليس للبشر علاقة في تقديم خيار متسامح في «الله». وينبغي القول أن الله المسيحي كان عرضة للتأثر بهذا النقد. لقد تم استخدامه لتفريب الناس عن إنسانيتهم وعن رغبتهم الجنسية من خلال نزعة إلى الزهد تنكر الحياة. وقد اتخذ الله شكل دواء بارع لجميع الأمراض وبدلاً عن الحياة هنا على الأرض.

أما سيغموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) فقد اعتبر الإيمان بالله وهماً ينبغي أن يضعه البشر العقلان جانباً. ففكرة الله لم تكن كذبة بل وسيلة للاشعور التي كان على علم النفس فك رموزها. فإلهه شخصي لم يكن أكثر من شخصية أبوية مجعدة: رغبة بإله كهذا تبع من رغبات طفولية بأب حامٍ مقتل للعدل والجمال ومن أجل أن تستمر الحياة أبداً. الله هو مجرد إسقاط لهذه الرغبات، يخافه الناس ويعبدونه من إحساس بالعجز مقيم. كان الدين ينتمي إلى طفولة الجنس البشري: كان مرحلة ضرورية في الانتقال من الطفولة إلى النضج. لقد طور قيماً أخلاقية كانت أساسية للمجتمع. أما وقد اشتد عود البشرية لذلك ينبغي أن تترك الدين وراءها، فالعلم - اللوغوس الجديد بإمكانه أن يأخذ مكانة الله، بإمكانه أن يقدم منطقاً جديداً للأخلاقية، وأن يساعدنا على مواجهة مخاوفنا. كان فرويد متشدداً في إيمانه بالعلم، وبأن تشدده كان تقريباً دينياً في درجة تركيزه: «كلا إن علمنا ليس وهماً فالوهم هو ما نفترض أن ليس بوسع العلم أن يقدمه، أن في وسعنا أن نجده في مكان آخر»^(١٩).

لم يوافق جميع المحللين النفسيين على نظرة فرويد لله. فالفريد أدلر (١٨٧٠ - ١٩٣٧) قال إن الله كان إسقاطاً، لكنه كان مفيداً للبشرية. لقد كان رمزاً ساطعاً وفعالاً نحو الجودة. وكان إله كارل غوستاف يونغ (١٨٧٥ - ١٩٦١) بمثابة إله المصنفين: حقيقة نفسية يعرفها كل فرد ذاتياً. وعندما سأله جون فريمن في مقابلة بعنوان (وجهاً لوجه) عما إذا كان يؤمن بالله أجاب يونغ مؤكداً: «ليس علي أن أؤمن، أعرف ذلك». إيمان يونغ المستمر يوحي بأن إلهاً ذاتياً يُعَوَّف بطريقة غامضة في أعماق الذات، بإمكانه أن يبقى علم التحليل النفسي بشكل ما يدرك أن إلهاً تجسدياً أكثر شخصانية يستطيع فعلاً تشجيع عدم نضج أبدي أليس كذلك؟ هنا أن فرويد - ككثير من الغربيين - لم يكن عارفاً بهذا الله الذاتي الكامن في الداخل. مع ذلك فقد أبدى نقطة صحيحة ومفهومة عندما أصر على أنه من الخطر محاولة إلغاء الدين. فعلى الناس أن يتخلصوا من الله في الوقت المناسب: إجبارهم على الدخول في الإلحاد أو الدنيوية قبل أن يكونوا مستعدين لذلك قد يؤدي إلى كبت وإنكار للذات غير سليم. فقد رأينا سابقاً أن تحطيم الأيقونات الدينية ينبع من قلق دفين وإسقاط لمخاوفنا على الآخر. فقد أظهر بعض الملحدين الذين أرادوا إلغاء الدين إمارات من التوتر. فعلى الرغم من دفاع شوينهاور عن أخلاق المحبة لم يستطع الانسجام مع البشر فأصبح ناسكاً يتواصل معهم فقط عبر كلبه الذكي أتمان Atman. كان ليتشبه إنساناً وحيداً طيب القلب مبتلياً باعتلال في صحته، فكان بذلك مخطئاً جداً عن إنسانه الخارق،

وفي النهاية فقد عقله. إنه لم يتخل عن الله جذلاً - كما تفردنا النشوة في ثره إلى تصور ذلك. ففي قصيدة سلمها بعد ارتعاش وارتعاش يجعل زرادشت يتوسل إلى الله أن يموت:

لا عد أدراجك...

بكل عذابائك...

أو عد أدراجك. إلى نهاية وحدتنا ووحشتنا!

كل سيول دموي

تجري من أجلك.

واللهب الأخير في قلبي

يتحرق إليك.

أو تعال

يا إلهي المجهول... يا ألي.. يا سعادتي الأخيرة^(٢٠).

لقد استخدمت الأجيال الألمانية اللاحقة نظريات نيتشه كما استخدمت نظريات هيجل كي تبرر السياسات الاشتراكية القومية، مذكرة بأن الإيديولوجيا الإلحادية قد تؤدي إلى أخلاق صليبية شرسة مثلها مثل فكرة الله.

كان الله دائماً موضوع صراع في الغرب وكانت وفاته محاولة بالتوتر والخراب واليأس. وهكذا في قصيدة الشاعر ألفرد لورد تينسون (في الذكرى) قصيدة الشك الفيكوري العظيمة تراجع الشاعر رعباً من منظور طبيعة لامبالية لاهداف لها، حمراء في سننها ومخلبها، نشرت القصيدة في عام ١٨٥٠ أي قبل نشر (أصل الأنواع) بتسع سنوات. وتوضح القصيدة أن تينسون قد شعر مسبقاً أن إيمانه كان يتقوض وأن نفسه كانت تتضاءل إلى:

رضيع يبكي في الليل

رضيع يبكي من أجل النور

وبلا لفة، لكن صرخة^(٢١).

أما ماثيو أرنولد فقد ندب في (شاطيء دوفر) تراجع بحر الإيمان الذي لا يرحم وترك البشر هالمين على سهل يلقه الظلام. لقد امتد الشك واليأس إلى العالم الأرثوذكسي علماً أن إنكار الله لم يكن يسير على مسارات الشك الغربي ذاتها بل كان أكثر في طبيعة إنكار للمعنى النهائي. فيودور دوستويفسكي في روايته (الاخوة كارامازوف) ١٨٨٠ التي تصف موت الله، أوضح صراعه فيها بين الإيمان والإنكار في رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه في آذار عام ١٨٥٤ :

أنظر في نفسي كطفل من العصر، طفل لمعلم الإيمان والشك. إنه محتمل
كلا. إنني أعلم علم اليقين أنني سوف أبقي كذلك حتى يوم وفاتي.
لقد عذبني الترق إلى أن أؤمن.. فأنا كذلك حتى الآن.
تكبر اللهفة لتصبح أشد... تشمل الصعوبات الفكرية المضممة التي تكف
في الطريق» (٢٢).

رواياته متناقضة مثل إيمانه. فالشخصيات الأخرى وصفت إيفان على أنه ملحد
(وتنسب إليه بديهة مشهورة الآن): «إذا لم يكن الله موجوداً، فكل شيء مسموح به»،
وبالتالي فإنه لا يؤمن بالله. فهو لا يجد من المقبول أن يخفق الله في تقديم معنى نهائي للمأساة
الحياة. إيفان ليس مشوشاً بنظرية الارتقاء بل بعذاب البشرية في التاريخ: موت طفل واحد
ثمن باهظ ندفعه مقابل المنظور الديني بأن كل شيء سيكون على مايرام. في هذا الفصل
سنرى أن اليهود قد توصلوا إلى النتيجة ذاتها. بالمقابل يعترف إليوشا القديس أنه لا يؤمن
بالله، اعتراف ينع - كما يبدو - من لاشعوره بعيداً عن رقابة وعيه. لقد استمر التساهل
واحساس غامض بالانحسار يثويان في أدب القرن العشرين بصورته للأرض اليباب
وللبشرية منتظرة مجيء غودو الذي لن يأتي أبداً.

أما في العالم الإسلامي فقد كان هناك قلق وعدم ارتياح مماثلين، على الرغم من
أنهما كانا ينبعان من مصدر مختلف تماماً. بحلول نهاية القرن التاسع عشر كانت الرسالة
التحضيرية من (كلمة الحضارة) لأوروبا خارج مسارها. كان الفرنسيون قد استعمروا
الجزائر في عام ١٨٣٠ واستعمر البريطانيون عدن في عام ١٨٣٩. وتابع الأوروبيون
مسيرتهم الاستعمارية، فقد استولوا بعد ذلك على تونس عام ١٨٨١ وعلى مصر عام
١٨٨٢ وعلى السودان عام ١٨٩٨ وعلى ليبيا والمغرب عام ١٩١٢. في عام ١٩٢٠
كانت فرنسا وبريطانيا قد قسمتا الشرق الأوسط فيما بينهما إلى محميات وانتدابات.
فجعل هذا المشروع الاستعماري النموذج الأوروبي رسمياً لأن الأوروبيين كانوا يرسمون
سيطرة اقتصادية وثقافية خلال القرن التاسع عشر باسم الانتقال إلى الحداثة. لقد أصبحت
أوروبا التقنية القوة المسيطرة على العالم. أسست المراكز التجارية والبعثات القنصلية في
تركيا والشرق الأوسط، فأدى ذلك إلى تعليم البنية التراثية لهذه المجتمعات قبل زمن طويل
من الحكم الغربي الفعلي لها. فكان هذا نوعاً جديداً تماماً من الاستعمار. عندما فتح المغول
الهند تمثل السكان الهنود الكثير من العناصر الإسلامية في ثقافتهم. لكن الثقافة الوطنية
شقت طريقها في النهاية عائدة. لقد أحدث هذا النظام الاستعماري الجديد تحولاً أدياً في
حياة السكان مؤسساً بذلك شكلاً للحكم غير مستقل.

كان من المحال لهذه البلدان المستعمرة اللحاق بركب الحضارة. فقد نسفت المؤسسات القديمة بشكل مدمر، وكان المجتمع الإسلامي نفسه منقسماً بين دعاة إلى التفریب وبين آخرين مناقضين لهم. وتوصل بعض المسلمين إلى قبول التقييم الغربي لهم كشركيين، ينضم إليهم الهنود والصينيون دون تمييز. وكان البعض ينظر من علي إلى أبناء بلدهم الأكثر تراثية. ففي إيران كان الشاه نصر الدين (١٨٤٨ - ١٨٩٦) يصّر على أنه يكره رعاياه. إنّ ما كان حضارة حية بهويتها وتكاملها قد تحولت تدريجياً إلى مجموعة من دول غير مستقلة كانت نسخاً مشوهة عن عالم غريب. كان الابتكار هو الجوهر في سيرورة التحديث في أوروبا والولايات المتحدة: وبذلك لم يكن بالإمكان بلوغه عبر التقليد. فالأثروبولوجيون الذين يدرسون اليوم البلدان أو المدن التي انتقلت إلى الحداثة في العالم العربي مثل القاهرة يشيرون إلى أن الهندسة المعمارية ومخطط المدينة يعكسان السيطرة أكثر مما يعكسان التقدم^(٢٣).

أخذ الأوروبيون - من جانبهم - يعتقدون أن ثقافتهم ليست أعلى في الوقت الحاضر فقط بل أنها كانت دائمة في عربة التقدم. إنهم يظهرون جهلاً كبيراً بتاريخ العالم. فالهنود والمصريون والسوريون كان يجب نقلهم إلى الحداثة من أجل صالحتهم. وقد عبر عن هذا الموقف الاستعماري إيلين بارنغ المستشار العام للورد كرومر في مصر من عام ١٨٨٣ حتى ١٩٠٧ .

لقد قال لي السير ألفرد ليال ذات يوم: والدقة مقبلة على العقل الشرقي». ويجب أن يتذكر كل أنجلو - هندي دائماً تلك البديهة. الافتقار إلى الدقة التي تنحط بكل سهولة إلى عدم مصداقية هي في الحقيقة سمة العقل الشرقي الأساسية.

بينما الأوروبي مُحَاكِمْ دقيق، وتعبيره عن الحقيقة لابس فيه. إنه عالم منطقي طبيعي على الرغم من أنه قد لا يكون درس المنطق. إنه بطبعه شكاك، ويطلب البرهان قبل تصديق أي اقتراح. فذاؤه المدرب يعمل مثل جزء من آلية. بينما عقل الشرقي مثل شرواعه الجميلة يفتقر إلى التناسق بشكل متأصل. فمحاكمته هي وصف لامبالي. وعلى الرغم من بلوغ العرب درجة أعلى نوعاً ما في علم الديالكتيك إلا أن أحفادهم يفتقرون إفرادياً إلى المنطرة المنطقية. فهم في أغلب الأحيان غير قادرين على الوصول إلى أكثر الاستنتاجات وضوحاً من أية مقدمات بسيطة قد يقبلون الحقيقة منها^(٢٤).

إحدى المشكلات التي كان ينبغي التغلب عليها كانت الإسلام: فالصورة السلبية للنبي محمد ودينه كانت قد تطورت في المسيحية في عصر الصليبيين، وكانت موجودة جنباً إلى جنب مع معاداة السامية في أوروبا. خلال الفترة الاستعمارية كان يُنظر إلى الإسلام كدين قَدري معارض للتقدم تاريخياً. فقد شجب اللورد كرومر - على سبيل المثال - محاولات المصلح المصري محمد عبده زاعماً أن من المحال أن يجدد الإسلام نفسه.

لم يكن لدى المسلمين سوى وقت قصير أو قدرة يسيرة على تطوير فهمهم لله بالطريقة التراثية لأنهم كانوا منشغلين في الصراع من أجل اللحاق بالغرب. فقد رأى بعضهم في الدنيوية الغربية الإجابة، لكن ماكان إيجابياً ومنشطاً في أوروبا كان يبدو غريباً وشاذاً فقط في العالم الإسلامي لأنه لم يتطور بشكل طبيعي عن تراثهم الخاص في زمن خاص. في الغرب كان الله يعتبر صوتاً للتغريب، وفي العالم الإسلامي كان عملية استعمارية. شعر الناس بالضيق وققدان الاتجاه بعد أن تمت قطيعتهم عن جذور ثقافتهم. لقد حاول بعض المصلحين المسلمين تسريع أسباب التقدم بتتحية الإسلام إلى دور ثانوي؛ فلم تكن النتائج كما توقعوا على الإطلاق. ففي تركيا الدولة القومية الحديثة التي ظهرت بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩١٧ حاول مصطفى كمال (١٨٨١ - ١٩٣٨) الذي لقب لاحقاً بـ كمال أتاتورك أن يحول بلاده إلى أمة غربية. فألغى الإسلام كدين للدولة، وجعل الدين شأنًا فردياً خاصاً. وتم منع الحلقات الصوفية فأصبحت سرية، وأغلقت المدارس الفقهية، وتوقف التدريب الرسمي للعلماء. وتجسدت هذه السياسة الدنيوية النزعة ببعض المظاهر مثل تحريم الطربوش الذي كان يقلل القدرة على الرؤية عند الطبقات المتدنية، وكان أيضاً محاولة نفسية لإجبار الناس على ارتداء الزي الغربي. فأصبح اعتماد القبعة بدلاً من الطربوش يعني السير على النمط الأوروبي. أما رضا خان شاه إيران من (١٩٢٥ حتى ١٩٤١) الذي كان معجباً بأتاتورك فقد قام بسياسة مماثلة: حوّم الحجاب، وأجبر رجال الدين على حلق لحاهم، وعلى لبس القبعة بدلاً من العمامة التراثية، ومنع الاحتفالات التقليدية بإمام الشيعة والحسين الشهيد.

لقد كان رأي فرويد الحكيم أن أي قمع للدين بالقوة سيؤدي إلى نتائج مدمرة فقط، مثله مثل الميل الجنسي، فالدين حاجة إنسانية تؤثر في الحياة على كل مستوى. فإذا مات قمع الدين فمن المحتمل أن تكون النتائج مفعرة وتدميرية مثلها مثل أي كبت جنسي شديد. فقد نظر المسلمون إلى تركيا وإيران الحديثتين بارتياح. كان في إيران تراث راسخ مسبق، كان رجال الدين فيه معارضين للشاهانوات باسم الشعب، وأحياناً كانوا يحرزون

نجاحاً غير عادي. ففي عام ١٨٧٢ عندما باع الشاه احتكار إنتاج وبيع وتصدير التبغ إلى البريطانيين وأضعا المصنعين الإيرانيين خارج العمل أصدر رجال الدين فتوى تمنع الإيرانيين من التدخين، فكان الشاه مجبراً على تقديم التنازلات. لقد أصبحت المدينة المقدسة «قم» بديلاً عن النظام الظالم الوحشي بشكل متزايد في طهران. إن قمع الدين قد يولد الأصولية، كما قد تؤدي أشكال غير ملائمة من الإيمان بوحدانية الله إلى إنكار الله. فقد أدى إغلاق مدارس الفقه في تركيا إلى انحطاط سلطة العلماء. وكان هذا يعني تراجعاً في دور العنصر الأكثر تعليماً وهدوئاً ومسؤولية في الإسلام، بينما بقيت الأشكال الأكثر إفراطاً للصوفية السرية كأشكال وحيدة من الدين.

كان مصلحون آخرون مقتنعين أن القمع بالقوة لم يكن الإجابة. فقد ازدهر الإسلام دائماً باحتكاكه بالحضارات الأخرى، وكانوا يعتقدون أن الدين أمر أساسي في أية حركة إصلاح عميقة طويلة المدى لمجتمعاتهم. هناك الكثير مما ينبغي تغييره، وكان هناك الجهل والخرافة. مع ذلك فقد ساعد الإسلام الناس أيضاً على تنمية فهم جدي: فإذا ماشيخ للإسلام أن يندو عالياً فإن الوجود الروحي السليم للمسلمين في العالم أجمع سيماني أيضاً. لم يكن المصلحون المسلمون معادين للغرب بل وجد معظمهم للثا الغربية كالمساواة والحرية والأخوة ملائمة، لأن الإسلام يشترك في القيم اليهودية - المسيحية التي كان لها تأثيراً هاماً في أوروبا والولايات المتحدة. لقد خلق تحديث المجتمع الغربي - في بعض نواحيه - نمطاً جديداً من المساواة، وأخير المصلحون شعوبهم أن هؤلاء المسيحيين بدوا يعيشون حياة إسلامية أفضل من المسلمين. كان هناك حماس كبير، وإثارة تجاه هذه المواجهة الجديدة مع أوروبا. لقد تلقى المسلمون الأغنياء العلم في أوروبا، واستوعبوا فلسفتها وأدبها ومثلها ثم عادوا إلى بلدانهم مثلهذين لنشر ماقد تعلموه في بلدانهم. ففي بداية القرن العشرين كان تقريباً كل مثقف متعلم معجباً متحمساً للغرب.

كان لدى جميع المصلحين ميولاً فكرية، ومع ذلك كانوا مرتبطين بأحد أشكال الصوفية الإسلامية. فالأشكال الأكثر تخيلية وذكاء من الصوفية، والصوفية الإشرافية قد ساعدت المسلمين في كولرث سابقة فالتجهوا نحوها من جديد. معرفة الله لم تكن تعبير معروفاً بل قوة دافعة للتحول في مستوى عميق يُسرّع الانتقال إلى الحدائث. جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٨٩) كان خبيراً في صوفية الإشراف السهروردية في ذلك الوقت، كما كان أيضاً ملانفاً متحمساً عن التحديث. فأنشاء ارتباطه في إيران وأفغانستان ومصر والهند سعى أن يكون واحداً بالنسبة للناس جميعاً. كان قادراً على تقديم نفسه سنياً للسنة، وشهيداً شيعياً للشيعه، وثورياً، وفيلسوفاً دينياً، وبرلمانياً. قواعد الصوفية الإشرافية

تساعد المسلمين على الإحساس بوحدة العالم من حولهم وعلى الدخول في تجربة تحرر خالية من الحدود التي تقي في الذات^(٢٥). لقد قيل أن لامبالاة الأفغاني وتبنيه لأدوار مختلفة كانت متأثرة بقواعد الصوفية بمفهومها الموسع للذات. كان الدين أساسياً مع أن الإصلاح كان ضرورياً. كان الأفغاني مقتنعاً مع أنه كان مؤمناً متحمساً، لكنه لم يتحدث سوى القليل عن الله في كتابه (تفنيد الماديين). كان يعرف أن الغرب يقدر العقل، ويعتبر الإسلام والشرقيين غير عقلانيين لذلك حاول الأفغاني أن يصف الإسلام كدين متميز بإيمان بالعقل لارحمة فيه. وفي الحقيقة لو قبيض حتى للمعتزلة الإطلاع على هذا الرأي لما وجدوا هذا الوصف لدينهم أمراً غريباً. كان الأفغاني من النشطاء السياسيين أكثر مما كان فيلسوفاً وبالتالي يجب ألا نقيم حياته وقناعاته من خلال هذه المحاولة الأدبية الوحيدة. مع ذلك فنصوير الإسلام بطريقة محسوبة كي يتناسب مع ما يفهم أنه مثل أعلى غربي - بين افتقاراً جديداً للثقة في العالم الإسلامي، هذا الافتقار الذي سيصبح بعد فترة قصيرة مدمراً جداً.

كان محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) تلميذ الأفغاني طريقة مختلفة. لقد قرر أن يركز نشاطاته في مصر وحدها، وعلى التربية الفكرية للمسلمين فيها. كان قد تلقى تربية إسلامية ترائية جعلته تحت تأثير المتصوف الشيخ درويش الذي لقنه أن العلم والفلسفة هما الطريقان الأكثر أماناً إلى معرفة الله. فعندما بدأ عبده الدراسة في الأزهر الشريف في القاهرة سرعان ما خيب ظنه للنهج المقرر القديم. لقد جذبه الأفغاني الذي علمه في المنطق واللاهوت والفلك والفيزياء والصوفية. شعر بعض المسيحيين في الغرب أن العلم كان عدو الإيمان لكن المتصوفين المسلمين كثيراً ما استخدموا الرياضيات والعلم كعامل مساعد للتأمل. ويدي المسلمون في بعض الطوائف الشيعية الأكثر صوفية والمتحررة مثل الدروز أو العلويين اهتماماً خاصاً بالعلم الحديث. هناك تحفظات كبيرة حيال السياسات الغربية في العالم الإسلامي، لكن قلة من المسلمين يجدون مشكلة في مصالحة إيمانهم بالله مع العلم الغربي.

كان محمد عبده متأثراً باحتكاكه بالثقافة الغربية، وكان متأثراً بكموت بشكل خاص وبوتلستوي وهيربرت سبنسر الذي كان صديقاً شخصياً له. لم يبن أسلوب حياة غربية كامل بل كان يحب زيارة أوروبا بانتظام كي يجدد نفسه فكرياً. لا يعني هذا أنه تخلى عن الإسلام بل كان بعيداً كل البعد عن ذلك. لقد أراد عبده العودة إلى جذور دينه، ولذلك دعا إلى العودة إلى روح النبي والخلفاء الراشدين. ولم تكن تستدعي دعوته هذه رفضاً أصولياً للحدائق. لقد أصر على أنه ينبغي على المسلمين أن يدرسوا العلم

والتكنولوجيا والفلسفة الدنيوية كي يتبوؤا مكانتهم في العالم الحديث. يجب إصلاح القانون الشرعي كي يمكن المسلمين من بلوغ الحرية الفكرية التي كانوا بحاجة ماسة لها. لقد حاول أن يقدم دينه كدين عقلاني قائلاً أن العقل والدين في القرآن سارا يداً بيد لأول مرة في التاريخ البشري. فقبل دعوة النبي كان الوحي محاطاً بالمعجزات والأساطير والبلاغة غير العقلانية، لكن القرآن لم يلجأ إلى هذه الأساليب البدائية. لقد وقّدم البرهان والإيضاح، وشرح وجهات نظر غير المؤمنين وندد بهم عقلياً^(٢٦). كان الهجوم الذي قاده الغزالي على الفلاسفة طرفاً، وسبب الفقرة بين التقوى والعقلانية التي أثرت على موقف العلماء الفكري، وتجلى هذا في المنهج الدراسي المقرر في الأزهر. على المسلمين أن يعودوا إلى روح القرآن العقلانية الأكثر انفتاحاً، مع ذلك أحجم عبده عن النزعة العقلانية الاختزالية كلياً. فقد استشهد بالحديث «فكروا في خلق الله لكن لا تفكروا في طبيعة الله، وإن فعلتم فإنكم هالكون». فالعقل لا يمكنه فهم الوجود الأساسي لله الذي يبقى مغلفاً بالغموض. كل ما يمكننا بلوغه هو الحقيقة التالية: الله لا يشبه أي كائن آخر. وجميع الأسطة الأخرى التي تشغل اللاهوتيين تافهة بكل بساطة، ويستبعدا القرآن على أنها زنا.

أصبح المصلح البارز في الهند السيد محمد إقبال (١٨٧٦ - ١٩٣٨) يمثل لمسلمي الهند ما كان يمثلته غاندي للهندوس. لقد كان متأملاً - متصوفاً بالأساس، وشاعر الأردية، لكن ثقافته كانت غربية، وكان حائزاً على شهادة الدكتوراه في الفلسفة. كان شديد الحماس تجاه بيرغسون ونيثشه وأ.ن. وايتهيد. وحاول أن ينشط الفلسفة على ضوء رؤاهم، معتبراً نفسه جسراً بين الشرق والغرب. ومارأه من انحطاط الإسلام في الهند ملأه غمّاً. فمعد انهيار الإمبراطورية المغولية في القرن الثامن عشر كان مسلمو الهند يشعرون أنهم في موقع زائف. كانوا يفتقرون إلى الثقة التي كانت لدى إخوانهم في الشرق الأوسط حيث كان الإسلام في موطنه. وبالتالي كانوا ميالين للدفاع، وغير آمنين أمام البريطانيين. حاول إقبال علاج قلق شعبه عن طريق إعادة بناء إبداعية للمبادئ الإسلامية عبر الشعر والفلسفة.

تشرّب إقبال من هؤلاء الفلاسفة الغربيين مثل نيثشه أهمية النزعة الفردية. فقد أعاد الكون كله تقديم مطلق كان أعلى شكل للتفرد، أسماه الناس الله. فكي يحقق البشر طبيعتهم الفريدة يجب أن يصبحوا أكثر شياً بالله. كان ذلك يعني أن يصبح كل إنسان أكثر تفرداً وإبداعية، يجب أن يعبر عن إبداعه في العمل. يجب التخلي عن السلبية والتواضع الجم (الذين يرجعهما إقبال إلى التأثير الفارسي). يجب أن يشجعهم المبدأ

الإسلامي «الاجتهاد» على الانفتاح على الأفكار الجديدة: فالقرآن نفسه يأمر بمراجعة مستمرة وقصص للذات. وقد حاول إقبال - مثل سابقه، عبده والأفغاني إيضاح أن الموقف التجريبي الذي كان المفتاح إلى التقدم كان إسلامي المنشأ، وتم نقله إلى الغرب عبر العلوم والرياضيات الإسلامية خلال العصور الوسطى. قبل وصول أديان الإقرار العظيمة خلال العصر المحوري كان تقدم البشرية مصادفة، ومعتمداً على أفراد موهوبين وملهمين. فنبوة محمد كانت ذروة هذه المساعي الحديثة، وجعلت أي ظهور آخر غير ضروري، فمن هنا فصاعداً أصبح بإمكان الناس الاعتماد على العقل والعلم.

لسوء الحظ أصبحت النزعة الفردية شكلاً جديداً من الوثنية في الغرب لأنها أصبحت غاية بحد ذاتها. فقد نسي الناس أن كل فردية حقة كانت مستمدة من الله. فبالإمكان استخدام عبقرية الفرد في تأثير خطير إذا مترك لها العنان بشكل مطلق. لقد كان جيل من الخارقين الذين اعتبروا أنفسهم آلهة - كما صورههم لبيتشه ظاهرة مخيفة: كان الناس بحاجة إلى معيار يتجاوز رغبات ومفاهيم اللحظة. كانت رسالة الإسلام إعلاء الطبيعة الفردية الحققة ضد الفساد الغربي للمثل الأعلى. كان لديهم مثلهم الأعلى الصوفي «الإنسان الكامل» غاية الخلق والهدف من وجوده. فالإنسان الكامل مختلف عن الإنسان الخارق الذي رأى نفسه فوق الرعايا فضلاً عن كراهيته لهم. بينما يتسم الإنسان الكامل بانفتاحه الكامل على المطلق وحمله الجماهير الناس معه. فحالة العلم الراهنة كانت تعني أن التقدم اعتمد على مواهب النخبة الذين يستطيعون أن يروا ما وراء الحاضر ويدفعوا البشرية إلى الأمام، إلى المستقبل. وفي النهاية سيحقق كل امرئ تفرده الكامل في الله. كانت نظرة إقبال في دور الإسلام مجتزأة لأنها كانت أكثر تمقيداً من المحاولات الغربية الراهنة للدفاع عن المسيحية على حساب الإسلام. فهفواته حول المثل الأعلى للإنسان الخارق يروتها تماماً أحداث وقعت في ألمانيا خلال السنوات الأخيرة من حياته.

في هذه الأثناء لم يعد العرب المسلمون في الشرق الأوسط والقوقاز كثيراً من مقدراتهم على احتواء التهديد الغربي. فسنة ١٩٢٠ التي سارت فيها بريطانيا وفرنسا إلى الشرق الأوسط أصبحت تعرف بهام النكبة ولهذه الكلمة مضامين كارثة كونية. كان العرب يأملون بالاستقلال بعد انهيار الامبراطورية العثمانية. فبعد السيطرة الجديدة بدأ لهم أنهم لم يتسلموا زمام أمورهم وسرت إشاعة بأن البريطانيين ينوون تسليم فلسطين إلى الصهاينة، وكان السكان العرب غير موجودين: كان الإحساس بالذل والعار حاداً، فقد أشار العلامة الكندي ولغرد كانتيل سميت أن هذا الإحساس قد فاقمه ذكرى ماضيهم

العظيم: «في الهوة بين العربي المعاصر والأمريكي المعاصر على سبيل المثال هناك مسألة غاية في الأهمية وهي: الفارق الكبير بين مجتمع لديه ذكرى عن ماضٍ عظيم، والإحساس بعظمة راهنة»^(٢٧). كان لهذا معانٍ دينية حاسمة. فالمسيحية هي دين معاناة وعداوة، في الغرب على الأقل، كان ذلك أكثر مصداقية في الأوقات العصيبة: فليس سهلاً إحاطة عظمة دنيوية بصورة المسيح مصلوباً. فالإسلام على أية حال هو دين نجاح. فقد نادى القرآن بمجتمع يعيش وفقاً لإرادة الله (مرسخاً العدل، والمساواة، وتوزيع عادل للثروة)، لا يمكن أن يفشل. وبدا أن التاريخ الإسلامي يؤكد هذا. فمحمد ليس على شاكلة المسيح - لم يكن فشلاً ظاهراً بل على العكس من ذلك كان نجاحاً مبهرًا. فإنجازاته يؤكدان التقدم الذي كان ظاهرة في الإمبراطورية الإسلامية خلال القرنين السابع والثامن. فكان طبيعياً أن يعزز هذا إيمان المسلمين بالله: اتضح أن الله فعال جداً، وقد وفى بكلمته في حلبة التاريخ، فاستمر النجاح الإسلامي. فبعد القرون اكتسبت الأمة أهمية مقدسة، وقد كشفت عن حضور الله. أما الآن فقد بدا أن خطأ ما فادحاً قد حدث للتاريخ الإسلامي، وأثر هذا على فهمهم لله. فمن تلك الفترة فصاعداً سيركز مسلمون كثر على إعادة التاريخ الإسلامي إلى مساره، وعلى جعل الرؤية القرآنية فعالة في العالم.

تفاهم الإحساس بالعالم عندما كشفت معرفة أكثر دقة بأوروبا عن عمق الكراهية الغربية للتيب ودينه. كان العالم الإسلامي مكرساً للدفاع عن العقائد الإسلامية أو عن الحلم بالانتصار الماضي كخميرة خطيرة. لم يعد الله مسرحاً مركزياً. ويتبع كاستويل سميت هذه السيرة في تقصي دقيق للمجلة المصرية (الأزهر) من عام ١٩٣٠ - ١٩٤٨. خلال تلك الفترة كان للمجلة محرران ورئيسها الحاضر حسين من عام ١٩٣٠ - ١٩٣٣ رجل تراثي من أفضل نوع. كان يرى دينه فكرة متسامية أكثر مما يراه هوية تاريخية وسياسية. كان الإسلام ملزماً بالدعوة لعمل مستقبلي أكثر منه واقعاً قد تحقق تماماً. فما دام من الصعب دائماً - بل مستحيلًا - حتى تجسيد المثل الأعلى الإلهي في حياة البشر، لم يكن حسين يأساً من إخفاقات الأمة في الماضي أو الحاضر.

كان لديه ثقة كافية كي ينتقد سلوك المسلم، وكلمات مثل «ينبغي» و«يجب» موجودة في جميع أعداد المجلة طيلة مدة رئاسته لها. مع ذلك كان واضحاً أن حسين لم يستطع أن يتخيل محنة إنسان كان يريد أن يؤمن لكنه وجد أنه ليس في وسعه فعل ذلك: فوجود الله أمر بدهي. في عدد مبكر كتب يوسف الدجيني مقالة لخصت الجدل اللاهوتي القديم حول الله، ويشير سميت إلى أن أسلوب المقالة كان بالأساس تبجيلياً ويعبر عن استحسان كبير الجمال وعظمة الطبيعة التي كانت تكشف عن حضور الله. لقد كان

الدجيني مؤمناً بوجود الله دون شك فمقالاته تأمل أكثر منها شرح منطقي لوجود الله. ولم يكن مهتماً أبداً بنسف العلماء الغربيين لهذا البرهان كله، وبالتالي كان موقفه خارج سياق عصره. لقد هبط توزيع المجلة.

عندما تسلّم فريد وجدي المجلة في عام ١٩٣٣ تضاعف عدد القراء. كان اهتمامه الرئيسي هو أن يؤكد لقراءه أن الإسلام كان على مايرام. لم يكن ليخطر ببال حسين أن الإسلام - فكرة متسامية في عقل الله - قد يحتاج إلى المساعدة من حين لآخر، لكن وجدي رأى الإسلام مؤسسة إنسانية معرضة للخطر. الحاجة الأساسية هي التبرير، الإعجاب، الإطراء. وكما يبين سميت ثمة نزعة لادينية عميقة في عمل وجدي. فقد جادل على شاكلة سابقه أن الغرب كان يعلم ما اكتشفه الإسلام فقط قبل قرون خلت. لكنه اختلف مع سابقه في قلة إشاراته إلى الله. كان واقع الإسلام البشري هو مركز اهتمامه: والقيمة الدنيوية هذه قد حلت بمعنى ما محل الإله المتعالي. يختتم سميت حديثه قائلاً:

المسلم حقاً ليس امرؤ يؤمن بالإسلام - بخاصة الإسلام في التاريخ، لكنه المسلم الذي يؤمن بالله ويلتزم بالوحي الذي جاء به نبيه. فالأمر الثاني يلقي إعجاباً كافياً. لكن الالتزام مفقود ونادراً ما يظهر الله بشكل ملحوظ خلال هذه الصفحات^(٢٨).

بدلاً من ذلك هناك عدم استقرار وغياب لتقدير الذات: لقد أصبح رأي الغرب مهماً بشكل قاتل. فأناس مثل حسين قد فهموا الدين ومركزية الله لكنهم كانوا يفتقدون الصلة بالعالم الحديث. والناس الذين كانوا على احتكاك بالحدث قد فقدوا الإحساس بالله. من عدم الاستقرار هذا ينبع النشاط السياسي الذي يَيسم الأصولية الحديثة التي هي أيضاً في حالة تراجع عن الله.

لقد تأثر يهود أوروبا أيضاً بتقدي معادٍ لدينهم. ففي ألمانيا طور فلاسفة يهود مأسوموه «علم اليهودية» الذي أعاد كتابة التاريخ اليهودي بمفردات هيفيلية كي يواجه التهمة بأن اليهودية كانت دين تفريب عبودي. أول من حاول إعادة تفسير تاريخ إسرائيل هو سليمان فورمستشر (١٨٠٨ - ١٨٨٩) في كتابه (دين الروح) ١٨٤١ فقد وصف الله كروح عالية متأصلة في كل شيء. هذه الروح لم تكن تعتمد على العالم كما قال هيفيل. أصر فورمستشر على أنها تقع في منأى عن العقل، مستنداً بذلك على الفارق القديم بين جوهر الله وقدراته. فحيث شجب هيفيل استخدام اللغة التمثيلية قال فورمستشر أن الرمزية هي

الوسيلة المناسبة الوحيدة للوصول إلى فهم متقدم للمقدس، وأنها تبين تقريباً للعالم بأكمله كيف كان شكل الدين الروحي الحق.

قال فورمستشر إن الدين الوثني البدائي قد مائل الله بالطبيعة. وهذه الفترة العفوية اللاعقلانية صورت طفولة الجنس البشري. وعندما حقق البشر درجة أعلى من وعي للذات أصبحوا مستعدين للتقدم إلى فكرة ألوهة أكثر تعقيداً. لقد بدأوا يدركون أن هذا الله أو الروح لم يكن محتوى في الطبيعة بل كان موجوداً فوقها وخارجها. الأنبياء الذين توصلوا إلى هذا التصور الجديد للإله بشروا بدين أخلاقي. في البداية اعتقدوا أن إلهائهم قد أتت من قوة خارج ذواتهم لكنهم فهموا تدريجياً أنهم لم يكونوا متكلمين على إله خارجي كلياً، بل كانوا يستمدون إلهامهم من طبيعتهم الممتلئة بالروح. وبذلك كان اليهود أول شعب حاز هذا التصور الأخلاقي لله. فسنوات النفي الطويلة وفقدان الهيكل منعهم من الاتكال على دعائم وضوابط خارجية. وهكذا تقدموا إلى نمط أعلى من الوعي الديني مكتمل من مقارنة الله بحرية. لم يتواكلوا على فساوسة متأملين، ولم تدجنهم شريعة غريبة كما زعم كانط وهيجل. لقد تعلموا بدلاً من ذلك أن يجدوا الله من خلال عقولهم وفردتهم. حاولت المسيحية والإسلام محاكاة اليهودية لكنهما لم يحزرا سوى نجاح أقل. فالمسيحية على سبيل المثال احتفظت بعناصر وثنية عديدة في تصويرها لله. أما وقد تم تحرير اليهود فقد أحرزوا تحرراً تاماً، وعليهم الاستعداد لهذه المرحلة النهائية من تطورهم بأن يضعوا جانباً القوانين الطقسية التي كانت عائقاً منذ مرحلة مبكرة، المرحلة الأقل تطوراً في تاريخهم.

كان أنصار «علم اليهودية» مثل المصلحين المسلمين متلهفين لتقديم دينهم كدين عقلائي كلياً. كانوا متلهفين - تحديداً - للتخلص من القبالة التي أصبحت مصدر إزعاج لهم منذ إخفاق شبثاي زيفي ونهوض الهاسيدية Hasidism. بعد ذلك أقدم صموئيل هيريش الذي نشر (فلسفة اليهود الدينية) ١٨٤٢، على كتابة تاريخ لإسرائيل تجاهل البعد الصوفي في اليهودية، وقدم تاريخاً عقلائياً أخلاقياً لله، ركز على فكرة الحرية. تميز الكائن البشري بالمقدرة على قول كلمة «أنا». مثَّل هذا الوعي الذاتي حرية شخصية تبعده عن التغريب. كان الدين الوثني غير قادر على رعاية هذه الاستقلالية. في المراحل الأولى من التطور البشري كانت تأتي نعمة وعي الذات من فوق على مايلو. لقد حدد الوثنيون مصدر حريتهم الشخصية مع الطبيعة، وكانوا يعتقدون أنه لا سبيل إلى تجنب بعض عيوبهم. رفض إبراهيم هذه القدرة والاتكالية الوثنيين. وقف وحيداً في حضرة الله في حالة سيطرة تامة على ذاته. إنسان كهذا سوف يجد الله في جانب من جوانب الحياة. قاله - سيد الكون -

قد رتب العالم كي يساعدنا على تحقيق هذه الحرية الداخلية، ولايجري تلقين الفرد هذه الغاية من قبل أي فرد آخر بل من الله نفسه. فاليهودية لم تكن دين العبودية الذي تخيله غير اليهود. لقد كان دوماً ديناً متقدماً على المسيحية التي أدارت ظهرها إلى جذورها اليهودية وارتدت إلى لاعقلانية وخرافات الوثنيين.

ناخمان كروخمال (١٧٨٥ - ١٨٤٠) الذي نشر كتابه (دليل الحيارى في عصرنا) ١٨٤١ لم يرد عن الصوفية مثلما فعل زملاؤه. فقد كان يحب أن يسمى الله أو الروح «لاشيء» Nothing، مثل القبايلين واستخدام صورة الفيض - كما استخدمها القبايلون كي يصف إظهار الله لذاته. وزعم أن إنجازات اليهود لم تكن نتيجة اتكال مذل على الله بل نتيجة لفعاليات الوعي الجمعي. وقد شذب اليهود تدريجياً مفهومهم لله عبر القرون. وهكذا كان على الله في وقت الخروج أن يكشف عن حضوره في معجزات. وفي عصر العودة من بابل أحرز اليهود تصوراً أكثر تطوراً لله وآياته وأعاجيبه لم تعد ضرورية. فالتصور اليهودي لعبادة الله لم تكن اتكالية عبودية كما تخيلها الغويم بل كانت مطابقة تماماً للمثل الأعلى الفلسفي. فقد أشار هيجل إلى الفارق الوحيد بين الدين والفلسفة: فالفلسفة قد عبرت عن نفسها في مفاهيم بينما استخدم الدين لغة تمثيلية. فكان هذا النوع من اللغة الرمزية مناسباً لأن الله يتجاوز جميع مفاهيمنا عنه. وفي حقيقة الأمر لايمكننا حتى القول أنه يوجد لأن معرفتنا للوجود مجردة جداً ومحدودة.

تلقت الثقة الجديدة التي جلبها التحرر صفعة قاسية باندلاع عداء أتم للسامية في روسيا وأوروبا الشرقية في عهد القيصر نيقولا الثاني عام ١٨٨١ ، وامتد هذا العداء إلى أوروبا. ففي فرنسا - أول بلد حرر اليهود - حدث سعار هستيري معاد للسامية عندما حكم على الضابط اليهودي ألفرد دريفوس بالخيانة عام ١٨٩٥ . وفي السنة ذاتها انتخب كارل لوفير المعادي البارز للسامية عمدة لمدينة فيينا. وتخيل اليهود أنهم كانوا آمنين قبل استلام هتلر للسلطة في ألمانيا. ولذلك بدا هيومن كوهن ١٨٤٢ - ١٩١٨ منشغلاً بالعداء المتنافستي للسامية عند كانط وهيجل، وكان مهتماً - قبل كل شيء - بالتهمة الموجهة إلى اليهودية بأنها دين عبودية. أنكر كوهن أن الله كان وجوداً خارجياً يفرض الطاعة من عليائه. فالله - بكل بساطة - كان فكرة شكلها العقل البشري، رمز لمثل أعلى أخلاقي. كما ناقش القصة التراثية للعليقة المشتعلة عندما عوف الله عن ذاته لموسى «أنا أكون ماأكون». قال كوهن أن هذا كان تبصيراً بدائياً عن الحقيقة بأن ماتسميه الله هو بكل بساطة الكينونة ذاتها. إنه متميز تماماً عن الكائنات التي نعرفها، ويمكننا أن نشارك فقط في وجوده الأساسي. وقد أصر كوهن في كتابه (دين العقل مستملاً من مصادر اليهودية) ١٩١٩

على أن الله كان فكرة بشرية. مع ذلك فقد توصل إلى تقبيل الدور العاطفي للدين في حياة البشر. فلا يمكن لجرد فكرة أخلاقية - مثل الله - أن تعزينا. فالدين يعلمنا أن نحب جارنا، ولذلك بالإمكان القول أن إله ديننا المناقض لإله الأخلاق والفلسفة كان ذلك الحب الفعال.

لقد تطورت هذه الأفكار على يد فرايزر وروستيفيغ (١٨٨٦ - ١٩٢٩) الذي طور تصوراً مختلفاً كلياً لليهودية ميزه عن كل معاصريه. فهو لم يكن الوجودي الأول فحسب بل صاغ أيضاً أفكاراً كانت قريبة من الأديان الشرقية. بالإمكان تفسير استقلاله لأنه ترك اليهودية شاباً كي يصبح لاأدرياً. ثم فكر باعتناق المسيحية قبل أن يرجع إلى اليهودية الأرثوذكسية في آخر المطاف. لقد أنكر متحمساً أن الالتزام بالتوراة كان يشجع على اتكالية عبودية مذلة على إله طاغية. فالدين لم يكن حول الأخلاقية فقط بل كان أساساً لقاء مع الله. كيف كان ممكناً لكائنات بشرية أن تلاقي الله المتعالي؟ هذا مالا يخبرنا به روستيفيغ أبداً فشكل هذا ضعفاً في فلسفته. لم يثق بمحاولة هيفل لدمج الروح Spirit بالإنسان والطبيعة. فإذا كنا نرى وعينا البشري كجانب من الروح العالمية فإننا لم نعد أفراداً حقاً. وكوجودي صادق أكد روستيفيغ على العزلة المطلقة لكل كائن بشري. كل واحد منا وحيد، ضائع ويشعر بالعرب في زحام البشرية الهائل. فعندما يعود الله إلينا عندها فقط يتم خلاصنا من هذا الخوف والمجهول. قاله لا يقلل من فرديتنا بل يمكننا من تحقيق وعي ذاتي تام.

محال بالنسبة لنا أن نلاقي الله في أي شكل تجسدي، فإله هو سبب الوجود ومرتبطة بوجودنا نحن لدرجة أننا ليس بإمكاننا أن نتحدث إليه وكأنه مجرد شخص آخر مثل أنفسنا، فلا وجود لكلمات أو أفكار تصف الله. بدلاً من ذلك يتم اختصار الهوية القائمة بين الله والبشر بوصايا التوراة. فهذه ليست قوانين تحريرية كما يتفيلها الغويجم بل أسرار، أفعال رمزية تشير إلى ماهو خارج نفسها، وتعرف اليهود على البعد الإلهي الكامن في وجود كل منا. لقد جادل - كما جادل الأحيار - أن الوصايا رمزية بكل جلاء لأنها في أغلب الأحيان لا معنى لها بعد ذاتها، إنها تقودنا خارج محدودية كلماتنا وتصوراتنا للكيان ذاته الذي لا سبيل إلى وصفه، إنها تساعدنا على تنمية الاستماع والانتظار بحيث نتوازن ونكون متبهيئين إلى خلفية وجودنا. فالوصايا لا تعمل عملها آلياً بل يجب أن يواظمها الفرد بحيث لا تصبح أمراً خارجياً بل تعبيراً عن موقف داخلي، عن ضرورة داخلية: فعلى الرغم من أن التوراة هي ممارسة دينية يهودية تحديداً، فإن الكشف لم يقتصر على شعب

إسرائيل وحده. إنه سيقابل الله في الإشارات الرمزية التي كانت يهودية تراثياً، لكن المسيحي يستخدم إشارات مختلفة. فالمعتقدات عن الله لم تكن أساساً أقوالاً إقرارية بل رموزاً لمواقف داخلية. فمعتقد الخلق والكشف على سبيل المثال لم يكونا عرضاً حرفياً لأحداث حقيقية في حياة الله والعالم. لقد عبرت أساطير الكشف عن معرفتنا الشخصية بالله. ورمزت أساطير الخلق مصادفة مطلقة لوجودنا الإنساني، المعرفة المبعثرة لانتكالتنا الكاملة على خلفية وجودنا التي جعلت ذلك الوجود ممكناً. فالله كخالق ليس مهتماً بمخلوقاته حتى يكشف ذاته لكل من، لكن إذا لم يكن هذا الخالق فإن خلفية الوجود كله والتجربة الدينية برمتها لن يكون لهما معنى للبشرية كلها. ستبقى هناك سلسلة أحداث استثنائية. رؤية روسينغف للدين جعلته متشككاً حيال اليهودية السياسية الجديدة التي كانت تظهر كرد فعل على العداء للسامية الجديدة. فجادل أن إسرائيل قد أصبحت شعباً في مصر لافي أرض الميعاد، وأنها سوف تنجز قدرها كأمة أبدية إذا ما شدت روابطها بالعالم الدنيوي، وإذا لم تتورط في السياسة.

لكن اليهود الذين سقطوا ضحايا العداء المتزايد للسامية لم يشعروا أنهم قادرين على فك ارتباطهم السياسي. لم يستطيعوا الجلوس بانتظار المسيح المنتظر أو الله كي ينقذهم بل عليهم أن يخلصوا شعبهم بأنفسهم. في عام ١٨٨٢ أي في السنة التي تلت المذبحة المنظمة في روسيا غادرت مجموعة من اليهود أوروبا الشرقية كي تستقر في فلسطين. كانوا مقتنعين أن اليهود سوف يظلمون بشراً مغربين وناقصين حتى تكون لهم بلاد خاصة بهم. فقد حرك الحنين إلى العودة إلى صهيون (الاسم القديم لأورشليم) حركة دنيوية متحدة لأن تقلبات التاريخ أقنعت الصهاينة أن دينهم والهمهم لم يجديا نفعاً. كانت الصهيونية في روسيا وأوروبا الشرقية فرعاً من الاشتراكية الثورية التي كانت تضع نظريات كارل ماركس موضع التطبيق. لقد أصبح الثوريون اليهود مدركين أن رفاقهم كانوا معادين للسامية مثل عداء القيصرو، وكانوا يخافون من عدم تحسن مصيرهم في نظام شيوعي، وقد برهنت الأحداث أنهم كانوا على صواب. وهكذا حزم اشتراكيون شبان متحمسون - مثل ديفيد بن غوريون (١٨٨٦ - ١٩٧٣) - حقائبهم وأبحروا إلى فلسطين مصممين على خلق مجتمع نموذجي حي سيكون منارة لغير اليهود، ويحقق الاشتراكية الرخية. لم يكن لدى الآخرين وقت يقضوه مع هذه الأحلام الماركسية فقد رأى الفاتن النموسي تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) المغامرة اليهودية الجديدة كمشروع استعماري تحت جناح واحدة من القوى الإمبريالية الأوروبية وأن الدولة اليهودية ستكون رائدة التقدم في الصحراء الإسلامية.

على الرغم من دنيويتها المعلنة فقد عبرت الصهيونية عن نفسها غريزياً بمفردات دينية تقليدية، فكانت بالأساس ديناً لإله له. كانت مليئة بآمال صوفية، ونشوية بالمستقبل، في موضوعات قديمة بالخالص، والحج، والبعث. كما تبنى الصهاينة عادة إعطاء أنفسهم أسماء جديدة كدليل على الذات المخلصة. وهكذا أسمى أشير غينسبيرغ - أحد المروجين الأوائل للصهيونية - نفسه أحد حام (أي واحد من الشعب) وبذلك أصبح ماهو عليه، لأنه عرف نفسه بالروح القومية الجديدة على الرغم من أنه لم يكن يعتقد أن إقامة دولة يهودية في فلسطين كان عملياً أمراً ممكناً - كان يريد مركزاً روحياً هناك فقط ليحل محل الله كبادرة تركيز وحيدة لشعب إسرائيل، وبالتالي يصبح المركز «موجهاً لجميع شؤون الحياة» وأن يصل «إلى أعماق القلب» وأن يتصل مع كل مشاعر المرء. لقد عكس الصهاينة التوجه الديني القديم. فبدلاً من التوجه نحو إله متعال سعى اليهود إلى إنجاز هنا على الأرض. فالكلمة العبرية Hagshamah (تعني حرفياً حقق ماديًا)، وكانت كلمة سلبية في الفلسفة اليهودية القروسطية، مثيرة إلى نسب خصائص مادية بشرية إلى الله. فأصبحت في الصهيونية تعني إنجازاً، تجسيداً لآمل لإسرائيل في العالم الدنيوي. فالقداسة لم تعد ثابتة في السماء: فلسطين كانت أرضاً مقدسة في أكمل معنى تحملها الكلمة.

كيف كان بالإمكان أن نرى الكتابات الأولى للرائد الأول آرون. ب. غوردون (d ١٩٢٢) مقدسة هذا الذي كان يهودياً متعصباً وقبائلياً حتى سن السابعة والأربعين عندما تحول إلى الصهيونية. رجل ضعيف البنية عليل الصحة أبيض اللحية والشعر، عمل مع المستوطنين الأصغر سناً، يقفز معهم ليلاً منتشياً وهو يصبح «البهجة البهجة». لقد كتب في أوقات عصيبة تجربة لثم الشمل مع أرض إسرائيل فكان ظهوراً للملكوت. لقد أصبحت الأرض المقدسة قيمة مقدسة، لها قوة روحية يشعر بها اليهود وحدهم، وقد خلق هذا الإحساس الروح اليهودية الفريدة. وعندما وصف هذه القدسية استخدم كلمات قبالية كانت تطلق فقط على مملكة الله الغامضة:

روح اليهودي هي نتاج البيئة الطبيعية لأرض إسرائيل. الوضوح، والعمق في سماء صافية لامتناهية. منظر شفاف. ضباب من الطهر. حتى الإلهي المجهول يبدو متلاشياً في هذا الصفاء. منزلقاً من نور ظاهر مخلود في النور الخفي المتناهي. فسكان هذا العالم لا يفهمون هذا للنظر الشفاف ولا هذا المجهول المضيء في الروح اليهودية^(٢٩).

في البداية كان هذا المشهد الطبيعي الشرق أوسطي مختلفاً تماماً عن روسيا أرض أبيه الطبيعية، لدرجة أن غوردون وجد المنظر مخيفاً وغريباً. لكنه أدرك أن بإمكانه أن

يجعله ملكاً له من خلال العمل. فعن طريق العمل في الأرض التي زعم الصهاينة أنها كانت مهملّة يذلّها اليهود لأنفسهم، وفي الوقت ذاته يخلصون أنفسهم من اغتراب المنفى.

أطلق الصهاينة الإشتراكيون على حركتهم الريادية اسم «فتح العمل» Conquest of Labour، فأصبحت الكيبوتسات أبرشيات دنيوية يعيشون فيها جماعياً يشقون طريق خلاصهم. وقد أدت حرائثهم للأرض إلى تجربة صوفية للولادة الجديدة والحب الكوني كما صبر غوردون:

لقد أصبحت فيه يداي محتادتان على العمل، وعيناي وأذناي تعلمتا أن
تريا وتسمعاً، وقلبي أن يفهم مافي الأرض. وتعلمت روحي أيضاً صعود
الצלّال، وأن أعلو وأخلق، أن تنتشر على المساحات الشاسعة التي لم
تعرفها، أن تعانق كل الأرض من حولها، والعالم بكل مافيها، وأن ترى
نفسها محتضنة بين ذراعي الكون كله^(٣٠).

كان عملهم صلاة دنيوية. ففي نحو عام ١٩٢٧ كان الرائد الأصغر سنّاً العلامة
أفرايم ثلونسكي (١٩٠٠ - ١٩٧٣) الذي عمل في رصف الطرق كتب هذه القصيدة إلى
أرض إسرائيل:

ألبسني أيتها الأم الطيبة مئزراً بهياً زاهي الألوان
وقوديني عند الفجر إلى عملي
فأرضي يلفها النور وكأنه شال صلاة
والمنازل تملو شامخة كمناديل الرأس
والصخور مسواة باليد تتدلق متساقطة كأوراق النبات.
فهنا تردد المدبجة الحبيبة صلاة الصبح إلى مخالقيها
وبين الخاتلين ابنك أفرايم
منشد يشيد الطرق في إسرائيل^(٣١).

فالمسيحيون لم يعد بحاجة إلى الله فهو نفسه الخالق.

احتفظ صهاينة آخرون بولاء أكثر للتقاليد. فالتبالي إبراهيم اسحق كوك (١٨٦٥ -
١٩٣٥) الذي خدم ككبير الأخبار عند اليهودية الفلسطينية كان قليل الاحتكاك بالعالم
غير اليهودي قبل وصوله إلى أرض إسرائيل، أكد أنه طالما أن مفهوم خدمة الله كان محدداً
كخدمة كائن محدد معزول عن مثل وواجبات الدين فإنه لن يكون «متحرراً من النظرة غير
الناضجة التي تتركز دائماً في كائنات محددة»^(٣٢). فإله لم يكن وجوداً آخر: إله خفي

متعالٍ على جميع التصورات البشرية كالتشخيص. فصنمية أن نفكر بالله ككيان محدد، دليل على عقلية بدائية. كان كوك متعمقاً في التراث اليهودي لكنه لم يكن بالأسأ من الإيديولوجيا الصهيونية. صحيح أن العمال كانوا يعتقدون أنهم قد نفضوا الدين عنهم، لكن الصهيونية الملحة كانت مجرد وجه واحد فقط. كان الله يعمل من داخل الزّوَاد: الجنوة الإلهية كانت مختزنة في غلالات الظلام، وكانوا ينتظرون الخلاص، كان اليهود في جوهرهم غير منفصلين عن الله سواء اعتقدوا ذلك أم لا، وكانوا ينفذون خطة الله دون أن يدركوا ذلك فخلال سنوات المنفى فارق الروح القدس شعبه، وخبأوا الملكوت بعيداً في الكنس وقاعات الدراسة لكن إسرائيل سوف تصبح المركز الروحي للعالم فتكشف عن المفهوم الحقيقي لله لتغير اليهود.

هذا النوع من الروحانية قد يكون خطيراً، فقد يؤدي الولاء للأرض المقدسة إلى صنمية أصولية يهودية في أيماننا هذه. فالخضوع للإسلام التاريخي قدسهم في نزعة أصولية مماثلة في العالم الإسلامي. فاليهود والمسلمون كانوا يسمعون كي يجدوا معنى في عالم مظلم «فبدا أن إله التاريخ قد خيب أملهم». وكان الصهاينة على حق في خوفهم من زوال شبيهم نهائياً. كانت الفكرة التقليدية لله مستحيلة بعد الهولوكست بالنسبة ليهود كثيرين. فالقائز بجائزة نوبل وإيليا ويژل قد عاش من أجل الله في طفولته في هنفاريا، وقد تشكلت حياته وفق قواعد الطموء، وكان لديه أمل أن يتم إدخاله إلى أسرار القبالة. فعندما كان صبيّاً تم نقله إلى أوشفيتز ولاحقاً إلى بوخنفالد. بقي طيلة ليلته الأولى في معسكر الموت مراتباً الدخان الأسود يتصاعد إلى السماء من المحرقة التي رمي فيها جسداً أمه وأخته. عرف أن ألسنة النيران قد أتت على إيمانه إلى الأبد. لقد كان في عالم هو المعادل الموضوعي للعالم الذي لا إله له الذي تخيله نيتشه. كتب ويژل لاحقاً «ينبغي ألا أنسى أبداً ذلك الصمت، الليل الذي استلطني وإلى الأبد الرغبة في أن أعيش»، «لن أنسى أبداً هذه اللحظات التي قتلت إلهي وروحي وحولت أحلامي إلى غبار»^(٣٣).

ذات يوم شق القستابو طفلاً. حتى جهاز القستابو تضابق من منظر شق صبي أمام آلاف المشاهدين. يستحضر ويژل صورة الصبي: كان وجه ملاك يملأ الحزن عينيه. كان صامتاً شاحباً وهادئاً عندما كان يصعد إلى المشنقة. سأل أحد السجناء (كان واقفاً خلف ويژل): «أين الله؟ أين هو؟ مرت نصف ساعة حتى مات الطفل. أجبر السجناء على النظر إليه وجهاً لوجه. سأل الرجل ثانية: «أين الله؟» فسمع ويژل صوتاً من داخله يجيب: «أين هو؟.. هاهو هنا... إنه معلق هنا على هذه المشنقة»^(٣٤).

قال دسوقي فسكي إن موت طفل واحد يجعل الله غير مقبول، لكن حتى هو - الذي ليس بغريب عن اللاإنسانية - لم يتخيل موت طفل في ظروف كهذه. فالرعب في معتقل أوشفيتز يمثل تحدياً صارخاً لكثير من الأفكار التقليدية حول الله. فإنه الفلاسفة البعيد مفقود في لامبالاة متعالية، يصبح لا يطاق. يهود كثيرون لم يعودوا يلتزمون بفكرة الله التوراتية الذي يظهر نفسه في التاريخ، فهؤلاء يقولون مع ويزل أن الله قد مات في معتقل أوشفيتز. إن فكرة إله شخصي - مثلنا لكنه أضخم - مملوءة بالصعوبات فلو كان الله هذا كلي القدرة لكان بإمكانه منع الهولوكوست، وإذا كان غير قادر على إيقافه فإنه عاجز ولا فائدة منه. وإذا كان بإمكانه إيقافه ولم يفعل فإنه وحش. فاليهود ليسوا الشعب الوحيد الذي يعتقد أن الهولوكوست قد وضع نهاية اللاهوت التقليدي.

مع ذلك صحيح أن بعض اليهود في معتقل أوشفيتز استمروا في دراسة التلمود وبممارسة الاحتفالات التراثية ليس لأنهم كانوا يأملون أن الله سوف ينقذهم بل لأن ذلك كان ذا معنى بالنسبة لهم. فذات يوم حاکمت مجموعة من اليهود الله، واتهمته بالوحشية والخيانة. لكنهم لم يجدوا عزاء - مثل أيوب - في الإجابات المعتادة على مشكلة القهر والمعاناة في وسط هذه القلادة. لم يكن يوسعهم أن يلتمسوا له علماً في ظروف غير عادية، ولذلك فقد وجدوه مذنباً، ومن المفترض أنه يستحق الموت. نطق الحير الحكم ثم نظر إلى أعلى وقال إن المحاكمة قد انتهت: حان وقت صلاة المساء.

الفصل الحادي عشر

الله والمستقبل

يبدو أن العالم الذي نعرفه يمضي إلى غير رجعة ونحن نقرب من نهاية الألف الثانية. فقد عشنا عقوداً عديدة - ونحن نعرف أننا قد ابتكرنا أسلحة بإمكانها أن تمسح الحياة البشرية عن سطح هذا الكوكب. لقد انتهت الحرب الباردة، لكن النظام العالمي الجديد يبدو مخيفاً بل درجة لا تقل عن العالم القديم. فنحن نواجه كارثة بيئية، ويهدد فيروس الإنفلونزا بأن يصبح وباء يصعب السيطرة عليه. وخلال جيلين أو ثلاثة سيصبح عدد سكان الأرض أكبر من قدرتها على الاستيعاب. فالآلاف يموتون من المجاعة والقحط، وشمرت أجيال قبلنا أن نهاية العالم وشيكة، مع هذا كله يبدو أننا نواجه مستقبلاً لا يمكن تصوره. فكيف نستصمد فكرة الله في السنوات القادمة؟ في الماضي كانت تُعدّل باستمرار كي تلبي متطلبات الزمن الراهن، ويتزايد عدد الذين يجعلونها غير عملية، وعندما لا تعود الأفكار الدينية فعالة فإنها تخبو وتلاشى. فمن المحتمل أن الله هو حقاً فكرة من الماضي. ويشير العلامة الأمريكي بيتر بيرغر إلى وجود معيار مزدوج في أغلب الأحيان عندما نقارن الماضي بحاضرنا. فبينما نحلل الماضي ونجعله نسبياً يبقى الحاضر منيعاً من هذه العملية ليصبح وضعنا الراهن مطلقاً. وهكذا فإننا نرى «كتاب العهد الجديد مبتلين بوعي زائف يضرب جذوره في أعماق زمنهم، بينما يعتبر المحلل وعي زمنه نعمة فكرية لاشائبة فيها»^(١) لقد رأى بنيتو القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الإلحاد شرطاً لارجعة عنه للبشرية في عصر عملي.

يحظى هذا الرأي بدعم كبير. فقد أصبحت الكنائس في أوروبا فارغة، ولم يعد الإلحاد إيديولوجيا مرغوبة مؤلفة لدى حفنة من رواد الفكر بل غدا حالة سائدة. ففي الماضي

كانت هذه الحالة تنجم عن فكرة محددة عن الله لكن تبدو في الوقت الحاضر أنها فقدت علاقتها البنوية مع الإلحاد كي تغدو استجابة آلية لتجربة العيش في مجتمع دنيوي. أصبح الناس كحشد يتسلون ويحيط بهم مجنون نيتشه، فأصبح الكثيرون لا يحركهم منظور الحياة دون الله، وبعضهم يجد غيابه راحة إيجابية. ومن كان له وقت عصيب مع الدين يجد الخلاص من الله الذي أربى طفولتنا أمراً يحقق لهم التحرر. من الرائع ألا نجثو خوفاً أمام إله منتقم يهددنا بلعنة أبدية إذا لم نمتثل لقوانينه. فلدينا حرية فكرية جديدة، ونستطيع أن نتبع أفكارنا بجسارة دون السير خلفه حذرين من بنود الإيمان الصعبة شاعرين طوال الوقت بفقدان الكرامة الذي يشيطنا. فنحن نتخيل أن الإله الذي عرفناه هو إله اليهود والمسيحيين والمسلمين الموثوق، ولاندرك دائماً أن تخيلنا هذا مجرد ضلال. هناك خراب أيضاً. لقد تحدث جان بول سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) عن الفجوة التي شكلها الله في الوعي البشري حيث كان على الدوام. وأكد على أنه لو وجد الله لكان مازال من الضروري رفضه، لأن فكرة الله تنفي حريتنا. فالدين التراثي يطلب منا الالتزام بفكرة الله عن البشرية كي نصبح بشراً كاملين. فبدلاً من ذلك علينا أن نرى البشر حرية مجسدة. فإلحاد سارتر لم يكن معقداً يقدم العزاء. لكن رأى وجوديون آخرون أن غياب الله هو تحرر إيجابي. موريس ميرليو بوتني (١٩٠٨ - ١٩٦٠) نادى بزيادة إحساننا بالتعجب لأن الله ينفي إحساننا هذا، وبما أن الله يمثل الكمال المطلق لذا لم يترك لنا شيئاً كي نتجره. بينما نادى ألبير كامو (١٩١٣ - ١٩٦٠) بالإحادية بطولية: يجب على الناس أن ينكروا الله في تحدٍ كي يصبوا كل قلق حبيهم على الجنس البشري. فعلى الدوام كان لدى الملحدين غاية. حقيقةً استخدم الله في الماضي كي يعطل المقدرة على الإبداع. فإذا ما اتخذناه كقميص عثمان نرفعه عند كل مشكلة وطارئ ممكنين عند ذلك بإمكانه أن يعطل إحساننا بالتعجب وقدرتنا على الإنجاز. فباستطاعة الإحادية ملتزمة متحمسة أن تكون أكثر دينية من إحادية مضجرة لا تنسم بالكفاة.

خلال خمسينات هذا القرن سأل الوضعيون المنطقيون مثل أ. جي. إير Ayer (١٩١٠ - ١٩٩١) فيما إذا كان للإيمان بالله معنى. فلقد قدمت العلوم الطبيعية على أنها المصدر الموثوق الوحيد للمعرفة لأن بالإمكان اختبارها تجريبياً. لم يسأل (إير Ayer) عما إذا كان الله موجوداً أم لا بل عما إذا كانت فكرة الله لها أي معنى. قال إن عبارة ما لا معنى لها إذا كنا لا نستطيع أن نرى كيف بالإمكان إثبات صحتها أو تبيان زيفها. فقولنا إن هناك حياة على المريخ ذات معنى لأن باستطاعتنا معرفة كيف نستطيع إثباتها عندما تتوفر لدينا التكنولوجيا اللازمة لذلك. وبالمثل فإن مؤمناً بسيطاً بالإنسان القديم Old Man

التراثي في السماء لا يقوم بإبداء عبارة لامتني لها عندما يقول: «أنا أؤمن بالله». لأنه سيكون بمقدورنا أن نكتشف بعد الموت فيما إذا كان قوله هذا صحيحاً أم لا. أما المؤمن الأكثر تعقيداً هو الذي يواجه مشكلات عندما يقول: «الله غير موجود بأي معنى يمكننا فهمه» أو «الله ليس خيراً بالمتنى الإنساني للكلمة». هذان القولان غامضان جداً لأن من المحال رؤية كيف بالإمكان اختيارهما، ولذلك فهما لامتني لهما. فكما قال إير «الإيمان بوجود الله مريبك جداً، والجمل التي يظهر فيها الله غير مترابطة جداً، وبذلك يتعذر علينا إثبات صحة وجوده أو عدمه. أي أن نصدق أو لانصدق، أن نؤمن أو لانؤمن فهذا أمر مستحيل منطقياً»^(٢) الإيمان أمر غير قابل للفهم ولا معنى له، مثله في ذلك مثل الإلحاد، لأنه لا يوجد في مفهوم الله شيء كي نكره أو نشك فيه.

لقد اعتقد الوضعيون - كما اعتقد فرويد - أن الإيمان الديني كان يمثل حالة عدم نضج سيتغلب عليها العلم. فمنذ خمسينات هذا القرن قام الفلاسفة اللغويون بنقد الوضعيين المنطقيين مستنجرين أن - مأسماه إير مبدأ إثبات الصحة - ليس بالإمكان إثبات صحة هذا المبدأ ذاته. من المحتمل أننا في يومنا هذا أقل تفاؤلاً بحال العلم الذي يستطيع أن يفسر عالم الطبيعة المادي فقط. لقد أوضح ولفريد كانغويل أن الوضعيين المنطقيين نصبوا أنفسهم علماء خلال فترة - ولأول مرة في التاريخ - رأى العلم فيها أن العالم الطبيعي منفصل عن البشرية بكل وضوح^(٣). هذا النوع من الأقوال التي أشار إليها إير تعمل جيداً من أجل الحصول على حقائق العلم الموضوعية، لكنها ليست مناسبة للتجارب البشرية التي تعتبر حدودها الفاصلة أقل وضوحاً. فالدين كالشعر أو الموسيقى - ليس عرضة لهذا النوع من النقاش والإثبات. فقد جادل فلاسفة فقه اللغة من أمثال أنطوني فلو بأن العثور على تفسير طبيعي أمر أكثر عقلانية من العثور على تفسير ديني: فالبراهين القديمة لم تعد تعمل. فالجدال في خطة مايتداعي لأننا سنكون بحاجة إلى الخروج خارج النظام كي نرى فيما إذا كانت الظواهر الطبيعية تحرك بقوانينها الذاتية أم بشيء ماخارجاً. فالجدال بأننا كائنات مشروطة أو ناقصة لا يثبت شيئاً لأنه قد يكون هناك دائماً تفسير أخير لكنه ليس مافوق طبيعي. فلو Flow متفائل بدرجة أقل من تفاؤل فيورباخ أو ماركس أو الوجوديين، ليس هناك تحد بطولي أو مُعذّب بل مجرد مسألة التزام حقيقي بالعقل والعلم كسبيل وحيد إلى التقدم.

رأينا سابقاً أن المتدينين لن ينظروا جميعاً إلى الله كي يقدم لهم تفسيراً للكون. وقد رأى كثيرون أن البراهين واضحة مثل سمك الرنجة الأحمر. لقد أحسّ المسيحيون الغربيون

فقط أن العلم مُهَيِّد هؤلاء الذين اعتادوا على قراءة الكتاب المقدس حرفياً، ويشرحون العقائد وكأنها مسائل حقيقة موضوعية. فالعلماء والفلاسفة الذين لا يجدون في منهجهم مكاناً لله يشيرون عادة إلى فكرة الله بعبارة العلة الأولى، وهذا مفهوم تخلى عنه اليهود أخيراً، مثلهم في ذلك مثل المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس اليونانيين في العصور الوسطى. فالله الأكثر ذاتية والذي كانوا يبحثون عنه لا يمكن إثباته وكأنه حقيقة موضوعية لا يختلف عليها إثنان. ولا يمكن وصف الله ضمن أي نظام مادي في الكون إلا كما يمكن وصف الاستنارة البوذية.

في ستينات هذا القرن كان اللاهوتيون الراديكاليون أكثر درامية من الفلاسفة اللغويين، فسار اللاهوتيون على خطا نيتشه متحمسين وأعلنوا موت الله. فقد أعلن توماس ج - ألترز في كتابه (إنجيل الإلحاد المسيحي) ١٩٦٦ أن نبأ موت الله السار قد حررنا من اليهودية لإله متعالٍ طاغية: «فمن طريق قبول أو حتى إرادة موت الله فقط في تجربتنا عندها نستطيع التحرر من متعالٍ خارجي، غريب تم تغريب خارجه، وإظلامه في تغريب الله لذاته في المسيح»^(٤). لقد تحدث ألترز بكلمات صوفية عن ليل الروح الحالك، وعن ألم الهجر. فموت الله كان يمثل السكون الذي كان ضرورياً قبل أن يتمكن الله من أن يصبح ذا معنى من جديد. ينبغي أن تموت جميع مفاهيمنا القديمة عن الألوهة قبل أن يتمكن اللاهوت من ولادته الجديدة، إننا بانتظار لغة وأسلوب يصبح الله فيهما أمراً ممكناً. كان لاهوت ألترز ديالكتيكياً حماسياً هاجم العالم القائم الذي لإله له على أمل أن يكشف سره. أما بول فان برون فكان دقيقاً ومنطقياً أكثر من ألترز. ففي كتابه (المعنى الديني للإنجيل) ١٩٦٣ قال إنه لم يعد ممكناً أن نتحدث عن الله فاعلاً في العالم، فالعلم والتكنولوجيا جعلتا الميثولوجيا القديمة عاجزة. كان الإيمان البسيط بالإنسان القديم في السماء أمراً مستحيلاً، وهكذا كان إيمان اللاهوتيين الأكثر تعقيداً: يجب أن نستغني عن الله وأن نستمر بالتمسك بيسوع الناصري. لقد كان الإنجيل «النبأ السار لإنسان حر حرر أناساً آخرين». فيسوع الناصري كان هو المحرر «الإنسان الذي يحدد مايعنيه له أن يكون إنساناً»^(٥) لقد أشار وليم هاملتون في (اللاهوت الراديكالي وموت الله) ١٩٦٦ إلى أن لهذا النوع من اللاهوت جذوره في الولايات المتحدة التي كانت دائماً انعطافاً طويلاً، وليس فيها تراث لاهوتي خاص بها. كانت رمزية موت الله تمثل تفكك القوانين ANOMIE وبربرية العصر التقني التي جعلت الإيمان بالله الإنجيلي كما في الأسلوب القديم أمراً مستحيلاً. فهاملتون شخصياً رأى هذه الحالة الثيولوجية كطريقة كي تكون بروتستانتياً في القرن العشرين. لقد ترك لوفث صومعته وخرج إلى العالم. وبنفس الطريقة كان هو والراديكاليون المسيحيون أناساً دينيين باتمياز.

لقد ساروا بعيداً عن المكان المقدس الذي كان الله كي يجدوا الإنسان يسوع بجوارهم خارجاً في عالم التكنولوجيا والسلطة والجنس والمال والمدنية. فالإنسان الديني المعاصر لم يعد بحاجة إلى الله. لا وجود لفجوة شكلها الله داخل وجدان هاملتون: إنه يجد حله الخاص به في العالم.

هناك شيء ما مؤثر في تفاؤل ستينات هذا القرن السطحي. كان الراديكاليون محقين في دعوهم بكل تأكيد: الأساليب القديمة للحديث عن الله غدت مستحيلة لدى أناس كثيرين. لكن في التسعينات من الصعب جداً أن نشعر أن التحرر وفجراً جديداً هما في متناول اليد. موت الله في تلك الفترة جعل الانتقادات توجه إلى اللاهوتيين لأن نظرتهم كانت هي نظرة الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء الغنية. فاللاهوتيون الزوج مثل جيمس. ه. كوهن سأل من أين للبيض الحق أن يؤكدوا على الحرية عبر موت الله بينما استعبدوا الناس باسم الله؟ واللاهوتي اليهودي ريتشارد روبنشتاين وجد من المحال فهم كيف يمكنهم أن يشعروا بالإيجابية حيال بشرية لإله لها بعد الهولوكوست النازي. فهو شخصياً كان مقتنعاً أن الإله الذي جرى تصويره كإله للتاريخ قد مات وإلى الأبد في معتقل أوشفيتز، ومع ذلك لم يكن يشعر أن باستطاعة اليهود الخلاص من الدين. فبعد ما يشبه انقراض اليهود في أوروبا عليهم ألا ينقطعوا عن ماضيهم، وإله اليهودية الليبرالية الأخلاقي الظريف لم يكن خيراً، بل مادة مطهرة لأنه تجاهل مأساة الحياة، وأنه اعتقد أن العالم سوف يتحسن. ولذلك فضل روبنشتاين إله المتصوفين اليهود. لقد كان متأثراً بمعتقد لوروا (الانسحاب *tsimtsium*) ، فقيام الله طوعاً بتفريب ذاته جعل للعالم المخلوق وجوداً. وقد رأى جميع المتصوفين الله على أنه لاشيء فمنه أتينا وإليه نرغب. وافق روبنشتاين سارتر على أن الحياة فارغة، ورأى إله المتصوفين كطريقة تخيلية لدخول هذه التجربة البشرية اللاشئية^(٦).

وجد لاهوتيون يهود أيضاً الراحة في قبالة لوروا. فهانس يونس يعتقد أنه ليس في وسعنا الإيمان بكلية قدرة الله بعد الأوشفيتز. فعندما خلق الله العالم فقد حدد ذاته طوعاً، وشارك الكائنات البشرية ضعفها. أما الآن فليس في وسعه فعل المزيد، ويجب على البشر أن يعبدوا كمال الرب والعالم بالصلاة والالتزام بالثورة بينما نجد اللاهوتي لويس جاكوايز لا يحبذ هذه الفكرة لأنه وجد أن صورة الانسحاب فظة وتجسدية: إنها تشجعنا على طرح السؤال كيف خلق الله العالم بطريقة حرفية؟ فالله لا يحدد ذاته وكأنه يحبس نفسه قبل أن يفر الهواء. فلا فائدة من إله عاجز، ومحال أن يكون هو معنى الوجود الإنساني. من

الأفضل العودة إلى التفسير الكلاسيكي إن الله أعظم من البشر، وسبله وفكره ليسا فكرنا وسبلنا. قد لا يكون هناك سبيل إلى فهم الله لكن للناس خيار الثقة بهذا الله العصي على الوصف، ومؤكداً مغزى حتى في خضم فقدان المعنى. اللاهوتي الكاثوليكي الروماني هانس كونغ يتفق مع جاكوبز مفضلاً تفسيراً أكثر محولية للمأساة غير التفسير الذي تقدمه أسطورة الانسحاب. يشير إلى أن البشر لا يمكنهم الإيمان بالله ضعيف بل بالله حي جعل الناس أقوياء بما فيه الكفاية كي يُصلُّوا في أوشقتنر.

مازال بعض الناس يجدون أن بالإمكان العثور على معنى من فكرة الله. فاللاهوتي السويسري كارل بارت (١٨٨٦ - ١٩٦٨) قد وضع مواجهته ضد البروتستانتية الليبرالية التي نادى بها شهلر مآخراً بتأكيدا على التجربة الدينية. لكنه كان أيضاً نصيراً بارزاً لللاهوت الطبيعي. اعتقد أن من الخطأ القادح أن نسعى إلى شرح الله بكلمات عقلانية لاسبب محدودة العقل البشري فقط بل لأن البشرية أيضاً قد أفسدها الهبوط. فآية فكرة نكوّنها عن الله محكومة بعيب ما، وأن نعيد إلهاً فيه عيوب فهذه صنمية. المصدر الوحيد المعترف به للحصول على معرفة حول الله هو الإنجيل: الذي فيه أسوأ العوالم: التجربة مستعدة، العقل الطبيعي مستبعد، عقل الإنسان فاسد وغير جدير، وليس هناك إمكانية التعلم من أديان أخرى لأن الإنجيل هو مصدر الكشف المعترف به. ويبدو من غير السليم أن ندمج شكية راديكالية كهذه بقدرات العقل مع قبول لا يقبل النقد لحقائق الكتاب المقدس.

كان بول تيليش (١٨٦٨ - ١٩٦٥) مقتنعاً أن الإله الشخصي - للوحداية الغربية التراثية عليه أن يمضي لكنه كان يعتقد أن الدين كان ضرورياً للجنس البشري. فالقلق العميق الجذور هو جزء من الشرط الإنساني: إنه ليس قلقاً عصابياً لأنه لا يمكن استئصاله، ولا يمكن إزالته. فتحن باستمرار نخاف الخسارة ورعب الانقراض بينما نراقب أجسادنا تدرجاً تدريجياً. لقد وافق تيليش أن الإله الشخصي كان فكرة ضارة تستحق الموت.

مفهوم إله شخصي يتدخل بالأحداث الطبيعية، أو كائن، «علة مستقلة عن أحداث طبيعية، تجعل الله مادة طبيعية إلى جانب المواد الأخرى. جسماً بين أجسام أخرى، كائناً بين كائنات. قد يكون أعلاها ومع ذلك يبقى كائناً. فهذه ليست دماراً للنظام الفيزيائي فقط بل تدميراً حتى لأي معنى للله»^(٢).

كان إله يشاغل نفسه بالكون أمراً سخيفاً، إله يتدخل بحرية الإنسان وقدراته

الإبداعية كان ظالماً. فإذاً يعتبر الله ذاتاً في عالم خاص به، «أنا» مرتبطة بـ «أنت»، علة منفصلة عن نتائجها، فإن «هو» يصبح كائناً، ليس كياناً بحد ذاته. طاعة كلي القدرة، عارف بكل شيء لا يختلف عن طاعة الأرض الذين صنعوا كل شيء وكل شخص مجرد سن من مسننات الآلة التي يسيطرون عليها. وإلحاد ينكر إلهاً كهذا لديه مبررات كثيرة كافية.

علينا أن نسعى إلى إيجاد إله فوق هذا الإله الشخصي، فلا شيء جديد في هذا. فعند الأزمنة التوراتية كان الموحدون ملركين لطبيعة الله التناقضية، الذي كانوا يصلون له، وكانوا ملركين أن الله المشخص كان متوازناً أساساً غير الألوهة المتجاوزة للشخصانية. فكل صلاة كانت تناقضاً، لأنها محاولة للتكلم إلى أحد ما الحديث إليه محال، وكانت تطلب رضى أحد ما، إما أنه أسبغ رضاه أم لا قبل أن يطلب منه ذلك. كانت تقول «أنت» الله الذي كان كائناً أقرب إلى الأنا أكثر من قرب أناناه. كان تيليش يفضل تعريف الله على أنه خلفية الوجود. المشاركة في إله فوق هذا الإله لا يفرنا عن العالم بل يغمسنا في الحقيقة، إنه يعيدنا إلى أنفسنا. على البشر أن يستخدموا رموزاً عندما يتحدثون عن الكائن Being ذاته: فالحديث الحرفي أو الواقعي عنه هو تجسيد، وغير صحيح. من قرون مكنت رموز مثل «الله» «النهاية الإلهية» أو «الخلود» الناس من احتمال رعب الحياة والموت، لكن عندما تفقد هذه الرموز قدرتها فهناك خوف وشك. والذين يتعرضون لهذا الخوف والتلق يجب عليهم أن يسعوا إلى الله فوق إله الوحدانية المشين، الذي فقد قوته الرمزية.

عندما كان يتحدث تيليش إلى العلمانيين كان يفضل استبدال الكلمة الفنية «خلفية الوجود» بـ «المعنى النهائي». فقد شدد على أن تجربة الإيمان البشرية مع «هذا الله فوق الله» لم تكن حالة خاصة متميزة عن الحالات الأخرى في تجربتنا العاطفية أو الثقافية. فليس بوسعك القول: «أمر الآن بتجربة دينية خاصة» لأن الله الذي هو وجود سابق وأساسي لجميع مشاعرنا من شجاعة وأمل وبأس. لم تكن حالة مميزة باسم خاص بها، بل كانت تكسح كل واحدة من خبراتنا الإنسانية العادية. فقبل قرن مضى قدم فيورباخ نداءً مماثلاً عندما قال إن الله غير قابل للفصل عن السيكولوجيا الإنسانية السوية، وبذلك فقد تحول هذا الإلحاد إلى وحدانية جديدة الآن.

كان اللاهوتيون الليبراليون يحاولون اكتشاف فيما إذا كان بالإمكان أن تؤمن وبالوقت ذاته ننتمي إلى العالم الثقافي المعاصر. في تشكيل هذا المفهوم الجديد لله فقد تحولوا إلى ضوابط أخرى: العلم والسيكولوجيا، وعلم الاجتماع، وإلى أديان أخرى. بيد أنه

لم يكن في هذه المحاولة شيء جديد. فأورجين وكلمينت الاسكندري كانا مسيحيين ليبراليين في هذا المعنى في القرن الثالث عندما أدخلوا الأفلوطينية إلى دين يهوى السامي. اليسوعي بيير تلهارد دوشارددين (١٨٨١ - ١٩٥٥) دمج إيمانه بالله مع العلم الحديث، كان عالم مستحاثات، وذا اهتمام خاص بحياة ما قبل التاريخ. واستمد من فهمه للارتقاء كي يشكل لاهوتاً جديداً. لقد رأى كل الصراع الارتقائي كقوة إلهية دفعت الكون من مادة إلى روح إلى شخصية وفي النهاية خارج الشخصية إلى الله. كان الله متأسلاً ومجسداً في العالم الذي أصبح سرّاً مقدساً لحضوره. لقد اقترح شاردين أنه بدلاً من التركيز على يسوع الإنسان ينبغي على المسيحيين تنمية صورة كونية للمسيح كما هي في رسائل القديس بولس إلى الكولوسيين واللافيثيين. فمن هذا المنظور كان المسيح «نقطة نهاية الكون، ذروة سيروية ارتقائية يصبح فيها الله الكل في الكل». فالكتاب المقدس يخبرنا أن الله محبة، ويبين العلم أن العالم الطبيعي يتقدم باتجاه تعقيد أكبر أبدي ونحو وحدة أكبر في هذا التنوع. كانت هذه الوحدة في التنوع سبيلاً آخر لتقدير المحبة التي تحيي الخلق كله. لقد وجه نقد إلى شاردين لأنه قد عرف الله بشكل كامل بالعالم الذي لا أثر فيه لأي معنى بتعالى الله، لكن لاهوته الدينوي هذا، كان تحولاً لقي الترحيب من قبل الكراهية للعالم التي كانت سمة مميزة للروحانية الكاثوليكية في أغلب الأحيان.

طور دانييل دي ولير في الولايات المتحدة خلال ستينات هذا القرن ما يعرف باسم لاهوت السيروية الذي أكد أيضاً على وحدة العالم مع الله. لقد كان ولير متأثراً كثيراً بالفيلسوف البريطاني أ. ن. وايتهيد ١٨٦١ - ١٩٧٤ الذي رأى الله مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بسيروية العالم. لقد كان على وايتهيد جعل لامعنى لله كوجود آخر، مكتفٍ ذاتياً، لاسبيل إلى وصفه، لكنه صاغ رواية من القرن العشرين لفكرة الله النبوية وحالتها العاطفية:

أؤكد أن الله يعاني بسبب اشتراكه في استمرارية حياة مجتمع الوجود. ومشاركته هذه هي الملل الأعلى للمعرفة والقبول، ويُحوّل بحب العناء الذي ينشأ في العالم. إنني أؤكد الحساسية الإلهية. فدونها لأرى معنى لوجود الله^(٨).

لقد وصف الله على أنه «الرفيق العظيم» الذي يشاركنا المعاناة، ويفهمنا. أحب ولير تعريف وايتهيد، وكان يحب أن يتحدث عن الله على أنه «سلوك العالم أو كحادثة»^(٩). من الخطأ أن نضع نظام مافوق الطبيعة مقابل عالم تجربتنا الطبيعي لأن هناك نظاماً واحداً للوجود، وهذا ليس تقليدياً على أية حال. يجب أن يتضمن فهمنا الطبيعي

جميع الطموحات، والمقدرات، والقدرات الكامنة التي بدت إعجازية ذات يوم، وأن يشمل كذلك «تجارينا الدينية» كما أكد البوذيين على ذلك باستمرار. وعندما كان يسأل فيما إذا كان يعتقد أن الله منفصل عن الطبيعة كان يجب أنه غير متأكد. كان يكره فكرة اللامبالاة اليونانية التي وجدها تجديفية تقريباً، لأنها كانت تصور الله بعيداً وغير مكترث وأناني. أنكر أنه كان يدافع عن وحدة الوجود. فلاهوته كان يسعى إلى تصحيح عدم التوازن الناجم عن تغريب الله الذي كان محالاً قبله بعد أوشفيتز وهوروشما.

كان آخرون أقل تفاؤلاً بإنجازات العالم المعاصر فأرادوا العودة إلى تعالي الله كمنجد للبشر. فاليسوعي كارول راهنو طور لاهوتاً أكثر تسامياً يرى الله السر الأكبر، ويسوع التجلي الحاسم لما يوسع البشرية أن تبلغه. كذلك شدد يوناود لونوجن على أهمية التعالي وعلى الفكر كتنقيض للتجربة. الفكر الأعزل لا يستطيع بلوغ الرؤى التي يسعى إليها: إنه يصل باستمرار إلى حواجز تعيق الفهم، وتتطلب منا أن نغير مواقفنا. بقي جميع الحضارات كان البشر مدفوعين بنفس الأوامر: أن يكونوا أذكياء، مسؤولين عقلانيين، محبين، وأن يتغيروا إذا دعت الضرورة ذلك. فطبيعة البشرية ذاتها تتطلب منا أن نتجاوز أنفسنا ومفاهيمنا الراهنة، ويدل هذا المبدأ على حضور ماقد سمي الإله في طبيعة السعي الإنساني الجاد ذاته. فاللاهوتي السويسري هانس أورس فون بالتسار يعتقد أنه بدلاً من البحث عن الله في المنطق والتجريد يجب أن ننظر إلى الفن: فالتجلي الكاثوليكي هو بالأساس لاثمسيدي. ويبين من خلال دراساته الممتازة لدانتي وبونا فينيترا أن الكاثوليكين قد أرادوا الله في شكل إنساني. فتأكيدهم على الجمال في ملامح الطقس والمسرحية وفي الفنانين الكاثوليكين العظام يدل على أنه ينبغي على الحواس أن تجد الله وليس فقط بالأجزاء التجريدية والدماعية في الإنسان.

حاول المسلمون واليهود كذلك النظر إلى الماضي كي يجدوا أفكاراً عن الله تناسب الحاضر. فأبوا الكلام آزاد (١٩٥٩) لاهوتي باكستاني بارز عاد إلى القرآن كي يجد سبيلاً لرؤية إله لم يكن متعالياً جداً بحيث لا يقدوا باطلاً وليس شخصياً جداً فلا يقدوا صنماً. لقد أشار إلى طبيعة الحديث القرآني الرمزية مشيراً إلى التوازن بين المجازي والتشبيهي والتجسدي من جهة وإلى المذكرات الثابتة بأن الله لا مثيل له من ناحية ثانية. في حين نظر آخرون إلى المتصوفين بحثاً عن تصور حول علاقة الله بالعالم. فالتصوف السويسري فريت أوف شون أسياً معتقد ابن العربي «وحدة الوجود» كي يبين بما أن الله هو الحقيقة الوحيدة، فلا شيء موجود سواه، والعالم ذاته إلهي بشكل مناسب. فهو يصف هذا ويذكرنا أن هذه

في حقيقة سرية لا يمكن فهمها إلا من خلال ضوابط صوفية سرية.

رأى آخرون إمكانية الوصول إلى الله بسهولة أكثر، وله علاقة بالتحدي السياسي لراهن. ففي السنوات التي أدت إلى الثورة الإيرانية استقطب الفيلسوف العلمي الشاب لذكور علي شريعتي جموعاً هائلة من أفراد الطبقة الوسطى المتعلمين. وكان المسؤول عن تجنيدهم ضد الشاه علماً أن معظم رجال الدين لم يكونوا موافقين على قسم كبير من رسالته الدينية. أثناء الإضرابات كان الناس يحملون صورته إلى جانب صورة آية الله الخميني على الرغم من أنه لم يكن واضحاً كيف سيشارك في إيران الخميني. كان شريعتي مقتنعاً أن النزعة الغربية قد غربت المسلمين عن جذورهم الثقافية، ولعلاج هذا التشوه يجب عليهم أن يعيدوا تفسير رموز دينهم القديمة. فالتبني محمد قد فعل الشيء ذاته عندما أعطى طقس الحج الوثني مرجعية وحدانية. ففي كتابه (الحج) أخذ قراءه في رحلة حج إلى مكة مفصلاً تدريجياً عن مفهوم ديناميكي لله الذي كان على كل مسلم خلقه تخليلاً بنفسه. وعن وصول الحجيج إلى الكعبة سيدركون كم سيكون ذلك مناسباً لو أن الكعبة فارغة : «فالكعبة ليست غايتكم النهائية، إنها آية كيلا تضلوا الطريق، إنها تدلكم فقط على الطريق»^(١٠). الكعبة تشهد على أهمية تعالي الله عن كل التبعيات البشرية التي ينبغي ألا تصبح غايات بحد ذاتها. «فلم الكعبة هي مجرد مكعب دون زخرفة أو زينة؟ لأنها تمثل سر الكون: فالله لا شكل له، ولا لون، ولا نظير، مهما كان الشكل أو الشرط الذي يختاره البشر أو يرونه أو يتخيلونه فإنه ليس الله»^(١١). وهكذا أصبح الحج نقیضاً للتغريب الذي كان يحسه الكثيرون في إيران في فترة مابعد الاستعمار. إنه يمثل مسار وجود كل إنسان يحول حياته ويوجهها باتجاه الله الذي لا يترك. كان الإيمان الفعال خطراً: لقد عذبه البوليس السري التابع للشاه ونفاه، وربما كان هو المسؤول عن موته في لندن عام ١٩٧٧ .

لقد بنى مارتن بوبر (١٨٧٨ - ١٩٦٥) رؤية ديناميكية لليهودية كسبورة روحانية، صراع لوحدة أساسية. فالدين كان يتكون كلياً من مقابلة مع إله شخصي يتبوأ مكاناً في اجتماعاتنا بالبشر الآخرين. هناك عالمان: أحدهما مملكة المكان والزمان حيث ترتبط بوجودات أخرى كارتباط الموضوع والمحمول مثل «أنا» هو أو هي it لغير العاقل. وترتبط المملكة الثانية بوجودات أخرى كما هي حقاً كغايات بحد ذاتها هذه هي مملكة أنا - أنت التي تكشف عن حضور الله.

كانت الحياة حواراً لا ينتهي مع الله الذي لا يهدد حريتنا أو قدرتنا على الإبداع لأن الله لا يخبرنا عما يطلبه منا. إننا نشعر به كحضور فقط، وكأمر، وعلينا أن نتوصل إلى

المعنى بأنفسنا. هذه النظرة كانت تعني قطيعة مع معظم التراث اليهودي. وتأويلات بوهر للنصوص التراثية مجعدة أحياناً. وبما أنه كان من أنصار كانط فلم يكن لديه وقت للتوراة التي وجد أنها تجلب التعريب: كان الله معطياً للشرية. كان لقاء أنا - أنت - يعني الحرية والعقوبة ولم يكن يعني عبء ماضٍ تراثي. مع ذلك فالوصايا العشر تعتبر مركزية في معظم الروحانية اليهودية. وقد يفسر هذا لماذا حظي بوهر بشعبية أكبر بين المسيحيين من شعبيته بين اليهود.

لقد أدرك بوهر أن كلمة الله قد مُرِّغَتْ، وأُنزلت مكانتها، مع ذلك رفض أن يتخلى عنها: «أين أجد كلمة مساوية لها كي أصف الوجود ذاته؟» إنها تحمل معنى عظيماً معقداً، وذات ظلال مقدسة كثيرة. أما الذين يرفضون كلمة الله فينفي احترامهم لأن أشياء كثيرة مرعبة قد ارتكبت باسمه.

ومن السهل أن نفهم لِمَ نجد من يقترحون فترة صمت حيال «الأشياء الأخيرة»، بحيث أن الكلمات المستخدمة خطأ يمكن تصحيحها. لكن ليست هذه هي الطريقة السليمة لتصحيحها. إننا لانستطيع تنظيف كلمة الله، ولانستطيع جعلها كُلاً، لكن بما أنها ملوثة ومهروسة كما هي، يمكننا رفعها من الأرض ووضعها فوق في ساحة حزن كبير^(١٧).

لم يكن بوهر كسائر العقلايين لأنه لم يعارض الأسطورة: فقد وجد أن أسطورة لوريا عن الجمرات الإلهية في العالم ذات أهمية رمزية حاسمة. ويمثل انفصالها عن الرب شعور البشر بالفرقة، فعندما نتواصل مع الآخرين نعيد الوحدة البدئية التي تقلل الاغتراب في العالم.

نظر بوهر إلى الخلف، إلى الكتاب المقدس والهاديسية Hasidism، بينما عاد ابراهيم يوشع هيرشل إلى روح الأحبار والتلمود. لقد اعتقد - خلافاً لما اعتقده بوهر - أن الوصايا ستساعد اليهود على احتمال الجوانب الإنسانية التي تنضوي عليها الحداثة. لقد كانت الوصايا أفعالاً تليبي حاجة الله أكثر مما كانت تليبي احتياجاتنا. فالحياة الحديثة تنقسم بنزع الصفة الشخصية والاستغلال: حتى يتم تخفيض مكانة الله إلى شيء يجب احتكاره وجعله يدخل دورنا. وبالتالي أصبح الدين مملأً وتافهاً، كنا بحاجة إلى «لاهوت في العمق» كي ينقب تحت البنى، ويستعيد الرهبة الأولى والسر والتعجب. لم تكن مجدية محاولة إثبات الله منطقياً. وكان الإيمان بالله ينبع من خوف فوري لعلاقة له بالمفاهيم والعقلانية. ينبغي أن نقرأ الكتاب المقدس مجازياً كما نقرأ الشعر إذا كان المراد منه أن يقدم

ذلك الإحساس بالمقدس. وينبغي أن نرى الوصايا العشر إشارات رمزية تدبرنا على العيش في حضرة الله. فكل وصية هي مكان لقاء بتفاصيل دقيقة من الحياة الدنيوية، وكعمل في لكل وصية منطقها ووقعها الخاص بها. فقبل كل شيء يجب أن ندرك أن الله يحتاج البشر. إنه ليس إله الفلاسفة البعيد بل هو إله العواطف الذي وصفه الأنبياء.

لقد جذبت فكرة الله الفلاسفة الملحدون خلال النصف الثاني من القرن العشرين. فمارتن هايدغار (١٨٩٩ - ١٩٧٦) في كتابه (الوجود والزمن) ١٩٢٧ رأى الوجود كما رآه إيليتش مع أنه أنكر أن الوجود كان الله بالمعنى المسيحي: لقد كان مميزاً عن وجودات محددة ومنفصلاً تماماً عن مجالات الفكر العادية. لقد ألهم هذا الكتاب بعض المسيحيين مع أن قيمته الأخلاقية كانت موضع تساؤل لارتباطه بالنظام النازي، ففي محاضراته الافتتاحية في فريورغ بعنوان (ماهي الميتافيزيقا؟) طور هايدغار عدداً من الأفكار التي كانت على السطح في أعمال أفلوطين ودينيس وإرجينا فيما أن الوجود هو «آخر كلياً» فهو في الحقيقة لاشيء - اللاشيء، ليس مادة وليس وجوداً محدداً، مع ذلك فهو الذي يجعل جميع الوجودات ممكنة. لقد اعتقد القدماء أن اللاشيء أتى من لاشيء لكن هايدغار تحفظ على هذه البديهية. لقد أنهى محاضراته بطرح سؤال كان قد طرحه ليبنز:

ولما نقول هناك وجودات بدلاً من القول: ليس ثمة وجود؟. هذا السؤال يثير الصدمة والدهشة والتعجب التي كانت ثابتة في رد الفعل الإنساني تجاه العالم. لماذا كان يتوجب وجود أي شيء على الإطلاق؟ في كتابه (مدخل إلى الميتافيزيقا) ١٩٥٣ بدأ هايدغار بطرح السؤال ذاته. اعتقد أن اللاهوت كان الإجابة، وأحال كل شيء إلى شيء ما آخر إلى الله، لكن هذا الله كان مجرد وجود آخر أكثر من كونه شيئاً آخر بالكامل. كانت فكرة هايدغار فكرة دوفية لإله الدين على الرغم من أن الكثير من المتدينين يشتركون معه في رأيه هذا - لكنه غالباً ما تحدث بكلمات صوفية عن وجود ما.

إنه يتكلم عنه كنتناقض كبير، فيصف عملية التفكير كانتظار أو إصغاء إلى وجود، ويدعو أنه يتعرض لعودة وانسحاب الوجود مثلما يشعر المتصوفون في غياب الله. ليس هناك شيء يدعو البشر إلى الاعتقاد بأن الكائن هو وجود. فمنذ العصر الإغريقي كان الناس في العالم الغربي ميالين إلى نسيان الكائن وركزوا على كائنات بديلة عن ذلك. وأدت هذه العملية إلى ثمار نجاح تقني حديث. ففي المقالة التي كتبها في نحو نهاية حياته (إله فقط يستطيع أن ينفذنا) اقترح هايدغار أن تجربة غياب الله في عصرنا قد تحررنا من الانشغال

بالكائنات. لكن لم يكن هناك شيء فعله كي نعيد الوجود في الحاضر. بإمكاننا أن نأمل فقط بظهور جليل في المستقبل.

رأى الفيلسوف الماركسي إرنست بلوخ أن فكرة الله طبيعية للبشرية، فالحياة البشرية كلها كانت موجهة إلى المستقبل: فنحن نشعر بحياتنا أنها غير تامة وغير منتهية. فنحن لسنا راضين أبداً بل نريد المزيد. وأجبرنا هذا الإحساس على أن نفكر ونطور لأن في كل نقطة من حياتنا علينا أن نتجاوز أنفسنا وأن نستمر إلى المرحلة التالية: على الرضيع أن يصبح طفلاً يحبو، ثم عليه أن يتغلب على ضعف قدراته ليصبح طفلاً... إلى آخره. فجميع أحلامنا وطموحاتنا تشخيص لما سيأتي. فحتى الفلسفة تبدأ بالتساؤل الذي هو التجربة لعدم المعرفة وليس بعد. فالاشتراكية أيضاً تتطلع إلى يوتوبيا، لكن على الرغم من الرفض الماركسي للإيمان حيث هناك أمل هناك أيضاً دين. لقد رأى بلوخ - كما رأى فيورباخ - الله كمثل إنساني أعلى لم يتحقق بعد. لكن بدلاً من أن يرى أن هذا يؤدي إلى التفريب وجده أمراً أساسياً للشرط الإنساني.

ماكس هوركهايمر (١٨٩٥ - ١٩٧٣) المنظر الاجتماعي الألماني من مدرسة فرانكفورت رأى الله أيضاً كمثل أعلى ذي أهمية بطريقة تذكرنا بالأنبياء. فسواء وجد الله، وسواء آمننا به أم لم نؤمن فذلك أمر غير ضروري. فدون فكرة الله لا وجود لمعنى مطلق سواء للحقيقة أو الأخلاقية: تصبح الأخلاق مسألة ذوق فقط أو حفلة مزاجية أو نزوة. ومالم يشمل علم السياسة والأخلاق فكرة الله فإنهما سيقعان متصفين بالبراغماتية والدعاء بدلاً من اتساقهما بالحكمة. فإذا لم يكن هناك (مطلق) فليس هناك سبب يدعونا إلى عدم الكراهية أو إلى اعتبار الحرب أسوأ من السلام. فالدين أساساً هو شعور داخلي بأن هناك إله. فإحدى أحلامنا الأولى هو التوق إلى العدالة (كم مرة نسبح فيها الأطفال يتذمرون بالقول: هذا ليس عادلاً). الدين يسجل الطموحات والانتهاكات لعدد لا يحصى من البشر في وجه المعاناة والخطف. فالدين يجعلنا مدركين لطبيعتنا المحدودة؛ فنحن جميعاً نأمل ألا يكون الظلم هو الكلمة الأخيرة في العالم.

الحقيقة التي يجب أن يرجع الناس إليها - الذين لديهم معتقدات دينية - هي أن عليهم العودة إلى موضوعات مركزية قد اكتشفناها في تاريخ الله تدل على أن الفكرة ليست غريبة كما يعتقد الكثيرون منا.

فخلال النصف الثاني من القرن العشرين حدث ابتعاد عن فكرة الله الشخصي الذي يتصرف كما يتصرف معظمنا فلم يكن في هذا الابتعاد شيء جديد. فكما رأينا يظهر

الكتاب اليهودي المقدس الذي ما يزال المسيحيون يسمونه العهد القديم - سيرورة ماثلة، بينما رأى القرآن الله بكلمات أقل شخصانية مما رآه التراث اليهودي المسيحي منذ البداية. معتقدات مثل الثالوث والميثولوجيا ورمزية النظم الصوفية سعت جميعاً إلى القول أن الله كان خارج الشخصية. مع ذلك فهذا المسعى لم يتم إيضاحه لكثير من المؤمنين.

ف عندما نشر جون روبنسون أسقف وول وي (الصدق مع الله) ١٩٦٣ حدثت ضجة كبيرة في بريطانيا عندما قال إنه لم يعد بوسعه الإقرار بالله الشخصي القديم «هناك». وكذلك حدثت ضجة ماثلة على ملاحظات أبداها ديفيد جيكنز أسقف ديورهام على الرغم من أنها ملاحظات عادية في الأوساط الأكاديمية. وقد وصم دون كيوبيت - «القس الملحد» الذي كان عميد كلية عمانوئيل في كامبريدج. لقد وجد الإله الواقعي التراثي في الوجودانية أمراً غير مقبول، واقترح شكلاً من البوذية المسيحية يضع المعرفة الدينية قبل اللاهوت. توصل كيوبيت - كما توصل روبنسون - إلى رؤية فكرية توصل إليها المتصوفون في الأديان الثلاثة عبر سبيل أكثر حدسية. ففكرة أن الله غير موجود فعلاً، وأن لاشيء هناك ببقايا بعيدتين عن أن تكونا فكرتين جديدتين.

هناك عدم تسامح متزايد حيال صور غير ملائمة للمطلق، ويحيى هذا التحطيم للأيقونات سليماً لأن فكرة الله قد استخدمت في الماضي لتؤدي إلى تأثير كارثي. إحدى التطورات الجديدة التي تشكل سمة بارزة منذ سبعينات هذا القرن كانت ظهور نوع جديد من التدين نسميه في الواقع «الزعة الأصولية» في معظم مناطق وجود الأديان العالمية، من بينها أديان الله الثلاثة. فروحانية سياسية رفيعة هي حرفة وغير متسامحة في رؤيتها. ففي الولايات المتحدة التي كانت دائماً ميالة إلى حماسة ورؤية متطرفة نجد أن الأصولية المسيحية قد ربطت نفسها باليمين الجديد. قام الأصوليون بحملة من أجل إلغاء الاجهاض قانونياً، وتبنوا خطأ متشدداً حيال الحشمة الأخلاقية والاجتماعية. حققت الأغلبية الأخلاقية التي يتزعمها جيرى فالويل سلطة سياسية مذهلة خلال ولاية الرئيس ريغان. ثمة أنجيليون آخرون مثل موريس كرولو الذي يأخذ ملاحظات يسوع حرفياً، يعتقدون أن المعجزات هي علامة أساسية للدين الحق. فالله سوف يعطي المؤمن أي شيء يطلبه منه في الصلاة. وفي بريطانيا زعم الأصوليون من أمثال كولين إركهات الشيء ذاته. ويدور أن الأصوليين المسيحيين يقيمون وزناً قليلاً للمحبة والتراحم عند يسوع. إنهم يدينون الناس بسرعة ويرونهم «أعداء الله»، ويعتقدون أن اليهود والمسلمين من رواد جهنم، وكان إركهات قد أعلن أن جميع الأديان الشرقية تستمد إلهامها من الشيطان.

وفي العالم الإسلامي حدثت تطورات مماثلة امتدت إلى الغرب. فقد أسقط الأصوليون المسلمون حكومات واغتالوا أو هددوا أعداء الإسلام بعقوبة الموت، وكذلك استوطن اليهود الأصوليون في الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة مبيتين نية طرد السكان العرب ولو بالقوة عند الضرورة. فهم بذلك يعتقدون أنهم يمهّدون الطريق لظهور المسيح المنتظر الذي أصبح ظهوره قريباً. فالأصولية بجميع أشكالها هي إيمان منقوص. وهكذا فالخبر مثير كاهانا عضو في اليمين المتطرف، بل الأكثر تطرفاً في هذا اليمين اغتيل في نيويورك عام ١٩٩٠ .

لا توجد عدة رسالات في اليهودية، بل هناك رسالة واحدة وهي أن تفعل مايريد الله. فأحياناً يريدنا الله المنسي إلى الحرب، وأحياناً يريدنا أن نعيش في سلام.. لكن هناك رسالة واحدة: الله أرادنا أن نأتي إلى هذه البلاد كي نخلق دولة يهودية^{١٣}.

يمسح قوله هذا قروناً من التطور اليهودي لأنه يعود إلى منظور سفر التثنية من كتاب يشوع. فليس مستغرباً أن يمجّد الناس الذين يسمعون هذا النوع من التجديف الذي يجعل الله ينكر حقوق الإنسان، شعب آخر يعتقد أنه كلما أسرعنا في التخلي عنه كلما كان ذلك أفضل.

كما رأينا في الفصل الأخير فإن هذا النوع من التدين هو في الواقع تراجع عن الله. وأن نجعل من ظواهر تاريخية مثل «القيم الأسرية» المسيحية، أو «الإسلام» أو «الأرض المقدسة» بؤرة دينية إنما يعتبر هذا شكلاً جديداً للوثنية. فلقد كان هذا النوع من الاستقامة المحاربة إغراء دائماً للموحدين عبر تاريخ الله الطويل، وينبغي رفضها لأنها غير صادقة. لقد وصل إله اليهود والمسيحيين والمسلمين إلى منطلق تعميس لأن الإله القبلي يهوى كان إلهاً قاتلاً ومتحيزاً لشعبه. والصلبييون الذين يعودون إلى روح الجماعة البدائية هذه إنما يعلون قيم القبيلة إلى مرتبة عالية لا يمكن قبولها، ويستبدلون المثل التي صنعها الإنسان بالوجود المتعالي الذي سيكون تحدياً لنزعائنا. وهم ينكرون أيضاً موضوعاً وحدانياً حاسماً. فمنذ أن أصبح أنبياء إسرائيل عبادة يهوى الوثنية القديمة أعلى إله الموحدين المثل الأعلى في الرحمة.

لقد رأينا أن الرحمة كانت سمة مميزة لمعظم الإيدولوجيات التي وجدت في العصر الهوري. فالمثل الأعلى في الرحمة قد أجبر البوذيين على إحداث تغير جذري في توجههم الديني عندما أدخلوا الولاء إلى يوزا. لقد شدد الأنبياء على عدم جدوى العقيدة والإيمان

مالم يتبنى المجتمع ككل روحاً جماعية أكثر عدالة وتراحماً. وهذه الرؤى تطورت على يد يسوع وبولص والأحبار الذين اشتركوا جميعاً في نفس المثل اليهودية، واقترحوا تغييرات أساسية في اليهودية كي يدخلوها إليها. ولقد جعل القرآن خلق مجتمع عادل متراحم جوهرًا في دين الله. الرحمة فضيلة صعبة، على وجه الخصوص لأنها تتطلب منا الخروج خارج حدود أنانيتنا، وعدم إحساننا بالأمن، وأهواءنا الموروثة. ليس مستغرباً أن نجد أن الأديان الثلاثة قد فشلت في إنجاز هذه المعايير السامية في بعض الفترات. فخلال القرن الثامن عشر رفض التاليفيون معظم المسيحية الغربية التراثية لأنها أصبحت قاسية وغير متسامحة بشكل جلي، وينطبق هذا على عالمنا اليوم. في أغلب الأحيان يشترك جميع المؤمنين التقليديين الذين ليسوا أصوليين باستقامتهم العدوانية. فاستخدام الله كي يثير حبهيم أو كراهيتهم أمر ينسبونه عادة إلى الله. فاليهود والمسيحيون والمسلمون الذين يحضرون مراسم دينية يشوهون الناس الذين ينتمون إلى معسكرات أجنبية وإيديولوجية تنكر واحدة من حقائق دينهم الأساسية. ليس مناسباً للذين يسمون أنفسهم يهوداً أو مسيحيين أو مسلمين أن يتغاضوا عن نظام اجتماعي لانسودة المساواة. إله الوحدةانية التاريخية يأمر بالرحمة لبالقربان، بالتراحم أكثر مما يطلب القربان المقدس الزخرفي.

في أغلب الأحيان هناك فارق بين الناس الذين يمارسون أحد أشكال العبادة في دين ما والذين نمواً إحساساً بالرحمة. فقد شجب الأنبياء معاصريهم الذين كانوا يعتقدون أن عبادة المعبود كانت كافية. لقد أوضح يسوع وبولص أن الالتزام الخارجي لاجدوى منه إذا لم يترافق بالهبة: عبادة من هذا النوع أفضل بقليل من نحاس أصفر أو صنجات تدق. ولقد خاض محمد صراعاً مع العرب الذين أرادوا عبادة الإلهات الوثنية إلى جانب الله في الشعائر القديمة دون إدخال روح الجماعة المتراحمة التي كان يأمر الله بها كشرط لكل دين حق. وكان هناك انقسام مماثل في عالم روما الوثنية: كان الدين العباداتي القديم يحتفي بالماض الطقبي، بينما بشر الفلاسفة برسالة اعتقدوا أنها ستغير العالم. فقد تكون أقلية هي التي التزمت بدين الإله الواحد الرحيم بينما وجدت الأغلبية أن من الصعب مواجهة تطرف التجربة الدينية بأوامر أخلاقية لاسماومة فيها. فمئذ أن أحضر موسى ألواح الشريعة من قمة سيناء نجد أن الأغلبية فضلت عبادة العجل الذهبي، صورة غير مهددة تراثية لإله أقاموه بأنفسهم في طقوس تيجيلية زمنية معزية. ولقد أشرف كبير الأحبار آرون على صناعة التمثال الذهبي. المؤسسة الدينية ذاتها صماء في أغلب الأحيان عن طموح الأنبياء والمتصوفين الذين ينقلون الأنبياء من إله متطلباته أكثر بكثير.

بالإمكان استخدام الله كدواء غير مجد، وبدلاً عن الحياة الدنيوية، وكفاية لخيال متساهل. لقد استخدمت فكرة الله مراراً كأفيون مخدر للناس. لقد فُهِمَ الله على أنه وجود آخر مثلنا تماماً لكنه أكبر وأفضل منا في علياء سمائه التي يتصورها الناس فردوساً للمذات دنيوية. مع ذلك فقد استخدم الله أساساً لمساعدة الناس في التركيز على هذا العالم وعلى مواجهة الواقع غير السار. فحتى العبادة الوثنية ليهوى - بكل عيوبها الظاهرة - شددت على تورطه في أحداث راهنة في زمن غير مقدس، كنقيض للزمن المقدس زمن الشعيرة والأسطورة. لقد أجبر أنبياء إسرائيل شعبهم على مواجهة الملامة الاجتماعية والتوعد بكارثة سياسية باسم الله الذي كشف عن نفسه لهم في هذه الأحداث التاريخية. وقد أكد الاعتقاد المسيحي بالتجسيد على الملازمة الإلهية في عالم الجسد والدم. بينما كان الاهتمام بما يجري هنا والآن بارزاً بشكل خاص في الإسلام: لم يكن بوسع أحد أن يكون واقعياً أكثر من محمد الذي كان عبقرياً في المجالين الروحي والسياسي معاً. لقد شاركته أجيال تالية من المسلمين اهتمامه في تجسيد المشيئة الإلهية في التاريخ الإنساني عن طريق إقامة مجتمع لائق عادل. منذ البداية كان الله يأمر بالفعل. فمن اللحظة التي استدعى فيها إيل، أو يهوى، أو الله إبراهيم من أسرته في حران فقد استدعى الدين فضلاً مادياً في هذا العالم وغالباً ما يكون تخلياً مؤلماً عن المقدسات القديمة. كان هذا الاقتلاع يتضمن توتراً كبيراً كذلك. الله القدوس الذي كان آخر كلياً عرفه الأنبياء كصدمة عنيفة، وطالب بفداسة مماثلة وانفصال عن شعبه. عندما تكلم الله إلى موسى على قمة سيناء لم يكن مسموحاً للإسرائيليين الاقتراب من أسفل الجبل وهكذا باعد برزخ جديد كلياً بين البشر والإله بشكل مفاجئ، ممزقاً النظرة الوثنية للمقدسة. ولذلك كان هناك كمون للتغريب عن العالم الذي عكس بزوغ فجر وعي باستقلالية ذاتية لاثفريية للفرد. فليس من قبيل المصادفة أن تضرب الوحداية جنورها أخيراً خلال النفي إلى بابل عندما كان الإسرائيليون قد طوروا أيضاً المثل الأعلى بالمسؤولية الشخصية الذي كان حاسماً في اليهودية والإسلام معاً.^(١٤) فقد رأينا أن الأحبار استخدموا فكرة الله الملازم كي يساعدوا اليهود على تنمية إحساس بالحقوق المقدسة للشخصية الإنسانية. مع ذلك استمر التغريب في كونه خطراً في الأديان الثلاثة. في الغرب كانت معرفة الله مترافقة باستمرار مع إحساس بالذنب وبأنثروبولوجيا تشاؤمية. في اليهودية والإسلام لا يوجد شك بأن التقيد بالتوراة والشرعة قد اعتبر أحياناً إزعاجاً تابعاً لقانون خارجي، ومع ذلك قد لا يكون شيء أبعد عن نية الناس الذين جمعوا هذه للدونات القانونية.

هؤلاء الملحدون الذين نادوا بالتححرر من إله يطلب خضوعاً عبدياً إنما كانوا يحتجون على صورة غير لائقة لكنها مألوفة - لسوء الحظ - عن الله. وكان ذلك مبنياً على تصور شخصاني للإله. وكان هذا التصور يفسر صورة حكمة الله في الكتب المقدسة بشكل حرفي أكثر مما ينبغي، وافترض أن الله كان نوعاً من أخ كبير في السماء. هذه الصورة لله كطاغية - يفرض شريعة غريبة وعلى خدمه السير عليها دون رغبة منهم. فاللقاء الرعب بين الناس طالياً الطاعة المدنية ملوحاً بالتهديدات لم يعد أمراً مقبولاً وحتى غير عملي. وهذا ما أوضحه تهاوي الأنظمة الشيوعية بشكل دراماتيكي في خريف عام ١٩٨٩. فكرة الله المصدر للشريعة والحكم ليست مناسبة لطبع مابعد الحداثة. والملحدون الذين اشتكوا من أن فكرة الله كانت غير طبيعية لم يكونوا على صواب تام. فقد رأينا أن اليهود والمسيحيين والمسلمين قد طوروا أفكاراً متماثلة عن الله، وهي مماثلة أيضاً لتصورات أخرى حول المطلق. عندما يحاول الناس إيجاد معنى وقيمة نهائية في الحياة البشرية يبدو أن عقولهم تمضي في اتجاه محدد. فهم لم يكونوا مجبرين على القيام بهذا، وهذا شيء يبدو طبيعياً للبشرية.

إذا لم يكن على المشاعر أن تنحط إلى انغماس أو عدوانية أو انجراف عاطفي غير سليم، عندها ينبغي أن يكون العقل النقدي أمراً. فتجربة الله يجب أن تحتضن الميول الشائعة ومن ضمنها ميول العقل. كانت تجربة الفلسفة محاولة لربط الإيمان بالله مع المذهب العقلاني الجديد وسط المسلمين واليهود والمسيحيين الغربيين في مرحلة لاحقة. وفي النهاية تراجعوا جميعاً عن الفلسفة. فقد قرروا أن للعقلانية مبادئها، خاصة في الدراسات التجريبية كالعالم والطب والرياضيات، لكنها ليست مناسبة كلياً في مناقشة إله يقع خارج المفاهيم والتصورات. لقد أدرك اليونانيون هذا من قبل، فطوروا عدم ثقة مبكرة في ميتافيزيقاهم. كانت إحدى موقفات الطريقة الفلسفية لمناقشة الله هي أنها تجعل الله المتعالي مجرد كائن آخر، أعلى من الأشياء الموجودة بدلاً من واقع تراتب مختلف كلياً. مع ذلك كانت مغامرة الفلسفة هامة لأنها أظهرت قبولاً لضرورة ربط الله بتجارب أخرى حتى ولو كانت فقط لتحديد المدى الذي كان فيه هذا ممكناً. فدفع الله إلى عزلة فكرية في غيتو مقدس خاص به أمر غير سليم وغير طبيعي. وقد يشجع هذا الناس على الاعتقاد أنه ليس ضرورياً تطبيق معايير عادية من التقدير والعقلانية على السلوك الذي يفترض أن الله قد ألهمه.

منذ البداية كانت الفلسفة مرتبطة بالعلم، وكان حماسها الأول تجاه الطب والفلك والرياضيات قد قاد الفلاسفة المسلمين الأوائل إلى مناقشة الله بكلمات ميتافيزيقية. لقد أحدث العلم تحولاً رئيسياً في نظرتهم، فوجدوا أن ليس في وسعهم أن يفكروا بالله بالطريقة نفسها التي يفكر فيها إخوانهم المسلمون. لقد كان التصور الفلسفي لله مختلفاً جداً عن نظرة القرآن. لكن الفلاسفة أحيوا بعض الآراء التي كانت مهددة بالضياح في الأمة في ذلك الوقت. وهكذا كان للقرآن موقفاً إيجابياً جداً من التراثات الأخرى: لم يكن محمد يعتقد أنه يؤسس ديناً جديداً استثنائياً، وكان يعتبر أن مصدر الدين القويم هو الله الأحد. بحلول القرن التاسع عشر كان العلماء قد بدأوا يفقدون هذه النظرة، وكانوا يطورون مذهباً إسلامياً على أنه الدين الواحد الحق. لقد ارتد الفلاسفة إلى التوجه الكوني القديم مع أنهم بلغوه بطريقة مختلفة. ولدنا اليوم فرصة مماثلة. ففي عصرنا العلمي ليس في وسعنا أن نفكر بالله بالطريقة نفسها التي فكر بها أسلافنا، لكن تحدي العلم قد يساعدنا على قبول بعض حقائق قديمة.

لقد رأينا أن ألبرت آينشتاين كان لديه قبولٌ لدين صوفي، وعلى الرغم من ملاحظاته الشهيرة حول إله لا يلعب النرد فإن آينشتاين لم يكن يعتقد أن نظريته النسبية لا بد أن تؤثر على مفهوم الله. فخلال إحدى زيارته إلى إنجلترا عام ١٩٢١ سأل أسقف كانتربري عن معاني النسبية في الدين. فأجابه آينشتاين: «ليست لها معاني». فالنسبية مسألة علمية محضة ولا علاقة لها بالدين»^(١). عندما يشعر المسيحيون بالإحباط الذي يجلبه لهم علماء من أمثال ستيفن هوكينغ الذي لا يستطيع أن يجد متسعاً لله في كوسمولوجياه، فمن المحتمل أنهم ما يزالون يفكرون بالله بمفردات شخصية ككائن خلق العالم بالطريقة نفسها كما نفعل نحن. مع ذلك لم يكن الخلق مفهوماً أصلاً بطريقة حرفية فالاهتمام بيهوى بصفته خالقاً لم يدخل إلى اليهودية حتى النفي إلى بابل. وكان مفهوماً غريباً عن العالم اليوناني: فالخلق من عدم لم يكن عقيدة رسمية مسيحية حتى المجتمع المسكوني في نيقيا عام ٣٢٥.

الخلق مسألة مركزية في القرآن، لكنه مثل جميع الآيات عن الله، كان الخلق آية حقيقية لا يمكن فهمها. وقد وجد العقلائيون اليهود والمسلمون هذا الاعتقاد صعباً جداً وإشكالياً فرفضه كثيرون، بينما فضل المتصوفون والقباليون جميعاً تشبيه الفيض اليوناني. لم تكن الكوسمولوجيا - على أية حال - تعبيراً علمياً لحقيقة سيكولوجية أو روحية. وبالتالي هناك حماسة فائقة تجاه العلم الحديث في العالم الإسلامي: فكما رأينا كانت تمثل أحداث

التاريخ الحديث تهديداً أكبر من تهديد العلم للمفهوم التراثي عن الله. بينما ساد في الغرب فهم أقرب إلى الحرفية للكتاب المقدس. فعندما يشعر بعض المسيحيين الغربيين أن إيمانهم بالله قد لغمه العلم الحديث نجدهم يتصورون الله على أنه الميكانيك Mechanik العظيم الذي أوجده نيوتن. أو مفهوماً شخصانياً لله الذي يجب رفضه استناداً إلى أسس دينية وعلمية أيضاً. فقد يصدم تحدي العلم الكنائس بقبول جديد ذي طبيعة رمزية للسرد في الكتاب المقدس.

تبدو فكرة إله شخصي غير مقبولة بشكل متزايد في الوقت الحاضر لجميع الأسباب الأخلاقية والعقلية والعلمية والروحية. فالحركات النسائية مرفوضة لدى إله شخصي بسبب جنسه منذ أيامه الوثنية القبلية. مع ذلك فالحديث عن هي she بأسلوب غير الأسلوب الديالكتيكي أمر محدود أيضاً لأنها تحصر الله الذي لا يمكن وضع حدود له في مجال إنساني محض. فالمفهوم الميتافيزيقي القديم عن الله ككائن أسمى الذي كان معروفاً في الغرب منذ أمد بعيد يشعر به الناس أنه غير مقنع أيضاً. فإله الفلاسفة نتاج عقلانية غدت قديمة الآن، وبذلك أصبحت البراهين التراثية على وجوده ليست بذات جدوى. فالقبول الواسع الانتشار لإله الفلاسفة على يد التأليهين في عصر الأنوار بالإمكان رؤيته كخطوة أولى إلى الإلحادية الراهنة. هذا الإله مثل إله العلماء القديم جيد جداً عن البشرية والعالم المادي، والذي يصبح بكل سهولة Deus Otiosus ويتلاشى من وعينا.

فكما يبدو قد يقدم إله المتصوفين بديلاً ممكناً، فمنذ فترة طويلة شدد المتصوفون على أن الله ليس كائناً آخر، وقالوا أنه غير موجود فعلاً ومن الأفضل أن نسميه لا شيء Nothing. يتناغم هذا الله مع المزاج الإلحادي لمجتمعنا الدنيوي بعدم ثقته بصور المطلق غير الكافية. فبدلاً من رؤية الله كحقيقة موضوعية بالإمكان إيضاحها بوسائل البرهان العلمي نادى المتصوفون بأنه تجربة ذاتية نعرفها بطريقة غامضة في أرض الواقع. فمقارنة هذا الله ينبغي أن تكون عبر الخيلة، وبالإمكان رؤيته كنوع من شكل فني مماثل للرموز الفنية العظيمة الأخرى التي عبرت عن السر الذي لا يوصف، وعن جمال وقيمة الحياة. لقد استخدم المتصوفون الموسيقى والرقص والشعر والخيال والقصص والرسم والنحت والهندسة المعمارية كي يعبروا عن هذه الحقيقة التي تتجاوز المفاهيم. فالصوفية - مثلها مثل كل فن - تتطلب الذكاء والانضباط ونقد الذات صوتاً من الانغماس في إفراط عاطفي. ويقوم إله المتصوفين بإرضاء الحركات النسائية لأن المتصوفين والقباليين قد حاولوا منذ زمن

طويل إدخال عنصر أنثوي إلى المقدس.

إلا أن هناك تراجعات على أية حال، فقد أحاطت الشكوك بالصوفية وسط الكثير من اليهود والمسلمين منذ إخفاق شبتاي زيفي التام، وانحطاط الصوفية اللاحق. لم تكن الصوفية في الغرب أبداً تياراً رئيسياً في الحماسة الدينية فالمصلحون البروتستانت والكاثوليك اعتبروا الصوفية إما أنها غير قانونية أو أنها مهيشة، كما أن عصر العقل العلمي لم يشجع أسلوب الفهم هذا. منذ ستينات هذا القرن نما اهتمام جديد بالصوفية تم التعبير عنه من خلال الاهتمام باليوغا والتأمل والبوذية، لكن هذا الاتجاه لا يتوافق بسهولة مع عقليتنا التجريبية الموضوعية. فليس سهلاً فهم إله المتصوفين بل يتطلب تدريباً طويلاً على يد خبير، وزمناً طويلاً. على المتصوفين أن يجدوا للحصول على هذا الإحساس بالوجود الذي يعرف باسم الله (وربما يرفضون أن يسموه). ويشدد المتصوفون على أنه ينبغي على البشر أن يخلقوا عمداً هذا الإحساس بالله بأنفسهم بالدرجة نفسها من الحرص والاهتمام اللذين يذلها آخرون في الإبداع الفني. ليس من المحتمل أن تلقى الصوفية الاستحسان في مجتمع أصبح معتاداً على إحساس بالرضا سريع الإيقاع، وعلى الوجبات السريعة، والتواصل العابر. لم يبلغ إله المتصوفين بعد الحد الذي يصبح فيه سلعة جاهزة وموضبة مسبقاً. فليس بالإمكان الإحساس بالبدعة، النشوة اللحظية التي يلغها مشر إحيائي Revivalist يكسب حشداً كاملاً يصفق له بأيديه، ويتحدث إليهم عبر أنستهم.

من الممكن تبني بعض المواقف الصوفية. فحتى لو كنا غير قادرين على بلوغ حالات أعلى من الوعي الذي يبلغه المتصوف، فإننا نستطيع أن نتعلم أن الله لا يوجد بأي معنى تبسيطي، أو أن كلمة الله ذاتها هي مجرد رمز لوجود يتجاوز كلمة الله. فقد يساعد التركيز الصوفي على امتلاك كاتب يوقنا من الاندفاع في هذه المسائل المقددة بتأكيد دوغمائي. لكن إذا لم يتم الإحساس بهذه المفاهيم في النبض، وإذا اعتبرت أنها غير ملائمة شخصياً فمن المحتمل أن تبدو تجريدات خالية من المعنى. فقد يتضح أن صوفية من الدرجة الثانية غير مرضية مثل قراءة شرح قصيدة كتبه ناقد أدبي بدلاً عن قراءة القصيدة ذاتها. كما رأينا كانت الصوفية في أغلب الأحيان تدريباً سريعاً لأن الحقائق فيها لا يفهمها سوى الجزء الحدسي من العقل بعد تدريب خاص، وليس لأنهم أرادوا عزل العامة عنها. إنها تعني شيئاً مختلفاً عند مقارنتها بهذه الطريقة المحددة، وهي ليست في متناول المقدرة العقلانية المطلقة.

منذ أن بدأ أنبياء إسرائيل في نسب مشاعرهم وتجاربهم إلى الله خلق الموحدون إلهاً ما لأنفسهم، بمعنى من المعاني. فقد كانوا يرون أن الله حقيقة أنصحت عن ذاتها وبالإمكان التعرف عليه مثل التعرف على أي وجود موضوعي. وفي يومنا هذا يبدو أن أناساً أكثر قد فقدوا الإرادة للقيام بهذا المسعى التخيلي. فلا حاجة إلى أن يشكل هذا كارثة، فعندما فقدت الأفكار الدينية فاعليتها خبت دون ألم: فإذا كانت الفكرة البشرية عن الله لم تعد مجدية بالنسبة لنا في عصر تجريبي فإنها سوف تلقى الإهمال. في الماضي خلق الناس دائماً رموزاً جديدة كي تعمل كبؤر روحية، وخلقوا دائماً إيماناً بأنفسهم لتنمية هذا الإحساس بالتعجب ومعنى للحياة لا يمكن وصفه. يبدو أن اللاهوتية والتغريب وفقدان القانون العام والعنف الذي يسم القسم الأعظم من حياتنا يدل على أن الناس لا يخلقون عن عمد إيماناً بالله أو أي شيء آخر، فالتناس يستقنون في لجة اليأس.

في الولايات المتحدة يزعم ٩٩٪ من السكان أنهم يؤمنون بالله ومع ذلك نجد انتشار الأصولية، والرؤية، وأشكال دينية عابرة غير مطمئنة. فارتفاع معدل الجريمة المتصاعد، وتعاظمي المخدرات، وإحياء عقوبة الإعدام ليست بوادر مجتمع سليم روحياً. في أوروبا هناك خواء متزايد في المكان الذي كان الله موجوداً فيه في الوعي البشري. فأحد الأوائل الذين عبروا عن هذا الخراب، بشكل مختلف عن الإلحادية البطولية التي جسدها نيتشه هو توماس هاردي. ففي قصيدته طائر الشفن الأسود التي كتبها في ٣٠ / كانون الأول عام ١٩٠٠، تعبر عن موت الروح التي لم تعد قادرة على خلق إيمان بمعنى الحياة:

اتكأت على بوابة أيكة يانعة
عندما كان الصقيع شبحاً رمادياً
وذبول الشتاء جعلت
عين النهار الداوية باتسة.
وسوق اللباب المشابكة تعلو في السماء
كاوتار لثارة محطمة
بينما الناس الذين يسكنون الجوار
التفوا حول نيران تتأجج في مدايقهم
بدت ملامح الأرض الصارمة وكأنها
جثة القرن مكشوفة.
مدفنها سماء ملبدة بالغيوم
والريح تندب موتها.

نبض البذرة القديم، ونبض الولادة
كان يرتعش بشدة وجافاً
وكل روح على الأرض
بدت دون حرارة مطني أنا.

وفي الحال أتى صوت من بين
الأغصان الكثيرة فوق رأسي
في نشيد ملأ القلب
لا حدود ليهجته
طائر سحّين، عجوز مضني هزيل،
وجنون العاصفة قد عاث في ريشه
قد اختار أن يرمي روحه
على الكتابة المتزايدة

سبب ضئيل لهذا التغريد البهيج
لهذا الصوت الذي يعث النشوة
كان مكشياً على أشياء دليوية
بعيدة أو في الجوار
تمكنت أن أفكر هناك وأرتعش
في هواء مسائه الليل السعيد
بأمل مبارك قد عرفه هذا الطائر المعجوز
بينما لم أكن مدركاً له .

لا يستطيع البشر احتمال الفراغ أو الخراب، إنهم سوف يملؤون الفراغ بخلق بؤرة
جديدة لمعنى، ومعبودات التزعة الأصولية ليست بدائل جيدة عن الله. فإذا كان لا بد من
خلق إيمان جديد نابض بالحياة من أجل القرن الحادي والعشرين فلربما ينبغي علينا أن نتأمل
ملياً تاريخ الله كي نحصل على دروس ومحاذير.

انتهى

هوامش ومراجع الكتاب

الفصل الأول

- ١ - مرسيا إلياد، أسطورة العودة الأبدية أو الكون والتاريخ. ترجمة ويلارد ر. تراسل برنستون ١٩٥٤
- ٢ - من «الحلق الباطني»، في. ن. ك. ساندرا (ترجمة) قصائد السماء والجحيم من بلاد الرافدين القديمة لندن ١٩٧١
- ٣ - مكرر ص ٩٩
- ٤ - بندار، نيمين الجزء السادس ١ - ٤ أغاني بندار ترجمة سي. م. لورا (هارموندسورث) ١٩٦٩ ص ٢٠٦
- ٥ - لصوص عناة بعل ٤٩: ١١: ٥ الواردة في الآلهة القديمة إي. و. جيمس. لندن ١٩٦٠ ، ص ٨٨
- ٦ - سفر التكوين الأصحاح الثاني: ٥ - ٧
- ٧ - سفر التكوين الأصحاح الرابع: ٢٦ سفر الخروج الأصحاح السادس: ٣
- ٨ - سفر التكوين الأصحاح ٣١: ٤٢ والأصحاح ٤٩: ٢٤
- ٩ - سفر التكوين الأصحاح ١٧: ١
- ١٠ - الألباظة المقطع ٢٤ ، ٣٩٣ (ترجمة إي، في، ريو) هارموند سورث. ١٩٥٠ ص ٤٤٦ .
- ١١ - أعمال الرسل ١٤: ١١ - ١٨
- ١٢ - سفر التكوين الأصحاح ٢٨: ١٥
- ١٣ - سفر التكوين الأصحاح ٢٦: ١٦ - ١٧ أضيفت عناصر إلى هذا العرض على يد B ، ومن هنا استخدم الاسم يهوئ.
- ١٤ - سفر التكوين الأصحاح ٣٢: ٣٠ - ٣١ .
- ١٥ - جورج ي. مندنهول، (الفتح العربي لفلسطين، دورية عالم الآثار التوراتي ٢٥ ، ١٩٦٢ م فيهرت، استيطان القبائل الاسرائيلية في فلسطين لندن ١٩٧١ .
- ١٦ - سفر تثنية الاشتراح الأصحاح ٢٦: ٥ - ٨ .
- ١٧ - ل. ي. بيهو، عناصر مدنية في الدين العربي. دراسات لاهوتية يهودية، ٣١ ، سالو ويتمار بارون، التاريخ الاجتماعي والديني لليهود ١٠ أجزاء الثاني edn (نيويورك ١٩٥٢ - ١٩٦٧) ص ٤٦ .
- ١٨ - سفر الخروج الأصحاح الثالث: ٥ - ٦
- ١٩ - سفر الخروج الأصحاح الثالث: ١٤
- ٢٠ - سفر الخروج الأصحاح ١٩: ١٦ - ١٨

- ٢١ - سفر الخروج الاصحاح ٢٠: ٢
- ٢٢ - يشوع الاصحاح ٢٤: ١٤ - ١٥
- ٢٣ - يشوع الاصحاح ٢٤: ٢٤
- ٢٤ - جيمس الآلهة القديمة ص ١٥٢ للزامير ٢٩ ، ٨٩ ، ٩٣ . تعود هذه للزامير إلى مابعد النبي.
- ٢٥ - الملوك الجزء الأول الاصحاح ١٨ - ٢٠ - ٤٠
- ٢٦ - الملوك الجزء الأول الاصحاح ١٩: ١١ - ١٣
- ٢٧ - ريج فيلدا ١٠: ٢٩ في ر. ه. زابتر (مترجمة) الكتب الهندوسية المقدسة (لندن ونيويورك ١٩٦٦ ص ١٢)
- ٢٨ - تشاندوغيا أبا نيشاذر القسم السادس. ١٣ . في جوان ماسكارو (ترجمة) الأباتيشاذر هارموندسورث ١٩٦٥ ص ١١١
- ٢٩ - كينا أبا نيشاذر ١ - في جوان ماسكارو (ترجمة) الأباتيشاذر ص ٥١ .
- ٣٠ - مكر ص ٥٢
- ٣١ - ساميوتا نيكيا الجزء الثاني نيدانا فيجا (ترجمة ليون فير) لندن ١٨٨٨ ص ١٠٦
- ٣٢ - إدوارد كوزن، البوذية: جوهرها وتطورها (أوكسفورد ١٩٥٩)، ص ٤٠
- ٣٣ - أودانا ٨ ، ١٣ ، مُستشهد بها ومترجمة في بول شتاينتا، أودانا (لندن ١٨٨٥)، ص ٨١
- ٣٤ - للأدبة (ترجمة ديليو هاملتون)، هارموندسورث، ١٩٥١ (ص ٩٣ - ٩٤ .
- ٣٥ - الفلسفة - كسرة ١٥ .
- ٣٦ - فن الشعر ١٤٦١ ب ، ٣ .

الفصل الثاني

- ١ - أشعيا الاصحاح السادس: ٣ .
- ٢ - رودولف أوتو، فكرة المقدس، بحث في الجانب اللاعقلاني في فكرة الإلهي وعلاقته مع الجانب العقلاني (ترجمة) جون ديليو هارفي أوكسفورد، ١٩٢٣ ، ص ٢٩٠ - ٣٠ .
- ٣ - أشعيا الاصحاح السادس: ٥
- ٤ - الخروج : ٤ : ١١
- ٥ - للزامير: ٢٩ ، ٨٩ ، ٩٣ دافون كان إله الفيلستيين.
- ٦ - أشعيا ٦: ١٠
- ٧ - متى: ١٣: ١٤ - ١٥
- ٨ - نقش على عظم اسفيني مسماري مُستشهد به في شايام بوتوك، التيه، تاريخ اليهود، نيويورك ١٩٧٨ ص ١٨٧ .
- ٩ - أشعيا ٦: ١٣
- ١٠ - أشعيا ٦: ١٢
- ١١ - أشعيا ١٠: ٥ - ٦
- ١٢ - أشعيا ١: ٣
- ١٣ - أشعيا ١: ١١ - ١٥
- ١٤ - أشعيا ١: ١٥ - ١٧

- ١٥ - عاموس ٧: ١٥ - ١٧
 ١٦ - عاموس ٣: ٨
 ١٧ - عاموس ٨: ٧
 ١٨ - عاموس ٥: ١٨
 ١٩ - عاموس ٣: ١ - ٢
 ٢٠ - هوشع ٨: ٥
 ٢١ - هوشع ٦: ٦
 ٢٢ - التكوين ٤: ١
 ٢٣ - هوشع ٢: ٢٣ - ٢٤ .
 ٢٤ - هوشع ٢: ١٨ - ١٩
 ٢٥ - هوشع ١: ٢
 ٢٦ - هوشع ١: ٩
 ٢٧ - هوشع ١٣: ٢
 ٢٨ - إرميا ١٠: ٣١ ، ٦: ١١٥ ، ٤: ٨ ، ١٣٥ - ١٥
 ٢٩ - ترجمة هذا الشعر قام بها جون بوكرا، الخيلة الدينية والاحساس الديني بالله (أوكسفورد ١٩٧٨) ص ٧٣
 ٣٠ - التكوين ١٤: ٢٠
 ٣١ - الملوك الثاني ٣٢: ٣ - ١٠ . التواريخ ٣٤: ١٤
 ٣٢ - تثنية الاشتراع ٦: ٤ - ٦
 ٣٣ - تثنية الاشتراع ٧: ٣ .
 ٣٤ - تثنية الاشتراع ٧: ٥ - ٦ .
 ٣٥ - تثنية الاشتراع ٢٨: ٦٤ - ٦٨ .
 ٣٦ - أخبار الأيام الثاني ٣٤: ٥ - ٧
 ٣٧ - الخروج ٢٣: ٣٣
 ٣٨ - يوشع ١١: ٢١ - ٢٢
 ٣٩ - إرميا ٢٥: ٨ ، ٩
 ٤٠ - إرميا ١٣: ١٥ - ١٧
 ٤١ - إرميا ٦: ١ - ١٠ .
 ٤٢ - إرميا ٢٣: ٩
 ٤٣ - إرميا ٢٠: ٧ ، ٩
 ٤٤ - في الصين يعتبر تاو والكونفوشوسية وجهان لروحانية واحدة بما يتعلق بالقسم الداخلي والخارجي في الإنسان. الهندوسية والبوذية بينهما علاقة مشتركة وبالإمكان اعتبارهما وثنية مُضَلَّحة.
 ٤٥ - إرميا ٢: ٣١ ، ٣٢ ، ١٢: ٧ - ١١ ، ١٤: ٧ - ٩ ، ٦: ١١
 ٤٦ - إرميا ٣٢: ١٥
 ٤٧ - إرميا ٤٤: ١٥ - ١٩ .

- ٤٨ - إرميا ٣١: ٣٣ .
- ٤٩ - حزقيال ١: ٤ - ٢٥ .
- ٥٠ - حزقيال ٣: ١٤ - ١٥ .
- ٥١ - حزقيال ٨: ١٢ .
- ٥٢ - المزمو ١٣٧ .
- ٥٣ - أشعيا ١١: ١٥ - ١٦ .
- ٥٤ - أشعيا ٥١: ٩ ، ١٠ هذا يكون موضوعاً ثابتاً. انظر المزامير ٦٥: ٧ ، ٧٤: ١٣ - ١٤ ، ٧٧: ١٦ ، أيوب ٣: ٨ ، ٧: ١٢ .
- ٥٥ - أشعيا ٤٦: ١ .
- ٥٦ - أشعيا ٤٥: ٢١ .
- ٥٧ - أشعيا ٥١: ٩ - ١٠ .
- ٥٨ - أشعيا ٥٥: ٨ ، ٩ .
- ٥٩ - أشعيا ١٩: ٢٤ ، ٢٥ .
- ٦٠ - الخروج ٣٣: ٢٠ .
- ٦١ - الخروج ٣٣: ١٨ .
- ٦٢ - الخروج ٣٤: ٢٩ - ٣٥ .
- ٦٣ - الخروج ٤٠: ٣٤ ، ٣٥ ، حزقيال ٩: ٣ .
- ٦٤ - المزامير ٧٤ و ١٠٤ .
- ٦٥ - الخروج ٢٥: ٨ ، ٩ .
- ٦٦ - الخروج ٢٥: ٣ - ٥ .
- ٦٧ - الخروج ٣٩: ٣٢ ، ٤٣: ٤٠ ، ٤٠: ٢ ، ١٧: ٣١ ، ٣: ١٣ .
- ٦٨ - تنبيه الاشتراع ٥: ١٢ - ١٧ .
- ٦٩ - تنبيه الاشتراع ١٤: ١ - ٢١ .
- ٧٠ - الأمثال ٨: ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣١ .
- ٧١ - بن سيرا ٢٤: ٣ - ٦ .
- ٧٢ - حكمة سليمان ٧: ٢٥ - ٢٦ .
- ٧٣ - De specialibus legibus ١: ٧٥ .
- ٧٤ - الله لا يهتريه الصغير، ٦٢ ، حياة موسى، ١: ٧٥ .
- ٧٥ - إبراهيم ١٢٠ - ١٢٣ .
- ٧٦ - هجرة إبراهيم، ٣٤ - ٣٥ .
- ٧٧ - شابات ٣١ أ.
- ٧٨ - Aroth de Rabba Nathan ، ٦ .
- ٧٩ - لويس جاكوب، الإيمان (لندن، ١٩٦٨) ص ٧ .
- ٨٠ - اللاويين Rabba ٨: ٢ ، Sotah ٩ ب .
- ٨١ - الخروج Rabba ٣٤: ١ حاجي ١٣ ب، ميكلتا إلى الخروج ١٥: ٣ .
- ٨٢ - بابا ميتزيا ٥٩ ب.

- ٨٣ - نشيد المشينا ٢٥: ٦ ، نشيد ١٣٩: ١ ، تانحوما ٣: ٨٠ .
- ٨٤ - تعليق على أيوب ١١ : ٧ ، نشيد ميشنا ٢٥: ٦
- ٨٥ - الحبر يونان ب. نابانا: وهو الذي يتحدث أو يروي الكثير عن تعظيم الله سوف يقتلع من هذا العالم.
- ٨٦ - التكوين Rabba ٦٨ - ٦٩ .
- ٨٧ - Yalkut on psalm ٨: ٤ Rabba اللاويين و B. Berakoth loa Rabba الخروج.
- ٨٨ - B. Migillah 29 a
- ٨٩ - نشيد الإنشاد Rabba: ٢ القدس سوكا Sukkah ٤ .
- ٩٠ - الأعداء Rabba: ١١ ، ٢ : اثنتي ٧: ٢ مني على الأمثال ٨ : ٣٤
- ٩١ - ٦: ١٩ Mekhilta de Rabbi Simon on Exodus أعمال الرسل ٤: ٣٢ .
- ٩٢ - نشيد الإنشاد Rabba ٨: ١٢ .
- ٩٣ - على نشيد الإنشاد ، ١: ٢ Yalkut
- ٩٤ - التنية: ٣٦ . Sifre on Deutesonomy
- ٩٥ - مارو مشتاين الاعتقاد الحبري القديم بالله، أسماء وصفات الله (أو كسفورد، ١٩٢٧) ص ١٧١ - ١٧٤ .
- ٩٦ - Niddah ٣١ b
- ٩٧ - Yalkut على صموئيل الثاني ٢٢: ١ B. Yoma ٢٢ Yalkut على إستير ٢: ٥ .
- ٩٨ - يعقوب E نوسير تنوعات اليهودية في العصر التكويني في آرثر غرين الروحانية اليهودية في مجلدتين (لندن ١٩٨٦ - ١٩٨٨) الجزء الأول ١٧٢ - ١٧٣ .
- ٩٩ - سفر على اللاويين ١٩: ٨ .
- ١٠٠ - Mekhilta على الخروج ٢٠: ١٣ .
- ١٠١ - بيسكي أبوت ٦: ٦ ، هورايوت ١٣ a
- ١٠٢ - Sanhedrin ٤: ٥
- ١٠٣ - بابا ميتزا ٥٨ ب .
- ١٠٤ - Arakin ١٥ ب.

الفصل الثالث

- ١ - مرقس ١: ١٨ ، ١١
- ٢ - مرقس ١: ١٥ . عاقبة ما تترجم هذه العبارة: «ملكة الله بين أيديكم» لكن العبارة في اليونانية أقوى.
- ٣ - انظر كتاب جيزا فرمس يسوع اليهودي (لندن، ١٩٧٣)، وكتاب بول جونسون تاريخ اليهود (لندن ١٩٨٧)
- ٤ - متى ٥: ١٧ - ١٩ .
- ٥ - متى ٧: ١٢ .
- ٦ - متى ٢٣ .
- ٧ - ت. سوف ١٣: ٢

- ٨ - متى ١٧ : ٢
- ٩ - متى ١٧ - ٥
- ١٠ - متى ١٧ : ٢٠ ، مرقس ١١ - ٢٢ - ٢٣ .
- ١١ - Astasahasrika ١٥ : ٢٩٣ في كتاب إدوار كونز البوذية جوهرها وتطورها (أوكسفورد، ١٩٥٩) ص ١٢٥ .
- ١٢ - بهاغاناد جينا، مجلس كريشنا في الحرب (نيويورك، ١٩٨٦) ١١ ، ١٤ ، ص ٩٧ .
- ١٣ - نفس المصدر.
- ١٤ - نفس المصدر
- ١٥ - الغلاطيين ١ : ١١ - ١٤ .
- ١٦ - انظر مثلاً الرومان ١٢ : ٥ ، الكورنثيين ٤ : ١٥ ، ٢ : ١٧ ، ٥ : ١٧ .
- ١٧ - الكورنثيين ٢ : ١ : ٢٤ .
- ١٨ - استشهد بها بولس في العظة التي وضعت على شقيقه من قبل مؤلف أفعال الرسل ١٧ : ٢٨ ولربما أتى هذا الاستشهاد من Epimanides
- ١٩ - الاختصار الأول ١٥ : ٤
- ٢٠ - الرومان ٦ : ٤ ، الغلاطيين ٥ : ١٦ - ٢٥ ، الكورنثيين ٥ : ١٧ إلى أهل أفسس ٢ : ١٥ .
- ٢١ - إلى أهل كولويسي ١ : ٢٤ . إلى أهل أفسس ٣ : ١ ، ١٣ ، ٩ : ٣ ، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١ : ١٣ .
- ٢٢ - الرومان الأولى ١ : ١٢ - ١٨
- ٢٣ - إلى أهل فيلبس ٢ : ٦ - ١١ .
- ٢٤ - يوحنا ١ : ٣ .
- ٢٥ - يوحنا الأولى ١ : ١ .
- ٢٦ - أعمال الرسل ٢ : ٢ .
- ٢٧ - نفس المصدر ٢ : ٩ ، ١٠ .
- ٢٨ - يوثيم ٣ : ١ - ٥ .
- ٢٩ - أعمال الرسل ٢ : ٢٢ - ٣٦ .
- ٣٠ - نفس المصدر.
- ٣١ - مأخوذة من كتاب أ. د. نوك الإيمان، التقديم والجديد في الدين من الاسكتندر الكبير حتى أوجسطين هيو (أوكسفورد، ١٩٣٣). ص ٢٠٧ .
- ٣٢ - Ad Bartizondos Homily ١٣ : ١٤ . أوردها ويلفرد كانتويل سميث في كتابه الإيمان والمعتقد (برنستون ١٩٧٩) ص. ٢٥٩ .
- ٣٣ - وصف قديمه إيرانيوس I Heresies هرطقات ١ : ١ معظم مؤلفات الهرطقة القدامى قد أُلغيت، وهي باقية في لاهوت أنصارهم فقط.
- ٣٤ - هيريليتوس، Heresies هرطقات، ٧ ، ١٢ ، ٤ .
- ٣٥ - إيرانيوس هرطقات: ١ ، ٥ ، ٣ .
- ٣٦ - هيريليتوس هرطقات ٨ ، ١٥ ، ١ - ٢ .

- ٣٧ - لوقا ٦: ٤٣ .
- ٣٨ - إيرانيوس هرطقات ١ ، ٢٧ ، ٢ .
- ٣٩ - تيرتوليان، ضد مارسيون، ١ ، ٦ ، ١ .
- ٤٠ - أوجين، ضد سيلبيوس ١ ، ٩ .
- ٤١ - نصيحة إلى الإغريق ٥٩ ، ٢ .
- ٤٢ - نفس المصدر، ١٠ ، ١٠٦ ، ٤ .
- ٤٣ - المعلم ٢ ، ٣ ، ٣٨١ .
- ٤٤ - نصيحة إلى الإغريق ١ ، ٨ ، ٤ .
- ٤٥ - هرطقات ٥ ، ١٦ ، ٢ .
- ٤٦ - Enneads ٥ ، ٦ .
- ٤٧ - نفس المصدر ٣ ، ٥ ، ١١ .
- ٤٨ - نفس المصدر ٧ ، ٣ ، ٢ .
- ٤٩ - نفس المصدر ٥ ، ٢ ، ١ .
- ٥٠ - نفس المصدر ٤ ، ٣ ، ٩ .
- ٥١ - نفس المصدر ٤ ، ٣ ، ٩ .
- ٥٢ - نفس المصدر ٦ ، ٧ ، ٣٧ .
- ٥٣ - نفس المصدر ٦ ، ٩ ، ٩ .
- ٥٤ - نفس المصدر ٦ ، ٩ ، ٤ .
- ٥٥ - جارسلاف، التراث المسيحي، تاريخ تطور العقيدة، خمسة أجزاء، الجزء الأول ظهور التراث الكاثوليكي (شيكاغو ١٩٧١) ص ١٠٣ .

الفصل الرابع

- ١ - المصدر هو غريغوري التياشي.
- ٢ - في رسالة إلى اسبيوس حليفه، وفي تالية Thalia التي أوردتها روبرت سي غريغ ودينس ي غروه، الإيرانية الأولى، وجهة نظر للخلاص (لندن، ١٩٨١) ص ٦٦٠ .
- ٣ - أريوس رسالة إلى الاسكندر.
- ٤ - الأمثال ٨: ٢٢ واردة في الصفحة ٨١ و ٨٢ .
- ٥ - يوحنا ١ ، ٣ .
- ٦ - يوحنا ١ ، ٢ .
- ٧ - إلى أهل فيلبس ٢: ٦ - ١١ واردة في الصفحة ١٠٥ .
- ٨ - أريوس رسالة إلى الاسكندر ٦ ، ٢ .
- ٩ - أثناسيوس ضد الكفار، ٤١ .
- ١٠ - أثناسيوس في التجسيد ٥٤ .
- ١١ - يختلف هذا عن الجانب العقائدي والمعروف عادة باسم معتقد نيقية الذي تم وضعه في مجلس القسطنطينية في ٣٨١ .

- ١٢ - أثناسيوس حول السيندوس في أرمينوم وسلوقية، ١٤ ، ١ .
 ١٣ - أثناسيوس حياة أنطون.
 ١٤ - باصيل /في الروح القدس/ ٢٨ ، ٦٦ .
 ١٥ - نفس المصدر.
 ١٦ - غريغوري النياسي ضد إيونوميوس Eunomius ٣ .
 ١٧ - غريغوري النياسي جواب إلى إيونوميوس في كتابه الثاني.
 ١٨ - غريغوري النياسي حياة موسى، ٢ ، ١٦٤ .
 ١٩ - باصيل، رسالة ٢٣٤ ، ١ .
 ٢٠ - خطبة، ٣١ - ٨ .
 ٢١ - غريغوري النياسي لا آلهة ثلاث.
 ٢٢ - ج. ل. بريستيج الله في الفكر الكنسي (لندن، ١٩٥٢) ص، ٣٠٠ .
 ٢٣ - غريغوري النياسي لا آلهة ثلاث.
 ٢٤ - غريغوري النياسي الخطبة ٤٠ ، ٤١ .
 ٢٥ - غريغوري النياسي الخطبة ٢٩ : ٦ - ١٠ .
 ٢٦ - باصيل، الخطبة ٣٨ : ٤ .
 ٢٧ - في الثالث ٧ ، ٧٠٤ .
 ٢٨ - اعترافات ١ ، ١ ترجمة هنري شادويك (أوكسفورد، ١٩٩١) ص ٣ .
 ٢٩ - نفس المصدر ٨ ، ٧ (١٧)، ص ١٤٥ .
 ٣٠ - نفس المصدر ٨ ، ١٢ (٢٨) ص ١٥٢ .
 ٣١ - نفس المصدر ٨ ، ١٢ ، (٢٩)، ص ١٥٢ - ١٥٣ فقرة من رسالة بولص إلى أهل رومية ١٣ :
 ١٣ - ١٤ .
 ٣٢ - نفس المصدر ١٠ ، ١٧ (٢٦) ص ١٩٤ .
 ٣٣ - نفس المصدر ٥ ، ٢٧ (٣٨) ص ٢٠١ .
 ٣٤ - نفس المصدر.
 ٣٥ - في الثالث ٨ ، ٢ ، ٣ .
 ٣٦ - نفس المصدر .
 ٣٧ - نفس المصدر، ١٠ ، ١٠ ، ١٤ .
 ٣٨ - نفس المصدر ١٠ ، ١١ ، ١٨ .
 ٣٩ - نفس المصدر.
 ٤٠ - أندرو لوت أصول التراث الصوفي المسيحي (أوكسفورد ١٩٨٣) ص ٧٩ .
 ٤١ - أوغسطين في الثالث ١٣ .
 ٤٢ - نفس المصدر.
 ٤٣ - Enchyridion ٢٦ ، ٢٧ .
 ٤٤ - حول الملابس النسائية.
 ٤٥ - رسالة ٢٤٣ ، ١٠ .
 ٤٦ - المعنى الحرفي للتكوين ٩ ، ٥ ، ٩ .

- ٤٧ - رسالة ١١ .
 ٤٨ - نفس المصدر
 ٤٩ - التراتب الكنسي ١ .
 ٥٠ - الأسماء الإلهية ١١ ، ٧ .
 ٥١ - نفس المصدر ، ٧ ، ٣ .
 ٥٢ - نفس المصدر ١٣ ، ٣ .
 ٥٣ - نفس المصدر ٧ ، ٣ .
 ٥٤ - نفس المصدر ١ .
 ٥٥ - اللاهوت الصوفي ٣ .
 ٥٦ - الأسماء الإلهية ٤ ، ٣ .
 ٥٧ P.G Ambigua, Migne ٩١ ، ١٠٨٨٢ .

الفصل الخامس

- ١ - محمد، سيرة ابن اسحق ١٤٥ واردة في ترجمة أ. غيلام بعنوان حياة محمد (لندن ١٩٥٥) ص ١٦٠ .
 ٢ - القرآن ٩٦: ١
 ٣ - سيرة ابن اسحق، ١٥٣ في ترجمة غيلام حياة محمد ص ١٠٦ .
 ٤ - نفس المصدر.
 ٥ - جلال الدين السيوطي/الاتقان في علم القرآن في كتاب رودنسون/ محمد/ ترجمة آن كارتز (لندن ١٩٧١) ص ٧٤ .
 ٦ - البخاري، حديث ١ ، ٣ ورد في كتاب مارتن لنفر/محمد، حياته وفقاً لأقدم المصادر/ (لندن ١٩٨٣/ ص ٤٤ - ٤٥).
 ٧ - اعتراض وجواب.
 ٨ - القرآن ٧٥: ١٧ - ١٩
 ٩ - القرآن ٤٢: ٧
 ١٠ - القرآن ٨٨: ٢١ - ٢٢
 ١١ - القرآن ٢٩: ٦١ - ٦٣ .
 ١٢ - القرآن ٩٦: ٦ - ٨
 ١٣ - القرآن ٨٠: ٢٤ - ٣٢ .
 ١٤ - القرآن ٩٢: ١٨ ، ٩: ١٠٣ ، ٩: ٦٣ ، ٩: ١٠٢ ، ١
 ١٥ - القرآن ٢٤: ١ ، ٤٥ .
 ١٦ - القرآن ٢: ١٥٨ - ١٥٩ .
 ١٧ - القرآن ٢٠: ١١٤ - ١١٥ .
 ١٨ - سيرة ابن اسحق ٢٢٧ في غيلام ترجمة /حياة محمد/ ص ١٥٩ .
 ١٩ - نفس المصدر ٢٢٨ ص ١٥٨
 ٢٠ - جورج شتاينر /حضورات حقيقية، هل هناك أي شيء فيما نقول؟/ (لندن ١٩٨٩) ص ١٤٢ .

- ١٤٣ .
- ٢١ - القرآن ٥٣ : ١٩ - ٢٦ .
- ٢٢ - كارين أرمسترونغ / محمد: محاولة غربية لفهم الإسلام/ (لندن، ١٩٩١) ص ١٠٨ - ١١٧ .
- ٢٣ - القرآن ١٠٩ .
- ٢٤ - القرآن ١١٢ .
- ٢٥ - أوردتها كتاب السيد حسين نصر/ الله في أساس الروحية الإسلامية/ (لندن ١٩٨٧) ص ٣٢١ .
- ٢٦ - القرآن ٢ : ١١ .
- ٢٧ - القرآن ٥٥ : ٢٦ .
- ٢٨ - القرآن ٢٤ : ٣٥ .
- ٢٩ - أرمسترونغ، /محمد/ ص ٢١ - ٤٤ ، ٨٦ - ٨٨ .
- ٣٠ - القرآن ٢٩ : ٤٦ .
- ٣١ - سيرة ابن اسحاق ٣٦٢ غلام (ترجمة) /حياة محمد/ ص ٢٤٦ .
- ٣٢ - هذه هي ترجمة محمد أسد لكلمة أهل الكتاب.
- ٣٣ - القرآن ٢ : ١٣٥ - ١٣٦ .
- ٣٤ - علي شريعتي /الحج/ (ترجمة لإله بختيان) (طهران ١٩٨٨) ص ٥٤ - ٥٦ .
- ٣٥ - القرآن ٣٣ - ٣٥ .
- ٣٦ - وارده في كتاب سيد حسين نصر/ أهمية السنة والحديث في الروحية الإسلامية/ ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- ٣٧ - يوحنا I ، ١ .
- ٣٨ - دهبو مونتغمري واط/ الإرادة الحرة والقلوب المسبوق في صدر الإسلام/ لندن ١٩٤٨ ص ١٣٩ .
- ٣٩ - أبو الحسن بن اسماعيل الأشعري مالاكات ١ ، ١٩٧ أوردتها أ. جي. ونينيك/ العقيدة الإسلامية، تكوينها وتطورها التاريخي/ (كامبريدج، ١٩٣٢) ص ٦٧ - ٦٨ .

الفصل السادس

- ١ - ترجمة ر. والزر/ الفلسفة الإسلامية/ أوردتها س. هـ. نصر/ اللاهوت والفلسفة والروحية في الروحية الإسلامية: (لندن ١٩٩١) ص ٤١١ .
- ٢ - لأن كلامها أتيا من الري في إيران.
- ٣ - ورد في كتاب عظيم ناجي «الأسلمة» في س. هـ. نصر أساس الروحية الإسلامية/ المطبوع في (لندن ١٩٨٧) ص ١٩٥ - ١٩٦ .
- ٤ - انظر هنري كورين/ جسم روحي وأرض سماوية من إيران المزدكية إلى إيران الشيعية/ (ترجمة نانسي بيرسون)، لندن (١٩٩٠) ص ٥١ - ٧٢ .
- ٥ - نفس المصدر ص ٥١ .
- ٦ - راسايل I ٧٦ وردت في كتاب ماجد فخري /تاريخ الفلسفة الإسلامية/ (نيويورك ولندن ١٩٧٠) ص ١٩٣ .
- ٧ - راسايل ١٧ ، ٤٢ ، في نفس المصدر ص ١٨٧ .

- ٨ - /الميتافيزيقا/ ١٢ ، ١٠٧٤ ، ٣٢ .
- ٩ - المنقذ من الضلال ترجمة دبلو مونتغمري وإط/ دين وعلماسة الغزالي / (لندن، ١٩٥٣/ ص ٢٠ .
- ١٠ - ورد في كتاب جون بوكز، الخيلة الدينية ومعنى الله (أوكسفورد، ١٩٧٨) ص ٢٠٢ .
- ١١ - عندما قرأ العلماء الغربيون كتابه ظنوا أن الغزالي كان فيلسوفاً.
- ١٢ - المنقذ، في كتاب وإط/ دين وعلماسة الغزالي/ ص ٥٩ .
- ١٣ - بوكز /الخيلة الدينية ومعنى الله/ ص ٢٢٢ - ٢٢٦ .
- ١٤ - القرآن ٢٤: ٣٥ . وردت في الصفحة ١٧٦ و ١٧٧ .
- ١٥ - مشكاة الأنوار الواردة في كتاب فخري /تاريخ الفلسفة الإسلامية/ ص ٢٧٨ .
- ١٦ - Kuzari الكتاب الثاني ورد في كتاب. جي. أبلسون/ أهمية الله في الأدب الجبري/ (لندن، ١٩١٢) ص ٢٥٧ .
- ١٧ - القرآن ٣: ٥ .
- ١٨ - مدرج في كتاب فخري تاريخ الفلسفة الإسلامية.
- ١٩ - مدرج في يوليوس غوتمان الفلسفات اليهودية، تاريخ الفلسفة اليهودية من العصور التوراتية حتى فرايز، روزنفلج (ترجمة دافيد دبلو سيلفرمان) (لندن وفيوريوك ١٩٦٤) ص ١٧٩ .
- ٢٠ - ورد في آ بلسون أهمية الله في الأدب الجبري / ص ٢٤٥ .
- ٢١ - من أجل مواقف صليبية مبكرة، كارين أرمسترونغ/ الحرب المقدسة، الصليبيون وتأثيرهم على عالم اليوم (نيويورك ١٩٩١ ، لندن ١٩٩٢) ص ٤٩ - ٧٥ .
- ٢٢ - عرض للتراتب الأرضي ٢ ، ١ .
- ٢٣ - Periphsean.Migne ب ٥ ، ٤٢٦ سي - دي.
- ٢٤ - نفس المصدر ٤٢٨٧ ب.
- ٢٥ - نفس المصدر ٦٨٠ دي ٦٨١ - أ.
- ٢٦ - نفس المصدر.
- ٢٧ - فلاديمير لوسكي اللاهوت الصوفي في الكنيسة الشرقية (لندن ١٩٥٧) ص ٥٧ - ٦٥ .
- ٢٨ - مونولوجيون ١ .
- ٢٩ - بروسولوجيون ١ .
- ٣٠ - بروسولوجيون، ٢ شرح لأشياء ٧: ٩ .
- ٣١ - جون ماكوازي بحثاً عن الألوهة، مقالة في الاتحاد الديالكتيكي (لندن، ١٩٤٨) ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
- ٣٢ - الخطبة ١٩١ ، ١ .
- ٣٣ - أورددها هنري أدامز في كتابه جيل سان ميشيل والعقود (لندن ١٩٨٦) ص ٢٩٦ .
- ٣٤ - أرمسترونغ، الحرب للمقدسة ص ١٩٩ - ٢٣٤ .
- ٣٥ - توما الاكويني DePotentia ٧٩ ، أ ٥ ، ١٤ : ١٤ .
- ٣٦ - موجز اللاهوت ١٣ ، ١١ .
- ٣٧ - رحلة العقل إلى الله ٦ ، ٢ .
- ٣٨ - نفس المصدر ٣ ، ١ .
- ٣٩ - نفس المصدر ١ ، ٧ .

الفصل السابع

- ١ - جون ماكوارى /التفكير في الله/ (لندن ١٩٥٧) ص ٣٤ .
- ٢ - حاجيجا ١٤ ب موردا المزمار ١٠٧: ٧ ، ١١٦: ١٥ ، ٢٥: ١٦ .
- ٣ - ورد في كتاب لويس جاكوب /المصوفون اليهود/ (أورشليم، ١٩٧٦ ، لندن ١٩٩٠) ص ٢٣ .
- ٤ - إلى أهل كورنث II ٢: ٢ - ٤
- ٥ - نشيد الإنشاد ١٠: ٥ - ١٥ .
- ٦ - مترجم في ت. كارمي /ينجوان بوك للشعر العبري/ (لندن ١٩٨١) ص ١٩٩ .
- ٧ - القرآن ٥٣: ١٣ - ١٧ .
- ٨ - اعترافات ٩ ، ٢٤ (ترجمة هنري شادويك) (أو كسفور ١٩٩٠) ص ١٧١ .
- ٩ - جوزيف كامبل (مع بل مويون) مقبرة الأسطورة (نيويورك، ١٩٨٨) ص ٨٥ .
- ١٠ - أنا ميري شميل، /ومحمد في رسوله، تيجيل النبي في التقوى الإسلامية/ (تشابل هيل ولندن ١٩٨٥) ص ١٦١ - ١٧٥ .
- ١١ - اعترافات الجزء التاسع: ٢٤ ترجمة شادويك، ص ١٧١ .
- ١٢ - اعترافات الجزء التاسع: ٢٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .
- ١٣ - نفس المرجع السابق.
- ١٤ - الأخلاق في أيوب V ٦٦
- ١٥ - نفس المرجع السابق ٢٤ ، ١١ .
- ١٦ - عظات دينية من حزقيال II ، ٢ ، ١ .
- ١٧ - تعليق على نشيد الإنشاد، ٦ .
- ١٨ - الرسالة ٢٣٤ ، ١ .
- ١٩ - في الصلاة، ٦٧ .
- ٢٠ - نفس المصدر السابق
- ٢١ - Ambigua P.G. ، ٩١ ، ١٠٨٨
- ٢٢ - بيتر براون مع سابين ماكورماك وفنون الأبدية في كتاب براودن /المجتمع والمقدس في أواخر العصور القديمة (لندن ١٩٩٢) ص ٢١٢ .
- ٢٣ - ليسانفوراس، دفاع أكبر عن الصور المقدسة، ٧٠ .
- ٢٤ - خطب لاهوتية I
- ٢٥ - خطب أخلاقية ١ ، ٣ .
- ٢٦ - خطب ٢٦ .
- ٢٧ - خطب أخلاقية ٥ .
- ٢٨ - تراثهم من الحب الإلهي ٢٨ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١٦٠ - ١٦٢ .
- ٢٩ - موسوعة عن الإسلام لندن ١٩١٣) ملخص تحت عنوان التصوف.
- ٣٠ - ترجمة ر. أ. ليكلسون وردت في كتاب آ. جي. أريزي /الصوفية، عرض للمصنفين المسلمين/ (لندن ١٩٥٠) ص ٤٣ .
- ٣١ - واردة في ر. أ. ليكلسون /متصوفوا الإسلام/ (لندن ١٩٦٣/ ص ١١٥).

- ٣٢ - سردي وارد في كتاب مارشال. ج. س. هودغسون/ مغامرة الإسلام، الوجدان والتاريخ في حضارة عالمية/ ثلاثة أجزاء، (شيكاغو ١٩٧٤)، ص ٤٠٤ الجزء الأول.
- ٣٣ - وارد في أريزي/ الصوفية/ ص ٥٩.
- ٣٤ - وارد في نيكلسون/ مصوفوا الإسلام/ ص ١٥١.
- ٣٥ - وارد في أريزي/ الصوفية/ ص ٦٠.
- ٣٦ - القرآن ٢: ٣٢.
- ٣٧ - حكمة الإشراف وأردة في كتاب هنري كورين/ الجسم الروحاني والأرض السماوية، من إيران للزدكية إلى إيران الشيعية/ (ترجمة ناتسي بيرسون)، لندن ١٩٩٥ ص ١٦٨ - ١٦٩.
- ٣٨ - مرسيا إلهاد shamanism، ص ١٦٨ - ١٦٩.
- ٣٩ - جان بول سارتر سيكولوجيا الخيلة (لندن ١٩٧٢)، Passim.
- ٤٠ - الفتوحات المكية الجزء الثاني، ٣٢٦، ورد في كتاب هنري كورين/ الخيلة المبدعة في صوفية ابن العربي (ترجمة رالف ماثام)، (لندن ١٩٧٠) ص ٣٣٠.
- ٤١ - الديوان شرح للرغبات المقدسة، في Ibid ص ١٣٨.
- ٤٢ - فيتا نونا (ترجمة باربرا رينولتز)، (هارمونديسوث، ١٩٦٩) ص ٢٩ - ٣٠.
- ٤٤ - ولهم شيتك/ ابن عربي ومدرسته/ في كتاب سيد حسين نصر/ الروحية الإسلامية: مظاهر نيويورك ولندن ١٩٩١) ص ٦١.
- ٤٥ - القرآن ١٨: ٦٩.
- ٤٦ - وردت في كتاب هنري كورين/ الخيلة المبدعة في ابن العربي/ ص ١١١.
- ٤٧ - شيتك/ ابن العربي ومدرسته/ في كتاب الروحية الإسلامية. (سيد حسين نصر. ص ٥٨.
- ٤٨ - ماجد فخري/ تاريخ الفلسفة الإسلامية/ نيويورك ولندن ١٩٧٠ ص ٢٨٢.
- ٤٩ - ر. أ. نيكلسون/ مصوفوا الإسلام/ ص ١٠٥.
- ٥٠ - ر. أ. نيكلسون/ الشعر والنثر الشرقي/ (كامبريدج ١٩٢٢ ص ١٤٨).
- ٥١ - المثنوي، I وأردة في كتاب هودغسون/ مغامرة الإسلام/ الجزء الثاني ص ٢٥٠.
- ٥٢ - وارد في/ هذا التوق، قصص تعليمية ورسائل مختارة للرومي/ ترجمة كولمان بانكس وجون مولين، بيروت، ١٩٨٨) ص - ٢٠.
- ٥٣ - نشيد الوحدة وأرد في كتاب غيرشوم شولوم/ تيارات أساسية في الصوفية اليهودية/ الجزء الثاني (لندن ١٩٥٥) ص ١٠٨.
- ٥٤ - نفس المصدر السابق ص ١١.
- ٥٥ - في غيرشوم شولوم ترجمة،/ الزهار كتاب السنأ/ (نيويورك ١٩٤٩) ص ٢٧.
- ٥٦ - نفس المصدر السابق.
- ٥٧ - شولوم/ تيارات أساسية في الصوفية اليهودية/ ص ١٣٦.
- ٥٨ - نفس المصدر السابق، ص ١٤٢.
- ٥٩ - وارد في كتاب جي. سي. كلارك/ ماينستر إكهارت، مقدمة لدراسة أعماله مع مجموعة لخطبه/ (لندن ١٩٥٧) ص ٢٨.
- ٦٠ - سيمون توغفيل/ الروحية الدومنيكانية/ في كتاب لويس دويرو دون - ي، سلايرز/ الروحية المسيحية/ III (نيويورك ولندن ١٩٨٩)، ص ٢٨.

- ٦١ - وارد في كتاب كلارك /مايستر إكهارت/ ص ٤٠ .
 ٦٢ - عظة Qwi Audit menon confundrtur في ر. ب. بليكني ترجمة /مايستر إكهارت ترجمة
 جديدة/ (نيويورك ١٩٥٧) ص ٢٠٤ .
 ٦٣ - نفس المصدر السابق ص ٢٢٨ .
 ٦٤ - في الانفصال/ في كتاب ادموند كوليدج وبيرنارد ماكنين (ترجمة وتفسير) مايستر إكهارت
 الخطب الأساسية، شروحات كتيبات ودفاع /لندن ١٩٨١) ص ٨٧ .
 ٦٥ - ثيوفانز D ٩٣٢ P,G
 ٦٦ - مواظ ، ١٦ .
 ٦٧ - الثالوث ، ١ ، ٣ ، ٤٧ .

الفصل الثامن

- ١ - مجمع الرسائل وارد في كتاب ماجد فخري/ تاريخ الفلسفة الإسلامية / (نيويورك ولندن) ١٩٧٠
 ص ٣٥١ .
 ٢ - مارشال ج. س. هودغسون/مغامرة الإسلام، الوجدان والتاريخ في الحضارة العالمية/ ثلاث
 مجلدات (شيكاغو، ١٩٧٤)، الجزء الثاني ص ٣٣٤ - ٣٦٠ .
 ٣ - كتاب الحكمة العرشية، ورد في كتاب هنري كورين/ الجسم الروحاني والأرض السماوية من
 إيران المزدكية إلى إيران الشيعية/ ترجمة ناتسي بيرسون، (لندن، ١٩٩٠) ص ١٦٦ .
 ٤ - ورد في م. س. رشيد/ مفهوم إقبال لله (لندن ١٩٨١) ص ١٠٣ - ١٠٤ .
 ٥ - ورد في غرشوم شولوم /تبارت رئيسية في الصوفية اليهودية، (لندن ١٩٥٥) ص ٢٥٣ .
 ٦ - نفس المصدر السابق، لمزيد من المعلومات عن القبالية اليهودية انظر أيضاً كتاب شولوم/ فكرة
 المسيح المنتظر في اليهودية ومقالات أخرى في الروحانية المسيحية/ نيويورك ١٩٧١) ص ٤٣ -
 ٤٨ .
 ٧ - جبل التأمل، ٤ .
 ٨ - توماس أكيميس /محاكاة المسيح/ ترجمة ليو شيرلي بول، هارموندسورث ١٩٥٣، I، ص ٢٧ .
 ٩ - ريتشارد كيكهاوز /تبارت رئيسية في التقوى في أواخر العصور الوسطى/ في جبل رايت/
 الروحانية للمسيحية: أواخر العصور الوسطى وفرة الإصلاح/ (نيويورك ولندن ١٩٨٩) ص ٨٧ .
 ١٠ - جوليان النرويشية /الهامات الحب الإلهي/ (ترجمة كليفتون ولترز)، (لندن ١٩٨١) ص ١٥
 ٨٧ - ٨٨ .
 ١١ - Enconium Sancti Tomae Aquinatis ورد في كتاب وليم. جيم. باوسوم /روحانية النزعة
 الإنسانية في عصر النهضة/ في كتاب رايت/ الروحانية المسيحية: ص ٢٤٤ .
 ١٢ - رسالة إلى أخيه جيراردو ٢ كانون الأول سنة ١٣٤٨ في كتاب دافيد توميسون /بترارك، داعية
 إنساني بين أمراء: موسوعة رسائل بترارك وترجمات من أعماله/ (نيويورك ١٩٧١) ص ٩٠ .
 ١٣ - ورد في كتاب شارلز ترنكاوس /الشاعر فيلسوفاً: بترارك وتكوين الوعي النهضة/ (نيوهافن،
 ١٩٧٩) ص ٨٧ .
 ١٤ - من جهل المعارف I، ٢٢ .
 ١٥ - في الإمكانية والوجود في الله، ١٧ ، ٥ .

- ١٦ - نورمان كوهن شياطين أوروبا الداعيلين (لندن، ١٩٧٦).
- ١٧ - ورد في كتاب ألستري، مآكرات/ الفكر الإصلاحى، مقدمة (أو كسفورد ونيويورك، ١٩٨٨) ص ٧٣ .
- ١٨ - تعليق على المزامير ٩٠ ، ٣ .
- ١٩ - تعليق على الغلاطيين ٣ ، ١٩ .
- ٢٠ - ورد في مآكرات/ الفكر الإصلاحى/ ص ٧٤ .
- ٢١ - رسائل إلى أهل كورنث I، ١ ، ٢٥ .
- ٢٢ - جلدال هايدلبيرغ، ٢١ .
- ٢٣ - نفس المصدر السابق ١٩ - ٢٠ .
- ٢٤ - نفس المصدر السابق.
- ٢٥ - ورد في كتاب جاروسلاف بيليكان/ التراث المسيحى، تاريخ تطور العقيدة /٥ أجزاء/ IV: إصلاح الكنيسة والعقيدة/ (شيكاغو ولندن ١٩٨٤)، ص ١٥٦ .
- ٢٦ - تعليق على الغلاطيين ٢ ، ١٦ .
- ٢٧ - خطب أخلاقية ٥ .
- ٢٨ - كتيب العقيدة ٢ ، ٤ ورد في كتاب بيليكان /إصلاح الكنيسة/ ص ١٦١ .
- ٢٩ - ألستري. مآكرات/ حياة جون كالفن، دراسة في تشكل الثقافة الغربية، (أو كسفورد ١٩٩٠) ص ٧ .
- ٣٠ - ورد في مآكرات نفس المصدر السابق ص ٢٥١٠ .
- ٣١ - معاهد الدين المسيحى، ١ ، ١٣ ، ٢ .
- ٣٢ - ورد في كتاب بيليكان /إصلاح الكنيسة، ص ٣٢٧ .
- ٣٣ - زبتر بندورف نفس المصدر السابق ص ٣٢٦ .
- ٣٤ - ورد في مآكرات /الفكر الإصلاحى/ ص ٨٧ .
- ٣٥ - مآكرات /حياة كالفن،/ ص ٩٠ .
- ٣٦ - وليم جيمس /تنوعات التجربة الدينية، (مارتن ي. مارتى) (نيويورك وهارموندسورث، ١٩٨٢) ص ١٢٧ - ١٨٥ .
- ٣٧ - جون بوسى /المسيحية في الغرب من عام ١٤٠٠ - ١٧٠٠/ (أو كسفورد ونيويورك ١٩٨٥)، ص ٩٦ .
- ٣٨ - مآكرات/ حياة كالفن/ ص ٢٠٩ - ٢٤٥ .
- ٣٩ - ر. م. لفلانك/ الروحانية البيوريتانية: البحث عن كنيسة نالها الإصلاح بحق/ في كتاب لويس دوبرودون ي. ساليرز/ الروحانية المسيحية: بعد حركة الإصلاح والمصور الحديثة/ (نيويورك ولندن، ١٩٨٩)، ص ٣١٣ .
- ٤٠ - التلميذات الروحية ٢٣٠ .
- ٤١ - ورد في هوغو وايتنر س. جي/ اللاهوتى اغناطيوس (ترجمة ميشيل بارى) (لندن ١٩٨٦) ص ٢٣ .
- ٤٢ - ورد في كتاب بيليكان/ العقيدة المسيحية والثقافة الحديثة/ منذ عام ١٧٠٠ (شيكاغو ولندن ١٩٨٩) ص ٣٩ .

- ٤٣ - لوسيان فينر/ مشكلة عدم الإيمان في القرن السادس عشر، دين رابله (ترجمة بياتريس غوتليب)، (كامبريدج ماس، ولندن ١٩٨٢) ص ٣٥١ .
- ٤٤ - نفس المصدر السابق ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .
- ٤٥ - ورد في جي. سي. ديفس /الخوف، والأسطورة والتاريخ، الرانترز والمؤرخين/ (كامبريدج ١٩٨٦) ص ١١٤ .
- ٤٦ - ماكارت /حياة جون كالفن/ ص ١٣١ .
- ٤٧ - ورد في روبرت س. ويسمان /كوبورنيكوس والكنائس/ في كتاب دافيد سي ليندبيرغ ورونالدي. غيمز /الله والطبيعة، مقالات تاريخية في المواجهة بين المسيحية والعلم/ (بيركلي، لوس أنجلوس ولندن، ١٩٨٦) ص ٨٧ .
- ٤٨ - النشيد ٩٣: ١ ، الكنسي ١: ٥ ، النشيد ١٠٤: ١٩ .
- ٤٩ - وليم ر. شيا /غاليلو والكنيسة/ في ليندبيرغ وغيمز/، الله والطبيعة/ ص ١٢٥ .

الفصل التاسع

- ١ - نص مأخوذة من كتاب هلياز باسكال /التأملات/، ترجمة أكارليشمائين (لندن ١٩٦٦)، ص ٣٠٩ .
- ٢ - التأملات ٩١٩ .
- ٣ - نفس المصدر السابق ص ١٩٨ .
- ٤ - نفس المصدر السابق ص ٤١٨ .
- ٥ - نفس المصدر السابق ص ٩١٩ .
- ٦ - نفس المصدر السابق ص ٤١٨ .
- ٧ - رسائل إلى أهل رومية ١: ١٩ - ٢٠ .
- ٨ - رينيه ديكارت/ حوار في الطريقة، الخ ترجمة جي فيتش (لندن ١٩١٢)، ٢، ٦، ١٩ .
- ٩ - رينيه ديكارت / حوار في الطريقة/ والبصريات والهندسة والأرصاء الجوية/ ترجمة بول. جي أولسكامب (انديانا بوليس، ١٩٦٥) ص ٢٦٣ .
- ١٠ - نفس المصدر السابق ص ٣٦١ .
- ١١ - ورد في كتاب آر. هول ول. تيلنغ /مراسلات اسحق نيوتن/ ثلاثة أجزاء (كامبريدج، ١٩٥٩ - ١٩٧٧)، ١٠ كانون الأول ١٦٩٢ ، الجزء الثالث ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
- ١٢ - كانون الثاني ١٧ منه - ١٦٩٣ نفس المصدر ص ٢٤٠ .
- ١٣ - اسحق نيوتن /فلسفة الأساس الرياضي للطبيعة/ (ترجمة أندرو موت ومراجعة فلوريان كاجافي) بيركلي، ١٩٣٤ ص ٣٤٤ - ٣٤٦ .
- ١٤ - تشوه /الكتاب المقدس/ ورد في كتاب ريتشارد إس. ويستفول /نهوض العلم وسقوط المسيحية الأوروذكسية./ دراسة (كييلر وديكارت ونيوتن في كتاب دافيد سي ليندبيرغ ورونالد ل. غيمز/ الله والطبيعة، مقالات تاريخية حول المواجهة بين المسيحية والعلم/ (بيركلي لوس أنجلوس ولندن، ١٩٨٦) ص ٢٣١ .
- ١٥ - نفس المصدر السابق ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

- ١٦ - ورد في كتاب جازوسلاف نيليكان / التراث المسيحي، تاريخ تطور المعتقد/ خمسة أجزاء، الجزء الخامس /المعتقد المسيحي والثقافة الحديثة منذ ١٧٠٠ (شيكاغو ولندن ١٩٨٩) ص ٦٦ .
- ١٧ - نفس المصدر السابق ص ١٠٥ .
- ١٨ - نفس المصدر السابق ص ١٠١ .
- ١٩ - نفس المصدر السابق ص ١٠٣ .
- ٢٠ - الفردوس المفقود، الجزء الثالث الأبيات ١١٣ - ١١٩ ، ١٢٤ - ١٢٨ .
- ٢١ - فرانسوا ماري دي فولتير القاموس الفلسفي (ترجمة تيودور بيسترمات) (لندن ١٩٧٢) ص ٣٥٧ .
- ٢٢ - نفس المصدر السابق ص ٥٧ .
- ٢٣ - ورد في كتاب بول جونسون /تاريخ اليهود/ (لندن، ١٩٨٧)، ص ٢٩٠ .
- ٢٤ - باروخ اسبينوزا /كتيب سياسي - لاهوتي/ (ترجمة) هـ. م. إلويس (نيويورك ١٩٥١) ص ٦ .
- ٢٥ - ورد في بيليكان/ العقيدة المسيحية والثقافة الحديثة/ ص ٦٠ .
- ٢٦ - نفس المصدر السابق ص ١١٠ .
- ٢٧ - ورد في شرود لإيوت رايت /البقطة الروحية: مؤلفات كلاسيكية من تقوى القرن الثامن عشر لتلهم وتساعد القارئ في القرن العشرين/ (ترفع، ١٩٨٨) ص ٩ .
- ٢٨ - ألبرت سي أوتلر / جون ويزلي: كتاباته/ مجلدات (أوكسفورد ونيويورك ١٩٦٤) ص ١٩٤ - ١٩٦ .
- ٢٩ - نيليكان /العقيدة للمسيحية والثقافة الحديثة/ ص ١٢٥ .
- ٣٠ - نفس المصدر السابق ص ١٢٦ .
- ٣١ - ورد في كتاب جورج تيكل إس جي/ حياة المباركة مارغريت ماري/ (لندن ١٨٩٠) ص ٢٥٨ .
- ٣٢ - نفس المصدر السابق ص ٢٢١ .
- ٣٣ - صموئيل شو /الاشتراك مع الله/ ورد في كتاب ألبرت سي أوتلر/ التقوية والامتتارة. بدائل للتراث/ في كتاب لويس دوبرو دون إي ساليرز /الروحانية المسيحية أما بعد فترة الإصلاح والفترة الحديثة (نيويورك ولندن، ١٩٨٩) ص ٢٤٥ .
- ٣٤ - نفس المصدر ص ٢٤٨ .
- ٣٥ - نورمان كوهن/ السعي وراء الذكرى الألفية، الألف الثورية، والفوضيون الصوفيون في العصور الوسطى/ (لندن، ١٩٧٠ ، ص ١٧٢).
- ٣٦ - نفس المصدر السابق ص ١٧٣ .
- ٣٧ - نفس المصدر السابق ص ١٧٤ .
- ٣٨ - نفس المصدر السابق ص ٢٩٠ .
- ٣٩ - نفس المصدر السابق ص ٣٠٣ .
- ٤٠ - نفس المصدر السابق ص ٣٠٤ .
- ٤١ - نفس المصدر السابق ص ٣٠٥ .
- ٤٢ - واردة في كتاب رايت /البقطة الروحية/ ص ١١٠ .
- ٤٣ - ورد في نفس المصدر السابق ص ١١٣ .
- ٤٤ - ألن هيماز /الدين والعقل الأمريكي، من البقطة الكبرى إلى الثورة/ كامبريدج، ماس ١٩٦٨)

- ص ٤٣ .
- ٤٥ - مقالة في الثالوث وردت في المصدر السابق ص ٦٢ - ٦٣ .
- ٤٦ - ورد في نفس المصدر السابق ص ١٠١ .
- ٤٧ - ملاحظات اسكندر غوردون وصموئيل كوينسي وردت في المصدر السابق ص ١٦٧ .
- ٤٨ - غيرشوم شوليم/ شيتاي زيفي، (يرنستون، ١٩٧٣).
- ٤٩ - ورد في كتاب غرشوم شوليم/ الخلاص عبر الذنب/ في الفكرة بالمسيح المخلص في اليهودية ومقالات أخرى حول الروحانية اليهودية/ نيويورك، ١٩٧٠، لندن، ص ١٤٢ .
- ٥٠ - نفس المصدر السابق ص ١٣٠ .
- ٥١ - نفس المصدر السابق
- ٥٢ - نفس المصدر السابق
- ٥٣ - نفس المصدر السابق ص ١٣٦ .
- ٥٤ - ورد في شوليم/ إحيادية المسيحية المخلصة في الهاديسية المبكرة/ ص ١٩٠ .
- ٥٥ - شوليم/ المشاركة مع الله/ نفس المصدر ص ٢٠٧ .
- ٥٦ - لويس جاكوبس/ رفع الجمرات إلى أعلى/ في كتاب آرثر غرين/ الروحانية اليهودية/ (لندن ١٩٨٨، ١٩٨٨) الجزء الثاني ص ١١٨ - ١٢١ .
- ٥٧ - نفس المصدر السابق ص ١٢٥ .
- ٥٨ - شوليم/ فكرة للمسيحية المخلصة في اليهودية/ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
- ٥٩ - آرثر غرين/ تيولوجيا القيادة وصديق الهاديسية في الروحانية للمسيحية/ الجزء الثاني ص ١٣٢ .
- ٦٠ - (ترجمة ر. جي. زا. فيرابلوسكي) في كتاب لويس جاكوبس المتصوفون اليهود (أورشليم، ١٩٧٦ ولندن ١٩٩٠) ص ١٧١ .
- ٦١ - نفس المصدر السابق ص ١٧٤ .
- ٦٢ - آرنولد هـ. توينبي/ دراسة التاريخ/ ١٢ جزءاً، (أوكسفورد ١٩٣٤ - ١٩٦١) الجزء العاشر ص ١٢٨ .
- ٦٣ - ألبرت آينشتاين/ غريبة هي حالتنا هنا على الأرض/ في كتاب جاكوبس هيليكان الفكر الديني الحديث/ بوسطن ١٩٩٠ ص ٢٠٤ .
- ٦٤ - ورد في راشيل إلين/ Habad: الصعود التأمل إلى الله/ في كتاب غرين/ الروحانية اليهودية/ الجزء الثاني ص ١٦١ .
- ٦٥ - نفس المصدر السابق ص ١٩٦ .
- ٦٦ - ورد في كتاب ميشيل جي بكلي/ في أصول الإلحاد الحديث/ (نيوهافن ولندن، ١٩٨٧) ص ٢٢٥ .
- ٦٧ - رسالة إلى العميان كي يراها للمصرون/ في كتاب مارغريت جورديان ترجمة/ ديدرو وأعماله الفلسفية الأولى (شيكاغو، ١٩٦٦ ص ١١٣ - ١١٤).
- ٦٨ - بول هنريش دتريش بارون دو هولباخ/ منهج الطبيعة: أو قوانين العالم المادي والأخلاقي / ترجمة هـ. د. رونستون في جزأين.
- (تريبورك، ١٨٣٥) الجزء الأول ص ٢٢ .
- ٦٩ - نفس المصدر السابق الجزء الثاني ص ٢٢٧ .

- ٧٠ - نفس المصدر السابق الجزء الأول ص ١٧٤ .
٧١ - نفس المصدر السابق الجزء الثاني ص ٢٣٢ .

الفصل العاشر

- ١ - م. هـ. أيرازم /الظاهر مافوق الطبيعية: التراث والنورة في الأدب الرومانسي/ (نيويورك ١٩٧١)، ص ٦٦ .
٢ - تشرين الثاني ٢٢ منه عام ١٨١٢ في/ رسائل جون كيتس/ المجلد الثاني كامبردج ١٩٥٨ ص ١٨٤ - ١٨٥ .
٣ - الى جورج وتوماس كيتس ٢١ كانون أول ١٨١٧ ص ١٩١ .
٤ - الاستهلال، الجزء الثاني، ٢٦٥ - ٢٦٤ .
٥ - أهبك نظمت على بعد أميال فوق تترون أبي، ٣٧ - ٤٩ .
٦ - /جلد وإجابة/ ، /الطاولات المقلوبة/ .
٧ - تترون أبي ٩٤ - ١٠٢ .
٨ - أغنية الى واجب، الاستهلال، المقطع ١٢ ، ٣١٦ .
٩ - مقدمة الى /الناشيد التجربة/ ٦ - ١٠ .
١٠ - أورشلهم ٣٣ : ١ - ٢٤ .
١١ - المصدر السابق ٩٦ : ٢٣ - ٢٨ .
١٢ - ف. د. ي. شيلر مانتر، /الإيمان المسيحي/ (ترجمة هـ. ر. ماكينتوش و جي. سي. ستوارد) إيدنبرغ (١٩٢٨) .
١٣ - المصدر السابق ص ١٢ .
١٤ - ألبرت ريتشل /اللاهوت والميتافيزيقا/ (يون ١٩٢٩) ص ٢٩ .
١٥ - وارد في كتاب جون ماكوراي /التفكير بالله/ (لندن ١٩٧٨) ص ١٦٢ .
١٦ - /مساهمة لنقد فلسفة هيغل حول الحق/ في جاروسلاف بيليكان /الفكر الديني الحديث (بوسطن ١٩٩٠) ص ٨٠ .
١٧ - فريدرش نيتشه /المعلم والمرح/ (نيويورك ١٩٧٤) رقم ١٢٥ .
١٨ - فريدرش نيتشه /التقيض للمسيح في /شفق الآلهة والتقيض للمسيح/ (ترجمة ر. جي. هولنغ ديل)، (لندن ١٩٦٨)، ص ١٦٣ .
١٩ - سيفمولد فريد /استقبل خلداع (طبعة نموذجية) ص ٥٦ .
٢٠ - فريدرش نيتشه /هكذا تكلم زرادشت، كتاب لكل امرئ ولا لأحد/ ترجمة ر. جي. هولنغ ديل، لندن ١٩٦١ ، ص ٢١٧ .
٢١ - ألفرد، لورد تينيسون، في الذكرى ١٨ - ٢٠ .
٢٢ - وردت عند وليام هاملتون في /التفاضلية الجديدة - من بروفوك الى رنغو/ في توماس جي جي آلترز، ووليم هاملتون/ لاهوت جلوي وموت الله/ نيويورك و لندن ١٩٦٦ .
٢٣ - ميشيل غيلسان / التعرف على الإسلام، الدين والمجتمع في الشرق الأوسط الحديث/ (لندن ونيويورك ١٩٨٥) ص ٣٨ .
٢٤ - إيفان بارنغ، لورد كرومر /مصر الحديثة/ جزعان (نيويورك ١٩٠٨) الجزء الثاني ص ١٤٦ .

- ٢٥ - روي مورتاهيدا /عبادة النبي، الدين والسياسة في إيران/ (لندن ١٩٨٥) ص ١٨٣ - ١٨٤ .
- ٢٦ - /رسالات التوحيد/ وردت في كتاب ماجد فخري /تاريخ الفلسفة الإسلامية/ (نيويورك و لندن ١٩٧١) ص ٣٧٨ .
- ٢٧ - ويلفرد كانتويل سميت /الإسلام في التاريخ الحديث/ (برنستون و لندن ١٩٥٧) ص ٩٥ .
- ٢٨ - المصدر السابق ص ١٤٦ ، ١٢٣ - ١٦٠ من أجل تحليل الزهار .
- ٢٩ - وردت في /أيزر شو ويد /أرض إسرائيل: وطن قومي أو أرض مصير/ (ترجمة دييورة غريمان، نيويورك ١٩٨٥ ، ص ١٥٨ .
- ٣٠ - المصدر السابق ص ١٤٣ .
- ٣١ - Avodah ، ١ - ٨ ترجمة - ت. كرمي /بنجوان بوك للشعر العبري/ (لندن ١٩٨١) ص ٥٣٤
- ٣٢ - /خدمة الله/ وردت في بن زيون بوكسر (ترجمة) الكتابات الأساسية لابراهيم اسحاق كوك/ (رويك ن. لا. ١٩٨٨)، ص ٥٠ .
- ٣٣ - /إيلي ويزل /ليل/ ترجمة ستيل رودوي) هارموندسورت (١٩٨١) ص ٤٥ .
- ٣٤ - المصدر السابق ص ٧٦ - ٧٧ .

الفصل الحادي عشر

- ١ - بيتر بيرغر
- ٢ - أ. جي. إير /اللغة، الحقيقة والمنطق/ هارموندسورت ١٩٧٤ ، ص ١٥٢ .
- ٣ - ويلفرد كانتويل سميت /المعتقد والتاريخ/ شارلو تسيغيل ١٩٨٥ ، ص ١٠ .
- ٤ - توماس جي. جي. آلترز /الإنجيل الإلحادية المسيحية/ لندن ١٩٦٦ ، ص ١٣٦ .
- ٥ - بول فان بوران /المعنى الديني/ لندن ١٩٦٣ ، ص ١٣٨ .
- ٦ - ريتشارد روبنشتاين /بعد أوشفيتز، لاهوت جذري ويهودية معاصرة
- ٧ - بول تيليش /اللاهوت والثقافة/ نيويورك و أكسفورد ١٩٦٤ ص ١٢٩ .
- ٨ - ألفرد نورث أيتيهد /العائلة والوجود في /مغامرات أفكار/ دهارموندسورت ١٩٤٢، ص ١٩١ - ١٩٢ .
- ٩ - /السيرورة والواقع/ كامبريدج ١٩٢٩ ص ٤٩٧ .
- ١٠ - علي شريعتي /الحج/ ترجمة لالة بختيار، طهران ١٩٨٨ ، ص ٤٦ .
- ١١ - المصدر السابق ص ٤٨ .
- ١٢ - مارتن بوير
- ١٣ - وردت في رفايل ميرغوي وفيليا سيمونوت /آيات الله في إسرائيل، ماثير كاهانا واليمين للتطرف في إسرائيل (لندن ١٩٨٧) .
- ١٤ - المسؤولية الشخصية هامة أيضاً في المسيحية، لكن أكدت اليهودية والإسلام عليها لعدم وجود كهنوت متأمل، منظور قام به المصلحون البروتستانتيون.
- ١٥ - فيليب فرانك /آينشتاين: حياته وعصره/ نيويورك ١٩٤٧ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

من إصدارات الدار

- أصداء الزمن - كفاح الكنيسة من أجل الوجود
 (صراعاتها الداخلية والخارجية) تأليف جان دويراسيسكي
- الحريم السياسي (النبي والنساء) تأليف فاطمة المريني
- السلطانات المنسيات (نساء رئيسات دولة في الإسلام)
 عمل الدعاة الإسلاميين (في العصر العباسي) تأليف فاطمة المريني
- العنف والمقدس تأليف خير الله سعيد
- العشق الجنسي والمقدس تأليف رينيه جيرار
- المبودية تأليف فيليب كامبي
- على خطى الصليبيين تأليف موريس لانجليه
- من الرعي الاسطوري الى بدايات التفكير الفلسفي النظري
 (بلاد ما بين النهرين تحديداً) تأليف كلود كاهن
- معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية
 في نهاية القرن السادس عشر تأليف عبد الباسط سيدا
- فلسطين والفلسطينيون تأليف د. محمد م. الارناؤوط
- مديح الاختلاف (الوراثيات والبشر) تأليف باميلا آن سميت
- مأساة العقل العربي تأليف البير جاكار
- زمن النص تأليف د. جمال الدين الخضور
- السيادة تأليف د. جمال الدين الخضور
- شكسبير والدراما تأليف عبد الهادي عباس
- الفن عند الانسان البدائي تأليف ليف تولستوي
- قضايا الإبداع في قصيدة النثر تأليف يان إيليك
- ما هو الفن تأليف يوسف حامد جابر
- علم الهارمونية تأليف ليف تولستوي
- الفيستار (قصيات عزف السلام) تأليف د. محمد عزيز شاكر
- الصولفيج الغنائي والإيقاعي الفوري تأليف د. محمد عزيز شاكر
- طريقة مونتسوري في تربية الطفولة المبكرة للأم والمعلمة تأليف ماكس باتكه
- تأليف إليزابيت ج. هينستوك

من إصدارات ١٩٩٦

تأليف : كارين أرمسترونغ	الله والانسان على امتداد ٤٠٠٠ عام
تأليف : ألكسندر كرافتشوك	الوثنية والمسيحية
تأليف : آلان فرانثورث	مدخل إلى القانون الاميريكي
تأليف : د. سليمان حريثاني	الموقف من الحمة

سيصدر عن الدار

تأليف : د. سليمان حريثاني	الجهادي والقيان
تأليف : الياس مرقص	نقد العقلاية العربية
تأليف : جان بواتيرو	ولادة إله
تأليف : كارين أرمسترونغ	محمد وجهة نظر غربية لفهم الإسلام

هذا الكتاب بانوراما واسعة تضيء ساحة الفكر الديني وساحة رؤى المفكرين (لاهوريون كانوا أم صوفيون وفلاسفة) نحو الله وتضم هذه الرؤى تنوعاً كبيراً وتبايناً حتى في داخل الدين الواحد.

ما طبيعة الله؟ ماصفاتة؟ أين يقيم؟ في السماء أم في الأرض؟ أم أنه يقيم في الأعماق العميقة داخل الانسان (الدنيا كلها لاتعني وإنما يعني قلب عبدي المؤمن)؟ أهو شيء لا كالأشياء أم لاشيء؟.... كثيرون من يتقدمون للإجابة: من أرسطو اليونان مروراً بأفلوطين النصف وثني النصف مسيحي والجامع الكنسية وأوغسطين ثم بفلاسفة ولاهوتي الإسلام وصوفيه: ابن سينا، الفارابي، أبو بكر الرازي، ابن حنبل، الأشعري، السهروردي، ابن عربي، الحلاج ... ومفكري اليهود وأحبارهم في العصور الوسطى انتهاءً بالمفكرين والفلاسفة في العصر الحديث من دينيين ولادينيين: توما الأكويني، ابن تيمية الدمشقي، ابن القيم الجوزية ثم في عهد أقرب: ديكاوت، هيفل، فيورباخ، كانط، نيوتن، محمد إقبال، الأفغاني، محمد عبده...

والغرب الذي حاول التوازن بعد عنفه الذي فرض فيه العقيدة، نراه يفقد التوازن من جديد لكن باتجاه معاكس فيطغى 'الدينوي' على الديني ويتم السعي إلى إنهاء سلطة الله المطلقة على البشر حتى لو كان موجوداً كما كانوا يقولون.

واليهودية الضائعة في الشتات، الباحثة عن المخلص الذي وعدهم الله به منذ الأزمان القديمة، اليهودية هذه تغتر على مخلصها: توجه الأفئدة إلى /شبتاي زيفي/ الذي أعلن نفسه المسيح المنتظر. ولكن بالخيب والمرارة حين يرون مسيحهم يستسلم أمام السلطان العثماني ويعلم أن إسلامه. ومع العنف الغربي بالاتجاه المعاكس يبدأ الانهيار في اليهودية وتفقد ثقتها بالله. ورغم الاهتزاز العنيف الذي تعرضت له اليهودية والمسيحية الغربية جرّاء تلك التطورات العنيفة التي عصفت بالغرب ورغم إعلان الحبر اليهودي إدانته لله إلا أنه أعلن انتهاء المحاكمة ونظر إلى أعلى وقال: حان وقت الصلاة.

وبالنظر الشمولية التي يقدمها هذا الكتاب إضافة إلى ما يمتلكه القارئ من ذخيرة يمكن أن يكون نظرة معرفية تملو بقدر مايشهد همته على الأخذ من جماليات كل الطرق ليتبين الطريق الموصل إلى برّ الأمان.

الناشر

